

تفسير
عرائس البيان
في
حقائق القرآن

تأليف
الشيخ الطائف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقائي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تمقيقه
للإمام أبي محمد فريد الدين رازي

المجلد الثاني

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"



دار الكتب العلمية

أسسها معهد علي بن يقطين سنة ١٩٧٤

بيروت - لبنان

HY HUMANISTISEN TIEDEKUNNAN KIRJASTO



107 207 4229

عَمَّا رَأَى الْبَيَّانُ فِي حَقَائِقِ الْقُرْآنِ

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روضيهان بن أبي نصر البقاي
المتوفى ٦٦٦ هـ

تمت
الشيخ أحمد فريد الزبيدي

المجلد الثاني

المحتوى :

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"

Title : 'Arâ'is al-Bayân
fi Ḥaqā'iq al-Qur'ân
classification: *Exegesis of the Qur'an*

Author : Rūzbahān al-Baqī
Editor : Ahmad Farid al-Mizyadī
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1^{re}



دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب كاملاً أو
جزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Amoun, al-Qusbaq,	عزمون ، القبة ،
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Mail: +961 5 804 810/11/12	هاتف: ٨١٠/٨١١/٨١٢ ٥ ٩٦١
Fax +961 5 804813	فاكس: ٨١٣ ٥ ٩٦١
P.o.Box:11-9424 Beirut-Lebanon	ص.ب ٩٤٢٤ ١١ بيروت - لبنان
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

الكتاب : عرائس البيان
في حقائق القرآن

التصنيف : تفسير قرآن

المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات : 1664 (3 أجزاء)

سنة الطباعة : 2008

بلد الطباعة : لبنان

الطبعة الأولى : (لبنان)



<http://www.al-ilmiyah.com>
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ٢ ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَتَنًا لِّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٣ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ٤ ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٥ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْتَغِهِ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ٧ ﴿﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
افهم أن الوفاء بالعقود، وعهود المعرفة والمحبة والعبودية، لا يأتي إلا من شاهد الربوبية حين خرج من العدم بنور القدم، ومن خلا من المحبة، وعشق القديم فليس له عهد، والوفاء بالعقد.

وكيف يكون منهم الوفاء وهم عن ساحة الكبرياء مطردون إلى الأبد هم من وصال الحق غير مقبولين، قد برء الحق من أهل الرعونات الذين يعبدون أنفسهم وهواها، والدنيا وزينتها وجاهاها، وقبلها ألزمهم سيات الفراق؛ لخروجهم من عهد الأزل والميثاق، ياليتهم لو أعلموا أداء الفرقة لفنوا من آلام البعد، وأي داء أشد من داء الفراق، وأنشد في هذا المعنى:
وكلُّ مُصِيبَاتِ الزَّمانِ رأيتُها سوى فُرقةِ الأحبابِ هيئةَ الخطْبِ

تقبَّل الله ورسوله كلَّ عذرٍ سوى الشرك؛ لأنَّ الشرك ظلم عظيم، حيث ساوى الحدث بالقدم، ووقعت الفرقة بالبلادة بعد العهود.

وما أشد ذلك لاسيما إذا كانت بغتة على غير رقبة في أزمنة السليمة:

فَتَنبَأْ بِخَيْرٍ وَالدُّنْيَا مَطْمَئِنَّةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالزَّمَانُ ثَقُلُ بَا

كانوا في زمان اليهود على رجاء الوصول، فجازتهم طوارق الغيرة، وأسقطتهم عن نيل المنية، وكان سراج الوصل أزهر بيتنا، فبهت به ربح من البين فانطفأ.
ثم أن الله سبحانه رأى نقض عهودهم بعد أن أمهلهم في زمان يمكن تدارك ما أفاقوا، وذلك ما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾^(١).

وأشفع عليهم بنقض العهد بين جمهور الخلائق، بقوله: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: عرف عباده يوم عيد الأکبر يعني: يوم كانت الأرض والسماء واحداً، بل العرش والكرسي والأرض سواء لكشوف جلاله لنبيه وأوليائه.
قال عليه السلام: «إذا كان يوم عرفة إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة...»^(٢).

بأنه تعالى برئ من المشركين المحجوبين بهوهم عن الله ورسوله، برئ منهم؛ لأن الحبيب يوافق حبيبه في كل مراده، وهكذا يقتضي غيره التوحيد.

قال ابن عطاء: كل من أشرك مع الله فيها لله غير الله فهو منه بريء، ثم من كرمه ورحمته ما أخرجهم عن مربع الرجاء بالكلية، وما قطع جبال الوصال بالجملة حين استتابهم بقوله: ﴿فَإِنْ تُبْتِغْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: إن رجعت من حظوظ أنفسكم من الدنيا إلى حظوظ قلوبكم من مشاهدتي، فهو خير لكم، فإن الخير كل الخير في وصالي وقربتي.
و«التوبة» عند أهل الإشارة: ذهاب الحدثان على الجنان عند مشاهدة قدم الرحمن.

قال أبو عثمان: التوبة مفتاح كل خير ﴿فَإِنْ تُبْتِغْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿١﴾ **﴿أَشْرَوْا بِقَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ﴿٢﴾ **﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ**

(١) إشارة إلى أن للنفس في أرض البشرية سبباً وسياحة لتكميل الأوصاف الأربعة من النباتية والحيوانية والشيطنية والإنسانية التي تتولد بازدياد الروح العلوى الروحاني المفرد والقالب السفلى المركب من العناصر الأربعة. فالنباتية تولد الماء. والحيوانية تولد الريح. والشيطنية تولد النار. والإنسانية تولد التراب فلتنكتمل هذه الصفات أرخيت أزمة النفوس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة. تفسير حقي (٤/٤٨١).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/٢٦٣).

الْمُعْتَدُونَ ﴿١﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْصِلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِيْعِكُمْ
 فَقَتِلُوا أُولَئِكَ الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿٣﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا
 نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ
 أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ قَتِلُواهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَنُفِثَ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ وَيَذْهَبَ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
 يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾
 مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾: وصف الله سبحانه المخالفين بأن
 ليس لهم رعاية أهل الحق، ولا يحترمون أهل المعرفة؛ لقلّة معرفتهم بحرّمات أهل الحضرة،
 وما من الله عليهم من الكرامات السنيّة.

قال محمد بن الفضل: حرمة المؤمن أفضل الحرمات، وتعظيمه أجل الطاعات، قال الله
 تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بيّن الله تعالى أن من
 يخشى غير الله، فلا وزن له في المعرفة، صغر الأعداء في عيون الأولياء؛ لثلا يفرغوا منهم في
 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملا قلوبهم من أنوار هيئته وإجلاله، وحذّره من
 المداينة في الدين، وعرفهم عجز الخلق بعد تعريفهم عزّه وجلاله، أي: تخشونهم، وهم هباء
 في بطش قهر ربوبيّتي، فأنا أهل أن تخشوا مني، فإني بوصف الجبروت قهار قهر كل من
 يبارزني في محاربة أوليائي، وأضاف خشيتهم إلى نفسه بلفظ الجمع على معنى الذات
 والصفات، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: اسم الله: اسم عين الجمع، وهو عين
 الذات والصفات.

قال بعضهم: الخشية للذات، والخوف للصفات.

قال الله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾.

وقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ : خاطب المدعين الذين يظنون أن الحقيقة تحصل بمجرد الدعوى دون التحقق بالمعنى بالتفريع عند حسابهم ومخايلهم، وعرفهم أن من لم يكن باذلاً لوجوده لله، مخلصاً في معرفته بنعت زوال عوارض البشرية، والصدق في صحبته أهل الولاية، فهو على غلط من حسابانه، وفي سهو من حسابه، وذلك تمام الآية بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ^(١)﴾، ثم حذرهم عن دعوى المحال، وما في ضمايرهم من غبار الخيال، بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿٢﴾ *
أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ ﴾ : جمع الله سبحانه جملاً من الخصال الحميدة من الفرائض والسنن، والإيمان والمعرفة، والثقة بوجوده فيمن يجوز له عبارة مجالس أنس العارفين والمحبتين والعابدين والمطمئنين والمراقبين.
وتلك العبارة تكون بخلو قلبه عمّا دون الله عند دخوله في مساجد الله، وطهارة سرّه عن شواغل الطبيعة، وغبار الوسوسة.

قال بعضهم: عمارة المسجد بعمارة القلب عند دخوله بصدق النية، وحسن الطوية وطهارة الباطن لله، كما طهرت ظاهره بأمرك بالله، ودخول المسجد بالخروج عن جميع الأشغال والموانع، فذلك من عمارة المساجد.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا

(١) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سرّ يوالونهم ويثبون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (٢/ ٣٨٨).

ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧﴾ .

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾: أن الله سبحانه وصف المهاجرين في الآية المتقدمة، بخروجهم مما دون الله لوجدان رضوانه، وبشارته بلقائه وغفرانه، وهو تعالى لما وجدهم أسارى سلب مشاهدته، ومقيدّين بأسر محبته، ولم ير في قلوبهم من العرش إلى الثرى غير أنوار الإيقان والعرفان، بشرهم بنفسه بلا واسطة، وإذا كان المبشر واسطة بين الأحباب والحبیب، فهو عظیم كما قيل:

لَوْلَا تَمَتُّعُ مُقَاتِلِي بِلِقَائِهِ لَوَهَبْتُهَا لِبَشِيرِي بِإِيَابِهِ

لا سيما والحبیب هو مبشرهم بنفسه، وبشارته خطاب مع كشف المشاهدة، ومن يطبق أن يسمع بشارته بوصاله مع كشف جماله أن يبقى عند حُسن شهوده، ولذة خطابه، وهذا كما أنشد:

تراءيت لي بالغيب حتى كأننا
أراك وب من هيبسي لك وحشة
وبشرني بالغيب أنك بالكف
فتؤنسني باللطف منك
وتحيي محيا أنت في الحب حفة
وإذ أعجب كون الحياة مع الحنف

بشرهم برحمته، ورحمته كشفت جماله بلا حجاب، وهو أول درجة العارفين، ثم بشرهم بالرضوان، وهو الوصال بنعت المؤانسة بلاكدورة الهجران، ثم بشرهم بدخولهم في جنات قربات الصفات والذات، بنعت تحصيل علوم الأزال والأباد من رؤيتها، والبقاء في نعيمها بنعت الدواء، وأي نعيم، وأي جنة أشرف من تجلي جلالة، وجماله لعرفانه.

بشر المؤمنين بالرحمة، وبشر المطيعين بالجنة، وبشر العارفين بالرضوان والوصلة، وأيضا بشر التائبين بالرحمة، وبشر الصادقين بالمشاهدة، وبشر المحبين بالمجاورة.

قال أبو عثمان: هو الذي يستجلب رضوانه، ورضوانه يوجب مجاورته، ومجاورته توجب النعيم الدائم.

قال الله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ .

ويقال: إن القلوب مجبولة على حب من يبشر بالخير، فأراد الحق سبحانه أن تكون محبة العبد

له سبحانه على الخصوص، فتولّى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْفًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَثُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ فَنَبِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْفًا﴾: أخبر سبحانه أن الأولياء والأصفياء لا تخلو قلوبهم من قوارع خطرات الامتحانية، مع شرفهم بالولاية، واصطفائيتهم بالكرامة؛ ليعلم الحق أن ولايتهم غير مكتسبة بالأعمال، وهذا تعريفه تعالى مواضع نعمه لهم، واختياره لهم المنازل الرفيعة في الأزل، ومعنى الآية أي: حيث تراءى من حولكم وقوتكم، وافتقرتم إليّ، وفقرتم مني إليّ، ونصرتكم على عدوكم بحولي وقوتي حين شاهدتم عزة أزليتي، وجلال أبديتي، وحين نظرتكم إلى حولكم وقوتكم، واحتجبتكم بها عن مشاهدة قدرتي تركتكم مع أنفسكم.

قال جعفر: استجلاب النصر في شيء واحد، وهو الذلّ والافتقار والعجز، لقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: لم تقوموا فيها بأنفسكم، ولم تشهدوا قوتكم وكثرتكم، وعلمتم أن النصر لا يوجد بالقوة، وأن الله هو الناصر المعين، ومتى علم العبد حقيقة ضعفه نصره الله، وحلول الخذلان بشيء واحد، وهو العجب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْفًا﴾، فلما عاينوا القدر من أنفسهم دون الله، رامهم الله بالهزيمة، وضيق الأرض عليهم.

﴿ثُمَّ وَآتَيْنَا مُذِيرِينَ﴾: موكولين إلى حولكم وقوتكم وكثرتكم، فلما رأى تقصيرهم بصرف عيونهم عن مشاهدة الله إلى أنفسهم طرفة عين، وندموا على ذلك، ورجعوا بعد الامتحان إلى ساحة الرحمن ألبسهم الله أنوار قربه، وكساهم سنا قدرته وهيبته، ولذت قلوبهم بحسن عنايته حتى قويت بها في احتمالها أثقال عبوديته^(١)، وبَيَّن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: والإشارة فيه إلى أن قلب نبيه ﷺ كان لم يغل أيضاً من شواهد امتحانه؛ لأن الحق حق، والخلق خلق؛ ولذلك قال: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

كان عليه الصلاة والسلام في مثل ذلك يقول: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢).

﴿سَكِينَتُهُ﴾: زيادة أنوار كشف مشاهدة الله له حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفايته الأزلية، وأمنه من مكره لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحار القدم لم ير للحدث أثراً، ورأى الحدثن متلاشية في قبض بطش العظمة، ففرغ منه به، فأواه الله منه إليه حتى سكن به عنه سكينته بالدنو، حيث قال: ﴿ثُمَّ ذَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، وثباته بدنو الدنو، بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، فلما وصفه بالمرتبة الأعلى، والمشاهدة الأدنى، وسكينة قربه الأصفى، زاد في وصفه حين لم ير في مشاهدة القدم ما خرج من العدم، بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] سكينته كانت من رؤية الذات، وسكينة المؤمنين من رؤية الصفات.

قال بعضهم: السكينة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ هي التي أظهر عليها ليل المسرى عند سدرة المنتهى، فما زاغ، وما طغى، بل السكينة إقامة مقام الدنو، بحسن الأدب ناظراً إلى الحق، مستمعاً منه، مثنيّاً به عليه، بقوله: «التحيات لله»^(٣).

والسكينة التي نزلت على المؤمنين، هي سكون قلوبهم إلى ما يأتيهم به المصطفى ﷺ من

(١) قال القشيري: يعني نصرّكم يوم حُتِنَ حين تَفَرَّقَ أكثر الأصحاب، وافترت أنياب الكثرة عن نقاب القهر فاضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها، ولم تُغْنِ عنكم كثرتكم، فاستخلص الله أسراركم - عند صدق الرجوع إليه - بحُسن السكينة النازلة عليكم، فَغَلَبَ اللهُ الأمر على الأعداء، وَخَفَقَتْ رَايَاتُ النصر، ووقعت الدائرة على الكفار، وارتدَّتْ الهزيمة عليهم فرجعوا صاغرين.

(٢) تقدم تحريجه.

(٣) رواه البخاري (٢٨٦/١)، ومسلم (٣٠١/١).

وعد ووعد، وبشارة وحكم.

وقيل: السكينة المقام مع الله بفناء الحظوظ.

قال الأستاذ: السكينة استحكام القلب عند جريان حكم الرب بنعت الطمأنينة، وبخمود آثار البشرية بالكليّة، والرضا بالبادي من الغيب من غير معارضة واختيار. ويقال: السكينة الفرار على بساط الشهود بشواهد التأديب، بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة، ولا تحرك عرق بمعارضة حكم، وذكر تمام نعمه بإنزال الملائكة عليهم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾.

وفي لطيف الإشارة «الجنود»: روادف آثار قوة تجلّي الحق بغير الاحتجاب، ونعت الانقطاع.

قال الأستاذ: الجنود ههنا وفود اليقين، وزوائد الاستبصار، ثم إن الله سبحانه وصف من كان مجبولاً في الأزل بيسمة السعادة، وبقي في حجاب النكرة، يخرج به أنوار سوابق حكمه من ظلمات قهره، بقوله تعالى: ﴿تُكْرِمُونَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾: كشف لهم ما غاب عنهم من أنوار معدن الغيب، وهداهم بها إلى محلّ شهود الحضرة، ومنّ عليهم بكشف المشاهدة، وأوصلهم إليه بالرحمة، وسرّهم بوصله عن غير الفرقة، وذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ما أكرم مولانا تعالى سبقت رحمته ومغفرته لعباده في الأزل، مع علمه بما يبدو منهم من العصيان، ولم يكن عليهم غضباً، ولم يسلب منهم غفراناً، سبحانه ما ألطفه سبحانه.

قال الأستاذ: ردّهم من الجهل إلى حقائق العلم، ثم نقلهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين.

ثم إن الله أعلمنا بفضل أن من لم يكن خاطره مطهراً بمياه التوحيد من بحر التفريد من أدناس الوسوس، ورياء الناس لا يصلح لمقام القرب والاستئناس، بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: بيّن أن من بقي في قلبه في عبودية خالقه نظر إلى غيره، أو إلى نفسه لا يجوز أن يدنو من مجالس أوليائه، فإن صحبته تشوش خواطرهم، وتنجس بنفسه أنفاسهم، وحذر العارفين أيضاً من صحبة المخالفين؛ لأنهم غرائس الله، ولا يجوز أن ينظر إليهم.

قال الجنيد: الصوفية أهل بيت لا يدخل فيهم غيرهم، والإشارة فيه أيضاً أن من عكس فيه آثار قهر القدم، أوقعه في بحر رؤية النفس، وتلك الرؤية نجاسة بقت في قلبه، ولا يقرب بها من مواقف القدسية من عالم الملكوت والجبروت.

قال أبو صالح حمدون: المُشرك في عمله، من يحسّن ظاهره لملاقة الناس، ومجاورتهم

وَيُظْهِرُ لِلخَلْقِ أَحْسَنَ مَا عِنْدَهُ، وَيَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الرِّضَا عَنْهَا، بِمَا أَظْهَرَ عَلَيْهَا مِنْ زِينَةِ الْعِبَادَاتِ، وَيَنْجَسُ بَاطِنُهُ بِمُخَالَفَةِ مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الرِّيَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَسَائِرِ الْمُخَالَفَاتِ، فَذَلِكَ الْمَشْرُكُ فِي عِبَادَتِهِ، النُّجَسُ بَاطِنُهُ، وَلَا يَصْلُحُ لِبَسَاطَةِ الْقُدُسِ إِلَّا الْمَقْدُّوسُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، سَرًّا وَعَلَانًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْأَمْشِرُ كَوْنٌ تَجَسُّ بِهٖ وَمَنْ كَانَ نَجَسًا، فَإِنَّ الْأَمَكَّةَ لَا تَطْهَرُهُ، وَسِرُّ الظَّاهِرِ عَلَيْهِ لَا يَنْظَفُهُ.

وقال الأستاذ: فقدوا طهارة الإسرار بباء التوحيد، وبقوا في قدرات الظنون والأوهام، فمنعوا قربان المساجد التي هي مشاهد القرب.

ثم إنَّ الله سبحانه وعد العارفين بأن يكسوهم كسوة غنى بقائه؛ حتى لا يحتاجوا للنظر إلى سواه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ﴾^(١)؛ إذا أخرجتم أهل الدنيا من بين سفير الأعلى من المقرَّين الذين نعوتهم الفقر، وسأتهم التصوُّف والعبادة، ويخطر على قلوبكم انقطاع مواساتهم لكم، فأنا أغنيكم عما سواي، وأرزقكم من غير وسيلة تحتجبون بها عني.

قال الأستاذ: توقُّع الإرفاق من الأسباب، من قضايا انغلاق باب التوحيد، ومن لم يفرد معبوده بالقسمة يبقى في فقر سرمدى.

ويقال: من أفلح بعفو وكرم مولاه، واستمطر سحاب جوده غناه عن كل سبب، وكفاه كل تعب، وقضى له كل سؤل وأرب، وأعطاه من غير طلب.

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَزُهَبَيْنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٥﴾
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٢٦﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٢٧﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

(١) أي: فقرا بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ﴾ من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل الساء عليهم مدرارا، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقبده بالمشيئة؛ لتقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. البحر المديد (٢/ ٣٩٤).

يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ نَحْمِي عَنْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُونَ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾: عبر من بقي في رؤية المقتدى عن رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فكان في أفراد القدم من الحدوث إلى النظر إلى الوسائط شرك، وتصديق ذلك تمام الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: غيرة الوجدانية ما أبقت في البين غير أمن الشواهد والآيات، وجميع الخلق.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّ وَتَجَاوَزَ فِي الْمَدْحِ، فَقَالَ ﷺ: «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ»^(١)، وَتَحَرَّكَ فِي تَفْرِيدِ سِرِّهِ مِنْ رَفْعِ الْحَدِثَانِ، حِينَ تَكَلَّمَ فِي الصَّحْوِ بَعْدَ السَّكْرِ، وَأَخْبَرَ عَنْ فَنَاءِ الْكُلِّ فِي الْكُلِّ، وَقَطَعَ مَسَالِكَ الصُّورَةِ عَنْ إِفْرَادِ الْقِدَمِ، بِقَوْلِهِ ﷺ: «لِي مَعَ اللَّهِ وَقْتُ لَا يَسْعُنِي فِيهِ مَلِكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»^(٢)، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَأْمُورًا بِمَتَابَعَةِ الْخَلِيلِ ﷺ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٢].

قال أبو يزيد في «مقالة التوحيد»: إِيَّاكَ أَنْ تَلَاظِحَ الْحَبِيبَ وَالْكَلِيمَ وَالْخَلِيلَ، وَتَجِدَ عِنْدَ اللَّهِ سَبِيلًا.

وسئل الشَّيْخُ عَنْ وَصْفِ جِبْرَائِيلَ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِي مِنْذُ شَهْرٍ أَنْ اللَّهُ خَلَقَ جِبْرَائِيلَ، وَأَخْبَرَ عَنْ فَنَاءِ شُهُودِهِ فِي شُهُودِ اللَّهِ.

قال بعضهم في هذه الآية: سَكَنُوا إِلَى أَمْثَالِهِمْ، فَطَلَبُوا الْحَقَّ مِنْ غَيْرِ مَكَانِهِ، وَطَرَقَ الْحَقُّ وَاضِحَةً لَمْ تَكْمَلْ بِنُورِ التَّوْفِيقِ، وَأَبْصَرَ سَبِيلَ التَّحْقِيقِ، وَمِنْ عَمِي عَنْ ذَلِكَ كَانَ مُرَدِّدًا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الضَّالِّينَ مِنَ الْخَلْقِ.

وقد وقع أنهم معيرون وموتخون بقلّة عرفانهم أهل الحقائق، وركوبهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزّرافين من أهل السالوس المتزئنين بزّي المشايخ والعارفين المتحقّقين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ، ونحن رؤساء الطريقة، يضحك الله الدهر ملجأهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يذق طعم وصال الله، وقلبه معلق بغير الله يكون

(١) رواه البخاري (٣/١٢٧١).

(٢) تقدم ترجمته.

من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيراً، هداه إلى صُحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء، ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم يَكْفِيهِمْ شَقَاوَتُهُمْ، لاسيما يطعنون الصّديقين والعارفين، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: كيف يُطْفِئُونَ نِرات حسانتهم، وأنوار شمس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولآلئ خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوجدانية، وسهوات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية، ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾: إنَّ الله سبحانه سنَّ سنةً أزليّة، ألا يجد أحدٌ سبيله إلّا فيض له أستاذًا عارفًا بالله وبعبوديته وربوبيته، فبدلَه إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء، بغير علّة، ولا سبب جعله واسطة للتأديب، لا للتقريب، وصيره شفيعًا للجنايات، لا شريكًا في البدايات، هُداه نور القرآن، ودينه حقيقة البيان مع إظهار البرهان.

قيل: جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه، وبعثهم أعلامًا على الطرق، ونورًا يهتدون به، وعَمَّرَ بهم سبيل الحق، وحقيقة الدين، قال الله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُخْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وَيَنْخُ الله البخلاء بقلّة الإنفاق، وخروجهم عن سبيل الوفاق، ولا يكون ذلك إلّا من موارث النفاق، وتأثير الفراق.

قال بعضهم: من بخل بالقليل من ملكه، فقد سدّ على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَهُ غَافًا وَخَرِيْمُونَهُ غَافًا لِيُؤْاطِلُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١١﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: جعل الله أيام الفراق ممدودة، وجعل أيام الوصال بلا حساب، ولا انقطاع، وجعلها على التأييد.
قال الله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الواقعة: ٣٣]، وجعل لأيام العبادة منقطعًا، وجزاؤها بمشاهدته لهم لم يجعل له منقطعًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَيِّ الْقَصِيرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: حث بهذه الآية المشتاقين إلى الفرح بوصاله، وزيادة شوقهم إلى كشف جماله، حيث جعل أيام التفرة القليل، وحسن وصالهم الخليل:

دَنَا وَصَالَ الْحَبِيبِ وَاقْتَرَبَا وَطَرَبَا لِلْوَصَالِ وَأَطَرَبَا

كان في الكتاب الأزلي لأيام العبودية حصر؛ لأنها زمان الامتحان، وهي من أوصاف الحدثان، فإذا خرجت من أماكن الكونين لا يبقى إلا أنوار جمال الرحمن المنزهة عن تغاير الملوان، وعن الانقلاب والدوران، وحدود المكان، ومضي الزمان، لا يكون هناك إلا كشف جمال الأزل بجلال الأبد، وكشف جلال الأبد بجمال الأزل ليس عنده مساء غروب بالفناء، ولا صباح علل البداء.

وقت العارف في كشف جمال وجهه ليس وقت الأزمنة، بل ترمد استغراقه في بحار القدمية، وطيرانه بأجنحة البقاء في هواء الأبدية، ولا يجري عليهم طوارق الزمان، ولا علة الحدثان، ما أطيب أيام الوصال للمشاهدين كشف الجمال، وطوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن من نعمة من وجهك الحسن .

والإشارة في قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كشف أوقات السرمدية بنعت تحمي الأزلية لوقت مرور القضاء والقدر، اليوم عبارة عن طلوع الشمس وغروبها، وليس في جلال القدم مشرق الحدث، ومغربة المشارق هناك أزال، وأزال الآزال، والمغارب آباد وآباد الآباد، الدهر الدهار، والفلك الدوار فانيان في قدم الرحمن، أوجد من العدم وقتاً بقدريوم، فخلق الخلق في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾^(١) وجعل بكرمه ورحمته منها شهور القربات، وزيادة للمدانات، ومناسكا للعبادات، وشرفها لكشف المشاهدات، ومنعهم فيها عن التمتع والتمتع، وأمرهم فيها بالتعطف، وأهل فيها الخارجين من السنة؛ لتأهيبهم أهبة الأولية والأبرار إلى جوار الرحمة، وما سواها من الأيام والشهور، رفاهية لأهل الأنس، ومطايبة لأهل البسط، وكذلك تلك الحرمات على أهل القربات، وقال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ إلى الطريق المستقيم إلى الله، وشهادة وصال الله، وكشف مشاهدة الله، وحذرهم فيها عن مخالفة الله، بقوله: ﴿فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، بمنعها عن المجاهدات، وطلب المشاهدات، وإعطائكم حظها من الشهوات.

قال بعضهم: ظلم نفسه من أطلق عناقها في طرق الأمانى من اتباع الشهوات، وارتكاب السيئات، والتخطي إلى المحارم.

قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ﴾ ذم الله قوما عموما عن رؤية ما بدا لهم من نفوسهم من المخايل الشيطانية التي هيئتهم إلى الاستبداد بآرائهم الفاسدة في استبداعهم طهي الباطل، وهم رأوها من أنفسهم مستحسنة، من قلة عرفانهم بطريق السنة الإلهية.

قال الواسطي: خيرهم على ما فيه هلاكهم، ولم يعذبهم، بقوله: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ﴾.

وسئل جعفر الصادق عن قوله: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ﴾.

قال: هو الرياء، ثم حث المؤمنين بترك الدنيا ولذتها؛ لأجل مشاهدته، وحسن رضاه بقوله: ﴿أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: اخترتم موضع الكرامات، وظهور الآيات عن كشف المشاهدات.

قال يحيى بن معاذ: الناس من خافة النصيحة في الدنيا وقعوا في فضيحة الآخرة.

قال الله: ﴿أَتَأْتَلِفُونَ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، ثم وصف الدنيا بالقلّة والدناءة، ووصف الآخرة بالشرف والمنزلة، بقوله:

﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما وجد العارف الصادق في الدنيا من القربة والمعرفة، والوجه والحالة والفضل والكرامة في جنب ما تجده من الحضرة بعد

(١) لما علم أنهم لا يؤدّون على ملازمة القرب أفرد بعض الشهور بالفضل، ليخصوها باستنثار الطاعة فيها. فأما الخواص من عباده فجميع الشهور لهم شعبان ورمضان، وكذلك جميع الأيام لهم جمعة، وجميع البقاع لهم مسجد، تفسير القشيري (٩٥/٣).

وصوله إليها، وما يرى من وصال الحق، وكشف جماله أقل من قطرة في البحار.

قال النهرجوري: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب واحد، وهو التقوى، والناس سفر.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعِثْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَخِلِفُوا بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾: مَنْ كَانَ مُصْطَفَىٰ بِتَأْيِيدِ الْأَزَلِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ نَصْرَةٍ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، وَمَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ، جَعَلَهُ نَاصِرًا لَهُ، وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ نَصْرَتِهِ، وَنَاصِرُهُ تَشْرَفُ بِنَصْرَتِهِ، أَوْ نَصْرَةُ الْخَلْقِ قَائِمٌ بِنَصْرَةِ الْحَقِّ، وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ، أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَهْمَةٍ، وَيَصِلُ إِلَىٰ كُلِّ نِعْمَةٍ.

وصف تعالى نصرته لنبيه ﷺ حين أوى إليه في دخوله مع صاحبه في الغار، بكشف جماله، وإبراز نور منه لصاحبه، أي: من كان قادرًا بنصرة من كان مخفيًا وراء نسج العنكبوت على أعدائه بلا مددكم ولا عددكم، وأيضًا هو ينصره، ويجعله غالبًا على كافة الخلائق مما أعطاهم من راية نصرته الأزلية، وأعلام دولة الرسالة والنبوة.

قيل: نصره الله حيث أغناه عن نصرته، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُعَصِّمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومن كان في ميدان العصمة، كان مستغنيًا عن نصرته المخلوقين، ألا تراه لما اشتد الأمر كيف قال: بك أصول فإنك الناصر والمعين.

ومعنى قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾^(١) إشارة إلى خاصية الصديق لصحبته الحبيب، إذ كان مشرب من مشارب بحار نبوته، وسواقي أنهار رسالته التي جرت

(١) رُوِيَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ طَلَعُوا فَوْقَ الْغَارِ يَطْلُبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَقَدُوهُ مِنْ مَكَّةَ، فَأَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ يَا ثَنِيَّةُ؟» فَأَعَاهَمُ اللَّهُ عَنْ الْغَارِ، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَرَوْهُ. وَقِيلَ: لَمَّا دَخَلَ الْغَارَ بَعَثَ اللَّهُ حَمَاتَيْنِ، فَبَاضَتَا فِي أَسْفَلِهِ، وَالْعَنْكَبُوتُ نَسَجَتْ عَلَيْهِ. الْبَحْرُ الْمَدِيدُ (٤٠٤/٢).

من قلزم القدم.

ولولا تلك الأهلية لما كان فردًا في الصحبة، وكان الصديق في منزل ما كان محمد، وكان الله ولم يكن معه شيء من شقائق قدسه، وبرق من بروق أنوار أنسه، خرجا من تلك الأنوار ودخلا بها في الغار، وعرف الحبيب الصديق خصائص المعية معه حين ورد عليه طوارق الامتحان، وأخرجته من رؤية الحدثنان، بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا يحزن بتغير الاصطفائية، وانكسار حصون العصمة، فهو معناه بمعنى القدرة والعلم الأزلي، وعناية الأبدية، وظهور مشاهدته من حيث القلب والروح والعقل، بوصف المتاجاة والمدانة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثَانِيَ آتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

قال: في محل القرب في كهف الأنوار في الأزل.

وقال في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: ليس من حكم من كان الله معه أن يحزن.

وقال الشبلي: ﴿ثَانِيَ آتَيْنِ﴾: تشخصه مع صاحبه، ووحد الواحد بقلبه مع سيده.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ معناه: إن الله معنا في الأزل حيث وصل

بيننا، ووصل الصحبة، ولم يتفضل.

قيل في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: كان حزن أبي بكر رضي الله عنه، إشفاقًا على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: شفقة على الإسلام أن يقع فيه وهن.

وقال فارس: إنما نهى عن الحزن؛ لأن الحزن عنه، وإنما هو تعريف أن الحزن لا يحل

بمثله؛ لأنه في محل القرية.

وقيل: أخرجتهما الغيرة إلى الغار عليهما الحق، فسترهما عن أعين الخلق؛ لأنهم كانوا في

مشاهدته يشهدهم ويشهدونه، ألا ترى كيف يقول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنك بآتينين الله ثالثهما»^(١) مشاهدًا لهما، وعودًا وناصرًا.

ويقال في قوله: ﴿نَصْرَهُ اللَّهُ﴾ من تلك النصره أبقاء إياه فيها أبقاء به من كشوفاته في

تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كشفه.

ويقال: صحيح ما قالوا للبقاع دون ما خطر ببال أحد، أن ذلك الغار يصير مثوى

ذلك السيد صلى الله عليه وسلم؛ ولكن يختص بقسميه ما يشاء، كما يختص برحمته من يشاء.

ويقال: علقت قلوب قوم بالعرش، فطلبوا الحق منه.

وهو تعالى يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أنه سبحانه تقدس عن كل مكان، ولكن هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وينشد:

يَا طَالِبَ اللَّهِ فِي الْعَرْشِ الرَّفِيعِ بِهِ لَا تَطْلُبُ الْعَرْشَ إِنْ الْحَبَّ فَارُهُ

لي نكتة عجيبة في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ آتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ في قوله ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا نفى الاتحاد بالوحدانية، كما نفى عن عيسى وأمه حين زعموا النصارى أن الله ثالث ثلاثة، فقال: ﴿وَمَا مِنْ لَيْلٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] نفى الإلهوية عن الروح والصديقية، كما نفى هاهنا عن سيد المرسلين، وسيد الصديقين حتى لا يظن ظان أن من العرش إلى الثرى لم يكن في ساحة الكبرياء والأزلية أثر؛ لأن الإلهوية القديمة ممتنعة عن الانقسام والافتراق والاجتماع، وتحقيق ذلك قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وتلويح ذلك نفى الاتحاد، وإظهار الانبساط، ودليل الإشارة بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أثبت الحزن في طلب أبي بكر ﷺ، وذلك الحزن حزن فوت الحال، والوقت في زمان البأس والابتلاء، وعرف ﷺ أن الوقت والحال لا يفوت عنا، فهو تعالى معنا بالكشف والوقت والحال، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ثم زاد في حدث الكشف والوصال حيث حزن صاحبه لأجلها بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ إشارة أن سكينة نزلت من عند الله على قلب محمد ﷺ، وتلك زيادة وضوح الكشف والمدانة، النبي ﷺ كان مستقيماً في الأحوال كلها، وما حزن لأجل الفوت، ولكن أنزلت السكينة عليه؛ لأجل زيادة استقامة قلب الصديق، وذهاب الحزن عنه؛ ليستضيء نورها من جمال النبي ﷺ، ولو أنزلت على الصديق بغير واسطة النبي ﷺ؛ لذاب تحت إشراق سلطان أنوار القدم؛ لأن تلك البرهاء في تلك الأوقات لا يحملها إلا المرسلون من أولي العزم، كما قال: أنزل سكينة أبي بكر على محمد، وإن كان البهاء راجعاً إلى الله سبحانه، ويحتمل أن السكينة نزلت على أبي بكر، فأما النبي ﷺ فكانت السكينة عليه، قيل ذلك.

قال بعضهم: السكينة لأبي بكر ما ظهر له على لسان المصطفى صلوات الله عليه من قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١).

قال بعضهم: السكينة سكون القلب إلى ما يبدو من مجاري الأقدار.

وقال ابن عطاء: يحتمل أن أبا بكر لم يكن محزوناً، ولكن النبي ﷺ لشفقته عليه، حذر ما

يجوز أن يكون في ذلك الحال، فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: دعا الرسول ﷺ بأخص أسائه وأرفعها، وقدم اسمه على صفتها.

وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢]: فدعاه باسم الترية، وهو من عموم الأسماء، وقدم اسمه على اسم ربه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾: فلذلك عصم أمة محمد ﷺ عن الشرك، وابتلى أمة موسى ﷺ بعبادة العجل.

وهنا أن موسى ﷺ كان غيورا، فلم يرَ في البين أحداً من غيره على لجه، فكان النبي ﷺ خرج من حد الغيرة هاهنا؛ لأنه كان غنياً بالمشاهدة، وكان موسى في محل الافتقار إلى المشاهدة.

وقال الكليم: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾.

قال الحبيب ﷺ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، فوقع موسى في رؤية الصفات، حيث سمي بالرب، ووقع النبي ﷺ في رؤية الذات بما ساءه باسم الجمع، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وزاد عليه نعمته بقوله:

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود جنود عساكر تجلّي جمال الأزل، أنزلت على أسرارها؛ لأنها تطيق حملها، فإن في الكون لم يكن لتلك الجنود محل قبولها.

وقال جعفر في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾ اليقين والثقة بالله، والتوكل عليه.

ويقال: كان الرسول ﷺ ﴿ثَاقِبَ أَتْنَيْنِ﴾ بظاهر شبحه، ولكن كان مستهلك الشاهد في الواحد بسره، ثم وصف مئته سبحانه على الكل، بإذها به ظلمة الطباع، وإخراجه أنوار الشرائع، بقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ جعل الدعاوى الباطلة فانية تحت أنوار التوحيد، والحقيقة كلمة انفراده بفردانيته، وعلوه بنعت التنزيه والتقدير عن ظنون خلقه، بأنه عزيز بعز الكبرياء، وحكيم في اختصاص أوليائه بكشف البقاء، ثم إن الله سبحانه حث الجميع على التسارع ببذل القلوب والأرواح والأشباح إلى ميادين الوجدانية والفردانية؛ لرؤية جماله، وكشف جلاله، وإدراك وصاله، بقوله:

﴿آتَفَرُوا خُفَاءً وَثِقَالاً﴾ أي: انفروا إلى أبواب الأزل خفاً بالعقول القدسية، وثقلاً بالقلوب الملكوتية، وأيضاً خفاً بالأرواح الروحانية، وثقلاً بالقلوب السبائية، وأيضاً خفاً بالإرادات الصادقة، وثقلاً بالمحبة المفرطة، وأيضاً خفاً بالإيمان، وثقلاً بالإيقان، وأيضاً خفاً بالأنس، وثقلاً بالقدس، وأيضاً خفاً بأنوار المودة، وثقلاً بأمانات المعرفة،

وأيضاً خفافاً بالتجريد عن الحدثنان، وثقالاً بأنوار التوحيد إلى جمال الرحمن.
 وأيضاً خفافاً بنعوت الافتقار، وثقالاً بكسوة غنى العزيز الغفار، وأيضاً خفافاً
 بالقناعة، وثقالاً بالتوكل، وأيضاً خفافاً بالبسط، وثقالاً بالقبض.
 قال ابن عطاء: خفافاً بقلوبكم، وثقالاً بأبدانكم.
 وقال أبو عثمان: خفافاً وثقالاً في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت.
 كما روي عن جرير بن عبد الله قال: بايعنا رسول الله ﷺ على المنشط والمكروه.
 وقال بعضهم: خفافاً إلى الطاعات، وثقالاً إلى المخالفات، وجاهدوا بأموالكم للفقراء
 ألا تمنعوهم حقوقهم، وجاهدوا بأنفسكم الشياطين؛ كيلا تستولي عليكم.
 ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
 الْكَاذِبِينَ﴾ (١٢).

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ إن من سنة الله سبحانه إذا أراد أن
 يفتح كنزاً من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه، ولطائف وصلته على أحد من أحبائه
 وأوصيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثنان؛ حتى يضيق
 صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة
 العتاب، ويوزل شبحة من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه،
 ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسرارهِ، وتشرق
 سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط
 بعد القبض مشاهدة بديهية، ووصلة أبدية، وخطاباً سرمدياً يطير بأنوارها في الآزال والآباد،
 وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصلة، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه
 مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلاته
 زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عبادهِ، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله تكون
 عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرهِ
 معشوقه؛ لأن من كان حسناً، فما يبدو منه أيضاً يكون حسناً:

فإِنْ نَطَقْتُ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَا حَةٍ وَإِنْ سَكَتُ جَاءَتْ بِكُلِّ جَمِيلٍ
 ملاحته، وحسن وجهه يعتذر لذنبه في وجه شافعٍ يمحو إساءته عن القلوب بالمعاذير:
 وَإِذَا الْحَبِيبُ أَنْىَ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ
 مَا حَطَّكَ الْوَاشُونَ عَنْ رَتْبِهِ عِنْدِي وَمَا ضَرَّكَ مَغْتَابُ
 كَأَنَّهُمْ أَثْنَوْا وَلَمْ يَعْلَمُوا عَلَيْكَ عِنْدِي بِالْذِي عَابُوا

ولما سبقت الاصطفائية له قبل وقوع المعاملات، سبق منه العفو له قبل الزلات. كان عليه السلام من عظمته في المعرفة إذا جرى عليه حكم له موقع العتاب، خاطبه الله قبله بعفو وتلطف حتى لا يفني وجوده في رؤية جلاله وهيبته من حدة الحياة والاحتشام، ولا يكون إلا لمن كان معرفته كاملة، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»^(١).

قيل: إن الله إذا عاتب أنبياءه وأوليائه، عاتبهم ببر قبلها، أو بعدها ألا تراه يقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾.

وقال الحسين بن منصور - قدس الله روحه -: الأنبياء مسوطون على مقاديرهم واختلاف مقاماتهم، وكلّ يطيع حظه باستعمال الأدب بين يدي الحق، وكلّ أذّب على ترك الاستعمال، فمنهم من أنس قبل التأديب، ومنهم من أنس بعد التأديب، على اختلاف مقاماتهم، فأما محمد عليه السلام، فإنه أنس قبل التأديب، إذ لو أنس بعد التأديب لتفطر لقربه من الحق، وذلك أن الحق تعالى أمره بقوله: ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، ثم قال مؤدّباً له على ذلك ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ لذاب، وهذا غاية القرب.

وقال تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿إِنْ أَتَيْتُ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، مؤدّباً له، وأنسه بعد التأديب ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] إلى قوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ولو لم يؤنسه بعد التأديب لتفطر، وهذا مقام نوح عليه السلام، وليس المفضل بمقصر، إذ كل منهم له رتبة من الحق، ولي نكتة من عجيب الخطاب أن لفظ المسامحة والانس، جرى على فعل الماضي لا على فعل المستقبل، وكلامه تعالى أزلي أي: عفا الله عنك في الأزل، قبل وجود العمل ففرح فؤاده بعفوه السابق له، ثم استعمل الانسباط معه بموضع الاستفهام من الأمر، بوصف الاستثناس والبسط، ولو قال: إن الله يعفو عنك، لكان مستوحشاً في موقع الخطاب؛ لأن المرجو ليس كالمدرّك.

﴿لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [١] إِنَّمَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَتْ أَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدُّوْنَ [٢] وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ [٣] لَوْ خَرَجُوا

فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا حَلَلَكُمْ يَبْغُوا نَفْسَكُمْ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وصف الله الولاية والنبوة أنهما شقيقان، وما وقع الأمر من الغيب، إلا والولي والنبوي يقبلانه بالإيقان والعرفان، وكيف يكون الولي مخالفاً للنبوي، وهو مخاطب بسر الإلهام ويمتابته.

قال الواسطي: كيف يستأذن من هو مأذون له الإذن، وإن قام بإذن، وإن قعد قعد بإذن، فجريان الحركات منه تظهر سوابق المأذون له فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: بين الله سبحانه أن إرادة العباد لا تقع إلا بإرادته، حيث يقول: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: نفى عنهم صدق الإرادة، ولو كانوا صادقين في الإرادة؛ لاستجابوا لبذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بإرادتهم، كذلك لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

قال جعفر: لو عرفوا الله؛ لاستحووا منه؛ ولخرجوا له عن أنفسهم وأزواجهم وأموالهم؛ بذلاً لأمر واحد من أوامره.

وقال بعضهم: لو طلبوا التوكل؛ لسلكوا سبيل الثقة بالله؛ فإنها الطريق إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: وصف أهل النفاق الذين لدغتهم أفاعي القرب بنعت عدم الترياق من مفرح الوفاق، دعاهم بلسان الأمر إلى العبودية، وأجرى شقاوتهم في سابق أحكامه الأزلية، كانوا مخاطبين بالعبودية، غير مكاشفين بجمال الربوبية، امتحنهم بالأمر، وردهم عن ساحة الكبرياء بالحكم، طالبهم بالأعمال، ومنعهم عن الأحوال.

قال جعفر: طالب عباده بالحق، ولم يجعلهم لذلك أهلاً، ثم لم يعذرهم ولا مهم على ذلك ألا تراه يقول: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾^(١).

قال ابن الفرحي: إنما هو نعت واحد، كالماء الواحد يسقى به ألوان الشجر، فيختلف ثمارها، ولو سُقي الورد بالبول ما وجد منه إلا ريح الورد، ولو سقي الخنظل بهاء الورد لما خرج إلا الخنظل وريحه، إنما هي اللطيفة التي جرى بها الخذلان والتوفيق.

﴿لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ

(١) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تضييلاً لهم. قال ابن جزى: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (٢/ ٤٣١).

وَهُمْ كَرِهُوا ﴿١٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا لَمْ نَقُتِلْ وَلَا تَفْتِنَنَا أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾: وصف المنافقين بأن من غاية حسدهم، وقلة معرفتهم باصطفائية أهل الولاية يطلبون أن تمنعهم عن الله، وعن طريقه، فإذا رأوا ما كشف الله للأنبياء والأولياء يمجّدون في ظلمات كفرهم وحسدهم.

قال السوسي: حملوك على طلب الدنيا والركون إليها، حتى أظهر الحق سرك من الركون إلى شيء سواه، وظهر أمر الله.

قال: فتح لك من خزائن الأرض، وعرفها عليك، وأبيت أن تسكن إليها، وتقبل منها، وهم كارهون ما أنت عليه من الإعراض، عما أقبلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ما كتب للأنبياء وللأولياء في الأزل إلا سعادة الولاية، وشرف النبوة، وحقيقة الوصلة، ولطائف علوم المشاهدة، وما كتب من البليات لهم فتلك زيادة أحوالهم؛ لأن الله تعالى جعل قلوبهم بنور رضاه، فيقبلون كلّ ما منه بسابق الرضا والاصطفائية، فيزيد في حالهم شرف القرية من كل مكروه ومحبوب، وهم في ذلك بنصره الله محفوظون، وعليه بفضلهم متوكلون، وعما يبدو منه بفضلهم عنه راضون، لقوله: ﴿هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال بعضهم: العارف بالله: مَنْ سكن إلى ما يبدو له في الوقت بعد الوقت من تصاريف القضاء، ومجاري القدرة، ولا يسخط وأرد من ذلك.

﴿وَمَا مَتَّعْنَاهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ وَلَا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُوا﴾ ﴿١٦﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ وَتَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿١١﴾ لَوْ يَخْتَدِرُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿١٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ وصف الله الجاهلين بجلاله، المحجوبين عن مشاهدة جماله، الذين لم يذوقوا من عبودية خالقهم طعم وصاله، ولو كانوا أهل الدوق من مناجاة الله في الصلاة، وإدراك قرة العيون منها، لكان حالهم كمال ما أخبر ﷺ عن المصلي الصادق بقوله: «المصلي يتاجي ربه»^(١).

وما أخبر عن حال نفسه ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»^(٢). ولكن خصَّ الله هذه المراتب الشريفة بالخاصين في جبروته، والمتواضعين في الملكوت بقوله: ﴿وَأَنبَأْنَا لَكِبْرَةَ إِلَّا عَلَى الْخَنَثِيِّينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ووصفه إياهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خُنْثِيُّونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

قال محمد بن الفضل: من لم يعرف الأمر، قام إلى الأمر على حد الكسل، ومن عرف الأمر قام إليه على حد الاستغناء والاسترواح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْبِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ إن الله سبحانه حذر المؤمنين بما خاطب نبيه ﷺ عما مع أهل الدنيا من الأموال والزينة أن يستحسنوها، فيحتجبون بها عن عمل الآخرة ورؤيتها، فإن الناظر إلى الدنيا بنعت استحسانها من حيث الشهوة والنفس والهوى، يسقط في الساعة عن مشاهدة ملك الملكوت، وأنوار الجبروت.

ويبين سبحانه أن أموال الدنيا سبب احتجابهم عن الله، وإيصال العذاب إليهم؛ لأن الدنيا إذا كثرت لم تخل من الحرام والشبهات، ومن باشر الحرام، وأكل الشبهات صار معذباً بحجاب الباطن، وعمي عن مكاشفة الآخرة، وعذاب الظاهر بالغرامة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال ﷺ: «حلالها حسنات، وحرامها عذاب»^(٣).

قال بعضهم: لا يعجبك ما يتزينون به من صنوف الأموال والعييد والخدم، ويستكثرون به من أولاد.

(١) رواه البخاري (١٩٨/١).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٢٨/٣).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٢٨٣/٥)، وفيه (نجاسة) بدل (حسنات).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْخَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

قال: يعذبهم لجمعها، ويعذبهم بحفظها، ويعذبهم لحبها، ويعذبهم بالبخل بها، والحزن عليها، والخصومة فيها كل هذا عذاب لأن يوردهم عذاب النار.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ * إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٢٦﴾ وَبَيْنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ تَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ خُذَادِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيلًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٢٩﴾ تَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي إِلَهُ تَخْرُجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾: وصف الله قوما ليسوا من أهل مقام الرضا، بأنهم كانوا محرومين عن معرفة الله ورسوله، ومعرفة حقائق الدين، ولو كانوا من أهل المعرفة، لرضوا فيها ابتلاهم الله، فإن الرضا مقرون بالمعرفة، ونعت الراضي النشاط بما استقبله من الله، ويستلذ بأمر قلبه من البلاء؛ لأنه يحتمل البلاء بروية المبلي، ويسكن في جريان المقادير عليه مما يرد على قلبه من روح أنوار المقدر، والراضي موصوف بصفة الرضا من الله، والمتصف بصفاته يرضى برضا الله في امتحانه، ورضا الله مقدس عن التغيير بوارد الحدثنان.

وبيّن الله سبحانه أن الراضي عن الله، فالله خلفه عن كل فوت، وحياته عن كل موت بقوله: ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾: من كان هو حسبه، فأجره مشاهدة حسيه.

قال الله: ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي: من قُربه ومشاهدته.

﴿ وَرَسُولُهُ ﴾: يظهر لنا من فوائد الغيب المكشوفة له، ويؤدبنا بما استأثره الله من حقائق الأدب. ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾: نعت الشوق إلى جماله لا إلى غيره من العرش إلى الشرى،

علم الله تعالى أدب الرضا، والسؤال في هذه الآية الصادقين والعارفين والمريدين.

قال إبراهيم بن أدهم: من رضي بالمقادير لم يغتم.

وقال فضيل الرازي: لا يتمنى فوق منزلته.

ثم إن الله تعالى لما دس رغام الحرمان في أفواه المدّعين بمقام الإيثار والمعرفة، الذين طلبوا من النبي ﷺ ما خص الله به الروحانيين والريانيين، مما ألزم على أعناق أهل الدنيا الذين يجمعونها من سهم الزكاة ذكر أنه استأثره لأهل المراقبات والمجاهدات، وغيرهم من أهل المقامات بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: إن الله سبحانه قسّم هذه الجوائز من فضله ولطفه على أهل معرفته، رحمة منه عليهم بعلمه أنهم غائبون في أودية فردانيته، المستغرقون في بحار وحدانيته، والهون من حبه هائمون، ومن شوقه لا يطيقون أن يشتغلوا بها لا بدّ لهم من كثيرات حريقات؛ ليأخذوا كلهم على قدر مراتبهم من سهام ما رزقهم الله حلالاً طيباً مما أوجبه على طلاب الدنيا، وحذر أهل الدنيا من عذابه الأليم، إذ يقصرون في إعطاء الزكاة إلى هؤلاء السادة يطيب نفوسهم، ونشاط قلوبهم وبين عدد أهلها.

وقسمهم ثمانية أقسام، وجعل أولهم الفقراء، وحسم أطاع غيرهم عن هذه السهام.

وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾: ومن بعدهم من أصناف الثمانية، ودليل الخطاب أن هذه لهم لا لغيرهم بدأ بالفقراء، وهم: المتجردون بقلوبهم وأبدانهم عن الكونين والعالمين، المنعوتون بنعت التنزيه حيث وقعوا في قدس القدم، فاتصفوا بقدسيته، وتزهدوا بتنزيهه، وانفردوا بفردانيته يفتقرون إلى وصال الأبد.

• ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: هم الذين سكنوا في حجاب الأنس بنور القدس، حاضرين في العبودية بنفوسهم، غائبين في أنوار الربوبية بقلوبهم؛ لذلك اختار المسكنة سيد فرسان العالمين محمد ﷺ بقوله: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً وأحشني في زمرة المساكين»، وأنشد: مساكينُ أهل الأرض شاقّت قلوبهم فهُم أنفُسٌ عاشُوا بغير قلوبٍ

﴿وَالْعَمِلِينَ﴾: أهل التمكين من العارفين، وأهل الاستقامة من الموجدین الذين وقعوا في نور البقاء، فأورثتهم البسط والانبساط، فيأخذون منه ويعطون له، وهم خزائن خزائن جوده، المشفقون على أوليائه، قلوبهم معلقة بالله لا بغيره من العرش إلى الثرى.

﴿وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾: هم المريدون الذين سلكوا طريق محبته برقة قلوبهم، وصفاء نياتهم، وبذلوا مهجتهم في عساكر ميادين شوقه ومحبته وعشقه، وهم عند الأقوياء ضعفاء الأحوال، يحفهم الله هذه التحفة في مواساة حظوظهم، واستجلاب نشاط نفوسهم في

طاعات مولاهم، وحاشا أنهم بذلوا أنفسهم لنيل ثواب، ولرؤية مقام أو تطلّع حال، بل فناء الله عما سوي الله، كما أنشد بعضهم:

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَاتِيًا عَنْ حِظِّهِ وَعَنْ الْهَوَى وَالْأَنْسِ بِالْأَحْبَابِ
أَوْ تِمْنَتُهُ صَبَابَةٌ جَعَلَتْ لَهُ مَا كَانَ مَفْتَرَقًا مِنَ الْأَسْبَابِ
فَلَا تُنْهَ بَيْنَ الْمَرَاتِبِ وَقِفْ لِمَثَالِ حِظِّ أَوْ لِحَسَنِ مَاءِ

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ : هم الذين رهنت قلوبهم بلذة عجة الله وبقيت نفوسهم في المجاهدة في طريق الله لم يبلغوا بالكلية إلى شهود كشف مشاهدة الله فتارة يغريهم سلبات القهر، وتارة يفنيهم أنوار اللطف، فلحظة هم في الحج بحار الإيرادات، ولحظة هم في سواحل بحر القرية ما أشد جبرتهم في فقر الولاية، وما أعظم رغبتهم في فقر المحبة لا يصلون إلى الحقيقة ما دام عليهم بقية المجاهدة.

قال رحمه الله: «الكتاب عبد ما بقي عليه درهم»^(١).

وأنشد في ذلك:

نَمْنَى عَلَى الزَّمَانِ مَحَالًّا أَنْ تَرَى مَقْلَتَايَ طَلَعَتْهُ حَرًّا

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ : هم الذين ما قضوا حقوق معارفهم في العبودية، وما أدرکوا في إيقانهم حقائق الربوبية، وهم بقوا أبدًا في تلك الغرامة؛ لأن الفقدان بلا نهاية والموحدان بلا نهاية، ومن نودي ما فات عنه في الفقدان من بذل الوجود بنعت الصبر، ومن يؤدي حقوق الوجدان بنعت الشكر هذا قبل المعرفة غريم لا يقضي دينه.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : هم المحاربون مع نفوسهم بالمجاهدات والمرابطون قلوبهم في شهود الغيب لكشف المشاهدات.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ : هم المسافرون بقلوبهم في بوادي الأزل ومسافرون بأرواحهم في ففار الأبد وبعقولهم في طرق الآيات وبنفوسهم في طلب أهل الولايات.

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ : واجبة منه على أهل زمام الإيوان، يواسوا بهذه القسمة أهل الإيقان والعرفان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ : بأحوال هؤلاء المقرّين في غيبتهم عن الدنيا، ﴿حَكِيمٌ﴾ : حيث أوجب مواساتهم على أهل الآخرة والعقبى.

قال بعضهم: الفقراء ثلاثة:

فقير لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي لا يقبل، فذاك كالروحانيين.

وفقير لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي قبل مقدار حاجته، فذلك لا حساب عليه.

وفقير يسأل مقدار قوته، وإن استغنى كف، فذلك في حظيرة القدس.

وقال إبراهيم الخواص: نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار والبذل عند الوجود، والمساكين من يرى عليه أثر العدم.

وقال الأستاذ: الفقير الصادق عندهم، من لا ساء تظله، ولا أرض تقله، ولا سمة في أوان العبودية تتناولها، ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله الله يرد إلى التمييز في غير هذا الوقت، مضطرب عن شواهد واقف بربه، متشعب عن حماسه.

وقال الأستاذ: ابن السبيل عند القوم، إذا تقرب العبد من مألوفات أوطانه، فهو في قرى الحق، فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شرابه، والأنس سوره، والحق تعالى مشهوده.

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] للقوم وعد في الجنة، والآخرين نقد في الوقت، وهو شراب المحاب وغذاء شراب الثواب، وأنشد:

ومقعد قوم مشى من شرابنا وأعمى سقيناه ثلثنا فابصرنا
أخرس لم يطق ثلاثين حجة أدركنا عليه الكأس يوماً فآخبرنا

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآغِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَآغِفَةً بِآيِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ١٥ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ١٦ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَآئِهِمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ١٧ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعَ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٨ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ١٩ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وصف الله نبيه ﷺ بأخص صفة، وهو الخلق العظيم الذي من الله سبحانه، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهكذا وصف الحساد، يرى الحسن من غيره قبيحاً، ويرى القبيح من نفسه حسناً، وعين الرضا تري القبيح حسناً من الجميع، كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلَةٌ
ولكن عين السوء تبدي المساوئ
وقيل:

عين العداوة بالمساوي موكلةٌ وعين الرضا عن المعايير كليلَةٌ
قال الأستاذ: بسطوا لسان الملامة في الرسول ﷺ، فعابوه بما هو أمانة كرمه، ودلالة فضله، قال ﷺ: «المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لئيم»^(١).
وقيل: من العاقل، قالوا: الفطن المتعاقد.

ولو لا الكريم أتيت به خديعة فرأيت فيمّا تروم يسارخ
واعلم بأنك لم تخادغ جاهلاً إن الكريم بفضل مستخادغ
قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أخبر سبحانه أن طينة النفاق في وقت مباشرة قهره فيها بعضها من بعض، وما يتولد من قطرة نفاقهم يستحسنه بعضهم من بعض، ويأمرون بعضهم مخالفة الله، ومخالفة رسوله في إيذاء أولياء الله.
قال أبو بكر الوراق: المنافق ستر المنافق يستر عليه عوراتهن، والمؤمن مرآة المؤمن يبصر عيوبه، ويدله على سبيل نجاته.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: وصف الله بخل المنافقين، وقلة نصرهم للمؤمنين، وإقباض أيديهم برفعها إلى الدعاء، وغیظهم للمؤمنين حين يقبضون أيديهم من الغضب في نفوسهم، وخلواتهم وراء الستور بالوكزات لأهل الحق.
وهذه صفة المبغضين إذا جلس واحد منهم يعرض أنامله، ويقبض يده، ويبهج قلبه حسداً وعداوة على أولياء الله.

قال الله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَالِيَهُمْ إِلَّا تَمَلُّ مِنْ أَلْفَيْهِمْ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾

(١) رواه أبو داود (٤/٢٥٠)، والترمذي (٤/٣٤٤).

[آل عمران: ١١٩] ثم يتبين أن هذا الغيظ من تولد نسيانهم قهر الله في بطش جبروته، وبروز عظائم أنوار ملكوته، لم يكونوا من أهل الذكر، فطراً عليهم طرآن النسيان، لم يذوقوا حقائق الذكر، تركوا أمر الله لجهلهم بجلال الله، فتركهم الله في ظلمات قهره يعمهون، لا يرون سبيل الرشd أبداً، وهكذا وصف من ادعى معرفة الله، ولم يذق طعم محبة الله، ولا يستقيم في دعواه، ونفر من الطريق إلى جمع الدنيا من قلة صبرهم مع أولياء الله، فيجمعون الدنيا، ويحتجبون بها عن ذكر الله، فتركهم الله في حياها وحب جاهها، ولا ينفقون منها في طريق الله.

قال الله: ﴿وَيَقْبِضُونَا أَيْدِيَهُمْ نُسُوا اللَّهَ فَتَنَسِيهِمْ﴾ .

قال بعضهم: يقبضون أيديهم عن رفعها إلى مولاهما في الدعوة والحوائح، كما روي عن النبي ﷺ أنه رأى كأنه في الموقف، ويده على صدره كاستطعام المسكين.

هَآ أَنَا مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْكَ فَرَدَّهَا بِالْوَصْلِ لَاسْتِمَاتَةِ الْحَسَادِ

وقيل: يقبضون أيديهم عن الصدقة.

وقيل: يقبضون أيديهم عن معونة المسكين.

وقال سهل: في قوله: ﴿نُسُوا اللَّهَ فَتَنَسِيهِمْ﴾ : نسوا أنعم الله عندهم، فأنساهم الله شكر النعم.

وصف المؤمنين والمؤمنات بالمواقفات في جميع الخيرات بقوله:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ؛ لأن أرواحهم كانت مستغرقة في

أنوار القدم، وهو تعالى ألف هناك بين الأرواح، بأنها من جواهر أنوار الملكوت ألقت بعضها بعضاً بألف الله سبحانه في مشاهدة جماله، حين إذا قربا طعم وصال، فأحب المؤمنين بعضهم بعضاً بمحبة الله في قلوبهم، ويتعاونون بعضهم بعضاً في عبادة الله، ونصرة أنبياء الله وأوليائه.

وقال أبو عثمان: المؤمنون أنصار يتعاونون على العبادة، ويتبادرون إليها، وكل واحد منهم يشد ظهر صاحب، ويعينه على سبيل نجاته، ألا ترى النبي ﷺ يقول: «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً»^(١). وقال ﷺ: «المؤمنون كالجسد الواحد»^(٢).

قال الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ .

وقال أبو بكر الوراق: المؤمن تولى المؤمن طبعاً وسجياً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) رواه البخاري (١٨٢/١)، ومسلم (١٩٩٩/٤).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٣٤).

وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبَنَسِ الْمَصِيرَ ﴿٢٧﴾ خَلْفُورٍ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٨﴾ * وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَبَنَ ءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ سَتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ * وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٤﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ﴾: إن الله سبحانه وعد أعلى شهود الغيب من الموقنين الصادقين في رؤية الآخرة والحق بالله، وهذا الوصف منه تعالى وصول نفذ؛ لأن الخبر منه معانية؛ حيث يهيب روائح قدسه لأهل الأنس، وتنشقها مع طيبها أرواحهم وقلوبهم؛ لأجل ذلك هاموا في شوقه، وغابوا في حبه، وطاروا من الفرح بوصاله.

وما قرن هذا الوعد بشرط من شروط العبودية، في نفس الآية يدل عنه فضل بلا علة، ووصول أهلها إلى معادنها؛ لأن تراب أهل العرفان من معدن الرضوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص]:

[٨٥]: اصطفاهم الله في الأزل لحضرته، وسماهم المؤمنين أي: الصادقين فيما رأوا بقلوبهم أنوار الغيب، والمؤمن إذا كان صادقاً، فهو صالح وشهيد؛ لأنه اتبع ببذل نفسه وروحه، بمن تستنق من الغيب من نسيم الوصال، وهو مقبول لحبه بمشاهدة الجمال، ولا يبالي الله بما

جرى على صورته من الزَّلَّات، فإن المؤمن إذا باشر معصية ندم، وغص بتلك المعصية له، وصار مرأى منقُصاً بندامته، ويذوب قلبه رجاء ربه، وكانت معصيته طاعة، وعدهم بالجنَّات، وقلوبهم في جنَّات المشاهدة، فكيف يلتفتون إلى الجنة؟

ووعدهم بالمساكن الطيبة، وهم ساكنون بأرواحهم في مشاهدة جماله وقربه ووصاله، ويجري عليهم واردات لذة خطابه، ولذيذ لطائف نوره، وطابت نفوسهم في مساكن طاعاته، باسترواحهم بنسيم مروجه رجاءً وصاله، وطابت عقولهم بدورانها في أنوار آياته، وطابت قلوبهم بشهودها على مشارب صفاته، فتشرب منها شربات المحبة، وتسكر برؤيتها بنعت الحيرة.

وطابت أرواحهم بطيرانها في سبحات ذاته، بأجنحة رضوانه، فهي تُعلّق أبداً إلى مساكن كشف قدمه، وجلال سرمدية رضوانه الأكبر، بتنسّم صبح الصفات في وجوه الهائمين في عجة مشاهدة الذات.

يا أخي هؤلاء في الدنيا في طيب مساكن الوصلة، وجنَّات عدن القربة، وما داموا هاهنا في هذه الغربة، وجدوا ما يعاين لأهل الوعد، فلا يزالون بالغد، فإن قلب جميع المساكن لا يكون إلا برؤيته وجماله، ومن أدرك ذلك كيف يلتفت إلى حُسن النظر، وطيب المسكن؟ وإن كان في موضع وحشي، وأنشد:

تَمَنَيْتُ مَنْ جَبِي بَشِيئَةَ أَتَنَا عَلَى مَدَمَتْ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ لَنَا
وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ لَمْ يَكُنْ مِمَّا وَصَفْنَا بِهِ أَتُرُ فَهَوَ خَرَابٌ مُسْتَوْحِشٌ وَإِنْ كَانَ الْجَنَّةُ
أَجِيرَانَنَا مَا أَوْحِشَ الدَّارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غَبِثُمْ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورُ
وَلَايَ لَاهُوى الدَّارِ وَلَا يَسْتَقَرُّنِي بِهَا الرَّدُّ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيَارِ كَا

ويقال:

قَوْمٌ بِطَيْبٍ مَسْكَنَهُ بِوَجُودِ عَطَائِهِ وَقَوْمٌ بِطَيْبٍ مَسْكَنَهُ بِشُهُودِ لِقَائِهِ

وقال الأستاذ: أمانة هذا الرضوان، وجدان طعمه فقداً، فهو في روح الأنس، وروح الأنس لا تنقاصر عن راحة دار القدس، بل هو أنتم وأعظم، ثم حثَّ نبيّه ﷺ، بجهاد من حاله يخالف حال هؤلاء، حتى يطهر وجه الأرض من الأغيار، وذلك من غير الجبار على أهل تلك الدار.

بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

(١) قال التستري (١/٢٠٥): جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حولات الندم، وسبرها في مفارز

﴿الْكُفَّارَ﴾ : النفوس الأمارة، وجهادها إمامة شهواتها، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ : هم إبليس وجنوده، وجهادهم [مجاهدة] طريق الوسواس بالجوع الدائم، والحزن القائم، والزجر الغليظ عليهم يكون من القلب الروحاني المملوء من النور الرباني، وفيه رخصة زجر المدّعين، فيجوز الصادق أن يزجرهم، ويُعرض عنهم.

قال محمد بن علي: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان.

وقال سهل: النفس كافرّة، فجاهدها بسيف المخالفة، وأجلها جولات الندم، وسيرها في مفاوز الخوف، لعلك تردّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا لتحجّر في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

ثم وصف الله أهل النفاق بنقض العهود، وفسخ العقود، وشحّ النفوس، بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ : هذا وصف المغرورين الذين ما ذاقوا لهم محبة الله، ولو وجدوا لذة منها بقدر رأس إبرة، ليدلوا وجودهم لشوق جماله.

قال النصر آبادي: الفضل في رؤية الإحسان، رأوا من أنفسهم إحساناً لم يعملوه بعد، وصدقة لم يتصدقوا بها، وصحّحوا لأنفسهم أفعالاً، بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، فنقضوا العهد لما ظهر لهم ما سألوه، فتولّد لهم من ذلك البخل الذي قال عنه النبي ﷺ : ﴿أَيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ﴾^(١).

والتولي عن سبيل الرشد، والإعراض عن مناهج الحق، وذلك أنهم أخلفوا وعدهم في السخاء، فلزم عليهم الخيانة والبخل والكذب، بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾.

ثم إنّ الله سبحانه وصفهم بتمام الحرمان عن السعادة والسخاوة، بقوله: ﴿فَأَعْقَبَتْهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ، زاد نفاقهم جزاء لبخلهم.

قيل: هو ميراث البخل، وهو الكذب والخلف والخيانة.

الخوف، لعلك تردّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهوت في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١١١).

سئل أبو حفص: ما البخل؟ قال: ترك الإيثار عند الحاجة إليهم، ثم أن الله سبحانه أعلم أنه مطلق على عقودهم الفاسدة، وعهودهم الكاذبة في قلوبهم، لمعرفة لسجيّتهم المجبولة بالبخل والنفاق، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ فَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَجَعَلُوا

أَعْلَمَنَا وَصَفَ عِلْمَهُ الْمَحِيطَ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَخَوْفَنَا مِنْ عَظِيمِ مَرَاقِبَتِهِ، وَارْتِصَادِهِ بِمَرَاصِدِ الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ، وَعَرَفْنَا مَكَانَ الْحَيَاءِ مِنْهُ، وَاجْتِلَالَهُ وَالْخَوْفَ مِنْ عَظَمَتِهِ، حَيْثُ أَنَّهُ عَلَّامٌ عَلَى خَطَرَاتِ قُلُوبِنَا، وَحَرَكَاتِ أَسْرَارِنَا، ذَكَرَ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، وَ«السِّرَّ»: مَا هُوَ يُعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَ«النَّجْوَى»: مَا هُوَ يُعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ أَيْضًا، وَلَا يَعْلَمُ مِنْكَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ.

النجوى: سرٌّ، وسرٌّ غير النجوى سرُّ السرِّ.

قيل: «السِّرَّ»: مَا لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ إِلَّا أَعْلَمُ الْأَسْرَارِ، وَ«النَّجْوَى»: مَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ الْخَفِظُ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) فَإِنَّ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ مِنْهُمْ فَأَسْتَخَذُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٢٥) وَلَا تَصِلْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسْقُوتٌ (٢٦) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَافِرُونَ (٢٧) وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَعْدَةِ (٢٨) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٢٩) لَنْكُنَ الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٠) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٣١) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليضحكوا فيها ما شاء، وإذا أبغضوها وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبدًا.

وقال أبو يزيد: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: لثلاث تغرّتهم الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: شوقًا إلى

مولاهم.

قال طاهر المقدسي: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: فإتهم في دار الخدمة، وليس من أوصاف الخدم الضحك الكثير.

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: فإتهم في ميادين الحزن والغم، ولذلك اختار سبحانه وتعالى تقليل الضحك، والضحك إذا كان من غيبة الأنس، ووضوح صبح نور الجلال، فالضحك والبكاء هناك واحد.

والبكاء الكثير: ما يكون قبل المشاهدة في الشوق، وبعد كشف المشاهدة من الفرح، والأنس بالوصال، فهذا البكاء هو بكاء المريد، وذلك من الأشجان والأحزان، والمحبين من الفوت والفرار.

وصف الله حال الأولين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣]: وذلك بديهة الغيب عند ظهورها من الغيب، فيفرح لصورتها ويجهل بحقائقها، وهو معذور ما دام مغلوبًا، لذلك نهي النبي ﷺ الضحك من غير حُب، وما يجوز للمقتضين من ركوب التوحيد، وأحزان المحبة، أن يكون ضحكهم ترفيه فؤادهم من برحاء الحزن، لا يجوز أكثر من ذلك.

قال في قوله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾^(١): عين فاضت دمعها بأخبار، وعين فاضت دمعها على قلّة الوفاق، وعين فاضت دمعها على الإخلاص والصفاء. قال الحريري: العيون الباكية على ضروب: فعين تبكي عبادةً ورسماً، وعين تبكي خشيةً وحزنًا، وعين تبكي هيبةً ووجلاً، وعين تبكي خصوصيةً وحقيقةً.

ثم مدح الله رسوله وأصحابه بعد ذمّ المنافقين، بقوله: ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

جاهد الرسول ﷺ باحتيال أئقال أمانة الرسالة، وأدائها بغير حظوظ البشرية، وجاهد العارفون، بإفناء وجودهم لمشاهدة الله، وتبذل وصاله، ثم وصف المؤمنين بالمعية معه بالأرواح في مشارب بحار المشاهدة، وسواقي الرسالة، فالولاية حين أشهدا الله مشاهدته في أبد الأزل حين عرّف نفسه لهم، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولولا تلك المعية والتعريف، لما وافقوا في بذل مَهْجِهِمْ معه في معارك مشهد العشاق

(١) أي: غلا بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، ومن الدمع متعلق بتفيض ومن ابتداء الغاية، والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول. تفسير حقي (٣/٣١٧).

المقتولين بشوق المحبة من أهل الأشواق، ثُمَّ عَمَّهُمُ اللهُ مع نبيه ﷺ بنيل جزيل الطافه، ولذا نذ ألفاظه، واعتطفاه من كشوف أنوار جماله، وسناء جلاله، بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾.

يعني المشاهدة والمكاشفات والوصلات والقربات، ثُمَّ زاد في وصفهم، بأنهم نجوا بهذه النعم، وسابقة سعادتهم، من نكايات قهره، ونكال بطشه، بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفائزون من كل فرقة، والظافرون بكل بغية، وتصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. جناية قربانه، ومشاهدات صفاته التي تجري أنهار علوم الأزل في أنوارها من بحار الذات، ومن فاز بشرية منها، يصير متصفاً بتلك الصفات، ويكون باقياً في مشاهدة الذات، وذلك الفوز، النجاة من الحداث، والبلوغ إلى مشاهدة الرحمن.

قال بعضهم: اجتهد الرسول في أداء الرسالة، أبلغ العناية، وجاهد المسلمون بأنفسهم في قبول ما جاء به من الشرع، ما كان منه حظ النفس بالنفس، وما كان منه حظ المال بالمال.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٣٧﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْذِرُونَكَ وَهُمْ أَعْيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَحْبَارِكُمْ وَسَمِعِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ سَيَخْلِفُونَ بِأَلْفِهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٠﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْفُتُوحَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤١﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ: وصف الله زُمرَة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهاثمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات الذين أنحلوا أجسامهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضل حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأنس، ورياض الإيقان.

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ يعني: الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾: الذين أمرضهم مرارة الصبايات.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾: الذين يتجرّدون عن الأكوان بتجريد التوحيد، وحقائق التفريد.

﴿حَرَجٌ﴾: عتاب من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومريضهم من الحب، وفقيرهم من حُسن الرضا، ثم زاد في وصفهم بالشفقة على دين الله، وعلى سُنَّة رسول الله، بقوله: ﴿إِذَا تَصَحَّحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأُسوة بسُنَّة رسول الله ﷺ، ثم وصفهم بترائي قلوبهم هلال جلاله نعت بذل أرواحهم ونفوسهم لله في الخُلُوات، ويَين أنهم فائزون من نكايات المكر والامتحان، وجميع البَلَيَّات والعقوبات، بقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما على المشاهدين جلاله وجماله سبيل الحجاب، وقارعة العتاب؛ لأنه كان في الأزل اختارهم برحمته السابقة، وغفر في القِدم تقصيرهم في المعرفة، بأنه علم أن الخلق يعجزون عن حمل بوادي عظمتهم، وأوائل كشف سلطان كبريائه، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾: مَنْ لم يكن من القدرة، فقد رفع عنه الحَرَج.

قال ابن طاهر: لو لم يكن في الفقر والقلة إسقاط الحرج عن صاحبه، لكان ذلك عظيمًا.

قال الله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وقال القاسم: في قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾: من يرى الإحسان كُلَّهُ

من الله، فلا يكون لأحد عليه سبيل، وقد وقع لي في قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما على من أصفاه الله في سابق إحسانه عليه تغيير الاصطفائية قطً، وإحسانه لله

إحسان الله فيه، وشهوده عليه، وشهود العبد مشاهدته بشرط ألا يرى لغير الله وزناً من نفسه، وجميع الأكوان حتى لا يجد عليه أحد سبيل المنّة.

ثم وصف هؤلاء المحسنين بالفقر والظرافة فيه، بنعت بذل الوجود، وصدق اللقاء المحمود، بقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لترفعهم عن رؤية غير الله؛ حتى رؤية ما وجدوا من الله من حظوظ حلاوة مشاهدته إلى الفناء فيه؛ حتى لا يبقى فيهم غير حظ الله منهم.

أيضاً أي: لتحملهم بالله؛ حتى يكونوا معك في مشاهدة الله أبداً، ولا ينقطعوا عنك طرفة عين، ثم بين الله سبحانه وصف القوم برغبتهم في بذل وجودهم لله، وسرعة مسارعتهم إلى الله، وشدة شوقهم إليه، وكثرة حزنهم بما فاتوا عنهم من حقوق الطريقة بتمام الآية، مما أجابهم رسول الله ﷺ: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد من العرش إلى الثرى شيئاً يحملكم غير الله، ثم قال الله: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾: بين أن البكاء من الحزن، وهو بكاء المريدين؛ لأن بكاء العارفين والمحبين من الفرح بالله.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: يحملهم على الإقبال علينا، والثقة بنا والرجوع.

وقال أيضاً: يحملهم أي: فتحمل عنهم أثقال المخالفات، ثم بين أن العتاب على من سكن إلى الدنيا، وفرح بها، بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَبْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ﴾: وصف المتقاعدین عن الحق، وعن السير إلى معارك شهداء العشق الذين قتلوا بسيف المحبة، باشتغالهم بنفوسهم الأتارة، وهواها القاطع سبيل طلعة الله سبيل العار والشنار عليهم؛ لأنهم تركوا حظ الأكبر بالخط الأصغر.

قال النصر آبادي: ألزم الله الندم الأغنياء؛ لأنهم اعتمدوا أملكهم وأموالهم، واستغنوا بها، ولو اعتمدوا على الله، واستغنوا به لما ألزموا المذمة.

ثم وصف تكلف أهل الدنيا، في إنفاقهم بالنفاق والرياء والسمعة، ثم رأوا ذلك أيضاً غرامة؛ لأنهم لم يعرفوا ما يطلبون، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوْآبِرِ عَلَيْهِمْ ذَا بَرُهُ السَّوْءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّا قُرْبَةً لَهُمْ سَيِّدِ خَلْقِهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَالسَّبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

تَبْعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خُنَّ يَعْلَمُهُمُ سَعْدِ بْنِ مَرْثَدٍ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾: هكذا شأن من لم يذق ذوق السخاء في المعرفة.

قيل: من يري الملوك لنفسه، كان يُنفقه غرامة عنده، ومن يري الأشياء لله عارية في يده، رأى ما يُنفقه عنها إلا غرمًا.

ثم استثنى من هؤلاء من تصديق الله ورسوله والدار الآخرة، بنور قذفه الله في قلوبهم، وشرح به صدورهم، فيُنفقون على رجاء قربة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: مشاهدات، وكشف حجاب، ورجاء وصال.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: بأن يذعوا لهم، ويستزيد لهم مزيد قربة الله.

ثم قال تعالى على وجه استحسان ما أنفقوا له على أوليائه: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: إنها وسيلة إلى قربة الله، بل من قربة الله منهم، وفقهم ببذل وجودهم له^(١).

ثم وصفهم بأنهم سيدخلون في حضرته وقرنته، وحجاب مملكته، ويرونه بلا حجاب، ولا عتاب، بقوله: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: رحمة مشاهدته، أن يسترهم بكنفه عن غيره.

قال بعضهم: من طلب القربة إلى الله هان عليه ما يبذله في جنب ذلك، وكيف ينال القربة إلى الله من لا يزال يتقرب إلى ما يُبعده من الله، وهي الدنيا.

ثم وصف الله أهل سعادة الكبرى من سوابق زُمرة الأعلى، الذائقون طعم مجالس دنائي، وكان قاب قوسين أو أدنى، بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أَلَا هُمْ فِي الْمُهْجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي: السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحق من ممكن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس

(١) وقال ابن عجيبة: تقريبهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدتهم وكهال إخلاصهم. البحر المديد (٢/٤٣٩).

السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالئى.

فإذا تلبّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلّي القِدم، فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الرُلفات، وحقائق الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ وعناية.

وقال الواسطي: السَّابِق قولاً وفِعْلاً، وحَدَّر النفس حسرة المسبوق، ثم وصف السابقين لهم، فقال: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ» أي: أدركوهم، وأدركوا ما هم فيه من لطائف الكرامات، وأنوار المشاهدات.

وقوله: «بِإِحْسَنٍ» أي: بإحسان الله عليهم في الأزل، حيث أرشدهم طريق المعارف، فأحسنوا بإحسان الله، وإحسانهم شهودهم حضرة الله، بنعت استضاء نور الإيقان والإيمان والعرفان.

ثم بيّن تعالى أن هذه الكرامة لهم من حُسن الرضا عنهم في الأزل، بقوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»: رَضَاهُ عنهم سابقة الاصطفائية منه لهم في الأزل، فجعلهم راضين عنه بعد كشف لقائهم، فقد اختاروا مشاهدة الله على ما سواها إلى الأبد.

قال جعفر عليه السلام: بها كان سَبَقَ لهم من الله من عنايته وتوفيقه، ورضوا عنه بما مَنَّ عليهم، بمتابعتهم لرسوله صلى الله عليه وآله، وقبول ما جاء به، وإنفاقهم الأموال، وبَذْلِهِمُ الْمُهْج.

وقال النصر آبادي: ما رضوا عنه، حتى رضي عنهم بفضل رضاه عنهم، رضوا عنه.

«وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١٦) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّوْتَكَ سَكُنَ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٨).

قوله تعالى: «وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا»: وصف الله قومًا عرفوا معائب أنفسهم لمعرفة الله وتعريفه إياهم نفسه، فعرفوا نفوسهم بمعرفة الله، فندموا عما جرى عليهم من أعلام المخالفات من الخجل والحياء بين يد الله. وهم قومٌ ألحقتهم أنوار العناية تارة إلى المباشرة، وسائر القربة، ونشّقتهم نسائم

الوصلة، ثُمَّ مَسَّهم طَوَارِقُ الْفِرْقَةِ، امتحانًا من اللطف والقهر؛ كي يعرفوا الحقَ بمعرفة قهره ولطفه، وذلك معني قوله تعالى: ﴿حَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، فإذا بلغوا إلى محل الاستقامة، رُفِعَتْ عنهم نوابِ الامتحان، وسكنوا في مشاهدة الرحمن، وهذا قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّىٰ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: صفة النادمين والمعرضين عن الذنوب، والناوين للتوبة هي: الاعتراف بما سبق منهم، وكثرة الندم على ذلك، والاستغفار فيه، ونسيان الطاعات، وذكر المعاصي على الدوام، والابتغال إلى الله بصحَّة الافتقار؛ لعل الله يفتح له باب التوبة، ويجعله من أهلها.

قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُوا اعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ حَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَنَّىٰ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: يَبَيِّنُ سبحانه أن يده في أخذ الصدقة، يد الله بقوله ﷻ: «الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل».

قال تعالى: ﴿وَيَا خُذْ الصَّدَقَتِ﴾ أي: خُذْ ما يتعلق بحفظ أنفسهم، حتى لم يبق بينهم وبين الله حظ النفس.

وأيضًا أي: باشر أموالهم بأخذ الصدقات للفقراء؛ حتى تصل بركة يدك إلى أموالهم، وتطهر بلطف يدك نفوسهم من المعاصي وجميع العذاب، وتطهر قلوبهم من حب ما سوى الله.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾: تُقَدِّسُهُم من البخل، وسوء الخلق.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم بقبول الله إيمانهم لوصاله، وقبوله منهم ما مَنَّ عليهم من نواله.

﴿إِنَّ صَلَواتَكَ﴾: سَكينة قلوب المؤمنين، فَإِنَّ دُعَاكَ لهم، مقرون بالإجابة، وهم موقنون بذلك.

قال رويم: تُطَهِّرُ سرائرهم، وتُزَكِّي نفوسهم.

قال الواسطي: تُطَهِّرُ أبدانهم من دَسِّ الانشغال بها والانقطاع إليها، وتُزَكِّيهم عن دَسِّ الافتخار بها، والمكاثرة بجمعها، وليس على الأنبياء زكاة؛ لأنه ليس على سرائرهم خطر الأموال.

وقال أيضًا: تُطَهِّرُ قلوبهم من أنجاس الذنوب، وتُزَكِّي بواطنهم وسرائرهم من أنجاس العيوب، فأنجاس ذنوب الظاهر المنع، وأنجاس عيوب الباطن الأذى.

وقيل في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾^(١) أي: ادع لهم، فإنَّ دعاءك لهم يكون سكوتًا إلى الآخرة، وانقطاعًا عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٢) إنَّ الله سبحانه عَرَّفَ الخلق كرمه القديم، وفضله العميم يُعْطِي الكثير، ويقبل القليل، ويرى من عبده كثير السيئات، ويبدِّلها له بالحسنات.

أي: يقبل توبة الآسف على ما فاته من قُرْبَةٍ في زمان الطاعة، ويأخذ صدقة الموقن بجزائه بكشف المشاهدة.

قال النصر آبادي: فرقٌ بين القبول والأخذ؛ لأنَّه قد يَقْبَلُ ثم يأخذ، ولا يأخذ إلا عن قبول، فالأخذ أتم وأعم.

وقال أيضًا: أخذ الصدقة أجلُّ من قبول التوبة؛ لذلك تقع فيه الترية، قال النبي ﷺ: «إنَّ الله يأخذها فِيرِهَا كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلة..»^(٣) الحديث.

وعند عبده وخادمه - والله أعلم - أن القبول أتمُّ من الأخذ؛ لأنه ربما يأخذ، ولا يليق بنفسه وتعطى إلى غيره، ولا يقبل بطيب نفسه منه، بل يأخذ بطيب قلب المُعْطِي، فإذا قبل لطيب نفسه يأخذ لنفسه، ولا يعطى إلى غيره.

وأيضًا: يرى أن قبول التوبة أعظم من قبول الصدقة؛ لأنَّ الصدقة شيءٌ لا يتعلّق بوجود النائب، وما جرى على النائب من المعصية كراهية عند الله، لأجل منازعته ومخالفته وذلك يتعلّق بالجبروت، فإذا ندم وخضع وخجل بين يدي الله، يصير خارجًا من صورة المنازعة، وخاضعًا للربوبية، فما كان في نفسه من الإيمان واليقين والندم والخجل، أعظم من جميع الكون عند الله.

إن كان صدقة منه، فإنَّه يُعْظَمُ الله وَيَصْدُقْهُ، وَيَنْزُهُ بِفَنَائِهِ في عظمته، وهذا عمل القلب والصدقة وما سواهما عمل الجوارح، وأين عمل الجوارح عند عمل القلب؟ وذكر الله أعظم من جميع الصدقات وجميع المعاملات، فإنَّه ذَكَرَ ذاته وصفاته، قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال النبي ﷺ «حد الحامد أعظم مما أعطي له من النعمة».

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ

(١) قال القشيري (٣/ ١٦٢): إنَّ تُعَاثِرَهُمْ بِهَيْئِكَ مَعَهُمْ أَثْمَنُ لَهُمْ من استقلالهم بأموالهم.

(٢) رواه البخاري (١/ ٥١١)، ومسلم (٢/ ٧٠٢).

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلُقَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْإِحْسَنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَخْطُوهَا وَاللَّهُ يَحُبُّ الْمُطْهَرِينَ ﴿٩٧﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى التَّقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بَيَّنَّ سبحانه مراتب علوم الإلهية على ثلاثة أقسام: استأثر قسماً لنفسه، وقسماً لرسوله، وقسماً لأوليائه، فما استأثر لنفسه، فهو العلم القديم، وإحاطة نظره القديم على كل محدث، ولا تخفى عليه الضمائر، وما يجري في السرائر علماً ورؤية بغير علة الاكتساب.

ثم استأثر الأنبياء بنور منه يرون به، فترى قلوبهم به أعمال الخلاق عياناً وبيانات، وذلك نور الذات، واستأثر أوليائه بسنا منه، فيرى به أعمال الخلاق في الخلوات، وما في قلوبهم من المغيَّبات بالفراغات الصادقة، ذلك نور الصفات، وفيه تخويف المخلصين والصادقين الذين يتعرض لقلوبهم النعوس، والشياطين بالهواجس والسواس في أوقات الفترة؛ حتى يراقبوا أسرارهم، ويراعوا أوقاتهم بتقديس القلوب من الخطرات.

قال أبو حفص أو أبو عثمان: اعمل، وأصلح العمل، وأخلص النية، فإنَّ الله يرى سرَّك وضميرك، والرسول يراه رؤية مشاهدة، والمؤمنون يرونه رؤية فِرَاسَة وتوسم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَشِّحِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: بَيَّنَّ الله سبحانه أنَّ تأسيس كلِّ عبادة لا يكون إلا بالتقوى، والتقوى بظهور الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وكلِّ موضع يتضرَّر فيه، ونيران التقوى تحرق جميع الأوصاف النفسانية والشرطية من الشرك والشك والرياء والتفاق والسمعة، ولا يبقى هناك إلا صفاء السرِّ وطهارة الضمير، وخلوص النية، وصفاء القلب، وتجريد ذكْر الله عن ذكر مخلوق.

وإذا كان كذلك تكون العبادة والإرادة، تبلغ الإيِّان والإيقان إلى درجة العرفان،

والعرفان يبلغ هذه المراتب إلى درجة التوحيد، والتوحيد يبلغ الجميع إلى مشاهدة الموحّد، حتى صارت كلّ غيبة عياناً، وكلّ نكرة عرفاناً وكلّ إبهام بياناً، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي هذه الآية عرفنا الله سبحانه أنّ الشرّ قديمٌ، وفي كلّ زمانٍ، لكلّ صادقٍ قيّض الله له بذاته ملعوناً سالوساً يؤذيه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ومن جملة من كان يؤذى نبينا ﷺ: أبو عامر الفاسق، وكان راهباً أمر المنافقين ليعينوا مسجداً ضد مسجد قباء، أو مسجد النبي ﷺ رياء وسمعة ونفاقاً، وصداً الخلق عن الدخول في الإسلام.

كذلك في زماننا هذا لبسوا الصوف، وأظهروا الزهد، وبنوا بقاع السوء، وجلسوا فيه بالأربعين، ويرسلون الشياطين إلى أبوابه، لا تراك العوانين حتى يقولوا أن فلاناً في الأربعين، ينبغي أن تزوره، فإنّه من أولياء الله، ويريدون بذلك جرّ المنفعة إليهم، وصرف وجوه الناس إليهم مع مضادات أولياء الله، فإذا دخل عليهم أحد من العوام، يقعون في ذكر مساوئ أولياء الله، وعيبهم وقبح المقال فيهم؛ ليصدوا الناس عن التبرّك بهم، والاعتقاد فيهم يخونون الله، ويخونون أولياء الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، طهر الله وجه الأرض من مثلهم.

قال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ من صحّح إرادته بدءاً، ولم يعارضه شكٌ أو ريبٌ، فإنّ أحواله تجري على الاستقامة، وتصحيح الإرادة، هو الخلع عن مراده أجمع، والرجوع إلى مراد الله فيه. قال الله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾.

قال أبو عثمان: أرض الفتنة لا يَنْبُتُ فيها إلا الفتنة، وأرض الرحمة تُصيب الإنسان رحمة، ولو بعد حين^(١).

ثمّ إنّ الله سبحانه وصف أهل القباء بتقديس أسرارهم، وعلو مراتبهم، وقبولهم في أزل محبته لهم، بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: وصفهم بحبّ الطهارة، ووصف نفسه تعالى بحبّ المطهّرين.

والطهارة: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريات،

(١) (أحقّ أن تقوم فيه) أي: أولى بأن تصلى فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الإثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. البحر المديد (٢/ ٤٤٧).

وطهارة الأبدان من الزلات، ومن أحبه الله في الأزل، يُطهره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفه عين، فإن المحب لا يترك حبيبه في شيء يُضر به.

قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

وقال بعضهم: ﴿مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أي: يُطهروا أسرارهم عن دنس الأكوان، ثم وصف سبحانه هؤلاء الرجال، وتأسيسهم بناء الطاعات على موافقة الله ورسوله، وطلب رضوانه، بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ؟﴾: الله بُنيان، وهو قلوب الصديقين، وفيها مناظر القدس، ومحافل الأنس، تحفوها أنوار تجلي الحق سبحانه، فمن أسس بُنيان قلبه بعد تطهيره عن دنس الأخلاق، وتنويره بنور الخلاق؛ لذكر جلاله، وتعظيم عظمته، وحب لقائه، وشوقه إلى جماله، ومعرفته وتوحيده، وإفراد قدمه عن الحوادث بنعت فنائه في احتشام الله، وخوفه وإجلاله، وخشيته من كبريائه، ومراقبته خطابه وأسراره، وطلب رضوانه ووصاله، يصل بهذه الأوصاف إلى أن يكون قلبه موضع أسرار الله، ولطائف رضوان الله، وظرف محبة الله، ومحل زيارة الله، كما حكي للنبي ﷺ عن الله سبحانه، بأن له تعالى ظروف أسراره في الأرض، قال: «إن لله أواني ألا وهي القلوب»^(١)

قال أبو تراب النخشي: من كان إبقاء إرادته على الصحة والسلامة من هواجس نفسه إلى الرضوان الأكبر، والمقام الأرفع.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ؟﴾

قال الواسطي: ﴿عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ؟﴾: لا من نفسه يكون الله أصل تلك التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَارِعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩) الشُّبُوحُ الْعَبْدُورُ الْحَمْدُورُ السُّبُوحُ الرَّكْعُورُ السَّجْدُورُ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ

الْجَحِيمِ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ لِإِثْمِهِ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مُوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِثْمَ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَدُّ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَرْبٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ تقتضي همة المعرفة أنه أغار على نفسه في الأزل بعد أن وصف نفسه بمحبتهم، فمَنَّهُم عن نفسه، وشغلهم بغيره مكرًا بهم واستدراجًا، اشترى نفسه منهم؛ لأنه بذاته نفس الكل، حيث قام الوجود بنفسه، ولولا قيامه على شيء تلاشت الأشياء، ما قلَّ من لحظة عرض نفسه الحداث، ولم يرها أهلًا لنفسه، فاشترى نفسه من نفسه؛ لعلمه بضعف الخلق عن تحلٍ وارد تحلِّي عظمة نفسه، وكيف يقوم الحدث جلال القدم، وهو تعالى قيمة نفسه لا غير، اشترى شفقة عليهم؛ كيلا يتلاشوا في سباحات عزته، ثم اشترى أموالهم، وهي كشف نعوته الأزلية، وتمتعهم بمشاهدتها؛ حتى لا يبقى سرّ العدم إلا في القدم.

فلَمَّا قطعهم عن رؤية سباحات القدم بالحقيقة، سَغَلَهُم بما يليق بهم، وهي الجنة، وأيضًا لم يَرِ للنفوس والأموال نفاسة حيث اشترها بالجنة، ولو كان لها موقع لاشترها بنفسه لا بشيء محدث، وأيضًا اشترى النفوس؛ لأنها حجاب القلب من الربِّ، وكذلك المال؛ حتى لم يبق بينه وبين الربِّ حجاب، وأيضًا اشترى منهم النفوس التي تحت سلطانهم بالمجاهدات، وما اشترى قلوبهم؛ لأن قلوبهم لم تدخل تحت أملاكهم، فإنه مستغرق في رؤية الصفات.

وقال ابن عطاء: نفسك موضع كل شهوة وبليّة، ومالك محل كل إثم ومعصية، فأراد أن يزيل مُلكك عما نصرك، ويُعوّضك عليه ما ينفعك عاجلاً أو آجلاً.

قال سهل: لا نفس للمؤمن؛ لأنها دخلت في البيع مع الله، فمن لم يبع من الله حياته الفانية، كيف يعيش مع الله، ويحيى حياة طيبة.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

قال جعفر: مكر بهم على لسان الحقيقة ولسان المعاملة، واشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبة في قلوبهم، فأحياهم بالوصلة.

وقال الحسين: نفوس المؤمنين نفوسُ أبيّة اشترها الحق، فلا يملكها سواه.

وقال النصر آبادي: سُئل الجنيد: متى اشترى؟ قال: حين لا متى أزال عنهم العلل، بزوال مُلكهم عن أنفسهم وأموالهم؛ ليصلحوا لمجاورة الحق ومخاطبته.

وقال النصر آبادي: اشترى منك ما هو صفتك، والقلب تحت صفته لم يقع عليه

المبايعة، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»^(١)

فقال: النفس محل الغيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهده فيه غيره، وما سئح لي بعد قولهم، وما ذكرت في مقدم قولهم: أنه تعالى ألبس النفوس حين أوجدها لباس قهر الربوبية، فأسخطت من مباشرته وصف الكبرياء، فلما أنصف بقهره تعالى نازعته، فعلم الحق تعالى لو تركها مع المؤمنين أغوتهم، كما أغوت فرعون، بقوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات: ٢٤]، وكما قال إبليس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» [الأعراف: ١٢]، فهلكها بقهره؛ حتى لا يبقى في المؤمن غير العبودية.

ثم أن الله سبحانه فرّج فؤاد العارفين بوفائه معهم، وخطابه بأخباره عن صدقه بوفائه؛ ليكونوا في بذل وجودهم وقتل نفوسهم، والجهاد مع عدوهم على حسن الظن في الله، وحسن الرضا إلى وعد الله وفائه لعهدده، بقوله:

«وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟ أَى: كُلُّ حَادِثٍ نَاقِصٍ فِي أَمْرِ الْمُسْتَقْبَلِ وَالْقَدِيمِ، مَنَزَّهٌ عَنْ نَقَائِصِ الْحَدَثَانِ، فَيَفْعَلُ بِمَوْجِبِ الْأَخْبَارِ عَلَى مَوَافَقَةِ الْحُكْمِ، وَيُعْطِي لِلْعَبْدِ مَا وَعَدَ بِهِ وَأَكْثَرَ، إِيْظَاهَارًا لِرَبُّوبِيَّتِهِ، وَمَتْنًا عَلَى عِبَادِهِ.

قال الحسين: عهد الحق في الأزل إلى خواصه باختصاص خاصية خصهم من بين تكوينه، فأظهر آثار أنوار ذلك عليهم عند استخراج الذر، فرأى آدم ﷺ الأنوار تتلألأ، فقال: من هؤلاء؟ ثم أظهر سيات ذلك حين أوجدهم، وهى آثار ذلك العهد الذي عهد إليهم فوقهم بعهودهم «وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟».

ثم إن الله سبحانه بشر المؤمنين باشرائه نفوسهم منهم، وبما يجازيهم بها من لطفه وكرمه وفضله ومشاهدته، بقوله:

«فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ»، وأضاف اشتراء النفوس إلى نفسه، اشتراها في الأزل، وأضاف بيعها إلى المؤمنين، وأين المؤمنون في الأزل؟

وأقام نفسه مقام المؤمنين؛ لإشارة مقام الاتصاف والاتحاد، كما أشار إلى النبي ﷺ، بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأنفال: ١٧]، والآية من قبيل عين الجمع بشرهم نبيهم، والغرض من ذلك المشتري أي: بشرّوا بمتابعكم معي حيث اصطفتكم بخطايي وشرائي، الذي يُبَيِّنُكم عن كريم لطفي بكم، بأنّي أعطيتكم ما وعدتكم بلا

عذاب ولا حساب، وأكشف عن وجهي قناع الجبروت، وأريكم جمالي وجلالي، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قال النصر أبادي: البشري في هذا البيع، أنه يُوفي بما وعد، بأن لهم الجنة، ويزيد لمن يشاء فضلاً منه وكرماً بالرؤية والمشاهدة.

ثم وصف أهل ذلك البيع والشراء، بأوصاف المقامات مفصلاً ومقتماً، بعد أن جعل جميع الأوصاف في اسم العلم الذي هو المؤمن، وذلك الاسم اسم جامع لمعان كثيرة، وهي ما وصفهم الله بهذا في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ الْمُسْتَخِفُّونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ يَتَنَسَّعُونَ مَقَامَاتٍ، وذكر في أولها ذكر الإيمان، حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان أصل جميع المعاملات والحالات والدرجات والمنازلات، وهو أصل جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، وهو تعريف الله نفسه لعبده بعد أن جعله عاقلاً مستعداً لمعرفته، فاهماً لخطابه.

ومن الإيمان تشعب هذه الخصال، وهذه المقامات، فصارت قسمة المقامات عشرة مع الإيمان، والإيمان أوله.

والمؤمن ممتحنٌ ببلايا المعرفة من الله، فيذوق مرارة الفُرقة بعد ذوق الوصلة، فيقع بتوفيق الله السابق في الأزل، فيوقظه من نوم الغفلة، وينبّهه من قدرة الفُرقة حتى يتنبه ويفتح عين قلبه، فيعرف ما أفسدت النفس والشيطان في مصارع قلبه بذئاب الشهوات، وسباع الشبهات، ويرى خيول الهوى في محلّ الروح الناطقة، فيهيّج سرّه نور الإيمان إلى إخراجها من منظر نظر الله، فيقدّس أسرارهِ من النظر إلى الأغيار، ويخرج نفسه من منازل الاغترار، ويندم على ما فاتهِ من أوقات الطاعات، ويرجع بالحياء والحجل إلى أبواب المداناة، ويستأنف عمل الإرادات، حتى تستحق له مرتبة التوبة، فيتوب الله عليه بعطف وصاله وكشف جماله.

فالتائبون: قومٌ رجعوا من غير الله إلى الله، واستقاموا بالله مع الله، ولا يرجعون من الله إلى غير الله أبداً.

ثم يوجب هذه الأوصاف للتائب الصادق، العبادات والمجاهدات والرياضات، حتى يذوق طعم العبودية، وذلك بعد الحرية عمّا سوى الله، حتى يكون عبداً لله لا لغير الله، ويرى مشاهدة الله في عبادة الله بعين الإحسان ونور العرفان، كما قال سيد فرسان العالمين في ميادين

المعرفة محمد رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١).

فالعابدون: هم القائمون بالله في الله عن غير الله، فإذا تمت هذه النعم لهذا العابد يقتضي حاله تحمد المنعم القديم بإحسانه السابق للعابد في الأزل بإنعامه، فيحمده بوصل الخجل، وخرس ألسنة أسرارته عن البلوغ إلى ثنائه، فيحمده بلسان حمده بنعت نسيان غيره في حمده، فيحمد مُنعمه بنعمة تعريف نفسه له، فيستعف لسان الحمد من صفته، فيصفه بصفته لا بوصفه؛ لأن الحادث كيف يطبق أن يحمد القديم؟

ألا ترى كيف رأى النبي ﷺ نفسه عن حمده في رؤية جلاله مقصورة عن البلوغ إلى حقيقة حمده وثنائه، بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

فالحامدون: الذاكرون الله لجميع الوجود ظاهراً وباطناً، سراً وعلانية، حتى لا تخلو شعرة منهم إلا ولها لسان من الله بحمد الله به في جميع الأنفاس، المستغرقون في بحار امتنان مشاهدته.

ثم يقتضي حمده للحامد حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين هلال جماله في سماء الإيقان، ألا ترى كيف قال ﷺ: «صوموا لرؤيته»، ولا يكون فطره إلا حلاوة مشاهدته؛ لقوله ﷺ: «أنظروا لرؤيته»^(٣).

فالسائحون: السَّيَّارون بقلوبهم في الملكوت، الطائرون بأجنحة المحبة في هواء الجبروت، ثم السباحة في أقطار الغيب، يقتضي المشايخ الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة والكبرياء في مراجع الكشف، فيركع بنعت السكر لجبروته في كل موطن من العالم شوقاً إلى جود جماله، وحسن وصاله.

فالراكون: العاشقون المنحنيون من ثقل أوقار المعرفة على باب العظمة من رؤية الهيبة، ثم يقتضي ركوع هذا الراكع شهود أسرارته في منازل الأنوار؛ لطلب جمال الملك الغفار جلّ جلاله وعزّ كبريائه، فيسجد عند كل كشف في كل موضع وحش، حتى يصير مدهوشاً في دهشة بديهة كشف جماله من كل قبلة في العالم، فيسجد لجميع الجهات لغيبه في معانيات الصفات.

وهكذا كان هشام بن عبدان الشيرازي -رحمة الله عليه- في سكره، ومات بهذه الصفة بارك الله في حياته ومماته، وجعلنا مثله في عرصات المقبولين بسيف محبته، وكشف مشاهدته

(١) رواه البخاري (٢٧/١)، ومسلم (٣٧/١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦٧٤/٢)، ومسلم (٧٥٩/٢).

﴿وَلِلَّهِ الشَّرِيقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَآءُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فالساجدون: الشاهدون مشاهدة الغيب بعد كشف الغيب حرقةً وهيجاناً وشوقاً وهيباناً، أنشد:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا حَرُّوا الْعِزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودًا

وهذا السجود يقتضي التوبة، والقربة تقتضي المشاهدة، والمشاهدة تُصير شاهداً مُتَّصِفاً بصفاتها، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته، صار مُتَّصِفاً بوصف الربوبية، متمكناً في العبودية، فيحكم بحكم الله بهذه النعوت.

وقال: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الدَّاعُونَ الخلق إلى الحق بلسان الطرافة، ومباشرة المعاملة، الباذلون أنفسهم في الله، دفع الضرَّ عنهم، وأخرجهم عن معصية الله بتأييد الله، وبما كساهم الله من أنوار هيئته، وكسوة سنا عظمتها، فيكونون محتشمين باحتشامه بين الخلائق، فنهاهم عن متابعة الشهوات بعد أن منعته نفوسهم عن جميع المخالفات.

قال تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الناهون نفوسهم عن الهواجس، وشياطينهم عن الوسوس، وقلوبهم عن طلب الآخرة، وأرواحهم عن وقوفها في مقام المحبة؛ لأن الأزلية بلا نهاية، والوقوف على منزلٍ واحدٍ حرام على كلِّ عاشق، وهذا مجالٌ يقتضي رتبةً أعلى، وهي حفظ حدود الله، وتابَعُوا سُنَّةَ اللَّهِ ورسوله في شريعته، وأَمَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وعلى خلقه أمر الله ورسوله، ولا يتجاوزون عن حدود الله التي أعلامها معروفة في خطابه، فالحافظون لحدود الله، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية، وبعد أن اتَّصَفُوا بصفاته، وعَايَنُوا جمال ذاته، لا يَدْعُونَ الربوبية كفعل سكارى المحبة؛ لأنهم في محلِّ التمكين على أسوة مراتب النبي ﷺ مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(١).

ثمَّ جمع هذه الأوصاف الشريفة، والمراتب الرفيعة في اسم واحد، وهو اسم المؤمن، وبَشَّرَهُم بجزيل المقامات في الدنْوَ والمداناة، بقوله: ﴿وَيُثَبِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: العارفين الذين هذه الأوصاف صفتهم، وهم في أعلى الدرجات من التوحيد أي: بَشَّرَهُم أنها لهم وهم لي، حجاب بيني وبينهم أبداً، وإذا خرجوا من هذه المفاوز الوعرة لا يبقى بيني وبينهم امتحان بعد ذلك، فإنَّ هناك لُهِيب الوصال بلا علة الفرقة، وكشف الجمال بلا حجاب الوحشة، قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ولي أيضًا لطيفة في حقّ المؤمنين، أن الله سبحانه ذكر أوصاف هؤلاء الكبراء من أهل المقامات والدرجات، وما ذكر ذكر الإشارة هناك، كأنّ ذلك يقتضي حزن المؤمنين الذين هم في أدنى الدرجات من درجاتهم، فبشّرهم بالإشارة، وعاملهم بالبيع والشراء.

قال في الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اشترت منهم نفوسهم بثمن كريم.

قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنّ ذلك الثمن الكريم جنة مشاهدتي، التي بسّامة بنعت الرضا في وجوههم حين تطلع لعيونهم، وأن ليس لهم هذه المقامات، فأنا مشتري المفلسين، وأنا مبشّر المحزونين، أي: الدرجات لهؤلاء، وأنا للمؤمنين خاصة بلا علّة المعاملة، ولا شبهة الجهد والجاهدة، وأيضًا: بشّر المؤمنين بهذه المقامات، فإنّها أيضًا من أهل المقام بإيمانهم بهؤلاء الأصفياء.

آلآ ترى إلى قول رويم - قدّس الله روحه - حيث قال: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا، فهو من أهله.

قال سهل في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾: ليس في الدنيا شيء من الحقوق، أوجب على الخلق من التوبة، إلا بالحمد على ما وقفت به عليه من طلب طريق التوبة، ولا تصحّ التوبة إلا بمداومة السياحة والرياضة، ولا تدرك هذه المقامات، إلا بمداومة الركوع والسجود، ولا يصحّ هذا كلّهُ، إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصحّ ما تقدّم، إلا بحفظ الحدود ظاهرًا وباطنًا.

والمؤمن من تكون هذه صفته؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم بهذه الصفة.

قبل في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ الراجعون إلى الله بالكليّة عن جميع ما لهم من صفاتهم وأحوالهم، العابدون القائمون معه على حقيقة شرائط الخدمة، الحامدون العارفون نعم الله عليهم في كلّ خطرة وطرفة عين.

﴿الَّذِينَ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ مَرَادِهَا؛ طَلَبًا لِلرِّضَا.

﴿الَّذِينَ خَاضَعُوا لَهُ عَلَى الدَّوَامِ.

﴿الطَّالِبُونَ قُرْبَهُ.

﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ الْمُتَكَبَّرِ﴾ عن ارتكاب مخالفات السنن.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المراعون أوامر الله عليهم في خوارجهم، وقلوبهم، وأسرارهم، وأرواحهم، ﴿وَيَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ القائمين بحفظ هذه الحرمات. وقال أبو يزيد: السباحة راحة، من سَاح استراح.

وقال أبو سعيد الخزاز في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، قال: هم الذين أصغوا إلى الله بأذان فهمهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلّفوا عن ندائه بحال. وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر قال: لا تُصَحَّ العبادة إلا بالتوبة، فلذلك قَدِّم التوبة على العبادة، ولا تتم التوبة إلا بملازمة العبادة، فجعلها تالية.

قال ابن عطاء: ﴿الْتَّيْبُونَ﴾ الراجعون إلى الله من كُلِّ ما سواه من الأغيار. و﴿الْعَبِيدُونَ﴾ الواقفون على بابه يطلبون الإذن عليه شوقاً منهم إليه. و﴿الْحَمِيدُونَ﴾ هم الذين يشكرونه على السراء والضراء، إذ كُلُّ منه، وما كان منه، فهو مقبول بالسمع والطاعة.

و﴿الْسَّابِحُونَ﴾ التاركون شهواتهم، ومراداتهم لمراد الحق فيهم.

و﴿الْارْكَعُونَ﴾ الخاضعون لعظمة الله. و﴿الْسَّجِدُونَ﴾: المتقربون إلى الله بخدمته، و﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ القائمون بأوامر الله بحسب الطاقة، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ التاركون مخالفة الحق أجمع، وهم الذين يوالون أولياء الله، ويعادون أعداءه.

قال الأستاذ في قوله: ﴿الْتَّيْبُونَ﴾ الراجعون إلى الله، فمن راجع، يرجع عن زلته إلى طاعته، ومن راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، ومن راجع، يرجع من شهود نفسه إلى شهود لطفه، ومن راجع، يرجع عن الإحسان بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستقرار في حقائق حقه.

وقال في قوله: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾ هم الخاضعون بكُلِّ وجه، الذين لا تسترقهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدهم عظام العُقبى، و﴿الْحَمِيدُونَ﴾ الشاكرون له على وجود أفضاله المثنون عليه عند شهود جماله وجلاله، و﴿الْسَّابِحُونَ﴾ الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله، و﴿الْارْكَعُونَ﴾ الخاضعون لله في جميع الأحوال تحت سلطان التجلي، و﴿الْسَّجِدُونَ﴾ في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هم الذين يدعون الخلق إلى الله،

ويحذرونهم عن غير الله، يتواصلون بالإقبال على الله، وترك الانشغال بغير الله. ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ يحفظون الله مع الله أنفاسهم.

قيل في قوله: ﴿الْمُسْتَحْسِنُونَ﴾ الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها، بالتفكر في جوانبها ومساكنها، والاستدلال بتغيرها على مُنشئها، والتحقيق بحكمة خالقها، كلما يرون من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقيق بشهود الحق.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَحْيٍ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩١﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ إِنَّ الله سبحانه إذا أذاق طعم وصاله، ولذا نذ حلو خطابه أرواح الصديقين والعارفين، وأراهم جماله وجلاله، فجعلهم عاشقين بوجهه، شائقين إلى جماله، وهم بهذه النعوت لا يَبْرَحُونَ عن بابه، ولا يفرحون إلا بوصاله، ولا يلتفتون بقلوبهم ونياتهم إلى غيره، فلما اصطفاهم بهذه الصفات في الأزل بنفسه، كيف يحببهم عن نفسه، وهو بذاته كان مُجَبَّبًا بِحَبِّهِمْ، وعاشقًا بعشقهم، وشائقًا إلى شوقه، حاشا التغير في أهل الصفات، ولا تبدل الكلمات التامات التي سبقت باصطفائيتهم في الآزال، وأزال الآزال، وهُم بحمد الله في كنف الله، محروسون بعين لطفه عن عين قهره إلى الآباد وآباد الآباد، ولا اعتبار بما يجري عليهم من أحكام الابتلاء والامتحان، فَإِنَّ سِيئَاتِهِمْ تُوجِبُ الْحَسَنَاتِ، وحسناتهم تُوجِبُ الْقُرْبَاتِ، وهم غير مأخوذِينَ بالجَنَايَاتِ، لسبق العنايات.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ لا يمنع تغيير ما ذكرنا، فَإِنَّ الضلال هاهنا ظهور النكرة في محل الامتحان من القهر والغيرة، وخفاء الحال، والغرض في ذلك افتتاح عين المعرفة في النكرة، حتى يعرفوا الحق بطريق القهر واللطف، وتأويل الظاهر. قال بعضهم: مَنْ جرى له في الأزل من السعادة والعناية نصيبٌ، فَإِنَّ الجَنَايَاتِ لا تؤثر عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ في الأبد، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ في الأزل.

وقيل: لا يُصلِّهم بعد إذ هداهم إليه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لا سلب لعطائه، إلّا بترك الأدب منكم.

ويقال: من أهله لبساط الوصلة ما مُني بعده بعداب الفُرقة، إلّا لَمَن سلب منه ترك الحرمة.

ثم وصف نفسه بأنه مالك المُلْك من العرش إلى الثرى؛ إعلامًا بأن الحكم له في الضلالة والهداية والحياة بالوصلة، والموت بالفُرقة، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُخْتَرٌ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرَةٍ﴾.

إشارة الفهر أن مُلْك الكون لا خطر في قلب العارف عند رؤية المُكُون؛ لأن من عاين المُكُون غاب عن الكون، والكون له؛ لأن العارف والمعروف بشرط الانبساط واحد، له ملك الولاية في الأرض، ومُلْك الملكية في السماء، من قصده لهاتين المنزلتين يكون مرهونًا للدرجات عن المشاهدات، التي تُحبي قلوب العشاق بجهاها، وتميت المشغولين بغيره، بفراقها، وتُحبي قلوب العارفين بالبسط والأنس، وتميت نفوسهم بالقبض والهيبة.

قال ابن عطاء: من طلب من الملك غير المالك، فقد أخطأ الطريق.

وقال جعفر: الأكوان كُلُّها له، فلا يشغلك ما له عنه.

قال الأستاذ: يُحبي من يشاء بعرفانه وتوحيده، ويُميت من يشاء بكفرانه وإلحاده.

ويقال: تُحبي قلوب العارفين بأنوار المواصلَة، ويُميت نفوس العابدين بآثار المنازلة.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِ يَهُمُّ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(١) التوبة توبتان:

توبة العبد: وهي الرجوع من الزلات إلى الطاعات.

وتوبة الله: رجوعه إلى الله بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب:

إِذَا مَرَضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعُوذُكُمْ وَتَذِينُونَ فَنَاتِيَكُمْ فنعذركم

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه؛ ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القرية، فتوبة النبي ﷺ من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات، أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سته الله مع الأنبياء والأولياء إذا دانوا في مقام الامتحان، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، يُمطر عليهم وابل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرق القِدم، فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وأنشد في معناه:

كُنَّا كَمَنْ أَلْبَسَ أَكْفَانَهُ وَقَرَّبَ النِّعْشَ مِنَ الْمَلْحِدِ
فَحَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي جَسْمِهِ فَرَدَّهُ أَمْلٌ إِلَى الْمَوْلِدِ
تَبَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا كُلُّهُ هَوًى بِالسَّرْمِدِ

قال بعضهم: توبة النبي ﷺ، هي مقدمة توبة الأمة؛ لتصح بالمقدمة التوايع من توبة

التائبين.

وقال بعضهم: توبة الأنبياء لمشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ، إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة؛ لأنهم في عين الجمع أبداً، ثُمَّ خَصَّ الثلاثة الذين غرقوا في بحار الامتحان، برجوعه عليهم بقبول توبتهم، بقوله:

(١) أي نبي الروح بمنزلة النبي يأخذ بإلهام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء. فالعنى: أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى المدينة الجسدانية والأنصار من القلب والنفس وصفاتها وهم ساكنوا مدينة الجسد فيوضات الرحمة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ:

انبسطت عرصات قلوبهم لتراكم غيوم القبض، وتتابعت على أسرارهم أنوار العظمة، فأبرزت الأرض من عظامم برحاء مواجدهم، وتراكم حقائق همومهم، فلا يبقى ذرة من الأرض إلا واستغرقت في بحار أنفاسهم الملكوتية، واحترقت بنيران أفئدتهم الجبروتية، وما رأوا على وجه الأرض ما يستأنسون به غير الله.

ثم وصف نفوسهم بفنائها في آثار قلوبهم، بقوله: ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ صاقت نفوسهم من حمل وارد الغيب عليهم، وعن أثقال أرواحهم، التي هي مطايا أسرار الألوهية، ولطائف كنوز الربوبية، وفنوا تحت سلطان كبريائه، ودخلوا تحت أكناف لطفه من عزائم قهره.

بقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ عرفوا موضع الفرار منه إليه، فقطعوا الوسائط، وخاضوا في بحار القهر بسفن اللطف، فلما رأهم منفردين من دونه، أقبل إليهم بنوادر لطفه؛ ليقبلهم من الكون إلى وجهه، بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُ لِيَتُوبُوا﴾ رفع حجاب الخشمة من البين؛ ليدخلوا الحضرة بوصف الأنس، اشتاق إليهم، فشوقهم إليه، ثم وصف نفسه بأنه قابل التوبة في الأزل، رحيم على من رجع إليه، بأن أمنه بعد خوفه، وقربه بعد بُعده.

قال أبو عثمان: من رجع إلى الله، وإلى سبيله، فلتكن صفته هذه الآية، تضيق عليه الأرض حتى لا يجد فيها لقدمه موضع قرار، إلا وهو خائف أن الله ينتقم منه فيها، وتضيق عليه أحوال نفسه، فينتظر الهلاك مع كل نفس، هذه أوائل دلائل التوبة النصوح، ولا يكون له ملجأ ولا معاد ولا رجوع؛ إلا إلى الله بانقطاع قلبه عن كل سبب.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وقيل في قوله: ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ لن يعتمدوا حبيباً، ولا خليلاً، ولا كليماً، بل قلوبهم منقطعة عن الخلق أجمع، وعن الأكوان كلها.

لذلك قيل: المعارف ألا تلاحظ حبيباً ولا خليلاً ولا كليماً، وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال أحمد بن خضرويه، لأبي يزيد: بماذا أصل إلى التوبة النصوح؟

قال: بالله وبتوقيفه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُ لِيَتُوبُوا﴾.

قال بعضهم: عطف عليهم بنوال عطفه ونعمه وفضله، فألفوا إحسانه، ورجعوا إليه،

فكان هو الذي أخذهم إلى نفسه، لا هم بأنفسهم رجعوا إليه.

قال الأستاذ: إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، وظنوا نفوسهم على أن يذوقوا إليهم اليأس، أمطر عليهم سحب الجود بالإجابة، فيعود عود الحياة بعد ييسه طريقاً، ويرد ورد الأنس عقب ذبوله غصاً جليلاً.

وقال في وصف الثلاثة لما صدق منهم الملجأ: سبق إليهم الشفاء، وسقط عنهم البلاء، وكذلك الحق يكون نهار اليسر على ليالي العسر، ويطلع شمس المنّة على فخوس الفتنة، ويله من تلك السعادة، فيمحق تأثير طوارق النكادة سنة منه سبحانه، لا يُبدّلها عادة في الكرم يجريها، ولا يحولها، ثم حث هؤلاء المخاطبين بالتوبة والمغفرة، ونظر أنهم من المؤمنين، بطلب زيادة المقامات والدرجات، وحذّره من نفسه، وطالّبهم بالصدق في وفاء المعرفة، بقوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ جعل الطريق على ثلاثة أقسام: الإيمان، والتقوى، والصدق، وهي من أفعال القلوب؛ لأنها ثبتت حقائقها بكشف أنوار الغيوب، ومن خُصّ بالإيمان والتقوى والصدق، يُدرك بالإيمان مشاهدة أنوار حقائق الآيات، ويدرك بالتقوى مشاهدة أنوار الصفات، ويدرك بنور الصدق مشاهدة أنوار الذات، سمّاهم مؤمنين، ودعاهم من مقام الإيمان إلى مقام التقوى، وهو رؤية إجلاله، والتبرّي من غيره، ودعاهم من التقوى إلى مقام الصدق، وهو مقام الاستقامة مع الله، حيث لا يفر الصادق منه ببلائه، ويبيّن أن المؤمن مستعدّ لإدراك نور التقوى، وإدراك نور الصدق، ولولا ذلك ما حثّهم على طلبها، وخوّف المؤمنين عن مخالفة الصادقين، أي اقبلوا يا أهل الإيمان ما يصدر من الصادقين من أحكام علوم المجهول الغربية، والبراهين العجيبة؛ حتى تكونوا بالإيمان به معهم في مقام المشاهدة؛ لذلك قال ﷺ: «من أحبّ قومًا فهو معهم»^(١).

وقال بعضهم: «مَعَ الصّٰدِقِينَ» مع المقيمين على منهاج الحق

قال بعضهم «الصّٰدِقِينَ» الذين لم يُخلفوا الميثاق الأول، فأنها صدق الكلمة.

قال أبو بكر بن طاهر: مع من ضاقت نيتهم عن طاعته، وخُلّصت سرائرهم لمودة ما يرد عليهم.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَآَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٨٣)، ومسلم (٤/٢٠٣٢).

الْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ اختار الله سبحانه قوماً خاصاً لمجالسة نبيه ﷺ على الدوام، وخصهم لإلقاء الأسع الخاصة، لتلقف خطاب الحق من فلق الغيب، وجعل الآخرين للأسفار والمجاهدات والرياضات؛ ليلغهم إلى مقام المشاهدة والصحة، فالأولون أهل الحضور وشهود الغيب، والمؤانس بالصحة، وفهم الخطاب.

قال تعالى: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أي: ليفهموا حقائق أحكام المعرفة، والطريقة والحقيقة، والشرعة، والآخرون إذا تمكّنوا في العبودية، وأدركوا مقام أهل المؤانسة، وفهموا مراد الله من خطابه، وإذا الكلّ على سعادة من الأزل وحيث لحق بعضهم بعضاً؛ لأنّ شمس العناية إذا أشرقت يجاري الكلّ أنوارها، إذا طلع الصباح لنجم راح تساوى فيه سكران وصاح.

قال سهل: أفضل الرحلة رحلة من الهوى إلى العقل، ومن الجهل إلى العلم، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الاستطاعة إلى التبرّي من الحول والقوة، ومن النفس إلى التقوى، ومن الأرض إلى السماء، ومن الخلق إلى الله.

قال المرتضى: السياحة والأسفار على ضربين: سياحة؛ لتعلّم أحكام الدين وأساس الشرعة، وسياحة لأداب العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع من سياحة الأحكام، قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الآداب والرياضة، قام في الخلق يؤدّبهم بأخلاقه وشيئله، وسياحة هي سياحة الحق، وهي رؤية أهل الحق والتأدّب بأدابهم، فهذا برسته تضم العباد والبلاد. قال الله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ليفهموا في الدين مراد خطابه، ويقوموا باستعمال ما أمروا به مخلصين له الدين، ثمّ حثّم بقتال نفوسهم، ومجاهدة هواهم، بقوله: ﴿ يَتَأَيَّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ الكفار: النفوس الأبدية التي هي مجمع الهوى والبلاء والحجاب، من عرفها قاتلها وأماتها بفنون الرياضات، حتى لا يبق في عرضات قلبه من عروق أشجار الشهوات أثر، فينبت فيها بعد ذلك أشجار المعارف، والكواشف ونور الحكمة، ورياحين المودة، وورود الشوق، ويسمين العشق، ويكون بهذه الأنوار مزار جنود الأسرار، ومنازل نزول الأنوار.

قال سهل: النفسُ كافرة، فقاتلها بمخالفة هواها، واحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، وأكل الحلال، وقول الصدق، وما أمرت به من مخالفة الطبيعة.
وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر معناه: مجاهدة النفس وشروها، فإنه أقرب شيء إليك صدق الصادق، حيث وافق قول سيد الصادقين ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وصف الله أهل الإيمان بفتح آذان قلوبهم بسماع خطابه، وفهم بيانه، واستبشار قلوبهم بروح الخطاب، وزيادة إيمانهم في السماع.

قال ابن عطاء: أما الذين حكموا الربوبية، وتمسكوا بعهد العبودية، زادتهم معرفة في قلوبهم، ونظراً أسقط عنهم النظر إلى ما سواه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ٥١﴾ «أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ٥٢﴾ «وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ٥٣﴾ «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ٥٤﴾ «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٥٥﴾».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جهلهم على جهلهم عند معاينة البرهان؛ لأنهم ليسوا من أهل العيان.
قال سهل: أي زاد أهل الأهواء والبدع المضلة جهلاً إلى جهلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أخبر الله سبحانه عن أهل الفتنة والعزة، لا يعرفون طريق الحق بعد متحانهم بالبلايا المتواترة، ولا يهتدون سبيل الرشاد بعد إظهار البرهان لهم، وكيف لا يكونون هكذا، وهم في الأزل محجوبون عن عناية السرمديّة.

قال أبو عثمان المغربي: ليس الرجوع في أيام الفتنة، إلّا إلى الملجأ والاستغاثة، وطلب

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (١٥٧/٢).

الأمان، وقصد التوبة، فَمَنْ رَجَعَ إِلَى غَيْرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ فِتْنَةٍ نَفْسِهِ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْ فِتْنَةِ الْعَوَامِ.

قال الله: ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون إلى الله بقلوبهم، والراجع إلى الله سالم من الفتن والآفات والهمم.

﴿يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون نعمي السالفة عندهم، وهم يعلمون رِفقي بهم في الفتن.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أخبر سبحانه عن كريم ميلاده ﷺ، وعظيم مياده ومراده، وشرف بها أمته، حيث اختاره منها باصطفائية رسالته، وعظم شأنه، والحمد لله الذي جعل طيبته من طيبتنا، وشرف طيبتنا حيث جعلها من طيبته، وخصَّ جوهر روحه من أرواحنا، وشرف أرواحنا حيث كانت مع روحه في أول بديهة الأمر من الله سبحانه، وأي كرامة أعظم كرامةٍ مِنْ أَنْ اللهُ سبحانه جعل نبينا من أنفسنا، وأرسل إلينا بالرفقة والرحمة، وأكرم خلقه حيث جعله رحمةً للعالمين، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

قال الخراز: أثبت لنفسك خطراً، حين قال: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. قال الحسين: مِنْ أَجْلِكُمْ نَفْسًا، وأعلامكم همةً، جاد بالكونين عوضاً عن الحق، ما نظر إلى الملكوت، ولا إلى السدرة، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] قلبه عن موافقته. قال ابن عطاء: نفسه موافقةً لأنفس الخلق، خلقه ومبائنه لها حقيقة، فإنها نفس مقدسة بأنوار النبوة، مؤيدة بمشاهدة الحقائق، ثابتة في المحل الأدنى، والمقام الأعلى ما زاغ، وما طغي، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ اشتدت عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هواناً، واحتجابنا عن الحق.

قال بعضهم: شقَّ عليه ركوبكم مراكب الخلاف.

قال سهل: شديدٌ عليه غفلتكم عن الله، ولو طرفة عين، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حريصٌ على محبتكم بمشاهدة الله، ومعرفة صفاته وذاته، وعلى متابعتكم أمر الله، رءوفٌ برأفة الله بالمؤمنين، ورحيمٌ برحمة الله على الصادقين، رءوفٌ بأهل الجنائيات من المدنيين، ورحيمٌ على أهل الطاعات من المقصّرين، فيها تشفع لأهل الجنائيات، وتدعو لأهل الطاعات، وهذا من اتّصافه بصفة الله، حيث ألْبسه أنوار عنايته، وزيّنه بلطفه وشفقته.

قال بعضهم في قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم لو كانت الهداية إليه، مُشْفِقٌ على من اتبعه أن يأتيه نزغة من نزغات الشيطان، رحيمٌ يستجلب برحمته له رحمة الله إياه.

وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: أن تبلغوا محل أهل المعرفة.

قال جعفر الصادق: علم الله عَجَزَ خَلْقِهِ عن طاعته، فَعَرَفَهُمْ ذلك؛ لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم غُلُوقًا من جنسهم في الصورة، فقال:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، فألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرًا صادقًا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ رَسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، ثم أفرده ~~لنفسه~~ لنفسه خاصة بعد أن كان من جنسهم بالصورة، فأواه إلى نفسه بشهوده عليه في جميع أنفاسه، وسَلَّى قلبه بإعراضهم عن متابعتة، بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في أمر النبوة، وشرف الرسالة وجماله، حسبي عن الجملة، وقُربِه ووصاله يكفيني عن جميع مراتب الثقلين؛ لأنه بوحدانيته منزَّهٌ عن الأضداد، فنزَّهني عن صُحبة الأغيار بمشاهدة الأنوار بوصفه لنفسه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا غير في البين من العرش إلى الثرى.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على نفسي وغيري، فإنه عماد المتوَكِّلِينَ، وبه ثَبَّتْ قلوب الصادقين.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ حيث أَلْبَسَ العرش أنوار عظمتة بعظمتة، ولولا ذلك لذاب العرش في سباحات وجهه بأقلِّ لمحة.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُفِّرِ الْبَرِّ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّجْرُ مِثْلُ بَرِّئٍ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾

﴿الر﴾: الألف عين الوجدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوجدانية، تجلّى بالآلف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفتوا في سبحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الآلف من بحار الوجدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الانتصاف والهيئ، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الخيرة هائمين.

وأيضاً: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، وثبّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزاً وإشارات، لا يطلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة.

وأيضاً: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وترية، أشار بالآلف: يا آدم الثاني؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾، يا ﴿يس﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بما في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما أهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته.

وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وقيل: الكتاب الحكيم العهد الناطق عليك بأحكام الظاهر والباطن.

قال الأستاذ: إن هذا الكتاب هو الموعد لكم يوم الميثاق، والإشارة فيه أن الصفر

نسيج الشعر وغيره.

والعناج: الخيط الذي يشد من أسفل الدلو، حققنا لكم الميعاد وصفرنا لكم عناج الوداد، وانتفضي زمان البعاد، فالعصاة ملقاة، والأيام بالسرور متلقاة، فبادروا إلى شرب كاسات المحاب، واستقيموا على نصيح الأحباب، خلقه لم يعرفوا موقع عناية الله وفضله واختياره لنبيه نبوته ورسالته بقوله: ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾.

وأخبر أن هذه الخاصية من الله سبحانه له؛ بأن ينه النوامين عن مشاهدة عظمتهم بعظيم بطشه وجلال قدره بقوله: ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾، ويشير الصادقين في إيمانهم؛ بأن وصاله لهم بنعت السرمدية بقوله: ﴿وَيُثَرِّفُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أخبر عن أوائل كرمه وسوابق نعمه الصادقين في إرادتهم، والمخلصين في مقاصدهم أن لهم وصالاً بغير حجاب، وكشف جمال بغير عتاب.

وأيضاً أي: بَشَّرَ العارفين أن لأرواحهم في مقام قدس جلالي وأزلي قدم المحبة وصدق اليقين بمشاهدة، حين كشف جمال وجهي لها في ميثاق الأول، وصدق تلك الأقدام بوصف المحبة أنها لا تزول عن محل الاستقامة في العبودية، وعرفان الربوبية.

وأيضاً: ما وصفت قدم الربوبية في إيجاد الكونين إلا بصدق محبتي لهم في الأزل.

وأيضاً: معنى الآية أولها تخويف بقوله: ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ أي: خوف من نسيبي طرفة عين بفوت حظ مشاهدتي وفراقي ووله وصالي، ثم بشر بلسان نبيه ﷺ من كان جميع قلبه مملوءاً من حبه وصفاء ذكره.

وأيضاً أي: بشر المريدين الذين أيقنوا قربتي لهم وعنايتي لهم أنهم وإن أخطأوا بمباشرة هوى نفوسهم في زمان فترتهم ألا يقتصوا من فضلي ولطفي القديم بهم في سابق حكمي، فإن هم عندي قدم صدق الإرادة في البداية، ولا يحذر من كرمي أن أهدم صدق أقدامهم في الإرادات بل أويهم بعناياتي إلى قربي ووصالي، وأراعي عواقب أمورهم؛ حتى تكون أقدام الأواخر مستويات بأقدام الأوائل.

قال أبو سعيد الخراز: تفرق الطالبون عند قوله: «من طلبني وجدني»^(١) على سبيل شيء، أولهم أهل الإشارات طلبوه على ما سبق من قوة الإشارة، وهم أهل قدم الصدق عند ربهم، فبالقدم أشار إليهم، فهم أهل الطوابع والإشارات، حظهم منه ذلك.

وقال سهل: سابقة رحمة أودعها في محمد ﷺ.

وقال الترمذي: قدم صدق هو إمام الصادقين والصدّيقين، وهو الشفيع المطاع وسائل المحجّاب محمد ﷺ.

وقيل في قوله: ﴿أَنْ أُنْذِرَ النَّاسَ﴾ أي: بما يذهل قلوب الصادقين المنتهين.

وقال النصر آبادي في قوله: ﴿بَشَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾: القدم نصدق لم يبق له مقام إلا وقد سلّكه بحسن الأدب، لذلك إن قدم الصدق هو موضع

الشفاعة للنبي ﷺ.

وقال الأستاذ: قدم صدق ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدقوا في القيام بنقصها^(١).

ويقال: هو ما قدم الحق سبحانه لهم يوم القيامة من مقتضى عنايته بشأنهم، وما حكم لهم من فنون إحسانه وصنوف ما أفردهم به من امتنائه، ثم وصف نفسه تعالى بالربوبية والألوهية؛ تنزيهاً لتربية أسرار العارفين، وتقديساً لقلوب الموحدين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، ثم بيّن أعلام الألوهية لترفية فؤاد الموقنين بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أخبر عن ترضيته الملكوت بأنوار الجبروت لاستبصار العاقلين، وجعل أيام بقائهما معدودة لإطفاء نيران عجلة الإنسان، وإلا هو مقتدر بقوة القدم، أن يوجد ألف ألف سماء وألف ألف أرض بأقل من لحظة، ثم جعل العرش مرآة قدسه، ومأوى أرواح أحبائه بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، خامر أنوار عظمة العرش، وجعله مأوى أنفاس الصديقين، ومنتهى مسالك المريدين.

ثم أخبر أنه تعالى يستهل طريقه إليه لطالبيه بقوله: ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ﴾: يقدس للأرواح العاشقة الصادقة طرق مشاهدته ووصاله من علة الحدثان، ويصطفي قلوب العارفين بكشوف عجائب صفاته وأنوار ذاته، ثم بيّن أنه مختارٌ لولاية الأولياء بنفسه لانتقاص من جهة الخلق، وعلة الخليفة بقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: من يعطيه لسان الانبساط يسأل ويشفع بعد انبساطه إليه، وإلا كيف يكون للحادث عند القديم وزن؟ ثم عرف نفسه بها وصف به نفسه لفهائم المعرفة والمربين بأنوار المحبة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: اعبدوه بالمعرفة؛ لأنه خلق الخلق لعرفانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ

(١) أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيها يَسْرُوا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: (عند ربهم) ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة. نظم الدرر (٤٢/٤).

وَعَذَابُ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النِّسْتِينَ وَالْحِسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنِّي أَخْلِفُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَلْقِوْنَ يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَطَمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ لَشْرَاسْتِعْجَالَهُمْ بِالْآخِرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧﴾

قال: «كُنْتُ كَنزًا خَفِيًّا، وأحيث أن أعرف»^(١).

ثم حثهم بالتفكر والتذكر بقوله: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»: أي: أفلا تخوضون في بحار الأفكار لتدركوا حقائق الأذكار، وتبصروا بها حقائق الأنوار، وتكشف لكم لطائف الأسرار.

قال بعضهم في قوله: «يُذَيِّرُ الْآلَمَةَ»: يختار العبد ما هو خير له من اختياره لنفسه.

ثم بيّن سبحانه أن نفسه تعالى مرجع كل غريق فيه، ومنجى كل خائف منه، ومأوى كل هائم له، ومآب كل أواب إليه، ومقصد كل قاصد إليه، ومطلب كل طالب له، ومتهى همه كل سيار في أسفار آزاله وأباده بقلبه وروحه وسره إليه بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا»، كل صفة منه تعالى مراد كل مجذوب بنورها إليه من القدم إلى الأبد، فمرجع العاشقين جماله، ومرجع العارفين جلاله، ومرجع الموحدين كبرياؤه، ومرجع الخائفين عظمته، ومرجع المشتاقين وصاله، ومرجع المحبين دنوه، ومرجع أهل الفناء ذاته، أنوار ذاته أوطان أرواح النفوسية، وأنوار صفاته مزار قلوب الواهية، وأنوار أفعاله مقر عقول الهائمة، تعالى جلاله عن علة الحدثن والأكوان، والحدثن يرجع إلى مصرف وجود القدم؛ لأنها بدت منه، وإليه تعود، هو مقدس بعظمته عن أن يكون محلاً للحدثن، وتصديق ذلك بيانه في آخر الآية: «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ رُبَّ: أبدأهم من العدم بتجلي القدم.

(١) ذكره العجلوني في كشف الحفاء (٢/ ١٧٣).

ثم يفنيهم بقهر سلطان غيرته، ومرجعهم إلى معدن الأول، ثم يعيدهم رحمة وشفقة ليجازي العارفين بكشف جماله بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَلْقِسْطٍ﴾: أي: يجزي الذين شاهدوا بقلوبهم مشاهد الملكوت بكشف جمال الجبروت، ويجازي الذين أصلحوا سرائرهم لنزول أنواره بجازيهم بمدانة وصاله.

يا أخي من رجع من سفر البعاد إلى قرب محبوبه يفرح المحبوب بمقدمه، ويعطي نفسه لمريده وزائره؛ فإنه سبحانه يكشف نقاب الغيرة عن جمال مشاهدته لكل أبواب إليه.

أَيَا قَادِمًا مِنْ سَفَرَةِ الْهَجْرِ مَرْحَبًا أَيَا ذَاكَ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

قال الجنيد: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مراتع فضله وتواتر نعمه، فمن سبق له في الابتداء سعادة أظهر عليه في مراتعه وثقلته في نعمه بإظهار لسان الشكر وحال الرضا ومشاهدة المنعم، ومن لم يجر له سعادة الابتداء أبطل أيامه في سياسة نفسه، وجمع الحطام الفانية ليرده إلى ما سبق له في الابتداء من الشقاوة.

قال الله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: فالراجع بالحقبة إليه هو الراجع مما سواه إليه، فيكون متحققاً في الرجوع إليه.

قال الأستاذ: الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح كان لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه.

ويقال: المطيع إذا رجع إلى ربه فله الحسنی والثواب والزلفى، والعاصي إذا رجع إلى ربه بنعت الإخلاص وخسران الطريق فيلقى لباس الغفران، وحلة الصفح والأمان ورحمة مولاه خير له من نسكه وتقواه.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: فموعود المطيع الفرديس الأعلى، وموعود العاصي الرحمة والرضا والجنة لطف الحق، والرحمة وصف الحق، فاللطف فعل لم يكن ثم حصل، والوصل نعت لم يزل.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: من كان له في جميع عمره نفس على وصف ما ابتدأ الحق به ففي الإشارة يكون له إعادة.

ولقد أنشد قائلهم:

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فَإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

ثم وصف الله تعالى نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة القائمة بتنوير العالم بنوره.

ومنَّ بذلك على عباده بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمَاتِ﴾: جعل شمس الذات ضياءً للنُّورِ العارفة، فبصرت بها عيون الآزال والآباد، وجعل قمر الصفات نورًا للقلوب العاشقة، فنظرت به شمائل أخلاق الجمال والجلال، فالأرواح فئيت بصولة الذات في عين الذات، والقلوب بقيت المشاهدة الصفات في عين الصفات، فشمس الذات غير محجوبة في جميع الأوقات عن بصائر الأرواح؛ لذلك عايبتها، ولا غابت عنها؛ لأنها مقام التوحيد والمعرفة، إن الشمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب ليست تغيب، وقمر الصفات يبدو للقلوب في أوقات بسطها، ويخفى في أوقات قبضها، ولذلك صارت القلوب في الثقلب في أنوار الصفات، فكما خفي القمر في شعاع الشمس ويزيد وينقص كذلك حالات القلوب في خفايا الصفات وظهورها، فلقمر الصفات في قلوب المحبين منازل من المدانة؛ لظهور المواجيد والحالات، ولبیان أعداد الأنفاس التي لا ينبغي لها أن تجري إلا باجتماع همم المعرفة، وصفاء المحبة والإحاطة بأوقات الواردات العينية، وهذا معنى إشارة قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمَاتِ﴾^(١).

قال بعضهم: الشُّمُوسُ مختلفة؛ فشمس المعرفة يظهر ضياؤها على الجوارح، فتزينها بآداب الخدمة، وأقيار الأنس تقدس الأسرار بنور الوحدانية والفردانية، فتدخلها في مقامات التوحيد والتفريد.

وقال بعضهم: جعل الله شمس التوفيق ضياء الطاعات للعباد، وقمر التوحيد نورًا في أسرارهم، فهم ينقلبون في ضياء التوفيق، ونور التوحيد إلى منازل الصديقين، ثم زاد سبحانه ذكر أعلام شواهد ملكوته، وأنوار جبروته للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، جعل الليل ماوى أنس العارفين، وجعل النهار مواضع نزهة الصديقين، أظهر في لباس الليل أنوار العظمة، وأبرز من مرآة النهار أنوار مشاهدة الجمال والجلال، وجميع ما خلق من العرش إلى الثرى مرآتي لطفيانه، تبرز منها لأهل الهيبة والوجل أنوار صفاته، ليله قبض قلوب العارفين، ونهاره بسط فؤاد المحبين، وما بينها بين سماء الأرواح وأرض القلوب أشكال الأحوال من المكاشفات، ولا يراها إلا المتقي عما دونه من الحداث.

(١) أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي والساعات لصالح معاشكم ودينكم من فرض الحج والصوم والفطر والصلاة وغيرها من الفروض، تفسير حقي (٢٢٩/٥).

قال الأستاذ: النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، والليل وقت أرباب الصلة بانفرادهم شهود ربهم.

قال قائلهم:

هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنَّ لِلشَّمْسِ غَيْبَةً وَهَذَا الَّذِي تَعْنِيهِ لَيْسَ يَغِيبُ
وقال: الليل لأحد شخصين: إما للمجبن فوق النجوى، وإما للعاصين فلبث الشكوى.

ثم وصف الله من لا نصيب له مما ذكرنا من رؤية شواهد الغيب، ولاحظ له من رؤية الآيات بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي: لا يخافون فراقنا، ولا يرجون وصالنا.

ثم ذكر علة قلة رجائهم وخوفهم بقوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا﴾: أي: لإيثارهم يوم الفانية على حياة الباقية، ثم ذكر سبب ذلك؛ لأنهم غفلوا عن رؤية أنوار الصفات في مرآة الآيات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.

قيل: لا تخافون الموقف الأعظم يوم تبلى السرائر، وتظهر الخفايا، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ركنوا إلى مذموم عيشهم، ﴿وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا﴾ نسوا مفاجآت الموت، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، تغليب القلوب وعقوبات الجوارح.

ثم وصف أهل خالصته من الصادقين الذين سبقت لهم منه الحسنى في الأزل بالعناية إلى الأبد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: أي: الذين عاينوا الحق في عهد الأول بعيون المحبة، وكنسوا غبار الحوادث من طريق المعرفة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ بذاته إلى صفاته، وبأنوار صفاته إلى جلال ذاته بإيمانهم، يعني: بما سبق لهم في الأزل من هداية الله في علم الله، ثم بين أنهم في جوار جماله ومعانته لقائه، حيث أفاض عنهم بركات شهودهم إلى أهل القربات بقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، هم في جنات المشاهدات تجري من تحت عيون أرواحهم أنهار المعارف وأسرار الكواشف.

قوله تعالى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهَا سَلَامٌ﴾ وَأَخْرَدَ عَوْنَهُمْ أَنْ أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠٠﴾.

تظهر عليهم بركات اقتدارهم عند إيجاد الذر بقولهم: بل فمن بركاتها لزوم الفرائض واتباع السنن وتحقيق الإتيان وتصحيح الأعمال.

ثم إن الله سبحانه وصف المشاهدين جماله أنهم إذا رأوه هَيَّجَتْهُمْ نعم المشاهدة، وراحة
الوصلة وثناء جلاله، فأغارهم أنوار سطوات العزة وسبحات العظمة، ولا يتعباً لهم في ثنائه
إلا العجز عن ثنائه، فيؤول حالهم في الثناء إلى أنهم جمعوا خصائص صفاته في نعت التنزيه
بقوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ﴾، وهذا حال سيد المرسلين صلوات الله عليه حين عاين
الحق، وقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

ثم عرفهم مكاره نعمه عليهم من تعريف نفسه فيقولون: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي: أنت إلهنا
وبك عرفناك ونزهناك سبحانهك اللهم.

ثم وصف تخيتهم بأنهم يبدأون باسم السلام بقوله: ﴿وَعَجِبْتُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾: بأن سلموا
من خوف حجابهِ وأليم فراقهِ، يبرئ بعضهم بعضاً من وصيات النفسانية والسيطانية، بتبري
الحق وتنزيهه عن الحوادث بأنه تعالى سمي نفسه بالسلام، والسلام المبرئ من الحوادث،
فتخيتهم هناك تنزيهه، فلما عرفوا حقائق نعمه التي أدركوها بغير علة الاكتساب أثنوا على
ربهم ومدحوه به لا بهم بقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: آخر
ذكرهم مدحه تعالى؛ حيث صرحوا أن ما نالوا منه نالوا بفضل الأزلي واصطفائته القديمة.

قال ذو النون في قوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَعَجِبْتُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾: مقام
المتحققين من العارفين التنزيه والتبري من جميع ما لهم من أنواع الأقوال والأفعال وغير ذلك،
والرجوع إلى الحق على حد التنزيه له أن يقصده أحد بسبب أو يتحجب إليه بطاعة أو يعمل
كلاً إلا لإظهار سعادة الأزل على السعداء، وسهات الشقاوات على الأشقياء.

وقال الشبلي في قوله: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لو ألهموا
حد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين
الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى،
فرجعوا إلى رؤية المنّة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضوا الكل به،
ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ
 بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُتْبِعَ إِلَّا مَا
 يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٢﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
 عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦٤﴾
 وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا
 عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنتُمُوتُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
 رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٦﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ
 رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ
 رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْذِبُونَ مَا
 تَمْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ ۞

وقد وقع لي بعد قول شاء العارفين -رحمة الله عليه، وقُدس الله روحه: إن القوم لما
 خرجوا من رؤية علل الحوادث، وغرقوا في بحار الذات والصفات أرادوا أن يشنوا عليه بما
 رأوا منه من عجائب أنوار الصفات، وأسرار الذات، فما وجدوا ثناءه عليه إلا من تعريفه
 إليهم، فوجدوه المنعم عليهم في جميع ما وصفوه به، فلا يكون لهم موضع من ثنائه إلا الحمد
 لتأييده لهم؛ فإن منتهى قول الوصافين صفاته العجز عن البلوغ إلى حقائق ثنائه، ولا يتعرض
 لهم بعد ذلك إلا الحمد، ثم العجز عن الحمد عن الخجل في المحمود القديم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾: إن الله
 تعالى وصف المتحيرين بين القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، فإذا أظلم عليهم سجون ليالي
 البليات، وأذهب عنهم مباشرة القهر أثر الراحة حرك يد اللطف الأزلي سلاسل عقود
 قلوبهم إلى إقبال الحضرة، وأضاء تنفس صباح لوائح الغيب في أسرارهم، فصرهم بنعت
 الاضطراب إلى باب الربوبية، فرأوا هنالك أعلام قهر الجبروت، وخرجت عقولهم من مكن
 جنس الامتحان، وحنهم إلى التضرع في ميادين السلطنة، فخلصوا من ورطة الامتحان
 بدعائهم على باب الرحمن، فما سكنوا عن تواتر البلاء، فاشتتت عقولهم بقاءهم في الاستقامة،

فتصول عليهم عساكر القصریات، وأغرقتهم في بحار الشهوات، وأعمتهم أنظار المشاهدات، ويفعلون قبائح الأعمال، وينسون عهد الأفضال، وأيام النوال:

عن كَانَ الْفَتَى لَمْ يُعْرِبُوا مَادَا اِكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُغْلُوكَ إِذَا مَا نَحْوَلَا

يا ليتهم لو كانوا صادقين في اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، فإن من بلغ إلى مقام الدعاء وعرف مقاماته؛ فهو في منزل الانبساط، والمنبسط شاهد رضوانه، وموضع نظره وإحسانه، ومن وصف هذا الداعي أن يكون مستأنساً بربه، ويدعوه في جميع حالاته، وإذا دعاه بنية صادقة وعقيدة صافية فدعاه في زمان البلاء الصبر، وفي زمان النعمة الشكر.

قال أبو حفص: الدعاء باب الله الأعظم، وهو سلاح المؤمن عند النوائب.

وقال أيضاً: يرجع العبد إلى ربه بالحقيقة عند الغافات، ونزول المصائب بالرضا، ولكنه لما لم يكن له في أوقات الرفاهية رجوع إليه رد في حال المصائب، والضروريات إلى الدعاء واللجوء.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: الدعاء على العادة جناية، وعلى اليقين نجاة وعبادة كما قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١).

ولكن للدعاء أوقات وآداب وشروط، فمن لم يطالب نفسه بأوقات الدعاء وآدابه وشروطه كان محروماً، وآداب الدعاء وشروطه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٢).

ثم زاد في وصف هؤلاء الذين لم يدركوا حقائق العبودية في مشاهد الربوبية، بأنهم هلكوا بانصرافهم عن باب الله، ومحل الإخلاص إلى متابعة الشهوات والاعتداء بالسواس بقوله: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا»: الظلم هاهنا الإنكار بعد الاعتراف والإعجاب بالرأي بعد ترك السنة، والأسوة لما عتوا على أسماء الله بعد علمهم بصدق كراماته، أهلكهم الله بأن تركهم في حجاب الشهوة والنفس، ولم يعرفهم طريق الخطأ، ولم يشدهم إلى طريق أهل قريه ووصاله.

قال ابن عطاء في قوله: «لَمَّا ظَلَمُوا» لما اعتمدوا سوانا.

وقال أبو عثمان: لما ظلموا لما لم يعرفوا حقوق أكابرهم، ولما يتأدبوا بأدابهم، ثم خوف الله سبحانه خلفاء الأنبياء من الصديقين والمقربين لا يلتفتوا في طريق الله إلى شيء غير الله،

(١) رواه الترمذي (٢١١/٥)، وأبو داود (٧٦/٢).

(٢) رواه الترمذي (٥١٧/٥).

ولن يروا عزًّا من طريق السنن إلى سبيل أهل اليقين بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سراق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاً، ويسمعون منه تعالى كلاماً صرفاً، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بالسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم.

قال بعضهم: لم يزل الأنبياء هم خلفاء، والأولياء هم خلفاء، أبدلهم الله مكانهم؛ ليروا السابقين سنتهم، ويمسكوا على طريقتهم، قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَجْنَحَتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: ذكر الله سبحانه عجائب أحوال العارفين في هذه الآية، أي: يسير نفوسكم في بر المجاهدات، ويسير قلوبكم في بحر المشاهدات.

وأيضاً: يسير عقولكم في بر الآيات، ويسير قلوبكم وأرواحكم في بحر الصفات والذات، ثم وصف سير القلوب والأرواح في بحار الذات والصفات بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾: أي: في كنف الرعاية الأزلية، ولولا ذلك الفلك كيف يجري الحدث في أنوار بحار القدم جرت القلوب في بحار الصفات بعناية الذات لا بها؛ إذ هي في قبضة ملكة وملكوته، وأصابع أنوار جبروته يقلبها بسفن قبضه في أنوار صفته، وذلك قوله: ﴿وَخَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: ريح الكرم والعناية لسيرها بريح لطفه في بحار الآزال والآباد، وما أطيّب مهب صبا وصاله في قلوب العاشقين والواقين، فأنشد:

الْأَيَّانُ سِيمَ الرِّيحِ مَالِكٌ كُلَّمَا تَقَرَّبْتُ مَنْزَاً زَادَ نَشْرُكَ طَيْنَا

أَفَلَنْ تُسَلِّمُوا خَيْرَ بَسْقَامَنَا فَأَعْطَيْتُكَ رِيَاها فَجِئْتُ طَيِّبَنَا
 ففرحت القلوب بسيرها في الوصال بطيب ربح الجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾: نشطوا بالله على الله، فلما سكنوا في مجالس الوصال وتمتعوا بحسن الجمال عادت عليهم
 غيرة القدم، وأرادت أن يخرجها من ساحة القدم وبساطين الكرم إلى معادنها من العدم،
 وهكذا عادة العشق يذيق العاشق من الفراق بعد ذوق الوصال، وذلك قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ
 عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، فتذروها عواصف قهر الأزل، وتحيطها أمواج
 بحار الأبد، وفارقها طيب ربح الوصال وحسن لطائف الجمال، وبقيت في أمواج عظمة
 الكمال.

قال قائلهم:

وَبِنَا عَلَى رَغَمِ الْحَمْدِ وَبَيْنَنَا حَدِيثٌ كَرِيحِ الْمَسْكِ شَيْبٌ بِهِ الْخَمْرِ
 فَوَسَدَتْهُ كَفْيٌ وَبِئْسَ صَاجِعُهُ وَقُلْتُ لِلْيَلِ طُلِي فَقَدْ رَقَدَ الْبَدْرُ
 فَلَمَّا أَضَاءَ الصَّبْحُ فَرَّقَ بَيْنَنَا وَأَيُّ نَعِيمٍ لَا يَكْدِرُهُ الدَّهْرُ
 وأنشد أيضًا:

أَقَمْنَا زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفُونَ سَوَاكِبُ

فلما وصلت القلوب إلى قاموس الكبرياء وكادت تفتى بأمواج البهاء فَرَّتْ مِنْهُ إِلَيْهِ،
 واستعاذت من قهره بلطفه بقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
 أَلْدِينُ﴾: دعوا الله بعد استماع مناداة الله بعد التبري من غير الله، وبذل الموجود لله: ﴿لَيْنٌ
 نُجَيَّتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي: لنن تخلصنا من قهر غيرتك والغرق في
 بحار ألوهيتك لأننا نحن الحدث والحدث لا يوازي القدم فوقتنا برؤية جمال بقائك لنبقى
 يبقائك معك في بقائك، ونشكر بك لا بنا، فلو أردت فناءنا كيف نبقى معك؟!
 فإذا وجب علينا شكر البقاء مع بقائك وشكرنا معرفة عجزنا عن حمل شكرك؛ حيث
 شكرت نفسك بشكرك القديم المنزه عن شكر الشاكرين.

قيل: يسيركم في بوادي الشوق، وبحار القرية.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي أَلْفَلَاكٍ﴾: يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على
 المریدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ربح عاصف
 أنت عليهم من موارد القدرة ما أفناهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج
 القهر، وقهرهم عملهم.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْا بِهِمْ﴾: توهموا أنهم من المالكين في أمواج، وهم المطهرين الأخيار عن الله، مخلصين له الدين، تركوا ما لهم وبهم وعليهم من الاختيار والتدبير، ورجعوا إلى حل التفويض والتسليم فنجوا.

وقال بعضهم: سير العباد والزهاد بالأنفس في البر، وهو الدرجات والمنازل، وسير العارفين بالقلوب في البحر، وفيها الأمواج والأخطار، ولكن سير شهر في يوم:

كَذَا رَجَاةِ الْبُيُوتِ لَهْنٌ رِيَشٌ وَلَكِنْ لَا يَطْرُنُ مَعَ الْحَمَامَةِ

وقال بعضهم: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْكَبْرِ﴾ هو الصفات، ﴿وَالْبَحْرُ﴾ استغراقاً في الذات^(١).

وقال بعضهم: ﴿يُسِيرُكُمْ فِي الْكَبْرِ﴾ الاستدلالات بالوسائط، ﴿وَالْبَحْرُ﴾ غلبات الحق بلا واسطة.

وقال النوري في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: المخلص في دعائه من لا يصحبه من نفسه شيء سوى رؤية من يدعوه.

﴿فَلَمَّا أَجْتَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثم وصف الله سبحانه أهل بحار السكر الذين دعوا بالسكر بعد نجاتهم منه به؛ لأنهم رجعوا إلى ما لم يكن لهم من كشف الأسرار، وهتك الأسرار بقوله: ﴿فَلَمَّا أَجْتَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: فلما نجوا من طوفان الفناء في سطوات الأزل بقوا بنعت السكر في مقام البقاء، ادعوا الأنانية، تجاوزوا عن حد العبودية بسكرهم في جمال الربوبية، ثم خوفهم سبحانه عن ملازمة إحاطة أنوار عظمتهم عليهم بعد رجوعهم من السكر إلى الظلمة بقوله: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: يرجع إليكم ما ادعيتهم لا إلى القديم؛ فإنه منزلة عن النظر، والاتحاد بالخلق، وكل ما ذكرتهم من ذكري ودعواكم بقربي في أتم معانيه، فهو مردود عليكم؛ فإن ساحة الكبرياء مقدسة عن إدراك الفهوم جلال قدر الأزل، تعالى الله عما خطر على قلب بشر.

(١) فيه إشارة إلى أن المسير في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح فإن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك هو في نفسه أيضاً بل هو منزوع عن ذلك وعما يضاهيه سبحانه وتعالى ومن عرف ذلك وقطع الاعتماد على الريح في استواء السفينة وسيرها تحقق بحقائق توحيد الأفعال وإلا بقي في الشرك الخفي، تفسير حقي (٥/٢٥٠).

قال الواسطي: البغي يحدث عن ملاحظة النفس ورؤية ما خدع به.

كما قيل لذي النون: ما أخفى ما يخدع به العبد؟ قال: الألفاظ والكرامات، ورؤية

الآيات .

قال ابن عطاء في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ﴾ : حتى إذا ركبوا مراكب

المعرفة، وجرت بهم رياح العناية، وطابت نفوسهم وقلوبهم بذلك، ﴿وَفَرِحُوا﴾ بقصدهم إلى مقصودهم ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أفتتهم عن أحوالهم وإراداتهم، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، فزال عنهم أخطار سعيهم، ﴿وَوُظِنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: تيقنوا أنهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفة يرجعون إليها، وأن الحق خصهم من بين عباده بأن سلبهم عن إياهم؛ ولأنه لا شيء لهم ولا صفة، دعوا الله غلصين له الدين، صفى الحق أسرارهم له حتى أخلصوا الدعاء، وخلصوا له سرًا وعلنًا، فلما نجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَتْرُنًا لَيْلًا أَوْ تَبَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبَ بِالْأَنْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾﴾ • لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّفَةٍ مَّحْبُوتَةٍ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنْ ثَبَلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾ وَيَوْمَ نَخَشِرُهُم بِجَمْعٍ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿١٠٥﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْبٍ ﴿١٠٦﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ .

فلما ردهم إلى أوصافهم وأشباحهم رجعوا إلى ما عليه عوام الخلق من طلب ما يصلح لنفسوس، ثم إن الله ضرب مثلاً لمن سلك الطريق بالجهل، وغير الاقتداء بأهل المعرفة أن جميع سعيه يكون هباءً منثورًا بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ .

أول رغبة السالك مثل الماء الذي وصل إلى البذر في الأرض عند شروعه في المجاهدات والرياضات؛ لقوله: ﴿فَاحْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، فكثرت عليه الأعمال الوافرة المتنوعة من تصفية القلب ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾، ورياضة النفس بما يأكل الأنعام، فتمكن في العبادات وصفاء الأوقات، وفرح بما تسهل إليه من شمائل لطفه، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: بهجة العبادات وزينة الطاعات، وظن أنها تجري بمراده إلى المال، ﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ فيخرج عليه عساكر القهريات من مكنم الآفات مع مفاداته، والعجب والرياء منه، ﴿أَتُنْهَى أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، فلما تعجب بنفسه ورأى أعماله نجىء عليه النفس والشيطان ويغريانه بالعجب والرياء والسمعة، فجاء قهر الله بفصاحته من عند ليالي قبائحه أو نهار طاعاته، فجعلها هباءً منثورًا كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾، وهذا المثل لا يعرفه إلا من له نظر الاعتبار ونور الاستبصار؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾، نعوذ بالله من قهر الله، ما أطيب زمان الإرادة والركة والصفاء، يا ليت لو يبقى المريد في شأنه، لكن يغرقه قهر الغيرة في بحر الوسوس والمخائيل والرياء والسمعة حتى لا يجد من زمان الصفاء في قلبه ذرة:

فَقَدْنَاهُ لَمَّا تَمَّ وَعَتَمَ بِالْعُلَا كَذَاكَ خُسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ

ويقال: كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أزهاره، وتحضر رباعه، وتزهر بالنبات ألوانه وطلاعه، ثم لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في حساب كذلك من الناس من يكون أحواله صافية وأعماله بشرط الجلوس زاكية، وغصون أنسه متدلية ورياض قربه موفقة، ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وينسد أبواب عقائد إقباله كما قيل:

عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنَّ الْعَيْنَ صَائِبَةٌ وَالْعَيْنُ تَسْرِعُ أَحْيَانًا إِلَى الْحَسَنِ

قال رجل لأبي محمد الجريري -رحمة الله عليه: كنت على بساط الأنس، وفتح لي طريق إلى البسط فزلت زلة، وحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟ فبكى أبو محمد، وقال: يا أخي الكل في قهر هذه اللحظة، لكنني أشدك أحيانًا لبعضهم.

فأنشد يقول:

كَفَّ بِالْإِدْيَارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ تَبْكِي الْأَحْبَةَ حَسْرَةً وَتَشْوِقًا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِهَا أَسْأَلُ مُحِبًّا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفِقًا

فَأَجَابْنِي دَاعِيِ الْهَوَىٰ فِي رَسْمِهَا فَارْقَتَ مَنْ تَهَوَّى فَعَزَّ الْمُلتَقَى

ثم إن الله سبحانه يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية؛ لئلا يفتنوا بزخرفها وغرورها، ويصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ السالكين إلى الجنة، ويهدي المجذوبين إلى المشاهدة. وأيضًا: يدعو الجميع إلى داره، ويهدي خواص العارفين إلى وصاله، والجوار للعموم من الفرقة، والفوز والوصال للخصوص، داره في الدنيا قلوب العارفين؛ لأن فيها سلامة القربة وأنوار المشاهدة، وفيها صراط الله المستقيم الذي تسري فيه عساكر تجلي جماله إلى قلوب العارفين، وتسري همهم فيه إلى مصاعد قرب رب العالمين، ولكن لا يهدي إليها إلا من يشاء من خواص المريدين والصادقين.

والإشارة في الدعاء إلى دار السلام أن السلام هو الله المنزه عن علل الحدثنان، يدعو إلى جواره المتبرئ من الأكوان، المتصف بصفة الرحمن، وأهل هذه الدعوة على ثلاث مراتب: أهل الدار، وأهل المشاهدة، وأهل الوصال الدار لأهل الإيثار، والمشاهدة لأهل الإيقان، والوصال لأهل العرفان، يدعو أهل الإيثار إلى داره، وينادي أهل الإيقان بتقريبهم من مشاهدته، ويهدي أهل معرفته بعد إدراكهم وصاله إلى معرفة شياكل صفاته ولطائف أنوار ذاته؛ لأن هناك الطريق المستقيم حيث عرف نفسه لعارفيه.

قال أبو سعيد القرشي: خرجت هداية المريد من الاجتهاد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ صُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وخرجت هداية المراد من المشيئة، وهو قوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وهو الفرق بين المريد والمراد.

وقال القاسم: الدعوة عامة، والهداية خاصة، بل الهداية عامة، والصحة خاصة، بل انصبة خاصة، والاتصال خاص.

وقال بعضهم: لات الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية.

وقال جعفر: عملت الدعوة في السر فتجللت بها وركنت إليها.

وقال أيضًا: ما طلبت الجنة إلا بالسلام، وإنما اختارك بهذه الخصائص لكيلا تختار عليه أحدًا.

وقال بعضهم: يدعو إلى دار السلام بالآداب، ويهدي من يشاء للحقائق والمعارف.

وقال بعضهم: الدعوة لله، والهدى من الله.

وقال الأستاذ: الدعاء تكليف، والهداية تعريف، فالتكليف على العموم، والتعريف على الخصوص.

ويقال: الصراط المستقيم طريق المسلمين، وهذا للعوام بشرط اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين، وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين، فهؤلاء ذوو العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم زاد الله في وصف هؤلاء بالقربة الرفيعة والدرجة السنية، ومشاهدته الكريمة بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: حسانتهم شهود قلوبهم مشاهد قربه تعالى في مراقبتهم وخلواتهم بنعت بذل وجودهم، والأكوان كلها لأول بوادي حسن تجلي الحق سبحانه، وما ذكر الله سبحانه من جزائهم بهذه النعوت الحسنى، وهي إدراكهم إياه كشف نور جماله؛ لأنهم لو أدركوه بنعوت العظمة هلكوا، إحسانهم من حسن جمال أرواحهم الناطقة بالكلمات القدوسية، وحسن الحق من حسن جماله القديم، يجازيهم بكشف حسنه وجماله، ثم ذكر زيادة النعم عليهم بقوله: وزيادة الحسنى مشاهدته، والزيادة وصاله والبقاء معه في مشاهدته.

وأيضاً: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ النظر إلى جماله، والزيادة: الاتصاف بصفاته.

وأيضاً: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ محبته، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ معرفته.

قال الواسطي: معاملة الله على مشاهدة الحسنى الالتذاد في معاملاتهم، والزيادة هو النظر إلى الله.

قال الأستاذ: يحتمل أن يكون الحسنى الرؤية، والزيادة دوامها، ويحتمل أن يكون الحسنى اللقاء، والزيادة البقاء في حال اللقاء.

ثم زاد الله ذكر شرفهم بأن غبار البعد لا يلحق جمال وجوههم بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: لا يفسى وجوههم قتر الخجالة، ولا يلحق وجوههم ذل الفرقة. وأيضاً: لا يرهق وجوههم قتر الفراق، ولا ينكشف في وجوههم شمس الوفاق. ثم زاد في وصف عيشهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: باقون في أنواع القربات في مشاهدة الذات والصفات.

قال بعضهم: كيف تذل وجوه بلقائها الحق منه بالحسنى والإحسان، وكيف تذل شواهد من شاهد الحق على الدوام، بل هي على زيادة الأوقات تزيد نوراً وضياء وعزاً.

قوله تعالى: ﴿هَٰئِلِكَ تَبْلُوا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَشْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقال الأستاذ: لا يقع عليها غبار الحجاب وبعبارة حديث الكفار، حيث قال: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، فالذلة التي لا نصيبهم هي أنهم لا يردون من عز شهوده إلى رؤية غير.

قوله تعالى: ﴿هَٰئِلِكَ تَبْلُوا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَشْلَفَتْ﴾: أخبر الله سبحانه عن مواطن امتحانه وتمييزه بغيرته القديمة بين الصادق في دعوى محبته وبين الكاذب؛ لأن الصادق في محبته هناك لا يفرغ من النيران، ولا يطمع في الجنان؛ لغلبة شوقه إلى جمال الرحمن، والكاذب تبدو سرائر ضلاله، وتنكشف فساد ضمائره بين جميع الخلائق، فيرد الصادق إلى لطف مولا هم، ويرد الكاذبون إلى قهر جبارهم بقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾، فيبقى للصادقين خصوصية درجاتهم في المحبة والوصال مع حقائق معانهم، ويضل سعي المرائين الذين يراءون الناس بأعمال الصادقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وأيضاً: يمتحن نفوس الخدثان عند بوادي سطوات سبحات جلال الرحمن، حيث يضمحل الحادث في القديم، ويبقى القدم للقدم، ويكون الحدث مقدماً في القدم، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ يَرْكُمُ الْخَلْقَ فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾.

قيل: يطالب كل مدَّعٍ بحقيقة ما أدعاه.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ يَرْكُمُ الْخَلْقَ﴾: يبين سبحانه أن ما يبدو من نور شهوده هو وصف رؤيته وإعلام صفته، وكشف ذاته بلا شك ولا شبهة، وذلك قوله: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ يَرْكُمُ الْخَلْقَ﴾: أي: هو الحق بلا شبه ولا تشبيه ولا تعطيل.

ثم يبين أن من لم يعرف الأشياء والشواهد بهذه المثابة فهو ضالٌّ من طريق مشاهدته، وطريقه عمياء لا يكون الرشد فيها؛ لأن من احتجب بالكون عن المكون فهو يغيبه في مهمة

القهر، ولا يهتدي من كان مرهوناً بالأشياء عن خالق الأشياء، وهذا معنى قوله: ﴿فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

ثم يبين أن البعد لا يقتضي إلا البعد، وليس للعبد حد، فأين يذهب البعيد في البعد، ولا يجد في البعد إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿فَأَنى تُصْرَفُونَ﴾: أي: إلى من ترجعون إذا فات وصاله عنكم.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنى تُصْرَفُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

وليس للحدثان مصرف الفرار، فأنى أين وإنهم؟! إن هذه الآية إشارة سابق قوله:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: من يرزق الأرواح من الملكوت غذاء قربه ووصاله، ومن يرزق القلوب من ملكوت الأرض صفاء عبوديته، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: من يملك إسماع العارفين بلذيق جلاله، ومن يملك أبصار الصديقين بكشف جماله والنظر إلى جلاله؟ ومن يخرج الحي من الميت؟ أي: من يخرج الأرواح العارفة الأحياء بحياته ومعرفة ذاته وصفاته من العدم بنور القدم، ويخرج الميت من الحي، من يخرج الأنفاس الفانية في عظمتها الباقية من القلوب الحاضرة في مشاهد القربة، ومن يدبر الأمر، من يسهل قطع صفات مفاوز النكرات للعارفين، ومن يعرف أمور العبودية والربوبية قلوب الموحدين؟!

ثم يبين أن من شاهد هذه المراتب يعترف بها صدقاً وعدلاً بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، فإذا اعترفوا بذلك، وصاروا شاهدين معاني شهوده لا خوْفهم من نفسه إلا أن يلتفتوا إلى سواه في طريق بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي: فلا تخافوا من فراقه، ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾: أي: هو منعم هذه النعماء، يريكم بهذه السعادات لا غير، فأين تصرفون منه إلى غيره؟

﴿فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: أخص الإشارة فيه أي: إذا وقعتهم في أنوار

معرفتي بعد كشوف صفاتي وذاتي لا تطلبوا كنه القدم؛ فإنه معادن الملكوت ونكراتها بلا نهاية؛ لأن القدم ممتنع عن إحاطة القلوب به، وعن إدراك الأرواح والبصائر حقائقه

والكنهية.

قال الحسين: الحق هو المقصود بالعبادات والمصمود إليه بالطاعات، لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه.

وقال الواسطي: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: لا يجوزنا موحد أن يشهد بشاهد التوحيد؛ لأنه وصف الأشياء بالضلال، فلم تنهياً لضلال أن يقف، ولا لعاجز أن يصف.

وقال الحسين: الحق هو الذي لا يستقيح قبيحاً، ولا يستحسن حسناً، فكيف يعود إليه ما منه بدا، ويؤثر عليه ما هو أنشأه؟

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مع الحق على مراتب: فقلب في قبضة الحق مأسور بكشف الوجد مسرور، وقلب طار إليه بالشوق وروح برياح القدوم بالقدوم عليه، وقلب اعتقد فيه الآمال فهو عليه ثقل الأعمال، وقلب انقطع إليه بالكلية من كل البرية، وقلب شديد الاحتراق لشدة الاشتياق.

وقال بعضهم: ﴿الْحَقُّ﴾ طريق العلماء، والحقيقة طريق الحكماء، والتحقيق طريق الأولياء، والحقائق طريق الأنبياء.

وقيل في قوله: ﴿فَأَن تَصْرُفُونَ﴾ من الحق إلى سواه^(١).

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَنْ يُدْبِرْ الْأَمْرَ﴾: من يبدئ أمره ويعيده ويدبر في أوقاته السائرة، فإذا قال: من يدبر الأمر أزال الأمل فكيف يجوز لقائل أن يقول: فعلي وعملي!

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٢) فَأَن تَوْفَكُونَ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ

(١) استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع واستعباده والتعجب أي كيف تصرفون من التوحيد وعبادة الله تعالى إلى الإشراك وعبادة الأصنام الذي هو ضلال عن الطريق الواضح.

مُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَنْقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَمِنهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ
وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدُوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: أثبت الحجة على أن
الحدثان معلولة لا تزاحم القدم المنزه عن العلل، وكيف يكون من العاجز القدرة على إيجاد
الموجود، وهو كان معدومًا، وفي وجوده عند قدم جلالته بالحقيقة معدوم حيث لا يقوم بنفسه
بل يقوم بالقديم، هذا ردُّ على من أقبل إلى غير الله.

ثم وصف نفسه تعالى الشريك بأنه يبدئ الأشياء ويعيدها أبدًا، يكون بشهود قدمه
على العدم بوصف كشوف جميع الصفات، ثم يسلط أنوار العظمة والهيبة، فتضمحل
الحوادث تحت أذيال سراق العزة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بكشف جمال البقاء، فيبقىها ببقائها في
بقائه، فينقلب في مدارك تصرفه بنعت المشيئة والإرادة القديمة، يبدئ أنوار القيومية في
قلوب العارفين، فيبدئ بطلانها فحقائق المعرفة، ثم يغشيها بسطوات الجلال حتى لا يبقى في
ظهور المعروف سوى المعروف، ثم يعيدها بكشف قناع الجلال، وحسن البهاء فتبقى لشاهد
حسنه.

قال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة فيوجد المعدوم، ثم يعيدها بإظهار الهيبة نفس
الموجود.

وقيل: يبدئ بكشف الأولياء، فيمحو منها كل خاطر سواه، ثم يعيده، فتبقى بإبقائه،
فلذلك عظم حال العارف، فلما قدس عليه الخليفة عن راحة الأزلية عرف مكان العلة
المخاطبين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن
يَهْدِي﴾، صدق هذه الآية ما ذكر في الآية الأولى، وهي مصداقها بأن الهادي لا يكون إلا
المكون القديم، والمنزه الأزلي كما أن وصفه القدرة القديمة، فأيضًا وصفه الهداية الأبدية، هو
تعالى يهدي بنفسه وكشف العارف وجوده للحق الذي على أولياته وأصفياته، وهو حقائق
العبودية والتأدب بآداب الشريعة.

وأيضًا: الله هو الحق يهدي أهله إلى نفسه بنفسه؛ لأنه كان غيبًا لا علة في الأزل، فتحقق
حق غيبته على أهل محبته.

ثم عرف حقوقه لحقه لأهل حقيقته، بأن يزيلوا علة النظر إلى غيره، وأن يتبعوا المحبة

والشوق ما يوجب رضاه بوصف الأسوة والافتداء بالكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾.

سئل الحسين: من هذا الحق الذي يشيرون إليه؟ قال: معلل الأنام ولا يصل إليه إلا

هو.

سئل الواسطي: ما حقيقة الحق؟ قال: حقيقته لا يقف عليه إلا الحق.

قال الحسين: الحق من الحق ومن أجل الحق، وهو قائم الحق مع الحق، وليس وراء

ذلك إلا رؤية الحق.

قال الله تعالى: ﴿أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ﴾.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن حال الكل فهم عن إدراك حقيقة القدم وعظمة البقاء في توهم النفوس، وغمم الظنون بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: ظاهر الآية وصف أهل البعاد، وللقوم إشارات فيها، أن العقول محجوبة بالآيات، والقلوب محجوبة بالذات، والأرواح محجوبة بالراحات، والنفوس محجوبة بالشهوات، والأسرار محجوبة بالخطرات، وما وجدت الكل من ساحة الكبرياء إلا رسوم الأفعال، وما وقع عليها إلا ظلال الملكوت وتصرفات الجبروت، وأين الحدث عن إدراك كنه القدم، والأصل ممتنع بذاته عن أن يطلع على حقيقة وجوده خاطر من الخواطر وسر من الأسرار، ولب من الألباب، حاشا أنهم في مخائيل الظنون عن إثبات الوجدانية بل مستبصرون بنور الحق، وهم على بصيرة معرفته وتوحيده.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: بل هم مستغرقون بنور الحق في بحار الأزلية والسرمدية، وما هم مبتلون بقطرة من وصول حقائقها، يشربون من لججها أنهاراً، وهم عطاشى، كما قال قائلهم:

وَأَقْفُ فِي الْمَاءِ عَطْشَانَا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْقِي

وهكذا دأبهم أبد الأبدين كيف يصل الحدثان إلى قدم الرحمن، وهو منزلة عن الاتصال والانفصال.

قال الجنيد في هذه الآية: مر عليّ بذي أرباب التوحيد حتى أبو يزيد ما خرجوا من الدنيا إلا على التوهم.

وهكذا قال الواسطي: إلا ظناً أتهم قد وصلوا، وهم في محل الانفصال لا وصل ولا فصل على الحقيقة ذات ممتنع عن الاتصال، كما هو ممتنع عن الانفصال.

وسئل أبو حفص عن حقيقة التوكل؟ فقال: كيف يجوز لنا أن نتكلم في حقائق

الأحوال والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الظَّالِمِينَ﴾.

سئل أبو عثمان عن الظن؟ قال: هو اجس النفس في طلب مرادها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾: بين الله سبحانه عجز خواطر الجهل عن إدراك العلوم المجهولة عند أكثر الخلق المعروفة عند أهل المعرفة، تنطق بها السنة الروحانيين والملكوتين، وهي من أسرار الملك والملكوت، وعين الصفات والذات، فلما لم يكونوا من أهل الخطاب كذبوا حقائق الخطاب الذي جرى على لسان الأولياء والصديقين والأنبياء والمقربين، وهكذا عادة المفلسين والمنكرين كرامات أهل المشاهدات، وفراسات أهل المكاشفات لجهلهم وغرورهم وقياساتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّ قُلُوبَهُمْ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: يسمعون حقائق كلمات القوم، التي هي خبر عن حقائق أسرار الغيب، ويسمونها ظلمات، يا ليتهم لو يسمون من ألف فرسخ راتحتها لطاروا من الفرح بوجدانها، لكن ما خلقوا لقبول الخلائق.

قال بعضهم: كذبوا أولياء الله في براهينهم لما حرموا ما خص القوم به، والمحروم من حُرْم حظه من قبولهم وتصديقهم الإييان بما يظهر الله عليهم من أنواع الكرامات.

قال أبو تراب النخشي: إذا بعدت القلوب عن الله مقتت القائمين بحقوق الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ﴾.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: «الناس أعداء لما جهلوا»^(١).

ثم بين سبحانه أنهم يجرمون من سماع الخطاب الخاصة، وعن رؤية جمال القديم بالبصائر الصافية عن كدورات عوارض البشرية بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ﴾.

هذه الآية مصدق الأول لما لم يسمعوها بأسماع العقول والأفهام خطاب الغيب، كذبوا حقائق الإلهام، ولما لم يصبروا مشاهدة الحق بعيون القلوب كذبوا ما أخبرهم أولياء الله عما

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٤٢).

رأوا من أنوار الغيوب، صرح الحق سبحانه أنهم مسلوبون في الأزل أسباع خصوصية العقول القدسية المملوكة، وأبصار الأرواح الجبروتية لا جرم لم يكن لهم استعداد قبول الحقائق وعلم الدقائق، وقد تبين أن المعرفة بحقائق العلوم اللدنية والنظر إلى عالم الملكوت لم يكن مكتسباً، بل هما موهبتان خاصتان من مواهب الله الخاصة الأزلية، خصّ بهما في سابق علمه وأوائل حكمه أهل خالصة وده بغير اعتدال اكتسابهم، ولو كان مكتسباً لكان النبي ﷺ قادراً على أن يسمعهم ويصبرهم، بل فضل الله يؤتيه من يشاء من خواص عباده خالصة عرفانه، والحمد لله الذي خصّ نجبائه بسمع الخاصة من أسماء صفاته، والحمد لله الذي اصطفى أوليائه البصر الخاص من أبصار صفاته، ولم يبق بين ذلك السمع والإسراع والخطاب حجاب، ولم يبق بين ذلك البصر والإبصار ورؤية جماله نقاب.

قال الحسين: من استمع إليك بإيَّاه فإنك لا تسمعه، إنما تسمع من أسمعناه في الأزل فيسمع منك، وأما من لم تسمعه فإلا صم، والسباع وإن سمع لم يعقل فكأنه لم يسمع.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِمَا يَبْتَغَانَا﴾: إلا من أجرينا عليه حكم السعادة في الأزل.

قال بعضهم: إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجب داعي الله؟!

قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ تَذَعُوهُمْ إِلَى الْمُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال الواسطي: ليس من ينظر إليك بنفسه يراك، إنما يراك من ينظر إليك بنا، فأما من ينظر إليك بنفسه أو به فإنه لا يراك، ولا يراك إلا من يعمر أوقاته في رؤيتك، ويستغرق هو فيها، قال الله: ﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال ﷺ: «طَوَى لِمَنْ رَأَى مِنْ رَأَى مِنْ رَأَى»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٠) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١١) وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِينَ يُعِدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْكَ فَلَمَّا مَرَجَعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (١٢) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٣) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾

ثم يَبَيِّنُ سبحانه أن ما يجري في الأكوان من الأمر والقضاء والطاعة والمعصية والكفر والإسلام هو ما جرى في الأزل بأقلام الأقدار على ألواح الأحكام السابقة بمشيئة الله وإرادته القائمة بذاته، وفيما قسم في الأزل خلقه كان حكماً علياً حكياً لم يظلم في ذلك؛ حيث اختار قومًا بالولاية والنبوة، وألزم قومًا الكفر والضلالة؛ لأنه مالك الملك يتصرف في ملكه كما يشاء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ آلِنَاسَ شَيْئًا﴾: لا يظلم على الكافر والمطروود إذا عاقبهم؛ فإنهم مخلوقون في الأزل لقهره لا للطفه، ولا يظلم على أهل لطفه؛ حيث يربهم بلطائف مشاهدته بأقدار حواصلهم، ثم أعلمنا أن تلك الطائفتين السعداء والأشقياء يظلمون بأنفسهم بقوله: ﴿وَلَكِنِ الْآلِنَاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ظلم سعداء المعرفة والمحبة على أنفسهم أنهم يريدون أن يدركوا الحق بحقيقة أزليته، وهم إلى إدراك كنهه، وهو تعالى عالمٌ بعبجز الحدث عن حمل وارد القدم كما هو، فربهم ما يطيقون من نفسه، ولو يربهم من حقائقه ذرة يهلكون في أول بوادي سطواتها، وظلم استغناء الكفر طلب الربوبية من أهل العبودية.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَنِيًّا أَوْ نَهَارًا مَادًّا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ أَتُرَى إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَالْفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا دُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

قال الواسطي في هذه الآية: لا يتجلى لهم بحقه؛ فإن ذلك ظلم؛ لأن الخلق لا يَحْتَمِلُونَهُ، بل فيه ذهابهم، ويستحيل أن يكون لهم من القوة ما يطيقون بحقه؛ إذ في ذلك مساواة ومقارنة^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أخبر عن عين

(١) قال شيخنا البوزيدي رحمه الله: زينة الله التي أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلي، والطيّات من الرزق هي حلاوة الشهود. وهي لمن كمل إيمانه وصدقته في الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهي حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها في الدارين، وإنها حرم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصاً أو خللاً في أنوار جماله وسنائه. البحر المديد (٢/ ٢٤٥).

التوحيد وزوال الحدث في القدم، وجعل المشيئة مشيئة واحدة، وهي المشيئة التي لا مدخل فيها لمشيئة الحدثان صرف عن سوابق القضاء والقدر علة اكتساب الخلق.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ بِأَحَقِّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ٥١ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ٥٢

قال بعضهم: نفى السيد الأخص أن يكون له من نفسه شيء، أو يعتمد لها حالاً بل أظهر أن الكل منه، ولمن له الكل من لا يملك الأصل، فكيف يملك فروعه من لم يملك نفسه كيف يملك ضررها ونفعها؟ ومن صحت له هذه الحالة، فقد سلم من مدح الخلق، وذمهم بالطمع فيهم والتوسل بهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ بِأَحَقِّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أخبر سبحانه عن عمى الجاهلين الذين لم يروا أنوار جلاله وعظمته في مراني كل ذرة؛ لأنهم في غواشي طباعهم محجوبون عن شهود الحق على كل شيء ظهور نفسه.

ومصدق ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ثم أخبر عن وصفهم وشكوك بواطنهم.

وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ومن كان محجوباً عن لقائه فأيضاً يكون محجوباً إذ أن أسرارهم عن حقائق الخطاب، وعن فهم معانيه، وإن كان لهم بصيرة صافية يرون بها المخبر عنه في الخبر، ولا يحتاجون إلى الاستخبار منه؛ لأن وراء كل خبر أثر.

قال بعضهم: أنوار الحق مشرقة، وآثاره ظاهرة لا يشك فيها إلا معاند، ولا يعنى عنها إلا ضال، فالمتحققون بحقائق الحق هم سالكون مسالك أنوار الحق في مقاصدهم ومواردهم ومصادره، والراجعون منها إلى الأغيار هم الضالون عن سنن الحق.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ بِأَحَقِّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٣ ﴿هُوَ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ ٥٤

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ اشتد غوامس القدم بأن الأكوان، والحدثان صادرات من فيض فعله سحرت في بطش عزته محتاجات إلى مزيد رحمته حسم أطباع عبيده عنها، وصرف وجوههم منها إلى نفسه إذ لا ذرة من الكون جارية إلا بمشيئته فما دام الكل له، فابذل كلك لكليته حتى يكون كله لك لا غير،

فإن وعد الله في ذلك حق لا يخيب رجاء الصادقين، ولا يخلف مواعيد المقربين.

قال بعضهم: المغيرون من يرجع إلى غيرته في سؤاله ومهماته وطلباته، وله ما في السماوات وما في الأرض، فالكل له، فمن طلب بعض الكل من غيره فقد أخطأ الطريق.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أن يحرم سائل غيره، ويبعد عليه وجه طلبته، ولا يخيب سائله، ويبلغه إلى أقصى أمانيه.

ثم يبين الحق أن من أقبل إليه يحيه بأنوار حياته حتى يبقى مع الحق بوصف شهوده على معاينة ذاته وصفاته، ويميت نفسه حتى لا تزاحم بظلمة هواجسها أنوار أسرارهِ في قلبه بقوله: ﴿هُوَ تَحْيِيٌّ وَتُيْمِتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يحيي قلوب العارفين بمعرفته ومشاهدته، ويميت نفوس الزاهدين بأنوار هيئته ومراقبته، فمعاد العارفين مشاهدة جماله وجلاله، ومعاد الزاهدين الآءه ونعاهه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال بعضهم: هو يحيي القلوب بإماته النفوس بحياة القلوب، وهذا لمن كان إليه رجوعه في جميع أحواله.

وقيل: يحيي الأسرار بأنوار العزة، ويميت النفوس بنزع الشهوات عنها.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤﴾

قال النصر آبادي: يحيي الأرواح في المشاهدة والتجلي، ويميت الهياكل في الاستتار.

ثم ذكر سبحانه سبب هذه الحياة الباقية التي هي شفاء أرواح الصديقين، وقوة أبدان المريدين، ومنور أسرار العارفين، وشفاء ألم فراق المشتاقين، وخبر دوام الوصال للمستأنسين والمحبين، وهو كلامه القديم الذي هو بناء القدم والبقاء، وحلاوة الجمال والجلال وأحكام الربوبية والعبودية بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: خاطب أهل وده وسماهم بالناس؛ لأن غيرهم ليسوا بالناس في الحقيقة؛ حيث لم يعرفوا حقوق الأزلية؛ لذلك وصفهم بأجهل الجهل بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعْمٍ لَّنْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والناس من نسي نفسه، وما دون الله في الله أي: قد جاء من عند الله موعظة أحكام العبودية، ﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي: أنوار الربوبية، ﴿وَهُدًى﴾ تعريف

نفسه بظهور أنوار صفته، ﴿وَرَحْمَةً﴾: فتح أبواب المشاهدة، فالموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين المشتاقين.

وأيضًا: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأرواح، والرحمة للأشباح.

وأيضًا: الموعظة مقام الهيبة، والشفاء مقام الوصلة، والهدى مقام المعرفة، والرحمة مقام المخاطبة، والموعظة صدرت من العظمة، والشفاء صدر من حسن الجمال، والهدى صدر من عيان القدم والبقاء والرحمة، للعموم صدر من الأفعال، وللخصوص صدر من الصفات، وللخصوص الخصوص صدر من الذات.

وأيضًا: الموعظة للأبقين، والشفاء لمرضى المحبين، والهدى للمريدين، والرحمة للواصلين، بدأ بالموعظة لمريض حبه؛ لأنها أدوية إسهال شهواته بمعجونات موعظته تقديسًا لأسراره عن عوارض بشرياته، فإذا كان مقدسًا بسقيه من أشربه مراهم أطافه شفاءً لذلك السقم؛ ولأنه تعالى يشفي بخطابه صدور مرضى أهل شوقه، بمقدمك المبارك زال سقمي، وفي لقياك عجل لي شفائي، فإذا شفي يعذبه بهدايته إلى نفسه، فلما كل في صحته يطهره بمياه رحمته عن أوساخ المرض والاستحسان.

قال ابن عطاء: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأسرار، والرحمة لمن هذه صفته.

قال جعفر: ﴿وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: راحة لما في السرائر.

وقال جعفر: لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، وبعضهم شفاء التسليم والرضا، وبعضهم شفاء التوبة والوفاء، وبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء.

وقال الأستاذ: الموعظة للكَافَّة، ولكنها لا تنجع في أقوام آخرين، فمن أصغى بسمع سره انتضح نور اليقين في قلبه، ومن استمع إليه بنعت غيبته ما اتصف إلا بدوام حجبه.

ويقال: الموعظة لأرباب الغيبة ليؤد الشفاء للخواص، والهدى للخاص الخاص، والرحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك.

ويقال: شفاء كل أحد على حسب ذاته، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

ويقال: شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة.

ثم زاد تمام نعمته على عباده؛ حيث أنعم عليهم بتذكير الموعظة والشفاء عن العلة وإهداية إلى القربة، وإدخالهم في زمرة الرحمة والمشاهدة، ودعائهم إلى رؤية فضله السابق،

ورحة الكاملة عن رؤية الاكتساب وعلى الاجتهاد وفرح فؤادهم بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: حكم في الأزل باختصاص أهل وده أن يختارهم لولايته، ويصطفيهم بالنظر إلى مشاهدته، وسباع خطابه بلا واسطة، فالمشاهدة فضله، والخطاب معهم والوصلة لا نهاية لها؛ حيث لا يقع لديها لهم موانع من علل الحدودية، وعوارضات البشرية للرؤية واللقاء.

قيل: فضل الله دوام التوفيق، ورحمته تمام التحقيق.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٦﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قيل: فضل الله الرؤية، ورحمته أبقاهم في حال الرؤية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾: أخبر عن عظيم اطلاعه على أسرار الخواطر وما يجري في الضمائر، وكيف لا يطلع وهو مبدؤها ومنشؤها.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٣٦﴾﴾: خوف أشرف خلقه من اطلاعه؛ حيث قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون في طلب وسيلة منك إلى التوصل بها إليّ وما تتلو منه أي: من قرآن من خطابي التبليغ على عبادي لتختب قلوبهم بلذة خطابي إلا وأنا منتظر قدوم أسرارك عليّ، وأراعي خطرات قلبك حتى لا يجري ذكر غيري من العرش إلى الثرى، فتح هذا الخطاب لحبيبه أبواب أنوار عظمتها؛ ليكون عظيم الشأن في عيون العالمين، ثم خاطب الجميع بهذا الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: من عبوديتي وطلب مشاهدة ربوبيتي: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: مطلقاً على جريان همكم على أسراركم بنعت كشف جلالي وعظمتي والقاء سطوة كبريائي على قلوبكم حتى لا تكونوا إلا مشاهدي عظام جبروتي، وشرائف ملكوتي، ومعنى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: عند عزائمكم في بذل وجودكم إليّ، وكل حركة غيبية تجري عليكم.

ثم أخبر عن سلطان إحاطته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبين^(١): بَيَّنَّ أن ما صدر من العدم بنور القدم يكون بين علمه القديم وقدرته القائمة بذاته، ونظره الشامل على وجود جميع الأشياء على حد صغرها وكبرها، وأنها بجمعيتها معروفة في علمه عند بصره، وكلها قائمة بذاته وصفاته، وفي جميع الأوقات ينظر إلى كل ذرة بنظر الحفظ والرعاية، ولولا كمال عزة قدرته وإحاطته بعلمه القديم لفتت ما بين عرصات الملكوت والجبروت، وبهذه الآية يكمل خوف المراقبين وحذر الواجدين وإجلال العارفين وخشية الموحدين ورعاية الصادقين ومؤانسة الصديقين ومطالبة المريدين.

قال الشقيق: على العبد أن يلزم قلبه دوام نظر الله إليه وقربه منه، وقدرته عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقال بعضهم: من شهد شهود الحق إياه قطعه ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع.

قال النصرآبادي: شَتَّانَ بين من عمل على رؤية الثواب، وبين من عمل على اتباع الأمر، وبين من عمل على سبيل المشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقد وقع لي إشارة لطيفة أن الله سبحانه بَيَّنَّ التفاوت بين الأرواح والأشباح، وبين أجرام الأكوان تفاوتاً شقيقاً، حيث أخبر تعالى أنه مع الأرواح والأشباح بأنوار شهوده وكشف وجوده واستغراقها في علمه بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: خطاب الأرواح والأشباح وأجرام الأكوان معها بالعلم والقدرة والإحاطة بعلمه عليها، فالله سبحانه مع العبد العارف بنعت القرية والمشاهدة، والكون مستغرق في علمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْرِضُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، وما أنت العارف لو شاهد مشهوده ليغيب عن الخوض في الأعمال، بل يطير إليه بأجنحة الأحوال إذا انكشف جماله لمحبه لم يبق بين المحب والمحبوب واسطة الأعمال، وإذا كان كذلك يسقط عنه أحزان الفوات، وخوف الآفات؛ إذ هو في مشاهد الوصال ورؤية الجلال؛ لقوله سبحانه في وصف المشاهدين جماله المستأنسين وصاله الخارجين عن مكائد القهريات ونوائب العقوبات: ﴿إِلَّا إِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ اللَّهَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: العارف الصادق

(١) هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر، فالأولى للعوام، والثانية للخواص، والثالثة لخواص الخواص، فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتج له الحياء من الله، فيستحي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه. البحر المديد (٣/ ١).

إذا كوشفت له أنوار جمال الذات استأنس بها، وفرح بمواصلتها على الدوام، ثم دخل في نور البسط، وغلبت عليه الطمأنينة والرجاء.

ثم يدخل في سماع الانبساط من روح الوصال، فيغلب عليه النشاط والاستبشار، وذلك مقام لا يدخل فيه وجل القلوب من سطوات العظمة، ولا اضطراب الأرواح من أنوار الهيبة، ولا فناء الأسرار من قهر سلطان الأولية، ولا اضمحلال الوجود من قوارع العزة؛ لأن الولي العارف إذا كان في رؤية هذه الصفات تكون أسرارها في أسفار الآزال والآباد، ويكون هناك على خطر الفناء من غيرة القهريات، ألا ترى إلى قوله **﴿لَا يَخْشَى الْخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَزَلٌ﴾**، فإذا سكنت أسرار عن تلك الأصغار وكملت الحق في الحق وتمكنت بالله في الله وتوطأت في مواطن أنوار الجبال لا يجري بعد ذلك عليه طوارقات الامتحان، ألا ترى إلى المؤمن في الجنان لا يجري عليه آفات العذاب وصور الخوف والحزن؛ لأنه في جنان الظاهر وموضع الروح والريحان، فالعارف الولي أيضًا إذا بلغ إلى جنان جمال مشاهدة الله يكون محروسًا برعاية لطفه عن طوارق قهره أمان به عنه؛ لذلك قال: **﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**، فقله تعالى: **﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾** من مكر السابق في الأزل؛ فإنهم أصحاب العناية في سوابق علم القدم، **﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** من مستقبل عارض القهر؛ لأنهم أصحاب الكفايات إلى الأبد، وكيف يخاف من ينظر إلى جماله، وكيف يحزن من يكون في سنا جلاله، ولا تتم الولاية إلا بأربعة: المقام الأول: مقام المحبة، والثاني: مقام الشوق، والثالث: مقام العشق، والرابع: مقام المعرفة، لا تكون المحبة إلا بكشف الجمال، ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال، ولا يكون العشق إلا بذنو الدنو، ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة، وأصل الصحبة وكشف الألوهية القديمة مع ظهور أنوار الصفات جميعًا، فإذا رأى أنوار الصفات وصرف النعوت والأسماء ومشارب الصفات وعرف بها الذات سبحانه ويخرج من درك الفناء فيها بنعت البقاء فيكون وليًا، فيورث محبته الطاعة، ويورث شوقه الحالة، ويورث عشقه بذل الوجود، ويورث معرفته الخلو مما سواه، فيتورث بطاعة الفرائض، وتورث الحالة اللطافة والظرافة، ويورث بذل الوجود الكرامات، ويورث الخلو مما سواه الهيبة والوقار، فإذا كان كذلك بما وصفنا تكون الآية لله في بلاد الله شمائله البشارة والسخاوة وأخلاقه الصحبة والنصيحة، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحفظ حدود الله على عباد الله، طوبى لمن رآه، طوبى لمن صحبه، وآثر خدمته.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ١٠ ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ١١ ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١٢ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِى السَّمَوَاتِ وَمِن فِى الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِينُوا إِلَّا لَظَنٌّ وَإِنَّ هُمُ إِلَّا يَحْزَنُونَ﴾ ١٣ ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ١٤ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطٰنٍ بِهَٰذَا تُقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٥ ﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ لَا يَخْلُجُونَ ۖ مَتَّعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ١٦ ﴿وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَبْقَوْنَ إِن كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذِكْرِى بِنَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَّآ وَلَا تُنظِرُونَ﴾ ١٧ ﴿

وتصدق ما ذكرنا وصف الله إياهم عقب هذه الآية بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: آمنوا عاينوا الله بنور الله، وشاهدوا الله بشهود الله إياهم، وعرفوا الله بالله؛ حيث لا سبب لمعرفتهم إلا كشف جمال الله لهم، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: مما سواه من نفوسهم وغيرها من العرش إلى الثرى؛ فإيمانهم يوجب الكرامات، وتقواهم توجب مشاهدات، ثم أفرح فؤادهم بنيل وصاله وإدراك مشاهدته بنعت الرضا عنهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لهم في الدنيا مشاهدة نبيان، وفي الآخرة مشاهدة العيان، لهم في الدنيا مكاشفات، وفي الآخرة مشاهدات، لهم في الدنيا التجلي، وفي الآخرة مقام التدلي، لهم في الدنيا رؤية الله في المنامات، وفي الآخرة عيان مشاهدات.

ثم بين أن تلك الاصطفائية الأزلية لا تتغير أبداً بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تبدل لما سبق لهم في الأزل من حسن عنايته لهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: حيث نجوا من قهره وظفروا بوصاله ومشاهدته، وأي فوز أعظم من ذلك.

قال الواسطي: حظوظ الأولياء من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم منها، هو لأول والآخرة والظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، ومن كان

حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله ما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مربوطاً بها يستقبله، وكلّ كوشف على قدر طبعه وطاقته، إلا من تولاه الحق بيرة وقام عنه بنفسه.

وقال بعضهم: قلوب أهل الولاية مصانة عن كل معنى؛ لأنها موارد الحق. سئل بعضهم: ما علامة الأولياء؟ قال: همومهم مع الله، وشغلهم بالله، وفراهم إلى الله.

قال أبو سعيد الخراز: الأولياء في الدنيا يطيطون بقلوبهم، يرتادون ألوان الفوائد والحكمة، ويشربون من عين المعرفة، فهم يفرون من فضول الدنيا، ويأمنون بالمولى، ويستوحشون من نفوسهم إلى وقت موافاة رسول الرحيل. وقال أيضاً: نفوس الأولياء جملة قلوبهم، وقلوب الأعداء تحمل أثقال نفوسهم من الشرك طمعاً في راحة نفوسهم.

وقال أبو يزيد: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا من يكون محروماً منهم، وهم مخدرون عند الله في حجال الأنس لا يراهم أحد. قال أبو علي الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق وذاته، تولى الله اصطفاؤه، فتوالت عليه أنوار الولي، لم يكن له عن نفسه إخبار، ولا مع أحد غير الله قرار. وسئل أبو حفص عن الولي؟ قال: الولي من أئد بالكرامات وعُيّب عنها.

وقال محمد بن علي الترمذي: الولي يشرى كأنه على روحه في منامه، وعلى قلبه من تطفه، فروحه تسري إلى تحت العرش، فتسجد فيه، وقلبه يسري إلى فوق العرش فيلاحظ المجالس ويناجي ويبشر^(١).

(١) قال الإمام القشيري -رحمه الله تعالى: اختلف أهل الحق في الولي، هل يجوز ألا يعلم أنه ولي أم لا؟ فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يسلب الخوف ويوجب له الأمن، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول بجوازه. وقال القشيري: وهو الذي نريده ونقول به.

قال: وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم أنه ولي، وكانت معرفة تلك كرامة له انفرد بها، وليس كل كرامة لولي يجب أن تكون تلك عينها لجميع الأولياء بخلاف الأنبياء ﷺ؛ لأنه يجب أن يكون لهم معجزة؛ لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزة، وبعبس ذلك قال الولي؛ لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي أيضاً ليعلم بأنه ولي، والعشرة من الصحابة -رضي الله عنهم- صدقوا الرسول ﷺ فيها أخبرهم أنهم من أهل الجنة. وقول من قال: لا يجوز ذلك، لا يخرج من الخوف، فلا بأس أن يخافوا بغير العافية، والذي يجدونه في قلوبهم من الهية والتعظيم والإجلال للحق سبحانه وتعالى يزيد ويربو على كثير من الخوف.

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: هم به وله، موقوفون بين يديه، غير أن الحق تمتع لهم بما له، أراهم من عظيم الفوائد وجزيل الذخائر مما لا يقع لهم علم به، ولا علم عليه قبل حين وروده حتى يكون الحق مطالعاً لهم على ما يريد من ذلك على حسب ما قسمه لهم، فهم في ذلك على أحوال شتى، فذلك قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: جعل سكون العشاق والمشتاقين والمحبين في الليل المناجاة معه، ونيل الوصال منه، وخفض جناح القهر تحت أقدام الهمة الجامعة، ينظر عين الجمع إليها، ما أطيب أنس العارفين في الليالي حين أمطروا من عيونهم الباكية من شوق الله الدرر واللالى.

وأنشد:

أَفْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمُّ جَامِعٌ
وجعل النهار سريان أنوار القدرة، تطلع من جبتها كل لحظة شمس الصفات، وأنوار الذات، فصار مرآة نظر العارفين، وتحلى الحق فيها لهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَ لَكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ١٠٠ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ حَتِيبًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا ١٠١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ١٠٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ١٠٤﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلَحُ لَسِحْرُوهٗ ١٠٥﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي

واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، ولا له ملاحظة لها، وربما تكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحقيقهم أن ذلك فضل الله تعالى مستدلين على صحة ما هم عليه من العقائد.

الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَثْنَوِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ مُوسَى يُنْقِذُكُمْ اللَّهُ بِآيَاتِهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الْأَطْلَامِ ﴿٢٤﴾ وَخُفِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَنَشِرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾.

قال بعضهم: جعل سكن الليل إلى الخلوة والمناجاة والنهار مبصرًا ليبصروا فيه عجائب القدرة والاعتبار بالكون.

قوله تعالى: ﴿وَأُورِثُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُتَسَلِّمِينَ﴾: يعني المسلمين في إسلام نبيه نوح ﷺ انقياد نفسه المتصفة بصفات الله عند قدم جلاله وجبروت ملكوته وعظم كبريائه؛ حيث نازعت نفوس المتصفين بصفاته بنعت الأنانية من حدة سكرهم في بحار التوحيد وقفار التجريد، ومهمة التفريد؛ لأنه من أولي العزم، وصار صاحبًا بعد السكر، وليس لأهل الصحو إلا هدوء الأسرار تحت أذيال الأنوار.

وأيضًا: أن أكون من القائلين بالقلوب الربانية سهام امتحان قهر غير الأزل.

قال بعضهم: ممن تسلّم، سري من قلبي، وقلبي من نفسي، ونفسي من لساني، ولساني الكذب والغيبة والبهتان.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: سبق الحق باصطفائه أهل حقيقته بالحق الذي للحق مع أهله، فيظهر تلك الاصطفائية للخلق بالآيات الواضحة والكرامات المشرقة، التي لا تكون إلا بكلمات الأزلية التي يتكلم بها مع نفسه لسياق محبيه وعارفيه على كل مبطل، ودافع عن طريق الحق.

قال بعضهم: الحق على ثلاثة أوجه: حق أحق، وهو قوله: ﴿وَسُحِقُ اللَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِ﴾ أي: كون الكون بكلماته، وحق أحقه حق، وهي الصفات؛ لأنها قائمة بالموصوف، والموصوف قائم بالصفات، والحق المطلق هو الله، قال الله تعالى: ﴿قَدْ لِكُلِّ أَلَلَةٍ رُكْنٌ﴾.

قال الحسين: حق الحق بكلماته أي: بإظهار ما أوجد تحت ال «كن».

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عرفتم الله، وكنتم متقادين لربوبيته العبودية فعليه توكلوا، فإن المعرفة والانقياد والعبودية توجب تسليم الوجود لتصرف خالقه بنعت استلذاذ مرارة الامتحان.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 ﴿وَجَوَازَنَا بَيْنِي وَبَيْنَ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا ذَرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
 ﴿ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾
 ﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِعَذَابِكَ لِمَنْ خَلَقْتَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾
 ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّلَبِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ لَعَلُّهُ إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

سئل إبراهيم الخواص عن قوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾؟ قال: تناولوا السبب من الله بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾: عرف الله سبحانه لهما مكان الدعاء حتى يعرفا مكان الإجابة والسؤال؛ لأن مكان الدعاء مكان الإجابة، ومن لم يعرف مكان الإجابة لا يستحسن منه الدعاء والسؤال، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ في معرفتكما مكان السؤال مني بشرط معرفتكما مني مكان الإجابة، وذلك مكان الرضوان والبسط والانبساط.

وأيضاً: هذا تهديد لهما أي: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ لضعفكما من تحمل واردة امتحاني، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ بعد ذلك في تحمل بلائي والصبر فيه؛ فإن استقامة المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء والسكون في البلاء.

قال ذو النون: الاستقامة في الدعاء ألا تقنط لتأخير الإجابة، ولا تسكن إلى تعجيل الإجابة، ولا تسأل سؤال خصوص.

﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَايَتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٣﴾﴾
 قيل: ﴿أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ استقبيا على مناهج الصدق.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: كان ﷺ مصطفى في الأزل بشرط الرسالة والنبوة، والمقام المحمود الذي خُصَّ به عن جميع خلقه، فلما جاء عليه أوائل الاصطفائية ودلائل الرسالة وحقائق أنوار الوصلة بغته ولم يحصل له تسمرد الحاصل البداية تردد حاله وعارضه وسره، وخاف من فوت الحال، فسأل الحق قلبه بخطابه، وأحاله إلى رؤساء أخبار كتبه المنزلة ليعرفوا من هناك نشر فضائله واختصاصه في الأزل برسالته بما وجدوا في كتبهم، ألا ترى كيف أراد أن تلقى نفسه من حبل جرى شوقاً إلى جبريل عليه السلام ورسالة الله سبحانه، حتى جاء جبريل وأخذه وتسلاه بسلام الله ووحيه.

ألا ترى إلى قوله: ﴿زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي﴾^(١)، ولا تعجب عن خواطر التردد عن البشر، وإن كان رفيعاً، فإن شاهد القدم لو بقلب سريال الربوبية يبلغ قلوب الصديقين، ويفني أرواح المقربين من يتخلص من معارضة النفس بعد المكاشفة، وتلك المعارضة تصدر من الحق امتحاناً وعبرة، حتى تطلع على الطالب شمس العناية، وقمر السعادة، فيرى الحق بالحق ويستقيم به له.

ألا ترى كيف قال ﷺ: ﴿إِنَّهُ لِيُغَاثَ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾^(٢)، وكيف قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»^(٣)، ليس هذا شكاً في وعد الله إنه رفع المعارضة والخطرات، ألا ترى إذا استقام وزال الامتحان من مقام العرفان والإيقان، كيف قال: «لا أشك لا أشك»^(٤)، لا تعجب مما ذكرنا؛ فإن الحق حق، والخلق خلق، حاشا أنه كان في شك، إنما كان في رؤية جلال القديم، يرى نفسه غريباً عجبياً، ويتعجب مما يرى من غرائب وضوح الرؤية، كان كمن لم ير، فتحير في أمر الأزلية وأحكام الربوبية، قد اضمحل الحدث في القدم، ويرى القدم، ولم ير أنه يرى القدم بالحدث، فدهش بين رؤيتين يسمع خطاب

(١) رواه البخاري (٤/١)، ومسلم (١/١٤١).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٧٥).

(٣) رواه البخاري (٣/١٢٣٣)، ومسلم (١/١٣٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/١٢٥).

لأزل، فيرى الحدث متكلفاً بين أنوار القدم:

أَنَا مَبْصُرٌ وَأُظُنُّ أَنِّي نَائِمٌ وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمُّ جَامِعٌ
كَبُرَ الْعِيبَانِ عَلَيَّ حَتَّى أَنْ صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوْهُمًا

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَلَنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: مما فضلناك وشرفناك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، وهم الأعداء كيف وجدوا وصفك في كتبهم، وكيف رأوا فيها نشر فضائلك يدل عليه قوله لَكَ حين أنزلت هذه الآية: «لَا أَشْكُ لَا شَكَّ»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ نَبَأٍ نَقَاضٍ﴾: تقاضى سر الأزل من الأزل لقهره ولطفه أهلاً يكونون من مصر فيها صادقين، وإليهما رجعين بنوعتهما، فأجاب الحق سبحانه سره بكلماته الأزلية بسعادة السعداء، وشقاوة لأشقياء، فلزم سمات لطفه الأزلية على وجوه المقبولين، وألزم سمات قهره على أعناق خسرودين، فبقي أهل اللطف من الأزل إلى الأبد في لطفه، ويقبلون منه ما يصدر من إرادته ومشيئته وأمره، وبقي أهل قهره من الأزل إلى الأبد في ظلمات قهره، فلا يرون واضحات مواهبه على أنبيائه وأوليائه إلا وينكرون عليها؛ لأنهم يرونها بعيون مظلمة وأبصار مطموسة. قال الواسطي: من لم يلحقه نور الأزل لا يتبين عليه صفاء الوقت؛ فإن صفاء الأوقات تنبع أنوار الأزل، قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّ لَمَاءَ امْتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿لَمَاءَ امْتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ﴾: أعلم الحق سبحانه أن شأن مشيئته لا يكون على سنن العقول وإدراك الفهوم لما رفع مسنون اليهود الذي جرى عادته في رسم المواجهة أن يأخذ بعد معاينة العذاب، ولا يقبل التضرع والتواضع فحول ذلك، وقبل تضرع المتضرعين عند معاينة البأس؛ لتلا يظن ظان أن أمره على مقادير العقول، تعالى الله أن يكون في حين الدركات، التجأوا منه إليه، فانكشف لهم صبح الوصال من مطالع الجبال بعد تدب دجى الضلال، فعابنوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهية عليهم،

فجازهم من سطوات القهر؛ لأن رحمته سبقت على غضبه، ولولا كشف جماله لهم لبقوا في حجاب النكرة واحترقوا.

وأيضاً: ﴿لَمَّا ءَامَنُوا﴾ أي: عرفوا صفات الحق بعد بروز أنوارها في قلوبهم ارتفع عنهم عذاب البعد والفراق، ثم بيّن اختصاص المختصين واصطفائية المصطفين أنها بمشيئة الأزلية ولا بعلّة الاكتساب يكون الولي وليّاً، بل بفواتح كرمه وسوابق نعمه قوماً من العارفين ويقهر قدمه يضع آخرين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ^(١).

وصرح الحق أن لو شاء خلقهم جميعاً مستعدين للولاية بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾، ولكن جعل قوماً غذاء رحمته السابقة، وجعل قوماً غذاء قهره الأول؛ لتكون الصفتان على قوام حفظهما من البرية، وتبين خاصية أحبائه وطرده أعدائه، وفيه إيباس الطامعين في إيمان من ليس له أهليه لمعرفته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: كل نفس ليس لها استعداد معرفته وقبول محبته، وليس بها من الله سابقة حسن عنايته في الأزل بنعت اصطفايتها بالولاية كيف تعرفه، ومعرفته نتائج أنوار طوالج صفاته في قلوب العارفين.

(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إشارة بالاسم الرب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، إمّا بالنسبة إليه ﷻ فبالعلم، وإمّا بالنسبة إلى قومه فيإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبرة الخطاب له ﷻ وإشارته لكل من هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷻ: ﴿لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أراد بمن في الأرض: الأنس والجن، كما دلت عليه كلمة مَنْ، فإنهم هم المكلّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأما مَنْ في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله ﷻ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ [النصر: ٢]؛ فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم من شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجبال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقاً، فلو آمن كلهم؛ لبقى بعض الأسماء بحيث لا يحكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ﴾ (٢) ثُمَّ تُنحَىٰ رُسُلُنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤)

قال بعضهم: لا يظهر الإيمان على أحد إلا لسعادة سابقة له في الأزل ونور متقدم، ثم زَيَّنَ السماوات والأرضين بأنوار ملكوته وجبروته، وأظهر منها سبحات جلاله وشهود عظمته لنظار المعارف وألباء الكواشف، ودعاء الأحباء والأعداء إلى النظر إليهما بقوله: ﴿قُلْ نَظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما يبرز من نوره من جبين الشمس وسناه من عارض القمر وضيائه من مرآة الكواكب، الذي انكشف لخليله، وسليه من الحدثنان إلى رؤية التقدم بالنظر إلى هذه الوسائل، حين قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثم أخبر عن خروجه منها إلى أنوار السرمدية والفردانية بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥) أي: لو أن لكم بصائر الصفاتية وأبصار الذاتية انظروا؛ فإن جمال القدم ظاهرٌ للعاشقين، عيانٌ للمشتاقين، وبيانٌ للمحبين، ثم بيَّن أن من لم يكن له عين من تلك العيون، ونور من تلك الأنوار، ألا ترى جماله وجلاله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كيف يفعل الآيات بمن خلق محروماً عن الإيمان بمكون الآيات.

قال بعضهم: لا تصل العقول الخالية عن التوفيق إلى سبيل النجاة ولما يفنى ضياء العقل مع ظلمة الخذلان، إنها ينفع أنوار العقل من كان مؤيداً بأنوار التوفيق وعناية الأزل، وإلا فإنه متخبطٌ في هلاكه بعقله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُنحَىٰ رُسُلُنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦) إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجاة الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجاة العارفين من حجاب الشهوات، ونجاة المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إليهم؛ لأن من أحبَّ أحدًا حفظه عن مهالك البعد منه.

﴿ثُمَّ تُنحَىٰ رُسُلُنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين تفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأننا

اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقاً علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

قال بعضهم: ﴿تُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ من مراد النفس، وغلبة الشهوة، وغفلة الوقت وسطوات العدو وشتات السر، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالرسول نجريهم على مناهج الرسل، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة من صدق في عبوديته.

﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٢) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ (٣) يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَدِي لِتَفْسِيرِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٤) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضُّكَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٥) .

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، «لِلدِّينِ» هاهنا: محبة الله والشوق إلى لقائه، ومعرفة صفاته أي: أقبل بوجهك إلى هذه الصفات الخيفة الخليفة المبرأة عن محبة كل مخلوق سوانا، ثم أقبل بهذه الصفات جميعاً وجهك الاستقامة إلى مشاهدة وجهنا الأزلي المنزه عن المخايل والتساوير حتى تراني بي، وتصل إليك أنوار وجهي الذي لو أشاط ذرة منها على جميع الأكوان والحدثان من العرش إلى الثرى يضمحل جميعاً تحت أنوار سلطان بهائي وجلالي، قال (عليه السلام): «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (١): أي: يستقيم لي في ذلك المقام حتى تطبق أن تحمل أثقال أنوار مشاهدتي، ثم خوفه من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: من الطالبين من غيري، والأسرين على حبال مشاهدتي ما لا يليق به من الحدثان .

قال ابن عطاء: صحح معرفتك، ولا تكونن من الناظرين إلى شيء سوى الحق، فيمقتك الله، وإقامة الملة الخيفية، هو تصحيح المعرفة.

ثم زاد تأكيد الإقبال عليه والإعراض عما سواه بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: شدد أمر التوكل والاعتماد عليه بقطعه طريق الإعراض عما سوى وصاله، ويبيّن أن من نظر إلى غيره عند امتحان الله بالسراء

والضراء يكون مغلوب قهره، متروك حظه، محروماً من مراده، محجوباً عن الله بغير الله، باقياً في فوات المراد، ومن كان بهذه الصفة فهو ظالمٌ حيث وضع الربوبية عند من لا يستقيم في لعبودية.

قال شقيق: الظالم من طلب نفعه عن لا يملك نفع نفسه الضر عن لا يملك الدفاع عن نفسه، ومن عجز عن إقامة نفسه كيف يقيم غيره! قال الله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مَنَّ لَطْلِمِينَ﴾.

ثم زاد تأكيداً إليه في رجوع عباد بالكلية وإعراضهم عما سواه بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرْذَكَ بَخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: عَرَفَ حبيبه أن كل حركة من العرش إلى الثرى فهو تعالى محركها، وكل روح وجسد وقلب ونفس وهمة وعقل وكناية مستغرقة في بحار مقاديره لا يجري عليهم إلا موارد القضاء والقدر، وكل مشيئة في لامتحان بالضر وإيصال النفع تصدر من حكمة السابق، فينبغي ألا يرى الغير في البين، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الحجاب ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لذلك ﴿إِلَّا﴾ ظهور أنوار وصاله، ﴿وَإِنَّ يُرْذَكَ بَخَيْرٍ﴾ كشف جماله، ﴿فَلَا رَادَّ﴾ لفضل وصاله من سبب، وعلة من الألوان والأعمال، فإن المختص في الأزل بوصلنا لا يحتجب بشيء من الأشياء؛ لأنه في الفضل سابق مصون عن جريان القهر.

ثم علق ذلك بمشيئته السابقة، وأخرجه عن اكتساب البشر بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من عرفانه؛ لأنه سائر الأولياء في قباب عصمته عن طوفان قهره رحيم بهم؛ حيث ربّاهم بجماله، وآواهم إلى وصاله.

قال ابن عطاء: قطع الحق على عباد طريق الرغبة والرغبة إلا إليه بإعلامه أنه الضار نافع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: الحق هو القرآن في ظهر التفسير وحقائقه وتحلي ذاته في صفاته، وصفاته في فعله، فوصل بركة تجليه إلى كل مبارك، وانصرف نوره عن كل محروم، ثم بيّن سبحانه أن عروس القدم قد انكشف لأهل نعيم، فمن رآه، رآه بحظه الوافر، ومن أخطأه أخطأ طريق النجاة بقوله: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ ومن هتدى لنفسه. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ: أي: من عرفني فمعرفة راجعة إليه، ومن جهلني فجهله راجع عليه، فإن ساحة الكبرياء منزّهة عن معرفة العارفين وجهل جاهلين؛ حيث ما استوحش حين جهلوه، وما استأنس حين عرفوه، ثم بيّن أن المتولي تعالى

هو بنفسه في الهداية والضلالة بقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

قال الواسطي: لو وقع التفاضل بالنعوت والصفات كان الذات معلولاً ما أظهر، فإنما أظهره لك إن أجرى الإحسان عليكم فلكم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾. إن أجرى الاهتداء فلكم بقوله: ﴿فَمَنْ آهَتَدَىٰ فَلِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ﴾. وإن أجرى الشكر فلكم بقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَلِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

ثم إن الله سبحانه أمر نبيه بمتابعة مراده، واستقامته في العبودية، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاطِبِينَ﴾ أي: اتبع ما يحل في قلبك من خطاب الأزل، وطيب روحك بطيبه، واصبر إذا شمت راحة وصلتي، ولا تضطرب؛ فإنك في امتحان الرسالة، حتى يحكم الله برفع الحجاب عن مشاهدته، ويريح العارفين والمحبين والمشتاقين عن بلية الحجاب أبداً، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَاطِبِينَ﴾ بأن يفرق بين أوليائه وأعدائه، ويخلص أهل العرفان من أذية أهل الحرمان، والله أعلم.

قال سهل: أجرى الله في الخلق أحكامه، وأيدهم على اتباعها بقدرته وفضله، ودلهم على رشدهم بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾، والصبر على الاتباع، وترك تدبير النفس فيه النجاة عاجلاً من رعونات النفس، وأجلاً من حياء المخالفة، والله أعلم.



سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَعَتْ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُرْسِيُّ تَذِيرٌ وَنَذِيرٌ ۝ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مَقْضَاكُمْ حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾.

﴿الر﴾: الألف إشارة جميع التأويلات التي جرت في سوابق الأزل الألوهية، واللام إشارة جميع لوازمات العبودية التي وجبت أحكامها في الأزل على أهل العبودية، والراء إشارة إلى راحت مشاهدة الذات، والصفات للأرواح والأشباح.

قوله تعالى: ﴿رَكَعَتْ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ﴾: مخبرات الكتاب من عيون الصفات، والذات نزهت عن تغاير الحدثان؛ لأن أصلها صفة القدم، وليس في القدم تبديل وتغيير،

هـ ثُمَّ فُصِّلَتْ ۖ: أي: بينت للأرواح العارفة والقلوب الشائقة مصارفها وحقائقها، وتلك الآيات معرفة الصفات والذات لأهل المشاهدات والمكاشفات تعرف لهم أحكام الربوبية والعبودية؛ ليشهدوا بأنوارها شهود أنوار الحق، ويعلموا ما يجري من أحكام الغيب القدري على الخلق.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾: هو من كلام أزيي حكيم؛ إذ حكم باصطفائية عرفانه بمعرفته ﴿حَبِيرٍ﴾ باستعدادهم وقبولهم بوصف محبة عبوديته.

قال بعضهم: ﴿أُحْكِمْتَ ءَايَتُنَا﴾ في قلوب العارفين، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أحكامه على أبدان العاملين.

قيل: ﴿أُحْكِمْتَ ءَايَتُنَا﴾ بالكرامات وفصلت بالبينات.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُحْكِمْتَ﴾: حفظت عن التغيير التبدل، ثم فصلت تبيان نعوت الحق فيها يتصف به من جلال الصمدية، وما يعبد به الخلق من أحكام العبودية.

ثم بيّن سبب نزول الكتب بهذه الأوصاف؛ ألا يكون العباد إلا لمولاهم، لما كان بينهم من مواصلة المحبة ووجوب الربوبية والعبودية بقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا يلتفتوا إلى ما الله في عباده الله، ثم بيّن أنه ﷻ نذيرٌ بعظائم قهره وبشيرٌ بلطائف وصله.

قال الأستاذ: نذيرٌ من الله بالفرقة، بشيرٌ بدوام الوصلة.

ثم أمرهم بالافتقار إلى مشاهدته والافتقار بوصاله والاستغفار عن ملاحظة غيره في طلبه إدراك جماله، والرجوع من قهره إلى لطفه، ومن النفوس وحظها وهواها إلى مراده ومتابعة أمره بقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: استغفروا من جنایات الأسرار، وتوبوا إليه لطلب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقدیس، والتوبة تخليص، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل.

سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها.

وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة.

وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، في هاهنا سألتني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن

كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١)، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوجدانية، وعن خواطر الأنانية.

ثم بين أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم بما سوى الحق إلى الحق بالتمتع ببقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الآبدين بقوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا»: المتاع الحسن أنوار المواجه على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في من الدنيا لقاءك مرة! فإن نلتها استوفيت كل مناتيك.

قوله تعالى: «وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»: يؤتي فضل مشاهدته لمن له فضل المعرفة، ويؤتي فضل وصاله لمن له فضل الشوق إلى جماله، ويؤتي فضل الكرامات لمن له فضل العبادات، ويؤتي فضل التحقيق لمن له فضل التوفيق، ويؤتي فضل كفاية الأبد لمن له فضل عناية الأزل، ويؤتي كل ذي فضل الندامة على ما سلف من ذنوبه، والاستغفار من الله والرجوع من نفسه إلى خالقه فضل طمأنينة القلب بالذكر، وفضل رؤية منه الحق بنعت نسيان الخلق، ووصل المؤانسة بروح الوصال، ولذة نور الجمال.

قال الواسطي في قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا»: طيب النفس، وسعة الرزق، والرضا بالمقدور.

وقال سهل: هو ترك الخلق والإقبال على الحق.

قال أبو الحسن الوراق: يرزقكم صحبة الفقراء الصادقين.

وقال الجنيد: لا شيء أحسن على العبيد من ملازمة الحقيقة، وحفظ السر مع الله، وهو تفسير قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا».

قال الحسين: «مَتْنَعًا حَسَنًا»: الرضا بالميسور، والصبر على كرمه المقدور.

وقال الواسطي: «وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»: ذو الفضل من رزق بعد الاستغفار، والتوبة حسن الإنابة والإخبات مع دوام الخشوع.

قال النصر آبادي: رؤية الفصل يقطع عن المنفصل، كما أن رؤية المنة يحجب عن النمان.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمْتَنُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

قال بعضهم: يوصل كل متحقق إلى ما يستحقه من مجالس القرية وسمو المنزلة.

قال الجوزجاني: من ندر عليه الفضل في السبق يوصله إلى ذلك عند إيجاده.

سئل أبو عثمان عن قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؟ قال: يحقق أمانى من أحسن

ظنه به.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الخطرات،

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من النظرات، يعلم ما يسرون من أذكار القلوب، وما يعلنون من الإخبار عن

نخب، يعلم ما يسرون من الحالات، وما يعلنون من المعاملات، وهو تعالى كسا أنوار

جلاله فؤاد الصديقين، فيرون بأبصار قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من المضمرات

والخطرات، كما يرون الظواهرات بعيون الظاهرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ

لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقال الله: ﴿اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ﴾ (٢).

قال قائلهم:

أَبْعَيْـي أَرَاكَ أَمْ بِقُـؤَادِي كُلُّ مَا فِي الْفُؤَادِ بِالْعَيْنِ بَادٍ

قال فارس: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من أحوالكم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من أفعالكم، وهو

عالم بكم قبل أن خلقكم وأبدعكم.

وقال أيضاً: الحركات على الجوارح، والمشاهدة على الأسرار.

وقال بعضهم: ما يسرون من الإخلاص، وما يعلنون من العبادات.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ

عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أُيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِي

تَمُوتَ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ

تَأْتِيهِمْ مَعْدُودَةٌ لَيَقُولُنَّ مَا نَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ

بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مرابع الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مبصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القرية للقلوب، ورزق الملاذكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسييح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار، ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم.

قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعاً إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبى هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج.

قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه.

وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق.

وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال.

يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد.

ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله.

قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعة فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحباب ودائع فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله^(١).

(١) قال ابن عجيبة: أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ﴿١﴾
 وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ الْبَرَاقَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ
 مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَابِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
 مَلَكَ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قَالَ فَاتُوا
 بِعَشْرِ أَمْثَلِهِ مَفْرُوتٌ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥﴾
 فَلَمَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾: إن الله سبحانه
 وصف الممتحن الذي ذاق من طعم أحوال العارفين والمحيين والمريدين، واقتحم في حظوظ
 النفس وظلمات هواها، واحتجب بها عن مذاق مراتب الذاكرين والصالحين، ولم يتدارك ما
 فاته من عبارة الأوقات، وحراسة الأنفاس بقي في حجابها، وألبس عن مدارك إخوانه، وزاد
 خوضه في متابعة النفس، ويكون هالكا مع الهالكين، وكم من طائفة هلكوا في هذه الورطة،
 ولم ينتعشوا.

قال قائلهم:

وَكَاْنَ لِىْ مَشْرَبٌ يَصْفُوْا بِرُؤْيَيْكُمْ فَكَذَّرْتَهُ الْاَيَّامُ حِيْنَ صَفَا
 قال أبو سعيد الخراز: من أذيق حلاوة الذكر وصفاء السر ثم نزع منه من سنا المقامات
 والأحوال فليحككم لقلبه بالموت، ولسره بالعمى عن طريق الهدى؛ لذلك قال الله: ﴿وَلَيْنَ
 أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾، وهو محل القرية، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾، وهو حجاب
 النعمة.

ثم ذكر سبحانه وصف المتخلص من عن الفراق والناقة من مرض سم أفاعي القهر
 بمفرح الترياق إذا أدرك ما فات، وطلع عليه شمس العناية مشرق الكفاية، وأقبل عليه أيام
 السعادة بعد ذهاب أيام الشقاوة بقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ

في المقام، أو مستقرها في اللغناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين،
 أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح.

السَّيِّئَاتُ عَنِّي: أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءَ الوصال بعد ضراء الفراق، أَذْقَنَاهُ من شراب الوداد بعد رجوعه إلى المراد، يطربه المواجه، فيسكره أنوار شراب الوصلة، فيهبج نفسه بهيجان قلبه، ويضطرب ويفرح بذهاب ظلمة الهجران عنه، ويظن أن الأوقات باقيات عليه، فيدعى بدعوى البشرية بالمقامات والأحوال عند الخلق، وذلك غلطٌ عظيمٌ يفرح بغلطه، ولا يعلم مزية قدمه فيكون بعد ذهاب الوقت كما كان، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾.

ثم استثنى الله سبحانه أهل الاستقامة والثبات في موازات تجلي أنوار قدمه بنعت الخنوع والفناء حتى يجري عليهم بديهة المكاشفة وصولات الوقت بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي: صبروا فيها وجدوا من أعلى الزلفى، وأرفع القربة، ولا يفشون تلك الأسرار عند الخلق بنعت الدعوى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدَ آلَ عِزَّةٍ فَلِلَّهِ آلَ عِزَّةٍ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: استقامتهم على تدارك الأوقات بوصف وضع أقدام الصديق على هوامه؛ حيث يراعون أنفاسهم، ويقدسونها عن شربها مع الخطرات، ثم وعد الله لهم بصبرهم واستقامتهم، وتدارك أحوالهم غفران ما مضى من الفترة والغفلة، وأنه تعالى يسترهم عن نفوسهم، وهواجسها، وشياطينهم، ووساوسها بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: المغفرة: إقبال الله عليهم بوصف قبولهم، والأجر الكبير دوام الأوقات على السرمدية وتواتر المواجه، وبلوغهم إلى انبساطات الأول بوصف رفع الاحتشام، وتذكير ما سلف من الفرقة.

وقال الأستاذ في تفسير قوله: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ صَرَآءٍ مَسْتَعْتَبٍ﴾: من استمسك بعروة التضرع، واعتكف بقوة التذلل، وتحسا كاسات الحسرة، علا بعد نهل طالعه الحق بنعت الرحمة، وجدد له ما اندرس من أحوال القربة، وأطلع عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل:

تَقَشَّعَ غَيْمُ الْهَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحُبِّ وَأَشْرَقَ نَوْرُ الصَّبْحِ فِي ظُلْمَةِ الْغَيْبِ

وليس لأحوال الدنيوية كبير خطر في التحقيق، ولا بعد نواها وتكذرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل؛ لكن المحبة الكبرى، والوزنة العظمى تدبيل غصن الوصال، وتكثر مشرب القرب، وأفول شوارق الأنس، ومد بصائر أرباب الشهود، فعند ذلك تقوم قيامتهم،

وهناك تسلب العبرات، وهي أرواح، فتقطر من العيون بتصاعدها، فإذا نعت في ساحات هؤلاء غراب البين ارتفع إلى السماء نواح أسرارها بالويل.

ومن جملة ما قالوا في ذلك:

قُولَا لِمَنْ سَلَبَ الْفَوَادَ فِرَاقُهُ وَلَقَدْ عَهِدْنَا وَالْمَنَاحَ عَاقُهُ
تَفَدَّ الْغُرَاءَ فَبِالَّذِي هُوَ بَيْنَنَا إِلَّا وَثَبْتَ لَزَدْنَا إِزْهَاقُهُ
عَهْدِي لِمَنْ جَحَدَ الْهَوَى أَرَامَانِ مَا نَوْرُ الصَّبَابَةِ لَا يَضِيئُ نَظَاقُهُ
فَالْآنَ مَدْخَلَ الزَّمَانِ يُوصلُنَا ضَاقَ الْبَسِيطُ فَشَآنُهُ فَعِرَاقُهُ
هَلْ تَرْجِي مِنْ وَصَلِ عَزَةٍ رَجَعَتْ تَخَفُوا عَلَى قَمَرٍ يَدُومُ حِمَاقُهُ
إِنْ كَانَ ذَلِكَ كَمَا تُرِيدُ فَخَازِمَا فَجَرِ الْمَسْرَةَ أَنْ يَرَى إِشْرَاقُهُ

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجَسُونَ» ﴿١٠١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَشَطَلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِمْ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَئِنَّ أَمْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾.

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجَسُونَ»: أخبر الله سبحانه أهل الرياء والسمعة الذين لا يريدون من أعمالهم إلا الترفع والجاه والزينة والمال، وهم عن الآخرة بها محجوبون، ولو ذاقوا طعم رؤية الآخرة وجاء أهل المعرفة التفتوا إلى حظوظ أنفسهم، ومع ذلك أعطاهم الله ما يحجبهم عنه في الدنيا والآخرة، ولا تظن يا أخي أن العارف المتمكن إذا باشر الدنيا وزينتها هو من جهلهم، إنه يريد الله برغبة المعرفة والشوق، ويريد الدنيا للكفاف، والعقاب يرزقه الله حياة حسنة طيبة بأنه يجعل الدنيا خادمة له، فيجعله في عين الخلق، ويرفع هيئته في قلوب الناس، قال الله: «فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً صَبِيَّةً».

وقال ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ» (١)، وليس كالمرائين الذين يجعلهم الله محرومين من شرف الآخرة بقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا».

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال أبو بكر الوراق: الحياة الدنيا هي ارتكاب الأماني، واتباع الشهوات والجلولان في ميادين الآمال والغفلة عن بغة الآجال، وجمع ما فيها من الأموال من وجوه الحرام والحلال في زينة الدنيا هي ما أظهر الله فيها من أنواع العلائق التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿رُئِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَبِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾.

وتصديق ما ذكرنا من وصف العارفين والمراثين قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، تقدير الآية على وجه الاستفهام، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن هو في الضلالة والجهالة، أفمن كان معرفة من ربه وولاية وعلامة من كراماته وكل عارف إذا شهد الحق سبحانه بقلبه وروحه وعقله وسره، وأدرك فيض أنوار جماله وقربه يؤثر ذلك في هياكله، حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: فالبيئة بصيرة المعرفة، والشاهد بروز نور المشاهدة منه.

وأيضاً: البيئة كلام المعرفة وشاهده الكتاب والسنة، ومن كان بهذه المثابة يرى بعين الحق مكنون الغيوب وأسرار القلوب، ومشاهدته غالباً على يقينه، ويقيه غالباً على بصيرته، وبصيرته غالباً على عقله، وعقله غالباً على نفسه بحيث لا يزاحم هواجسها على مناطق الغيب، وظلمتها لا تغشى أنوار القرب، بل هي فانية بحياتها تحت وارد الحق من الكشف والعيان والبيان، ويبين ما قلنا ويصدق قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: كل وارد من الحق فهو الحق حين زالت عنده معارضة النفس، فإن خطر معارضة في أول نزول الوارد فهي امتحان الحق فيرد عليها واردات حقيقة فتزليها أصلاً، قال الله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ حين بقيت الواردات وزالت المعارضات.

قال أبو عثمان: من كان على البيئة لا يخفى عليه سر.

وقال رويم: البيئة هي الإشراف على القلوب، والحكم على الغيوب.

قال الجنيد: البيئة حقيقة يؤيدها ظاهر العلم.

قال أبو بكر بن طاهر: من كان من ربه على بيئة كانت جوارحه وقف على الطاعات والموافقات، ولسانه مزموماً بالذكر ونشر الآلاء والنعماء، وقلبه منوراً بأنوار التوفيق وضياء التحقيق، وسره وروحه مشاهد للحق في جميع الأوقات، عالماً بما يبدو من مكنون الغيوب ومستورها، ورؤيته للأشياء رؤية يقين لا شك فيه، وحكمه على الخلق كحكم الحق، لا ينطق

إِلَّا بِحَقٍّ، وَلَا يَرَى إِلَّا بِحَقٍّ؛ لَأَنَّهُ مُسْتَغْفِرٌ فِي الْحَقِّ، فَأَنَّى لَهُ مَرْجِعٌ إِلَّا إِلَى الْحَقِّ، وَلَا إِخْبَارٌ لَهُ إِلَّا عَنْهُ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ۖ لَأَشْهَدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٦٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصُلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ولما وصف الله البيّنة وصدق الشاهد وصف المغالطين ومدعين مقامات أهل الولاية افتراء وزورا وبهتاناً قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ۖ لَأَشْهَدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَي: ظالم أشد ظلماً ممن يدّعي الولاية، وكان في سابق الحكم كذاباً، كأنه يريد نقض إبراهيم حكم الأزل الذي سبق بكفره وزوره وبهتان، وسبق بعنايته الأولياء والصديقين، فظلمه من جهة كذبه على الله بإخراج نفسه على دعوى الولاية، وهو كاذب، وغرض هؤلاء المفسدين صرف وجوه الناس إليهم رياءً وسمعةً وجاهاً، فيعرفهم الله لجميع الخلائق حين يعرضون على ربهم؛ ليفضحهم ويكشف قبائحهم عند الخلق، يوبخهم على رءوس الأشهاد بدعاويهم الباطلة، فيشهد على كذبهم كل صادق في الحضرة، ثم تبعدهم عن القرب والوصال إلى النار والوبال.

قال بعضهم: المفتري على الله من اتخذ أحوال السادات بدعوات لنفسه حالاً، وأظهر من نفسه مشاهدته ما لا يشهده أولئك الذين يفضحهم الله في الدنيا بكذبهم، فيطلع عليهم الذين يشهدون حقائق الأشياء، فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ لأنهم أظهروا من الأحوال ما ليس لهم، وترينوا بالعواري من لباس السادة، فهذه فضائحهم في مجالس أهل الحقيقة إلى أن يرجعوا إلى الفضيحة في مشهد الحق.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: لا يسمعون خطاب الحق بأسماع القلوب، ولا يرون مشاهدة الحق بأبصار الأرواح، وكيف يسمعون وما سبقت لهم في الأزل العناية، وكيف يبصرون وليس لهم حظٌّ عن أنوار القربة، وما تطلع من وجوه الصديقين والعارفين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

فِيهَا خَلَدُونَ ﴿٦٦﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتَى لَكُمْ تَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٩﴾

قال بعضهم: كيف يستطيع السمع من لم يفتح مسامعه لسماع الحق، وكيف يبصر من لم يكتحل بنور التوفيق؛ إذ لا سماع إلا عن إسماع، ولا بصر إلا عن إيسار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: أيقنوا مواعيد الغيب بنعت رؤيتها، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بذلوا مهجهم للوصول إلى قرب الحق، وزكوا سرائرهم بصفاء الذكر وجولان الفكر، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: فنوا تحت أنوار سلطان كبريائه حين عاينوها بأبصار أسرارهم، أولئك أصحاب مشاهدة صفات البقاء بعد إفنائهم في أنوار صفات القدم، باقون في البقاء؛ لأنهم لا يزالون بعد ذلك إلا أصحاب الصحو بعد المحو.

قال شاه الكرمانى - رحمه الله عليه: الإخبات ثلاثة: غم الإيأس مع التوبة لكثرة العود إلى الذنوب، وخوف الاستدراج في إسبال الستر، وتوقع العقوبة في كل وقت حذر، أو إشفاقاً من العدل.

قال الأستاذ: الإخبات التخضع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامات المخبتين الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستعانة بالسر، ثم أن الله سبحانه فرّق بين المقبولة في الأزل بنعت اصطفايتهم بالولاية، وبين المطرودين في القدم باحتجابهم عن الوصلة والمشاهدة بقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾^(١)؛ مثل المحق والمدعي كمثل السميع والبصير والأعلى السميع بسمع الحق من الحق كلمات الحق التي يفرق بها بين لمات الملكوتية، والهواجس النفسانية، ويبصر ببصر الحق جمال الحق الذي ينور بصائر العارفين، وأبصار المحبين بحيث يرون بها ضائر القلوب، وحقائق الغيوب فهذه

(١) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثاليين، قاله ابن جزى. وقال البيضاوى: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامعه عن استماع كلام الله، وتأنيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالصد، فيكون كل منهما مشبهاً بآئين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (٤٠ / ٣).

الأوصاف وصف المتحققين.

وقال القائل في هذا المعنى:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَى وَأَنْتَ الصَّدَقَةُ فِي الْجُودِ
النَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِمْ وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضُّوءِ

والجاهل الغاوي لا يسمع هوائف الإلهام؛ بأن ليس له سمع الخاص، ولا يبصر أنوار المعرفة بعوارضات البشرية، ما أبين مثل الحق! حيث بين صريحاً نعوت العارفين، وجهل الجاهلين، ثم استفهم عن أهل العقول استواء أهل الهمم أي: لا يستويان، وكيف يستوي حال العارف بالله والجاهل بالله.

قال بعضهم: البصير من عابن ما يراد به، وما يجري له، وعليه في جميع أوقاته، والسميع من يسمع ما يخاطب به من تفريع وتأديب وحث وندب لا يغفل عن الخطاب في حال من الأحوال.

وقيل: الأعمى الذي عمي رؤية الاعتبار، والأصم الذي منع لطائف الخطاب، والبصير الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئاً، ولا يتعجب من شيء.

وقيل: السميع من يسمع من الحق، فميز بذلك الإلهام من الوسواس.

وقال الجنيد: الأعمى هو الذي عمي عن درك الحقائق.

وقال الأستاذ: الأعمى من عمي أبصار رشده، والأصم الذي طرش سمع قلبه، فلا بالاستدلالات يشهد سر تقدير في أفعاله، ولا بنور فراسته يتوهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه.

وقال: البصير هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، فالغائبات له حضور، والمستورات له كشف، والذي يسمع بصفته لا يسمع هواجس النفس، ولا وساوس الشيطان، فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم خواطر التعريف قدرًا، ثم مكاشف الخطاب من الحق سرًا، فهو لا يستويان، ولا في الطريق يلتقيان، وانظر ما قال الأستاذ.

وأنشد:

أَيُّهَا الْمُنَكِّحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلاً عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

﴿فَقَالَ أَلَمَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُوا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكُوا أَتَبَعَكَ
إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْدَانُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ

﴿قَالَ يَنْفَقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَقَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَثَرًا مُّكْمُومًا وَانْتَشَرْتُهَا خَبْرُهُنَّ﴾ ﴿٢٥﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿مَا تَرَلَّكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَلَّكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾: هذه عادة السفلة وأهل الجهل والغباوة الذين قاسوا بآرائهم الفاسدة حال الأنبياء والصديقين، ولو شاهدوا ذرة من حالهم لما توا حسرة من شوقها، لكن سبق لهم الشقاء الأزلي محجبهم عن جمال أحوالهم وأنوار أسرارهم، وبقوا بظنونهم المختلفة، وقياساتهم الفاسدة في الأشكال والهيكل، واحتجبوا عن رؤية الأرواح وطيرانها في الملكوت والجبروت، وتكبروا على أولياء الله من قلة معرفتهم بنفوسهم، ومن قلة إدراكهم حقائق القوم.

قال ابن الفرحي: لم يشهد مخالف الأنبياء والرسل منهم إلا الهياكل البشرية، وعموا عن درك حقائقهم في ميادين الربوبية، واختصامهم بها خصوا به من فناء حظوظهم فيهم، وبقاء أشباحهم وهياكلهم رحمة للخلق، فقالوا: ﴿مَا تَرَلَّكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أكلاً وطعمًا وشربًا، ولو لاحظوا مقامهم من الحق وقربهم منه لآخر سهم مشاهدتهم عن مثل هذا الجواب؛ لأنهم في مشاهد القدس.

﴿وَيَنْفَقُورُ لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَيَنْفَقُورُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالُوا يَسْنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ ﴿٣٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبِّهِمْ﴾: بين سبحانه من قول نبيه نوح عليه السلام أنه قال: ما أنا بطارد قوم اختارهم الله بالنظر إلى جماله والجلوس على صفائح قدسه ومجالس أنسه وسإع كلامه، والمعرفة بصفاته وذاته وقربه وقرب قربه في الأزل وسابق العلم.

تصديق ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: ليس على قبولهم ولما رادهم من اختارني

بالرسالة، فقد اختارهم بالولاية، يختص برحمة من يشاء لا ينظروا إلى انكسارهم في الطريقة، وإعراضهم عن دنيا الدنية ورثاة ثيابهم، وصفرة ألوانهم وقصر أكمالهم، فإنهم حاتم أبراج الملكوت ويزاة معارج الجبروت.

قال أبو عثمان في هذه الآية: ما أنا بمعرض عمن أقبل على الله، فإن من أقبل على الله بالحقيقة أقبل الله عليه، ومن أعرض عمن أقبل على الله فقد رده أعرض عن الله.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرْتَهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ ﴿٢﴾ مِمَّا تَحْمِلُونَهُ ﴿٣﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٦﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي: كيف تنفع نصيحتي لكم ولم يخلقكم الله على استعداد قبول، وذلك من شقاء الأزل، والنصيحة لا تنفع إلا لمن كان في قلبه زاجر من ربه يمنعه من المعصية ويحثه على استماع النصيحة.

قال حمدون القصار: لا تنفع النصيحة لمن لم ينصح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليصير بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش خاتم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجود في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «إِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ» (١).

وأيضًا: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷻ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١).

وأيضًا أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني.

قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق.

وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

قوله تعالى: «وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»: إن الله سبحانه أذَّب نبيه نوحًا ﷺ هاهنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم.

وقيل: ذلك ولم يقبل هاهنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحد بعد ذلك.

ألا ترى إلى قول ذي النون ﷻ حيث دعا على أهل سعائته كيف كانوا يفرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷻ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين.

قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ * وَقَالَ أَرَبِئُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِبُهَا وَنُمَسِّكُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبٌ مِّمَّنَّا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»: هذه الآية وافقت قوله تعالى: «وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»؛ لأن سوابق السعادة والشقاوة لا تتغير بصنائع الحدثان، ولا يزال هما على وصفها إلى الأبد، كما كانا في الأزل.

قال بعضهم: بالسبق قيد العواقب، فمن أجري له في السبق السعادة كانت عاقبته

السعادة، ومن أجري له في السبق الشقاوة كتب له بالشقاوة: ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ
مَجْرِنَهَا وَمُرْسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠١)، وألسنة الأنبياء والأولياء قاصرة عن سؤال
مخالفة ما جرى في الأزل؛ لأنه حكم القاهرة سلطان الجبارية.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِنَهَا وَمُرْسِنَهَا﴾: البحر بحر القدم والأبد، والسفينة قلب
العارف يجري بشمائل العناية بروح الناطقة الربانية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِنَهَا﴾ في قلزم الصفات،
﴿وَمُرْسِنَهَا﴾ في قاموس الذات.

ثم أخبر سبحانه عن كمال كرمه؛ حيث لم يسد عليها الجري في الصفات مع حدوديتها،
ولم يفنها في الذات مع ضعفها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وأيضاً أي: بسط الله إياها بأنوار جلال مشاهدته جريها في الصفات، ويقبض الله
بسطوات العظمة سكونها وثبوتها.

﴿قَالَ سَآوَىٰ إِلَيَّ جَبَلٌ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
مَنْ رَحِمَهُ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (١٠٢) وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَتَبْلَىٰ مَاءَكَ
وَيَنْسَمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
لَطْلُمِينَ (١٠٣) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (١٠٤) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ أَهْلَكَ مِنْ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (١٠٥) ۞

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ﴾ أي: لا عاصم عند صولة
تلاطم بحر القهريات إلا عواصم أنوار اللطيفات من التجأ إليه منه نادبه عنه.

قال الأنطاكي: لا اعتصام لأحد من خلق الله إلا بالله.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ﴾: إلا من دلّه على الاعتصام به،
وذلك الذي يعصمه الله من أمره.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَتَبْلَىٰ مَاءَكَ وَيَنْسَمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ﴾: لما غاصت سفينة القلوب في بحار غيوب القدم ودارت في لجج عظمتها كادت أن
تغرق بطوفان غيرتها، فسبقت لها عناية الأزلية، وما أبقتها في بحار الغناء؛ لئلا يفني العبودية
في سطوات الربوبية، فنادت السنة الوصال إلى سماء كمال الذات وأرض الصفات: ﴿يَتَّارِضْ
أَتَبْلَىٰ مَاءَكَ وَيَنْسَمَاءُ أَقْلَىٰ﴾، فامتعت الذات والصفات عن دركها، وتلطفت الصفات

والذات عليها بإرجاعها إلى مشاهد الأفعال والآيات، واندرس عليها مسالك الأزال والآباد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعِضْ أَلْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَآشَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ﴾: جرى عليها أحكام معارف الذات والصفات، وغرق منها ما دون الذات والصفات في الذات، والصفات من النفوس، وهواجسها والشياطين ووساوسها، والعقول ومراتب مقاماتها، والكونين والعالمين، واستوائها بنعت التمكين على جودي الطريق، والحقيقة أن تكون ساكنة بعد الاضطراب في المواجيد، وصاحبة بعد السكر بأشربة بحار المقادير، وهذه برمتها مشروحة في قوله النبي ﷺ حيث دنا من الوصال وتدل إلى مشاهدة الجمال، وكان بين قاب قوسي الأزل والأبد بقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، واستعداد في دنو الدنو من الغرق في بحر الأزل والفناء في ميادين الأبد من قهر طوفان قلزم الكبرياء والعظمة، بما سبق له من حسن عناية القدم بنعت الرضا بقوله: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذُ بك منك»^(١)، كان ﷺ في مدارك الصفات، ومراتي أنوار الذات سابقاً في بحر حقائق الأزلية، فخاف من فئاته في قهر النكرات، ففرّ تارة من الصفة إلى الصفة، وتارة من الفعل إلى الفعل، ومن الذات إلى الذات تارة، فقال: أعوذ برضوان عنايتك، ومن سخط غيرتك عليك، أن يعرفك أحد غيرك، وأيضاً أي: أعوذ برضوان جمالك من سطوات جلالك حتى لا أفنى بك فيك، وأعوذ برضا بقائك من صولة عساكر قدمك.

فلما دار في الصفة وخاف من الزوال فرّ منها إلى أنوال الأفعال؛ ليروح فؤاده الغائب في الألوهية عن أثقال رجاء العزة، فقال: «أعوذ بمعافاتك من عقوبتك»^(٢): بمعافاة دعائك الأزلي من عقوبة هجرانك الأبدي، فلما استروح من أثقال السير في الصفات بلطائف الأفعال رجع إلى مشاهدة الذات، فقال: «أعوذ بك منك»^(٣): أعوذ بفردانيتك من حلاوة جمال مشاهدتك، التي تصير العاشق بك بنعت وحدانيتك، حتى يخرج بدعوى الأنانية في مشهد تنزيلها، أعوذ بك من هذا المكر حتى أكون لا أكون أنت تكون، وأزول كما لم أزل أزول، وتكون كما لم تزل تكون، فلما فني عن رسوم العبودية وعن مشاهد الربوبية من الأفعال والصفات وبقي بإزاء أنوار الألوهية بنعت استقامة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، واستعار من الحق لسان الأزلي، وأثنى به عليه، فقال: «لا أحصي ثناءً عليك»^(٤)، ثم أخرج

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الثناء والنفس والعبودية والتكليف والكيونة والقرب والبعد والتصارييف والعلل من ساحة وجود صاحب الجود الأزلي بقوله: «أنت كما أثبتت على نفسك»^(١).

جئنا إلى ظاهر الآية: إن نبي الله نوحًا ﷺ كان في مضيق القبض من أذى قومه، فاشتبهى وصلة بلا فرقة، وبسط بلا قبض، وأنسا بلا وحشة، فدعا ربه حتى يخلصه من ذلك، فأغرق قومه وناجى ربه، وانفرد به عن كل، فتغاضت بشريته ابنه، فجاء الموج وأغرق الكل حتى لا يبقى في قلبه غير الله.

وقال الأستاذ: لما غرق ابن نوح ﷺ سكن الموج ونضب الماء وأقلعت السماء، فكأنه كان المقصود من الطوفان أن يغرق ابن نوح.

فكان كما قيل:

عَجِبْتُ لِسَمِي الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

ثم أخبر سبحانه عن انبساط نبيه نوح ﷺ بقوله: «وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ لَحَقُّ»؛ تحرك سر بشريته في موضع أحسن الحق حيث من حقه تقديس الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وبذل الموجود والمجهول بينه وبين الخليل ﷺ في منزل الامتحان فرق حين ألقي إلى النار، ولم يلتفت إلى إعانة المخلوق، حين قال: «أما إليك فلا»^(٢) وسلم نفسه، ولم يتعرض لقلبه معارضة برئ من حوله، وقوله من نفسه والكون جميعًا، وههنا قد التفت إلى غرق ابنه، وأين ذكر الابن في منازل التوحيد والتسليم، والرضا شرط المعرفة والتوحيد فنادى، وقد طاب في مناداته مع ربه سبحانه وسأل ابنه، وحكم بأنه أهله وليس هو من أهله قال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ».

وأيضًا: تعرض داء علقه البشرية بينه وبين رؤية القدر السابق، ولولا ذلك بإرسال الله بالمناداة في منازل الانبساط، وأسرار المناجات لطائف الخطاب، وحقائق المكاشفات، وكل انبساط في مقام الامتحان ليس على مقارنة رؤية حكم السابق، فهو ساقط عن محل البلوغ وإدراك المراد.

قال الحسين: لم يوزن لأحد في الانبساط على بساط الحق محال؛ لأن بساط الحق عزيز حواشيه قهر وجبروت، فمن انبسط عليه رد كنوح ﷺ لما قال: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» قيل: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ».

ثم إن الله سبحانه عرف نبيه نوحًا ﷺ بعد ارتفاع الأهلية بينه وبين ابنه بارتفاع أهلية

المعرفة والمحبة بين روحه وروحه في منازل الأول عند عبد الله، وذلك أن في الأزلية لم يؤت الله ابنه أهلية عرفانه وإتقانه، فقال: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: ليس له ما أعطاك الله من المعرفة والرسالة والقربة: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: أدبه بالأسأل إلا ما وافق القدر، وكل دعاء لم يوافق مراد الله في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظ وقال: ﴿إِنِّي أَعْظِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: الجاهل من جهل قدر الله وقدر أهله أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال على غير قاعدة مرادي، وفيه تهديد لخواص العارفين ليكونوا على بساط الحق، مجردين لخواطهم عن الالتفات إلى غير الله، وأن يكونوا في محل احتشام الله مستسلمين لمراده.

قال القاسم: الأهل على الوجهين: أهل قرابة، وأهل ملة، فنفى الله عنه أهلية الملة لا أهلية القرابة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: أما علمت أي قد أمضيت حال الشقاء والسعادة في الأزل، ولا راد لحكمي وقضائي، إني أعظك أن تجهل تلك الأحكام.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّي أَعْظِيكَ﴾: لما اشرف نوح عليه السلام ابنه على الغرق قال: ﴿إِنْ أَبْنَى مِنْ أَهْلِي﴾، قال خصصت غلبك للدعاء دون سائر عبادي وابنك واحد منهم، ﴿إِنِّي أَعْظِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: في أن يقضي حقك على خصوص، ويمهل حقوق عباده بأجمعهم، ثم رجع عليه السلام إلى ساحة الكبرياء بصره المتضرع الحق، ورجوعه من نفسه إليه بوصف الخنوع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٢١) قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٢٢) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (١٢٤) يٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٢٥) ﴿

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي كُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾: إن السؤال لا يستحسن إلا بالعلم بالمسئول، ولما علم موضع الخطأ تواضع بجبروته وخاضع ملكوته، أي: إن لم تغفر لي ترك الأدب وترحمني بتسهيل أمر نربوبية في العبودية عليّ أكن من الذين فقدوا حقائق المعرفة في العبودية.

قال أبو سعيد الخزاز: إن نوحاً عليه السلام وهو من أهل الصفوة وأولي العزم من الرسل هج وكدح لربه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فعوتب عليه، فأبكاه ذلك سنة حتى قال: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾، فكان دهره بطلب المغفرة من هذه الكلمة، ونسي ما كدح وعني واجتهد لما رجع إلى الله، وتواضع للكبرياء، ألبس الله عليه لباس العافية والأمن من أنوار قربه وحضرته بقوله: ﴿يَنْبُوحُ أَهْبَظُ يَسْلُمُ مِنَّا وَبَرَكْتَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ أي: اهبط بوصف التخلق والاتصاف بصفتنا من سفينة الحقيقة بسلامة منا، بأنك بعد ذلك لا تنفي في سطوات عظمتنا إذا اتصفت بصفتنا؛ لأن بركة وصلتنا معك تنجيك بركة مني، وبركتك مع قومك تنجيهم من عذاب فرقي، ثم هو تعالى شرف نبينا ﷺ بكشف أنباء الغيب بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ الكشف والأنباء على مرتبتين، الأولى: للأرواح قبل الأشباح في ديوان الغيب حتى رأت بنور الغيب أسرار المكتوم، والأخرى: بعد كونها في لأشباح، فترى ويسمع، وسمعت في الغيب قبل دخولها في الأشباح تحديد المكاشفة، وتذكير نغمود المشاهدة، وما قال سبحانه: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾ أي: قبل كون روحك، وأما بعد كَوْن روحك علمت ما كان وما سيكون، وهاهنا تسلية قلبه ﷺ في احتمال البلوى عن أهل لجفاء ابتداءً بأهل الوفاء من أولي العزم من الرسل.

وتصديقه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: اركب مركب الصبر معي في ظهور حقائق وجودي ولطائف بلائي في ميادين التقوى من غيري، من العرش إلى نثري، بالهمة الرفيعة فوق العلا، فإن عاقبة المتقين المتبرئين من غيري بي وصالي والنظر إلى جلالي وجهالي.

قال الجنيد: كشف الله لكل نبيٍّ ظرفاً من الغيب، وكشف لنبينا ﷺ أنباء الغيب، وهو لغاية في الكشف، فكان مكشوفاً له من الغيب ما لا يجوز أن يكون مكشوفاً لأحد من مخلوقين، وذلك لعظم أمانته وجلال قدره؛ إذ الأسرار لا تُكشف إلا للأمناء، فمن كان عظم أمانة كان أعظم كشفاً.

قال النصرآبادي: نجاة العاقبة لمن رسم في الأزل رسم التقوى، وحلي به، قال الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا حُجْرِيكُمْ ﴾ (١) قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِنَارِكِ الْهَيْثَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِ الْهَيْثَا بُسْرَةٌ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ بِمَا قُتِلْتُكُمْ ﴿٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٤﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ الْغَاثُ وَالْغَابُونَ ﴿٧﴾ فَأَمَّا الْيَهُودُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿١٠﴾ • وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِمْ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا لِفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ قَالَ يَنْقُورِمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَنْقُورِمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ الْغَاثُ وَالْغَابُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الْيَهُودُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٧﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَبْشِيمٍ ﴿١٨﴾ كَأَن لَّمْ يَغْتُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ ﴿١٩﴾ •

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (١) أي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إلى من

(١) يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر، وأعلم أرحام نسايتهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتنازل. قاله البياضوي.

نفوسكم ورؤية طاعتكم، راعوا عنها يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها، ولبساتين قدسي ورياض أنسي، وتلك القوة من سقيي إياها شراب الديمومية من بحار السرمدية والأزلية، ومشاهدة الذات والصفات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: غصت في بحار جلالي الأزل، وهو شاهدي وأنا بريء مما تشيرون إليه من دونه، بريء من حولي وقوتي، وانظر إليكم ما بكم تقدرون في ملكه بذرة، فاحتالوا لي جميعاً إن كنتم تقدرون بالحيلة، ولا ينظرون لا بحيلوتي، فإني على ثقة من ربي في ثبوتي ورسالتي، وبيان براهينه، وعلى سلطان كبريائه دَلَّ كل شيء، وهو حسبي وحسب كل صادق في بلائه، وذلك قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾، مشاهدته بشهوده على ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾: ربي يريني بأنوار مشاهدته ولطائف وصلته، وريكم بإيجادكم وتربيتكم بأغذية الظاهر.

ثم وصف جلال قدره وإحاطته على كل ذرة بقوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: آخذ ناصية كل مخلوق بأيدي القدم، وأخرجها بجبروته من أماكن العدم، ويجذب كل دابة من العرش إلى الثرى إلى ميادين ملكوته، ويغذي كل واحدة منها من موائد تجلي صفاته وذاته وآياته وأفعاله للأرواح غذاء مشاهدة الذات، وللقلوب غذاء مشاهدة الصفات، وللعقول غذاء مشاهدة أنوار الأفعال، وللنفوس غذاء الطباع من عناصر الكون: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: على طريق الربوبية التي مناديا صحاري الأزال والآباد، وهكذا على طريقة كل رباني صمداني يسروني في طريق الذي هو السير في عالم الذات والصفات، وذلك الطريق مستقيم؛ حيث هو تعالى بجلاله يظهر نفسه في جميع الأحوال لقلوب أوليائه، وأولياءه يسرون إليه بطريقة، وجذب ظهوره.

إذا نحن أدبلنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا تلقاك هادياً
﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: إذ هو مقدس عن اعوجاج الحدثاني وتغاير النفساني، لا تسده علة، ولا تعوجه زلة.

قال الواسطي في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾: غلب على هود عليه السلام في ذلك الوقت حال الوصلة والقربة مما يأتي بشيء ولا أحسن به؛ إذ هو في محل الحضور، ومجلس القربة.

وقال في قصة لوط عليه السلام: قال لو أن لي بكم قوة كان نطقه نطقاً طبعياً، شاهد في ذلك حال ووقته واشتغاله بهم، وقال هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي كَيْدًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونِ﴾: نطق عن مشاهدة لا يرى سواه.

وقال بعضهم: أي: كيد يلحق من هو في قبضة الحق وسراق العز، وجلابيب الهيبة، والكيد لا يلحق إلا من هو سائر في طرق المخالفة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ﴾: كيف يكون لك محل، وأنت بغيرك قيامك وبقاءك؛ لذلك قيل: من قال أنا فقد نازع القبضة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا رَأَى أَن يَدْخُلَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا﴾: بشارة الرسل للخليل عليه السلام من الله سبحانه بدوام وصله، وكشف جماله بلا حجاب ولا عتاب، وإن خلته تولدت من سابق خلته الأزلية والاصطفائية الأبدية، وبأن النبوة باقية في أولاده، وبشروا أنه تعالى مشتاق إلى أحبائه وأحلاله، وبشروا له بقدوم أخص أولاده، وأخص خلق الله من العرش إلى الثرى محمد عليه السلام، وبشارتهم بأولاده من المرسلين نظام الرسالة، ودوام الشريعة، ونشر الحقيقة والسلام، منهم أخيار عن أهليتهم لخليله ورفع التكرة، وتعريف العهد الأولية بنعت زوال الخطرات والمعارضة، وسلامهم ممزوج بسلام الحبيب، وبدية دنوه من خليله، وسلام الخليل إظهار السرور بالضيف وإكرامهم، وإظهاره الأهلية منه، عرف سره سرهم، موافق سلامه سلامهم، أي: هاهنا بيت كرامة وسلامة من العيوب، وما أطيب سلام الحبيب على الحبيب! وما ألد رسالة الحبيب إلى الحبيب! وما أشهى بشارة الحبيب للحبيب! وإن كان بالوسائط:

سلام على سلمى وإن شطط دارها	سلام على أرض قديم بها العهد
سلام على جاراتها بجوارها	سلام حزين راسق شقة الصد
سلام عليها دائماً متواتر	سلام على أرض إليها قصد
إذا نزلت سلمى بواد فهاها	زال وسلسال وشيحانها ورد

قال بعضهم: بشروا لإبراهيم بأن نسبة الخلقة ثابتة فإنها لا تنقطع.

وقال بعضهم: بشروا بإخراج محمد عليه السلام من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء، وصاحب لواء

الحمد.

وقال بعضهم: رسول الخليل إذا ورد فهو بشارَةٌ، فإذا أَدَّى الرسالة قد تمت به البشرية خصوصًا إذا أدى من الخليل سلامًا، ألا تراه كيف ذكر: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ من الخليل، فقال: سلام من الخليل، تم به المراد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿سَلَامًا﴾: قال: سلام سلم لك رتبة الخلقة من الزلل، قال: سلام أي: هذه السلامة التي توجب لي السلام من السلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾: أخبر عن فتوته وإكرام ضيفه، ولكن فيه ما فيه من إشارة إلى قلبه المذبوب، وروحه المجروح، ونفسه المذولة بين يدي سلطان جبروته، وأنوار ملكوته، وسناء جماله، وسر جلاله، وتلك مجموعة نيران المحبة، ولهب الشوق، وحرقة العشق، ليسلها بياسمين القرب، وورد الأنس، ونسيم صباء الوصلة.

وأيضًا: تعريف أحوال الملائكة هل جاءوا بالبأس أم ذلك من لطيف صنيع الأبناء، وفيه إظهار المعارضة والخفية؛ ليعرف شأن الحال، وإن كان خلقه السخاء والكرم.

قال بعضهم: من آداب الفتوة إذا ورد الضيف أن تبدأ بالكرامة في الإنزال، ثم ثنيه بالطعام، ثم بالكلام.

ألا ترى الخليل كيف بدأ بالطعام بعد السلام، قال: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾، وهو تعجيل ما حضر أو بتكلف التكلم بعد ذلك لمن أحب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أنكر على تركهم استعمال الخلق، ولكن ما عرف شأن الحال الذي فيه إشارة عجيبة، أي: لا تذبح عندنا عجلًا فإنا لا نحتاج إلى العجل، وليس للعجل مكان المحبة، ولكن اذبح لنا إسماعيل، فإن المحبة والعشق مفتضيان قربان الوجود بين يدي المشوق.

حكى عن أبي الحسن البوشنجي أنه قال: من دخل هذه الدويرة، ولم ييسط معنا في كسيرة أو فيها حضر، فقد جفاني غاية الجفاء.

وقال ابن جعفر: مَنْ امتنع عن تناول طعام الفقراء والفتيان فقد أظهر كبره.

وقيل في قوله: ﴿نَكِرَهُمْ﴾: نكر أخلافهم، مع ما تفرّس فيهم من الخير.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: خيفة إبراهيم من الملائكة ليس من جهل بهم، إنما رأى آثار بأس قوم لوط من شأنهم، وهناك متوقع الإنذار؛ لأن ربها جاء الرسول بالإنذار:

لَعَلَّكَ غَضْبَانٌ وَلَسْتَ بِعَالِمٍ سَلَامٌ عَلَى الدَّارِينَ إِنْ كُنْتَ رَاضِيًا
وأيضًا خاف على أخيه لوط عليه السلام ومؤمني قومه: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ
لُوطٍ ﴿١٠٠﴾ رَفَعُوا الْحِجَابَ وَتَبَيَّنُوا الْعِتَابَ.

قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: رحمة الله وقرية الله وبركات
الله أنوار مشاهدة الله.

وأيضًا: رحمة الله نبوة الله وولايته، وبركات الله رسالة الله وخلافته، وبقي ذلك في
أولاده حتى خصَّ باستجابة دعوته محمد عليه السلام وعلى آله وأهل بيته وأولاده.
وأيضًا: رحمة الله محبة الله، وبركاته معرفته وتوحيده.

﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿١٠١﴾
قَالَتْ يَنْوِلْنِي أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا
أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا
ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿١٠٤﴾ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ
مُنِيبٌ ﴿١٠٥﴾.

قال بعضهم: بركات أهل البيت من دعوات الخليل، ودعوات الملائكة، وأمر النبي عليه السلام
بالدعاء به في الصلوات في قوله: كما باركت على إبراهيم، فبارك علينا، فأنما من أهل بيته
وأولاده: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾: محمود بحمده القديم؛ حيث حدَّ نفسه مجيد عظيم الشأن لا
يناله عوض الفطن، ولا يدرکه بعد الهمم، فلما وصلت بركات الله إليه وانفتحت له أبواب
المكاشفة وأدرکه فیض البشارة خرج قلبه من غبار الامتحان، وانبسط مع الرحمن بقوله:
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْتَدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: ذهب عنه خوف
البعد، وجاءته بشرى القرب، وذاق طعم الودِّ وسكر الخليل بوجه الخليل، وانبسط الخليل إلى
الخليل، وهكذا عادة السكارى إذا شربوا شراب الوصلة وسمعوا صلوات القرية يخرجون
بنعت السكارى على بساط الانبساط، وفي ذلك يحمل عنهم ما لا يحمل من غيرهم من أهل
الهيبة والإجلال، وانبساطه إليه من مواليد انبساطه إليهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿جَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ﴾، ثم قال: ﴿مُجْتَدِلًا﴾؛ فالبشارة انبساط الله،
فانبسط بانبساط الله، لكن انبساط الخليل لا يكون إلا رحمة وشفقة على خلقه وأوليائه، ألا
ترى كيف قال: ﴿مُجْتَدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: كان يسترحم لهم، ويسأل نجاة لوط وأهل بيته، لما
فيه من الظرافة والسخاوة والفتوة والمودة والحلم بما وصفه الله بقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ

مُسِيبٌ ﴿١﴾: «حليمٌ» بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قالوا: ﴿فَعَمَّنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وتأوّه زفرة قلبه مع غيرة عينه من الشوق إلى جمال ربه، وهكذا وصف العاشقين: التأوّه والزفرات، والشهقة، والغلبات، والصيحة والعبرات، «مُسِيبٌ» حيث أناب إلى كنف قدمه، وقوام خطاب قدسه ومجالس أنسه من رؤية شواهد منكوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، ومجادلته كمال الانبساط له تكن جهلاً، ولكن كان مشفقاً باراً كريماً، رأى مكانة نفسه في عمل الخلّة واصطفائية القديمة وهو تعالى يحب غضب العارفين، وتغير المحبّين، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين؛ حتى يحثهم على ذلك، وفي الحديث المروي من النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي رأيت رجلاً في حضرة يتذمر. فقلت لجبريل عليه السلام: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يتذمر على ربه تعالى. فقلت: وهل له ذلك؟ فقال: يعرفه فيحتمل عنه»^(١)، ألا ترى كيف وصف الله انبساط كليمه بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم.

قال بعضهم: ذهب روع ما يجده في نفسه من تنزهم عن طعامه، وعلم أنهم الملائكة، وجاءته البشرى السلام من الله لما فزع من قضاء حق الضيف، ولقي البشرى رجع إلى حد شفقة على الخلق، والمجادلة عنهم، ﴿تَجِدُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾ للرحمة التي جبله الله عليه، ثم نأى الله سبحانه ذكر وصف خليله بأنه لم يعرف الملائكة في أول مقدمهم؛ ثم وصف نبيه لوطاً عليه السلام بما وصف خليله من ضيق صدره، والخيفة منهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقِيهِمْ دَرَجًا﴾: حزن لأجلهم، وضاق صدره شفقة عليهم من فتنه قومه، ثم وصف به مشفق حزين كريم على الأضياف بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا فِي صَيْقِلِي﴾، وحكمة إنشاد باب نغامة على إبراهيم ولوط أنها كانا في عمل البسط وحسن الرجاء من الله سبحانه، ولا يتوقفان البأس والعذاب على القوم، فلما رأيا ملائكة الله لم يعرفاهم بأشغالهم بمعهود حال نبسط، ولطائف الرجاء والقرية، وإن كان سرهما لا يغيبان عن معرفتهم، ولكن عارضهما تقدير لإمضاء حكم الله على قوم.

قيل: إن إبراهيم كان صاحب النبوة والخلّة والرسالة، ولا بد أن تكون فراسته أصدق من فراصة كل أحد، ولكنه في هذا الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق سبحانه إذا أراد قضاء حكم سدّ على من أراد عيون الفراسة كما سدّ فراصة النبي ﷺ في قصة الإفك إلى الوقت نذري أنزل به الوحي، والتبس الحال على لوط عليه السلام إلى أن ينزله الأمر، ولما أخذ تلاطم بحر

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣١)، وذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٦٢).

الامتحان لوطاً ﷺ طلب قوةً وركناً شديداً ليدفع بها قوم من ارتكاب المعصية.

قال سبحانه: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: رأى نفسه في منازل الابتلاء والامتحان، ورأى أبواب المكاشفات والواردات والمشاهدات مسدودة، ولم ير نفسه إلا في محل الخوف، ورؤية المكر وخشية العظمة، قال: لو أن لي في هذه الساعة اتصافاً بصفة القدرة والقدر الأزلية كما كان حالي قبل هذا الامتحان لرفعتكم عن الكفر والمعصية.

﴿أَوْ آوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لو كشف لي حاشية من حواشي قوام العدم آوي إلى هناك، وأستريح من رؤيتكم أو آتي من عالم الملكوت بياسكم أو أدعو لكم، أو كان لي لسان الرباني الرحاني ليهتدوا إلى مواقع بالرشد، وتعرفوا حقوق الله عليكم.

قال ابن عطاء: لو أن المعرفة بيدي لأوصلتها إليكم.

﴿يَتْلُوهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَمْرٌ مَّرْدُودٌ﴾^(١٦)
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَصَاقِيهِمْ دَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمُ عَصِيبٍ^(١٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَٰؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفَىٰ آلِيسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ^(١٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ^(١٩) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ^(٢٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِن مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ^(٢١)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِن مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قال بعضهم: لو أن لي جرأة على الدعاء عليكم لدعوت، أو آوي إلى ركن شديد من علم الغيب بها أنتم صائرون إليه من سعادة أو شقاوة، فلما تم الأمر وعرف الحال، كشف الملائكة له حال القوم، ووعدوا هلاك القوم وقت الصبح بقوله: ﴿إِن مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، كأنه تسارع إلى مكان التخلص من بين الضلال، وأراد أن يرجع إلى قرب الله ومشاهدته وتسريح من رؤية الأضداد؛ لأن رؤية الأضداد هي الروح، كأنه قال: لو أن بكم قوة أزلية أهلكتكم، وآوي إلى ركن شديد إلى حضرة الملكوت مجالس الجبروت،

وأستريح من صحبتكم، ورؤية معصيتكم، فانتظر بعد ذلك ما وعدوه، قيل له: ﴿أَلَيْسَ لَكُنْصُحٌ بِقَرِيبٍ﴾^(١).

ما أشد على العارفين انتظار واردات الغيب، وطلوع صبح المشاهدة، وانفلاق شرق نعباية، وإشراق شمس المكاشفة! دنا وصال الحبيب، واقتربا وأطربا للوصال وأطربا. حُكي عن السري أنه قال: قلوب الأبرار لا تحتمل الانتظار.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ ۖ مَّسْـُـومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾: إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته ويسمين نور صحبتته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بيئات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وألقتهم إلى منازل لامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة تكبرياء منزّهة عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يغيب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عبيهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وساعاتها تواتر العصيان، والخروج على أطيّار بساتين نرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما هذا الحجاب والبعد من التاركين السنة والمتابعة ببعيد.

قال بعضهم: لما أدركهم الحكم السابق الجاري في الأزل عليهم قلبنا عليهم أرضهم كما حكمنا عليهم بتقليب قلوبهم، وصرفهم عن طريق الحق وسبل الرشاد. وقال محمد بن الفضل: ما أصاب قوم لوط ما أصابهم إلا بالتهاون بالأمر، وقلة نيّالة، وارتكاب المحارم بالتأويلات.

قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما له بعذاب ممن حملوا ما علموا من تخطي الشرع، والتهاون بالأمر، وارتكاب المناهي بالتأويلات ببعيد^(٢).

(١) إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ حلول العذاب حينئذ أقطع ولأنه أنسب يكون ذلك عبرة للناظرين.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ دلالة على أن القضاء المبرم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ

﴿وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُوا عَلَيْكُمْ غَيْرُوا وَلَا تَبْخُسُوا آلَكُمْ إِنَّهُم مُّثْقَلُونَ بِالْغِنَىٰ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ عَصَاكُمْ يَوْمَ الْفُتُوحِ ۚ﴾^(١)
 وَيَنْفِقُوا أَوْ فُتُّوا أَلْعَمِيَّاتِ وَالْعَمِيَّاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَغْتَفِرُوا
 فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ
 ﴿٢١﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا
 نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ أَخَاكَ﴾: أراد خير الدنيا الذي هو محل الاستدراج والامتحان، وإن رأى خير الآخرة ما خاف عليهم وأهل المعرفة، إذ رأوا أنفسهم في أعالي الدرجات والمقامات والاستقامة، زاد لهم خوفاً؛ لأنهم عرفوا الله بغيره القدم، ولا يستقيم بإزاء غيرته الخلدان، ألا ترى إلى قوله ﷺ: ﴿أنا أعرّفكم بالله وأخوفكم منه﴾^(٢).
 قال بعضهم: أقرب حال إلى الاستدراج أيام الأمن والدعة، وتواتر النعم عليك، وترادف الخيرات عندك.

ألا ترى الله حاكياً عن بعض أنبيائه لأمته: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ أَخَاكَ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال بعضهم في: ﴿أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: بنعمة من الله، ﴿وإِنِّي أَخَاكَ عَلَيْكُمْ﴾: تقصيركم في شكر النعمة.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: بقية الله وقربه ووصاله وما أذخر لأوليائه من الكرامات السنية والدرجات الرفيعة.
 قال بعضهم: ما أذخر الله لكم من كراماته خير مما تسألونه فيه.

اسْتَغْفِرُوا ﴿البقرة: ٢١٧﴾؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوها في ذلك، مَنْ كُلِّ صَعْبٍ وَذُلٍّ، لِمَا إِنْ أَتَى فِي حَقِّهِ السَّعَادَةُ فَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَأَمَّا الْقَضَاءُ الْمَعْلُوقُ فِيخِلَافِ ذَلِكَ، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ كَلَامَ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ؛ إِنَّمَا أَصْلِيَّةٌ أَوْ عَارِضَةٌ، فَلَا أَصْلِيَّةٌ لَا يُعَارِضُهَا عَارِضٌ، وَإِنْ عَارِضُهَا، فَلَمَّا لَمْ يَلَمْزْ إِلَى السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ؛ لِأَنَّ الْأَبَدَ مَرَّةَ الْأَزَلِّ، فَلَا تَزَالُ صُورَةُ الْأَزَلِّ مَنعَكَةُ فِي مَرَّةِ الْأَبَدِ، فَلَمَّا لَمْ يَلَمْزْ الْأَصْلِي لَا يَضُرُّهُ الْكَفَرُ الْعَارِضِي فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَكَذَا فِي بَطْنِ الْأَمِّ؛ فَإِنْ بَطْنُ الْأَمِّ نَازِلَةٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ، فَهِيَ لَوْحَانِ مَتَوَافِقَانِ، وَكَوْنُهُ مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: إِنَّهُ كَافِرٌ لَا يَضُرُّهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْحُ الْحَقِّ وَالْإِثْبَاتِ.

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 حَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ وَيَقَوْمِ لَا تَحْمِلُوا سَيِّئَاتِكُمْ شِقَاقِي أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 نُوْحًا أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
 ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ حَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾: ليس للصادقين مع
 الخلق معادة بسبب من أسباب الدنيا، إنما أبغضهم وخالفهم حين يتركون متابعة السنة وما
 يعطونهم، إلا بعد تركهم هوى نفوسهم، ولا ينصحهم إلا شفقة عليهم.
 قال أبو عثمان: ليس بواعظ من كان واعظاً بلسانه دون عمله.

وتصديق الآية قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما كان في عقلي
 ونيتي من قوة الله أريد بها إصلاحكم، ولكن الهداية والتوفيق ليست معي، ولا أطيق أن
 أتقذك مما جرى عليكم في الأزل: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: اصطفايتي بالنبوة والولاية
 باختيار الله في الأزل: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أسكن به لا غيره، واثق به فيما وعد لي، ﴿وَإِلَيْهِ
 أُنِيبُ﴾: أرجع إليه بنعت شوقي إلى لقاءه.

قيل في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: مرادي صلاحكم أن
 يساعدكم التوفيق، ولا أستطيع أنا ذلك لكم إلا بمؤنتي من الله لي عليه.
 قال النهرجوري: التوفيق حسن عنايته من الحق سبق إلى العبد ليس له فيه سبب، ولا
 منه له طلب.

قال الجنيد: التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة الفاقة، ولا يزول عن
 حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي:
 ستغفروا مما جرى على قلوبكم من أنكم قدرتم بشيء من الطاعة والعصيان، فإن الطاعة
 ونصييان لا يتعلقان إلا بالسعادة والشقاوة الأزليتين، والرضا والسخط.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: تبرءوا من حولكم وقوتكم، فإذا تيقنتم ذلك وخرجتم من
 رؤية وجودكم بلبسكم ربي لباس معرفته؛ لأنه رحيمٌ بعارفيه، ويلقي حلاوة؛ فإنه ودودٌ
 لأهل وده.

وقال محمد بن فضل: من لم يكن ميراث استغفاره بصحيح توبته كان كاذباً في

استغفاره، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَمَنْ لم يكن ميراث توبته بصحيح محبته كان مبتلاً في توبته؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

وقال أبو عثمان: الودود الذي تودّد إليك بالنعمة قديماً وجديداً من غير استحقاق ولا وجوب.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ١٠٠ قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْ تَمُوهُ وَرَأْيَكُمْ ظَهْرِي إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٠١ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ١٠٢ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيحِينَ ١٠٣ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ١٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ أي: مستوحشاً مما نحن فيه، مستأنساً بما أنت فيه، وأيضاً: ضعيفاً فيما تدعى من الرسالة والمعجزة، وما تدعى من القرية والمشاهدة، فإنك أضعف الضعفاء، كيف تقدر أن تخبر عما لم يعرفه، وما لا يليق بقول الخلائق.

قال الترمذي: مهجورٌ فيما بيننا، لا تعاشر، ولا تعاصر.

قال بعضهم: قليل العقل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٠٥ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمُرُ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ١٠٦ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ١٠٧ وَأَتَّبَعُوا فِي هَيْدِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ ١٠٨ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ١٠٩ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١١٠ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ١١١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مُجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

يَوْمَ مَشْهُودٍ ﴿١١﴾ وَمَا نُنْجِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدٍّ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفِقُونَ فِي النَّارِ لَهْمَ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ﴾: الآيات قدرته على إخبار عما وجد من أنوار جلاله، وحقائق حضرته، ونشر فضائل معارفه وكواشفه، وسلطان المبين ما ظهر من وجهه من سطوع نور الأزلية، وأثار المحبة التي قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حُبَّةً مِّمِّي﴾.

قال ابن عطاء: الآيات هي القوة عند مخاطبة الحق، وسماح كلامه، والسلطان هو لانبساط في سؤال الرؤية.

قال جعفر: الآيات هي التواضع عند أولياء الله، والسلطان التكبر على أعداء الله.

وقال بعضهم: الآيات محبة في قلوب خلقه، والسلطان هيبتهم له محبة في هيبة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَنَامَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: تهديد لأهل الغفلة في النعمة الذين شغلتهم النعمة عن رؤية المنعم.

قال أبو بكر الوراق: إذا سخط الله على قوم أكثر عليهم نعمة، وأنساهم شكره، ونزع عن قلوبهم التوفيق، وتراهم سدى حتى أغمروا في المعاصي، واستوجبوا أخذه، أخذهم على غرة.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَّجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: ذلك اليوم يجمع نعارفون لموقف رؤية الجلال، وشهودهم مشاهد الكبرياء والعظمة، ويجمع المحبون ما قمت مشاهدة الجمال، وشهودهم لقاء البقاء، ويجمع الموجودون لرؤية القدم وشهود الأزل، وهم صَبَّار لا يزالون عن طوارق القدرة وسطوة العظمة؛ لأنهم في الدنيا أهل جمع وأهل شهود.

قال أبو سعيد الخزاز: من عاشق في حقيقة عين الجمع لم يهوله ما جمعوا له من ذلك مقام، ومن كان في كشف المشاهدة لم يتعجب من شهود ذلك اليوم؛ لأنه كان مكشوقاً له عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَّجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم محدود، فالיום المفقود: أميسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزود منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعلّه ليس من أيامك،

وهو غذك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وجواب السؤال قوله تعالى: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، ويرجى من كرم الله ولطفه أَنَّ الكفار إذا حشروا يدخلهم النار بلا حساب، ثم يحشر المؤمنون إلى عند الميزان، وتبدل الأرض، ويقلع السماء من البين، ويحاسب المؤمنون حسابًا يسيرًا، وهو قادرٌ أن يحاسبهم بلحظة، فإذا أراد أن يدخلهم الجنة يخرج الكفار من النار، ويلقهم في بحر الحيوان، ويدخلهم مع المؤمنون في الجنان؛ لأنه تعالى وعد أنهم في النار ما دامت السماوات والأرض، فإذا زالت السماء والأرض كملت الحجة، وهذا شيء مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إلا من آمن بقلبه قبل معانية الآخرة بلهفة، ولم يطلع عليه أحدٌ غير الله، فإن دخله وورد على الصراط كالمؤمن يكون كذلك إن شاء الله؛ فإنه تعالى مستغني عن عذاب الكافرين، كما يستغني عن إيمان المؤمنين وطاعتهم، وإيش يضر به أن يدخل الكفار في الجنة وساحة كبرياته منزهة عن خلل الحدثان، وإذا أنشر بساط الكرم يدخل الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون في حاشية من حواشي بساط رحته، وهو صادق فيما وعد وأعدوا، وإنا العلم عند الله.

وتأكيد ما ذكرنا قول أبي مجلز: هو جزاؤهم إلا أن يشاء ربك يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار.

وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تحقق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

وقال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرًا أسرعها خرابًا.

وتصديق هذه الأقوال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإن هذا مما يؤيد إن شاء الله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَيُفِيهِمُ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴿١٢٦﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبدُونَكَ إِلَّا كَمَا يَعْبدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١٢٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا يُؤَفَّقِيهِمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّجَا وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ آلَتَهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ﴾: الذين سبقت لهم في الأزل العبادة الكبرى، وهي التوحيد والمعرفة على قواصير النور على رفارف الجنان تحت سرادق العرش.

﴿حٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: سماء الجنة وأرضها، سماؤها العرش، وأرضها الدر ومكة البيضاء من مسك أذفر.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: وقع المشيئة على العارفين والمحيين والمشتاقين؛ فإنهم يجتازون على الجنان، ويدخلون في أنوار حبال الرحمن أبد الأبد.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾^(١).

وقال أيضًا: في فاكهة أهل الجنة في أهل الجنة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

وقال ابن عطاء: إلا ما شاء ربك من الزوائد لأهل الجنة من الثواب، ومن الزوائد لأهل النار من العقاب.

(١) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب من كد المومم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (٣/ ٧٥).

وقال الجنيد: الشقي من حُرِم الرحمة، والسعيد من رُزِقها.

وقال إبراهيم الخواص: الشقي من اعتمد تدبيره وقوته، والسعيد من فَوَّض أمره إلى ربه، والسعيد الذي ساعده التوفيق الأزلي في كل ما يريد من المقامات، وتسهيل الطاعات، والشقي ميت القلب عن مورد تحلي رؤية الرب.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: أمر الله سبحانه نبيه ﷺ في معهد الأزل أن يقوم بتحمل أمانة علوم كنوز القدم، وما يتعلق بها من كشوف أنوار صفاته وذاته إلى الأبد، وذلك بعد أن كساه كسوة الربوبية وقدرة الأزلية، فذكره عهده الأول بعد كونه متحلياً بأنوار التأييد والعناية، وقيامه بأداء حقوق الرسالة والنبوة، فأن الآن أوان الامتحان؛ حيث زينت الدنيا بأحسن زينتها لك، وأجريت الطبيعة فيك، وأن يستقيم أصحابك وأمتك في حمل ما تخبرهم من أحوالك معي، وأحوالهم وكراماتهم بين يدي؛ فإني بجلالي وقدري أكشف أسراري لك ولأمتك من أهل الحقائق ما لا يطيق بإزائها السماوات والأرض، فاستقم بها يلقى برسالتك.

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ من أمتك بما يلقى بولايتهم، وليس للاستقامة حد؛ لأنها مقامات وحالات ومعارف وكواشف وتوحيّد ويقينٌ وصدق وإخلاص وآداب وخطاب، وفي كل مقام استقامة من يستقيم فيها جميعاً، وفيها يرد عليه من واردات المواجه من اللطفيات، وما يرد عليه من الامتحان والبلديات، صار موصوفاً بالاستقامة، ومن يطبق أن يقوم بإزائها مستقيماً، ولا يثبت على صفوان القدم آثار أهل العدم من جعله الله مستقيماً بتأييده صار مستقيماً، المخصوص في ذلك محمد ﷺ، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(١)، ولما ثقلت عليه أثقال الاستقامة على تتابع كشوف الأزليات وأسرار الأبديات قال: «شيتني هود»^(٢).

وقال ابن عطاء: إنما ينال الاستقامة على حسب ما أكرم به من نور السر.

وقال بعضهم: من يطبق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أُيِّد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة.

ثم عصم بالثبوت، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَكَ﴾، ثم حُفِظ في وقت المشاهدة، ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب والمخاطب في بساط الأنس محمد ﷺ، بعد ذلك خوطب بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: ولولا هذه المقدمات لانفسخ دون هذا الخطاب.

ألا تراه كيف يقول للأمة: «استقيموا ولن تحصوا»^(٣) أي: لا تطبقوا الاستقامة التي

(١) رواه ابن ماجه (١٠١/١)، وأحمد (٢٧٦/٥).

(٢) رواه الترمذي (٤٠٢/٥).

(٣) تقدم تحريجه.

أمرت بها.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾: افتقر إلى الله بصحة العزم.
قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت أبا علي الشوئي يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت له: روي عنك أنك قلت: «شيتني هود»^(١)، فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيتك منه قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾.

وقال جعفر الصادق: منهم من استقام على توحيده، ومنهم من استقام على إيمانه، ومنهم من استقام على إسلامه، ومنهم من استقام على معرفته، ومنهم من استقام على عظمته، ومنهم من استقام على الحمد والثناء، ومنهم من استقام على الكرم والوفاء، ومنهم من استقام على الخوف والرجاء، ومنهم من استقام بالله لا شيء سواه.

وقال بعضهم: من استقام بالحق لا يعوج، ومن استقام بباطل فهو غير مستقيم؛ لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحقيقة.

وقال بعضهم: الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنة.

وقال الجريري: الاستقامة في النعمة للعوام، والاستقامة في البلاء استقامة للخواص.
وقال الجنيد: الاستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين، والاستقامة مع الهيبة والحياء حال المقرين، والاستقامة مع الغيبة عن رؤية الاستقامة حال العارفين.
وقال الأستاذ: يحتمل أن تكون السنن في الاستقامة سنن الطلب، أي: سل من الله الإقامة على الحق.

ويقال المستقيم: من لا يتصرف عن طريق الله ما لم يصل إلى الله يصل سيره بسراه.
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: لا تقتدوا بالمُرائين والجاهلين وقرناء السوء، فتمسككم نيران البعد، وحب الجاه والرياسة، وتلحقكم نار البدعة والضلالة.

وأيضاً: لا تسكنوا إلى نفوسكم المظلمة بجهلها حقوق الله سبحانه.

قال الكتاني: من لم يتأدب لحكيم أو إمام يكون بطالاً أبداً، قال الله: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.

وقال سهل: لا تعتمدوا في دينكم إلا السني.

وقال حمدون القصّار: لا تصاحب الأشرار؛ فإن ذلك يجرمكم الأخيار.

وقال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: لا تركنوا إلى نفوسكم؛ فإنها ظلمة.

وقال سهل: لا تجالسوا أهل البدع.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾: إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأن من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفاً من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، ولهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإن كان نائماً، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنتت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوسواس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾: إنَّ حسنات أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحييين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جعلت علامات الأذكار أوقافاً للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالب في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب.

قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي.

قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل.

قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالأمانة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة، وذلك موعظة لمن يوفق له ويؤهل.

وقال يحيى بن معاذ: إنَّ الله لم يرض للمؤمن بالذنوب حتى ستر، ولم يرض بالستر حتى غفر، ولم يرض بالغفران حتى بدل، ولم يرض بالتبدل حتى أجره عليها، فقال: ﴿إِنَّ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾، وقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

يقال: حسنات التوبة تذهب سيئات الزلة.

ويقال: حسنات العرفان يذهبن سيئات العصيان.

ويقال: حسنات العناية تذهب سيئات الجناية، ولما عظم شأن حفظ الأوقات، وأشكل رعاياتها على أهل المشاهدات والمجاهدات أمر بالصبر عليها بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِمَنْ أَلَّهِ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ في دفع الخطرات المذمومة عن مزار المجاهدة وأنوار المكاشفة.

وأيضًا: واصبر تحت رجاء تحلي الكبرياء، فإني أجازي بإحسانك بذل وجودك بنعت طلب رؤيتي بكشف جمال بقائي حتى لا تفنى بنور كبريائي، وتبقى معي بنور بقائي.

قيل: اصبر على أداء الطاعات، وعن ارتكاب الجنايات، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن في آداب العبودية.

وقيل: اصبر على الذكر؛ فإن من ذكر الله على الحقيقة ذكره، كما قال ﷺ: «يقول الله: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي...» الحديث^(١)، وأي أجر أعظم وأجل وأبقى من ذكر باق يكون ثواب ذكر باق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾: تقرأ قلوب العارفين، وأهلها الأرواح القدسية المملوكة، فإذا كانت الأرواح مغالفة لنفوسها الأمارات بالألتجليها في حواشي الأذكار والأفكار ينزل عليها عساكر أنوار تجلي القدس، وتكون قلوبها رياض الأنس، وإن الله سبحانه لا يجليها على أيدي الخطرات والنفوس الأمارات، ولا يجري عليها أحكام القهريات، وينورها بأنوار المشاهدات والقربات.

وأيضًا: لا يهلك قلوب العارفين والمؤمنين والموقنين والمحبين ونفوسها مطمئنة بذكره.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: فإن خطر عليها خاطر من قبل فواجس والوسواس لا يحجب الحق أسرارها من جماله ومشاهدته بها خطر عليها من بعض خواطر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [النقص: ٥٩] أي: بقليل ظلم أهل القرية، أي: بقليل من هواجس النفوس.

وأيضًا أي: بظلم منه تعالى على القلوب؛ فإنه منزّه عن الظلم، وكيف يكون منه الظلم على المقبلين وهو تعالى اصطفاهم في الأزل بصلاحية قبول معرفته؛ حيث عرفهم ذاته بكشف

(١) رواه البخاري (٢٦٩٤/٦)، ومسلم (٢٠٦١/٤).

صفاته إياهم، فبقيت تلك الصلاحية.

قال بعضهم: ما أخذ أحدًا إلا بجريته، ومن لزم الصلاح والطاعة وقاه الله الآفات ومكاهه الدارين؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۚ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: الصلاح هو الرجوع إلى الله في كل نفس بالابتهاال والتضرع.

قيل: في تفسير الطاهر وأهلها ينصف بعضهم بعضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي: على سبيل واحد من توحيد ومعرفة وقربته ومشاهدته، ولكن حكمته الأزلية وعلومه القدسية تفرقهم في طرق المعارف، وأعطى كل واحد منهم سبيلًا يسلك فيه من معرفة ذاته وصفاته جميعًا، فيسيرون إليه بسبيل الصفات وطريق الذات على حسب مذاقهم ومشاربهم، فبعض في المعرفة، وبعض في التوحيد، وبعض في العشق، وبعض في الشوق، وبعض في الإرادة، وبعض في الحالات وبعض في المعاملات، ولا يشبه حال المريدين حال المتوسطين، ولا حال المتوسطين حال العارفين، وحال العارفين حال الأنبياء والمرسلين، وتقدر علومهم ومعرفتهم، ولم يرتفع الاختلاف بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾: أي: مختلفين في الأحوال والمقامات والأفعال والأقوال، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ويبلغه إلى مقام الغيبة عنه من وله في أنوار القدم، وفنائه في سطوات الأزل، وأيضًا: إلا من يبلغه مقام الصحو والتمكين حتى يطلع على الكل، فلا تخالفهم فيما هم فيه؛ لأنه في مقام الانصاف ونعت التمكين خارجًا عن التلوين.

﴿وَلِذَا لِكَ خَلْقُهُمْ﴾: أي: طباعهم مجبولة باختلاف ترقى المقامات ودرجات الحالات، وهذه سنة الله جرت في الجميع، قال تعالى: ﴿كُلُّ أَنَاسٍ مُّشْرِبُهُمْ﴾، ويمكن أن الجميع خلقهم للمخالفة في البدايات، وللموافقة في النهايات في هذه المقامات وهذه الدرجات، ويمكن أن الجميع خلُقوا للرحمة، وهي الموافقة في النهاية بعد عبورهم على بحار الأحوال والأعمال، إذا وصلوا إلى بحار المشاهدة، فيفرون فيها، ولا يُعرف هناك في تلك الساعة الوضع من الشريف؛ لأنّها منازل الشرفات وحقائق المدانات، وهو بجمعهم رءوفٌ رحيمٌ.

إذا طلع الصباحُ لنجمٍ راح تساوى فيه سكرانٌ وصاحي

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ فَوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الجنيد: خلقهم للاختلاف، ولو خلقهم للموافقة لما رجعوا عنه إلى سواءه، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم فأيدهم بأنوار الموافقة، فلزموا الشدة، ولا يلتفتوا إلى الأغيار.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ فَوَادَكَ﴾: أُنْهِم رِزْقَهُم الله فَهَمَّ خطابه، فَإِنَّ الصادق العارف إذا وقع في بحر الأزل يرى عجائب كشوف الصفات وأنوار الذات سبحانه تعجَّب بشأنه، وظنَّ أن واقعته لم تقع على أحدٍ غيره، خاصةً في بداية حاله وبديع كشفه، فظنَّ أنه فريدٌ في حاله، فعرف الله سبحانه أحوال ما مضى على أوليائه ليعلم أن حاله لم يكن غريباً، بل يكون معروفاً عند العارفين، ومعلوماً عند الصديقين، ومشروحاً عند المرسلين؛ ليفرح بسنة الله التي جرت باصطفائية أوليائه في أوليائه في الأزل، ولا يغيرها طوارق الحدثان.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾، والشئ إذا كان معروفاً عند العلماء والأولياء لا مدخل فيه للمعارضات والشبهات.

قال أبو بكر الكتّاني: سألت الجنيد عن مجازات الحكايات؟ قال: هي جنود من جنود الله في أرضه يقوي بها أحوال المريدين؛ فقلت: أله أصلٌ في الكتاب؟ قال: قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الكشف لك في هذه الخطابات على أثر كل خطاب جمال الحق سبحانه، وكشوف صفاتك على وفاق الخطاب، فحيث يجبر الخطاب عن الكبرياء ينكشف لك الكبرياء، وكذلك العظمة والجلال والعزة والقدم والبقاء، وإن أُخبر عن الذات يكشف لك الذات صرفاً، فإذا كان ﷺ في منازل الابتداء يقويه الحق بذكر

(١) سَكَّنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباء المرسلين، وعرفه أنه لم يُرَقَّ أحداً إلى المحلِّ الذي رَقاه إليه، ولم يُنْعَم على أحد بمثل ما أنعم عليه، ويقال قصَّ عليه قصص الجميع، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثبات قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان يقص عليه، وفَرَّقَ بين من يعقل بما يسمع وبين مَنْ يَسْتَقِلُّ بِمَنْ منه يسمع. تفسير القشيري (٣/٣٨٨).

أحوال من الأنبياء ليطبق أن يحمل بدائع الواردات العجيبات له، فإذا قوي بها يثبت بكشف جماله وجلاله حتى يطبق أن يعبر على بحار نكرات القدم، ولا يتغير بطوارق المكربات والامتحانات.

ثم إن الله سبحانه يقوي قلوب تابعيه من الأولياء والمؤمنين بما جرى عليه من أحكام الغيب وأنباء الأزلية، ليطبقوا أن يحملوا أثقال ما أوحى إليه، فثبت قلب النبي ﷺ بقصة الرسل، وما كشف لهم، وثبت قلوبهم الأمة بقصته وحاله، فما أشرف هذه الأمة، حيث هو ﷺ سبب تثبيت قلوبهم.

وتصدق ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: صورة القرآن موعظة لأهل المعاملات وحقائقه بنصره لأهل المعانينات، يعرف الكل من بحار القرآن ما يوافق حاله وفهمه وإدراكه، فالعموم متعلقون بظاهره، والخصوص متعلقون بباطنه، وخصوص الخصوص في تحلي الحق فيه، وحقيقة القرآن هو الصفة الأزلية، فإذا انكشف القرآن بأصله فقد انكشف الحق فيه لمن خص بخصوصية الصفة، وأخبر بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال: إن الله يتجلى لعباده في القرآن.

قال أبو زيد: فوائد القرآن على حسب ما يؤهل له مستمعه، فمن سمعه من أمثاله ففائدته فيه علم أحكامه، ومن سمعه كأنها سمعه من النبي ﷺ يقرأ على أتمته موعظته منه بيان معجزته، وانشراح صدره بلطائف خطابه، ومن سمعه من جبريل ﷺ كأنها يقرأ إلى النبي ﷺ؛ فمشاهدته في ذلك مطالعات الغيوب والنظر إلى ما فيه من الموعود، ومن سمع الخطاب فيه من الحق فني تحته، ومحقت صفاته، وصار موصوفاً بصفات التحقيق يعني عن علم اليقين وعين اليقين، ويحصل في درجات حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: غيب السماوات والأرواح، وغيب الأرض القلوب، يعلم ما أودع الأرواح من علوم كنوز الذات، ويعلم ما أودع بابه عن أسرار الصفات.

وأيضاً: غيب السماوات ما في قلوب الملائكة من علوم المقادير التي تجري بنعوت القضاء والقدر على أفعال العباد، وغيب الأرض علوم معرفة ذاته وصفاته في قلوب الأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين.

وقوله: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾، «الأمْر» هو الأرواح ترجع إليه على قدر مشاربها من عيون الصفات وأنوار الذات، ثم رغبة إلى عبوديته التي تورث الحرية، والحرية تورث التوحيد، والتوحيد يورث التجريد، والتجريد يورث التفريد، والتفريد يورث المحو في

الذات، والصحو في الصفات، فإذا قرر هذه المقامات يؤمنه من زوال الشرف، ومحو المحو عنه به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو حسبك، ارجع من قهره إلى لطفه، ومنه إليه؛ ولذلك قال ﷺ: «أعوذ بك منك»^(١).

قال النهرجوري في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾: لا يعملها إلا هو، ولا يطلع عليه إلا الأمناء من عباده، وهم الذين يصلحون للقرب، والمجالسة، وحفظ الأسرار، والنظر إلى المغيبات، وهم الذين لم يبق عليهم منهم حظ، ولا لهم فيهم مطالب، وكانوا بلا كون، وشهدوا بلا شهود، بل يكونون بالتكوين، ويشهدون بالأشهاد، فلا هم هم، ولا هم لا هم، فهم من حيث الوجود لا هم، من حيث الاتحاد هؤلاء أهل الغيب الذين غيبوا عنهم، فلا لهم في أنفسهم حظ، ولا للخلق إليهم سبيل؛ لأنهم أخرجوا عن حدود التفرقة إلى عين الجمع، فلا تمّ كلام، ولا عنه عبارة بحال.

وقيل في قوله: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: مرجع الكل؛ لأن منه مبدأ الكل. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾: أسقط عنك حظوظ نفسك، وقف مع الأمر بشرط الأدب والسنة، وتوكل عليه لا تهتم بما قد كفيته، واهتم بما تُدبِت إليه، ﴿وَمَا رُبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كيف يغفل عنك من قدر عليك عملك، وما أنت لاقية إلى آخر أنفاسك، والله أعلم.



سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ خُنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينَ لَنُغْفِرَ لَكَ ﴿٢﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٣﴾

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: الألف إشارة إلى أنائية التوحيد، واللام إشارة إلى نكرة أهل التجريد، والراء إشارة إلى ربانية أهل التفريد.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: مظنات الإشارات في الأحرف

الثلاث علامات المعارف، المعرفة في الصفات القديمة المبينة أنوارها في قلوب الصديقين، وأثارها في شواهد الملك والملكوت، وما ذكر في القرآن.

قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: أوصاف ونعوت وأسماء وصفات مبينة أسرار الخطاب لأهل المكاشفات والمشاهدات من العارفين والمقربين، والحكمة في الخطاب بالحروف كتمان الأسرار عن الأغيار، وهي سنة الأحباب في رفع النقاب في الحجاب.

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلكم من جانب الغرب خوف القيل والقال أقول بالخذ خال حين أذكره خوف الرقيب وما بالخذ من خال هذا سر الحبيب مع الحبيب، ولا يطَّلَع عليه إلا من له شُرْبٌ من بحر، وسقي من نهر، وطلوع من شرقه، وأقول في غربة؛ لأن هذه الطائفة رموز وإشارات لا يقف عليها إلا طيارٌ في الملكوت وسيارٌ في الجبروت.

قال الأستاذ: في إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة، وهو أن من كان بعين الفضل والصحو استنبط من اللفظة السيرة كثيراً من المعاني، ومن كان يشاهد الغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه السير.

وقال أيضاً: الإشارة من الكتاب المبين هاهنا إلى حكمة السابق له بأن برقية إلى الرتبة التي لم يبلغها غيره.

قوله تعالى: ﴿تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: إن الله سبحانه لما أراد أن يوقع عتقاء همته إمتاع قوسينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلى صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والواقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لثلا يضيق صدره في محل الامتحان؛ لأن امتحان بالعشق الإنساني مراقبي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمرائب العشق، فإن بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية.

بيّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف عليه السلام كله عَشِقَ به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلّى الحق منها للعباد.

وكيف لا يكون أحسن القصص؟ وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدّها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال بعضهم: أعجب القصص، وفيه تعزية وسلوة للنبي ﷺ لما لقي من أهل بيته أنّ يوسف لقي من إخوته أكثر مما لقي هو من أهل بيته، فلم يخرج عليهم بنفسه منتقمًا، بل رأى ذلك كله من موارد القضاء ومواجب القدر، فلما رجعوا إليه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾، كيف يكون عليكم فيه غيبٌ وكتمت المجبورين عليه، وكبت المقصود به من حيث القضاء والقدر.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: اشتغل العوام لسماع القصص، واشتغل الخواص بالاعتبار فيه؛ لقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾. وقال بعضهم: هذا يدل على صدق أحوال المؤمنين، ومعاني صفة المتقين، وإلى حقائق صعبة المحبين، وصفاء سر العارفين، تنبيهًا على حسن عواقب الصابرين، وحثًا على سلوك الصادقين، وبعثًا على سبيل المتوكلين، والاعتداء بزهد الزاهدين، ودلالة على الانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه عند نزول الشدائد، وكشفًا عن أحوال الخائئين، وتُجِبُ طريق الكاذبين، وابتلاء الخواص بأنواع المحن والفتن، وكشف تلك المحن وعواقبها عن الإعزاز والإكرام، وتبديل تلك الشدة بالراحة، والبؤس بالنعمة، والعبودية بالملك، وفيه ما يدل على سياسة الملوك في ممالكهم وحفظ رعاياتهم وغير ذلك.

وقال الأستاذ: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ لأننا نحن نقص عليك أحسن القصص، لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب إشغال القلب. وقيل: أحسن القصص؛ لأنه غير مخلوق. وقيل: لا فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

ولما كان يوسف ﷺ بذلك المثابة التي ذكرتها، وأنه كان مرآة حسن الحق، وأن حسنه تأثير معادن حسن الأزل، يخضع له الحدثنان لما عليه من كسوة جمال الرحمن، أخبر عن رؤياه، وما رأى فيها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١): جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حروف: الياء، والواو،

(١) فائدة: والرويا تختص بالنوم، والرؤية، بالثناء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من

والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف عليه السلام سمي يوسف عليه السلام، وأيضًا كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف عليه السلام؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن.

جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفًا، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار.

وأيضًا: مثل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأيده نبذة مما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشرف الأنبياء، وهم خير من الملائكة، وكيف لا يسجدون لها، ومن وجهها تتلأل الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية:

لَوِ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَهَا خَرُّوا الْعِزَّةَ رُكْعًا وَسُجَّدًا

وفيه إشارة لطيفة: أن الخليل عليه السلام رأى ذلك المعنى من جبين الشمس، وعارض القمر، ونور الكواكب، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، وهذا عذر للملائكة والأنبياء في سجودهم لآدم عليه السلام ويوسف عليه السلام؛ لأن هناك يتجلى الحق سبحانه من أجرام الفلك التي معادنها الأفعال، وهنا يتجلى الحق منها وهما من خصائص تحلي الصفات صادران، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾: ألبس أنوار الهيبة على أجرام الفلك، فهاجت إليها سرائرهم، كما ألبس على طور أنوار الهيبة فهيج الله سر موسى إليها، وألبس أنوار الجمال آدم عليه السلام ويوسف عليه السلام، فهاجرت إليه أسرار الملائكة والأنبياء، فإليت لو رأى الخليل يوسف عليه السلام وآدم عليه السلام لراى فيها أكثر مما رأى في أجرام الفلك:

خليلي وعد أحسن الناس كلهم ويحسدها من حسن شمس والبدر

فيا ليت الجميع لو رأوا جمال سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه هاموا في البوادي والقفار، وغرقوا في الفياقي والبحار، وتطير الملائكة من السماء؛ لأن نوره أنور، وشمسه أزهى، وبدره أشرق، نوره كان من معادن جمال القدم، وسراجة أسرج من سمة الكرم، وفيه نكتة عجيبة من حقائق التوحيد: أن مشار الخليل ما قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ سجدت لبعض نبيه بياناً لتزنيه جلال الكبرياء، وتنزيه ساحة العزة والبقاء عن الأضداد والأنداد، رأى الخليل ﷺ هذا المعنى بنور النبوة، فقال: ﴿وَإِنِّي بِرَبِّي مُّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفيه أدب المريد أن المكاشفة تذكر عند أستاذه ليفرق بين الكشف والخيال.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْتَبِئُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلنَّاسِ لَئِن كَانُوا يَظُنُّونَ﴾.

قال بعضهم: أعجبه حسن رؤياه حتى قصّها على أبيه، فكأنه فيه أول بلية ومحنة إلى أن بلغ إلى تحقيق ما رأى، فلما رأى يعقوب أسرار الرؤيا وتأويلها خاف على ابنه: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾، وهكذا شأن أهل قصة المعرفة، لا يجوز للمريد أن يفتق سر المكاشفة إلا عند أستاذه، والأنفع في بحر الحجاب، ومحن الدعاوى، ويكون مرتباً بعيون الغيرة، كان يعقوب ﷺ في ذلك الوقت في رؤية العلم من رؤية ما جرى في الأزل فدبر وقاية ابنه بحسن التدبير قوة من صورة التدبير إلى عين التقدير.

قال بعضهم: إن يعقوب ﷺ دبر ليوسف ﷺ في ذلك الوقت خوفاً عليه أن يقع من إخوته في شيء، فوكل إلى تدبيره، ووقع به ما وقع، ولو ترك التدبير ورجع إلى التسليم لحفظ، ولما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْتَبِئُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولما قال: ﴿أَن يَأْكُلَهُ الذَّبَّ﴾، وقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾: أراه الله فيه ما كان يخافه عليه؛ لذلك قيل: إن التفويض والتسليم خير من ملازمة التدبير، ولما وصاه وقال: لا تقصص الرؤيا عرفه اختصاصه في الرسالة والنبوة والحسن والجمال والخلق والخلق بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْتَبِئُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: اجتباه بأن كساه من نوره نور جمال، وربّاه بمفرح الكمال، ورزقه الرسالة والكشف وعلوم المدينة الإلهية التي قال:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْآحَادِيثِ﴾، وتمام نعمته عليه أن بلغ إلى مقام التمكين، ورؤية التحقيق، وفاز من التلوين، وذاق طعم الاستقامة، وبلغ أشده إلى ما بلغ الذبيح والخليل، وخروجه من درك امتحان العشق بنعت القدس والجارّة، كما كان وصف الأنبياء والصدّيقين.

قال ابن هند: اجتباه ما منحه به من حسن الخلق، ولطيف الصحبة مع أوليائه وأعدائه، وترك الانتقام لنفسه بحال.

وقال بعضهم: اجتباك ربك فصرف عنك كيدهن، ولولا اجتباه لورد عليك منهن ما ورد.

قال يحيى بن معاذ: من تمام نعمة الله على يوسف أن جعله منعماً على إخوانه، واضطروهم إلى الخضوع له والتذلل بين يديه بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

وقال سهل: ويتم نعمته عليك بتصديق الرؤيا التي رأيتها لك. وقال بعضهم: ويتم نعمته عليك في أن عصمك عن ارتكاب ما لا يليق بك ولآبائك. وقال الأستاذ: من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة أن يصونك عن شهود النعمة برؤية المنعم، فلما أعظم شأن يوسف في حسنه وجماله، وقده وطهارته وظرافته مع إخوانه في احتمال البلاء منهم، وترك الانتقام منهم لنفسه عظم الله ذلك.

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ﴾: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفة بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائعه، وما وضع الله في النفس الأمانة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبتها، وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

قال حمدون القصّار: للخلق في يوسف ﷺ آيات، وله في نفسه آية، وهو أعظم الآيات، وهو معرفته بمكر النفس وغدرها، قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. وقال بعضهم: إنّ من الآيات التي في يوسف أنه حجّة على كل من حسن الله خلقه ونعوته ألا يدنس بمعصية.

قال ابن عطاء: آياته ألا يسمع قصته محزون إلا استراح إليه، وأخرج منه ما فيه راحة لما هو فيه.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَتَابْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾ ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لَخِزْتُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَتَابْنَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَاهُ يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾: بين الله سبحانه محل امتحانه بأن لم ينجو منه أحد حتى الأنبياء لثلاثين من مكروه فإن كيدته متين، وهم في ذلك ما بلغوا مقام النبوة، ولكن عجبت من شأن قهر الله سبحانه، كيف غير فطرة المعروفين في ديوان الأزل بالولاية والرسالة حتى يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، وذلك منه تعالى عذر للمذنبين جميعاً، ويبيّن أن مكان الصدق يخطر عليه آفاق النفس والحسد والخدعة، بقوله: ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾، وهم كانوا يعرفون موضع الخطأ في نفوسهم من إضمار إيذاء يوسف عليه السلام، سبحانه من حججه من نفسه وكدر عليهم مشارب الصفاء والمودة، وحججه عن العلم بفراصة أبيهم؛ حيث عرفه الله مكائد نفوسهم!

قال بعضهم: لم يكن يأمنهم عليه؛ لما كان يرى من فراصة النبوة في شواهدهم من إضمار الحسد والبغضاء.

قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾^(١): إهمال يعقوب بنيه، وتركه دفع لعبهم، بأنه رأى لطافة خاطر يوسف عليه السلام ومواصلة حزن النبوة في قلبه، وتأثير برحاء القبض

(١) أي: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستيقاظ والتناضل ونحوهما عما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار وإثبات سموه لعباً لأنه في صورته وأيضاً لم يكونوا يوثقون أنبياء وأيضاً جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر، تفسير حقي (٥٣/٦).

في صدره، فأذن لهم بذلك؛ ليخرج يوسف عليه السلام لحظة من تحت أثقال هموم المعرفة، وتواتر تراكم حزن المحبة، ومواجيد القربة، ويستروح ساعة برؤية الآلاء والنعماء، فسامحهم بذلك، ليس أنه غافل عن تأديبهم، وزجرهم عن اللهو واللعب، ورأى ما في ضيائهم من لطيف المكر، وعلم أنه موضع البلاء، فجعل المعول عليهم وسبق التقدير على التدبير، وحجب غيرة الله بينه وبين يوسف عليه السلام.

قال محمد بن علي الترمذي: لما لم يزجرهم عن اللعب وسكت عنهم جاء من ذلك اللعب ما اتصل عليه به الحزن.

قال ابن عطاء: لو أرسله معهم وسلمه إلى القضاء لحفظ، لكنه اعتمد على حفظهم: ﴿وَأِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾، فخانوه، لو ترك تدبيره عليه وحفظهم له لكان محفوظًا كما حفظ الآخرين، قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾.

قال بعضهم: رجع يعقوب إلى نفسه في ثلاث مواطن فابتلي فيها: قال ليوسف عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِيحْيَىٰ بْنِ كَيْدٍ﴾ فكادوا له، ولما قالوا: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فقالوا: أكله الذئب، ولما قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، أصابهم في ذلك ما حذر عليهم منه.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِمْ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: صدق يعقوب خاف من ذنب حسدهم، وبرؤيته في ذلك حقيقة، وكل ما رأى يعقوب من هذه الوقائع فقله فيها وقوع نظر سره على سابق التقدير، وكل ما قال لبنيه من الزجر والنصيحة في حق يوسف عليه السلام مما رأى بنور النبوة ما يقع في المستقبلات من الوقائع، وذلك غير مناقض لحقيقة التوحيد، وكيف يكون استعمال معاملات العقل وعادة البشرية حجاب الأنبياء والصدّيقين من رؤيتهم حقائق التقدير، وهم يعلمون أن من العرش إلى الشرى من الخريات والسكنات عاجزة بين حرفي الكاف والنون.

وأيضًا: أخاف من ذنب التقدير أن يفرّق بيني وبين ابني وأنتم عما أراه غافلون، رأى غيرة الحق عليه حتى لا ينظر إلى الوسائط في شهود حقيقته، وتصديق ذلك أن الذئب لم يأكل يوسف، فعلمنا أن الذئب ذئب الحسد، وكيف كانت فراسة خطأ، ورأى بنور فراسة ما كان يجري على يوسف إلى آخر عمره وافق في متابعة مراد الله؛ لأنه أراد أن يفرق بينه وبين يوسف عليه السلام أريد وصالي ويريد هجري فأنكر ما أريد لما يريد.

قال أبو علي الجوزجاني: خاف الذئب فسلط عليه، ولو خاف الله لمنع عنه كيد الإخوة.

وقال الجنيد: ما أوقعهم في الحسد إلا ما أظهر من شفقتة عليه بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكْلَهُ لَذِئْبٌ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: لما رأى يعقوب أن حبال التقدير لا تضر وأن تواتر البلاء لا ينقطع وأن عساكر الغيرة لا تمتنع أرسله معهم، وذهب مع سيول بحر القهريات مرید المرادة، وكيف تدفع تقدير الأزل قوة العصبية وعلة التدبير، وربما نفى نظر التوحيد في بعض الوسائط في بعض الأوقات، فقطع الله ذلك حتى لا يستمسك غريق بحر المعرفة من قبلهم، فالقوة في الجُب، ثم لما أرسل بنيامين قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: حفظه وردّه إلى يوسف ﷺ، وردّهم جميعاً إلى يعقوب، كذا حال من اعتمد على ربّه، ومن اعتمد على غيره.

ولما وقع يوسف ﷺ في بحر الامتحان، وعجز في أيدي الأخوان، وذاق طعم جفائهم، رفع عروس الغيب رأسه عن بحر البلاء لتسليه قلب يوسف ﷺ بالولاء بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّيَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لتنبئهم بأنباء الأزلية، ومناطق الربوبية بلسان النبوة ما غاب عنهم، وما علموا وفعلوا وصنعوا حين تبلغك إلى رتبة الأعلى من النبوة والرسالة والتمكين والاستقامة، وهكذا كمال تسليه الله سبحانه صديقه في ابتلائه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لما حلّت به البلوى عجّلنا له تعريف ما ذكر من البشري ليكون محمولاً بالتعريف في عين ما هو محتمل له من البلاء العنيف.

ويقال: إن انقطع عن يوسف ﷺ مراعاة أبيه إياه حصل له الوحي من قبل مولاه.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: سرّ هذه الآية أن طبيعة البشر إذا ظفرت بمرادها رقت، فإذا دُعيت بالبكاء أجابت، ولكن لا يكون بكاءها إلا من فرح الخداع وحب الجاه والرياسة، وإنّ ذلك البكاء أكثره تباكياً، بكوا بغیر عبرة ولا بفلق وحزن من أسف، ولا بزفرة جاءوا عشاءً حتى لا يتبين تباكيهم من بكائهم، وليرتفع من بينهم وبين أبيهم سجون الاحتشام:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدود تبسّئ من بكى ممن تباكى

قيل: أخرّوا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة ليدنسوا على أبيهم.

وقيل: ليكونوا إجراء في الظلمة على الاعتذار، وترويح ما مكروا.

قوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ: فتح الله سبحانه ثوب رزق الرازقين في هذه الآية، الذين زينوه بالرزق والسود، وأدعوا صدق المقامات والكرامات، وإنّ دم الكذب إشارة إلى من يدعي جراحة المحبة على

قلبه، ودم القلب من ذبح الله إياه بسيف محبته، وليس كذلك، فإنَّ دم المقتولين بسيف المحبة دم صدق يصدق صاحبه في عيون الصادقين.

قال **المتشيع**: «المتشيعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زورٍ، ومنْ كذب وقع كذبه في قلوب العوام^(١)».

والعجب أن ما يطَّلَع عليه العوام كيف لا تطلُّع عليه قلوب الأنبياء والصديقين، هاجت طبيعتهم بسر الحسد، فيتولد منه الكذبات والجنايات؛ لأن مثل الحسد كالنار المخفية في الزبد، فإذا خرجت يحترق العالم بها.

قال الحسين بن الفضل: لما كذبوا في إجداء الأمر بقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ رجعوا في آخر الحال عند الاعتذار إلى الكذب حين قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. بيَّن الله سبحانه بقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فإسالة يعقوب **عليه السلام**، وإطلاعه على أسرارهم في المكر، وعرفهم سر مكائدهم نفوسهم ولم يعرفوها، والأنفس هاهنا أسرار تقدير قهر الأزل؛ أي أنتم مخدوعون بخداكم، وأنا لا أرى في البين غير سابق التقدير، فألبس سربال الصبر الجميل في مراد الجليل، والصبر الجميل ما يصبر به صاحبه بالله لا بنفسه بنعت شهود سره مشاهدة المقدر والمبتلى في بلائه تقديره.

قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. وتحقيق هذا الصبر سكون القلب بما يجري عليه الرب سبحانه بنعت ذوقه صفاء الذكر، وإدراك رؤية المذكور، وتحقيق ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: استعانتني في بلائه وصبري به لا بغيره.

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عبرأتُ خططنَ في الخدِّ سطرًا فقراء من لم يحسن يقرأ صابر الصبرِ
فاستغاث به الصبر فصاح المحبُّ بالصبر صبرًا

قال الحسين: الصبر الجميل السكون إلى موارد القضاء سرًا وعلنًا.

وقال أيضًا: الصبر الجميل تلقى المحنة بمشاهدة المنة.

قال الحكيم الترمذي: الصبر الجميل أن يلقي العبد عنانه إلى مولاه ويسلم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاءه حكمٌ من أحكامه ثبت له مسلمًا بوارد الحكم، ولا يظهر بورود حكمه جزعًا بحال.

(١) رواه البخاري (٥/٢٠٠١)، ومسلم (٣/١٦٨١).

قال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشر.
 ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُنِي هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرُوهُ
 بَضْعَةً وَلِلَّهِ عِلْمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا
 فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُنِي هَذَا
 عَلَّمَ﴾: فلما خرجت الأرواح من أماكن العدم وطارت في هواء القدرة وطلبت أنوار موارد
 تقدم فوجدت قاموس الكبرياء، فأدلت دلاء الغم فيها، فأنكشف لها من مطالع الأزل
 شمس المشاهدة وأثمار العزة، فلما ظفرت بموارد الحقيقة صاحبت بصياح العشق وقالت: يا
 بشري، هذا شاهد القدم وعروس الأزل، فوجدت شاهدها، وفرحت بمشاهدتها، وطارت
 سكرانة في هواء آزاله وآباده من الفرح ببقاء؛ لأنها وجدت بضاعة المعارف وريح الكواشف.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾: جعلت أنوار جلاله في صميم أسرارها، وسترها عن
 الأغيار، وجعلها بضاعة التوحيد والمعرفة والمحبة؛ ليريح بها مدانة الوصال والاستئناس
 بالجمال، يا ليت لسيادة يوسف ﷺ لو عرفت ما في وجه يوسف ﷺ من تلالؤ أنوار حسن
 الأزل لسجدت له، كما سجدت الملائكة لأنه كالعبودية، ولكن للعشق والمحبة؛ لأنه شاهد
 الله في شاهد الله.

قال جعفر: كان الله تعالى في يوسف ﷺ سرًّا، فغطى عليهم موضع سرِّه، ولو كشف
 هم عن حقيقة ما أودع فيه لماتوا، ألا تراهم كيف قالوا: ﴿هَذَا عَلَّمَ﴾، ولو علموا آثار
 القدرة فيه لقالوا: هذا نبيٌّ وصديقٌ^(١).

ولما كشف للنسوة بعض الأمر: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
 كَرِيمٌ﴾، ولما لم يعرفوه بخاصية النبوة والولاية، ولم يروا عليه آثار جمال الله سبحانه باعوه
 بثمن بخس؛ لجهلهم به وبما فيه من ودائع كنوز القدرة وأنوار المشاهدة، والعلوم اللدنية
 الغيبية بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

ولو كان فيهم ما كان في يعقوب ﷺ من عشق الله وعجبه، وما رأى في مرآة وجهه من
 أنوار قدرة الباري سبحانه، ما باعوه بالكونين والعالمين؛ لأن ما في وجه يوسف ﷺ من جمال
 الظاهر لم يكن في الكونين إلا في أمثاله من الأنبياء والصديقين، وجمال ظاهره كان من جمال

(١) نادى البشري، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعالِ هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه
 على إخراجه فأخرجه. البحر المديد - (٩٧/٣).

باطنه، ولو اطلعوا على جمال باطنه لوقعوا بين يديه صرعى من سكر محبته، ولرأوا عجائب الملكوت والجبروت في ظاهره وباطنه.

قال جعفر: باعوا بالبخس من الثمن؛ لجهلهم بما أودع الله فيه من لطائف العلوم وبدائع الآيات.

قال ابن عطاء: ليس ما باع إخوة يوسف عليهم السلام من نفس لا تقع عليها البيع بأعجب من بيعك نفسك بأدنى شهوة، بعد أن بعثها من ربك بأوفر الثمن، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾، فبيع ما قد تقدّم بيعه باطل، وإنّما باع يوسف أعباءه الذين كانوا يعادونه، وأنت تبيع نفسك من أعدائك، وهي شهواتك وهواك، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

وقال الجنيد: إنّما باعوه بذلك الثمن؛ حيث لم يتفلسفوا فيه ما كان به؛ لأنه لم يكن وضع لهم في جنبه حظ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْآتِي أَكْرَمِي مَتُونَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى الذي اشتراه لما كان له في يوسف عليه السلام حظّ كيف قال: ﴿أَكْرَمِي مَتُونَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، فصدقت فيه فراسته، ونال به الهداية.

وقال ابن عطاء: لو جعلوا ثمنه الكونين لكان بخس في مشاهدته، وما خُصَّ به.

قال الجنيد: كل ما وقع تحت العدد والإحصاء فهو بخس، ولو كان الكونين فلا يكن حظك البخس، وهو كل شيء دونه، ولما لم يعرفوا مكانته، وباعوه اشتراه من رآه بعين الحقيقة وأعد ميوأ جلاله وقدره في أخص موضع في العالم، وهو مكان المحبة والعشق بقوله: ﴿أَكْرَمِي مَتُونَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ اشتراه بالدنيا للأخرة معرفة بجلالة وجماله، وقال لامراته: ﴿أَكْرَمِي مَتُونَهُ﴾: أي: لا تنظري إليه بنظر الشهوة، فإن وجهه مرآة تعجّل الحق في العالم، وأين طور سيناء في مكانته من وجه يوسف عليه السلام، وتعجّل الحق من طور سيناء المولى، وتعجّل الحق من وجه آدم للملائكة، وتعجّل الحق من وجه يوسف عليه السلام لأجرام الملكوت، وسلاطين معارف الجبروت، ولعقوب عليه السلام وأمثاله من أنظار الغيب.

ألا ترى كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وأيضاً: أكرمي تقواه بتقواك، وأيضاً: ﴿أَكْرَمِي مَتُونَهُ﴾؛ فإنّه بهديه أمر

الفعل في مجمع عين الجمع، لا تنظري إليه بعين العبودية، ولكن انظري إليه بنظر المعرفة؛ لتري فيه أنوار الربوبية، وأيضا: ﴿أَكْرِمِي﴾: اجعلي محبته في قلبك لا في نفسك، فإن القلب موضع المعرفة والطاعة، والنفس موضع الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَّا﴾: أن يعرفنا منازل الصديقين، ومراتب الروحانيين، ويبلغنا بركة صحبته إلى مشاهدة رب العالمين.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: أحسني صحبته في الدنيا؛ لعله أن يكون لنا شفيعا في الآخرة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: لما نظر إلى يوسف عليه السلام، وركز بقلبه إليه صار يوسف عليه السلام محنة عليه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ اتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَرَاودَتْهُ أَلَيْسَ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَيَتَصَرَّفُ عَنْهُ الشَّوْءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٩﴾﴾ وقال يسوة في المدينة أمرأت العزيز تراود فتنها عن نفسها قد شغفها حباً إنا لترنها في ضلل مبين ﴿٢٠﴾ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدٍ متهن سكِناً وقالت أخرج عليهن فلما رأتهن كبرتهن وقطعن أيديهن وقلن حش لله ما هذا بشراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

قالت له امرأته: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف ما وهب إلى يوسف عليه السلام من أحكام الغيب، ورؤية كشوفات الملكوت، وتمكينه في المعرفة والنبوة والرسالة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: مكناه صبوا عظيماً في تمكين المعرفة، وحمل وارد مشاهدة

الغيب، وسكناه من فوران الأحوال، وتغاير التلوين، وبلغناه حقائق الصحو؛ ليكون كهفًا لغرباء المعرفة، والمسترشدين من أهل المحبة، ويعرفه بعد تمكينه حقائق المكاشفات، وتأويل لطائف المنامات، وما يبرز من المملوكات في اللبس المجهولة من تصرف الملائكة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾: إِنَّ كَانَ إنهاء راجعه إلى يوسف عليه السلام، هو تعالى المتولي على أمر يوسف عليه السلام؛ بآن خلّصه من مكان الامتحان، وبلغه إلى درجة الرضوان، وبأن نجاه من فتنة الطغيان، وورطة الحرمان؛ بآن كشف له البرهان والسلطان حين مكر به الشيطان، خلّصه من كيد الحساد، وجعله قبلة الأوتاد، والله غالب على أمره حين دبر يعقوب عليه السلام في حقه ما دبر؛ ليعرفه غلبة سلطان قهره واستيلاء تقديره على تدبيره غالب على أمر يوسف عليه السلام؛ حين برّاه من آفة شهوة زليخا حين همت به وهمّ بها، قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

وأيضًا: والله غالب على أمره على أمر عشقه، وعشق زليخا؛ لأنّ مكان العشق ممزوج بطباع الإنسانية، وإن كان صرف العشق من زند نعوت عشق الأزل، فكشف له سلطنة الكبرياء، وخلّصه بالكبرياء من مقام العشق الممزوج بطبع البشر؛ كأنه غلب الصفة على الصفة، وإن كان الهاء راجعًا إلى الله سبحانه.

فيه إشارة لطيفة: إنّ أمره من عالم الفعل، والأحكام والرسوم الشريعة والطريقة، والعقول مكلفة به؛ أمر رسيًا وغلب قهراً أمر بالشريعة، وغلب مقادير الأزلية أمراً أمراً، وغلب على أمره بنسخه وتبديله أمر يوسف عليه السلام بالتبرؤ من الأغيار، وبألا يلتفت إلى الحدثان في مكان العرفان، لكن غلب جلال قدره، وانكشف ليوسف عليه السلام في وجه زليخا، فأظهر القدس، وجّره بالقدس إلى الهمة؛ ليذيقه حلاوة عشق الإنسان؛ ليفوز به عشق الرباني، ومن هناك رماه إلى مدارج ملك الآزال والآباد، ومن لم تكن بدايته عشقاً كان من المجاهدين لا من العارفين، لا بأن العشاق طاروا إلى جناب مشاهدة الحق، وإنّ العشق مركب عشقه، والعشق من عشقه صدر؛ لأنه كان عاشقاً في الأزل، وعشقه معادن جميع عشق العشاق.

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحْيِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤]: كما أنّ حسن يوسف وزليخا وجميع الحسن في العالم انشعب من حسنه وجلاله وجماله، كأنّ عشقه غلب على أمر العبودية؛ لأنّ العشق صفة الربوبية، ولم يكن عجباً غلبة الربوبية على العبودية.

وأيضًا: ما دام الأمر خارجاً عن أماكن الأفعال وصار صرف الصفات فهو غالب على جميع الحدثان، وتدبير أهل العرفان؛ لآته واحد في ملكه، أحد في ملكوته، والكائنات خاضعة فانية لجبروته.

وما ذكرنا من هذه المعاني الغريبة والتفسير العجيب من حقائق أمر الإلهية لا يعرفها إلا أبناء المعرفة ونظار المشاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون مواضع تقدير الأزلية؛ حيث دبر أمور الخدثان من العرش إلى الثرى، وكيف يطلع الخدثان على قدم الرحمن. قال ابن عطاء: غالب على أمر نفسه، أجراه على ما شاء إلى مَنْ شاء، وصرفه عَمَّنْ شاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه الغالب في أمره الذي أمر عباده من طاعتهم، إن شاء يسر لهم من طاعته، وإن شاء أعجزهم فيها.

قال الواسطي: يصرفهم في تدبيره ويدبرهم في تصرفهم، ويجد منهم المفقود، ويفقد منهم الموجود، فالإضافات ضربٌ من الإشراك.

ثم وصف الله سبحانه بلوغ يوسف أشد النبوة والولاية والتأييد الأزلية، وما وهبه من أنوار العلوم والحكمة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: ﴿أَشُدُّهُ﴾: تمكينه واستقامته في المعاملات والحالات ومراتب الآداب في العبودية كشف له تصرفات الربوبية في معادن المكاشفة.

﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: حكماً بالعبودية، وعلمًا بالربوبية، حكماً بالطريقة، وعلمًا بالحقيقة، حكماً بممالك الدنيا، وعلمًا بممالك الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: نجازي المحسنين الذين راقبوا الله سرًا وعلانية، وبذلوا مهجتهم بالله وفي الله إلى الأبد.

قال النصر آبادي في هذه الآية: لما عقل عن الله أوامره ونواهيهِ والاستقامة معه على شروط الأدب أعطيناه حكماً على الغيب في تعبير الرؤيا، وعلمًا بنفسه في مخالفة هواها.

قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ؕ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: كانت مستغرقة في العشق الروحاني فغلبت عليها شهوة العشق، فراودته، وذلك أن رعونة سر الطبيعة صارت منجذبة برقة عشق الروحاني إلى معدنه فغلظت وصارت محجوبة بالطبيعة من الحقيقة.

﴿وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ﴾: لما كان عشق يوسف عليه السلام في قلبها، وصورته مصورة في خيالها لا يحتاج إلى غلق الأبواب، فإن قيد همتها حكمة همت يوسف حين همت به وهم بها أغلقت بواب أسرار عشقها على يوسف، فصارت فاشية بأن العشق لا يُتقى الكتمان:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا امْكَنَ الْجَهْرُ

فَبُحِ بِاسْمِ مَنْ نَهَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِرُّ
وأيضاً: غارت على يوسف حتى لا يرى أحد أسرارهما، فغلقت الأبواب، كذا ينبغي
للعاشق.

قال الشبلي في قوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾^(١): قطعت الأسباب وجمعت الهمة عليه،
ثم غلب على يوسف ﷺ قدس النبوة فامتنع من مراودتها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنُ مَثْوًى﴾ أي: ربي سبحانه وتعالى أحسن مثواي في الاصطفائية الأزلية، واختارني
بالرسالة والنبوة، وعلمني من تأويل الأحاديث، وألبسني لباس حاله الذي هو يوجب أن
ينظر إليها بنعت الهيبة والإجلال، هذا سيد السادات، وسيد الظاهر، أحسن مثواي؛ بأن
اختارني لأخوته لا لذيائه، وأحسن مثواه في قلبك بنعت محبة الله، فلا ينبغي لك أن تنظر إلا
بمحبة الله.

قيل: لما نظر في ترك المعصية إلى صاحبه وولي نعمته الأدنى، ولم ينظر إلى ربه وولي
نعمته الأعلى، عوقب بالهم حتى قال: ﴿هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾.
وقال بعضهم: برؤية الهمة امتنع من الفتنة.

قال الأستاذ: إنه أكرمني مولاي تعالى؛ حيث خلقني من الحب، وجعل في قلب
العزیز لي محلاً، فقال لي: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَنِي﴾، فقال: لا ينبغي أن أقدم على عصيانه، وقد
أفردني بجميل إحسانه.

ثم أخبر سبحانه عن جذب مغناطيس الهم بعضها بعضاً من سر حقيقة العشق الإلهي
والروحاني والإنساني والطبيعي والفطري والجوهري، التي معادنها من عالم الربوبية أفعالاً
وصفاتاً وذاتاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾، خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك
الهمتين، إن همة زليخا سبقت على همة يوسف ﷺ، وحسن يوسف ﷺ سبق بجذب قلب
زليخا وهمتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنين
الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلمَّا هاجت همة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى
معدن عشق يوسف ﷺ هاجت أيضاً همة يوسف ﷺ إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها،
فصارت الهمتان بعضهما من بعض، فهاجت همة الجواهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة،

(١) هي أبواب أركان الشريعة يعني إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهوراتها وحظوظها غلقت عليه
أبواب الشريعة التي تدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات الأنطاف والعناية، تفسر حقي (٦/
ص ٧٨).

والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبيهما، وروحهما، وسرهما واحدًا في واحد.

كما قال الشاعر:

والمعين كالفصين شقَّهما الهوى فرَّوَحاهما روحٌ وقلَّباهما قلبٌ

فكيف تنهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى المهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمانة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصها شخصًا، وروحهما روحًا، وقلبيهما قلبًا، وهمتتهما همة، وسرهما سرًا، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينازعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب المهمة، إذا تجلَّى من فعله ليفعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلَّت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلَّى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدَّس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط المهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف عليه السلام في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلَّت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك لبقى في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

تصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنَّا

كُفْرَهُ وَالْفَحْشَاءَ﴾، ظهور البرهان ليوسف عليه السلام ظهور صرف ذات القديم المنزه عن علة الخلل، ومباشرة الحدوث، وذلك الظهور يوجب إفراذ القدم عن الحدوث، وصرف التجريد والتوحيد والتفريد والخروج من محل الالتباس.

وقوله كذلك: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾: إن وضع سمات الفحش والسوء على أسرار تألف الأرواح والأشباح وحركات بعضها إلى بعض بنعت المحبة والألفة والمودة والهوى والشهوة، إنها عالم الامتحان والأمر والتكليف والعبودية ومخالفة الأمر سوء وفحشاء من حيث العلم والعقل، وفي الحقيقة ليس هناك علة الفحش والسوء؛ لأنها مواضع المقادير الأزلية.

وأيضاً: إذا بقي العارف في الترقى والوسائط والالتباس عن توحيد الصرف بقي في الحجاب عن رؤية كنه القدم وقُدس الأزل، وذلك الاحتجاب سوء وفحشاء، وأي سوء وفحش أعظم من الوقفة في بعض الطريق والانتقطاع عن الوصول إلى الكل وأصل الأصل، وإذا كانت معالي هيئته العلية علت على جميع المقامات وبلغت إلى رؤية الذات والصفات بنعت الفناء والبقاء، ذكر سبحانه امتنانه عليه بعد وصفه بتقديس إخلاصه.

وقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: من أهل الكمال من الموحدين والنبیین والمرسلين.

قال ابن عطاء: هَمَّتْ به هَمُّ شهوة، وهَمَّ بها هَمُّ موعظةٍ بزجرها عما هَمَّتْ به، وقال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال: واعظاً من قلبه، وهو واعظاً لله في قلب كل عبد.

وقال أيضاً: هَمَّتْ به وهَمَّ بها، احتالت زليخا أن تري نفسها ليوسف، فحجب الله نفسها عن يوسف بالبرهان العالي والحق الظاهر، حتى لم يشهد في وقت ذلك غير الحق، وقال: ﴿وَهُمْ يَٰٓأَيُّهَا لَوْلَا مَا صَدَّهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حِجَابِ الْبِرْهَانِ﴾.

وقال الجنيد: يحرك طبع البشرية من يوسف عليه السلام، ولم يعاونه طبع العادة، والعبد في تحريك الخلقة فيه غير مدموم، وفي هيجان الشهوة مدموم، وفي مقاربة المعصية ملوم، وذكر الله تعالى عن يوسف عليه السلام هم على طريق المحمّدة لا على طريق المذمة.

وقال ابن عطاء: قالت زليخا ليوسف عليه السلام: اصبر عليّ ساعة حتى أعود إليك، فقال: ما تفعلين؟ فقالت: أغطي وجه الصنم؛ فإني أستحي منه، فتذكّر يوسف عند ذلك اطلاع ربه عليه، فهرب منها، فذلك البرهان.

قال أيضاً: السوء الخواطر الرؤية، والفحشاء بالأركان.

قال محمد بن الفضل: السوء بالتفكر، والفحشاء بالمباشرة.

قال أبو عثمان: لنصرف عنه سوء الهم وفحشاء الواقعة.

قال الجنيد: أول ما يبدأ من الإخلاص في أحوال الأولياء خلو من سرائرهم وهمهم وإرادتهم، ثم خلوص أفعالهم، فمن لم يخلص سره لا ينال الصفاء في فعله، فلما رأى ما رأى

يوسف عليه السلام لم يبق في نفسه من شهوة الإنساني أثر من استيلاء أنوار التوحيد، وفرّ من موضع الخطر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا آَلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾: لما بدأ ليوسف أوائل سطوات الأزل وأنوار كشف تجلي الأبد لم يحتمل أوائلها، وعجل سرّه في أول بديهة التوحيد، فرّ من أماكن الخطر، ولو صبر حتى غاص في بحر الوجدانية لم يحتاج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكّن في رؤية الحق وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتذوب زليخا بنظره إليها، والتقديس من شهواتها؛ لأن حقيقة التوحيد إذا غلبت نادى إلى فناء ما دون الله، وتأثر في كل ناظر إلى صاحبها بالأبقى فيه أثر للشهوة الإنسانية، ولما لم يكن كذلك ما أثر في زليخا حتى عدت خلفه إلى الباب وقدّت قميصه، ولو كان يوسف مستغرقاً في أواخر التوحيد لاحتقرت زليخا، وما قدرت أن تعدو خلفه، ومغرّق قميصه، كان يوسف في أوائل التوحيد، وزليخا في أواخر العشق، فلم يؤثر التوحيد في العشق، وتخريقها ثوب يوسف من غلبة عشق الإنساني على عشق الروحاني، ولما خرقت قميصه من عشق الإنساني، صار تخريق القميص برهاناً ليوسف عليه السلام شاهداً على صدقه.

قال بعضهم: لو فرّ إلى الله والتجأ إليه لكفى، لكنه لما هرب منها وفرّ بنفسه أكمل نفسه محل التهمة حتى قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، فلما نصب الله البرهان وطرّد الشيطان فدخل عليها زوجها زليخا ورأى حالها العيان.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيَا سِدِّهَما لَدَا آَلْبَابٍ﴾: أضاف اسم السيد إلى زليخا؛ لأن الله سيد يوسف عليه السلام حقيقة؛ لأنّه كان حرّاً بالتوحيد وحرّاً بالتفريد، وكذا على ظاهر الشريعة، وما أطيب العشق إلى أن يؤول إلى الشفاعة! فإن عيش العاشق في الملامة أطيب.

قيل في قوله: ﴿وَأَلْقَيَا سِدِّهَما لَدَا آَلْبَابٍ﴾: لم تقل: سيدهما؛ لأن يوسف عليه السلام كان في الحقيقة حرّاً، ولم يكن العزيز له سيداً، فلما أفشى سر العشق بينهما وأطلع زوجها على سرها نفت عن نفسها الحرام؛ لأنها علمت أن لو بيّن جرمها عند زوجها لقتلها وأوقعت من حلاوة ومحبة يوسف والنظر إلى وجهه، كذلك أوقعت الحرام على يوسف عليه السلام.

لحبك أحببت البقاء لمهجتي فإن طال أن أعرضت عني بقاؤها
ولعلمها بأن يوسف عليه السلام لم يبق في الضر والبؤس والمؤاخذه، ولا يقدر أحد أن يؤذيه، ومن يقدر أن يضره ووجهه سالب القلوب وجالب الأرواح، أغاب العالم بعينه، سبى الأرواح والأشباح بحسنه وجماله. وتسبى العالمين بمقلتها

لها في طرفها لحظات سحر تُغيت بها وتُحيى مَنْ تريدُ

وتسبي العالمين بمقلنيها

وتعلّلت في كلامها حيث قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾^(١)، ذكرت حديث السجن، ثم ذكرت العذاب الأليم نفيًا للتهمة عن نفسها؛ حتى لا يعرف زوجها شأنها وعلتها وحيلتها.

وأيضًا ذكر السجن والتأديب والتعذيب لثلاث يبادر بشيء آخر أو يوهم بقتل يوسف عليه السلام، كانت زليخا متمكنة في عشق يوسف عليه السلام، فتصرفت في حالها بنعت الاستقامة، ولو كانت في فوز عشقها ما أوقعت الجرم على يوسف عليه السلام؛ لأن المهتدي لم يعرف في بدايته ما للأشياء ولم يبال بها، فحكم بحكم الوقت، ولم يبال بقتل نفسه وقوف معشوقه عنه، حتى أن لو كان الجرم لمعشوقه لأوقع على نفسه.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَهُنَّ خَتَىٰ جِهَيْنِ﴾^(٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَفْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٨) يَصْصَحِي السِّجْنَ أَرْزَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِعْتُمُوهَا أَتَشْكُرُونَ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الْدِينُ الْقَيِّمُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠) يَصْصَحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكَرُنِي عِنْدَ

(١) قال ابن عجيبة: قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها.

رَبِّكَ فَأَدْنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي
أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُخْرٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَابِسَةٌ يَأْتِيهَا
الْمَلَأُ أَتُّونِي فِي رُبْعِنِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمٌ وَمَا تَحْنُ
بِنَاوِيلِ الْأَحْلَمِ يَعْلَمِينَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِهُكُمْ إِنِّي وَلِيُّه
فَارْسِلُونِ ﴿٢٠﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُخْرٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَابِسَتْ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ يَأْتِي
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ
قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْتَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَّ إِنَّ رَبِّي يَبَكِّدُ مِنْ عَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ
قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْعَنُ حَضَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاحِشِينَ ﴿٢٧﴾
وَمَا أَتَزَوَّجُ نَفْسِي إِلَّا نَفْسِي لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ
الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ وَلَا جُرْ
الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

قال ابن عطاء: لم تستغرق هي في محبتها بعد، فلم تخبر بالصدق، وآثرت نفسه على
نفسها، فلما استغرقت هي في المحبة وهامت، أخبرت بالحق وقالت الصدق، وآثرت نفسه
على نفسها، فقالت: ﴿الْقَنْعَنُ حَضَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾، ولما وضعت زليخا الجرم على
يوسف ﷺ ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، كان الكرم والرضا يقتضيان السكوت عن
جوابها حتى لا يفتضحان، ويكون إلى التسليم وترك التدبير أقرب في التوحيد أفضل، حيث
أهل الطرق يرون الأشياء على رؤية مقادير الأزلية؛ لكن أعلمهم مكان طهارة النبوة وقُدس
الرسالة وبيان الحاجة؛ لذلك نطق الصبي في المهد، وتشهد بصدقه إظهارًا لمعجزته وطهارته
عما لا يليق بالأنبياء، ولطيف الإشارة فيه أنها أدعت محبة يوسف ﷺ، وتبرأت منها عند نزول

البلاء، فأراد يوسف ﷺ أن يلزم عليها ملامة المحبة، فإنَّ الملامة شعار المحبين، فمن لم يكن ملومًا في العشق لم يكن متحققًا في العشق، أراد يوسف ﷺ كونه عاشقًا جلدًا ليزيد عشقًا على عشقها؛ لأنَّ الملامة للعاشق زيادة ذكر المعشوق، فإذا استقامت تزيد حرقه العشاق والهيجان، هم إلى رؤية المعشوق والخروج من موضع التهمة، ودفعها دأب المعشوقين أيضًا لزيادة عشق العاشقين، فلما بان جرمها بالبرهان الواضح قال زوجها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أراد بالكيد هاهنا التجشم والغنج والدلال وتقليب طرفهن، وكشف ذوائهن. وخضاب أطراف بنائهن، ولطافة حركاتهن، والقائهن التفاح والسفرجل إلى معشوقهن، وتزيين لباسهن، ولطافة كلامهن، وحيث يحتكَّن بهذه الرعونات على من له لطافة وظرافة ورقة طبع، وأهلية للعشق، فأين إبليس منهن؟ وهو هناك أجبرهن، عظم الله كيدهن، وأضعف كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ سبب ضعف كيد الشيطان هاهنا أنه قبيح الصورة، شنيع المنظر، لا يقدر على الرجال إلا بالسوسة، وهناك بحسنهن حوليات الشهوات يجرون بها الجبال.

وقال ﷺ: «ما تركتُ من بعدي فتنةً أضُرَّ على الرجال من النساء»^(١).

وقوله ﷺ: «النساء حبالُ الشيطان»^(٢) أي: أعظم معاملة إبليس النساء بالرجال، أطلق حبال ذكرهن من ألف فرسخ يقيد بها أعناق الرجال، ولولا هن نجساء المعلون من وساوس الخلق، فإنَّ أعظم الفتنة في العالم النساء.

أيضًا: سُيِّ كيدهن عظيمًا، وذلك الكيد قيدهن الرجال بلطائف ما ذكرنا من شمائلهن، وذلك من أصل وهوان حسنهن وجمالهن وظرافتهن من حُسن فعل الله في وجوههن، وذلك الفعل مرآة تجلي حسن الأزل؛ لذلك سماه عظيمًا، وهذا إشارة لا يعرفها إلا صاحب واقعة، وأين الأبله والغبي والبليد من فهم هذا المعنى؟!

قال بعض الحكماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساء: ﴿إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وقال الشبلي: ﴿إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأما من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائِد، فلما فشى الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأنَّ أزواجهن كانت متآلفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف ﷺ،

(١) رواه البخاري (١٩٥٩/٥)، ومسلم (٢٠٩٧/٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٦/٧).

فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليدقن ما ذاقته زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ يَسُوۡةٌ فِى الْمَدِيۡنَةِ اٰمَرْتُ الْعَزِيۡزَ تَرْوِدُ فَتُنٰهٰ عَنْ نَّفْسِهٖۙ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ؕ﴾ ذكرهن لملامة اشتهائن رؤية يوسف عليه السلام، وحكمن بحكم الفراسة أنَّ حب يوسف عليه السلام بلغ حبة قلبها وصورة شغاف القلب سجف لطيف رفيق، وبراءة عالم الكشف، وبعده عالم اللطافة الأول مقام النفس والهوى والوساوس، والآخر مقام العقل والروح والملك، ومقام الكشف مقام شهوة الإنساني، ومقام اللطافة مقام شهوة الروحاني، وليس في الروحاني علة الهوى والنفس والشيطان، فإذا وصل الحب إلى منظر الروح واتصل بروح الروح بلغ إلى عالم الرحاني، فإذا تمكنَّ الحب هناك تخلص من الوسائط، وصار حب الله، فكل محبة وصلت إلى هنا فقد وصلت شغاف القلب، واتصلت بمحبة الله، كأنهن أردن محبة يوسف عليه السلام، وصلت في قلبها إلى محبة الله، وهناك استغراق الحب؛ حيث بقيت الأشباح في سورة الوسائط بمحبتها، وبقيت الأرواح في مشاهدة الحق لا للأرواح قراء، ولا للأشباح قراء، وهذا وصفهن زليخا بهذه الصفة بقوله: ﴿اِنَّا لَنَرٰهَا فِى صَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ ؕ﴾ أي: في غيبوبة من استغراق الحب، وتمكين العشق بحيث لا تخاف من الملامة، ولا تلتفت إلى السلامة، ويمكن أن إشارتهن إلى ضلالها إلى أنها أرادت من يوسف عليه السلام وجهه أن يكون يوسف من غاية حبها صورة وروحاً اتحاداً، فهن في منزل العقل والعلم يقين من مباشرة الجمال، وعلموا أن ذلك مستحيل من حيث العقل، لا من حيث العشق ومباشرة الحال.

قال الجنيد: وسُئِلَ: ما علامة المحبة؟ قال: ذكر الله في كتابه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ؕ﴾ قال: ألا يرى جفاء الحبيب له جفاء، بل يرى جفاء الحبيب له وفاء.

قال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منه حتى لا يكون لشيء غيره فيه مكان.

قال الشبلي: الشغاف نهاية العشق.

وقال بعضهم: الشغاف في المحبة حال الخمود؛ حيث لا عبارة عما به ولا إنخبار،

كما قال الله: ﴿وَيُضَيِّقُ صَدْرِيۙ وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِيۙ﴾.

وقال السري: أذهلها حبه حتى لم تكن تعرف سواه، ولم يكن للملامة عليه من الغير

أثر، وذلك صدق المحبة.

وقال جعفر: الشغاف مثل الغيم أظلم قلبه عن التفكير في غيره، والانشغال بسواه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَنَرٰهَا فِى صَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ﴾ أي: في وجد ظاهر، ومحبة بينة،

وشوقي مزعج.

سئل جعفر بن محمد عن العشق؟ فقال: ضلال. ثم قرأ: ﴿لَنَرٰهَا فِى صَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ﴾.

قال: معناه في عشق ظاهر.

وقال بعضهم: في غلبة من العشق ضلَّ فيه عقلها وبصيرتها، فلم يبق عليها محل الكتمان من غلبة الشوق، فلما وصلها خبر ملامة النسوة، واحتياهن في طلبهن رؤية معشوقها بلطف المكر، أرادت أن تلقين في بحر البلاء الذي لا ينجو منه أحد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتهن إلى بيتها، فاجتمع في بيتها أعيان نساء مصر اللواتي صويحات الجمال وزينة، وكشفن وجوههن وزينتهن ليغلبن على زليخا ويسلبن يوسف عليه السلام منها، فعلمت زليخا ضعفهن عن حمل أوائل رؤية يوسف عليه السلام وحسنه، وجماله، ولطفه، ومنظره، واحتالت في إلقاءهن في المحبة بقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أجلستهن في أطيب المجالس، وأشرف المناظر، على خوان^(١) فيه ألوان الطعام والفواكه، وأعطت كل واحدة أترجا وسكينًا، وقالت: كلن وقطعن الأترج، وأردت بذلك الحيلة عليهن، حتى شغلن بالطعام والكلام عن رؤية يوسف عليه السلام ليخرج عليهن بالبدية عن غير موعد ولا استئذان، حتى يستغرقن في بحر الهيبة والبهتة عند رؤيته.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾: ألبست يوسف عليه السلام قميصًا منظومًا بالدر واليواقيت، ووضعت على رأسها تاجًا مكلًا باللآلئ، وألبست ساقيه وذراعيه سوارًا أو خلخالًا، ووضعت على يده صفحتين حتى لا يستر وجهه؛ لأنه كان إذا رأى امرأة يغطي وجهه، فعلمت شأنه بذلك فخرج عليهن بديهة فصرن هائيات، تائهات، حائرات، مفتونات من رؤية يوسف عليه السلام، ذاهبات في حسنة وجماله وعشقه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتُهُهُ﴾: عظمته بعظمة الله، وهبنا منه لما رأين في وجهه نور هيبة الله، فذهلن في وجه يوسف عليه السلام، فسقطن عن التمكين والعقل، وفعلن أفعالاً مجهولة، بقوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وذلك من استغراقهن في عظمة الله وجلاله، وإنَّ الله سبحانه ما أراهن من وجه يوسف ما أراه لزليخا، فأوقعهن في نور العظمة والكبرياء، وجلال تجليه منه هن، وأرى نور حسنه وجماله لزليخا من وجه يوسف عليه السلام فبقيت في العشق، ورعوته، ونظافته، وبقيت في العظمة والجلال، لذلك قطعن أيديهن، ولم يشعرن بذلك، ولو رأت زليخا ما رأين ما استقامت في حالها وما راودته عن نفسه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: رأينه على صفة الملائكة المقدسين

(١) كلمة فارسية بمعنى: مائدة.

عن أن يوهم أحدًا لهم بالشهوة، أي: ليس هذا من أن يوهم أحدًا بالشهوة؛ فإنه مقدّس من علاننا؛ لأنّ عليه كسوة الملائكة من سواطع النور والبرهان الإلهي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةً أُسري بي إلى السماء، فرأيتُ يوسف عليه السلام، فقلت: يا جبريل عليه السلام مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف عليه السلام، قالوا: وكيف رأيته يا رسول الله؟ قال: كالقمر ليلة البدر»^(١).

وعن أبي فروة قال: كان يوسف عليه السلام إذا سار في أزقة مصر يُرى تلالو وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس والماء على الجدران.

قال وهب: بلغني أن تسعًا من الأربعين متن في ذلك المجلس وجدًا من يوسف عليه السلام.

يا صاحب العقل افهم؛ إن صويحبات يوسف عليه السلام لما رأين يوسف رأين كسوة الربوبية على محل العبودية، فوقعن من رؤيته فيها وقعت الملائكة من رؤية آدم حين سجدت له.

ولذلك قرئ في بعض القراءات: «ما هذا إلا مَلَكٌ كريم»، وهانها مقام التباس العارفين ومشاهدة المحبين، ولا قدح فيه؛ لأنهم مقدسون عن علة التشبه والحلول، تعالى الله عن المشابهة بالأرواح والأشباح.

وليس ما قال حسين بن منصور في هذا المقام إشارة إلى التشبيه؛ لأنه فني في التوحيد، أنشد وقال:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب، ثم بدا لخلقته ظاهرًا في صورة الأكل والشارب، ثم بدا لخلقته من خلقه بأنوار برهان قدرته وسنا شواهد لطفه صبغه، ويمكن أن زليخا كانت محل التمكين، وهنّ في محل التلوين؛ لذلك استقامت في رؤيته، ولم يحل أيضًا مما رأين من يوسف عليه السلام من النور والعظمة، لكن غلب عليها مقام مشاهدة الحسن والجمال، لبقائهما في مكان الابتلاء ارتفعت عنهن في رؤية يوسف عليه السلام الشهوة والبشرية؛ لغلبة أنوار العظمة والهبة، فلا جرم ما شعرن آلام قطع أيديهن، ولو قرض نملة زليخا لشعرت بذلك؛ لأنها في لطافة العشق؛ وما أطاقت من لطف حالها أن تحمل ألمًا غير ألم العشق، وهذا كمال في أنس المعشوق، ولا يعلم ذلك إلا ذو عشق كامل.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهَا مَكْنًا﴾: أجلستهن مجالس وطئه ليكون أبين لحركتهن في مشاهدة يوسف عليه السلام، وأسقط للملامة والتغيير عنها، وأظهر لما يبدو عليهن من نقاء يوسف عليه السلام.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾: شاهدن حسنًا خاليًا عن مواضع

الشهوة، مؤيداً بعصمة النبوة فأكبرنه.

وقال جعفر: سر هيبه النبوة عليهن مواضع إرادتهن منه، فأكبرنه.

قال أبو سعيد الخزاز: المأخوذ في حال المشاهدة غائباً عن حسنه، بائناً عن نفسه، لا يحس بما جرى عليه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرْتَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

قال ابن عطاء: دهشن في يوسف عليه السلام، وتحيرن حتى قطعن أيديهن، فهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق، فكيف بمن يأخذه مشاهدة من الحق، فلم ينكر عليه تغيير صفاته عليه، أو ينطق في الوقت على حد الغلبة برأى كغيرة.

وقيل في قوله: ﴿أُكْبِرْتَهُ﴾: لأنه كان مؤيداً بالعصمة، فشغلتهم هيبه العصمة، فلم تنظر إحداهن إليه نظر شهوة.

وقال سهل: ما هذا إلا ملكاً في أخلاقه، بشراً في صورته.

قال محمد بن علي: ما هذا باطلاً أن يدعى إلى المباشرة بل مثله يُكْرَم، ويُتَزَّه عن مواضع الشبهة والاعتراضات لكرم أخلاقه، ولطف سمائه.

قيل: إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء؛ إلا النظر إلى وجه يوسف، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشبِعُوا، ويزول عنهم الجوع، فلما رأت شأن النسوة وفناءهن عن عقولهن، صبرت حتى مر يوسف عليهن وأقفن، وشمّت بهن: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: أرادت أن يذقن ما ذاقن من حب يوسف عليه السلام، ويخرجن من ملامتها؛ لأن من لم يعرف طعم المحبة عزل أهلها:

فانظري واقظني لي تـري
حرقاً من لم يزد طرفاً منها فقد
والا نظر أهل الملامة نظر سرك، حيث كانوا محجوبين عن رؤية سبق المقادير، وإنّ العشق خارج عن حدود الاكتساب.

خليلي إني قلت بالعدل مرة
ومنذ علاني الحب مذهبي الجبر
وأنشد الحسين:

ما لامنّي فيك أحبابي وأعدائي
إلا بجهلهم من عظم يلوائي
تركتُ للناس دنياهم ودينهم
شغلي بحبك يا ديني ودنياي
أشعلتُ في كبدي نارين: واحدة
بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ إلا رأيتُ خيالاً منك في المائي
النار أبردُ من ثلجٍ على كعبدي والسيف ألينُ بي من هجر مولائي
قال النصر آبادي: طلب العذر في العشق من نقصان العشق، وإنَّما العشق الحقيقي ما
غلب على صاحبه وألهاه عن الاشتغال إلا بمحبوبه.
وقال بعضهم: لمتني فيه بغيتي لصرعتني.
وأنشد:

وكنْتُ إذا ما حدَّثَ الناسَ بالهوى ضحكْتُ وهم يبكون من حَسراتِ
فصرْتُ إلى ما قيل هذا مُتَيِّمٌ تلقَّيْتهم بالسُّوحِ والعَبَرَاتِ
فلما رأت زليخا عذر النسوة أرادت أن تعرفهن طهارة يوسف عليه السلام فقالت: ﴿وَلَقَدْ زَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَقْعَصَمَ﴾ أي: هو مقدِّسٌ عن جميع التهم، وباطنه أحسن من ظاهره؛ لأنَّ باطنه مطهر عن دنس الشهوة، وعلة البشرية، ومرادة النسوة والفحشاء، معصوم بأنوار النبوة والرسالة، وأرادت بذلك أن يرى أكبر مما يرى، ثم قالت: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: خوف يوسف عليه السلام من البلاء، وكيف يخاف من يكون في رؤية المبلي، مؤيداً بعناية أزلية، معصوماً عن معصية، وقولها في ذلك من استغراقها في الحب والعشق.

وقال بعضهم: ما كان يلحق يوسف عليه السلام من السجن والمحبة، إنَّما كان من ترادف البلاء على زليخا، وهيجان المحبة به.
فربَّما كان نصيب يوسف عليه السلام من أطراف بلائه شيئاً بالسجن والهَم، وغير ذلك وهذا من تمام المحبة وشدة البلاء:

أن أشارك المحبوب محبة في بلائه وأنشدت ليلى صاحبة مجنون
لم يكن المجنون في حاله إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وإنسي قد قدمتُ كتماناً
فلما رأى يوسف عليه السلام تملقهن ومكرهن واحتياهن في دعائهن يوسف عليه السلام إلى طاعة زليخا التجأ إلى الله، وتضرع بين يديه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: يا رب البلاء أحبُّ إليَّ من لذة الوقت، وشهوة النفس التي تحتجني عنك، وعن شهوة الروحاني، ورؤية آثار الربوبية.
وأيضاً: السجن أحبُّ إليَّ؛ لأن في السجن مقام الأنس، والخلوة، والمناجات، والمداناة،

والمشاهدات، والمواصلات، وإنِّي أختار رضاك وأوثر مرادك على حظ نفسي.

وفيه إشارة لطيفة: أي: السجن أحبُّ إلىَّ إذا كنت محبوساً لزليلها حتى يزيد عشقها على عشقها، ويكون عشقها عشقاً روحانياً، وعشقاً روحانياً، وتحرق بنيران عشقها علل الإنسانية، وشهوة البشرية، وإلا تصرف عني بعصمتك القديمة كيدهن في إظهار حسنهن أو جمالهن، وزيتتهن على، وتميل نفسي إليهن، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١): من المؤثرين حظوظ أنفسهم على حظ مشاهدتك وقربتك.

وأيضاً: من الجاهلين بأنفسهم.

وأيضاً: من الجاهلين بقدرتك على عقوبة الأسرار وضرب الحجاب بينها وبين الأنوار. قال الواسطي: منعك إياي عنهن بنزع القدرة عنى أحبُّ إلىَّ مما يدعوني إليه من طلب الحظوظ.

قال بعضهم: توهم يوسف عليه السلام أن السجن ينجيه من الفتنة، فأوقعه في الفتنة الكبرى، حتى قال لصاحب السجن: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

قال ابن عطاء: السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوني من الزنا، فالاختيار أفسد عليه أمره لعلمه لو ترك الاختيار لكان معصوماً من غير امتحان بالسجن، كما كان معصوماً في وقت المراودة.

وقال الجنيد: لما جاء بالافتقار لا بالمسألة في صرف كيد الباغين عنه، وأشفق من دخول الصبوة عليه التي لا مدفع إلا بتأييد العصمة، فأسعده الإجابة، ومنع كيد الشيطان وتسلفه، وأخرجه من البلاء بقبول حسن ما تقدم من الوعيد.

قيل: إن يدخل فيه ويمثل هذا يتعزى أهل المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي: مَنْ يعفو عَمَّنْ ظلمه.

وأيضاً: أي: من المشاهدين الملوكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت.

وأيضاً: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائبات القلوب.

وأيضاً: من العارفين بدقائق الأحوال، وحقائق الإجمال.

قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم.

وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر.

وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيثار.

(١) أي: من السفهاء بارتكاب ما يدعوني إليه، فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به. البحر المديد (٣/ ١٠٦).

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا.

وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك.

وقال الجنيّد: العارفين حقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أخبر سبحانه عن

كمال التوحيد يوسف عليه السلام، وتمكينه أسوة بآبائه من الأنبياء والرسل.

ومعنى قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ أي: أسألك طريق ما سلكوا إلى الله شوقاً إلى

وصاله، وعشقاً لجماله بأسرار نورانيه، وأرواح ملكوتية، وقلوب ربانية، ونيات صادقة،

وأنفاس مقدسة، ونفوس طاهرة، وحقول عالمة بأحكام إلهامه، وأسرار خطابه، وأعلام

ربوبيته، وآثار عبوديته.

انظر كيف أحسن الأدب؛ حيث ذكر الخليل عليه السلام أولاً، وذكر إسحق عليه السلام ثانياً، ثم ذكر

يعقوب عليه السلام؛ احتراماً وإكراماً لهم: أي: اتبعت الخليل عليه السلام في الخلّة، والمحبة، والحلم،

والسخاء، وإكرام الضيف، والرضا بالمقدور، والتسليم في الأمر، والحركة، والهيجان والبكاء،

والتلوة، وإفراد القدم عن الحدوث، حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا قُتِلْتُ كُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]،

والصدق واليقين، وطلب مشاهدة الحق في الآيات، وهو مقلّم الالتباس، بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُخَيِّ أَلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والإسلام، والانقياد، والخيفة السهلة، واتبعت ملة

إسحاق عليه السلام؛ حيث ألقى نفسه لأمر الله، وذبحه على باب ربوبيته، وقربان النفس عند سرادق

مجده، والانقياد عند أمر أبيه؛ حيث فعل بأمر الله ما فعل، واتبعت ملة يعقوب عليه السلام بالصبر

الجميل، والحزن الطويل، والبكاء على الدوام، وتحمل البلاء على التسرمد.

وافهم أن المتابعة وصف الخاصين من المريدين، ومن لم يتأدّب بآداب أهل الطريقة

والحقيقة لم يبلغ إلى درجات القوم.

ثم بيّن سبحانه قول يوسف عليه السلام أن ملة آبائه إفراء القدم عن الحدوث، وتجريد

التوحيد، وتطهير الإدراك عن الإشراك بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أي: لا ألتفت في طريق محبته إلى غيره.

ثم بين أن ذلك خارج عن اكتساب البشر، بل متعلق بسابق اختيار الله لهم واصطفائيته

هم في الأزل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾: أي: ما ذكرت من شأنهم، وما وهبني

الله من علم الغيب والحسن، والجمال من فضل الله علىّ وعلى آبائي، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾: أي:

نحن فضل الله على الناس؛ حيث أظهر شمائل جلاله منا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: لا يشكرون الله فيما أظهر لهم ممّا من دين الحقيقة، وأنوار الأزلية، وحسنه الأبدي.

قال أبو عثمان: إصلاح القلب والسر بمتابعة الصالحين، واعتقاد تعظيم الأبرار من جميع العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قال أبو عثمان المغربي: أسلم الطرق من الاغترار طريق الاقتداء والتقليد؛ لأنها طريق الأئمة الصالحين.

قال الله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

وقال الواسطي: رؤية الفضل حسن، ورؤية المفضل أحسن، ورؤية المفضل حسن، والفناء عن رؤيته أحسن.

وقال أبو علي الجوزجاني: أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمِنَّة والنعمة، لا تحت ظل عمله وسعيه.

ثم إن يوسف عليه السلام عرّف أهل السجن مكانته في التوحيد والرسالة، ودعاهم إلى ملة آبائه بقوله: ﴿يَتَصَنِّحِي السِّجْنُ وَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَتَّىٰ أَمَرَ اللَّهُ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ﴾ أعلمهم أن العدد والانقسام صفة الحدّثان؛ لا صفة الرحمن، وإنّ الرحمن واحدٌ منزّه عن الانقسام، وإذا كان منزّهاً عن العلة، يكون وصفه في ربوبيته القهر على عباده وخلقه؛ بأنه جعلهم تحت إمرته وعبادته، عاجزين عن العناد عن خدمته.

ثم بيّن أن معرفة الواحد القهار وعبادته، والإعراض عن الأغيار دينه المستقيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْدِّينُ الْقَنِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعرفون أن الحادث لا يكون قديماً، وأن القديم لا شريك له في عبودية عباده وربوبية أزيته في نصب أعلام آياته وشواهد ملكته.

قال أبو عثمان المغربي: قد يكشف للإنسان حال غيره، ويستتر عليه حال نفسه.

ألا ترى إلى يوسف عليه السلام قال لصاحب السجن: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَتَّىٰ أَمَرَ اللَّهُ﴾، ثم قال في ثاني الحال: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وحكي: أن رجلاً قال للفضيل بن عياض: عظمي، فقال: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟

قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: إِنَّ الله سبحانه وصف مكان امتحان صديقه يوسف عليه السلام؛ حيث أغان قلبه عين قهر نكرته حتى وقع في بحر النكرة، وامتنع عنه بوصف المعرفة، فلما احتجب عن مطالعة جلال القدم بامتناع القدم بقي في رسم الطبيعة، وعالم الصورة فسلك سبيل الأسباب، وكان ذلك أقل من لمحة، فلما طلعت على قلبه أنوار القدم، وأدركه فيض الكرم على مكان الامتحان، وعرف كيد الشيطان، فرجع عن ذكر الإنسان إلى ساحة الرحمن، وإذا أراد الله بالعبد العارف زيادة معرفته وقرته أوقعه لحظة في الغفلة عن الذكر، ثم بدا لقلبه نور التجلي، فيندم عن نسيانه ويسرع قلبه في طلب مزيد عرفانه، فيكون أقوى في طلب الحق من الأول، كانت غفلته عن الذكر تورث زيادة الذكر، ومن كان أقرب إلى الله فهو أخذه في زلته أسرع، وبلاؤه أوفر.

ألا ترى كيف جازاه بغفلة لحظة لبثه في السجن بضع سنين، ﴿فَلَيْسَ فِي السَّجْنِ بِضَعٌ سِنِينَ﴾، وإنَّ الله سبحانه أراد من لبث يوسف عليه السلام في السجن كمال تربيته في الخلوة، وبلوغه إلى أخص درجة الأنس بالله، وزيادة القوة في الوجد، وتمكينه في الصحو، ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف تحنث في غار حراء، وآتسه في الخلوة في أوائل النبوة.

ويحتمل أن قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عرفني له طريقي مع الله حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويوحد الله سبحانه، ويخلص من كيد الشيطان، ومن تابعه من الإنسان.

وقوله: ﴿فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: إِنَّ يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام: ﴿فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ في سابق حكمه على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فسيان يوسف عليه السلام احتجابه عن النظر إلى مقادير السابق، والله أعلم وأحكم.

قال الواسطي: احذروا أصول النفوس؛ لثلاث يكشف لكم عن مواضع العجز، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١).

(١) قال التسري (١/ ٢٣٥): حكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

وقال بعضهم: اذكرني عند ربك ليعلم أنه ليس إليه من الضر والنفع شيء، وإنه مدبر، وإن الأمور كلها إلى الله؛ لثلاثا يعتمد على غير الله، ولا يسكن إلى أحد سواه، يدل عليه قوله: ﴿فَأَنذَرْتُهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، حين قال لصاحبه: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال النصر آبادي: قدّم على ذكره ذكر الذي ذكر عنده، فأنساه الشيطان ذكر ربه حين قال لصاحبه في السجن: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال بعضهم: أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لمكانتهم عنده، وتجاوز عن سائر الخلق لقلّة مبالاته بهم في إضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

ألا تراه كيف يقول ليوسف عليه السلام بقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وجرى على سري أن الشيطان أنساه ذكر ربه؛ لا ربه أنساه الذكر، ولا أنساه المذكور، وكيف أنساه المذكور وشره مشاهد وجوده في جميع أنفاسه، فذكره هاهنا محل التوكل والرضا، وليس من سقط عن درجة التوكل، سقط عن رؤية الله، فإنّ التوكل من أسباب المقامات، والعارف يسري في الحالات، وليس أنه محجوبٌ عن حقيقة التوكل؛ فإنّ حقيقة التوكل العلم بوحداية الله، وغلبة قهره على كل ذرة، وحاشا الأنبياء محجوبون عن ذلك أبداً.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾: ساء الصديق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الأعمال.

قال أبو حفص: الصديق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره.

قال بعضهم: الصديق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزماً وزينةً وعقداً.

وقال بعضهم: الصديق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله.

قال ابن الفرحي: الصديق كأي بكر عليه السلام الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لما قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله»^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾: أخبر الله سبحانه أن يوسف عليه السلام لما دُعي من السجن لم يبادر سريعاً إلى الخروج حتى يفحص شأن النسوة، وزليخا حين قالت لسيدها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ بقوله: ﴿مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

انظر كيف كان أدبه ﷺ حيث لم يذكر زليخا، وذكر النسوة، وغرضه في ذلك زليخا، ولكن أخرج نفسه من محل التهمة باللطف والرمز فيه، كأنه قال للرسول: ﴿مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في وجهي، واستغراقهن في حبي، كأنه تكلم من ألم سره من آلام سرهن، وفيه ما فيه من لطائف الإشارات، وغرضه من تفحص إثبات الحجة على قومه، وبيان طهارته من علة الزنا حتى لا يشوش اعتقادهم في شأن نبوته ورسالته؛ لأنه ينظر إلى الخلق وجاههم، فإنه كان في عمل التمكين من التوكل والرضا؛ فقلوه: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: مظنة هذه المعاني لم أخنه في غيبته بنظر السوء إلى أهله.

وأيضاً: لم أخنه في غيب خاطري بميل سري إلى غير الله، وكيف أحزن، وهو تعالى لا يهدي الخائن إلى مراده؛ لأن من خان لا يظفر بما يريد، ولا يهدي من طبعه الخيانة إلى محبته ومعرفته ومشاهدته.

قال ابن عطاء: لم أخونه فيما يتمني من الأهل والمال.

وقال سهل: لم أنقص له عهداً ولم أكشف له سراً.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: بيان الشكر لما عصمت الله، ولما قال: إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ عارضه لسان الحق في السر فيها هم بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال أهل التفسير: لما قال يوسف ﷺ هذه المقالة قال له جبريل ﷺ: ولا حين همت بها؛ فلما سمع يوسف ﷺ أصوات الغيب بتغيير سره أدرك ما فاتته من غيبته عن مراعاته النفس، ولزم لسانها بالدعاوي واعتذر بقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، مقالة الأولى من يوسف ﷺ خبر عن بدايته في وقوعه في البلاء، وهناك جبلة النبوة المقدسة عن التهمة، وما جرت في البين هو لطيفة الله من قهره وامتحانه، وغلبه قدره السابق على رسوم الأمر، وما ذكر في العذر خبر من تلك اللطيفة.

وافهم: إن سرّ قوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، إن هذه النفس ليست لشيطان، ولا قلب، ولا ملك، ولا عقل، ولا شيء له أعين تبين لأحد، فبعضهم يسمي النفس الهوى، وبعضهم يسمي النفس الطبيعة والبشرية، وميلها إلى الشهوة يسمي النفس، وهذه الأقوال هي صورة رسوم العلم وحقيقتها، والله أعلم.

إنما هي وجود قهر القدم يظهر فغلته في الفعل، ويحرك طباع الإنسانية المستعدة المخلوقة لقبول ما يصدر من القهريات مما يؤول أو آخره إلى سخط الله، وامتحانه، وحجابه،

فالقوم حكموا بما صدر من القهر أنه نفس، وأنا أرجع إلى الأصل؛ لأن القهر صفة دائمة أزلية محركة طباع البشر إلى طلب الشهوات، ولا يطبق أحد أن يخرج من تحته إلا بلطف الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾؛ لأنه صفة غالبية على جميع الذرات، وهو صفة الله سبحانه، وهو نفس النفس؛ لأن ذاته تعالى موصوف بصفة القهر، وإن قهره حار جميع الحدثنان تحت غلبته، ومن يدعي أن يبعد نفسه من سلطان قهره بقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾: أي: ما أبرئ نفسي من غلبه قهر الله عليها، وأنها مقهورة بين يديه.

وأيضاً: ما أبرئ نفس النفس عن القهر والغلبة، فإن نفس النفس أمانة إلى ما يقتضي القهر، وما يقتضي القهر يقتضي الامتحان، وما يقتضي الامتحان يقتضي الملامة في رسوم العلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾: أي: إلا من عصمه الحق بلطفه عن قهره، وأشار بهذا إلى وجوده حين عصمت بلطفه عن قهره.

وقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾: إثبات ما جرى من الهمة: أي: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ من الهمة التي همت بها، وهذا محل من عرف سر القهر، وسر الخطاب، وسر الامتحان، وسر النفس، وغلبة الربوبية بقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(١).

ولما عرف حقائق النفس ﷺ استعاذ منها إلى الأصل، وقال: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك»^(٢)، وأعلمنا ﷺ أنه تعالى نفس النفوس بقوله: «أعوذُ بك منك»^(٣).

ومن أراد أن تبرأ نفسه فقد نازع الربوبية، فإن النفس أصل القدر السابق على ما جرى من البلاء والامتحان.

ألا ترى إلى قول الواسطي كيف قال: من لام نفسه؛ فقد أشرك. وقال أيضاً: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفساً من نفسه؛ فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك؛ لأنه أضاف إلى نفسه ما لم يكن منه قط.

قال ابن عطاء: وما أبرئ نفسي بنفسي إنما أبرئ نفسي بربي. قال أبو حفص: مَنْ لَمْ يَتَّهَمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، وَلَمْ يَخَالِفْهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٨).

(٢) تقدم تحريجه.

(٣) تقدم تحريجه.

يجرها إلى مكروهاها ومخافتها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل رضي نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾: تحملك على الطاعة وتضمير فيها شرًا.

وقال سهل: خلق الله النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء منها، وجعل الهوى الباب الذي منه هلاك الخلق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾: هي نفس الروح، والروح هو نفس الجسد.

وقال سهل: النفس الأمارة هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة. وقال أبو حفص: النفس ظلمة كلها، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه توفيق في سره من ربه كانت ظلمة كلها.

وقال سهل: ﴿إِنَّ أَلْفَسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾ موضع الطبع، ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ موضع العصمة.

وقال الواسطي: النفس ظلمة، وسراجها سرها، فمن يكن له فهم في ظلمة أبدًا. وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي﴾: بيان العذر لما قصر في أمر الله، فاستوجب واستحق بعذره العفو والغفران، فلما ثبت الحجة والسلطان، وظهر قدسه وطهارته من علل الشيطان طمع الملك في أن يراه ويعظمه بقوله: ﴿وَقَالَ أَلَمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِمْ أَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أستخلصه لموعظة نفسي ليعرفني طريق نجاة نفسي من عذاب الله. وأيضًا: أستخلصه بخالص محبتي له ليعرف خالص محبة الله، وخصائص صفة ربييته.

وأيضًا: أستخلصه لنفسي حتى أفش عنده ما في نفسي من أسراري. قال ابن عطاء: كيف يستخلصه لنفسه وقد استخلصه الحق من قبل فهو لديه من المخلصين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾: أخبره عما في ضمائره من أسرار الغيب، وما في غيب الغيب، وما يتعلق، وما في حياة القلوب، وما كان من وصف الله وصف الطريق إليه بلسان فصيح، ووجه صبيح الذي يبرز نور الحق منه للعالمين: ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: أنت بما تخبر من الحق وأسراره متمكن أمين فيما أودع الله في سرك من النبوة والرسالة

والولاية؛ حيث يشهد بصدقك جمالك وجلالك، فإنَّ معنى الباطن يظهر من ظاهره، أنت عندنا ذا مكانة وذا أمانة، فاحكم بنا ما شئت، فإنِّي لا أؤثر على أمرك شيئاً.

قال بعضهم: أي شاهد صدق يخبر عن صدق، فغلبه عز الصدق، ورؤية صديقه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقال الشبلي: فلما كلمه أخبر يوسف عليه السلام عما في قلبه من كوامن سره، فقال: إنك متمكن في نفسك أمين؛ حيث اطلعت على الأسرار، فلما رأى الملك آيات الله في بلاد الله وعباده آمن بيوسف عليه السلام أجله وأكرمه وأعزه، واختاره على جميع الخلق، فعلم يوسف عليه السلام أن ما عرف الملك في جنب ما لم يعرفه منه أقل القليل، فأظهر ما وهبه الله له من علمه بالله وبطريقه، وحفظ حدوده في شريعته وشفقته على خلقه، فقال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أخبر الله يوسف عليه السلام الملك أيضاً عن مقام تمكنه، وقدرته بالتصرف في الملك الدنيا؛ ألا يتحجب في تصرفها عن مشاهدة الله وملك الآخرة، وليس كل من ينصرف في الدنيا متمكن إلا من كان على وصف يوسف عليه السلام، ووصف يوسف عليه السلام حفظ الأنفاس بالذكر، وحفظ القلب بالفكر، حفظ أنفاسه عن الوسواس، وحفظ قلبه وفكره عن ذكر غير الله، عليم بذات الله وصفاته وآياته وعبادته.

وأيضاً: إني حفيظ بنور تفرس نبوتي ما يقع من أمور المقادير عليهم بعلم الله ما يجري في القلوب من الغيوب، وخزائن الأرض في الإشارة لقلوب الرياضين من الأولياء والصديقين.

قال الواسطي: مدح النفس قبيح في الشاهد إلا في وقت الإذن فيه، وله حينٌ وأوانٌ، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقال بعضهم: خزائن الأرض رجالها.

فقال: اجعلني عليهم أميناً، فإنِّي حفيظ لما يظهره، مكشوف لي ما يضمرونه، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقال أبو سعيد الخزاز: إن الله عبادة يدخل عليهم الخلل، ولولا ذاك فسدوا وتعطلوا، وذاك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول الذي لم ينصه كتاب، ولا جاء به خبر، لكن العقلاء العارفون محتججون له من الكتاب والسنة، وذلك بحسن استنباطهم،

(١) لأن الحفظ والعلم كان محتاجاً إليهما إما الحفظ، فلأجل ما في خزانة الملك وإما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخروج، تفسير حقي (١٠/ ١٣٩).

وفهمهم، وهو كقول يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

ثم بيّن سبحانه تمكين يوسف ﷺ ومكانته واستقلاله بنفسه في مقام الرسالة والنبوة بقوله: ﴿وَوَكَّلْنَاكَ مَكْنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾: الإشارة فيه ملك بحسنه وجماله ولطفه وكماله أرض قلوب الخلق عبدة وهيبة، تجلس عبته حيث شاءت في صميم فؤاد الناس، بقوله: ﴿يَتَّبِعُوا مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، أضاف مكانة يوسف ﷺ إلى نفسه، لا إلى سبب من أسباب الحدثان، وذلك إشارة إلى سبق العناية له بالرسالة، وكسائه كسوة جماله وجلاله.

ثم بيّن أن ذلك رحمته الأزلية التي خص بها من يشاء من عباده: ﴿ثُمَّ صَبَبَ بِرَحْمَتِنَا مَنْ لُشَاءُ﴾: رحمته كشف مشاهدته للأنبياء الأولياء، وتعريف نفسه بكشف الصفات لهم إياهم حتى عرفوه به، وسهل عليهم طريق عرفانه حيث رفع بينه وبينهم علل المجاهدات والرياضات.

وذلك منة عظيمة، ورحمة كافية إذ كشف عِزَّةَ السَّرْمَدِيَّةِ لِلأدَمِيِّينَ، وما مال بأنهم لا يستحقون شهودهم مشاهدته، وأنى لهم مع حدوديتهم البقاء مع القديم الأزلي الأبدي، ويتلشى الأكوان والحدثان في الأول بديهة سطوات عزته وظهور مجد جلاله، ولكن تجاوز عنهم وعن حدوديتهم برحمته، وأراهم ما لم يكن لغيرهم من المكرويين والروحانيين؛ لأنه تعالى اختارهم في الأزل لنفسه ولوصاله، وكشف جماله، ووضع أسرارهم في قلوبهم، أي: بلوغ يوسف ﷺ إلى هذه المراتب السنية الرفيعة، ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ بعنايتنا وكرمنا.

هذا مكان العناية التي انقطع عندها الأسباب، ثم بيّن أنه مع جلاله ولطفه لا يضيع أجر العاملين الذين سلكوا سبيل الأعمال؛ فيصلوا إلى درجة الأحوال بقوله: ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أجر أهل الإحسان كشف الجمال مشاهدة الرحمن، وإحسانهم طلب طلوع صبح الأزل من مشارق الأبد بعيون الأرواح، ودوران بصائر الأسرار.

ألا ترى إلى قوله ﷺ في جوابه السائل عن الإحسان، قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»^(١).

فإحسان يوسف ﷺ مراقبة الله في بلائه، وذلك الإحسان والمراقبة من عصمة الله ورحمته؛ لأن العصمة مقرونة بالاصطفائية، وكيف كان معصوماً من لم يسبق له الاصطفائية في الأزل، وأيضاً إحسان يوسف ﷺ العفو والكرم للخاطئين، وتعريف الله بوصفه وصفاته إلى عباده ليحبوه ويطيعوه، وأيضاً إحسان يوسف ﷺ كشف جماله لأهل البلاء والقحط حتى

عاشوا بالنظر إلى وجهه.

قال الواسطي في قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾: مَنْ لم يفصل بين أول هذه الآية وآخرها التبست عليه آيات القرآن، وأشكلت أوله للعلماء وآخره للجهال به.

ألا ترى إلى قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبرحمته استوجب اسم الإحسان، وبرحمته عرف الهداية والبيان، وبرحمته أشار إلى غوامض القرآن، قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

وقال ابن عطاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ بفضلنا يهدي من يشاء إلى سبيل المعرفة. وقال بعضهم: المحسن من يرى جميع ما يجري عليه من الإحسان منه من الحق عليه.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِحَازِئِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَىٰ أَلْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا نَّكَتِلَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفِظُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ نكرة الإخوة كانت في رؤية يوسف عليه السلام من سبب اختفاء تحلي الحق عن عيونهم في وجه يوسف؛ فلا يرونه ولا يرون ذلك النور والتجلي، كما رأوه قبل الجناية، فغطى الله عيونهم بنكرة الجفاء عن رؤية تلك الأنوار، فلما لم يروا ذلك جهلوه.

قال بعضهم: جهلوه لما تقدم من جفوتهم له؛ فأحوجهم الله إليه.

وقال الأستاذ: يقال: لما جفوه صار جفاؤهم حجاً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك المعاصي بخطابه وزلته يقع غيره على وجه معرفته.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ أي: يوسف عليه السلام في قلب يعقوب عليه السلام بعض التفاته إلى الوسائط، وأراد أن يصل الشيخ إلى أفراد القدم عن الحدوث بشرط تجريد سره عن الحدوث في جمال الرحمن من شفقتة على يعقوب عليه السلام لتخرجه بالتلطف عن الكون حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء خيار الحدوث؛ فتلطف في سلب بنيامين عنه.

وذلك من علمه بغيره الله سبحانه على يعقوب عليه السلام حيث رفع محبوه من بينه؛ فخاف

عليه أن يهلك بنيامين بين يديه ويزيد داؤه على دائه، ولولا ذلك لما قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِمْ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ بأن ليس من دأب الفتيان طلب العرض بالإحسان، والإشارة فيه أن من لم يأت في طريق محبة الله بالوفاء على عهد المعرفة ضاقت عليه طرق وصاله.

قال بعضهم: من خالف مراد سيده فيه ضيق الله عليه رزقه وحرمه مقام القرية بحال وأصل ذلك قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِمْ﴾ الآية.

وقال الأستاذ: المحبة لما كان غيور ليعقوب عليه السلام ليسلي عن يوسف عليه السلام برؤية بنيامين أبت المحبة إلا أن يظهر سلطانها بالكمال؛ فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب عليه السلام بعين يوسف عليه السلام.

﴿قَالَ هَلْ ءَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَفِظْنَا وَهُوَ أَزْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَفِظْنَا وَهُوَ أَزْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ رأى يعقوب عليه السلام في مرآة البلاء أن بنيامين يعتزل عنه بغير اختياره؛ فرجع من الأسباب إلى مسبب الأسباب، وطلب منه الحفظ والعناية والرعاية لا من الخلق، والإشارة في قوله: ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَفِظْنَا﴾ أي: من حفظه أن يرد عليه يوسف عليه السلام من بنيامين، أي: هو تعالى يحفظها جميعاً، وذلك قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ أَزْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ برحمته أن يشغني ربح يوسف عليه السلام، ويرقر عيني بالنظر إلى وجهه، ثم بعد ذلك يتجاوز عن التفات في محبة إلى غيره ويريني جماله وجلاله تعالى.

قال بعضهم: قال يعقوب عليه السلام: جربت حفظكم في واحد حين قلت: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ اعتمدت عليكم في يوسف عليه السلام، ولم أرجع فيه وفي حفظه إلى الله؛ فلقيت فيه ما لقيت، وإني في هذا أرجع إلى ربي ألا أعتمد حفظكم له ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَفِظْنَا﴾ لما استحفظه ربه رد عليه الأول والثاني.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا مَا نَبِيْهُ هَٰذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدُكَ دَكِيلٌ بَعِيرٌ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَّسِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ قيل: متاعهم ظاهر الكرم، ورد إليهم باطنًا لثلا يشق عليهم أثقال المنة ما وجدوا ليوسف عليه السلام لمتاعهم في خزائنه موضعًا لا يليق إلا بالفقراء والمساكين؛ فرد إليهم لثلا يزاحم بغناه على الفقراء

بالمواكلة معهم، وأنى يفعل الغني ببال الفقراء لم ير نفسه أهلاً في ملكه أن يأكل طعام الفقراء، وفيه ما فيه من الإشارة إلى أن ما وجد الأولون والآخرين من معرفة الله وتوحيده ومحبه وعبوديته في جنب ما يمدون منه يوم الكشف الأعظم أقل من كل شيء؛ فيرد بكبريائه ما يليق بالحدثان على الحدثان، لأنه تعالى يقدمه وجلاله منزه عن أن يدركه أحد من خلقه، وأن يطلع على أسرار ذاته وصفاته أحد من عباده يرد متاع العبودية على الخلق؛ لأنها لا يليق بربوبيته فيغنيهم بها له عما لهم.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لن ينج أحد منكم عمله»، قالوا: يا رسول الله، ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»^(١).

قال بعضهم: إن أعمال الخلق كلها مردودة عليهم؛ فإنهم إنما عملوها بأنفسهم، قال تعالى: «وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ» وأن الذي يلحقهم من الكرامات من جهة التفضل لا من جهة الجزاء.

«قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ»^(٢) وقال يَسْبِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاجِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أُبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُم إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ»^(٣) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبُ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوْعٌ عَلِيمٌ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(٤).

قوله تعالى: «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» رأى يعقوب ﷺ نية بنه صداقة في شأن بنيامين بأنهم يتحفظونه، ويأتون به إلى يعقوب ﷺ، ورأى يعقوب ﷺ بنور النبوة ما يقع في المستقبل؛ فتعرف عجزهم عن دفع القدر؛ فقال الله: «عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» أي: ليس على مرادي ومرادكم بل يفعل كما يريد، وهو قادر بحفظه وإرجاعه إليّ.

قال بعضهم: ما اعتمد منهم الميثاق لما سبق منهم إليه قبل ذلك؛ فلم أن موثيقهم وحفظهم معلولة فقال: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا»، وقال: «اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» هو الذي يحفظ قلوبكم، ولا يحلكم إلى آراءكم وأهوائكم، ثم عرفهم أسباب العلم والعقل، واستعماها لتوقعه أن تتجاوز الأقدار عنهم بناقض من الحق، من قدر سبق الأقدار.

(١) رواه البخاري (٢٨١٦)، ومسلم (٥٣٤٩).

ألا ترى إلى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يراقب من إثبات القدر ومحوه؛ فقال الله تعالى: ﴿يَسْبِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف من عين غيرة القدم على مقدور القدم؛ فينتظر عليه سبق الرضا على السخط بقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

فاستدرك بعد استعمال العلم صرف التوحيد؛ فقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: تدبيري وعلمي وعقلي وحذري لا تدفع سابق القدر؛ فأرضى بها هو كائن منه تصديق ذلك قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ إِلَّا إِلَهُ﴾ ما يريد يكون كما أراد، ثم برئ من حوله وقوته بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وحقيقة التوكل رفع التدبير عند رؤية التقدير.

وفي الآية إشارة كان سر يعقوب عليه السلام أشار إلى بنيه أي: إذا عزمتم بقلوبكم وأرواحكم وعقولكم وأسراركم سلوك سبيل الحق لا تدخلوا فيه بسبيل واحد بل ادخلوا عليه بسبيل الصفات لتعرفوا حقائقها وتعرفوا بحقائقها عين الذات؛ فإن من عرفه بصفة واحدة لم يعرفه بها استحققه من أوصاف القدم وصفات الأزل.

قال جعفر في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾: نسي يعقوب عليه السلام اعتماده على العصبية والقوة، وأن القضاء يغلب التدبير بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، ثم استدرك عن قريب وساعده التوفيق، وقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال ابن عطاء: كيف يرد عن غيره من لا يرد عن نفسه، وكيف يقوم بكفاية الغير من هو عاجز عن سياسته.

وقال الحسين: صدق التوكل استعمال السبب مع ترك الاختيار قال الله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ...﴾ الآية.

وقال الواسطي: التوكل الصبر بطوارق المحن.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ يحتمل أن يكون أراد بتفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف عليه السلام إن لم يره الآخر قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَدُوْهُمْ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بيّن الله سبحانه أن ما أوصى يعقوب عليه السلام لبنيه قهر نظر نوري أبصر به كينونة القدر؛ فاستقبله به لا بنفسه، وكان عالماً بها رأى بأمور استعمال الشريعة والغفل

واسترسال نفسه إلى الحق بنعت الانتقاد والعجز في قدراته وتقديره، وصفه بأنه ذو علم وأن علمه غير مكتسب ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ كان علمه لدنيا بلا واسطة علمه بنفسه كما وصف الخضر عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

والعلم اللدني على نوعين الأول: ظاهر الغيب، والثاني: باطن الغيب؛ فظاهر الغيب علم دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفراسات، وهاهنا للعقل والقلب مجال وباطن الغيب على أربعة أقسام:

الأول: علم باطن الأفعال وذلك حكمة المعرفة.

والثاني: علم الصفات وذلك المعرفة الخاصة.

والثالث: علم الذات وذلك التوحيد والتجريد والتفريد.

والرابع: علم أسرار القدم وذلك علم الفناء والبقاء.

وهناك تبرز أنوار الأقدار للأسرار فعند علم بطون الأفعال، وكشف الصفات للروح مجال، وعند علم الذات للسر مجال، وعند علم أسرار القدم لسر السر مجال، أما تولد علم دقائق المعاملات؛ فالصفاء والرقّة، وأما ما تولد علم المقامات؛ فصحة الإرادة ولذة المحبة، وأما تولد علم الحالات؛ فالشوق والعشق، وأما تولد علم الكرامات والفراسات؛ فطمأنينة النفس الأتامة بالذكر وسكون القلب بنور اليقين، وأما تولد علم بطون الأفعال؛ فالخيرة في القدر ومباشرة لطائف الألفة، وأما تولد علم الصفات؛ فالإنس والجن بالجمال والوله في الجلال، وأما تولد علم الذات؛ فالمحو في الأزل والصحو في الأبد، وأما تولد علم أسرار القدم؛ فالوقوف على العلم المجهول والحكمة المجهولة، ويقتضيان ذلك حالتين حالة السكر، وحالة الصحو؛ فالسكر يقتضي لذلك العالم إفشاء السر بلسان العلم المجهول، وذلك غلبة نطق الأزلية والصحو يقتضي الخرس والكتمان عن إفشاء السر، وجميع ما ذكرنا يتعلق بشيئين بالمكاشفة والمشاهدة؛ فإذا بدا للعالم العارف لوائح أوائل الكشوف ولوامع الشهود في المشهود يقف سره على موارد الصفات، وسر سره على موارد الذات؛ فيعرف السر من كل صفة طريقاً خاصاً من الحق إلى الحق، ويذوق طعماً منها غير طعم صفة أخرى في رؤيتها، ويعرف سر السر من رؤية الذات طريقاً من الذات إلى الذات، وذوقاً خاصاً خارجاً عن ذوق الصفات؛ فبقي العالم العارف مع معلومه ومعروفه بخلق الربوبية حتى صار ربانياً صمدانياً جلالياً جالياً أبدياً، قال الله: ﴿كُونُوا رَبَّيِّنِينَ﴾.

قال بعضهم: العلوم خمسة علم يصلح لكسب الدنيا، وعلم يصلح لخدمة السلاطين، وعلم يصلح لكسبه الرياء والزينة، وعلم يصلح للعبادة والمجاهدة، وعلم يصلح لكسب

الحرية والانقطاع، وهو أجل العلوم.

وقال يوسف بن الحسين: أجل العلوم ما أخذها العبد من الحق بغير واسطة لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوْهُ عَلِمَ لَمَّا عَلِمْتَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَهُ مِمَّن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ لكن فيها اغترارات وأخطار.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتُهَا الْعِمرَانُكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِم مَّا ذَا تَقْضُونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٦٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ لِنَفْسِكُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ خاف يوسف عليه السلام بنيامين من معرفته على قلقه وشوقه إلى يوسف عليه السلام لو أن يعرف يوسف عليه السلام بغتة هلك؛ فأواه إليه ليعرفه الحال بالتدريج حتى يحتمل أثقال السرور برؤية يوسف عليه السلام؛ وأيضاً رأى وحشة حيث بقي وحيداً بلا يوسف عليه السلام بين الإخوة فأنسه بقربه؛ وذلك من احتمال بنيامين عذاب الفراق وألم البعد، ولو كانوا كبنيامين لأواهم إليه جميعاً، ولكن الكشف والمشاهدة على قدر ألم المحبة والشوق.

قال الأستاذ: حديث المحبة أقسام اشتاق يعقوب عليه السلام إلى لقاء يوسف عليه السلام؛ فبقي في الأحزان سنين كثيرة، واشتاق يوسف عليه السلام إلى بنيامين؛ ففرزق رؤيته في أوجز مدة، هكذا الأمر، فمنهم مرفوق به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال: لئن سجن عَيْن يعقوب بمفارقة بنيامين، فلقد قرَّ عَيْن يوسف بلقائه؛ كذا الأمر لا يغرب الشمس عن قوم إلا تطلع على آخرين؛ فلما ذاق يوسف وبنيامين طعم الوصال بدوام الوصال، وتلطف في أمر بقاءه عنده بما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ إن الله سبحانه بفضلها ولطفه أجرى على يوسف بعض ما أجرى على إخوته في أخذ بنيامين، ونسب السرقة إليهم جميعاً ليتخفف على الإخوة أثقال الجفوة السالفة منهم على يوسف مادام نسبهم إلى السرقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل يوسف شريكاً مع إخوته في إبلائهم بإيهم، حيث أخذ بنيامين عنه، ونسبه إلى السرقة ليكونوا جميعاً في الجرم سواء، ويحتمل أن من كرمه فعل ذلك

لثلاثا ينجلوا فيه بين يديه حيث جعل نفسه معهم شريكاً فيها جرى عليهم وطاب قلب بنيامين برؤية يوسف ووصاله؛ فاحتمل الملامة، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاء العالم عمودة بملامة رؤية المعشوق، وكيف يؤثر الملامة؛ فيمن كان في وصال محبوبه.

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَؤُلَاءِ لَذِيذَةً حُبًّا لِدُكْرِكَ فَلَيْتُ مَنِي اللَّوْمِ
وفي الآية إشارة لذيفة أن من اصطفاه الله في الأزل بمحبته ومعرفته ومشاهدته، حيث خاطب الأرواح والأشباح، وضع في محمله ضاع ملامة الثقلين.

ألا ترى إلى ما فعل آدم صفيه ﷺ اصطفاه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ ثم عرض الملامة؛ فحملة بقوله: ﴿فَأَبَيْنَا أَنْ نَحْمِلَهَا مِنْهَا وَاشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ ثم هيج شهوته إلى حبة الخطئة حتى أكلها، ونادى عليه بلسان الأذلي: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ ذلك من غاية حبه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أن كشف جماله لا يحتمل بلاء الملامة كما فعل يوسف ﷺ بنيامين آواه إليه وكشف جماله له وخاطبه، ثم نادى عليه بالسرقة ليقية معه، والإشارة في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْعِزُّ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ أي: سرقتم أمانة المعرفة، وحقائق الأخوة بيني وبينكم حين فعلتم ما فعلتم بأبيكم وأخيك.

قال جعفر في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ أضمر يوسف في أمره متاديه إياهم بالسرقة ما كان منهم في قصته مع أبيهم أن فعلكم الذي فعلتم مع أبيكم يشبه فعل السارق.
وقيل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ لعاقون لأبيكم في أمر أخيك؛ حيث أخذتموه منه وختتموه فيه.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: من سرق قلبه عن ربه، نودي يوم القيامة: ويا سارق، وكل سارق عليه القطع، ومن لم يكن للوصال أهلاً؛ فكل إحسانه ذنوب.
قال الأستاذ: احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعد ما بقي مع يوسف.
ويقال: ما نسب إليه من سوء الأفعال هان غلبه في جنب ما وجد من الوصال.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِنْ نِشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۖ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أَلْفَيْزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَنَازِلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾
قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إن الله سبحانه إذا خص نبياً أو ولياً ألبسه

صفاته بتدرج الحال، ففي كل حالة له كسائه نورًا من صفته، فمن جملة صفته كيد الأزل ومكر الأبد؛ فكيف علم كيده قلب يوسف حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي؛ فعرفه تعالى أسرار لطيف صنائعه وعظيم حقائق أفعاله وقدرته؛ فمعنى كدنا ليوسف ﷺ عرفناه مصالحي أمور النبوة والولاية بتأثير كشف الذات والصفات.

قال ابن عطاء: أبليناه بأنواع البلاء حتى أوصلناه إلى محل العز والشرف.

وقال جعفر: أظهرنا عليه بركات آباء الصادقين بما عصمناه به في وقت الهم.

وقوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بَيَّنَّ سبحانه أن مالم يوسف ﷺ وفعل من الألوهية ورؤية كشف مشاهدة الأزل يختص بدرجة كشف جماله أهل محبته وشوقه، ويرفع درجات عارفيه وموحديه بحيث عرفهم ذاته وصفاته يرفع درجة الموحدين والعارفين من مقام العبودية إلى مقام الربوبية، بأن يكسيهم أنوار جوده وجوده؛ ليعلموا من رؤية كل صفة علمًا فوق علم، ومن رؤية الذات علمًا فوق علم الصفات، كما أن ذاته وصفاته لا نهاية لها، فأيضًا علومهما لا نهاية لها؛ فيشرب أطيار أرواح القدسية من بحر قدس قدمه زلال حيوته وعلومه الأزلية الأبدية على مقادير حواصلها؛ فيأتي كل واحد منها من تلك البحار بغريب علم صفاته وجواهر حكم بحار ذاته.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فعلم المريد فوق علم المبتدئ، وعلم المحب فوق علم المريد، وعلم العارف فوق علم المحب، وعلم الموحد فوق علم العارف، ووراء علومهم علم المجهول لا يأتي به إلا الثاني في ذاته الباقي في صفاته.

قيل في قوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ﴾ بالعلم والاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوحيد، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بمعرفة مكائيد النفس، وقيل: بالعصمة والتوفيق.

وقال الجنيد: بإسقاط الكونين عنه، ورفعهم عن الالتفات إلى المقام والأحوال ليكون خالصًا بالعلة.

وقال الحسين: فضيلة أرباب الحقائق إسقاط العظمتين، وعو الملكوت في الحالتين، وإبطال الخيرين، ونفي الشركة في الوقتين الأزل والأبد، والتفرد بالحق بنفي ما سواه، ورؤية الحق والسماع منه، وذلك قوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف؛ فيسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا.

وقيل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لأن علوم الخلق محدودة معلومات إلى أن

يبلغ العلم إلى عالم السر والخفيات.

وقال ابن الفرجي: العلوم تتقارب على مقدار الطبائع والتعليم إلى أن ترى مَنْ يتلقف العلم من الحق وورق العلم اللدني؛ فذلك الذي لا عالم فوقه من الخلق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فنسبوا السرقة إلى يوسف عليه السلام لكن فرق بين السرقة والسارق؛ فسرقت بعضهم قماشة الظاهر ويوسف عليه السلام سرق بنرجس عينه المخمور به وورد خذه المصبوغ بصبغ الله قلوب العالمين، لكن شتان بين سارق وسارق صدقوا في نسبة يوسف عليه السلام إلى السرقة، ولكن لم يعرفوا مسروقه لباب الفؤاد بالمحبة وصميم الأسرار بالشوق والعشق والألفة. أنشد الشيلي:

لَهَا فِي طَرَفِهَا لَحَظَاتُ سَحَرٍ ثُمِّيْتُ بِهَا وَتُحْيِي مَنْ تَرِيدُ
وَتَسْبِي الْعَالَمِينَ بِمَقْلَتِهَا كَأَنَّ الْعَالَمِينَ لَهَا عَبِيدُ

مفهوم خطاب الآية بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل أن بقايا النفوس باقية في قلوبهم في حقد الطبيعة بما بدت من أفواههم ظاهر، وانظر إلى تمكن يوسف عليه السلام وأناته، حيث لا يجازيهم، ولا يظهر عليهم الجواب مع علمه بأنه مأخوذ بجزاء قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾، وهكذا شأن المعصومين عن الجرائم يؤذيهم الله عند كل فلتة من ألستهم، ومن حكمة الله سبحانه أنه أعزا يوسف عليه السلام إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ حتى يكون شريكاً لهم فيها بدا منهم له.

وقال الأستاذ: كان بنيامين بريء مما رمي به من السرقة؛ فأنطقهم الله حتى رموا يوسف عليه السلام بالسرقة واحداً بواحد ليعلم العالمون أن الجزء واجب.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (١٢١) فَلَمَّا اسْتَشْفَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِى أَوْ يَخْتَصِمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٢٢) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بِأَنَّا إِنَّا بَرَأْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ (١٢٣) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ﴾ إشارة الآية من الحق سبحانه بالأنا نتخذ بمحبته واصطفائيته ومعرفته وخلته وعشقه وشوقه، إلا من أودع

روحه في بدء الأمر أمانته من ودائع أسرار ملكوته وجبروته في غيب الأزل، وأيضاً أي نحن لا نفشي أسرارنا إلا لمن كان في قلبه استعداد قبول معرفتنا، وأيضاً لا يختار لكشف جمالي إلا من كان قلبه في شوق إلى وصالي.

قال بعض الخراسانيين: الإشارة فيه: إنا لا نأخذ من عبادنا أشد أخذاً ممن ادعى فينا أو اخبر عنا بما لم يكن له الإخبار عنه، إلا من مدّ يده إلى ما لنا وادّعاء لنفسه.

وقال أبو عثمان: لا نتخذ من عبادنا ولياً إلا من ائتمناه على ودائعنا؛ فحفظها ولم يخن فيها، ولطيفة الواقعة مثل الحبيب إلى الحبيب، ومكر الحبيب للحبيب حتى لا مفارق الحبيب عن الحبيب يتعلل بكل علة حتى يسلب حبيبه، وهيهات من مفارق بين الحبيين في محل الوصال فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أن تأخذ مكان حبيبي بديلاً، فليس في مذهب المحبة أخذ بديل الحبيب، وفي معناه أنشدوا:

أبى القلبُ إلا حُبَّ ليلي وبغضت إلي نساء ما هنَّ ذُنُوبُ

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَيْتَكَ سَرْقٌ﴾ انظر كيف فعل بإسرائيل عليه السلام سلب منه فاكهتي قلبه، ثم نادى عليهما بالبيع والسرقة والفرقة والعزلة ليزيد عليه بلاؤه في محبته قالوا: ﴿إِنْ أَتَيْتَكَ سَرْقٌ﴾ نسبوه إلى سرقة الصاع، ونادى لسان القدر على أن بنيامين سرق يوسف عليه السلام من بينهم وهموا فيما نسبوا إليه، وسبب ذلك أنهم كانوا في زمان البلاء، ومن كان في زمان بلائه يعرف طريق المخرج، وكل الفعل يكون عليه لا له.

قال جعفر: كيف يجوز هذه اللفظة على نبي ابن نبي، وهذا من مشكلات القرآن، ومثله في قضية داود عليه السلام ﴿حَصَمَانِ بَغَى بَعْضُهَا﴾، وما كان خصمين وما بغيا، صدق الصادق جعفر عليه السلام: إن في القرآن كثيراً من هذه التشابهات والمشكلات، ولا يعلم تأويلها إلا الله، والراسخون في العلم، وما علموا من هاهنا أن الله سبحانه تكلم بالحقيقة والأمثال والعبر والمجاز والخبر والقصص على وفق الواقعة؛ فأخبر من حيث الظاهر عن قصتهم بما قالوا وفعلوا وفي الحقيقة حق ما قال؛ لأن الواقعة لا تخلو من إشارة إلى شيء حقيقي كسرقة يوسف عليه السلام بملاحة وجهه قلوب الخلق، وقولهم في ذلك صدق.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَسَرْتُمْ قَوْلَكُمْ حَقِيقَةً﴾ لأنهم سرقوا الأمانة والعهد من بينهم وبين أبيهم، وقولهم: ﴿إِنْ أَتَيْتَكَ سَرْقٌ﴾ صدق أسرار يوسف عليه السلام الذي سمع منه في الخلوة والوصال عنهم، حيث ما أخبرهم ذلك السر ووضع الصاع في متاعه كان بتقريره؛ فكلام الله صدق أخبر عن حقيقة وظاهرها مجاز وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾

بالظاهر ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: عما بين ابنك من الأسرار التي جرت بينها في الخلوة والوصال، وتصديق الجميع جواب يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أخبر يعقوب عليه السلام عن حقيقة الأمر بالرضا والإشارة، أي ليس كما يظنون ليس السرقة سرقة الصاع، وما هذا فعل الأنبياء، ولكن سرقة ما سرق من أسرار يوسف عليه السلام عنكم، وخبره من رؤيته مكامن الغيب بنور النبوة في القلب، وقوله: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ إشارة إلى أنه قال: أنا أرى يوسف عليه السلام وبنيامين في مجالس الأنس، وأنا أصبر حتى أوصلها الله إلي، ومعنى الصبر الجميل هاهنا ترك إفشاء السر، وإبتلاع هيجان الفرح حتى لا ينكشف سر القدر، ولا ينهتك ستر الربوبية، وهذا من وصف تمكين الأنبياء علم إن بدا هذا الأمر خبراً، وأن الوصال ورجوع الأحبة إلى الأحباء، وانقطاع زمان البلاء دنا وصال الحبيب، واقتربا وأطربا للوصال وأطربا وتصديق ما ذكرنا.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فَصَبِّرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ وَأَبْتَضْتُ عَنْهُ مِنْ الْخِزْيَانِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفَعَّلُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِي وَخِزْيَانِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالُوا أَرِنَا نَكَالَتِ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ هذه الترجية من رؤية الوصال بعين اليقين قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ معناه أي: علم ما علمت، وحكم بحكمته على فرقتي حتى يمضي بقية الفراق، وأيضاً الصبر الجميل، هاهنا احتمال البلاء على البلاء بروية المبقي بوصف إسقاط معارضة السر والشكوى، وأيضاً الصبر الجميل الجلادة في تجرع مرارة

كتوس شراب البلاء على وصف التداني حتى لا يغلب عليه بحر البلية؛ فيغرقه ويلقيه إلى بحر الشكوى، صبرت على بعض الأذى خوف كله، ودافعت عن نفسي؛ فغرت وجرعتها المكروه حتى تدربت، ولو جملة جرعتها لاشمأزت، وأيضاً الصبر الجميل ما يكون بالله قاله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِأَلَلَةٍ﴾.

قال الجنيد: الصبر الجميل أن يجعل ابتداءه وانتهاه لا يتبدئ فيه بتحير، ولا يقطعه بدعوى بل يمضي في جميع أوقاته على رؤية من إكرامه الصبر.

قال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكوى، ولا إحساس بلوى، ولما ثقل عليه أوقات البلاء ضاق صدره من معايشة الخلق، وأقبل على الله، وشكا منه عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ﴾ أسفه كان على رب يوسف ﷺ لأنه رأى من يوسف ﷺ جمال رب يوسف ﷺ بواسطة يوسف ﷺ؛ فلما غاب عنه وفقده تغلل كتبنا على الحقيقة، وقال: ﴿يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ﴾ وهذا كحال الخليل ﷺ حين اشتاق إلى ربه فتعلل بقوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ الْمَوْتَى﴾ وأراد بذلك رؤية المحيي، ومثل هذا احتيال العاشقين تولى عنهم إذ لم يرى ما يرى في يوسف ﷺ عنهم، وقال: يا أسفى على مرآة الله في بلاد الله تذكر أيام بالوصال، وظهور أنوار الجمال، وتأسف بالفراق والانفصال بعد الاتصال.

سَقَى اللَّهُ أَيَّامَنَا وَلِيَالِيَا مَضَتْ فَجَرَتْ مِنْ ذَكَرْهُمْ دَمَوْعُ
فِيَاهِلْ لَهَا مِنْ الدَّهْرِ أَوِيَّةُ وَهَلْ لِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ رَجَوْعُ
﴿وَأَبْصُرْتُ عَيْنَاهُ مِنْ أَلْحُزْنٍ﴾ علق ذهاب البصر إلى الحزن، وذهابه كان من فقدان ذلك الجمال بكى حتى ذهب بصره بالألم يرى غير حبيبه.

لَمَّا تَبَيَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ غَمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ
ولما رأى سبحانه دعوى يعقوب بالصبر الجميل زاد حمل بلائه على بلائه حتى ضاق صدره عن حمل وارد قهر القدم، وخرج بعجز البشرية، وقال: ﴿يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ﴾؛ لأنه تعالى غيور ولا يذر أحداً من التمكين إلا ناقصاً عن موازات طوارق أقدار الأزل.
ألا ترى إلى قول من قال: من صبر اجتوى، ومن شكر ابتدئ، ومن ذكر افترى، ما أعجز الحدثنان في ظل نور عظمة الرحمن.

قال الجنيد: في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرح ولم يوفيههم مشتكي لشكواه، وقال: ﴿يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ﴾ فلم يترك في هذا النفس الوجد له نفساً حتى أوحى إليه أناسي على غيرنا، أين ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا من نفسك،

أتأسى وقد أخذنا منك واحدًا، وأبقينا لك عشرًا، فأنت مع هذا تظهر الشكوى، وتقول صبر جميل.

وقال ابن عطاء: بكاء يعقوب عليه السلام وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف عليه السلام زاد في البكاء، فقال: يا أبت، تبكي عند الفراق، وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة الفراق، وهذا بكاء الدهشة.

وقال أبو سعيد القرشي: أوحى الله إلى يعقوب عليه السلام: يا يعقوب تتأسف على غيري، وعزتي لأخذن عينيك، ولا أردهما عليك حتى تنساه. وقال: التأسف على الغاية تضييع وقت ثان.

ثم وصف يعقوب عليه السلام بشدة حزنه وذهاب بصره، فقال: «فَهُوَ كَظِيمٍ» الحكمة في ذهاب بصر يعقوب عليه السلام وبقاء بصر آدم عليه السلام وداود عليه السلام أن بكاء يعقوب عليه السلام بكاء الحزن معجون بالمرارة، وذلك من واقعة فقدان تجلي جمال الحق من امرأة وجه يوسف عليه السلام.

وكان يعقوب عليه السلام في خصائص العشق من الله سبحانه، وكان يغذيه من مقام العشق لطائف الالتباس، فلما فقد ذلك الوسيلة فقد مطالعة جمال الحق بعظم شأن الفراق، وبعد يوم التلاق، وذهب نور البصر مع المبصر حتى لا ينظر به إلى شيء دونه.

وبكاء آدم عليه السلام وداود عليه السلام بكاء الندم من مقام البداية والتوبة، ومقام الندم لم يكن قويا حزنه وحرقة، ولو كانا في مقام العشق كما كان يعقوب عليه السلام لذاب وجودهما، وأنى مقام التوبة والندم من مقام العشق والالتباس الذي من عوالي درجات المعرفة، وشأنها شأن أقواء المعرفة أعني العشق والالتباس، ألا ترى إلى يونس عليه السلام وشعيب عليه السلام كيف ذهب بصرهما في شوق الله، وكانا لا ييكيان من الندم، بل ييكيان من الشوق إلى جمال الله؛ فذهب بصرهما لذلك.

وفي الحديث المروي: «إِنَّ شَعِيْبًا كَانَ يَكِي حَتَّى عَمِيَ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَكِي حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنْ كَانَ هَذَا الْبُكَاءُ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ؛ فَقَدْ أَبْجَحْتَهَا لَكَ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ النَّارِ؛ فَقَدْ أَجْرَتَكَ عَنْهَا، فَقَالَ: لَا، بَلْ شَوْقًا إِلَيْكَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَخْدَمْتُكَ نَبِيًّا وَكَلِمِي عَشْرَ سَنِينَ»^(١).

وهكذا حال يونس عليه السلام في الشوق؛ فعرض الجنة عليه، وأمنه من النار، فقال: بعزتك لو كان بيني وبينك بحر من النار أخوض فيها حتى أصل إليك، وأيضًا كل بكاء يكون من الحزن والغم والخوف يضر بعين صاحبه، وكل بكاء يكون من الشوق والمحبة لا يضر بعين

(١) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (١/١٤٩).

صاحبه بل يزيد نورها، ويمكن أن ذهاب بصره غيرة الله عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطة بينه وبينه.

وقال سبحانه: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ وما قال: غُميت عيناه حجب عيني يعقوب عليه السلام عن النظر إلى العالم حتى لا ينظر إلى غير الله؛ فرجع نور بصره إلى بصيرته؛ فيرى بذلك جمال الله سبحانه، لأجل ذلك قال: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾.

وتصديق ذلك ما قاله الشيخ أبو علي الدقاق -رحمة الله عليه- لم يكن في الحقيقة عمى، وإنما كان ذلك حجاباً عن رؤية غير يوسف عليه السلام.

سُئِلَ أبو سعيد القرشي: لِمَ لَمْ تذهب عين آدم عليه السلام وداود عليه السلام من طول بكائهما، وذهبت عين يعقوب عليه السلام؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب عليه السلام كان من فقد ولده، فحفظا وعوقب.

وقال أيضاً: بكاء الأحزان يعمي، وبكاء الشوق يحلي البصر، قال الله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾، وقال أيضاً: الكظم الممتلئ من الغم.

وقال ابن عطاء: أراد أن يبكي على يوسف عليه السلام فتغرغرت عيناه؛ فأراد أن يرسلها فوجد لذة البكاء؛ فكظمها وردّها في عينيه فايضتا.

ولي لطيفة مجربة وذلك أن كل نظير من جهة عشق الإنسان؛ فداؤه وتعذيبه أشد من داء محبة الله وتعذيبه؛ لأن في محبة الإنسان كثافة وشدة؛ لأنه منزل الابتلاء والعذاب، وفي محبة الله وعشقه لطفًا وحلاوة ربانية لا يكون بإزائها راحة الجنان، ولذلك هناك البلاء أطيب، والمحبة أعذب، فلما كان يعقوب عليه السلام في أشد المحبة وعظم المحبة تجلّد في كظمها، ولذا قال:

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ لأن هناك مكان الشكوى وشناعة، ولولا أن كظم لغشى حاله أكثر مما فشي في العالم، وصفه بالتمكين في تحمل البلاء، ومن كثرة كظمه الحزن والتأوه احترق مسلك نور الباصرة من مكان الروح الناطقة؛ لأن نور الباصرة تجري من نور روح الناطقة في أضيق طريق من شريان الدماغ، فلما احترق السبيل انسد باب الباصرة، وابيضت عيناه من احتجاجها عن أنوار الروح، فلما رأوه حين جدد عليه ذكر يوسف عليه السلام والأسف عليه وهم محجوبون من نور الفراسة في ذلك الوقت من استنشاق ريح يوسف عليه السلام أنكروا على أبيه في ذكر يوسف عليه السلام بقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ لم تعلموا أن العاشق لا يزال ذاكرًا لمعشوقه، وكيف يسكن المحب عن ذكر

محبوبه، وهو مستغرق بجميع وجوده في ذكر محبوبه.

فَلَم تَمْنَعُوا لِي وَحُسْنَ حَدِيثِهَا فَلَم تَمْنَعُوا عَنِّي السُّكَا وَالْقَوَايَا

خوفه بالهلاك والخرص، وكيف يفرغ العاشق من هلاكه في عشق محبوبه وهلاكه وحياته؟!

قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وكيف كان يسكن عن ذكر يوسف عليه السلام، وفي بصر سرّه ينظر إلى شاهد خيال يوسف؟!

غَابَ فِي قَلْبِي لَهُ شَاهِدٌ يُولُغُ إِضْمَارِي بِذِكْرِهِ
مَثَلْتُ الْفِكْرَةَ لِي وَجْهَهُ حَتَّى كَأَنِّي أَرَاهُ

قال أبو سعيد القرشي: لا تزال تذكر يوسف عليه السلام، فمتى تذكر رب يوسف عليه السلام؟ وقال أيضًا: كل مشتاق لا يزال يذكر أنيسه وحببيه حتى يغيره الناس على ذلك، فإما يموت، وإما يصل إلى قرية.

فلذلك قوله: ﴿تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ قيل: أطيب الأشياء في الهوى الهلاك في حكم الهوى، فكيف يخوف بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك، فما سمع ملامتهم ولم يرههم أهلاً لدائته وحمل موارد الحق عليه أعرض عنهم.

وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَيْنِي وَحْزَنٍ إِلَىٰ إِلَهِ﴾ أي: أن ما أجد من امتحان الله عليّ وعظيم بلائه، وما أرى فيها من لطائف صنعته وكشوف غرائب وجوده وأنوار وجوده لا البسط إلا في بساط الحق، ولا أحمل ذلك إلا على الحق؛ فإنه يحمل هذه الأثقال التي لو تحمل على السماوات والأرضين والجبال والبحار لتضمحل وجودها تحت سلطان قهرها، وكيف أذكرها لكم وأنتم محجوبون عن ذلك، وتصديق ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ إِلَهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان بث يعقوب عليه السلام وحزنه من الله، وكذا شكواه؛ فقال: أشكو منه إليه، وأفرق حزني بين يديه؛ لأن ما منه لا يرجع إلا إليه، ما أطيب شكوى المحب إلى حبيبته؛ لأن الحبيب يعلم مداواة حبيبته لا غير، إلى الله أشكو ما لقيت من الهجر وكثرة البلوى، ومن قلة الصبر، ومن حرق بين الجوانح والحشا كحجم العضاء، لا بل أحرّ من الجمر.

قال سهل بن عبد الله: لم يكن حزن يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام إنما كان مكاشفًا لما وجد من قلبه شدة الوجد على مفارقة يوسف عليه السلام، قال: كيف يكون وجد فراق الحق على مفارقة يوسف عليه السلام، قال: كيف يكون وجد فراق الحق وقد عمل بي مفارقة يوسف عليه السلام كل هذا فشكا وبث وحزن وما وقع لي من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ إِلَهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإني أعلم غيرته على أحبائه وأهل معرفته، إذا شكّا إلى أحد إلى غيره يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وأنتم لا تعلمون ذلك، وأيضًا أعلم من الله أن من صبر في

بلائه يجازيه بلفائه الذي لا حجاب فيه، ولا عذاب ولا حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّ
الصَّيِّرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأيضاً أعلم من الله حقائق المكاشفات والمشاهدات والقربات ودقائق علومه الغيبية،
ومن كان بهذه الصفة لا يضيع حمل مطاياه إلا في فناء عطاياه حتى يفعل ما يشاء.
قيل في المثل: عطاياه لا تحمل إلا مطاياه.

وأنشد ذو النون في هذا المعنى:

إذا ارتحل الكرام إليك يوماً ليتمسوك حالاً بعد حال
فإن رحالنا خطت رضاه بحكمك عن حلول وارتحال
فشتنا كيف شئت ولا تكلنا إلى تدبيرنا ذي المعالي

ويمكن أنه كان عليه السلام بشيراً إلى الله سبحانه يوصل إليه يوسف عليه السلام، وبنيامين عن قريب
فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتصديق ذلك ما قاله سبحانه عقيب الآية
بقوله: ﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، معناه علمي بالله علم
حقيقة، وعلمكم به علم استدلال، وقال أيضاً: أعلم من الله إجابة دعوات المضطرين.
وقال بعضهم: أعلم من رحمته على عباده ما لا تعلمون.
قيل: لما شكنا إلى الله وجد السلوة من الله.

ويقال: كان يعقوب عليه السلام متحملاً بنفسه وقلبه مستريحاً محمولاً بسره وروحه؛ لأنه علم
من الله سبحانه صدق حاله فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، في معناه والشك
اليقين إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمع.

ومعنى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أنه كان يرى بعين سره، وقدم صفائح
قدس الغيب، منقوشاً بذكر الوصال ورؤية ذلك الجبال، ووصل إلى مقام روحه روح نسيم
يوسف عليه السلام؛ فحكم حكماً كاملاً فقال: تحسسوا من يوسف عليه السلام بخواطركم الربانية
والإحساس والروحانية حتى تجدونه، وأيضاً تحسسوا بجميع وجودكم وقلوبكم لا
بنفوسكم الأمارة، وأيضاً انقطعوا من جميع الأشياء في طلبه، فإن متفرق الهمة لا يظفر
بمأموله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ لا تقنطوا من كرمه ورحمته في إرجاع يوسف
عليه السلام وبنيامين إليّ، وأيضاً تحسسوا من يوسف عليه السلام، ولا تياسوا من روح الله؛ فإنه لا يبيكم في

الخنجالة بين يديه؛ فإنه يعفو عنكم، وفيه إشارة تعليم عزة قدرته أي: لا تياسوا من قدرة الله؛ فإنه قادر بأن يوصل يوسف عليه السلام إلينا بأقل من طرفة عين، ولو كان فانيًا، وإن مَنْ لم يؤمن بذلك مبعدة من الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وأنهم إن الإياس في مقام الإيثار من صفات النفس الأمارة، والإيثار في صفات المعرفة من صفات القلب، وذلك قنوطه من وصوله إلى مطالعة حقائق القدم، وذلك من غلبة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وتحت ذلك الإياس بحار من حسن الرجاء بالوصال، والبقاء في البقاء، وبعد الفناء في الفناء، وعن رؤية سرمدية القدر.

وقال الجنيد: يحق رجاء الراجين عند تواتر المحن، وترادف المصائب؛ لأن الله يقول: ﴿لَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾، والنبي ﷺ يقول: «أفضل العباد انتظار الفرج»^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾ أما قوله: يا أيها العزيز أي: أيها المتلبس بأنوار الربوبية التي كسبت في الأزل ظاهرًا وباطنًا، أيها الممتنع من أن يراك أحد بالشهوة، وأيها الغالب على سلب قلوب الخلائق بالجمال والجلال مسنا وأهلنا ضر فراقك، وبعد وصالك نحن في ضر جنايتنا محجوبون عن جمالك وأبوك وأهلك في ضر البعاد عن رؤيتك ووصالك، وأنشد:

كفى حزنًا بالواله الصَّبُّ أن يرى منازلَ مَنْ يهوى معطلة قفرا

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ من تضير الله إيانا في حقل وعتابه فيما فعلنا، وأيضا مسنا ضر الخنجالة بين يديك، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾ بعذر من جنايتنا ما لا يليق بها فعلنا بك بكيل عفوك، وتصديق علينا بالتجاوز عما فعلنا؛ فإن الله يجزي المتصدقين بأنه يعافيك عما هممت به، وبأن يكرمك أحسن الإكرام من لطيف الإنعام، وما أحسن افتقار الفقراء أو المبتدئين عند أكابر القوم، وتواضعهم بين أيديهم، وتسميتهم بأساء التعظيم، كما فعل بنو إسرائيل عند يوسف عليه السلام باءوا بذكر المقاسات والفقر حين رأوا بساطًا بسيطًا عن ملكه وسلطانه.

ثم ذكروا قلة بضاعتهم حين شاهدوا هيبة يوسف عليه السلام ومهابته وجلال قدره، فلما انبسط إليهم انبسطوا إليه، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فلما طالعوا أن بضاعتهم لا يليق بمثل بساطه تبسطوا، وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ فإن ما معنى لا يليق بعرض بيعك

(١) رواه الترمذي (٥/٥٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٤٣)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/

وشارك؛ فإن جزاؤك عليه بلا علة وحديث البضاعة والفقر علة طلب الوصال ورؤية الجمال والغرض الكلي، ذلك لأنهم مأمورون بطلب يوسف عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ عرضهم رؤيته ومشاهدته.
وأنشد في معناه:

وما الفقرُ مِنْ أرضِ العَشيرةِ ساقنا ولكننا جئنا بلبقياك نَسعدُ

هذا يكون من قبل المخلوق، فكيف يكون إذا دخلوا عشاق جمال القدم في بساط الكرم؟ أي: قالوا ما قال إخوة يوسف عليه السلام: مَسْنَا وأهلنا الضر، مَسْنَا من ضر فراقك، والبعد من وصالك ما لا يحتملها الصنم الصلاب.

خليلي ما ألقاه في الحب عن ندم على صخرة يتعلق بها الصحن ويقولون: جئنا ببضاعة مزجاة من أعمال مغلولة، وأفعال مغشوشة نفسانية حدثانية، ومعرفة قليلة عاجزة عن إدراك ذرة من أنوار عظمتك، وكل هذا لا يليق بعزتك وجلال صمديتك، ﴿فَأَوْفَ لَنَا﴾ كيل قربك ووصالك من بحار فضلك وجودك، وتصدق علينا أعطنا من نعم مشاهدتك التي لا تعطيتها أحداً إلا بتفضلك بغير الأعواض بقولك: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قيل في هذه الآية: تعليم آداب الدعاء، والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبة السادات؛ فمن لم يرجع إلى باب سيده بالذلة والافتقار وتذليل النفس وتصغير ما يبدو منها، ويرى أن ما من بيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق كان مبتعداً مطروداً.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾: أي: مَسْنَا الضر في ارتكاب المعاصي، وبما اجتمع علينا من الجنايات والمخالفات، ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾ بأنفس قاصرة عن الخلاصة، وأعمال لا تصلح لبساط المشاهدة والنشر، ﴿فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: فؤف علينا بما لم نزل بعد فيه من فضلك وإحسانك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ اجعلنا منك بمحل الفقراء إليك الذين يستوجبون الصدقة منك تفضلاً، وإن لم يكن منهم فألحقنا بهم.

وقال سهل في قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الْعَزِيزُ﴾: أي: أيها المغلوب في نفسه كما قال: ﴿وَعَزَّزْنِي لِخِطَابِ﴾ أي: غلبي.

ويقال: استلطفوا بقولهم: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم، ويقال: لما طالعوا فقرهم نطقوا بقدرهم فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾، ولما شاهدوا قدر

يوسف عليه السلام سألوا على قدره، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فلما ذكروا حديث الصدقة ترحم عليهم يوسف عليه السلام وهاج سره إلى إظهار الحال، وحيث رأى عجزهم وتواضعهم لم يبق له قرار حتى كشف الحال بقوله: ﴿عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس غرضه تعييرهم، بل غرضه تقرييبهم؛ فعاتبهم وذكر صنائعهم به وبأخيه تعريفاً منه إليهم بأنه يوسف عليه السلام لئلا يبقى لهم شك، ويعرفوه حق المعرفة ووضع عن لهم بقوله: ﴿إِذْ أَنْتَرَجْ جَبَلُوتَ﴾ أي: ما جرت في زمان الجهل والشباب لا تعير به، وتمكن أن سر تلك النفس الأتارة باح في البين؛ ليوقفهم في محل الخجالة، ثم أدركه الله حتى بينَ غدرهم بقوله: ﴿إِذْ أَنْتَرَجْ جَبَلُوتَ﴾، وهذا كقول بعضهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ في باب العتاب أعظم من كل عقوبة كان يعاقبهم بها، حيث أخجلهم مكافحة.

ويقال: لما خجلوا بهذا العتاب لم يرض يوسف عليه السلام حتى بسط عذرهم؛ فقال: ﴿إِذْ أَنْتَرَجْ جَبَلُوتَ﴾ فلما ذكر الإشارة أوقع الله في أسرارهم أن المخاطب هو يوسف عليه السلام فقالوا: ﴿قَالُوا أَوْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فلما عرفوه خاطبوه بخطاب المودة لا بخطاب التكلف قالوا: ﴿قَالُوا أَوْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ فأجابهم أيضاً بخطاب المودة تعريفاً وتواصلاً وتواضعاً فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾، وأنشدوا:

إِذَا صَفَّتِ الْمَوْدَةُ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَامَ وَلَاؤُهُمْ سَمَّجَ الثَّنَاءُ

ويمكن أنهم لما عرفوه سقط عنهم الهيبة وهاجت لهم الحمية، وما تكلموا بانسباط الأول من حيث القرابية، وقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ لإظهار صدق الحال، ويمكن أن يشير إلى تعييرهم حيث قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾، وما قال: أنا أخوكم أي الأخوة الصحيحة ما لم يكن فيها جفاء، ويقال: هوّن عليهم حال بديهة الخجلة، حيث قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فكانه شغلهم بقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾؛ فإنه سبحانه شغل موسى عليه السلام بساع قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وفي مطالعة العصا في غير ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّي - أَنَا اللَّهُ﴾.

ثم رجع يوسف عليه السلام من تعريفه إلى الله، حيث قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: قد تفضل علينا بما وقانا مما وقعت فيه، وأيضاً قد مَنَّ الله علينا بالوصال بعد الفراق، وأيضاً قد مَنَّ الله علينا بالمعرفة والمحبة والرسالة، وعلم الغيب، والبراهين الساطعة، والحسن والجمال الظاهر، والمكاشفة والمجاهدة الباطنة.

ثم يَبَيِّنُ أنه تعالى إذا أراد أن يكرم عبداً ألهمه الصبر في بلائه والتقوى في عبادته بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: مَنْ يَتَّقِ في الخلوة عن متابعة الشهوة والوقوع في النعمة وصبر عن انقياد هوى النفس بعد جريان الهمة.

قال ابن عطاء: مَنْ يَتَّقِ ارتكاب المحارم، ويصبر على أداء الفرائض؛ فإن الله لا يضيع سعي من أحسن في هذين المقامين، واعتمد على الله، ولم يعتمد سعيه ولا علمه.

ولما رجع يوسف ﷺ إلى ذكره تفضل الله عليه وعلى أخيه، وذكر توحيدهم وأوقعهم الله ذلك إلى رؤية توحيد الله بقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ رجعوا إلى الله في أول مقالاتهم، وذكروا فضله عليه، ثم أتوا إلى مذمة أنفسهم أي: آثر الله علينا بالخلق والخلق والحسن والجمال والملك والشرف والمكاشفة والعلم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ أي: جاهلين بجاهك.

قال بعضهم: اختارك وقدمك علينا بحسن التوفيق والعصمة، وترك المكافأة على الإشارة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ لمسيئين إليك، فلما سمع يوسف ﷺ اعتذارهم أرجع نفسه ونفوسهم إلى مقادير السابق، ثم استعمل الكرم والظرافة في الخلق بقوله: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: هذا يوم الوصال وكشف الجمال، يرفع العذاب، لا يوم التعيير والتثريب، وفي هذه الحالة إشارة إلى أن الأولين والآخرين إذا دخلوا في سابقة الكبرياء وسكت لهم السنة العذر، ييسط الله سبحانه أوراق الأقدار والتي جرت في سبق السابق بما كان، وما سيكون وتحمل أفعالهم جميعاً على مطية القدر، ويبرئهم عن الجرائم، ويقول: من أفضاله وكرمه: ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فإن أفعالهم جرت بمقاديري، وكيف كنتم تدفعون مقاديري كأنه تعالى يضع العذر على القدر، ويغفر لهم جميعاً بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يَبَيِّنُ الجرم وغلب العفو والكرم على العتاب والمواخظة.

قال جعفر رحمه الله: لا عيب عليكم فيما عملتم، لأنكم كنتم مجبورين عليه، وذلك في سابق القضاء عليكم.

قال أبو عثمان: ليس لمن أذنب أن يعاتب مذنباً، وكيف أعيبكم، وقد سبق مني الهم والاختيار للسجن، وقولي: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وكيف ألومكم فيما عملتم وأنسى ما عملت؟

قال شاه الكرمان رحمة الله عليه: من نظر إلى الخلق بعين الحق سلم من مخالفاتهم، ومن نظر إليهم بعينه أفنى أيامه في مخاصماتهم، ألا ترى إلى يوسف ﷺ لما علم مجاري القضاء كيف

عذر إخوته، وقال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمٌ﴾.

قال أبو بكر: اعتذروا إليه، وأقروا بالجناية بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمٌ﴾، وهذا من شرط الكرم أن يغفو إذا قدر، ويقبل عذر من اعتذر. وقال الأستاذ: أسرع يوسف عليه السلام التجاوز عنهم، ووعد يعقوب عليه السلام هم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾؛ لأنه كان أشد حبا لهم فعاتبهم، وأما يوسف عليه السلام فلم يرمهم أهلاً للعتاب، فتجاوز عنهم على الوهلة. ويقال: ما أصابهم في الحال من الخجلة قام مقام كل عقوبة عليه السلام، ولهذا قيل في المثل: «كفى للمقصر حياء يوم اللقاء».

ولما فرغ يوسف عليه السلام من كشف حاله مع إخوته ووصاله معهم، رتب شغل وصال يعقوب عليه السلام، ومن كرمه وجلاله أعطى وصاله أولاً للخاطئين، ثم للعاشقين؛ لأن الخاطيء ضعيف لا يحتمل البلاء، والعاشق قوي يحتمل البلاء؛ لأن يعقوب عليه السلام يرى يوسف عليه السلام كل وقت بعين سره، فاحتمل بلاءه بذلك.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٠) وَلَمَّا فَصَلَ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٢١).

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحكمة في إرسال القميص أنه علم أن يعقوب عليه السلام لا يحتمل الوصال الكل بالبدية؛ فجعل وصاله بالتدريج لئلا يهلك في أول الملاقاة من فرح الوجدان، فأرسل القميص ليقويه برجيهِ وطيب روحه، ولأن عيني يعقوب عليه السلام ايضاً لم تكونا عماوين إنما ضعف نورهما؛ فأرسل القميص لذهاب بياضهما، فإنه لو يشم يوسف عليه السلام بعينه احترق بقية نورهما من فورة الهيجان، فخاف على عينيه، وأيضاً إن قميص يوسف عليه السلام كان من نسج الجنة؛ فرأى يوسف عليه السلام غير الحق فأرسل القميص إليه ليشم أولاً رائحة بساط القرب، وأيضاً كان قميص يوسف عليه السلام علامة بينه وبين أبيه، فأشار إليه بالقميص، أي: إذا كان بالقميص السلامة من حرق الذنب فانا أيضاً بالسلامة.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليه السلام قال: كان المراد في القميص أنه أتاهاهم من قبل القميص بقوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فأحب أن يدخل السرور من جهته التي دخل اليه عليه.

ويقال: كان العمى في العين؛ فأمر بإلقاء القميص عليه ليجد الشفاء من العمى.
ويقال: لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في اللقاء للعين التي في الوجه،
وفي معناه أنشدوا:

وَمَا بَاتَ مَطْوِيًّا عَلَى أَرْحِيَّةٍ بِعَقَبِ النَّوَى إِلَّا فَتَى بَاتَ مُغْرَمًا
وقوله تعالى: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرم يوسف ﷺ يقتضي أن
يذهب إلى أبيه ولا يستحضره؛ ولكن أبي نازع العشق إلا أن يزيد البلاء على العاشق، ومن
يرى معشوقًا في الكونين رحيمًا بعاشقه؛ فإن اقتضى الظاهر الأدب غلب العشق على الرسوم
حتى يزيد عشقه على عشيقه، وشوقه على شوقه، ويرى يوسف ﷺ فتوته؛ فأثر أجر السعي
على أبيه، كان سخيًا بدينه لا بدينه، وذلك من عزة أبيه عنده، وشارك الأهل؛ لأنهم أيضًا
قاسوا أيضًا مقاساة الفراق أراد أن يشتركوا في الفرح.

ويقال: علم يوسف ﷺ أن يعقوب ﷺ لا يطبق القيام بكفاية أمر يوسف ﷺ
فاستحضره إبقاء على حاله لا إذلالًا بقدره، وما عليه من إجلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرج من
مصر هبت ريح الصبا على القميص، وجاءت إلى يعقوب ﷺ وهبت على وجهه، ونشقت
ريح يوسف ﷺ فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وجد ريح يوسف ﷺ من مسافة ثلاثين
فرسخًا؛ لأنه كان في كل أنفاسه، مستنشقا لريح يوسف ﷺ، وهكذا شأن كل عاشق
يتعرضون لنفحات ريح وصال الأزل، ويستنشقون نسائم ورد مشاهدة الأبد، بقلوب
حاضرة، وعيون باكية في الخلوات والصحاري والفلوات كأنهم ينشدون هذين البيتين كل
وقت شوقًا إلى تلك المعادن:

أَيَا جِبَلِي نُعْمَانَ بِاللهِ خَلِيًّا طَرِيقَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
فَلِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَتْ عَلَى نَفْسٍ مَهْمُومٍ تَجَلَّتْ مُهْمُومُهَا
ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لنفحات
الرحمن»^(١)، ما أطيب حال المحبين حيث راقبوا روائح كشف الصفات من معدن الذات،
وطلبتهم عرائس القدم في قميص الالتباس كأنهم ينشدون من غاية الشوق إلى تلك المعاهد
هذين البيتين:

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في
«فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

سَلَامٌ عَلَىٰ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرَدِي أَوْ مَهَبٌ شَاهِي
فقد صرت أرضي مِنْ سواكن أرضها بخلبٍ برق أو بطيفٍ خيال
فدبت لهذه القضية الحسنة الإلهية، ما أحسن شأئها، وما أطيب لطائفها، وما أنور
روائها، انظر كيف أخبر سبحانه من حسن أحوال العاشقين والمعشوقين، قال: ﴿تَحْنُ نَقْصُ
عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ علم يوسف ﷺ مواساة ريح الصَّبَا، وأودعه ريمه حتى أسرع
البشير في إيصال الخبر إلى يعقوب ﷺ شوقاً منه إلى وصال يعقوب ﷺ.

أذكر في هذا المعنى أبيات لطيفة:

نسيم الصبا بُلِّغْ سَلَامِي إِلَيْهِمْ وَأَرْفُقْ بِفَضْلِكَ بِالْمُحِبِّ عَلَيْهِم
وَقُلْ لَهُمْ إِنِّي إِنْ كُنْتُ نَازِحًا فَرُوحِي وَقَلْبِي حَاضِرَانِ لَدَيْهِمْ
نَسِيمَ الصَّبَا إِنْ جِئْتُ أَرْضَ أَحِبَّتِي فَخُصِّصْهُمْ مِنِّي بِكُلِّ سَلَامٍ
وَبَلِّغْهُمْ أَتَى رَهْبٌ صَبَابَةً وَأَنْ غَرَامِي فَوْقَ كُلِّ غَرَامٍ

ومعنى قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ علم أن مَنْ لم يكن في بلاء المعشوق لم يستشق ريح
المعشوق؛ فريب المخبر بما كوشف له.

قال جعفر: يقال: إن ريح الصبا سأل الله، فقال: خصني بأن أبشره بابنه، فأذن الله له في
ذلك فكان يعقوب ﷺ ساجداً فرفع رأسه، وقال: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فقال له
أولاده: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: محبتك القديمة، وكان الريح ممزوجة بالعناية
والشفقة والرحمة والأخبار بزوال المحنة، وكذلك المؤمن المتحقق يجد نسيم الإيمان في قلبه،
وروح المعرفة من العناية التي سبقت له من الله في سره.

قال الأستاذ: كان أمر يوسف ﷺ وحديثه على يعقوب ﷺ مشكلاً، فلما زالت المحنة
تغيرت بكل وجه الحالة.

قيل: كان من يوسف ﷺ على يعقوب ﷺ أقل من مرحلة حيث ألقوه في الحب؛
فاستتر عليه خبره، وحاله ولما زال البلاء وجد ريمه، وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً من مصر إلى
كنعان.

ويقال: لا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، فأما على الأجانب فهذا حديث مشكل
أن يكون الإنسان ريح.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تفرس فيهم أنهم يسيطون لسان الملامة،
فنبههم على ترك الملامة؛ فلم ينجح فيهم قوله، فزادوا في الملامة بأن قنونا كلاً منهم بالقسم

وقالوا: ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لم يحشوا أباهم، ولم يراعوا حقه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال: إن يعقوب عليه السلام قد يعرف من الرياح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف عليه السلام كثيراً حتى جاء الأذان للرياح، وهذا سنة الأحباب مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال. وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيحَ سَلَامَكُمْ إِذَا أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِكُمْ بِهُبٍ
وَأَسْأَلُهَا حَمْلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ فَإِنْ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبِي

﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَآلُكَ بِطَغْوَىٰ أَمَّا أَنْتَ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَتِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أنت غائب بسرك في وادي العظمة، وبروحك هائم في فقاد الأزلية، ويعقلك تائه في شوامخ القدرة، وبقلبك مستغرق في بحار الشوق والعشق والمحبة؛ فترى من كل ناحية جمال معشوقك، وتستنشق من جميع الرياح نسيم محبوبك، وأنت واله لا يعتبر قولك بهذا، فأنت تخبر بخبر العاشقين وهيجان المحبين.

قال جعفر: سئل بعضهم: ما العشق؟ قال: ضلال، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم أظهر أنه برهان صدقه وصفاته بالمعجزة الظاهرة بقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ الإشارة فيه أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه، وذهب عنه من طول البكاء يجيء إليه بشير تحليه؛ فيلقي على وجهه عهد أنسه ورد قدسه، فيفتح عنه بنسيم شال وصاله، فإذا يرى الحق بالحق لما وصل قميص الحبيب إلى وجه المحب رجع إليه نور عينه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق من قميص يوسف عليه السلام محل تجلي الحق، وقلبه مهبط شال جلاله، وجد منه ريح جنان قدسه يأسمين أنسه، ومحال أن مرّن وصل إليه شال جلاله يبقى علة غير الغراق، وظلمة العمر؛ لأن نسيمه طيب أسقام العاشقين، وآلام المحبين، ألا ترى إلى قول القائل:

أَلَا يَأْنِسِيْمَ الرِّيحَ مَا لَكَ كَلِمًا تَقْرِبْتِ مِنَّا زَادَ نَشْرَكَ طَيْبًا
أَظُنُّ سَلِيْمِي أَخْبِرْتِ بِسِقَامِنَا فَأَعْطَتْكَ رِيَاهَا فَجِئْتُ طَيْبًا

وحكمة إلقاء القميص على الوجه أن قميص الحبيب لم يكن له موضع إلا وجه العاشق؛ لذلك قال: ﴿فَالْقُوَّةُ عَلَيَّ وَجْهِ أَبِي﴾، وفي موضع يضع العشاق تراب قدام المعشوقين على عيونهم؛ كيف لا يضعون قميص الأحباب على وجوههم؟ وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ إذا رأى وردًا أو باكورة قبلها، ووضعها على عينيه، وقال: «هذا حديث عهد بربيه»^(١).

قال النهرجوري: ألقى على وجهه نور الرضا؛ فارتد يبصر مواقع القضاء.
وقال بعضهم: لما جاء البشير من الله بالصلح منه في بكائه، والتأسف على غيره ورد يوسف ﷺ إليه.

وقال سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب ﷺ قال له يعقوب ﷺ: على أي دين تركت يوسف ﷺ؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

ولما عاينوا معجزة أبيهم، وعرفوا مواضع الخطأ في فراستهم اعتذروا بقوله: ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا أَاسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي: استغفر لنا ما قصرنا في واجب حقوقك، وما بدا منا من إعلام عقوقك، وقلة معرفتنا بنور فراستك، وما يتول عواقب أمور يوسف ﷺ من شرف المنازلات والمقامات والنبوات والرسالات، وأيضا استغفر لنا تضييع أوقاتنا في متابعة هوائنا، واحتجابنا من رؤية ذنبا، وما أطيب حال الندامة؛ لأن منها يتولد أنوار الكرامة.

قال بعضهم: أزل عنا اسم العقوق بإظهار الرضا عنا.

قال بعضهم: استغفر لنا ذنوبنا إليك وإلى يوسف ﷺ.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: جاهلين بأن الله يحفظ أوليائه في المحن.
قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إن يعقوب ﷺ كان عالما بالله وأخلاقه العظيمة، وبصفاته المنزهة، وبالأوقات التي هو تعالى يقبل توبة المذنبين، ويغفر ذنوب الخاطئين، ويستجيب دعوة المضطرين، وهو وقت تضوع مسك نفحات شبال وصلته في أرواح المقرين، وفؤاد الصادقين، وقلوب العارفين، وأسرار الموحدين، وعقول المحبين، ونفوس المريدين، وهم يعرفون منه مكان قبول التوبة، واستجابة

(١) رواه البيهقي في «الدعوات الكبرى» (٢/ ١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢/ ٣١) بنحوه.

الدعوة، وعلامتها اقشعرار جلودهم، ووجل قلوبهم، واضطراب صدورهم، وفوران عبراتهم، وهيجان أسرارهم، ووقوع نور التجلي في صميم أفئدتهم، وطيران أرواحهم في رياض الملكوت، وأنوار الجبروت، وهي ترى نسيم صبح الوصال بنعت الرضا عند منازل الشتاء، وكشف نقاب النقاب، وأكثر ذلك وقت الأسحار عند تجافي جنوب الأبرار عن مضاجعهم، وانتباههم بركضات عساكر التجلي، وعرائس التدلي حين ينزل بجلاله من هواء القدم إلى عروش البقاء تعالى الله عما أشار إليه أهل الخيال.

قيل في التفسير: أخر على السحر من ليلة الجمعة.

قال ابن عطاء: إن يعقوب عليه السلام قال: ارجعوا على يوسف عليه السلام، واسألوه أن يجعلكم في حل، ثم أستغفر لكم إن الذنب بينكم وبينه.

قال بعضهم: سوف أسأل ربي أن يأذن لي في الاستغفار لكم لئلا يكون مردوداً فيه، كما ردّ نوح عليه السلام في ولده بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قال الأستاذ: وعدهم الاستغفار؛ لأنه لم يتفرغ من استبشاره إلى استغفاره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَّهُ﴾ آوى إليه أبويه؛ لأنها ذاقا طعم مرارة الفراق؛ فخصهما من بينهم بوصاله وتدانيه يوم التلاقي، هناك يتبين تباين منازل الصديقين في المحبة، ومراتب المحبين في الوصلة.

قال الأستاذ: اشتركوا في الدخول، ولكن تباينوا في الإيواء؛ فانفرد الأبوان به لبعدهما من الجفاء، كذلك غدا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه، وفي وجود الجنان؛ ولكن يتباينون في بساطة القرية؛ فيخص به أصل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء، ولما بان حالهما في الإيواء ظهر قدرهما في بساط المؤانسة، ومجلس القرية بقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾.

قال ابن عطاء: رفع من محلهم بمقدار حزنهم كان عليه وأسفهم، ولم يرفع من أخوته لسرورهم بإتلافه وكذبهم عليه بأنه ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾.

قال محمد بن علي: من دفع من مريد فوق ما يستحقه أنسد عليه بذلك إرادته؛ لأن بعض الصحابة ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم»^(١).

ورفع يوسف عليه السلام أبويه على العرش، ولم يرفع إخوته، أنزل كل واحد منهم حيث يستحق من منزلته.

﴿وَرَفَعَ أَبُوْنِي عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَّابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٧٦﴾﴾
 رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَوْهُمْ بِأَمْرِهِمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ خَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وَمَا تَسْتَلْهُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ صحت هاهنا بيان المكاشفة، وأوائل المشاهدة التي جرت ذكرها بقوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ لما بان سطوع أنوار عزة الله على الصديق العزيز علا هيئته عليهم، وعاینوا ما عاينت الملائكة في آدم ﷺ؛ فخرّوا له سجداً بغير اختيارهم؛ لأنه كان كعبة الله التي فيه آيات بينات أنوار مشاهداته وسنا تجليه، وظهور جلاله من إلباس قدرته مقام إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى ذلك في آيات ملكوت السماء، ورأوا ذلك في آيات ملكوت الأرض، لو رأى الملك وأهل مصر فيه ما رأى يعقوب ﷺ وبنيه لخرّوا له سجداً كما قال القائل:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعَا وَسُجُودَا

فلما اقترنت المكاشفة بالمعاينة، قال تعالى ﴿وَقَالَ يَتَّابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ أظهر على يعقوب ﷺ كمال علمه بتأويل أحاديث المكاشفات، والآيات المنامات، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: بياناً بيناً ليس فيه معارضة النفس.

ثم أثنى على الله سبحانه لما أولاه من نعمه الرفيعة، وكراماته الساطعة بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: أخرجني من سجن بلاء النفس وخطوات الشيطان، وأيضاً أطلقني من أسرار الإرادة والمجاهدة والرياضة والامتحان إلى سعة بساط الرضوان والمعرفة والمشاهدة والإيقان، ذكر السجن لأن هناك موضع التهمة، أي: أخرجني بكونه من سجن التهمة بأن أظهر طهارتي من الذلة، وأيضاً بدأ بذكر السجن وما جرى لأجله لثلاث محزّنات: قلوب إخوته، وهذا من شرائط كرم المكرمين، أسقط خجلهم حين أظهر ما يجري عليه من الهمة، وطول لبثه في السجن من التفاته إلى غير الله من وقت امتحان، ثم ذكر منازلهم، وما فضل على أبويه وإخوته بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: من بوادي

الفراق إلى منازل الوصال جاء بكم من منازل التفرقة إلى عين الجمع، ومن محل التلوين إلى محل التمكين، ثم رفع بكرمه الجرم عن إخوته واستعمل الأدب حين لم يذكر ذكر القدر تنزيها لقدر الله وقدره من مباشرة العلة بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَنِيَّ وَبَنَى إِخْوَتِي﴾ أي: ليس من طبائع الأولياء حركات الأعداء، إنما كان شيئاً طارئاً بغير اختيارنا، أغرى الشيطان بالنزغات بيننا لزيادة درجتنا، وصفاء مودتنا.

ثم وصف الله سبحانه باللطف والرحمة والعلم والحكمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ لطيف حيث جعلني لطيفاً في حسن وجهي، عليم بنيتي في عفو أخوتي وقبول عذرهم، وأيضاً عليم بخلق صورتي، حكيم حيث خصني بحكمة النبوة والرسالة.

قال السيد جعفر الصادق عليه السلام: قال يوسف عليه السلام: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل أخرجني من الحب وهو أصعب.
قال: لأنه لم يرد مواجهة إخوته بأنكم جفوتوني وألقيتموني في الحب بعد أن قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبْ عَلَيْهِمْ أَلْيَوْمَ﴾.

وقال ابن عطاء: الحكمة أن السجن كان اختياره بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، والحب موضع اضطراب ولم يكن له فيه شيء، وفي الاختيار أفاق شكرانه حين خلصه من فتنة اختياره لنفسه، وعلم أن ما اختياره الحق كان فيه الخير، وخاف من اختياره لنفسه لما نجاه الله من ذلك شكره.

وقال الواسطي: قد أحسن بي إذ أخرجني من السجن بعد أن عمدت فيه سواء بقوله لصاحب السجن: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال جعفر عليه السلام: في قوله ربي لطيف لما يشاء أوقف عباده تحت مشيئته، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم، فيكون المشيئة والقدرة له لا لغيره، ثم أظهر لطفه بعباده الذين خصهم بفضله بالمحبة والمعرفة.

وقال الأستاذ: ذكر حديث السجن دون البئر لطول مدة السجن، وقلة مدة البئر.

وقال في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سر بروية إخوته وإن كانوا أهل الجفاء؛ لأن الأخوة سبقت الحفرة، ثم رجع إلى الحق بالكلية ووصف بما نال من كرمه بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من ملك النبوة والعلم بحقائق المخاطبة، وأيضاً أعطيني من ملكك ملك الربوبية حيث ألبستني شواهد

جودك وأنوار جودك حتى أملك بحسني وجمال قلوب العالمين، وأيضًا آتيتني من ملك شاهدتك وعلمتني من حقائق معرفتك.

ثم وصف الله سبحانه بالقدرة القديمة والعظمة الأزلية بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبين مكانته في قربه وساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث كاشف جمالك لي في الدنيا، وعرفتني صفاتك، وتكشف أيضًا نقاب عزتك لي من وجهك الكريم في الآخرة، ثم حاج شوقه إلى جمال الأزل، ورأى تمام نعمة الله عليه فقال تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: توفي حين أخرجتني من رؤية الحدثنان، وتدبير الأكوان وما سوي من العرفان والإيقان مما يبدو إلى من كشف قدمك وجلال أبدك وأنوار ألوهيتك، غيبتني مني فيك حتى لا أبقى أنا فيك وتبقى لي، وألحقني بمن كان حاله بهذه الصفة.

قال سهل: في قوله توفي مسلمًا فيه ثلاثة أشياء، سؤال ضرورة، وإظهار فقر، واكتساب فرض.

وقال أيضًا: أمتني فإنما مسلم إليك أمرك، مفوض إليك شافي، لا يكون لي إلى نفسي رجوع بحال ولا تدبير في سبب من الأسباب.

قال الدينوري: وألحقني بالصالحين مَنْ أصلحتهم مجالستك وحضرتك، وأسقطت عنهم سمات الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ قال: هذا كلام مشتاق لم أجانس إلا بالله.

وقال الأستاذ: قدم الثناء على الدعاء كذلك صفة أهل الولاء، ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أقول بقطع الأسرار عن الأغيار.

قال الأستاذ في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ علم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فسأل الوفاة.

ويقال: من أمارات الاشتياق ثمني الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام ألقى في الجب وحبس في السجن فلم يقل توفي مسلمًا.

ولمّا تم له الملك واستقام له الأمر ولقي الأخوة سُجْدًا له، ولقي أبويه معه على العرش، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ فعلم أنه يشاق إلى لقائه.

ثم بين سبحانه أن هذه القصص العجيبة والأنباء الغريبة الأزلية على لسان النبي ﷺ

الأمي أمراً مساوي عرفه الله بالوحي الصادق والكلام الناطق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ لتخبر العاشقين والمحبين والمؤمنين لتسلي بها ألم فؤادهم وتعرفهم بها
الصبر في بلاته، والشكر في آلائه، والشوق إلى لقائه.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿٦١﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أخبر سبحانه أنه جماله وقدرته ألبس أنوار قدرته وهيبته على آيات
السموات والأرض، وجعل كل ذرة من العرش إلى الثرى مرآة يتجلى منها لذوي البصائر من
العارفين، وذوي العقول من الموحدين، ولا يريها إلا لمن كان له بصير منور بنور الإيقان
والعرفان، وأعلمنا أن أهل الجهل والغبوة محتجبون عنها حيث يرون ظاهرها ولا يرون
حقائقها، وأيضاً آيات السموات شواهد الملكوت وآيات الأرض سلاسل بيداء الجبروت من
العارفين والمحبين.

قال ابن عطاء: نظروا إليها بأعينهم ولم يلاحظوها بأبصارهم، فلا يكشف الأبصار
لهم.

وقال: بعضهم لعلمهم من مواضع المكرمات والآيات من الله، وإلا تكاد على مَنْ ظهر
ذلك عليهم، ثم شدد الأمر سبحانه ودقق على المجهور في أمر التوحيد وإفراد القدم على
الحدوث بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وصف الكل في التوحيد
بالإشارة إلى غيره في مقاماتهم، وذلك وصف من نظر إلى الوسائط والشواهد في معرفته وما
بدأ من لطيف صنائعه بأهل معرفته حتى بلغ الشرك إلى نهاية أن مَنْ أحب الله تعالى لذوق
قلبه من مشاهدته؛ فإنه مشرك في حقيقة التوحيد؛ لأن من أحب حقيقة التوحيد حبه لربوبيته
ولوجوده لا بجلوه، ومن نظر في رؤية الحق إلى نفسه أو إلى غيره من العرش إلى الثرى لم يكن
موحداً محققاً، وهذا مذهب الجمهور من العارفين.

قال الواسطي: إلا وهم مشركون في ملاحظة الخواطر والحركات.

وقال بعضهم: إلا وهم مشركون في رؤية التقصير عن نفسه والملازمة عليها.

قال الواسطي: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفسه من نفسه، فقد
جحد الألفية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك.

قال الحسين: المقال منوط بالعلل، والأفعال مقرونة بالشرك، والحق بائناً لجميع ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسْمِعُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: معرفة الله ومحبته، وبذل الروح في طريقة، وانقياد النفس بوصف خنوعها لأمره بطريقة، ادعوا من سبقت له الحسنی نبعت العناية في الأزل إلى مشاهدة الله ومحبته وبذل الوجود له، وهذه الدعوة مني على بصيرة ويقين وصدق وذوق وكشف وبيان من الله الذي لا معارضة فيه للنفس والشيطان، وهكذا من اتبعني بوصف المحبة، وطلب المشاهدة والرضوان في الوصال، وكشف الجمال على بيان من معرفتهم، ويبقن بلا شبهة ولا شك ولا تردد.

ثم وصف نفسه بلسان تنبيه وأمره أنه منزّه من كل خيال وعلل بقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ أي: هو منزّه عن إدراك الخليقة ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما أنا من الملتفتين إلى غير يوسف عليه السلام المحبة وطلب الربوبية منه تعالى عن كل خاطر إلا يشوب فيه شوب الحدثان؛ لأن من كان في حيز الحدثان فتوحده يلحق بقدر الحدثان لا يقر قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم منه الفضل والأفضال والبر والنوال على دوام الأحوال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال جلّ وتعالى.

قال القرشي: من دعي الخلق إلى الله يحتاج أن يكون له صولة وقبول، ويكون هذه الآلات مندرجة في دعوته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا﴾ ففرق بين من دعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله. وقال بعضهم: الداعي إلى الله يدعوا الخلق إليه به لا يكون لنفسه فيه حظ، والداعي إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه؛ لذلك كثرت الإجابة إلى سبيله لمشاكله الطبع، وقل من يجيب الداعي إلى الحق؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس.

وقال الواسطي في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عمل الفوادح على بصيرة، فلا سموا ولا نموا له في حقيقته؛ فإن الناس كلهم مفاليس من صحة البصيرة والنخيرة، ولو

لقيت الأنبياء بهاتين الخصلتين لأفلستهم أجمعين، وإني بالبصيرة والعالم كلهم مرتبطون تحت الجناح بها يقومون إليها يؤمرون، والأصل بصورة قاطعة، ونخيرة فائقة لضعف البصائر أطلق من أطلق الثناء من الملائة الأعلى كَمَنْ أَبْصَرَ الْبَحْرَ أَخْرَسَهُ ذِكْرُهُ، فكيف إذا تجاوزته الأمواج وأخذته اللجج، وحقيقة بصيرة الناس هو مشاهدة رؤية الشيء، وهو قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إذ بالله صحت البصائر، والبصيرة أعلى من النور؛ لأنه لا يصح البصيرة لأحد وهو تحقق رق ملك وما دام للشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية. قال بعضهم: الدعاء من البصيرة، والتفاق من ضعف النخيرة.

وقال: البصيرة من لباس الأرواح ليس لها من الأجسام حظ.

وقال الواسطي: على بصيرة أيقن أنه ليس إليه من الهداية شيء، وقوله: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ على ذلك، وعلمهم بالتفويض، والتسليم إمرتهم، ﴿وَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ أنزه الحق عن أن يروم أحد السبيل إليه إلا به ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ادعى لنفسه مع الحق شامل الكل لمن له الكل.

وقال ابن عطاء: البصيرة أحرقت المعلوم والموعظة المحجوبة بظلم الأطماع، أما علمت أنه لا يصح بصيرة لأحد وهو تحت رق الملك وأدام الشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية، والبصيرة إذا صحت سلم صاحبها من كل آفة.

وقال ابن عطاء: الفرق بين البصيرة والسكينة أن البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة.

ويقال: البصيرة أن يطلع شمس العرفان؛ فيندرج فيها أنوار العقول.

ولي هاهنا دقيقة فيها مشابة كلام الكبراء في هذه الآية أدق مما ذكرت من الأول، أي: قل يا محمد هذه التي رأيتم مني من سنن الإلهية التي اختار لي في الأزل هي الشريعة، ووراء الشريعة الطريقة، ووراء الطريقة الحقيقة، ووراء الحقيقة حقيقة الحقيقة، وهي البصيرة وتلك البصيرة إشراق جمال القدم لبصر الروح المطمئنة الساكنة بالله، الطائفة في الله، الهائمة لله التي طارت من قفص العدم في أنوار القدرة، ولا يسكن من طيراتها في أنوار الكبرياء والبقاء إلى الأبد، فموضع البصيرة إدراك نظر تلك الروح، وموضع الإدراك بصر الروح، فتلك البصيرة نور كشف صفات الحق المتصل على السرمدية بذلك الأمور، ويزيد ذلك النور حتى يضمحل فيه ذلك الإدراك، ويغلب سطواته حتى ينطمس تلك العين في ذلك النور، فلا يبقى هناك إلا نور الحق، وكيف يبقى الحدث في القدرة وعز السرمدية بسطواتها، يذهب آثار الحدثين في أوائل ظهور العرفان، أي في هذه حالتي وسبيلي مع الله، وأنا لا أدعوكم إلى هذه فإنها قاصرة

مضمحلة من الحق في الحق بل أدعوكم إلى الله حتى تعرفونه أنكم لا تعرفونه ولا تبصرونه بالحقية، فإنه أعز من أن يدرك بالأبصار والبصيرة، وهكذا من سلك سبيلي فأنا يفني في حقيقتي، يعلم أن إدراكه بالحقية محال، وسبحان الله هو منزّه عن إدراك المدركين - وإن كان نبياً مرسلًا، وملكًا مقربًا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إنهم يظنون أنه تعالى مدرّكهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ أخبر سبحانه من سنته القائمة، ومشيتته الثابتة القديمة التي أجراها على أهل العناية من الأنبياء والمرسلين والعارفين والمحيين؛ حيث حبسهم في أسجان انتظار كشوف الغيب حتى بلغ قلوبهم إلى محل القنوط من وضوح جلاله وبرهان شئله وقده وعزته، وخافوا من سوابق قهرياته وتنزيه ربوبيته عن كون الخلق وعدمه، فلما ذابت قلوبهم، واضمحلت أسرارهم، ومنيت عقولهم، وتحيرت أشباحهم، تطلع بكرمه من مشارق أسرارهم شمس أنور ذاته، وأنوار أقمار صفاته، حتى لا يبقى من ظلمة الالتباس وغبار الوسواس أثر، وهذا حتى قوله سبحانه: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ خافوا على الغير لا على أنفسهم لئلا يهلكوا، فإنهم في رؤية مشاهدة القدم بأسراره نبعت السرمدية، هذا معنى الانتظار واضطرابهم وشوقهم إلى وضوح الأنوار.

لا من الشك في خصوصية الولاية وسبق العناية في النبوة والرسالة، وفي القراءة قري ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف؛ فعذره أنهم استغرقوا في قلزم^(١) الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق، فلما لم يروه ناداهم بلسان عبرة قهر القديم، أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فيطلع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر، وهذا دأب^(٢) الحق مع الأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به من كل ماله.

يقال: حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئًا من الأحوال إلا بعد بأسهم منها.

وقال: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، فكما أنه ينزل المطر بعد

(١) الْقَلَزَمَةُ: ابتلاع الشيء، وبه سُمِّيَ الْبَحْرُ قَلَزَمًا.

(٢) في المخطوط: آداب.

النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْثِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَعِبُونَ ﴿١٣﴾ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَحِيلٍ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَقَعَبْ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ إِنَّا لَأَنَّىٰ خَلَقْنَا حَدِيدًا أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

﴿العر﴾ إن الله سبحانه تحلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حرفاً جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزلته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزلته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته، وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلما انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا يفتح إلا لأهل الأنانية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا يفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا يفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا يفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب وألبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة، وأشار مما عقيبتها من القول إليها وإلى أسرار

ما فيها بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: ما أشرنا في الحروف أسرار الكتاب وعلامات الخطاب، ولم يكن معوجاً معلولاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: بيان وصدق واضح لمن له أهلية سر الكتاب، ولا يفهم ما فيها من الأسرار ذو فترة غافل، وذو غباوة جاهل بقوله: ﴿وَلَيْكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يعرفون حقائقها، ثم وصف نفسه سبحانه بالقدرة القديمة من الصفات وبالحكمة الأزلية من الأفعال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ خاطب العموم بخطاب العام، أي: أنا رافع السماء بلا علة من العلل، ونفي العمد إذا كان معلولاً، وخاطب الخواص بخطاب الخاص، أي: دفعها بغير عمد يرونها بالأبصار؛ ولكن رفعها بعمد ترونها بالبصائر حيث ينكشف بوصف تجليها لها، وتلك العمد القدرة القديمة الأزلية الباقية، وهي الصفات قامت الأكوان والحدثان بها، ورؤية الصفة حيث تجلت حق كما أن رؤية الذات حق، ثم بين أن قدرته شملت الملك الأعظم بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ^(١) وأيضاً خلق سموات الأرواح بغير عمد بانتهى للخلق؛ لأنها مخزونة بسلاسل أنوار الأزل إلى عالم القدم والبقاء، ثم استوى أنوار تجليه على عرش القلوب.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ شمس المعرفة، وقمر العلم، أجراهما بين سموات الأرواح عروش القلب تزيينا للملكة كواشفها ومعارفها، يجريان في عالم العقول بأنوار المشاهدة من رؤية الذات، وكشف الصفات تطلع في سماء الأرواح شمس الذات وفي عروش القلوب أقمار الصفات لانتظام أمور الربوبية وتفصيل حقائق العبودية بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يدبر أمر هموم المحبة ويفصل آيات المعرفة لوقوع أنوار اليقين وحقائق التمكين بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: بهذه الأنوار تعينون تلك الأسرار، ويرون بقلوبكم مشاهدة الملك الغفار.

قال ابن عطاء: يدبر الأمر بالقضاء السابق، ويفصل الآيات بالأحكام الظاهرة لعلكم تتيقنون أن الله يجري عليكم هذه الأحوال ولا بد لكم من الرجوع إليه، ثم وصف سبحانه عجائب الملك والملكوت، وحكمة الغالبة في مصنوعاته بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

(١) أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور لِلْحَكَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِيهِمْ في ألوان مشاهدتهم فأخبر الحق - سبحانه - بما يَقْرُبُ مِنْ فَهْمِ الْخَلْقِ مَا أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدثية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدّس الجبّار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود، تفسير القشيري (٣/ ١٩١).

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ بِسَاطِ أَرْضِي قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ بِسَاطِ نُورِ الْمَحَبَّةِ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ الْمَعْرِفَةِ؛ لئلا يتزلزل بغلبلات هيجان المواجهين، وأجرى فيها أنهار علوم الحقائق، وأنبت فيها أنواع أزهار الحكم وأشجار الفطن، وأثمرها بثمرات المقامات والحالات بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ الثَّمَرَاتِ﴾، وقرن بكل مقام حالا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ ثم يمد عليها أطلال المشاهدة، ويطلع عليها شمس العناية بدوام الكفاية بقوله: ﴿يُغِيثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ثم وصفها ووصف أصحاب هذه القلوب الذين هم رواسي الأرضين، وأنفاسهم أعمدة السماوات، ورؤيتهم مشكاة أنوار الآيات إنهم علامات شئانه وشرح مشكاة قدرته لأهل التفكير في الإرادة والتذكر في المحبة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبده فإليهم الملجأ وبهم الغياث، فمن ضرب في الأرض بقصدهم فاز ونجا، ومن كان سعيه لغيرهم خاب.

قال الجريري: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا بقدم خطوات وعلا موضعاً علياً من الأرض واستقبلني بوجهه، وقال: يا أبا محمد تراني أرجع إلى تلك الخربة، وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشد بقوله:

وَأَسْفَى مِنْ فِرَاقِ قَوْمٍ هُمُ الْمَصَابِيحُ وَالْحَصُونُ
وَالْأَسْدُ وَالْمَزْنُ وَالرَّوَاسِي وَالْخَيْرُ وَالْأَمْنُ وَالسُّكُونُ
لَمْ تَنْغِيرْ لَنَا اللَّيَالِي حَتَّى طَوَّقَهُمُ الْمَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لَنَا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عَيُونُ

قال بعضهم: الفكرة تصفية القلوب لموارد الفوائد.

قال أبو عثمان: الفكرة استرواح القلب من وساوس التدبير.

ثم وصف أراضي القلوب وما فيها من أشكال العيوب بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ قلوب المحبين متجاورات لقلوب المشتاقين، وقلوب المشتاقين متجاورات لقلوب العاشقين، وقلوب العاشقين متجاورات لقلوب الواهين، وقلوب الواهين متجاورات لقلوب الهائمين، وقلوب الهائمين متجاورات لقلوب العارفين، وقلوب العارفين متجاورات لقلوب الموحدين، وفي أرض قلوب العارفين قطع متجاورات قطع النفوس الأمارة متجاورات بعضها بعضاً، وقطع العقول متجاورات بعضها بعضاً، وقطع الأرواح

متجاورات بعضها بعضاً، وقطع الأسرار متجاورات بعضها بعضاً؛ فقطع النفوس ملحة ملحها الهوى، وقطع العقول عذبة بعذب العلم، وقطع الأرواح طيبة بطيب المعرفة، وقطع الأسرار لطيفة بلطف الأنوار متقاربة بعضها بعضاً؛ فقطعة النفوس تنبت شوك الشهوات، وقطعة العقول تنبت نورة العلوم، وقطعة الأرواح تنبت زهر المعارف، وقطعة الأسرار تنبت كواشف الأنوار ﴿وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَسِبَ﴾ العشق يسكر منها الأرواح، وفيها زرع دقائق المعرفة تأكل من حبيها العقول؛ فترى بها أنواع المعاملات، وفيها يحيل الإيمان ثمرها الإيقان يأكل منها أطياف الأسرار.

قال الله تعالى: ﴿صِتْوَانٌ وَعَمْرُ صِتْوَانٍ﴾ إيمان مع يقين وعرفان من غير علة الاستدلال، ورؤية الآيات سقي هذه البساتين من زلال قاموس الكبرياء لقوله: ﴿يُسْقَى بِعَمَاءٍ وَاحِلٍ﴾ أصل سقيها من عيون الإلهية بوصف تجليها، وهو واحد منزّه عن الأكوان والتغاير لسقيها من سواقي الصفات في جداول الأفعال، فلما وصل مياه التجلي، وأنوار الصفة إلى عالم الفعل، يورث كل صفة الفعل نوعاً من هذه الأشجار والأزهار، ففرع الفعل يتلون بألوان الأحوال، وإن كان أصل منزهاً عن العلل وتغاير الحدثان، وبعض المقام أشرف من بعض لقوله: ﴿وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ورد المعرفة أنور من نرجس المحبة، ونرجس المحبة من ياسمين الإرادة، وثمر المشاهدة أطيّب من ثمرة المراقبة، وهذه الإشارات من الله سبحانه لا يعرفها إلا العالمون بالله بعقول صافية من الأكدار، وقلوب حاضرة مشغولة بالله عن الأغيار لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالعقل ريق الربوبية في مواطن الفطنة والفطرة يزم بها الحق قلوب الخلق ويجريها إلى العبودية لوجدان المعرفة والقربة؛ فمن وافق حاله مع الله في معرفته حال واحد من أوليائه؛ فهما من أصل واحد من غير تباين وتفرق.

كما روى جابر عن النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ...﴾ حتى بلغ: ﴿...يُسْقَى بِعَمَاءٍ وَاحِلٍ﴾.

وقال الحسن البصري: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها؛ فصارت الأرض قطعاً متجاورة؛ فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، ويخرج نباتها ويحي موتاه، ويخرج هذه شجرها وملحها وخشبها وكلتاها يسقى بهاء واحد؛ فلو كان الماء ملحاً، قيل: إنما هذه من قبل الماء

كذلك الناس خلقوا من آدم ﷺ فتنزل عليهم من السماء تذكرة؛ فترق قلوبهم فتخشع وتخضع، وتقسوا قلوب وتلهوا وتسهبوا وتحفوا.

عن الجنيد قال: خلق الله الخلق وأظهر آثارها وأحيى منبتها متحرفة إلى كل فج عميق وبلد سحيق، وجعلها قطعاً متجاورات، قيعاناً متقاربات، وألواناً متشابهات، جميعها في النظر وفرقها في المواطن؛ فسقاها بهاء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل؛ فجّل ربنا - عز وجل - من قادر قاهر، جعل ذلك سبباً إلى معرفته ودلالة لربوبيته.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ لم يتلون الإرادات، وتلون المرادات كما تلون الأشجار والثمار، ولم يتلون المياه التي سبقت الأشياء المختلفة، كذلك العلم بالأشياء لا يتلون، وتتلون المعلومات؛ فمن قال: كيف فهو؟ لضيق القدرة عنده وعلل تكوين الحداث لعله إثبات الربوبية وامتدادها، ولثلا يسبق إلى الأوهام شيئاً من الكون بغير إرادته، فأراد الموت والحياة والظلمة والضياء - لم يتلون الإرادة، كذلك ما أراد من الكفر والإيمان، قال الله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «العاقل من عقل عن الله أمره»^(١).

وقال الواسطي: العقل ما عقلك عن المجازي.

ثم بيّن سبحانه إنها وصف من ذكر آلائه ونعمائه وصنوعاته ومصنوعاته لا ينفع بمن لا سعادة سابقة له مساعدته، ولا يفتح له عين غير العقل، بحيث يعجب المخاطب الكريم إنكارهم بقوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ﴾ من غاية استغراقه في بحر الكمال التوحيد، وغلبة صدق الرسالة ﷺ يعجب بمن لا يعرفه بالصدق في رسالته، حيث أطلع من جماله وشأنه شمس آيات القدم ونور قمر الكرم، وأي شيء أعجب من ذلك أن من له عقل ونظر لا يبصر فيه شواهد الملوك وأنوار الجبروت، إذ الجادات نطقت بصدق رسالته؛ فتسلاه الحق سبحانه بقوله: ﴿فَعَجَبْ﴾ أي: عجب من ذلك العجب أن من يظهر في نفسه آيات الله في كل لحظة ألف مرة ولم يرها بعين البصيرة ويموت ويحيى في كل ساعة ألف مرة، ولا يعرف وجوده من عدم، ولا عذمه من وجوده؛ فإن عند كل نفسين للإنسان موتاً وحياة فعند صعود النفس له موت، وعند دخول النفس في جوفه من طريق الحس حياة؛ ولكن ليس من الحق عجب؛ فإنه تعالى يضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ فإذا ذهب العجب إذ ليس شيء منه عجب.

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٦٦).

قال الجنيد: ذهب العجب بقوة سلطان العجب كل العجب من العجب ألا تعجب، قال الله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَتَعَجَّبْ قَوْلُهُمْ﴾.

قال الحكيم الترمذي: ليس العجب من العجب ممن يتعجب من العجب إذ لا عجب. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وصف الحق أهل الدعاوي حين تعجلوا بالمجاهدات والرياضات، واستقبلهم بالنيات الطريقة قبل ذوقهم شرف الأحوال، ووصلهم إلى طعم المواجيد البديية من الحق بلا علة الاكتساب، وبروز لمعات الغيب في أسرارهم التي يتولد منه صدق الإيرادات في المعاملات، وذلك لأنهم جميعاً حيث أهل الكرامات فتمنوا جاههم عند الخلق ولا يتعقد لهم صدق النية في طريقهم؛ فلا يفتح الله عليهم إلا طريق الهوى والنفس والشهوات وحب الجاه والمال، وعاقبهم الله بسقوطهم عن قلوب الخلق كما فعل سبحانه بأهل الرياء والسمعة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْأَمْثَلَتُ﴾.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة قبل العافية، ثم بين أن من سبق لهم العناية من المريدين يساعده بلطفه، حيث نزل قهر قدمه في مهوات طبيعته بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ ظلهم مخالفة عقائدهم واتباعهم هواهم بعد معرفتهم أفات النفوس.

قال بعضهم: إن ربك ليستر على أودائه ما أظهرها من المخالفات من ظلمهم أنفسهم باتباع هواها والسعي في موافقة رضاها.

قال أبو عثمان: إنما يرجوا المغفرة من الله من يرتكب الذنوب على خطر وخوف وحذر لا من يفتخر فيها من غير مبالاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: أنت منذر المريدين من عقوبة الحجاب، ومنذر المحبين من مواراة العتاب، ومنذرين العارفين من صولة الإجلال والجلجل والحياء في مشاهدة الكمال، ولهؤلاء لكل واحد منهم هو بجلاله تعالى معرفة له طريقة إليه، ويوفقه بها اختار له في الأزل، أي: أنت منذر مخبر عنا ونحن نهدىهم إلينا، لأنك شفيع الجنابة

لا شريك القدرة، وأيضًا لكل قوم لكل طائفة من أهل المعرفة شيخ يعرفهم طريق الحق، ولا بأس بأنه فعل الله، وفعله ميراث صفته، وصفته قائمة بذاته، كأنه هو من حيث عين الجمع، ألا ترى إلى قوله لصفية عليها السلام: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَيْكِبُ ۖ اللَّهُ رَمَى﴾.

قال ابن عطاء: إنها أنت مخبر عنا بصدق ما أكرمناك به عن القرب والزلف.

قال بعضهم: إنها أنت قائم بنا داع إلينا، فالسعيد من أطاعك وقبل منك، والشقي من عصاك وأعرض عنك.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وصف إحاطة علمه القديم في القدم على كمية كل مقدور قبل ظهوره من العدم، فاستوى علمه القديم بمقادير يومًا أوجدها بعد عدمها؛ بحيث لا ينقص مثقال ذرة، إذا لا نقص في عز ربيوته وإحاطته بمقدوراته، اصطفى سلاك مسالك معرفته، ومحبه بمقدار اختياره الأزلي قبل اصطفايتهم، فكلهم يسلكون بمقادير المعرفة السابقة والاصطفائية، وأصل الحقيقة من قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضًا أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿لَهُ مَعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يُحَافَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ هذا تصديق ما ذكرنا في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ لأنه كان عالمًا قبل كون المقدور الغيبي، وعالمًا بعد كون المقدور حين يبدو في عالم الملك والشهادة، وأيضًا عالم ما أسرار العارفين من عجائب كشوف أنوار عزته، والرقاب فؤادهم من الاشتياق إلى جماله، وعالم بشهادة شهودهم في حضرته بوصف الزفرات والتأوه والعبرات، الكبير من أن يدركه الأبصار، المتعالي تعالى كبرياؤه من أن يبقى عند سلطان كبريائه آثار الأغيار بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

وَجْهَهُ^(١).

قال ابن عطاء: العالم على الحقيقة من يكون الشاهد والغائب عنده سواء بالعلم، لا بأن يستدل، والعالم على الحقيقة هو الحق - جل وعلا - الكبير في ذاته المتعال في صفاته.

قال جعفر: كبر في قلوب العارفين محله؛ فصغر عندهم كل ما سواه تعالى، إن تقرب إليه إلا بصرف كرمه، ثم وصف إحاطته على كل الضمائر وغيب الخواطر وما يجري على الظواهر بقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: من كنتم دقائق حقائق المعرفة وأسرار لطائف الحكمة في قلبه، ولم تلتفظها بلسانه من تمكنه، وزيادة معرفته ومن جهر به بأن يتكلم من رأس سكرة هيجانه، ويخبر بغيب ما غاب من المريدين، ويشاهد خلوة الليالي؛ حيث ينكشف أنوار النزول لنظار الملكوت، وطلاب أنوار الجبروت، أو يستر حاله في ليل الملامة؛ إذ يظهر ما وجد في الخلوة في النهار منه الأبرار، ويخفي كلام المعارف في شرب الأسرار عن نظر الأغيار، فإنه تعالى لا يخفي عليه فرط خاطر المتكلم، وهدوء سره من هيجان التلويح، أو اختفاؤه بنعت الصدق والإخلاص، وظهوره بوصف غلبة الوجد والحال؛ فيقبل منه ما بدا منه، ويزيد عليه إنعامه وإكرامه، فإنه تعالى حافظ أوليائه، حيث حازهم في حيز حفظه ورعايته وأنوار بهائه، حتى يكون مستغرقاً في نوره، محفوظاً بعيون أطافه، بقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ﴾ ما أودعنا فيه من لطائف برنا، وكنمه إشفاقاً عليه، وأظهره ونادي عليه سروراً به، ومحبة له، فإنها جميعاً من أهل الأمانة في محل الحقيقة، أما المعقبات من بين يديه ومن خلفه، فالإشارة إليها أن أنوار اصطفايته الأزلية معقبات من خلفه، وأنوار العناية الأبدية معقبات من بين يديه، تحيطه وتحفظه جميعاً من أمر الله، أي من امتحانه في زمان العبودية، وذلك قهره الذي يطارق العبد العارف كل وقت غيراً منه عليه، فيكسره عساكر حسن عناية القديم، وجنود أنوار لطائف الاصطفائية، حتى لا

(١) أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعينه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وكل من العرش والشرع مقبول الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، وعمله في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما يظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

يضره القهر، ويكون محروسًا باللطف، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَحَفِظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^١ وتصديق ذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

فسوابق رحمته تحفظه من غضبه.

قال بعضهم: المحفوظ بالأسباب محفوظ بالمسبب، وأمره، فالعلماء رأوا السبب، والعارفون رأوا المسبب، قال الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

قال ابن عطاء: الأسباب تحفظك من أمره، فإذا جاء القضاء خلى بينك وبينه، كيف يكون محفوظًا من هو محفوظ من حافظه، والمحفوظ على الحقيقة من هو محفوظ بالحافظة لا محفوظ من الحافظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٢ الله سبحانه المشيئة السابقة والامتحان، فأما أمر المشيئة قائم بإرادته لا يتغير من شتان المشقة، ولم يكن ذلك ملحقًا بالأسباب، وأمر الامتحان ملحق بأسباب العبودية، ويكون العبد معانًا بالقدرة القديمة من المشيئة السابقة عليه، وأمور بالتصرف فيه، فإذا تحرك فيه سر القدر بتغير الحال فتغير ما به بقوة القدرة، فيغير الحق سبحانه عليه ما يغير بنفسه من جهة القدرة وقوته مجازاة، وكيف يكون العبد في القدرتين والمشيئتين قادرًا بشيء؟ إنما ذكر الحق سبحانه على غرف الأسباب لإدراك فهوم الخلق ونظام العبودية، فإذا ادعى المريد فوق حاله بما ادعى، يغير عليه ما أعطاه ويشد عليه موارد القرية، ويبقى في الامتحان والفرقة.

قال جعفر الصادق: لا يوفقهم لتغيير أسرارهم، ولا يغير عليهم ولو وفقهم لتغيير الأسرار ومشاهدة الباري للذلولوا وافتقروا، فقالوا به النجاة.

وقال النصر آبادي: لكل قوم تغيير وتبديل؛ ولكن لا يناقش العوام في التغيير والتبديل، مثل ما يناقش عليه أهل الصفة.

قال بعضهم: غيروا ألسنتهم عن حقائق ذكره فغير قلوبهم عن لطائف بره، وغيروا أنفسهم عن معاني العبودية، فغير قلوبهم عن دلائل الربوبية.

قال الواسطي: حذرهم ما أنزل بهم أن تغييرهم نعمة الله على أنفسهم، وذلك من خذلان الله لهم، فيزيد الله عليهم التغيير، كما قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

وقال بعضهم: إن الله لا يحرم عبيده نعمة إلا إذا قصرُوا في شكره أو نسوه.

ولي قول آخر: إن القوم لما امتحنوا وبقوا في امتحانهم ولم يلجئوا إلى الحق نبعت بالتضرع والتواضع والافتقار ولم يغيروا موضع تقصيرهم في دعوتهم في الامتحان؛ فأهملهم الله وألقاهم فيما هم فيه ولو خضعوا له أزال عنهم العلة والامتحان وأعوذهم النعمة مكان البلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. نبه سر الآية أن جمهور السالكين لا ينجون من محل امتحانه؛ فالزم عليهم نعت القهر، كما ألزم عليهم نعت اللطف، ولا ينفك عنهم نعت القهر ماداموا في العبودية كما لا ينفك عنهم نعت اللطف، وذلك تربية منه لهم، ولا ينفك عنهم وإن تضرعوا وخصوا أو سألو زوال ذلك، لكن يسهل عليهم جريان أقدار القهر فهو المجري عليهم وهو المستهل عليهم وذلك قوله: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

قال القاسم: إذا أراد الله هلاك قوم حسن في أمتهم وأراد الهلاك حتى يمشون إليها بأرجلهم وتديرهم وهو الذي أي بهم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۖ وَتُسَبِّحُ لَرَّعْدِ بِحَمْدِهِ ۖ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ ۖ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُخَادِلُونَ ۚ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. بين سبحانه هزمنا مقامات المريدین والمتوسطين حيث ذكر البرق والخوف والطمع، وأين العارفون من مقام الخوف والرجاء وهم في قنوط النكرة وأمن المعرفة، وأين هم من مقام البرق وهم محترقون في بروق شمس مشاهدة القدم والأزل، هذا حال سلاك الطريقة إذا سافروا في بيداء المحبة والشوق وهم عطاش في سراب الخيرة؛ فيتلطف بهم تعالى وينشئ شلال الشفقة وسحاب الألفة ويريم برق تجلي المشاهدة ويمطر عليهم وابل أوصال من مزن الجبال؛ فيخافون من فواته تارة، ويطمعون بقاءه تارة، وأيضا هو الذي يري المحبين برق المكاشفة، ويكشف لهم نور المشاهدة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقيل بأنوار الهيبة، ويمطر عليهم طوفان بحر الأزل والآباد؛ فيفنيهم لطوارق العظمة، ويحييهم بهاء حياة ألوهية فسر الإرادة تحت سحاب المنة، وكشف برق المشاهدة وخوف الفرقة وطمع الوصلة.

كما أنشد الشبلي:

أظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ أَضَاءَتْ لَنَا بَقَاً وَابْطَأَ رَشَاشُهَا
فَلَا غَنِيمُهَا يُجْلِي فَيَنَاسُ طَامِعٌ وَلَا غَنِيهَا يَأْتِي فَيَرْوِي عِطَاشُهَا

ثم وصف سبحانه أهل كمال ببدء توحيده الذين قاموا عليه بشرط الفناء من مشاهدة قدمه، ورؤية بقاءه بالوجد والأحوال والزفرات والعبرات والفناء والبقاء بقوله: ﴿وَسُيِّرُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الرعد هاهنا شهقات الصديقين من الوجد والهيجان في بحار العظمة من وقوع أنوار تنزيه القدم في قلوبهم؛ فرعد شهقاتهم لسان الربوبية تقدس ساحة كبريائه عن غار حوادث الحدثان والملائكة أرواح العارفين وهي فانية من إجلال عظمتها، ناطق ينطق أزليته بوصف ديموميته، وإذا أشرق شوامخ القدم والبقاء من طلوع شمس الذات والصفات؛ فيقع صواعق الكبرياء على أهل التجريد والتغريد، فيفنيهم عن الحدثان وتحرقهم عن نفوسهم؛ هكذا يفعل بهم سطوات القدوسية وسبحات الألوهية غيره على مشاهدة القدم.

قال ابن البرقي: في هذه الآية يريكم أنوار محبته فَمَنْ خائف في استنارة وطامع في تجليه.

وقال أبو علي الثقفى: ورود الأحوال على الأسرار كالبروق لا يمكن بل تلوح، فإذا لاح فربما أزعج من خائف خوفه وربما حرك من محب حبه.

قال أبو بكر بن طاهر: خوفاً من اعتراض الكدورة في صفا المعرفة، وطمعاً في الملازمة في إخلاص المعاملة.

وقال أبو يعقوب الأبهري: خوفاً من القطع والافتراق، وطمعاً في القرب والاستباق.

وقال بعضهم: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه.

قال ابن عطاء: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم.

قال ابن الزنجاني: الوعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

وقال الأستاذ: كما يريهم البرق في الظاهر؛ فيرددهم بين خوف وطمع، خوفاً من احتباس المطر، وطمعاً في محبته، وخوفاً للمسافر في مجيء المطر، وطمعاً للمقيم في مجيئه، كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوانح ثم اللوامع ثم الطوالع ثم كالبرق في الضياء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم من قام الوجود إلى كمال الحمد.

ويقال: البروق من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار الفرقان؛ فإن طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعده ولا استئثار ولا غروب لتلك الشمس.

كما قيل: هي الشمس إلا أن الشمس غيبة، وهذا الذي يفنيه ليس يغيب.

ويقال: يبدو لهم أنوار الوصل؛ فتخافون أن يجن عليهم ليالي الفرقة.
 قيل: ما تجلوا فرحة الوصال من أن يعقبه رجّة الفراق.
 كما قيل:

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوَصَالٍ لَمْ تَرُعْنِي ثَلَاثَةً بِصُدُودٍ
 وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ إذا أنشئت السحابة في السماء
 أظلم في الوقت الجوّ، لكن يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، وما لم يبك السحاب لا يضحك
 الرياض.
 كما قيل:

غمامةٌ في السماء تبكي والأرض من تحتها عروسٌ
 كذلك تنشئ في القلب سحابة الطلب؛ فيحصل للقلب تردد الحاطر، ثم يلوح وجه
 التحقيق فيضحك الروح بفنون أنوار الأنس وصنوف أزهار القرب.
 وقال في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾: قد يكون في
 القلب حنين وأنين وزفير وشهيق والملائكة، إذا حصل لهم على قلوب المريدين خصوصاً
 اطلاع ييكون وما لأجلهم لاسيما إذا أوقع لواحد منهم فترة، والفترات في هذه الطريقة
 الصواعق التي تصيب بها من يشاء، وما قيل ما كان أوليت من وصلنا إلا سراجاً لاح ثم
 انطفئ.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسُطُ
 كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٢﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ دعوته الحق مناداته في الأزل، نبعت محبته وشوقه إلى
 أرواح المحبين والعارفين؛ فاستجاب بإجابته المحبة والشوق إليه، وأيضاً له دعوة الحق على
 لسان الصديقين يدعون بها المسترشدين إلى مشاهدة جماله، حين وصفوا جلاله وجماله ليبدو
 في قلوبهم آثار محبته، وهذه الدعوة سالمة من معينة الهلاك، وما سواها من الدعوة؛ فهو دعوة
 صاحب النفس والجهل من رأى الرياء والسمعة لا يفضي إلا إلى الاحتجاب والعمى عن
 طريق الصواب.

قال الله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٢﴾ أي: وما دعاء المرابين من أصحاب
 نفوس والهوى إلا في ضلال عن طريق الحق والإخلاص.

قال ابن عطاء: أصدق الدعاوي دعاوي الحق؛ فَمَنْ أجاب داعي الحق بلغه إلى الحق وَمَنْ أجاب داعي النفس رمي به إلى الهلاك.

قال بعضهم: داعي الحق من يدعو بالحق إلى الحق.

وقال جعفر: من دعي نفسه فاني نفسه داعي، وهو الكفر والضلال، وذلك محل الخيانة والإسقاط من درجات من أهل الأمانة؛ فإن الدواعي يختلف داعي الحق وداعي إلى الحق وداعي إلى طريق الحق، كل هؤلاء دعاة يدعون الخلق إلى هذه الطريق لا بأنفسهم؛ فهذه طرق الحق وداعي يدعو بنفسه، فإلى أي شيء دعي فهو ضلال.

وقال الأستاذ: دواعي الحق صارخة في القلوب من حيث البرهان؛ فتدعو العبد بلسان الخواطر، فَمَنْ استمع إليها بسمع التفهم استجاب ببيان العلم، وفي مقابلتها دواعي الشيطان، وهي موبقة للعبد تنزين المعاصي؛ فَمَنْ أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب بصوت الغي ومعها دواعي النفس، وهي قائدة العبد بزمam الخطوط، وَمَنْ ركن إليها ولاحظها وقع في هوان الحجاب، ومن الدواعي دواعي الحق بلا واسطة ملك ولا بدلالة عقل ولا بإشارة علم؛ فَمَنْ أسمعه الحق ذلك استجاب لا محالة بالله لله.

وقال في قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هواجس النفس ودواعيها تدعوا إلى ما في الطريقة شرك، وذلك شهود شيء منك وحسبان أمر وتعريج في أوطان الفرق، والعنى عن حقائق عين الجمع.

وقد وقع لي في زمان الصبا من هذا القبيل في دواعي الحق كلمات مسطورة، وذلك بما تفحصت أسرار الخواطر؛ فوجدت دواعي اللطف والقهر من الحضرة على سبعة أنواع، دعوة الحق خاصة بلا واسطة، ودعوة لمسة الملك، ودعوة الروح، ودعوة العقل، ودعوة القلب، ومن قبيل قهره دعوة النفس والشيطان.

والآن أتمم عشرة الثلاثة الزيادة، اثنان من قبيل اللطف، والواحد من قبيل القهر، الاثنان لسان السر ولسان أسرار السر، والواحد لسان الفطرة الطبيعية، وأما دواعي القهريات وأولها دواعي الشيطان وعلامتها النزع، وهيجان النفس، والطبيعة واحتراق الصدر، وغمة في القلب غبار في عين الروح، وخفة في النفس، وانجذاب في الطبيعة إلى طلب حظوظ الشهوات، وأكثر ما يلقي الوسواس ما يفضي إلى الكفر والكبائر؛ فَمَنْ أجابت تزندق وهلك في أودية التشبيه والتعطيل والأهواء المختلفة، والثاني هواجس النفس الأتارة تدعو النفس والشيطان صاحبهما بلسان العلم إلى مهالك الرياء والسمعة.

وقيل: مَنْ يعرف ذلك المكر والخديعة؛ فَمَنْ أجابها صار مرتعنا بالبطالة والكسالة

والقساوة، ويكون محجوبًا عن حسن الإرادة والصحة، والثالث داعي الفطرة الطبيعية وذلك سر عجيب هو تحرك الفطرة المخمرة باستعداد قبول الشهوة الخفية التي في مكان غيب القلب، وهو يكون بعد أن يحركها سر القهر إلى طلب ما خلق لها من لذائذ ميلها وحركتها إلى ما يقوي به من الصفات البشرية والشهوة، وذلك الشهوة الحقيقية التي أضمرت الفطرة الطبيعية.

وتلك ما استغاث منها النبي ﷺ وقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية من أجابها بعد حركتها دعوتها صار محجوبًا عن روح الذكر وأنوار الفكر»^(١).

والسبعة التي من دواعي اللطف، أولها: دواعي القلب وهو أمر منه لصاحبه بترك الاشتغال لتزكية الأعمال ووقوع صفاء الأذكار لوجدان طمأننته ولذة اليقين، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فَمَنْ أَجَابَهَا بِنَعْتِ المراقبة وتقديس الخواطر يذوق طعم صفاء العبارة ويمجد روح الملكوت ونفحة الجبروت.

والثاني: داعي العقل وهو أن يدعو صاحبه إلى تزكية النفس ومجاهدتها ورياضتها وفنون الطاعات والخلوات؛ فَمَنْ أَجَابَهُ وصل إلى أنوار المراقبات والمحاضرات.

والثالث: داعي الروح وهو أن يدعو صاحبها إلى الخوض في تفكير الغيوب، وطلب أسرارها، وطلب رؤية أنوار الملكوت، واستماع أصوات الجبروت، وطلب كشف هلال المشاهدة في المحاضرة وسقي شراب المحبة بكنوس الشوق؛ فَمَنْ أَجَابَهَا بِنَعْتِ خروجها من أوصاف البشرية وتحليه بالمحلية الروحانية وإسقاط علل الإنسانية يجد حلاوة بروق التجلي من مرآة الإيقان والعرفان.

والرابع: داعي الملك وهو الهامة بأمر الله سبحانه يلهمه بعلم يفرق به بين الحق والباطل من خطوات اللطيفة والقهرية وما يثول عاقبته متابعة الكتاب والسنة؛ فَمَنْ أَجَابَهُ يقع في بحر الحكمة ويستخرج منها جواهر علوم الإلهية.

والخامس: لسان داعي السر وهو أن يدعو إلى تجديد المهمة من الأكوان والحدثين؛ فَمَنْ أَجَابَهُ يصل إلى كشف مشاهدة الرحمن، ويرى بنور تجليه عجائب أسرار المعرفة في خزائن الربوبية.

والسادس: داعي السر وهو لسان النور يتأديه من وراء غيب الغيب إلى أفراد القدم عن الحدود والانخلاع من الوجود، والانسلاخ من جلد العبودية، والإيقان بصفات الربوبية؛ فَمَنْ يصل إلى مطالعة مشارق أنوار التجلي الصفات والذات.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/١٦) بنحوه.

والسابع: داعي الحق بنفسه بلا واسطة هو ثلث مراتب، المرتبة الأولى: مناداته بلسان الأفعال الخاصة ودعاؤه به إلى مشاهدة الصفات في الفعل وهو مقام مشاهدة الالتباس؛ فَمَنْ أجابه يقع في بحر العشق الذي يعرفه بأمواج اللطف حيث يدعو بلطائف الالتباس ولا يبقيه فيه بل يخرج به إلى معادن الصرف ويريه بعض أحكام الصفة لأعلى حد الكمال.

المرتبة الثانية: داعي الصفات وذلك يدعو إلى النظر إلى طلوع أقمار الصفات من مشارق الذات ليدقه من كل صفة ذوقاً، ويستعين من عين كل صفة شرباً ليكون كاملاً في حل موارد أنوار الذات؛ فَمَنْ أجابه يقع في نور السماء والنعوت فيطير بجنحي.

وذلك كلام الصوف المقرون خطابه بكشف الحقيقة من عين الذات يدعو إلى الفناء في كنه القدم وأزلية الذات وأبديته؛ فَمَنْ أجاب سره وسر سره إلى ذلك يقع في بحر طوابع شمس، القدم وقدم القدم وأعمار الأبد وأبد الأبد، وينكشف له العين وعين العين، وعجب العجب وغيب غيب الذات؛ فيصير متصفاً بالذات والصفات بعد فثاته في الذات، والصفات بنطقه بعد ذلك نطق الأزل وسمعه سمع الأزل وعينه عين الأزل ويده يد القدرة بقوله: بعد خروج هذا العبد من رسوم العبودية إلى جلال الربوبية كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً؛ فيؤيده عودة وجلال وجوده إلى معرفة نفسه بنفسه، ثم يعرف نفس العبد للعبد، فيعرف الحق بالحق ويعرف نفسه بالحق بعد نسيان نفسه في الحق هذا معنى قوله: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ثم وصف نفسه تعالى بإذعان الوجود بنعت الثلاثي بين يدي كبريائه.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَّلُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يسجد له أهل الملكوت بعد أن شاهدوا عظمته وخوفه وإجلاله، ويسجد له آدميون والجن بعد أن شاهدوا أنوار ربوبيته، فمنهم من سجد طوعاً لما كوشف له من أنوار جماله تعالى؛ فيسجد ويخضع بحبة وشوقاً وعشقاً ومعرفة وتوحيداً، ومنهم من سجد له كرهاً في مقام المجاهدة وتكليف العبودية والمتابعة كرهاً لما لم يكشف له دواعي العشق والمحبة والشوق من الحق ومن اللطف معاينة أن العشاق والمحبين يسجدون طوعاً لأنهم في محل العبودية من العشق والمحبة، وأن أهل الكمال من العارفين والموحدين يسجدون له كرهاً لأنه في مقام شهود الربوبية، وهم في الحالين هناك في كرههم في السجود إحداهما أن بعضهم عاين عين القدم وجلال الأزل والأبد، ولا يرون سجود الحدثن يليق بعزة الرحمن بل يرون الحدثن متلاشين في أول بديهة سطوة جلاله، وأن الخلق والخلقة من خدمته وهو بعزته أعز من أن يقرب إليه أحدًا بسجوده له.

والثاني: أن بعضهم شربوا في بحار الأزلية شربات الإنصاف والاتحاد، ولكن لم يكونوا

كاملين في مقام الانفراد والاتحاد بالربوبية؛ فيسجدون له كرهاً، فإن العبودية شرك في الربوبية ومن كمل منهم لا يكون حاله حال العبودية بل حاله حال الربوبية من استغراقه في أحديته، وليس هناك للعبودية أثر، وسكران التوحيد ينسلخ عنده علة الحدين؛ فالعبودية على من هو سكران غائب، بل فإن عن الوجود في الوجود، وأيضاً الإنسان علم الصغير بالصورة، وعالم الكبير المعنى فصورته من أعلاها السماوات، ومن أسفلها الأرض، ومن في السماوات والأرض الروح والعقل والقلب والنفس وجنودهم؛ فيسجد الأرواح طوعاً عند كشف الجمال روحاً وأنساً، وتسجد القلوب طوعاً عند كشف الجلال إجلالاً وتعظيماً، ويسجد العقل طوعاً عند كشف الآلاء وأنوار الأفعال ذكراً وفكراً واعتباراً، وتسجد النفوس كرهاً عند كشف أنوار الجبرية والقهارية خوفاً وخشية، وذلك لأنها خلقت أبده بها فيها من نظر القهر ونكرته، ويسجد ظلال الأرواح والقلوب، وهي الأسرار الممكنة التي جعلها الله مرآته بحقائق العرفان؛ فيسجد الأسرار التي هي ظلالها عند طلوع شمس الألوهية من مشرق الأزلية، وغروبها في مغرب الأبدية، وتوحيد أو فناء في بقائه، واضمحلالاً في قدم، وتسجد ظلال النفوس، وهي هواها، راغمت عند طلوع شمس القهريات كرهاً لكره النفوس استسلاماً وانقياداً على جناب الربوبية.

قال الجنيد: العارف طوعاً، والمعرض كرهاً.

وقال: إذا نزلت به المصائب ذل، وإذا جاء به الرخاء بل.

قيل: السجود على قسمين، ساجد بنفسه، وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود، وفرق بين من يكون بنفسه ساجداً، وبين من يكون بقلبه واجداً فأغرمهم من جمع بين الوصفين فيكون ساجداً بنفسه وواجداً بقلبه.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: لا تستوي المظلموس عين قلبه عن شهود مشاهدة القدم ورؤية أنوار الأزل بمن يبصر بصر روحه بنور الحق جمال الحق على نعت السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليفة، ولا يستوي ارتفاع ظلمة دخان النفوس في معارك العبودية بسطوع أنوار الأرواح إلى صفائح القدس، ينعت بنفسها في مجالس الأنس، وأيضاً من يبصر بنور الحق جمال الحق على نعت

السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليفة، ولا يستوي من يبصر رسوم العالم برسوم العلم، ولا يستوي نور وجوه العارفين بما يبدوا من غيره القهر عن وجوه المدعين.

قال أبو عثمان: لا يستوي من كُحِّل بنور التوفيق وهدي لطريق الخدمة، ومن عمي عنها وحرم دونها، أم هل تستوي من هو في أنوار التوفيق مع من هو في ظلمات التدبير. وقال أبو حفص الأعمى: حقاً من يرى الله بالأشياء ولا يرى الأشياء بالله، والبصير من يكون فطرة من ربه إلى المكونات.

قال الأستاذ: من جملة الظلمات الركون في أوطانها التدبير، ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التدبير.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهٗ مَعَهُ لَا فَنَدُوا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْأَهَادُ ۝١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَخْذَكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَسَ ۝١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ۝٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيْفَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتهمُ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝٢٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٦﴾ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ۝٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

رَأَيْبًا ۖ شَبَّهَ اللَّهُ سبحانه أنزل الماء من السماء إلى الأودية بما نزل من مياه بحار أنوار ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحدين والعارفين والصديقين والمكاشفين والمشاهدين والعاشقين والمشتاقين والمحبين والموقنين والمخلصين والمتعبدين والمريدين، وكما يحتل الأودية بضعفها، وقوتها وضيقها، وبسطها ماء المطر، فكذلك تلك القلوب تحتل مياه أنوار قاموس الكبرياء من الذات والصفات والأوصاف والنعوت والأسماء والأفعال بقدر حواصلها، وأقدار استعدادها من المحبة والمعرفة والتوحيد، وكما أن قطرات الأمطار يكون في الأودية سيلًا؛ فتحمل المسيل زبدًا وحثالة، وما يكون مانعًا من جريان السيل في الأودية؛ فكذلك يكون تواتر أنوار تجلي الحق يكون سيل المعارف والكواشف؛ فتسيل من جداول القلوب أنهار العيوب، فتحتمل من أوصاف البشرية، وما دون الحق الذي يمنع القلوب من رؤية الغيوب؛ فيذهب به عن صحاري القلوب وقيعانها التي هي أصدافهم العالية في طلب جواهر الحكم من بحار المشاهدة، فتصير بعد ذلك صافية مقدسة من زبد الرياء والسمعة والشك والشرك والنفاق والخواطر المذمومة، فيبقى القلوب في بحر المشاهدة سابعة في نور الأزل والأبد بلا علاقة، ومانع من العرش إلى الثرى، وذلك من بركة تجلي مشاهدة الله سبحانه التي بدت من الحق بلا واسطة ولا سبب، كما أن المطر ينزل من السماء بلا سبب من أسباب الخلق، ولا بعلقة طلبهم بل محض فيض فياض القديم الأزلي على الذي ارتضى برضاه من أهل رضوانه في الأزل؛ فمياه تلك البحار في أودية تلك القلوب، بعضها من بحر الذات، وبعضها من بحر الصفات، وبعضها من بحر الأسماء، وبعضها من بحر الأوصاف، وبعضها من بحر النعوت، وبعضها من بحر الأفعال، فالذي من بحر الذات يجري في أودية قلوب الموحدين والعارفين والمنفردين والمتجردين، ويذهب بها في قلوبهم من أوصاف الحدوثية، وينبت أوراق ورد الربوبية من هناك يدعون الاتحاد، ويولھون في الانبساط.

وأما الذي من بحر الصفات؛ فيجري على قلوب العاشقين والمحبين والمشتاقين، ويذهب منها أوصاف النفوسية، وحثالة الطبيعة، وينبت فيها نرجس الأنس وياسمين القدس، ومن هناك يدعون السكر والهيجان والمواجيد.

وأما الذي من بحر الأوصاف والنعوت؛ فيجري على أودية قلوب الموقنين والمشاهدين والمكاشفين، ويذهب منها غبار الخطرات وزبد الهواجسات، وينبت فيها رياحين الدقائق والحقائق.

وأما الذي من بحر الأسماء؛ فيجري على أودية قلوب المخلصين والمتعبدين، ويذهب منها وسواس الشيطان والميل إلى الحديث، وينبت فيها زهر الحكمة واللفظة.

وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خص كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد لطافه، ومشرب من مشارب أعطافه.

قال الواسطي: خلق الله ذرة صافية فلاحظها بعين الجبال فذابت حياء منه، فسألت، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ فصفا القلوب من وصول ذلك الماء إليه وجمال الأسرار من نزول ماء ذلك المشرب.

وقال ابن عطاء: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً....﴾ الآية.

فقال: هذا مثل ضربه الله للعبد، وهو أنه إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذي قسم الله للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: قسمة النور، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: في القلوب الأنوار على ما قسم له في الأزل.

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَدَّاهُ جُفَاءً﴾^(١) فتلك النور يصير القلب منوراً، فلا يبقى فيه جفوة، و﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يذهب البواطيل، ويبقى الحقائق.

وقال بعضهم: أنزل الله تعالى من السماء أنواع الكرامات؛ فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فكل قلب كان مؤيداً بنور التوفيق أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور التوحيد أضاء فيه سراج المعرفة، وكل قلب زين بنور المعرفة أضاء فيه أنوار المعرفة، وكل قلب قيّد بنور المحبة أضاء فيه لهيب الشوق، وكل قلب عمر بلهيب الشوق أضاء فيه أنس القرب، كذلك القلوب ينقلب من حالة إلى حالة حتى تستغرق في أنوار المشاهدة، وأخذ كل قلب بحظه ونصيبه إلى أن تبدو الأنوار على الشواهد من فضل نور السر.

ثم إن الله سبحانه ضرب مثلاً آخر في تقديس أسرار معاملات العارفين بقوله: ﴿وَمِمَّا

(١) كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتظهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي، ومثل العمل الخالص الذي تصفى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس، ومثل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى أو الفضة، إذا صفت وذهب خبثها؛ ليصنع بها الحلي والحلل؛ ليتزين بها أهلها. البحر المديد (١٦١/٣).

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَرْيَةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۖ شَبَّ أَعْمَالُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَمَا يَنْفَتِحُ بِمِفْتَاحِهَا مِنَ الْغَيْبِ بِجَوَاهِرِ الْأَرْضِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَغَيْرِهَا إِذَا أَذْيَبَا لَا تَخَاضُهَا الْحُلِيِّ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ هَا زَبَدٌ مِثْلُ أَنْ لَهَا زَبَدٌ، وَمِثْلُ زَبَدِ السَّيْلِ فِي ذَوْبَانِهَا؛ فَيَذْهَبُ زَبَدُهَا بَعْدَ إِذَابَتِهَا سَرِيعًا مِنْ غَلْبَةِ النَّيْرَانِ، وَيَمْكُثُ فِي الْبُوتَقَةِ أَصْلُهَا الصَّافِي؛ فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَيَدْخُلُ فِي بُوتَقَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَحْتَهَا نَيْرَانُ الْمَحَبَّةِ؛ فَيَذْهَبُ مَاءُ الْحُظُوظِ وَنَظَرُ الْأَغْيَارِ، وَبَقِيَ مَا هُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ، وَكَذَلِكَ الْخَوَاطِرُ فَخَاطِرُ الْحَقِّ يَبْقَى فِي الْقَلْبِ وَخَاطِرُ الْبَاطِنِ يَطِيرُ وَلَا يَبْقَى؛ لِأَنَّ خَاطِرَ الْحَقِّ مِنْ أَنْقَالِ إِلْهَامِ الْحَقِّ؛ فَيَمْكُثُ فِي الْقَلْبِ خَاطِرُ الْوَسْوَاسِ هَذِيانَ لَا أَصْلَ لَهُ؛ فَيَفْنَى سَرِيعًا مِنْ غَلْبَةِ أَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ.

قال ابن عطاء: ما كان من الأحوال صدقاً ثبت في القلوب بركتها، وما كان غير ذلك فإنها لا تبق فيه خيراً.

قال الشبلي: احتملت القلوب من الزوائد على مقدار ما فتح الله عليها من أنواع بره. وقال بعضهم: القلوب أوعية وفيها أودية؛ فقلب يسيل فيه ماء التوبة، وقلب يسيل فيه ماء الرحمة، وقلب يسيل فيه ماء الخوف، وقلب يسيل فيه ماء الرجاء، وقلب يسيل فيه ماء المعرفة، وقلب يسيل فيه ماء الأنس، وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعاً القربة والقرب من الله عز وجل، وبعد هذه القلوب قلوب قاسية حرمة التوفيق؛ فهي في ميادين الشقاق يخبطه إلى أن يبلغها الله مقام الأشقياء.

ولي إشارة أخرى: أن الله سبحانه أوقد نيران المحبة في صميم الأرواح من تأثير تجلي جماله؛ فلما حيت الأرواح من حرق المواجيد تؤثر حرارتها في القلوب، فتلقي القلوب ما فيها من أنواع الشهوات، ثم هاج فطرتها السليمة إلى طلب الحق ومشاهدة؛ فيتعرف من شدة التهاب نيران المحبة والشوق، ويصعد عرفها من قارورة عرق الكواشف والمعارف إلى الأدمغة؛ فيسيل ذلك العرق على أودية العيون وصحاري الوجوه؛ فما أطيب ذلك العرق ويا لها من طيبه ولذته.

كما قيل: كل جرمة فمن أنفاسهم قدحت، وكل داء فمن عين لهم جاري. ويقال: إن الأنوار إذ تَلَأَلَتْ في القلوب نفت الآثار الظلمة؛ فنور اليقين يفني ظلمة الشك، ونور العلم يفني قمة الجهل، ونور المعرفة يمحو أثر النكرة، ونور المشاهد يفني آثار البشرية، وأنوار الجمع يفني آثار التفرقة، وعند أنوار الحقائق يتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تفني صدقة الليل من حيث حسيان تأثير الأغيار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ سَبَّحَانَهُ إِلَى قلوب أوليائه الذين يسمعون بأسماع أرواحهم وقلوبهم وعقولهم وأسرارهم كلام الحق سبحانه من الحق بلا واسطة؛ فيعرفون مكان نزول القرآن على سيد المرسلين، وإمام المتقين -صلوات الله عليه من الله سبحانه بمكان سماعهم كلام الحق من الحق، ويعلمون صدقه في رسالته بما شاهدوه من براهين صفات القدم، ليسوا بمقلدين من حيث طباعهم وإيمانهم الفطري، إنما هو صفة أهل الظاهر من أهل التقليد الذين ساهم العوام بانتسابهم إلى العمى، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا أهل النهى من العارفين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ سَبَّحَانَهُ﴾.

قال الشبلي: من استدل عليك بربه ليس كَمَنْ يستدل بك على ربه، وليس من تحقق بما أنزل إليك من جهة الحق كمن يحققه من جهتك وليس من شاهد جيء أن الأشياء في الأزل كمن شاهده في وقت ظهوره.

وقال الأستاذ: أي: لا يستوي البصير والضرير، والقبول بالوصلة، والمودة بالحجة، والمؤهل للتقريب والمعرف للتعذيب.

ثم وصف العلماء بالله القائمون بشرط الوفاء مع عهد الأزل بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ﴾ عهد الله مع الصديقين ما عاهد أرواحهم في مشاهدة الأزلية، حيث عشقها بجمال وجهه فوقوا ميثاق العشق بالعشق، والعجب كيف يطبق العاشق أن ينقض عهد معشوقه، وعشقه صار روحه، ومن يطبق أن يفارق روحه، فوفاؤهم معه لزومهم على جناب عزته بنعت الفناء في عبوديته.

قال بعضهم: الموفون بعهدهم القائمون له على شروط العبودية من اتباع الأمر والنهي.

قال ابن عطاء: لا ينقضون الميثاق الأول في وقت يلي أنه لا رب لهم غيره فلا يخافون غيره ولا يرجون سواه ولا يسكنون إلا إليه، ثم ناد سبحانه في وصفهم بوصولهم مراده منهم في طاعته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي: الذين يصلون بأسرارهم مشاهدته وقربته، ويخشونه به حيث وقعوا بقلوبهم في بحر إجلاله، ويخافون من عتابه ودقائقه معهم في تغيير إياهم في حركات ضمائرهم، بأن يميل إلى غيره.

وقال ابن عطاء: الذين يديمون على شكر النعمة ومعرفته منه المنعم لدوام النعمة إليهم

وإيصاها لهم.

قال بعضهم: هم المتجاوبون في ذات الله.

قال الواسطي: الخشية منه حقيقة الخوف منه ومن غيره، قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

وقال بعضهم: الخشية مراقبة القلب ألا يطالع في حال من أحواله غير الحق فيمقته.

قال ابن عطاء: الخشية سراج القلب، والخوف آداب النفس.

وسئل أبو العباس بن عطاء عن الفرق بين الخوف والخشية، قال: الخشية من السقوط عن الدرجات الزلف، والخوف من الحرق بدركات المقت.

وقال بعضهم: الخشية أرق، والخوف أصلب.

وقال الأستاذ: الوفاء بالعهد باستدامة العرفان وبشرائط الإحسان، والتقى من ارتكاب العصيان، ولي خاطر في الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية مكان العلم والمعرفة بالله بنعت إجلال جلاله وثمرته الحياء، والخوف مكان محبته المقرونة بعبوديته، وثمرته الوفاء بعهد المحبة بنعت اضطراب الخاطر من حزن فراقه.

ثم زاد الله وصف القوم بالصبر في بلائه لأجل لقائه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عما دون الله بالله الله، ولكشف نقابه، والنظر إلى وجهه، وأيضاً صبروا في الله فيما ورد عليهم من أثقال موارد أسرارهِ كتماناً بها العظم إحاطة أنوار أزلته على قلوبهم طمعاً لوصولهم، أي: إدراك كل الكل.

قال أبو عثمان: صبروا عن المناهي أجمع لا لخوف النار بل بسبب النهي وحرمة عظمة الله.

وقال بعضهم: هذا مقام المريدين أمروا أن يصبروا على أرادتهم وعلى ما يلحقهم من الميثاق، ولا يطلبوا الرفاهية، ولا يرجعوا إليها، ويكون ذلك ابتغاء الحقيقة بصحيح الآراء.

ثم زاد في وصفهم بإقامة الصلاة وإنفاق أموالهم بقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ راقبوا الله وشاهدوه بتقديس الأنفاس، ويبدلون وجودهم ظاهراً وباطناً لله وفي الله.

ثم زاد وصفهم بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بحسنة مشاهدته ولذة محبته ولذيد شوقه سيئة معارضة النفس ومتابعة الهوى.

قال الأستاذ: يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيبدلون الإنصاف ولا يطلبون

الانتصاب إن غلبهم أحد بالجفاء قبلوه بالوفاء، وإن أذنب عليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوا غيرهم.

كما قيل: إذا مرضنا أتيناكم نفوركم وتذنبون؛ فتأتيتكم ونعتذر.

ثم وصف امتنانه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ لَمَنُ عَقِبَى الدَّارِ﴾ ٢٣٨ جئْتُ عَدَنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ الجنات بالتفاوت الجنة مع العموم بساتين الملوك، وجنة الخصوص معاينة ذات الجبروت؛ فإذا جلسوا على كراسي جنة الملوك يزورهم أخوانهم من الملائكة ويهتفهم بها فازوا وما ظفروا بقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي: من كل أبواب الأهلية بينهم وبين الملائكة في مقام المعرفة والمحبة، قال تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: سلامة دوام الوصال وبركة أنوار جماله الحق عليكم ولكم إلى الأبد بلا انقطاع ولا هم أبداً بما صبرتم في طول الشوق إلى جماله، ونظركم في بلائه.

وقال بعضهم: سلام عليكم بما صبرتم معناه عا لنا.

ثم وصف الله أضدادهم بخروجهم من مكان عبوديته في اتباعهم هواهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ ميثاقه معهم لم يكن مع شرط التوفيق ولو ساعدتهم في العهد نور العناية لا يقدرّون على نقض العهد؛ لأن الموفق بالتوفيق يكون محفوظاً بعين رعايته عن كل خطر.

وقال أبو القاسم الحكيم: نقض العهد هو السكون إلى غير سكون إليه، والفرح بغير مفروح به، ثم وصفهم بحب الدنيا والفرح بحياتها بقوله: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ لا يكون الفرح بالدنيا إلا لمن كان معزولاً عن الفرح بمشاهدة الله، ومن كان فرحه بالله كيف يفرح بما دون الله، وإن كان الجنة فإذا لم يفرح بالآخرة فكيف يفرح بالدنيا، والدنيا عند الآخرة كقطرة دم عند بحر الزلال.

قال الواسطي: الدنيا مدرة ولك منها غبرة، ومن أسترته غبرة فهو أقل مستحقاً، ومن ملكه جناح بعوضة أو أقل منه فلذلك قدرة.

وقال أيضاً: لا تدعو الدنيا تفرقكم في بحارها وغرقوها في بحر التوحيد حتى لا يجدوا منها شيئاً.

وقال بعضهم: أخبر الله أن الدنيا في الآخرة متاع، والآخرة أقل خطر في جنب الحقيقة من خطر الدنيا في الآخرة.

وقال أبو عثمان: هوَ الدنيا وحقرها في أعينهم لثلا يشق عليهم تركها بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ قطع أسباب إضلال أهل الضلال وعلّق الهداية ب رجوع الراجعين إليه.

قال: يضل من يشاء في الأزل ويرشدهم طريق الإنابة إليه يضلهم عن مشاهدة جماله، ويهدي العارفين إلى مشاهدة وصله.

قال بعضهم: يضل مَنْ قام بنفسه واعتمد عليها مَنْ سبيل رشده ويهدي إلى سبيل رشده مَنْ رجع إليه في جميع أموره، وتبرأ من حوله وقوته.

وقال جعفر: يضل عن إدراكه وجوده من قصده بنفسه، ويوصل إلى حقائقه من طلبه به، ثم وصف الذين أنابوا به إليه حيث أبصروا ما برز من وجه نبيه ﷺ من أنوار الرسالة، وأيقنوا حقائقه ولم يحتاجوا إلى آية أخرى كطلاب البرهان من رسول الرحمن بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ بَيَّنَّ سبحانه أن ذكر المؤمنين مقرون بإيمانهم؛ فأمنوا بالغيب من حيث الاعتقاد بالغيب بيا وهبه الله من نور الإيمان وطمأنينة قلوبهم بذكر الله، والله تعالى غيَّبهم آمنوا به ولم يكونوا مطمئنين بإيمانهم بالله لكن مطمئنين بذكر الله فإيمانهم غيب أيضاً، وذكرهم غيب ولو شاهدوه مشاهدة كشف صار غيَّبهم طمأنينة قلوبهم به، وسقط عنهم الذكر؛ فأما ما دام لم يصلوا إلى مشاهدة المذكور فاقرنت طمأنينة قلوبهم بذاكره، وذكره للمؤمنين على معنيين، ذكر الظاهر على ضربين، ذكرهما اللسان، وذكرهما الأذان، وذلك عند سماعهم ذكر الله، وهذا الذكر الذي من طريق اللسان والسمع يزيد طمأنينتهم من حيث التربية والتواجد وذكر الباطن، وذلك على حزين أيضاً، ذكر قلوبهم قدرا الله وجلاله، وذلك من قوله: رؤية آلاء الله ونعمائه، وتفكر في آياته وصنائه، وذلك كسب القلوب، وما لم يكن من الذكر مكتسباً؛ فذكر الله قلوب أصفائه، وذلك يتعلق بواردات غيب أنوار وجوده حيث انكشف لها وهو ذكر خالص إلهي بلا علة ولا سبب وخالص طمأنينتها به وما سواه من الذكر؛ فهو مغلول قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أو بذكره في نفسه إياهم وذكرهم له بعد ذكره هم، فإذا كان الذكر يأتي من محل الإيمان فيتولد منه الرهبة والرغبة والوجل والخوف والقلق والرجاء وحسن الظن.

وأما إذا كان ذكر الإيمان يكون من محل الإيقان أي: الذين أيقنوا مشاهدة الله ولقائه فهم ذاكرون الله بنور إيقانهم في وجوده ونور الإيقان أشرق من نور الإيمان؛ فنور الإيمان كصبح الأول ونور الإيقان كصبح الثاني، فأهل اليقين في طمأنينة قلوبهم بذكر الله في رؤية أنوار لوائح الحضرة ولوامع نور الإلهية، فذكر قلوبهم بقدر وضع تلك اللوامع، فإذا ذكرهم

الله بكشف أنوار حضرته لهم تطمئن قلوبهم بذكره بعد طمأننتهم بذكرهم؛ فيتولد من ذكرهم الصدق والإخلاص والتسليم والرضا والتوكل وخالص العبودية، وإذا كان معنى آمنوا شاهدوا الله يكون طمأنينة قلوبهم هاهنا بالله وكشف وجوده، وذلك مثل ذهاب الصبح برؤية طلوع الشمس.

فالأول: من الإيمان علم اليقين.

والثاني: من الإيقان عين اليقين.

والثالث: من مشاهدة الرحمن حق اليقين، وفي مقام المشاهدة زال الذكر والذكر باستيلاء أنوار عظمة المذكور، وهنا ليس مقام الطمأنينة بل مقام فناء القلوب والأرواح والعقول والعلوم والفهوم والأفكار والأذكار في عظمة الملك الجبار، ويتولد من هذا المحبة والوله والشوق والعشق والمعرفة والأنس والتوحيد والتجريد والتفريد والفناء والبقاء، ومعنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وذكر القلوب يعني بالله تطمئن الأرواح. ومحل الذكر أربعة أشياء، وذكر القلوب من رؤية الآيات، وذكر العقول من رؤية الأفعال في الصناعات، وذكر الأرواح من رؤية أنوار الصفات، وذكر الأسرار من رؤية سبحات الذات، وها هنا الذكر متصير؛ لأن الذكر غير متناه، فإذا رأى العارف مشاهدة صرف ذاتية فرديته على قدر وجوده، وحاشا أنه محيط بالديمومية والأزلية، فما كان غير مكشوف له فهو مذكور وهو ذاكرة، وإن كان في مشاهدته فهذا الذكر في مشاهدة المذكور، وهذا ذكر عجب ما عرفت طريقاً في المعرفة أدق من هذا، ولا أعرف أحداً يشير إلى هذا المقام إلا قليلاً من كبراء القوم.

ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: إذا رأوه وأرادوا زيادة كشف الذات والصفات، وعلموا أنهم لم يروه بقدره، ولو رأوه بقدره فنوا فيه فيما لم يروه تطمئن القلوب لرجاء وصولهم إليه، وذلك الزيادة متصور، وإن لم يتصور الإحاطة، وأيضاً معنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ذكر الله لهم في الأزل بحسن اصطفايتهم بولايته ومعرفته؛ فبقيت لهم تلك الطمأنينة إلى الآباد.

قيل: القلوب على أربعة أنحاء، وقلوب العامة اطمأنت بذكر الله تسبيحه حمده والثناء عليه لرؤية النعمة والعافية، وقلوب الخاصة اطمأنت بذكر الله، وذلك في أخلاقهم وتوكلهم وشكرهم وصبرهم فسكنوا إليه، وقلوب العلماء اطمأنت بالصفات، والأسامي والنوع، فهم ملاحظون ما يظهر بها، ومنها على الدهور.

وأما الموحدون كالغرقى لا تطمئن قلوبهم بحال كيف تطمئن بذكر من حملوه أم كيف

تطمئن بذكر من لم يؤمنهم بل خوفهم وحذرهم.

قال الحسين: من ذكره الحق تحير في أزله اطمأن إليه في أبده.

وقال النهرجوري: قلوب الأولياء مواضع المطالع، وهي لا تحرك ولا تنزعج بل

تطمئن خوفاً من أن يرد عليه مفاجأة مطالعة فتجده مترسماً بسوء الأدب.

وقال الواسطي: هذه على أربعة ضروب:

فالأول: للعامة لأنها إذا ذكرته ودعته اطمأنت إلى ذكرها له فحفظها منه الإجابة

للدعوات.

والثاني: إطاعته وصدقته ورضيت عنه فهم مربوطون في أماكن الزيادات اطمأنت

قلوبهم إلى ذلك فكانوا ممزوجين بالملاحظة بشواهدهم ومقصودي الطبايع برؤية طاعاتهم.

والثالثة: أهل الخصوص الذين عرفوا الأسماء والصفات، وعرفوا ما خاطبهم الله به؛

فاطمأنت قلوبهم بذكره لها ألا بذكرها له وبرضاء عنها لا رضاها عنه.

والرابعة: خصوص الخصوص، وهم الذين كشف لهم عن ذاته وعلمهم علم صفاته؛

فأدرج لهم الصفات في الذات، وأراهم أن ما تعرف إلى الخلق بأقدارهم وعلمهم أخطارهم؛

فعلّموا أن سرائرهم لا يقدر أن تطمئن إليه ولا يسكن إليه، ومن كانت الأشياء في سره

كذلك إلى ماذا يسكن ويطمئن؟ فلا يجد قلبه طمأنينة لقدر المكان إليه، كلما عادت الزيادة

عليه رآها حجاباً لا يستطيع بالبر والنعم؛ لأنها حجاب مستور وهباء منثور، فإن عزمت

الدخول في هذا المقام؛ فاحتسب نفسك وأعظم الله أجرك.

وقال الأستاذ: قوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله في الذكر وجدوا سلوتهم وبالذكر وصلوا

إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله لهم؛ فذكرهم الله بلطفه، وأثبت الطمأنينة في

قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال: إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم واستبشرت واستأنست أسرارهم،

قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تقريراً لها على ما نالت بالله من الحياة.

قال بعضهم: قلوب أهل المعرفة لا تطمئن إلا بالله ولا يسكن إلا إليه؛ لأنها محل نظره

قيل اطمأنت إليه لأنها لم تجد دونه موضع أنسه وراحته.

وقال الروذباري: اطمأنت إليه؛ لأنه جللها بالنور وشحنها بالأنس والسرور؛

فاطمأنت إليه ثم أنه سبحانه لم يقنع بذكر الإيمان منهم حتى قرنه بالعمل الصالح بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ أي: أبصروا بعيون

أسرارهم أنوار أزال الأزال، وآباد الآباد وبها وصل إليهم من نور الأحدية أيقنوا ما لم يصل

إليهم منه بما وجدوا منه، ثم اختاروه بما فيه أعمالهم بشرط فنائهم في أوليته وآخريته، وذلك عملهم الصالح فأخبر من جزائهم.

وقال: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ أي: شجر القدم وذات القديم جل ثناؤه لهم، وأغصان الصفات الأزلية الأبدية بشرط الكشف والمشاهدة مأوى أسرارهم وصل شجر الذات بوصف التجلي أكناف أرواحهم، وهناك حسن مآب قلوبهم، وأيضا أي: طوبى لمن هذا حاله مع الله وحسن رجوعه منه إليه، وطوبى لمن كان عروس الأزل شاهد مجلسه طوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن في نعمة من وجهك الحسن.

قال الجريري: طوبى لمن طاب قلبه مع الله لحظة من عمره، ورجع بقلبه إلى ربه في وقت من أوقات.

وقال الشبلي: طوبى لمن غاب عن حضرته، وحضر في غيبته وأصبح وأمسى مراعيًا لسريته.

وقال الجنيد: طاب أوقات العارفين بمعرفهم لذلك قال النبي ﷺ: «وطيب القلب من النعيم»^(١).

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ صدقوا ما ضمنتم لهم من الرزق والعمل الصالح ما كان بريئا من الشرك والرياء والعجب.

قال الأستاذ: طابت أوقاتهم؛ فطابت أنفاسهم.

ويقال: طوبى لمن قال أحق طوبى له، ويقال: طوبى لهم في الحال، ولهم حسن المآب في المال.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ لئلا لم ير الحق سبحانه أهلا لرؤية وحدانيته، وإدراك حقائق توحده من الخلق إلا سيد المرسلين صلوات الله عليه اختاره بالرسالة وإنشاء سر التوحيد؛ فأمره أن ينزعه بلسان الحقيقة.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبت ربوبيته حيث رباه بنور ذاته وصفاته، ونفى غيره ولا غيره بالحقيقة دخل في بحر النفي، بقوله: ﴿لَا﴾ ووصل إلى جواهر وجود القدم والهووية فدار بسره بين دائرة هو واضمحل عن كينونية وجوده؛ فتحرك سر طلب الأصل فيه،

(١) لم أقف عليه.

وعرف أنه لا يدركه بنفسه؛ فاستعان بالأزل في معرفة الأزل، واستعاذ به فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ فلما عجز لكل عن حمل هذه المعاني، وحمل السيد حمل جميعهم بالله صار من العالم غرض الكل، لذلك قال: «لولاك لما خلقت الكون»^(١)، ولما قام مقام الكل فهو تعالى لم يبال بالكل، وهذه كما قيل:

وكننت ذخراً أفكاري لوقت فكان الوقت وقتك والسلام

وكننت أطلب الدنيا لحر فأنت الحر وانقطع الكلام

﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قَطِيعَتُ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ السَّمَوَاتُ بَلْ لَلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ أَلْعَادَ ۝ وَلَقَدْ أَسْتَشِرُّ بِرُسُلِي مَن قَتَلَكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۝ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ عاتب المؤمنين بهذا القول أي: العتبي لهم بأن يطردوا من رؤية ربهم إلى معادن الأرواح ليعرفوا أهل الاصطفائية ممن دونهم من أهل الحجاب، ولا يطيعون إلى إيمانهم؛ فإن سرَّ التقدير حرِّي يمنعهم من مطالعة جماله.

قال الواسطي: هو على ما يقدر من تصحيح حكمه وأحكام قبضته، ولا يبدل القول لديه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمته وثرية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته،

(١) ذكره علي القاري في «المصنوع» (١/ ١٥٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢١٤) بنحوه.

وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتها إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبة بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق.

قال الجنيد: بالله قامت الأشياء، وبه فنيت، ويتجليه حسنت المحاسن وباستنارته قبحت وسمحت.

قال محمد بن الفضل: لا تغفل عمن لا ينفك عنك وراقبه، وكن حذراً.

قال الله: ﴿أَقَمَنَّ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ثم بين سبحانه أن من لم يعرف المحيط بكل شيء القائم على كل نفس ممن دونه من الخدثان، إن ذلك من قهره عليه وتزيين كفره في عينه بقوله: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ زين الله مكروهم بمكره فيهم في الأزل في عيونهم حتى رأوه مستحسنًا وهو من أتبج القبانح؛ لأنه موضع هلاكهم وصددهم عن معرفته وحسن مشاهدته، وكيف يخلصون بمكروهم من مكروه ويعرف مساوي مكروهم بعد أن زين الله مكروهم لهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ والذين ءاتينتهم الكتب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك بهٗ إليه أذعوا وإليه مقاب ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون، وهو جنة مشاهدة الذات تجري من تحتها أنهار الصفات، ثمره ثمر أشجار الصفات والذات للمتجربين عن الخدثين دائم بأنهم يعينونها بلا حجاب، ويعيشون في ظلال تجليها بلا غصة ولا حجاب، تلك منازل أهل الأشواق إلى رؤية الملك الخلاق المتبرئين من الشرك والنفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِٗ إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ مادام في حيز الحدوثية، وإن رأى ما رأى عليه من أنوار الربوبية ووفق عليه بالألا يلتفت إلى ما بدا في نفسه

من أنوار الربوبية، ويستقيم في حال العبودية؛ فإن الربوبية في العبودية مكر الحقيقة، ومن نظر من العبودية إلى الربوبية في نفسه فقد أشرك؛ لأنه مخدوع بالله عن الله.

سئل أبو حفص عن العبودية، قال: ترك كل مالك، وملازمة ما أمرت به.

وقال أبو عشان: العبودية اتباع الأمر على مشاهدة الأمر.

وقال ابن عطاء والجنيد: لا يرقى أحد من درجات التوحيد حتى يحكم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات، وأوائل البدايات هي الفروض الواجبة، والأوامر الزكية، ومطايا الفضل، وعزائم الأمر، فَمَنْ أَحْكَمَ عَلَى نَفْسِهِ هَذَا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ بَإِ بَعْدَهُ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بَيَّنَّا حُكْمَ عَرَبِيًّا يَا عَرَبِي، وذلك الحكم ما حكمنا في الأزل بأنك خير البرية، وأعطيناك استعداد قبول تخلُّقك بخلقنا واتصافك بصفاتنا، فإذا اتصفت بصفتنا رأيتنا بنا وخرجت في مشاهدتنا من الالتفات إلى غيرنا من العرش إلى الثرى؛ فوصفناك في كتابنا بقولنا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فتجريد توحيدك حكم عربي بيَّناه منك لأمتك؛ ليتصفوا بصفاتك ويتخلَّقوا بخلقك، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تخلقت بخلقنا.

قال بعضهم: أحكام العرب السخاء والشجاعة، وهما من عرى الإيثار.

قال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تصحيح حكم القيافة؛ لأنه لا حكم ينفرد به العرب إلا حكم القيافة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿١٠٠﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿١٠١﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وصف سبحانه تمكين نبيه ﷺ في رسالته، كما وصف الرسل بالتمكين؛ حيث لا يغيره صفات البشرية عن أسرار ما وجد من الله من حقائق القرية والمحبة، بل الأزواج والذرية كانت له ۞ معينة في بحر سكره، ولولا قسمته أبحر نسبته متعلقة من تحت سفينة نبوته في بحر محبته ومعرفته، لطارت تلك السفينة بصرصر رياح الأزل في هواء الأبد، ولبقى الحدثان بلا عروس الرحمن، ولم يظفر أحد بحقائق الإيثار.

ألا ترى كيف قال ﷺ من رأس سكره: «كلميني يا حيراء»^(١)، وذلك لأن الله أراد بقاءه بين الخلق ليرحمهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ولا يعذبهم ببركته.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وأعلم الجاهل بهذه الآية أنه إذا شرف ولياً وصديقاً بولايته ومعرفته، لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحاً في ولايته.

قال محمد بن الفضل: جعلنا لهم أزواجاً وذرية، فلم يشغلهم ذلك عن القيام بأداء الرسالة ونصيحة الأمة وإظهار شرائع الدين.
ويقال: أن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الاشتغال لا يؤثر في حاله ولا يضره ذلك من وجه.

ثم بين سبحانه أن آيته ومعجزته وكرامته خارج عن تصرف الخلق وتعللهم، وإن كان نبياً أو صديقاً أو ملكاً، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِفَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حسم أطماع المريدين عن طلب الكرامات بالمجاهدات، ومنهم من التمسها عن المشايخ، ثم بين سبحانه أن أوان ذلك بأجل معلوم في وقت معروف، بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل مقام ومرتبة من مراتب العارفين لها زمان عند الله سبحانه، لا يأنها أحد قبل بلوغه إلى ذلك الوقت إلا بعد أن يكون مصطفى في الأزل بالدرجات والكرامات.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأيضاً لكل كشف من صفاته وذاته وقت في مراد الله من أوليائه، وذلك الكشف من العيون الصفات والذات لا يكون للعارف إلا ويكون في قلبه شأن نحو صفة من البشرية، وإثبات صفة من العبودية وزيادة نور في إيوانه وعرفانه بالربوبية، أيضاً لكل مقدر في الأزل في قضية مراد الله من الربوبية والعبودية والنعمة البلية وقت معلوم في علم الله لا يأتي إلا في وقته.

قال جعفر الصادق في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ للروية وقت.
وقال ابن عطاء: لكل بيان ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريقة، ولكل طريقة أهل، فتمز لم يميز بين هذه الأحوال فليس له أن يتكلم بالعرف والحقائق، وعلم هذه الطائفة ومفهوم الإشارة إخبار الحق عن الصفتين الأزليين، وهما الإرادة والعلم، أي: إرادة في إنفاذ القضاء علم في ذاته في كيفية وقوع ما أراد وقوعه من أمور الربوبية؛ فالكتاب علم ذاته ثبت إرادته في علمه ما يشاء، يحو ما يشاء من القضاء والقدر، فبقي الكتاب كما كان في الأزل،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٣٥٧)، وابن عجيبة في البحر (٢/٣٢٢)، وحقي (١١/٩٣).

وبقيت الإرادة كما كانت في الأزل ويتغير أحكام المقضيات والمقدورات للعباد بالعلم والإرادات، بقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يمحو بإرادته القديمة من نفوس المريدين صفات البشرية ويثبت في قلوبهم صفات الروحانية، ويمحو من قلوب المحبين معارضة الامتحان، ويثبت في أرواحهم حقيقة نور الإيقان، ويمحو عن أسرار العارفين أوصاف العبودية، ويثبت فيها أوصاف الربوبية، وأيضاً يمحو عن ألواح العقول صورة الأنكار، ويثبت فيها نور الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان، ويثبت فيها لذنيات علم العرفان، وأيضاً يمحو عن أرواح الصديقين أعلام المرسومات المكتبات، ويثبت فيها نواذر الإلهيات في حقائق المراقبات، وأيضاً يمحو عن عيون العقول شواهد الآيات، ويربها أنوار الصفات، وأيضاً يخفي في القلوب آثار الصفات، ويبدئ لعيونها أنوار الذات، وأيضاً يمحو بفضل خاطر الوسواسية والهواجسية عن قلوبهم الخاصة، ويثبت فيها خواطر حقائق المعرفة، وإذا كان أسرار أهل التوحيد في بحر التجريد بنعت التفريد سائحة فيغرقها الحق في بحر نكرات القدم تارة، تبحيرها وفنائها ويغرقها في بحر معرفة الأزلية ببقائها مع الحق ومشاهداته، فالفناء حق القدم يغلب على البقاء، والبقاء حق الأبد يغلب على الفناء، وذلك من بدء نور الذات في الصفات، ويده نور الصفات في الذات، لتلك الأسرار والصفات والذات أصل تلك الغرائب والعجائب بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أم الكتاب المقدورات في الأفعال والصفات، وأم الكتاب الصفات والذات؛ لأن الكل منه بدأ وإليه يعود، فما كان في كتاب الأفعال من القدرات يمحوه ويثبت، وما كان في الذات والصفات منزّه عن المحو والإثبات، فكل متبدل؛ فمن أم الكتاب يتبدل من المقدورات، وكل محو ينهي، فمن أم الكتاب ينهي.

قال الواسطي: منهم من جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم بنفسه، فقال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، فَمَنْ فني عن الحق بالحق قيام الحق بالحق فني عن الربوبية فضلاً عن العبودية.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من شواهد حتى لا يكون على سره غير ربه، ويثبت من يشاء في ظلمات شاهده حتى يكون غائباً أبداً عن ربه.

وقال ابن عطاء: يمحوا الله ما يشاء عن رسوم الشواهد والأعراض، وكل ما يورد على سره من عظمتة وحرمتة وهبته ولذعات أنواره، فَمَنْ أثبتة فقد أحضره، وَمَنْ محاه فقد غيبه والحاضر مرجوعه لا يعدوه، والغائب لا مرجوع له، يعدوه أو لا يعدوه.

قال الواسطي: يمحوهم عن شاهد الحق ويثبتهم في شواهدهم، ويمحوهم عن

شواهدهم ويثبتهم في شواهد الحق، يمحوا اسم نفوسهم عن نفوسهم، ويثبتهم برسمه. قال ذو النون: العامة في قبض العبودية إلى أبد الأبد، ومنهم من هو أرفع منهم درجة غلبت عليهم مشاهدة الربوبية، ومنهم من هو أرفع منهم درجة جذبهم الحق، ومحامهم عن نفوسهم، وأثبتهم عنده، لذلك قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾. وقال سهل: يمحو الله ما يشاء ويثبت الأسباب، وعنده أم الكتاب القضاء المبرم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان.

وقال ابن عطاء: يمحو الله أوصافهم ويثبت بأسرارهم؛ لأنها موضع المشاهدة. وقال الشبلي: يمحوا ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت ما يشاء من شهود الربوبية ودلائلها.

وقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء يكشف عن قلوب أهل محبته أحزان الشوق إليه، ويثبت بتجليه لها السرور والفرح.

قال جعفر: الكتاب الذي قدر فيه الشقاوة والسعادة لا يزداد فيه ولا ينقص، ﴿وَمَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَمِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

ويقال: يمحو العارفين بكشف جلالهم، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله. وقال الأستاذ: المشية لا يتعلق إلا بالحدوث والمحو، والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث، وصفات الحق سبحانه من كلامه وعلمه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله، وقيل يمحوا الله عن قلوب مريديهم الإرادات، ويرتقي بهم إلى أعلى الدرجات.

قال الواسطي: يمحوا ما يشاء عن رسمه ما أثبت في رسمه، ويمحو ما يشاء عن رسمه، وهم الأولياء وخاصة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مَعْصِيَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، وظاهر الآية معروف بفتح الأمصار لأهل الإسلام، ولكن فيه إشارة عجيبة أنه تعالى إذا أراد بجلاله أن يزور عارفاً من عرفائه وعجبا من أحبائه تجلى من ذاته وصفاته له؛ فيقع آثار تجليه بنعت العظمة والكبرياء على الأرض فتروي الأرض من هبة جلاله حتى تصير كخردله، وذلك من غيبة من الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يا ليت للعاشقين لو يرون ذلك

لطاروا من الفرح به.

كما قيل: لو علمنا أن الزيادة حق لغرسنا الطريق بالياسمين، وأيضاً ينقصها من أطرافها؛ لأن أوليائه وأوتاده في أطراف الأرض، فإذا قبضهم نقص أطراف الأرض بقبضهم عنها.

ألا ترى إلى قوله ﷻ: «في آخر الزمان لا يبقى صاحب موافق إلا في أطراف الأرض، وكل واحد منهم في كل يوم أجر مائتي شهيد، وإذا أراد خراب الأرض أوى أوليائه إليه، منها ليهلك أهلها بعدهم؛ لأن دعاءهم وبركتهم أثبت أهل الأرض في عوافي ذلك من غيره الله، ولا مُدفع لغيرته»^(١) بقوله: ﴿وَاللَّهُ تَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

قال محمد بن علي: تخرب الأرضين بذهاب أهل الولاية من بينهم؛ فلا يكون لهم مرجع على ولي في نوابيهم ومحنهم ويتواتر عليهم المحن والنائبات، فلا يكون فيهم من يكشف الله عنهم بدعائه فتخرب.

وقال أبو عثمان: هم الذين ينصحون عباد الله، ويحملونهم على طاعة الله، فإذا ماتوا مات بموتهم مَنْ يصحبهم.

وقال أبو بكر الشاشي: شيء يسبغ عليهم الرزق، ويرفع عنهم البركة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أحكام الحق ماضية على عباده فيما ساء وسر ونفع وضر، فلا ناقض لما أبرم ولا مفضل لمن هدى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَوَّلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ في كلام أهل المعرفة بموت الأولياء.

ويقال: هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى

الله.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِّي الدَّارُ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ كل قصاره منتهى؛ لأنه سقط في عكزه ومكره قائم على كل مُسكر وله فعل لا بكل قوم مكر؛ فمكره بالمريدين أن يزين لهم أعمال الطاعات ويجعلهم مسرورين بها، ومكره بالمحبين سكونهم إلى راحت مواجيدهم؛ فيجعلهم مستلذين بها فيصيروا محجوبين عما راؤها من مكاشفات جمال الحق، ومكره بالعارفين أن يوقفهم على

(١) ذكر نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣٤٨)، وعزاه للطبراني.

ما وجدوا، حتى ظنوا أنهم واصلون إلى الكل، ومكره بالموحدين أن يغرقهم في بحر البقاء، ومشاهدة الأبدية ولا يطوق عليهم سطوات عزه القدم التي توجب الفناء في النكرة، والفناء في نكرة النكرة، ومن ثم في بحر النكرة؛ فمكره أياسه من الرجوع إلى البقاء المذكور، والكل في مكره، ومكرهم من مكره، ومكره وراء مكرهم يحتالون أن يخرجوا من مكره بمكرهم، ولا يخرجون من مكره إلا بمكره.

قال الحسين: لا مكر بين من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، وللحدث اقتران مع القديم في وقت، والحق بائن وصفاته بائنة إن ذكروا فبأنفسهم، وإن شكروا فلاأنفسهم، وإن أطاعوا فلننجاة أنفسهم، ليس للحق منهم شيء بحال؛ لأنه الغني القهار.

قال ابن عطاء: المكر حقيقة ما مكر بهم الحق حتى توهما أنه يمكرون ولم يعرفوا أنهم مكر بهم، حيث سهل عليهم سبيل المكر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ في الآية إشارة عجيبة، أي: لو يطالبون شهيد بيني وبينكم بصدق رسالتي؛ فانظروا فإني موضع شهود جمال الحق، فإن ترونني بعين الحقيقة ترون جلاله وجماله وبهاءه في مرآة وجهي؛ فشهود تجليه شاهدي، وأيضاً شاهدي من هذا حاله من الأولياء والصديقين، ومن عنده ينكشف علم ذاته وصفاته وتصديق ذلك إشارته ﷺ بقوله:

«من رأيي فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»^(٢).

وأيضاً ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسرارهِ وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققاً في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفراشات الصادقة، والآيات الواضحة.

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٥٥ / ٣) بنحوه.

قال ﷺ في وصفهم: «إِنَّ فِي أُمَّتِي عِدَّةً ثَلَاثِينَ مَكَلِّمِينَ، وَإِنَّ عَمْرًا مِنْهُمْ»^(١).

وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداواتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

قال سهل: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعمل بعلمه عزيز، والإخلاص في العمل أعز، والإخلاص عزيز، والمجاهدة في الإخلاص أعز، والمجاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وأدب محل الأنس أعز.



سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَعَاتُ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَعْدُ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

﴿الر﴾ في الألف ثلاثة أحرف ولام وفاء، والإشارة فيها إلى ألفته لقلوب أوليائه، واللام لام الولاية، كأنه أليف أوليائه، والراء إشارة إلى رحمة السابقة في اصطفايته، كأنه قال بالألف إنا، وباللام الأزل، أي أنا في الأزل رحمة أوليائي واصطفيتهم لرؤية جمالي وراحة وصالي هذه الصفات التي سبقت في اصطفايته واصطفائيته أمرك وأخبرتكم ومحبة أمتك، وما أخبرت بإشارة ﴿الر﴾.

﴿كِتَابٌ﴾ إن هذا كتاب مجتبي، ﴿أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ﴾ لتعلم فضيلتك وفضيلة أمتك، ﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ إذا عرفناهم سبق عنايتي لهم تخرجهم بنور

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٣/١٧٤)، وابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/٧١).

كلامي وأخباري عن كرمي ورحمتي عليهم عن ظلمات طبيعتهم، وغواشي غفلتهم إلى سعة فضاء كرمي ونور بسطي وانبساطي، وأيضاً تخرجهم من ظلمات الظنون إلى نور اليقين، وأيضاً من ظلمات العدم إلى أنوار القدم، ومن ظلمات النفس الأمارة إلى نور المشاهدة، ومن ظلمات المجاهدة إلى نور المكاشفة، ومن ظلمات رؤية غيري إلى نور رؤية قربي.

قال جعفر في قوله: ﴿كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾^(١): عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم ونجاة أمتك، أنزلناه إليك لتخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى أنوار السنة، ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب.

قال أبو بكر بن طاهر: من ظلمات الظن إلى أنوار الحقيقة.

قال أبو حفص: الظلمة رؤية الفعل والنور رؤية الفضل.

قال الأستاذ: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات التفرقة إلى أنوار الجمع، ثم إخراج الهداية من علة الكسب بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثم بيّن ذلك النور بأن هذا ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو طريق العبودية الذي اصطفاه الحق لعرفان الربوبية على قدرهم لا على قدره؛ فإنه عزيز ممتنع عن مطالعة الحدث حقائق قدمه، وهو محمود في أفعاله وذاته وصفاته بألسنة أجبائه بها أناسهم عبوديته وهدهم إلى ربوبيته.

ثم وصف نفسه بالألوهية التي بدأ منه الكل وإليه يرجع الكل، وما كان وما سيكون، وما هو حاضر من الملك والملكوت في تصرفه وتدبيره، يهدي فيه ويهدي به، وبها فيه من دلائل صنعه وربوبيته عافيه إلى مشاهدة جلاله وعظيم كبريائه بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى أجبائه أي أن الكون وما فيه لي من أراد ذلك؛ فليسأل مني لا من غيري، ومن أرادني فلا يلتفت إلى مالي.

قال الواسطي: الكون كله له، فمن طلب الكون فإنه المكون، ومن طلب الحق وحده سخر له الكون بما فيه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وصف الله المرائين الذين

(١) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إِنَّهُ لَكِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور التجنّب بإذن ربهم وبإرادته ومشيتهم، وسابق حكمه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (٤/ ٢٤).

يؤثرون جاه الدنيا ورياستها على طلب الولاية وشرفها، ويصدون المريدن عن طريق القاصدين إلى الله ويصرفون وجوههم إليهم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ في ظلمات القهر ولا مخرج لهم منها أبداً.

قال أبو علي الجوزجاني: مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا حَرَّمَ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ حَرَّمَ عَلَيْهِ طَلَبَ طَرِيقِ نَجَاتِهِ، وَمَنْ طَلَبَ طَرِيقَ النِّجَاةِ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْوُصُولَ إِلَى التَّفْضِيلِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لكل نبي وصديق اصطلاح في كلام المعرفة، وطريق المحبة مع قومهم فيعرفهم طريق الحق باصطلاحهم الذي يعرفه قومه وأصحابه تسهيلاً لسلوكهم وتيسيراً لإدراكهم ولو تكلموا بلسان الحق والحقيقة لم يعرفوا ذلك فهلوكوا؛ فيفتح تلك الحقائق مَنْ يشاء من المريدن، ويحجب من يشاء منهم عنها غيره عليها بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وإذ قال موسى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَيِّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فيه إشارة أن أيام القدم وأيام البقاء، أيام القدم أولية الأولية المنزهة عن دهر الدهار، والزمن الأثار، كان في كان قبل كان وكما كان فيما كان الآن؛ فعشق بنفسه على نفسه، وكان عروس نفسه ولم يكن في كان إلا كان؛ فمضى على كان أيام قدم كان بلا عشق ملهوف، ولا محب معروف، ولا حيران سكران، ولا عارف مكاشف، ولا مؤنس مستأنس يتمتعون بجمال القدم في القدم فيا ويلنا من وصال فائت منا، وجمال غائب عنا تذكرت أياماً ودهراً صالحاً؛ فبكيت حزناً فهاجت حزني.

وأما أيام البقاء آخرية الآخرة بلا مرور الحدثن ولا علة الأكوان والأزمان بقاء سرمدى وجمال أحدي ووصال أبدي ويبقى لشهود عشاقه ومطالعة جمال أهل أشواقه كأنه قال ذكرهم أيام القدم ليفنوا حسرة على ما فات عنهم.

على ما فات أبكي من حياتي	وأيام مضت في النزهات
وذكرهم أيام البقاء ليقبوا	من فرح وجد إنها أبدا
دنا وصال الحبيب واقتربا	وأطربا للوصال وأطربا

وأيضًا أي: ذكرهم أيام وصال الأرواح في عالم الأفراح، حيث كاشفت قناع الربوبية عن جلال وجد الصمدية لها حتى عشقت بجمالي وبقيت في وصالي وذاتك طعم محبتي من بحر قربتي ما أطيبها، وما ألدّها حين كلّمتها بعزیز خطابي، وعرّتهم حقائق جمالي، فقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من غاية محبتي وشوقي لها، قالوا: بلى من شوقي ومحبتي أين تلك الأرواح حيث باعدت من مزار الوصال، وأيام الكشف والجمال؛ ليذكروا زمان الصفاء ولطائف الوفاء؛ ليزيدوا شوقًا على شوق، وعشقًا على عشق.

وكانت بالعراق لئلا ليالي سلبناهن من ريب الزمان
جعلنا من تاريخ الليالي وعنوان المسرة والأمان
وأيضًا ذكرهم سرور مشاهدتي وخوفهم عن مقاطعتي؛ فإن شأنها عظيم وخطرها

جسيم.

نهايات راحت النفوس وصالها
وغايات لذات العيون لقاءها
واشواقه إلى تلك الأيام الصافية عنكدورة البشرية
واشواقه إلى أيام كشف النقاب بلا علة العتاب
كان لي مشرب يصفو برؤيتكم
فكدرته يد الأيام حين صفا

ثم بين سبحانه أن فوت أيام القدم رزية عظيمة لكل صبار في الفراق، وإن رجاء وصول أيام البقاء سرور عظيم لكل شكور أنعم المشاهدة والمعرفة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال بعض المشايخ: ذكرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفة وتعريفه التوحيد قبل حلولها في الأشباح.

سقيًا لها ولطيبها وحسنها وبهائها أيام لم يلح النوى بين العصا ولحافها

ويقال: ذكرهم الله بأيام الله هي أيام التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يقول بفعله الأزلي عبادي ولم يكن للعبد عين ولا أثر ولا للمخلوق منه خبر، حين لا وفاق بعد ولا شقاق ولا وفاء ولا جفاء ولا جهد للسابقين ولا عناء ولا ورد للمقتصدين ولا بكاء ولا ذنب للظالمين ولا التواء، كان متعلق العلم، متناول القدرة، مقصورا الحكم على الإرادة، ولا علم له ولا اختيار ولا زلة ولا أوزار، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور.

قال الأستاذ: الصابر غريق المحن لكنه راضي بحكمه، لذيق العيش بسرّه، وإن كان مستوجباً لرحمته عن خلقه، والشكور غريق المنن، لكنه محبوب بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه، بل هذا واقف مع صبره، وهذا واقف مع شكره، وكل ملازم بحده وقدره، والله غالب على أمره مقدس في نفسه متعزز بجلال قدسه.

قال أبو الحسن الوراق: في هذا الآية فتح عليهم سبيل الشكر لثلاث تغييروا بالنعم. وقال: عرفهم أن الوقوف مع النعمة يقطع عن المنعم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَرَأَيْتَ اللَّهُ لَعَنَ يَأْتِيَكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَقْوَاسِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ علق زيادة نعمه عليهم بزيادة شكرهم، ولا علة لفضله وكرمه، ولا تعلق لفيضه بكسب عباده وشكرهم وصبرهم، بل شكرهم وصبرهم من توفيقه لهم، أن من عرف عجزه عن شكري لأزيد من معرفته بي، ولعجزه عن إدراك حقيقة معرفتي، وحقيقة شكري يكون عبداً شاكراً.

وهذا القول الحسين حين قال: إني عجزت عن موضع شركك فأشكرك فأشكر عني؛ فإنه الشكر لا غير.

وهذا اعتراف داود ۑ فقال: إلهي لكل شكر شكر، لأنه يكون بتوفيقك؛ فعجزت عن شركك فقال سبحانه: «الآن شكرتني يا داود»^(١) أيضاً لئن شكرتم اصطفايتي لكم بمعرفتي في الأزل، وتعرفون حقيقتها لأزيدنكم بكشف مشاهدتي لكم حتى تعايونني وتبصرونني بعيون المعرفة، والقلوب الخالصة، والأرواح العاشقة، والعقول المتميزة في جلالي.

قال حمدون: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلًا.

قال بعضهم: مَنْ شَكَرَ النِّعْمَةَ زَادَهُ مِنْ أَنْعُمِهِ، وَمَنْ شَكَرَ الْمُنْعَمَ زَادَهُ مَعْرِفَةً بِهِ وَحُبًّا لَهُ. وقال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي

(١) ذكره القرطبي في «الفسير» (٣/ ٣٤٣)، وابن كثير في «التفسير» (٣/ ٥٣٠).

لازیدنکم رویتی.

وسئل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر.

وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة.

قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ [الكهف: ٢٨] (بالغداة والعشي يريدون وجهه)، لا الزيادة، وفضله ولاحتته وبره، بل الحصول مع الملك في مقعد صدق عند ملك مقتدر.

ويقال: لئن شكرتم وجود الطافي لأزيدنكم شهود أوصافي.

ثم يبين سبحانه استغناءه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، وإيمان المؤمنين، وكفران الكافرين، بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وصف تنزيهه وغناه وحده وفيه إشارة، أي مادام أنا مستغن عن الأكوان والحدثان، فلا أبالي بغفرانهم وإن أدخلهم جميعا في بحار رحمتي، فإني حميد حمدت نفسي قبل وجود خلقي؛ لأنني علمت عجز خلقي عن حمدي.

قال أبو صالح الغني على الحقيقة: مَنْ لَمْ يَزَلْ غَنِيًّا وَلَا يَزَالْ غَنِيًّا، مَا زَادَهُ إِيجَادُ الْخَلْقِ غَنًى، بَلْ خَلَقَهُمْ عَلَى حُدِّ الْاِئْتِقَارِ، وَهُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ.

وقال الواسطي: ليس الإيمان بمقرب إلى الحق، ولا الكفر بمبعد عنه، ولكن جرى ما جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاء، فظاهر الكفر والإيمان أعلام لا حقائق، والحقائق القضاء الذي سبق الدهور والأزمان.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ وَأُولَئِكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{١٠٠}

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ علم الحق سبحانه أن الأعين للحدث يرى بها القدم صدقاً؛ فنصب أعلام قدرته لتراه عين الحدث بواسطة القدرة، فقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فطرها بقدرته وإبداعها بعزته، وألبسها أنوار جلاله وهيبته، يدعوكم من نفوسكم إلى رؤية جماله في آياته، فتنظروا إليها بأبصار فأذن وقلوب حاضرة.

ثم رَقَّاهم إلى أعلى الدرجات من رؤية أنواره وقدرته في خلقه إلى مشاهدة عيان ذاته؛ وذلك قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ وقع الغفران على النظر منهم إليه بواسطة آياته. وأي ذنب أعظم من طلبه بواسطة من الكون، حار الوجود في وجوده، وغاب وجوده في وجوده، فضلاً عما أوجده في الوجود، وأيضاً يدعوكم إلى معرفته؛ لتعرفوا بمعرفته نفوسكم وذنوبكم، وإذا وقعت المعرفة عنكم ارتفعت ذنوب تقصيركم في طاعته، وإدراك عزته.

قال النوري في هذه الآية قال: دعا الخلق بنفسه إلى نفسه، وذكر من أسأته فاطراً؛ لثلاث يتعلقوا بشيء من الأكوان.

وقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن أردتم ما فيها فهو عندي، وإن أردتموني فلا تلتفتون إليهما وارجعوا منهما إليّ.

وقال بعضهم: ما دعا الله أحداً إليه ولا الأنبياء، وإنما دعا من دعا لحظوظهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ووقعت التسوية على السواد والخيال، ولكن يختار برسالته ونبوته وولايته مَنْ يَشَاءُ من عباده الذين سبقت لهم حسن العناية في الأزل بما وهب لهم من خلع استعداد معرفته، وقبول عبوديته، ورقية مشاهدته، الأول تعريف التواضع، والآخر تشريف الحقائق.

قال أبو عثمان: مَنْ الله على خواص عباده ما فات الإحصاء والعد، فأول منة له عليهم التوحيد، ثم المعرفة، ثم أن بعث فيهم الرسل، ثم أن سباهم عباده، ثم له عليهم في كل نفس نعمة عرفوها أو لم يعرفوها.

وقال سهل: يمنّ على مَنْ يشاء بتلاوة كلامه والفهم فيه.

وقال الأستاذ: ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه منّ علينا بتعريفه واستخلصت أفردنا به من تشريفه.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَاءٍ أَوْ يَشْمُونَ﴾^١
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أخبر الله سبحانه عن الرسل اعترافهم في آخر الآية الماضية بالعجز عن التصرف في مملكته إلا بإذنه، وعن براءتهم عن حولهم وقوتهم في ظهور المعجزة وبين اعترافهم، أيضًا بعجزهم في تحمل إيداء قومهم ورجوعهم إليه.

وقال: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد أن عرفنا نفسه وأنوار ذاته وصفاته بأنه مُعين أوليائه وناصر أصفياه، توكلنا عليه لمعرفتنا به وما خصنا من لطائف وجوده ومشاهدته، وقد هدانا سبلنا، أضاف السبل إليهم وليس السبل لهم ولكن السبل له.
قالوا: ذلك انبساطاً أي مهّد لأرواحنا سبلاً إلى نفسه، ومعرفة شأنه؛ فإذا سلكتنا تلك السبل ورأيناه وراء السبل، وعرفنا ذاته وصفاته نتوكل عليه به لا بنا.

قيل للحسين ما التوكل عندك قال: الحمد تحت الموارد، وقال: سماعهم الأصم في قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقد هدينا سبلنا، قال: ما لنا لا نتق بالله وقد أعطانا الإسلام والهدى.

وقال أبو العباس وابن عطاء: التوكل على التجارب خدعة، والتصديق على مطاهرة الوجود ليستة.

قال الأستاذ: ما لنا ألا نتوكل على الله وقد وقانا من تكليف البرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان وكفانا من مهمات الشأن.

﴿وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^٤
وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿٦﴾
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُعَيِّنٍ ﴿٧﴾
مِّنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٨﴾ مِّثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا دَ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلِيلُ الْبَعِيدُ ﴿٩﴾

أَبْ أَللهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣﴾ وَتَرَوْا إِلَهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدً يَتَّقُونَ لَهْدً يَتَّقُونَ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحْصِرٍ ﴿١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^(١) إذا أخرج الأمر جل جلاله على وفق مراد العارف، جعل ذلك منه عليهم، ثم طلب منهم شكر المنة بوصف الطاعة والمتابعة، وزجرهم عن عصيانه، وخوفهم عن وعيد قرآنه، وعظيم مقامه عليهم بوصف الإحاطة على وجودهم وأسرارهم وضمائرهم لثلا يزول منهم بالغفلة عنه، ومقامه بالتفاوت؛ فمقامه على المريدن بالزجر والتهديد، ومقامه على المحبين بالهبة والتعظيم، ومقامه على العارفين بالإجلال والحياء، ومقامه على الموحدن بغليات سطوات الكبرياء على قلوبهم، ومقامه على أهل الأنس والشوق والعشق على نعت كشف مشاهدة جماله وجلاله.

وها هنا الخوف من مقامه ووعد مفارقتة، ووداعه منظر قلوب المستأنسين حتى تكون خاليه عن كشف مشاهدته، وأدق الإشارة فيه أن مقامه القدم في القدم، والبقاء في البقاء، وذلك المقام معدن الألوهية، ومنبع السرمدية، والخوف من ذلك الهية والإجلال، وهذا المقام مقام الربوبية في الربوبية؛ لأن الحدث يتلاشى في بوادي سطوة عزته تعالى الله عن كل علة حدثانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق الكون بحق إرادته القديمة، والمشية السابقة التي سبقت بكون الكون في الأزل، وأيضاً علم الكون حقاً في الأزل؛ فأظهر الكون بحق العلم والإرادة والمشية إظهار الحق حقيقة، ولحقوق ربوبيته وعرفانه من أهل عبوديته كأنه خاطب لرؤية تلك الحقائق ثم ارتقى من رؤية الحقيقة إلى رؤية عين الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ ثم نزل من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأفعال، وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ف رؤية أنوار فعله للعقول، و رؤية أنوار صفاته للقلوب، و رؤية أنوار ذاته للأرواح، و رؤية أنوار عين الحقيقة للأسرار.

(١) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعالمهم، وإطلاعي على سرهم وعلايتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (٣/ ١٩٢).

وقال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعمله وأحكمها بحكمه؛ فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخلق عجائب الخليفة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته ويدائع صنعته.

وقال بعضهم: خلق السموات عالية على الأرضين مرتفعة عليها، وجعل عبادة الأرضين من بركات السماء وما يصل إليه منه، كذلك خلق النفوس وجعل القلوب أميرا عليها، وجعل نجاة النفوس وراحتها فيما يصل إليها من بركات القلوب؛ فَمَنْ طهر قلبه لاستطلاع المشاهدة أنه الفوائد، والزوائد من الحق في جميع الأوقات.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُونَ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أخبر الحق عن كمال شرك إبليس حيث نسي الله نبعث إسقاط قدرة كل قادر غيره في مقام المواخذة بقوله: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فسقوط النظر عن نفسه مع رؤية الغير في البين شرك، ولو كان في مقام على حد تحقيق التوحيد ما لام أحد ولا نفسه وما رأي في البين غير الله.

ألا ترى إلى قول الواسطي: مَنْ لَامَ نَفْسَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومقام الملامة مقام المريدين لاموا أنفسهم بميلها إلى هواها، وتكاسلها عن عبادة خالقها، وذلك الملامة من طريق المعرفة والتوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأن هناك تسقط الوسائط وتندرس الرسوم، وتنظمس طرق الأسباب.

قال محمد بن حامد: النفس محل كل لائمة فَمَنْ لَمْ يَلْمُ نَفْسَهُ عَلَى الدَّوَامِ وَرَضِيَ عَنْهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فَقَدْ أَهْلَكَهَا.

قوله تعالى: ﴿يُحْبَبُونَ فِيهَا سَلَامٌ﴾ السلام اسم من ألطف أسائه، كأنه محل التثنية؛ فأهل الجنة من العارفين يدعونه بهذا الاسم لوجدانهم مشاهدته بنعت العوافي من المجاب، فإذا أرادوا تحية بعضهم على بعض فيشرون بعضهم بعضا سلام، أي هذا هو مشاهدة السلام، كأنهم في مشاهدته ليشير بعضهم على بعض إلى جماله وجلاله، وإذا حيوا بهذه التحية

فحيا الله بأحسن من تحيتهم بأنه حياهم بخطابه وسلمهم بكلامه؛ فكل من رآه فإن الحق سبحانه يسلم عليه بالبديهة قبل ثنائه عليه بقوله سلام قولاً من رب رحيم تجديد العهد الأول حين رأوه بالأرواح وسمعوا كلامه وسلامه بإذن الأسرار في ميثاق الأنوار، وما أطيب هذا السلام من السلام لأهل السلام.

أشاروا بتسليم فمجددنا بأنفس تسيل من الأفاق والسم أدمع

وقال بعضهم: تحيات الجنة وسلامها على ضرورياً، فأهل الصفة والقربة تحيتهم من ربهم وسلامتهم منه على قوله سلام قولاً من رب رحيم، ولأهل الطاعات والدرجات تحية الملائكة وسلامهم قال الله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٩﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَتَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفايته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفايته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن ثغائر الحداث وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، توتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربي بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتفريد والغناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهنة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم اللدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هوائف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والاطلاع على الأسرار والوله والهيمن في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد

والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة بيطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في كل ذرة في مراني الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المراتد مادام متصفاً بالإرادة، ومن أكل ثمراً من ثمار تلك الشجرة يحيى بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضاً الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في أرض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفراشات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضاً تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويه المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإفقاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجبال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله» على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الألطاع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه.

قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبداً قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحاً فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبت شجراً، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(١)
يُعَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

أَطْلِمِينَ^{١٤} وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٥﴾ أَلَيْمَ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٦﴾ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا وَيَنفُسُ الْقُرَارِ ﴿١٧﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿١٨﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إذا نطق القهر القديم على لسان النفس الأمارة التي هي الشجرة الخبيثة نطق لسانها بالهواجسات التي تورث كلمات الوسواسية الشيطانية، وتلك الكلمات أصل جميع الأهواء المختلفة التي ما لها ظلمة البعد، وغي الشهوات، وخيال التزهات، وتلك الشجرة الخبيثة غرسها في قهر الطبيعة أبدى القهريات، وتسقيها مياه الضلالات، وعروقها أصل النفاق، وساقها أصل الكفر، وأغصانها الأهواء المختلفة، وأوراقها الأوهام والظنون الفاسد، وثمارها الشك والشرك والكسل والبخل والبطر والنشاط والخيال والمحال والكذب والزور والبهتان والغيبة والنميمة والحرص والحسد والشهوة والشحناء والبغضاء والغضب، وجميع المساوئ النفسانية والشيطانية، وفي كل أوان وأوقات وأنفاس تعطي ثمارها، والصادق المحب الموافق يقصدان بقلعها ويقطعها من أصلها بفأس التوحيد والمعرفة والمحبة، وإذا كان مؤيد أسهل الله عليه قطعها من أصلها؛ لأنها عارضة عارية لامتحان القلب الذي هو منظر نور تجلي الحق وتيسر قطعها، لأنها ليست ثابتة بالحقيقة كشجر الإيثار والتوحيد قال تعالى: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾^(١).

قال محمد بن علي الترمذي: الشجر الخبيثة اللسان، ما لم يقطعها المؤمن بسيف الخوف فإنها تثمر أبداً الكلمات الخبيثة.

وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق، وهي التي لا تقرر قراراً حتى تهوي بصاحبها في النار.

قال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان، وهما يفتتحان على الإنسان باب الكذب

(١) قال القشيري: (٤/٤٤): والشجرة الخبيثة هي الشُّرْكُ اجْتُثَّتْ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبِّهَ وأباطل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلات ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبِّهِ واهية وأصول فاسدة.

والفجور.

وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات، وأرضها النفوس، وماؤها الأمل، وأوراقها الكسل، وثمارها المعاصي، وغاياتها النار، ثم وصف امتنانه على أهل التوحيد بتسديد إيمانهم وتثبيت توحيدهم وتحقيق معرفتهم واستقامة أحوالهم بتوليته ورعايته لهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ القول الثابت قول الحق جل جلاله في الأزل حيث حكم في نفسه بتوحيد الموحدين، ومعرفة العارفين، ومحبة المحبين، وإيقان الموقنين، وإيمان المؤمنين، وسلام المسلمين، وقوله منزه عن التبدل والتغير والاضطراب؛ فقوله الحق الباقي بوصف الأزل إلى الأبد، وإذا اصطفاهم بذلك القول لا يزيله عوارض البشريات، وغلبات الشهوات، وفنون الامتحانات، لأنه قائم بالذات والصفات وهؤلاء في ظل العناية محروسون بلطفه عن قهره في الدنيا والآخرة المعرفة لا بتغير بتغير الزمان، ولا بتبدل المكان، ولا بنزول الامتحان، ولا بغوائل الملوان، ولا بشيء من الحداث، وثباته للمؤمن العارف منه استقامته به له في طريق مراده وذلك من فريد كشوف جماله وجلاله لهم بنعت الموارد والمواجيد من بحار قربه حين هجم أنوار سبحات وجهه في أسرار قلوبهم، وفيه إشارة لطيفة أن المعشوق يقلب القصة الربوبية في كل لحظة للعارف الصادق آلاف المرات في الدنيا، فإذا قال أدركته أوقعه في بحر نكرته، فإذا تحير كاد لظلمات بحر النكرة إن تغرقه تحت أسافل القهريات يدركه فيض الشفقة ويريه جماله في ظلمات النكرة وكدوره الطيبة البشرية بالبديهة، ويخلصه من غبار الامتحان، وكذلك دابة في مواقف القيامة حتى يريه بالنكرة في المعرفة، وبالمعرفة في النكرة حتى يلبسه أنوار ربوبيته ويخلصه من مقام امتحان، فإذا صار متصفا بصفاته فاز من ضرر الامتحان، وهذا حاصل في الدنيا والآخرة لأهل المعرفة.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ على مقدار التوحيد يكون المخاوف والأمن ولم يفرع من أحد الخوف، ولا انفلت منه أحد لحظة، وما من أحد يسعى إلا عصى سعيه وهو الذي لا يخاف عقابها، فَمَنْ ثَبَّتَهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أسقط عنه ذلك المخاوف.

وقال أيضًا: الإيمان إيمانان، إيمان حقيقة بضياء الروح، وإيمان محبة بظل الروح، لذلك استثنى من استثنى في إيمانه كيف لا يأمنه بعد وهو لا يخلف الوعد، ثم وصف كيف قهر في القدم الظالمين بإضلاله إياهم بنفس المشيئة والإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿ اختار أهل صفوته بمحبته ومعرفته ومشاهدته، وألبسهم حلل عنايته وقربهم منه به، وبعد المبعدين وطردهم بقهره عن باب لطفه، فعل ما

شاء بأهل العناية والسعادة، ويفعل ما يشاء بأهل البعد ببعادهم عن قربه ليس عليه في إبرام حكمه نقص في ردهم وقبولهم.

قال بعضهم: الخلق كلهم مجبورون تحت القدرة، مقهورون على بساط الجبروت، ليس إليهم من أمورهم شيء، ممنوعون عما يريدون، يقضى عليهم ما يكرهون، وهذا من آثار العبودية، والله تبارك وتعالى مدبر الأمر ومنشأها وأنشأها على إرادته، وأبدعها على مشيئته، لا ناقص لما أبرم، فلا هناك على الحقيقة فعله، والكون صنعه لا علة لفعله ولا بضعه.

قال الشبلي في قوله: ﴿يُخَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا أكرمهم بالثبوت كشف وأعطى كمال المعرفة، ومقال الصدق والتوكل، ومحض الإخلاص، وحقائق اليقين، وكوشف عن مقامات الولاية التي لا نهاية لها، وذلك وصف من ثبته.

وقال: الصادق ثبتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وثبتهم في الآخرة على صدق جواب الرحمن، ثم شكى عن المغيرين نعمته عليهم بقلة الشكر في نعمته وقلة الصبر في محنته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هاهنا العقل والعلم والاستعداد، وجمال الصورة والهيئة، بدّلوا العقل بالعبادة، وبدّلوا العلم بالجهل، وبدّلوا استعداد قبول الإيمان بقبول الشرك والشك من النفس والشیطان، وبدّلوا جمال الصورة بقيح المعاصي ومباشرة الشهوة، ويا ليت تلك النعمة لو ساعدها العناية الأزلية، وكيف يتبدل محل العناية ولو غاص المنعم عليه في بحر الكفر والمعاصي ألف مرة.

قال أبو عثمان: أجهل الخلق بنعمة الله من استعملها في أنواع المعاصي ولم يقم بشكرها في أن يعمل بها في طاعة الله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلق السموات والأرواح وعرض القلوب، وزين السموات بأنوار الجبروت، وزين الأرضين بأنوار الملكوت، رفع هذه السموات بأنوار الذات، وبسطه هذه الأرضين بأنوار الصفات.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أنزل

من سماء القيومية على سماء الأرواح أمطار أنوار التجلي، وأنزل من سماء الأرواح على أرض القلوب أمطار المعرفة والتوحيد؛ فأخرج بتلك المياه من جنات القلوب ثمار المحبة والألفة والشوق والعشق رزقاً للعقول والأسرار والنفوس.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ سَخَّرَ الأرواح أن تسير في فُلك قاربها في بحر الأولية والأخروية، وتسقيها بشمال همها لوجدان عجائب بحار الذات والصفات من جواهر الأسرار والأنوار؛ فيؤيدها الحق بأن يجري رياح الكرم ولطائف القدم ليوصلها به منه إليه.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ سَخَّرَ للعقول إجراء أنهار الأفكار والأذكار والإدراك والأنوار والأسرار، أجرى الحق في أرض القلوب أنهار معرفته ومجده، يسقيها معادن نور حكمته وعروق ورد شوقه وأصول شقائق الصدق والإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ الشمس والقمر هاهنا نور الإيمان، ونور اليقين، ونور المعرفة، ونور التوحيد، ونور المحبة والشوق، ونور الهداية والتوفيق، وأصل ذلك شروق شمس مشاهدة الذات، وبروز قمر نور الصفات من مطالع الأرواح والقلوب؛ ليريان نبات المعارف وأشجار الكواشف، ونرجس الإيمان وورد الإيقان.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ جاء بظلمة النفس للامتحان، وجاء بنهار القلب للعرفان، جاء بليل القهر للنكرة، وجاء بنهار اللطف للمعرفة، جاء بليل الحجاب للعتاب، وجاء بنهار كشف النقاب للسرور بالمآب ربّي سواكن الأرواح والقلوب والعقول، وبالنفوس والأشباح من الأسرار والأفهام والعلوم والحكم والفطن والحقيقة والمعرفة والمحبة والصدق والإخلاص والتوكل والرضا بليل كشف ظلال الصفات، وظهور نهار سبحان الذات ليطم نعمته من الولاية والكرامات لها التي لا نهاية ولا غاية.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَكُفُّ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أناكم ما سألتم منه في معاهد الأول وعقود ألسن بربكم من كشف الجمال والوصول إلى وصال الذي جلاله غير محصور وكماله غير مقصور بقوله: ﴿وَلَنْ تَعْدُوا يَغْتَمَّ اللَّهُ لَكُمْ تَحْصُوهَا﴾ عمة الله كشف صفاته وذاته لهم، وتعريفها إياهم على نعت السرمدية لا يبلغ إلى وصفها حساب الحدثان وعدد الزمان والمكان، ثم شكّي سبحانه من المنعم عليه حيث ظلم بعد هذه النعم والكرم بسكونه بما وجد وعصيانه لَنْ أوجد، بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وصف شكره في التوحيد حيث استغرق في بحر الديمومية واتصف بتلك الصفة، وخرج منها بدعوى الأناثية ظلم

بجهله بعين القدم، ولو أدركها الغنى عن الأنانية في عين القدم، وأي ظلم أعظم من دعوى الربوبية ومحل العبودية، ثم وصف العطش والشوق في سراب الحيرة إلى إدراك كنه الكنه، ونسي ما وجد وجهل بتزييه الأزلية عن مطالعة الخليفة بوصف الإحاطة؛ فتارة ظالماً من كمال استغراقه في الأزل بدعوى الأنانية، وتارة كافراً حيث نسي ما وجد وجهل بما لم يكن مدركاً إلا الحق سبحانه، وكفرانه غاية عطشه في الشوق إلى إدارتك الربوبية، وعلو همته في خوضه في ظلمة أصل كل أصل وعلة كل علل.

ألا ترى موسى ﷺ إذا استغرق في بحر الأولية كيف طلب الكل بالكل، والآخر بالأول، والأول بالآخر، الصفة بالذات، والذات بالصفات، فقال موسى ﷺ: من متى أنت يا رب هذا الإنسان، كيف يكون إنساناً حيث حمل ما لم يحمل الحدثن، اقرأ آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا آلَآمَانَةً﴾، وأدى أمانة حمل معرفة الأولية والآخرة وكنه الكنه، وإدراك عين العين لا بنفسه ظليماً، حيث اجتري ما اجتري، وجهل لما رأى على ما لم ير.

قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال الصادق: وسخر لك السماوات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر بأن تتخذ سبيلاً ومتجراً، وسخر لك الشمس والقمر يدوران عليك ويوصلان إليك منافع الثمار والزرع، وسخر قلب المؤمن بمحبته ومعرفته، وحظ الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة أسرار.

قال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿وَأَتَيْنُكُمْ مِنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطُمُوهُ﴾ إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزانته وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنحك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمن شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب؛ ويخبر عما أراد؛ وهذا من مقامات العارفين.

وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تابعه النعم.

قيل: أجل النعمة استواء الخلق، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطبق القيام بشكرها أحد.

وقيل: إن الإنسان لظلم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية.

وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد ﷺ لا تحصوها، بأن جعل السفير فيها

بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وقال ابن عطاء: أجل النعمة رؤية معرفة النعم، ورؤية التقصير في القيام بشكر المنعم. قال: أيضًا النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون شكره أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وروحًا وقلبًا؛ فنعمة النفس الطاعة، ونعمة الروح الخوف، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الروح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة، والنفس في أبحر الطاعات تتنعم، والقلب في بحر النعيم ينقلب، والمعرفة في أبحر القرية وانتظار العيان تتنعم.

قال: أيضًا سخر لكم الليل والنهار جعلهما ظرفًا لعبادتك ووعاء لطاعتك، وسخر لك الشمس والقمر لتستدل بهما على أوقات العبادات، وسخر قلبك لمعرفة ومحبتة؛ لأن حظ الحق من العبيد قلوبهم.

قال الحسين في قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ما لا يحصى لا يتناهى لا يصح لها شكر متناه في وقت متناه، وإنما طلبهم بالشكر ليقطعهم عن الشكر.

وقال الأستاذ: ساء القلوب زيتها بمصاييح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد هو العرفان، ومرج في القلوب يجري الخوف والرجاء، جعل بينهما برزخًا لا يبغيان لا يغلب الخوف ولا الرجاء، وسخر فلك التوفيق والعصمة وسفينة الإيواء والحفظ، وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين، وليالي الحرب للناثيين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند سطوع نهار اليقين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ﴾
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۚ﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا وَمَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ۚ﴾
 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومَ الْحِسَابُ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ مظنة الآية في حقيقة معناها البلد القلب، والقلب بلد البلدان، والعقل بلد القلب، والروح بلد العقل، السر بلد الروح والمعرفة، والمحبة بلد السر ومشاهدة المعروف، هناك بلد المعرفة والمحبة وسواكن هذه

البلاد عساكر أنوار أفعاله، وفرسان تجلي صفاته، وجنود عظامم أزاله، وإبادة النفس بلد الشهوات، وسوء النهى جنود القهريات؛ فاستعاذ به في هذا البلاد عن جنود القهر الذي معادنها النفس الأمارة، أي: اجعل هذا البلد آمناً بلطفك عن قهرك، وبالروح والقلب عن النفس، وجند شياطينها وهو أجسرها وسراق طبيعتها، واجعلها آمناً بك عنك.

كما قال: أعوذ بك منك، ثم سأل وقايته عن عبادته، وبَيَّنَّه أصنام الطبيعة، والالتفات إلى الغير في طوارق البلاء، بقوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَكَ﴾ كل ما وقف العارف عليه مما وجد من الحق فهو صنمه.

ثم قال: ﴿رَبِّ إِلَهِنَّ أَضْلَلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: رؤية غيرك ومتابعة هذه الشهوات والهووى أضلت لما فيها من معجون قهرك كثيرًا من المريدين والطلالين، حيث ارتبط بهم في مهوات الهلاك ووطأت الغفلات.

قال عليه السلام: «النفس هي الصنم الأكبر»^(١).

ثم وصف نفسه بالإمامة في الخلعة والمعرفة والشرعية والطريقة بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي في طريق المجاهدة والمحبة والخلعة بالموافقة في بذل الروح بين يديك؛ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: طيسته من طيبتني، وقلبه من قلبي، وروحه من روحي، وسره من سري، ومشربه في المحبة والمعرفة والخلعة من مشاربي، ومَنْ عصاني فيما يكون عصيانك ويقتضي حجابك ليس مِنِّي ولكن إنك غفور ذنوب قاصديك رحيم بمريديك، بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن كفر الكافرين، وعصيان العصاة، يستغرق في بحار رحمته وغفرانه، وإن يدخلهم في جناته لا يبال.

والحكمة في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وإنه لم يقل ومن عصاك أنه كان عليه عليه السلام في محل الخلعة، والخلعة توجب المحبة، والمحبة توجب المودة، والمودة توجب الشوق، والشوق يوجب العشق، والعشق محل الانصاف والاتحاد، وعين الجمع، وجمع الجمع، فالإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ إشارة عين الجمع بعد انسلاخه من رسوم الحدوثية، كأنه قال: فَمَنْ تبعني تبعك، ومَنْ عصاني عصاك؛ لأن في حقيقة العشق العاشق والمعشوق واحد.

ألا ترى إلى قول الحلاج - قدس الله روحه:

ها أنت أم أنا هذا إلهين في إلهين حاشاي حاشاي من إثبات اثنين

(١) ذكره الألويسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٢٥).

وأيضاً لما قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، قال أيضاً: وَمَنْ عَصَانِي مُوَافِقًا لِّلْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَانَهُ أشار أن طاعة الخليفة ومعصيتها تليق بالخليقة، وأنت منزّه من طاعتهم وعصيانهم، أي أنا من جنسهم وهم من جنسي وأنه منزّه عن المجانسة بالحدثان، وأيضاً أضاف عصيانهم إلى نفسه؛ لأن عصيان الخلق للخالق غير ممكن؛ لأن ما يبدو منهم من جميع الحركات إجابة وجودهم وسر السر، وما نعلن من حيز الإلهام والوسواس والهواجس، وأيضاً ما تخفى في أنفسنا من منازعة القدر بوصف خاطر النكرة في أمر المعيشة في صورة ما نكرة من أنفسنا من الشكوى والتغير في الغضب، وما نعلن بجلادتنا من صبر الصبر بوصف التصبر والتشكر.

قال الخواص: إنك تعلم ما نخفي من حبك، وما نعلن من شكرك.

وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب.

قال الحسين: ما نخفي من المحبة، وما نعلن من الوجد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ^(١١) **مُطَهَّرِينَ** مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدُكُمْ هَوَاءً ^(١٢) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ رَّوَالٍ ^(١٣) ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ هذا من الله سبحانه محل تعظيم المراقبة والهيبه في الرعاية، والحياء في المحاضرة وللظالم من مشرب بحر جماله وجلاله وحسنه وأفضاله شربات من محبته وشوقه ومعرفته، ويخرج على بساطه بنعت العريده والسكر ودعوى الأنانية؛ لأنه يجاوز طوره.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ لا يعني في الحقيقة أبصار سكارى المعرفة والتوحيد يوم الكشف الأكبر، حيث تبدوا أنوار سطوات العزة فتقضيهم عنهم بالحق وعظمته وكبريائه حتى يستغرقوا في عظمتهم بحيث لا يقدرון الالتفات إلى غيره بقوله: ﴿مُطَهَّرِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

ثم زاد في وصف قلوبهم واضمحلالها في عزة العظمة بقوله: ﴿وَأَفْقِدُكُمْ هَوَاءً﴾ خالية عن العقول المدركة والأرواح الفائقة أو لأن من عزة القدم شيئاً، ولا من جلا الأبدية مدرّكاً.

ونعم ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث يشاهدهم ويشاهد ما يجري عليهم بوصف الجبارية والعظمة؛ فإنه موضع شهوده وشهوده

للعباد أعظم من شهود العباد عنده؛ لأن العباد في محل الحضور وشهوده تعالى محل الكشف.
قال أحد بن خضرويه: لو أذن لي بالشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: وكيف؟ قال:
لأنني نلت بظالمي عالم الله من والدي، قيل له: وما ذاك؟ قال: تعزية الله في قوله: ﴿وَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ميمون بن مهران: كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَقْبَدُكُمْ هَؤُلَاءَ﴾ هذه صفة قلوب أهل الحق، ألا ترى الهواء
قائم بالمشيئة، والإرادة غير قائمة بعلائق فوقها كذلك قلوب أهل الحق في هذه الآية الله ليس
في قلوبهم محل لغير الله إلا يسكن سوى الله، ومثل قلوبهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ
السَّحَابِ﴾ لا تلتفت إلى سواء ولا له قرار مع غير الله.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۝١٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝١٦ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
انْتِقَامٍ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ السكون في أوطان
الظلم من أهلية فطرة النفس الأتارة إليها، وسجيات الشهوات تميل إلى محلها من الآفات
لتزيد حظوظ هواها، ومن لم يخرج نفسه في زمان الإرادة من أجوار المدعين تعودت نفسه
عادة الظلم في الدعاوي الباطلة، ويقع عليه ما وقع على المدعين الكاذبين.

قال أبو عثمان: مجاورة الفساق وأهل المعاصي من غير ضرورة من فسق كامن،
ومعصية مستترة في القلب؛ لأن الله ذم قوما من عباده، فقال: وسكنتم في مساكن الذين
ظلموا أنفسهم ولم يعذر من مقام فيها، فقال: لم يكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها.

ويقال: إن معاشر أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم، ويستقبل
فاعله ما استقبلهم.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَرَرُوا إِلَى الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ ۝١٨﴾ وَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝١٩ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۝٢٠
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢١ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَتَرَوُنَّ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الإشارة في الحقيقة إلى تبدل أرض قلوب العارفين من صفات البشرية، وأوصاف النفسانية والخواطر الرديئة إلى الروحانية المقدسة لنور شهود جمال الحق وتبدل سموات الأرواح من عجز الحدودية، وصفاتها وضعفها عن رؤية أنوار العظمة صرفاً وكفاحاً له.

قال: تعديته فالأرواح والقلوب يخرج من ضيق القبض إلى محل البسط من خفقان أخوف إلى روح الرجاء، ومن رسوم العبودية إلى مشاهدة الربوبية، وبروز أهل هذه القلوب والأرواح من أماكن غيبه سكارى حيارى من شدة ولهم من جماله ديموميته في ميادين وحدانيته الأزلية خرجوا بنعت المبارزة والمفاخرة بولايته وقرته يا أخي لو رأيتمهم لرأيت عليهم أطراف أردية الكبرياء، متعلقون بحقوق أزار عظمة الجبار، يستغيثون بنعت الوله من فراقه في وصاله حتى لو رأيتمهم ما رأيتم عليهم رسوم المبشرات، بل رأيتم عليهم سمات الألوهيات فما الناس بالناس الذين عهدتهم.

ولا الدار بالدار التي كنت أعرف ولو تريد أن ذلك أرض الظاهر وساء الظاهر إنها تبدل من هذه الصفات وظلمة الخليفة إلى أنها منورة ببروز أنوار جلال الحق عليها، وإنها صارت مشرق عيان الحق للخلق، وحين بدأ سطوات عزته بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهنا يا أخي الوجود تحت أخیال القدم من استيلاء قهر أنوار القدم.

قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قيل: فأين الأشياء آنذاك؟ قال: عادت إلى مصابها، وقال: متى كانوا شيئاً حتى صاروا لا شيء؛ لأنهم أقل من الهباء في الهواء في جنب الحق.

وقال الواسطي: في هذه الآية ذلك لما يظهر من كشف حقائقه في بني آدم من أنبيائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسموات لا يثبت لما يظهر على الأبدان من أنوار الحق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا لِلَّهِ عَارِفِينَ ۖ لَّا يَمْنَعُهُمُ الْبَعْدُ وَالْقَطِيعَةُ ۖ فَكَيْفَ أَهْلُ الْجَمَالِ

(١) فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرر.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأما الجسماني بإحراق النار الصورية، وأما الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تحلّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعه، فكما أن أهل الجلال

معروفهم، وخوفهم من فراقه، وإجلالهم من عظمة وجهه، منه ما لم يعلموا منه لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت أم رسومهم فإذا عاينوه عرفوه وعرفوا سباهم به وما كان من تقصيرهم في معرفته وعبوديته، وذلك حين وقعوا في بحر توحيده وروية وحدانيته بقوله: ﴿هُوَ إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ وما وصفنا من فوائده في بقاءه، وبقائهم ببقائه، لا يتذكر فيه إلا البناء الحقيقية، وعلماء المعرفة، وعشاق المشاهدة، وأمناء خزانة المملكة.

قال جعفر في قوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ ولينذروا به موعظة للخلق وإنذار لهم ليجتنبوا قراءه السوء ومجالسة المخالفين؛ فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تُنكس وتُنكس.

قال بعضهم: كشف للخلق ما ندبوا له، وأمرؤا به وجعل ذلك أَعذاراً إليهم وإنذاراً لهم.



سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ۝ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ۝ وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ۝﴾

﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخباراً كَثير بصورة الألف واللام والراء،

مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ لِيُحجِبُونَ عنه كما قال تعالى: ﴿كَذَّابٌ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَّخُجْرُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أبنا كانوا، وأما هم فممنهم قرياء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضاً، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبْشَرُونَ، كما أنهم منذرون، وأما الجن: فمُنْذَرُونَ فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَنَجْزِيكَم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] حيث خَصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خير عن الأوليّة، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبيّن بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فمن لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إيهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء غبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة عليه السلام ألا ترى إلى قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي: هذه الحروف المتشابهة أصل هذا الكتاب، والكتاب تفسيرها يترجمها بما فيها في السورة بلسان القرآن، والقرآن مجمع أوصاف الربوبية، وخبر ما كان في الحروف المعجمة يخبر بلسان مبين يبيّن عند كل عارف عالم القرآن، مبين في ذاته ليس فيه إيهام، لكن لم يخرج جلاله وجماله من الحجاب بالحروف بنعت التبيين إلا لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فيبيّن عن أسرارها على قدر إفهام السامعين، فالموحد يسمع من حيث التوحيد في قوله، والعارف يسمع من حيث المعرفة فيبته، والعاشق يسمع من حيث العشق فيبته، والمشتاق يسمع من حيث الشوق فيهم، والمحِب يسمع من حيث منه؛ لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت ألم القرآن بوصفه لأهل السر، فالأنيس يستأنس بجماله، والسكران يطير بفهم خطابه ولذة سماعه.

قال الأستاذ: بيّن للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءهم، وللمحبين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يُنَوِّر أسرارهم، ولما عظم شأن القرآن في خبر الملكوت والجهنم لانقياد الأكوان والحدثان عند جناب الرحمن، وخضوع العارفين بنعت الفناء على جناب عز البقاء، وبلغوا بأيادي القدمية، ومَنِّه الأزلية عليهم إلى مقام النظر إلى جماله وجلاله ومعينه ذاته وصفاته، وبرز أنوار جلالهم بين أطباق الأكوان، ويراها مع غرتها أهل الطفيان، ويتمنون أنهم كانوا متقادين مستسلمين كما كان أهل المعرفة والحقيقة فيه للحق متقادين بقوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الساقطين عن طريق الحق يودون أنهم من المريدين، ولم يكونوا من المنكرين، ولم يكونوا من المجتهدين، ولم يكونوا من الكسالى البطالين، وأن يكونوا من الراضين، ولم يكونوا من الساخطين، وأن يكونوا من المتوكلين، ولم يكونوا بتدابيرهم لأجل الرزق من القيمين، وأن يكونوا من العالمين، ولم

يكونوا من الجاهلين، ومن الموقنين لا من الشاكين، ومن العارفين لا من المقلدين، ومن الموحدين لا من المدعين، ومن المخلصين لا من المرائين.

قال بعضهم: ربما يَوَدُّ الذين فسقوا لو كانوا مطيعين^(١).

قيل: ربما يَوَدُّ الذين كسلوا لو كانوا مجتهدين، وربما يَوَدُّ الذين غفلوا لو كانوا ذاكرين.

قال ابن الفرج: الكفر هاهنا كفران النعمة، معناه ربما يَوَدُّ الذين جهلوا نعم الله عندهم وعليهم أن لو كانوا شاكرين عارفين برؤية الفضل والمِنَّة.

قيل: إذا صارت المعارف ضرورية احترقت نفوس أقوام عقوبة، وتقطعت قلوب آخرين حسرة.

ثم سَلَّى قلب حبيبه عن إنكارهم، وطيب بخطابه فؤاده؛ فقال الله تعالى:

﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وصف المنكرين بِشَرِّه

بطونهم وشهوات فروجهم وأمل نفوسهم شبههم بالبهائم، وجعلهم أجهل منها بأملهم ومنازعتهم المقادير؛ لأن البهائم لا يكون لها أمل.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ كَالَّذِينَ نَكَنَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حقائق فسادهم

وجهلهم بالله، وبأوليائه بترهاتهم وطاعاتهم، وما أفدوا من أيام الطاعات بالمخالفات عند معاناة العقوبة ووقوع الحسرة.

قال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان شغله ببطنه وفَرْجِه وتنفيذ شهوته، حيثئذ لا يلحقه أنوار العصمة، ولا يصل أبداً إلى مقام التوبة.

قال أبو سعيد القرشي: في هذه الآية من شغله تربية نفسه، وطلب مرادها، والتمتع

بهذه الفانية عن الإقبال علينا، فأعرض عنهم ولا تُقِيلُ عليهم، وذَرَّهُمْ وما هم فيه، فلم يصل إلينا إلا من كان لنا، ولم يكن لسوانا عنده قدر ولا خطر.

قال سهل: أخبر الله عز وجل عن أخلاق الجهال أن همتهم الأكل والتمتع، فأنساهم

ذكر قرب الأجل، ويَعِزُّ عليهم ما يأملون من عيشهم على هذه الجملة، فسوف يعلمون أن

الذي لهم فيه هلاكهم، وذلك الذي يبعدهم عن مدائح أهل السعادة، فإن من أراد الله به الخير

جعل همته فيما يقربه إليه من مقام على الطاعات، واجتناب المخالفات ومحاسبة النفس، ومن

كان بهذه الحالة يلهيه ذلك عن الأكل والشرب والتمتع.

(١) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخففة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، ودأبتهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ حَافِظُونَ ﴾ الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصّديقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضائّر بالخطرات المذمومة، وأيضًا كاشفنا عن أسرارها في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاءً وبيانا وقرآنا وفرقانًا؛ ليهدي به من كان موسومًا بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا.

يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنا يحفظه بقرائه، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضع حفظه كتابه، فإن في تضييعهم تضييع كتابه.

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا ۖ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: كما أدخلنا الضلال والكفر في قلوب منكري أنبيائنا وأوليائنا الأولين، حتى كفروا بهم ولم يؤمنوا بما جاءوا به، يدخل في قلوب هؤلاء المنكرين الكفر والضلال، وتُسَيِّد أبصار قلوبهم عن رؤية حقيقة مشاهدة آياتنا، ونحجب بصائرهم عن إدراك لطائف كتابنا، وما يبدو من أنوارنا عن وجوه أوليائنا، حتى لا يذوقوا طعم لطيف الخطاب، ولا يروا إلينا طريق المآب.

قال الأستاذ: أزعج قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسد بالحرمان عليها سلوك الطريقة.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴾ ﴿٨﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ اسْمَعُ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا زَرْعًا وَنَبْتًا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُؤْتُونَ ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَعِيشَ ۖ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١٣﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا

لَنَحْنُ نَحْيٌ، وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سباحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانسباط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحِب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيا ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابعها الصفات التي منزها عن الحدود والعلات، ومَن سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقديست أساؤه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيهه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطالين والمدَّعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في تراثها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر منها فائدة في القلوب من المجاهد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرهبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيمن والوله والزفريات والعبرات، صواحبتها أوتاد الأرض وتقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شائثلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضل وجوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات

الشياطين.

كما قال: ﴿وَحَفِظْتَنَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ثم بين سبحانه أن تلك النفوس الأتمة والشياطين الوسواسية تسترق من عالم سماء العقول والأرواح والأسرار والقلوب أسماع هوائف الغيب من صرف الخطاب والإهام؛ لتدع بكلمة الغيب الدعاوي الباطلة؛ فأتبعها شهب طوارق القهريات، وأحرق بيران المحبة والأشواق، ليصفي هواء المعرفة من غبار الطبيعة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾.

وأيضاً فيه إشارة أخرى أنه تعالى يعز جوده وجده وجلاله، جعل في سماء القلوب أبراج المقامات والحالات، ويجري فيها سيارات الهمم لطلب وجدان أهله أنوار الصفة، فترى كل همة من برج كل مقام نوراً من أنور الغيب، وسر من أسرار الغيب، حتى يستشرف على مطالع الربوبية والإلوهية في كل دورة أفلاك القلوب في هواء الهوية حين تبرز شمس أسرار الذات وأقمار الصفات وسيارات حقائق الأزل والأبد.

ألا ترى تقلب تلك الأفلاك في عمالك ملكوت الأزل، كيف وصفها حبيب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه وعلى خلائه من الأنبياء والرسل والأصفياء بقوله: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

ونظار تلك السماوات العقول القدسية والأسرار الملكوتية، ترى من كل برج نور صفته، فيورث تجليها لكل عقل مقام، وشرقاً وحالاً ووجداناً وعلماً ومعرفةً، وبجلال قدمه يحفظ تلك السموات مع أبراجها من طوارق النفوس والوسواس، فإذا قصدت النفس الأتمة إلى حاشية من حواشي القلب يحترق بزفرة من زفرات القلب، وكذلك الوسواس.

قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ وما ذكرنا من تلك الحقائق من أنوار تلك البروج يظهر من وجوه الصديقين، وتلك الوجوه مطالع أنوار صفات الحق يبرز نورها من وجوههم وجباههم للنناظرين من المريدين الصادقين والشائقين من المحبين، وتلك سمات الحق لاعتبار الخلق وهدايتهم، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسَمَائِهِمْ﴾.

قال بعضهم: زين السماوات بالكواكب والبروج، وجعل فيها علامات لمن يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وزين القلوب بإطلاعه عليها، وأنواع الأنوار لتهتدي بتلك الأنوار إلى مقام المعرفة، وهذه المعاملات إنما يهتدي بها من كان بصيراً مفتوحاً عين فؤاده ينظر إليه نظر عيان.

قال أبو بكر بن طاهر: كما جلّ الله في السماء بروجاً يبتدوا به في ظلمات البر والبحر وزيناتها للناظرين، كذلك جعل في القلوب بروجاً يبتدي بها العارف إلى ربه، فمن ذلك برج الخوف، وبرج الرجاء، وبرج التوكل، وبرج التفويض، وبرج التسليم، وبرج اليقين، وبرج المعرفة، وبرج المحبة، وكل برج من هذه الأبراج والبروج منها طريق إلى الله تبارك وتعالى ولا يعرفها إلا السالكون فيها والعالون بها، وكما زين تلك البروج للناظرين، كذلك زين بروج القلب للناظرين لأنفسهم القائمين بأوامر الرب عليهم والعارفين حالهم ومحلهم في كل وقت وحين.

قال الأستاذ: في السماء بروج وهي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم، إذا راموا إن يسترقوا السمع، وفي القلب للمعارف والعقول نجوم، ثم هي للشياطين رجوم، فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من أوليائه أحرقت بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها؛ فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهم زينة، ثم أن الله سبحانه وصف قدرته في مد الأرض وإلقائه فيها الرواسي بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الإشارة فيه أنه تعالى بجلاله وقدره بسط قلوب الأولياء ببسط سعته وقدرته وعلمه ومدها بأنوار تجلي جماله وجلاله، فصارت مبسطة بوقوع نور مشاهدته عليها؛ لأنها بلد الله ومقام زيارته، هناك أشرقت الأرض بنور ربها، فكلما يتجلى لها بسطها فانبسطت وزاد في امتدادها بقدر زيادة وقوع نور التجلي عليها، فكلما ازداد نورها من الحق ازداد بسطها وامتدادها وهي مضطرة إلى زيادة بسطها وسعتها إلا أنها يوازي مشاهدة جلالة القدم الذي بلا نهاية ولا غاية، فإذا يزيد بسطها وامتدادها إلى أبد الآباد، وذلك لأن هناك عرش الرحمن وكرسيه، وهنالك ولاية الله ينزل عساكر تجليه عليها في جميع الأنفاس والأوقات ولم يكن موضع من العرش إلى الثرى بهذه الخاصية غير قلوب الأنبياء والأولياء.

لما روي سيد الأنبياء - عليه وعليهم سلام الله عن الله سبحانه - قال: **لم يسعني السموات والأرض، ويسعني قلب عبدي المؤمن**^(١).

ولا يظن أن ذلك البسط أبسط صورة القلب؛ لأن بسط القلوب بسط علومها وفهمها وعقولها، وبسط نورها وقبولها أنوار قرب الله سبحانه التي اطلعت على فطرتها وأماكن غيبها، وغيبها معادن علم الله، وفي علم الله استغرقت الأكوان والحدثان؛ فكل شيء من العرش إلى الثرى في تلك الأماكن من قلوب الصديقين أقل من خردله، وكيف لا يكون

ذلك وهو يسع حمل الملك والمملوكوت، ولما تجلى لها تزلزلت من هيئته وإجلاله؛ فألقى فيها رواسي العظمة وشدها بحبال أنور الكبرياء، وربطها بأوتاد العقول وأثبت فيها بمياه بحار زلال نور غيبه من جميع نبات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وتلك الحقائق والهبات موزونة بقدر تجليه وميزان علمه، وأيضاً فيه إشارة أخرى أن رواسب الأرض أولياء الله، وكما أن الجبال والرواسي بالتفاوت في صغرها وكبرها، فكذلك الأولياء بالتفاوت في مقاماتها وأحوالهم عند الله، فالرواسي أعظم الجبال، فأعظم الأولياء الغوث والثلاثة المختارون والسبعة ثم العشرة ثم الأربعون ثم السبعون ثم الثلاثمائة وهم الأبدال والأوتاد، والسبعون النقباء، والأربعون الخلفاء، والعشرة العلماء، والسبعة العرفاء، والثلاثة أهل المكاشفة وهم الرواسي والغوث، أعني القطب مثله مثل جبل قاف والأوتاد مفزع، العامة والنقباء مفزع الأوتاد، والخلفاء مفزع النقباء، والعلماء مفزع الخلفاء، والعرفاء مفزع العلماء، وأهل المكاشفة مفزع العلماء، والقطب مفزع الكل.

قال بعضهم: مدّ الأرض بقدرته وأمسكها ظاهرًا بالجبال والرواسي، وأما الرواسي على الحقيقة؛ فهو مقام أوليائه في خلقه بهم يدفع البلاء عنهم ويمكنهم بصرف المكاره، فهم الرواسي على الحقيقة لا الجبال.

قال محمد بن علي الترمذي: أن في العباد عباد هم المفزع ومن فوقهم الأوتاد ومن فوقهم الرواسي.

قال: المفزع مرجع عامة العباد، ومرجع المفزع إذا هال الأمر إلى الأوتاد^(١)، ومرجع الأوتاد، إذ يستعجل الأمر إلى الأوتاد وهم خواص الأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَتْ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

وقال سهل: مدّ الأرض ووسع رقعتها ليسير فيها الناظر بالغيرة والاعتبار؛ فيطلب فيها أماكن الأولياء وهم الرواسي الذين بهم قوام الأرض.

قال الأستاذ: نفوس العابدين أرض العبادة، وقلوب العارفين أرض المعرفة، وأرواح المشتاقين أرض المحبة والخوف والرجاء لها رواسي وكذلك الرغبة والرهبة.

وقال: كما أُنبت في الأرض فنون النبات أُنبت في القلوب صنوفًا من الأزهار والأقمار، فمن نور اليقين، ونور العرفان، ونور الحضور، ونور الشهود، ونور التوحيد إلى غير ذلك من

(١) الأوتاد: هم أربعة في كل زمان، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، وحكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض؛ فإنه بالجبال يسكن ميل الأرض.

الأنوار، ثم وصف سبحانه معاش الجمهور مما ينبت أرض القلوب من زهر المعارف والكواشف بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا﴾ معاش الصديقين في أرض أنوار الشهود، ومعاش المحبين ظهور نور تجلي، ومعاش العارفين كشوف التللي، ومعارف الموحدين استماع الخطاب بعد الكشف، ومعاش سكان أرض القلب من العقل والفهم والنفس نور الإيمان والبرهان والإيقان وذلك قوله: ﴿وَمَنْ لَّسْتُ لَهُمْ بِرَازِقِينَ﴾ هو بجوده سبحانه رازق الأرواح ورازق العقول والنفوس.

قال الأستاذ: سبب عيش كل أحد مختلف، فعيش المريدين يمين إقباله، وعيش العارفين بلطف جماله، وعيش الموحدين بكشف جلاله، كل مربوط بحاله، ولكل نصيب من أفضاله، والحق منزّه عن التحمل بأفعاله، ثم وصف سبحانه سعة قدرته وعلمه وملكه وملكوته وخزائن جوده بقوله: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: ما من شيء في قلوب العارفين من أنوار المكاشفة والمعرفة والتوحيد والإيمان واليقين والمقامات والحالات والإلهام والخطاب إلا عندنا خزائنه، وخزائن هذه الحقائق ذاته القدسية وصفاته الأبدية، فإن كل وجد وكشف وعلم وحال ومعرفة وتوحيد مقام ومقال يتعلق بكشف الذات والصفات وكشوف أنوارها تظهر بقدر قوة القلوب مقرونة بالإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وعلم الإشارة في الآية دعوة العباد إلى حقائق التوكل بوصف قطع الأسباب والأعراض عن الأغيار.

قيل: كان الجنيد إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ قال: فأين تذهبون؟

قال بعضهم: القلوب خزائن الحق عند الخلق أودع فيها أجل شيء وهو التوحيد وزينها بالمعرفة ونورها باليقين ومجدها بالتفاني في أوصافه.

قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

وجعل آثار أنوار القلوب على الجوارح من التسارع إلى الطاعات، والتثاقل عن المعاصي والمخالفات، وهذا دليل لما قلت من الكرامات لذلك، قال الله: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

وقال حمدون: قطع أطباع عبيده عن سواه بقوله: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا

خَزَائِنُهُ رُفِعَ فَمَنْ رَفَعَ بَعْدَ هَذَا حَاجَتَهُ إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ لِحَبْلِهِ وَلَوْه.

قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم.
وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه
ومحل نظره، فَمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على
دوام الأوقات والأعراض عما سواه.

وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث.
ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر من كل صنف،
فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة
جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه،
واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء
عن مطالبة الفقراء منهم شيئاً، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه
لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا
الله.

ثم وصف الرياح اللوائح التي تحمل الأشجار ثمارها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ
فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ غرس في قلوب أوليائه
أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه
بكشف جماله لها؛ فتلقح بشال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها
بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلماً من علومه،
وخبراً من غيبه، وسراً من أسرارهِ، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف
القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي
المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله
سقاها الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير
سكران جماله من حب جلاله هائماً من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من
سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت

قال بعضهم: رياح الكرم إذا هبت على أسرار العارفين أعتقتهم من هواجس أنفسهم،
ورعونات طباعهم، وفساد هواهم ومراداتهم، ويظهر في القلوب نتائج الكرم، وهي

الاعتصام بالله، والاعتماد عليه، والانقطاع عما سواه، قال الله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ فقلوب تلقح بالبر، وقلوب تلقح بالفجور، وما روي في الأخبار قلوب الأبرار تغلي بالبر، وقلوب الفجار تغلي بالفجور.

قال أبو عثمان: كما أن الرياح الربيع إذا هبت فتحت عروق الأشجار لحمل الماء، فكذلك رياح العناية إذا فتحت أسماها لقبول الموعظة ودلّها على طريق التوبة وباب الإنابة.

وقال ابن عطاء: رياح العناية تلقح الثبات على الطاعات، ورياح الكرم تلقح في القلوب معرفتها لنعم، ورياح التوكل تلقح في النفوس الثقة بالله والاعتماد عليه، وكل ريح تظهر في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، والشفاء من حومها.

وقال الأستاذ: كما أن الرياح في الأفاق مقدمات المطر كذلك الآمال في القلوب مما يتفرسه العبد مما يتأدى إلى قلبه من مبشرات الخواطر وتنسم النجاح في طلبه يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

ويقال: إن رياح البسط إذا هبت على قلوب العارفين ما تركت فيها للوحشة أثر.

ويقال: إذا هبت رياح القرب على قلوب العارفين عطرت بنفحات الأنس؛ فييقنون في

نسيمها على الدوام، ومما يؤيد تحقيق التوحيد آخر الآية قوله: ﴿وَمَا أَنتَبِرَ لَهُ بِحَنَزَيْنِ﴾ بين أن لطائف أنوار المشاهدة لا يتعلق بكسب العباد، ويكلفهم في المجاهدات، وإذا انكشفت أنوارها في القلوب لم يكونوا بحابسيتها؛ لأنها شعاع شمس الوجدانية وهي منزّهة عن تناول الحدوثية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَبِرَ لَهُ بِحَنَزَيْنِ﴾ وتلك المياه والرياح يحي أرواح الصديقين وقلوب الموحدين بقوله: ﴿وَلَنَا لَحْنٌ مِثْيٍ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ نحى بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضاً نحى الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحى أسرار العارفين بجبالنا ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها من أحكام العبودية.

قال الواسطي: نحى مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه.

قال بعضهم: نحى أقواماً بالطاعة ونميت أقواماً بالمعصية.

وقال البراق: نحى القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس باتباع الشهوات.

وقال أبو سعيد الخزاز: الحى من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه

بقاؤه.

وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار.

وقال الجريري: كم من حي حياته موته، وميت موته حياته.

وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا.

وقال: أيضاً نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات.

وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره.

ويقال: نحي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن نيل

أفضاله.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ ﴾ ١ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 خَشِرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ٢ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ۝ ٣
 وَالْجَنَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ۝ ٤ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ۝ ٥ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ ٦
 فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُدُونَ ۝ ٧ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ٨
 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ٩ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ۝ ١٠ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ ١١ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
 يَوْمِ الدِّينِ ۝ ١٢ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ١٣ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ ١٤ إِلَى يَوْمِ
 الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ ١٥ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ١٦
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ١٧ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ ١٨ إِنَّ عِبَادِي لَنَاسٍ
 لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ ١٩ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ٢٠ لَهَا
 سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ فِيهَا مِنْهُمْ جُزْءٌ مُقْسُومٌ ۝ ٢١ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٢٢
 أَذْخَلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ۝ ٢٣ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ ٢٤
 لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ ٢٥ نَبَتْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ٢٦
 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ ٢٧ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ ابْنِ رَهِيمٍ ۝ ٢٨ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
 فَقَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا مِنْكُمْ وَجَلُونا ۝ ٢٩ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ ٣٠

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْأَسْتَفْخِرِينَ﴾ أنوار وقائع الغيب تقع في قلوب الأولياء في أوان شتى، فمن صاحب واقعة في زمان صباه كإبراهيم، ويوسف، ويحيى -عليهم السلام، ومن صاحب واقعة تقع واقعة في كمال شبابه كموسى، وداد، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، فمنهم المستقدمون بالوقائع، ومنهم المستأخرون بها، وأيضاً إن المستقدم في عهد الأزل بالمعرفة والخطاب والشهادة، وكشف الحجاب للأرواح الملكوتية، والمستأخر بالإيمان والإيقان بعد كون الأشباح والقلوب، وأيضاً المستقدمين المجذوبين من العارفين بسلاسل جذبات المكاشفات، وهم أصحاب الوجود والحالات، والمستأخرين من أهل السلوك المقتدين بأهل الطاعات من أهل الكرامات، وأيضاً المستقدمين في الأزل بالولايات والمستأخرين من أهل الطاعات، وأيضاً المستقدمين بنعت المحبة والشوق إلى المشاهدة، والمستأخرين من أهل الطاعات بنعت الطلب ساكن الجنات، وأيضاً المستقدمين إليه بالقلوب الواهة والأرواح العاشقة والعقول الفانية بنعت التسارع إلى طلب الجمال والجلال، والمستأخرين من أهل الرسوم بنفوسها الأمانة إلى أبواب المعصية والطاعة طلباً للحفظ والأعراض، وأيضاً المستقدمين بهم إلى عالم المشاهدات، والمستأخرين بقدهم إلى الطاعات، وأيضاً المستقدمين بنعت هيجان قلوبهم ووله أرواحهم إلى طلب لقائه، والمستأخرين بالطاعة إلى طلب ثوابه، ومن علم المجهول إشارته أن المستقدمين هم أهل الإرادات الذين إذا دعوا إلى الطاعة يتسارعون لحفة قلوبهم لطلب صفاء العبادات وراحة المراقبات في صفاء الأوقات، والمستأخرين هم سكارى التوحيد والمعرفة والمحبة متثاقلين من أنقال برجاء كشف العظمة والكبرياء عليهم إلى رسوم الطاعة، وذلك من غلبته البسط والبساط الحق إليهم مثل بهلول، وسعدون، ومجنون^(١)، والنوري، والشبلي، والحصري، وهشام بن عبدان الشيرازي، وعلي ابن سهل البضاوي، ونظرانهم من أهل السكر والغلبات -قدست أسرارهم.

قال ابن عطاء: من القلوب همتها مرتفعة عن الأدناس، والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطة بها مقترفة بنجاستها لا تنفك عنها طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْأَسْتَفْخِرِينَ﴾.

وقال بعضهم: عرفنا الراغبين فينا والمعرضين عنا.

وقال النهرجوري: علمنا الراغبين فينا بسرعة الإجابة إلى طاعتنا، وعلمنا الزاهدين

(١) يقصد: سمنون المحب.

فيتا بالتشاغل بالقيام إلى أوامرنا.

قال الأستاذ: العارفون مستقدمون بهمهمهم، والعابدون مستقدمون بقدومهم، والتائبون مستقدمون بندمهم، وأقوام مستأخرون بقدومهم وهم العصاة، والآخرون مستأخرون بهمهمهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال: المستقدمون الذين يستجيئون خاطر الحق من غير تعرج عن تفكير، والمستأخرون الذي يبصرون إلى الرفض والتأويل.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ إن الله سبحانه كان موصوفاً في الأزل بالقهر والطف وللصديقين منه لها تأثير في تجليها عن القدم إلى العدم، ويتجلى بلطفه من أنوار لطفه إلى العدم، فأظهر بنور لطفه التراب والماء وجعلها أصلاً في مواليد الإنسان، وتجلى بقهره للعدم؛ فأوجد من تجليه النار، وجعلها أصل مواليد الجن والجان، فخلق من الماء والطين آدم ﷺ وذريته وجميع معاشهم من الماء والطين اللذين أصلهما من تجلي نور لطفه، وخلق الجن وإبليس من النار التي هي من تأثير قهره؛ فوقع المخالفة بين الجان والإنسان، كما وقعت المخالفة بين الماء والطين والنار، فخلق الأول الماء والطين من لطفه، ثم خلق النار من قهره، فسبق الماء والطين على النار؛ لأن الماء والطين سبب الرحمة على العباد، والنار سبب عذاب العباد، لذلك قال تعالى: «سبقت وحمتي غضبي»^(١).

فتبين فضل الماء والطين وتقدمها على النار، فإذا كان الماء والطين بهذه المثابة خلق سبحانه بلطفه آدم ﷺ وذريته من الماء والطين، وخلق إبليس وذريته من النار، وإذا أراد سبحانه في الأول خلق الإنسان خلق ذريته بيضاء؛ فتجلى لها جميع صفاته وذاته، فذابت تلك الذرة من صولة تجلي ذاته وصفاته، وسارت زللاً نورانياً جلالياً جالياً، فأثر فيها بركة تجلي ذاته وصفاته، فتلاطم بعضه بعضاً، وألقى فوق الماء زبدة من نفسه فصارت تلك الزبدة طيناً، فخلق سبحانه من تلك الزبدة الأرض، ودار ذلك الماء حول الأرض ودخل في بطنها، ثم خلق منها آدم ﷺ وكان ما خلق آدم ﷺ منها طيناً لزجاً بما فيها من ذلك، فببس الماء في نفسه بتأثير شعاع تجلي العظمة، فخلق آدم ﷺ منه لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ فإذا أراد خلق آدم ﷺ سلط على ترابه ومائه سطوات تجلي قدمه وبقائه؛ فخرمها بتجلي القدم والبقاء الذين كني عنها باليدين بقوله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ يد القدم ويد البقاء أربعين صباحاً كل صبح منها أصبح كشف ألف صفة؛ فخرمها أربعين صباحاً

يتجلى كشف أربعين ألف صفة من صفاته، وجعل صورة آدم ﷺ وطنيته مساقط أنوار تجلي صفاته؛ فلما كملت صورته طرحها بين العرش والكرسي ثمانين ألف سنة من سني الآخرة، ورباها بأفانين كرامات تجليه، وهو سبحانه خلق روحه قبل صورته، وصورة الكون بألفي ألف عام من أعوام الآخرة.

قال ﷺ: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام»^(١).

وكان خلق روحه من تأثير تجلي ذاته، فأصلها أيضًا يتجلى جميع صفاته، فحبسها في حجال غيب الغيب وغيب غيب الغيب، وسترها بقباب غيبه من أعين الملائكة، ثم ألبس طينتها وصورتها لباس الغيرة؛ فنظرت الملائكة إلى صورة المعرفة من قلة معرفتهم بجلال قدرها، وأعمى الله إبليس عن رؤية ما في صورة آدم ﷺ حتى تفاخر عليها، فلما أراد سبحانه إظهار صنيعه في ملكه وملكوته وجلال صنيعه الموجود جاء بروحه التي انقذت من زنود تجلي الذات والصفات بقوله: ﴿وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وأدخلها بنفخة المنزه عن مهممة الأنفاس الحدثانية في صورته؛ فقام بإذن الله ملتبسًا نور الصفات والذات، وجلس على بساط سلك بقاءه فصار مختار من بين الفريقين الجن والملائكة، أيضًا لأن الملائكة خلقت بأمر واحد وكان آدم ﷺ خلق يتجلي الذات والصفات فشتان بين آدم ﷺ وذريته، وبين الملائكة وبنيه، وبين إبليس وجنوده.

قال بعضهم: الأشباح مزدولة قيمتها؛ لأنها خرجت من تحت ذل كن، وأظهرت من الصلصال والحمأ المسنون.

قال الأستاذ: ذكرهم نسبتهم؛ لئلا يعجبوا بحالتهم.

ويقال: القيمة لهم بالتربية لا بالتربة النسب تربة ولكن التعب قربه.

ثم أخبر سبحانه الملائكة بخلق آدم ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ إخباره لهم من خلق آدم ﷺ افتتاحه لهم أبواب خزائن ملكوت الأصغر ليربهم ما في عالم الكبير وما فيه إياهم في عالم الصغير، وهو الإنسان ليشاهدوا عجائب صنعه وقدرته ويروا فيها جمال جلاله؛ لأن آدم ﷺ كان مرآة الحق في العالم من يراه يرى آثار الله فيه.

قال جعفر: امتحنهم ليحثهم على طلب الاستفهام؛ فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته ويتلاشى عنهم نفوسهم، ثم أعلم الملائكة محل جوده ولطائف جوده في آدم ﷺ ليروا آيات

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٩٠/١١)، وابن حجر في «اللسان الميزان» (٣/٢٦١)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/١٢٢).

بهاثة وتخضعوا لجلاله بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^١ أعلمنا أن مزية آدم عليه السلام على الكل بتشريف تسويته ونفخه روحه فيه وإن كان شريف في الأصل فطرة طينه شرفه كان لله، ومباشرة أنوار ذاته المنزهة عن الحلول والاجتماع والافتراق؛ فيصير قبلة الله في بلاده وعباده فإذا ظهر لكم فاسجدوا له عند معاينتكم أنوار قدرتي وعجائب لطفي.

قال أبو عثمان: إذا خصصته بإظهار النعت عليه من خصائص الروح وبيان التسوية فدعوا بمجادلتكم وارجعوا إلى حد القهر والتعبد له.

قال الواسطي: لما نفخ الروح في آدم عليه السلام جعل معرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها قصودها مرادات بابها على محابها، فلما احتجب الملائكة بالصورة الصلصالية والرسوم الشجية عن جمال روحه وما صنع الله بعزته وصمديته وجلال جميع صفاته وذاته في تسويته وصفرته حين لم يشاهدوا عين الجبروت والملكوت فيه، ولم يروا صور حقائق اللاهوتية في مرآة الناسوتية، واحتجوا وجادلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^٢ ترحم عليهم الحق سبحانه بأن رفع حجاب الغيرة عن وجه آدم عليه السلام دلالة منه لهم به إليه ليعرفوا ذلهم وغره فأروا أنوار الأسماء والصفات وسنا سبحات الذات في وجهه، ورأوه ملتبساً بنوره ونور نوره، وما عليه من كسورة ربوبيته؛ فتأثرت قلوبهم، وفيت عقولهم من صولة جلاله، وخروا له ساجدين من شدة حبه لهم وشوقهم إليه، وتصاغرت نفوسهم بين يديه وذلك قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ﴾^٣ سجودهم لما بدا من آدم عليه السلام من نور الحق؛ فسجدوا له لا له بالحققة بل سجدوا للأزلي الأبدي المنزه عن إشارة الزائغين، وتهمة المبطلين، وأوهام الغالطين، ولم ير إبليس ما رأت الملائكة؛ لأنه كان من عالم القهر محجوباً بالقهر عن رؤية جمال الحق في آدم عليه السلام بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^٤، ولو أدركه بتلك الصفة سجد له في كل لحظة ألف مرة.

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعَمَا وَسُجُودَا

قال بعضهم: أبصر الملائكة من آدم عليه السلام هيكله وشخصه، ولم يشاهدوا إضافة الروح إليه واختصاص الخلقة به واستقامة التسوية وتعليم الأسماء والإشراف على الغيب فنكلوا على السجود؛ فلما أظهر الحق تعالى هذه الخصائص سجدوا له وقالوا: سبحانك أنت تخص من تشاء من عبادك بخصائص الولاية، وتنعيه بنعوت الربانية، وتجريه إلى بساط القرية، وأنت الفعال لما تريد.

قال الواسطي: الفرق بين روح آدم عليه السلام وبين الأشياء كلها تسوية الخلقة وتخصيص

الإضافة، فقربت من الله وعرفته ومكنها من حكمها فغنت وغنمت، ورجعت إليه بالإشارة وقطعت عنه العبارة، وذلك كله من عجز الفخر إذ لم يلبسها ذل القهر؛ فزينها بخلقه فتخلقت بخلقه، وتأدبت بصفته فكانت به تنطق وبإشارته تعقل، وهذا تفسير قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

قال أبو عثمان: فتح الله أمين الملائكة بخصائص آدم ﷺ، وأعمى عين إبليس عن ذلك فرجعت الملائكة إلى الاعتذار، وقام إبليس على منهج الاحتجاج بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

قال أبو الحسين: نظر الملائكة إلى الروح، وإلى ما خص الله به آدم ﷺ من القرية والكرامة؛ فانقادوا لأمره سبحانه، وسجدوا له وأبى إبليس واستكبر؛ لأنه كان في عبادته أسوأ حالاً منه في آياته؛ فإنه ما عبد الله قط، وإنما كان يعبد نفسه وهواه، ثم غير الحق سبحانه إبليس حيث لم يسجد له مع الملائكة بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلِيَ ابْنُ آدَمَ الْأَمْرَةَ ذَاتَ رِجْلَيْنِ﴾ أي: ما لك ألا تكون من المشاهدين شهودي بوصف كشف جماله وجلاله مع دعواك معرفتي وعبوديتي، فإن من لوازم المعرفة والعبودية والعلم بالربوبية عليك أن تراني بوصف الربوبية في العبودية، وأن تعرفني بأمرني ما وراء أمرني من أسرار علمي، وظهوري في لباس قدرتي.

ثم أخبر عن جوابه وجراته بالكلام في حضرة القديم، ومؤازرة كبريائه الأزلي بكبرياء نفسه بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقاً على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه ياليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم ﷺ كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجبال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحاً لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمداول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضاً إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوباً بنظرين، نظر إلى آدم ﷺ، ونظر إلى

نفسه؛ فأما نظره إلى آدم عليه السلام قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوجدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثان، عرفه أنه لم يكن أيضًا مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقًا في إرادته لأكل تراب قدم آدم عليه السلام؛ لأن المرید ملهوف واله بإرادته ومحبه لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مریدًا لا مریدًا؛ لأنه كان معجبًا برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفياه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

ألا ترى كيف كان حاله إلى الأبد إذا لم يعرف مكان القرب من مكان البعد، وكيف يهيم ويعمه في وادي الطرد واللعن بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ رجعت بأحجار القهر من مكان اللطف إلى معدنه؛ لأنه كان فيه عارية قد قصد باللعة إلى يوم الدين، وكان في الأزل ملعونًا.

أراد بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن اللعن لعنان، لعن قديم، ولعن جديد؛ فإبليس كان موصوفًا بهما، اللعن القديم سبق إرادة الحق لإبعاده عن رحمته وذلك لا يتغير أبدًا؛ لأن القديم هو الباقي، وتلك الإرادة قائمة به، واللعن الجديد زيادة القهر حيث أعطى زمام العصاة إلى يده حتى يفعل بهم ما يشاء بإذن الله، واستكباره عن طاعته، وارتكاب معصيته، وإغواء عباده هو اللعن الجديد الذي هو زيادة البعد، فذلك منقطعة يوم الدين حيث ارتفعت العبادة والمعصية؛ فيكون موصوفًا بها كان موصوفًا في علم القديم إلى الأبد، ليت لو كان رجلاً من الرجال، ويطلب الحق في أودية قهره ليرى أشياء من عجائب الربوبية ما يرى الرجال في معادن اللطف، ولكن كيف أقول وإنه ليس من دواب الإصطبل عجت من تحته وجهده كيف يمشي خلف بنيات وصيات وجهيلات، ويفعل كما يفعلون من خساسة طبعه وكثرة جهلة ويستأنس بكل مستوحش، ويستوحش من كل مستأنس، وليس هذا من أوصاف الرجال.

قال الواسطي: اللعنة التي لم تزل تستحقه مني، وإن كانت الأوقات جرت عليك بزينه السعادة.

ولما سقط من أصله بحسده وعداوة أولياء الله زاد حسده واستنظر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ

فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠﴾ أراد بذلك إيداءهم، وإلقاء نيران ضلاله إلى عباد الله، وظن من جهله بالله أنه يسبق القدر المعلوم حتى لا يموت كما يموت الخلق، فرد عليه الحق بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: تموت كما يموت الخلق بالنفخة الأولى، وأراد الملعون أن يتشفى على آدم عليه السلام وذريته بعد موتهم، ويسخر منهم بما فيه من الحسد عليهم؛ فالتقى الله سبحانه رغام الحسرة على أنفه.

قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، ثم ذهب الملعون إلى طلب الحيلة في إغواء بني آدم، وخرج بالجرأة في المخاطبة في الحضرة بما أخبر الحق عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ ادعى الملعون اتصافه بصفة قهر المقدم؛ حيث قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ وذلك دعوى الاتصاف بالقدرة في عالم القهر، أي بما ألبستني من لباس قهرك وإغوائك إياي، لأغوينهم لا بقدرة نفسي تكلم من التوحيد بغير اختياره، وعلم أن اللطف من الحق سبحانه ورحمته سابقتان على قهره وغضبه، فاستدرك واستثنى أهل اللطف والرضوان الذي اصطفاهم الله بولايته، وطهر أسرارهم عن دنس الرياء والشرك بهاء بحر إخلاصه وتوحيده.

فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾ وبأنه رآهم خارجين من تحت أديان قهر القدم إلى ساحة كبرياء لطف الأبد، وذلك ما قال عقيب الآية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: أنهم ملتبسون بأنوار قدسي، المجالسون معي في مجالس أنسي، اخترتهم لنفسي، وهم مواطن سري، وهم سكان أماكن غيبي، ألبستهم أنوار صفاتي، وسنا بهاء ذاتي في بحار عبوديتي مستغرقة، وقلوبهم في بحار شوقي ومحبتني مستغرقة، وأرواحهم في هواء هويتي هائمة، وأسرارهم في أودية أسراري تائهة، أوتيتهم بي إلى من قهري، تقدر أن تسلط عليهم، وإن كان معك راية قهري، وإنهم في ساحة لطفي معصومون من قهري؛ فإن سلطنتك يكون على تبعك من الغاوين بإغوائني إياهم، وقهري عليهم، وافهم يا غافل أن الله وصف المخلصين من عبادي بأنهم معصومون من شر إبليس بنور إخلاصهم، وذلك النور نور التوحيد، ونور التوحيد من كشف نور الموحد ينكشف حين زند الملعون مقدحة الوسواس في صدورهم لوقوع نيران الرياء والشرك فيغلب نوره على ناره فيذهب النار، وبقي فيهم النور، وانقطع سلطنة الملعون عنهم؛ لأنهم بعين رعاية الأزل محفوظون عن الخطرات.

قال رجل ليحيى بن معاذ: بإذا كرم الله عباده المخلصين؟ قال: بالإيمان بالغيب

والمشاهدة.

قال ذو النون: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترين إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وقال النصر آبادي: المخلص على خطر من إخلاصه؛ لأنه بياض، والمخلص جاوز حد الخطر؛ لأنه لا به^(١).

وقال بعضهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَأَمْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ أي: الذي أوصلتهم إلى قربي من غير كلفة ولا سابقة، وأفنيتهم عن أوصافهم، وزينتهم بأقلها وصفاتي عليهم. فهم مع الخلق بالهياكل، ومعهم بالأرواح والسرائر، لا عليهم من الخلق أثر، ولا لهم مما هم فيه خبر، أولئك هم عبادي حقاً، ليس لهم مطلب سواي، ولا مرجع إلا إليّ هم هم، بل أنا هم، بل أنا أنا، ولا هم هم، ولا صفة لهم، ولا أخبار عنهم، لفنائهم عنهم وبقائهم لي.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر الصادق -عليهم السلام- في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] قال: جملة الخلق من جهة الخلقة، لا من جهة المعرفة، وعبادي تخصيص في العبودية والمعرفة.

قال ابن عطاء: المخلص من أخلص من رؤية نفسه ومشاهدة أفعاله واستقام مع الله تعالى في كل أحواله، فلا يتقدم إلا بأمره، ولا يتأخر إلا بحكمه.

وقال جعفر: من الله بهذه الآية أن ليس للشيطان على عباده المخلصين سبيل، والمخلصين درجات من قبل المجاهدات والمشاهدات، فمن أخلص في عمله فهو مخلص، ومن أخلص بقلبه فهو مخلص، ومن أخلص سريره وعلايته لله فهو مخلص، ومن أخلص روحه نال الاستقامة بالله، والوصول إلى قربته.

(١) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلّصوا عن شوائب النفسانية في أفعالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلصون بالفتح؛ وهم الصديقون؛ بمعنى أنهم تخلّصوا عن شوائب الغيرة، كما تخلّصوا عن شوائب النفسانية، فهم قانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القراء في قراءة الفتح، وله ذرّة معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنها هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضاً ممن يتذكر ويصبر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكَمَل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقاً بين المقامين.

وقال الأستاذ: من أشهده الحق حقائق التوحيد، ورأى العالم مصرقاً في قبضة التقدير، لم يكن يهباً للأغيار، ومتى يكون للغير عليه تسلط.

في معناه أنشد الحسين بن منصور - قدس الله سره:

جُحودِي لَكَ تَقْدِيسٌ وَعَقْلِي فَيْكَ تَهْوِيسٌ
وَمَمْلَأَا أَدْمُ الْإِلَاحَ وَمَنْ فِي الْبَيْنِ إِبْلِيسُ

ثم إن الله سبحانه وصف تلك العباد الذين هم معصومون من شرِّ إبليس بالتقوى، وذكر منازلهم في جنات العلا وعيون الأسنى، وسلامته من البلوى، بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آدْخُلُوهَا﴾ **سَلَامٌ** **ءَامِينَ**﴾ أي أن الذين يغضون أبصارهم عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن هم في جنات مشاهدات الذات وعيون الصفات يشربون من سواقيها شرابات المحبة، ورواق المعرفة، يقول حبيبهم: «ادخلوا بساتين القدم والبقاء بسلامة من الانقطاع، والأمن من الفراق»^(١).

قال بعضهم: مَنْ اتقى الشرك فهو في بساتين وأنهار، وَمَنْ اتقى الله فهو في حظيرة القدس عند ملك مقتدر.

وقال الواسطي: مَنْ اتقى العوض جعل ثوابه عليه ما يرجو ويأمله، وَمَنْ اتقى العوض فالحق عوض له من كل ثواب.

وقال الأستاذ: المتقي مَنْ وقاه الله بتفضل الأمن، اتقى بتكلفة لا بل يبقى بتكلفة، لا بعد أن وقاه الحق بتفضله، فهم اليوم في جنات ولها درجات، بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غداً في جنات، ولها درجات بعضها فوق بعض، فدرجة قوم حلاوة الخدمة واللذة الطاعة ولقوم البسط والراحة، والآخرين الرجاء والرغبة، ولآخرين الأُنس والقرية، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِثْقَلَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ولزم كل فريق منهم اليوم مذهبهم.

قال الأستاذ في قوله: ﴿آدْخُلُوهَا سَلَامٌ ۖ ءَامِينَ﴾: معناه يقال لهم: ادخلوها، وأجل ذلك، ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم: ادخلوها؟ فقوم يقول لهم الملك: ادخلوها.

ويقال: يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملك حتى يقول الحق لهم: ادخلوها كما قالوا:

فَلَا أَلْبَسُ النُّعْمَى وَغَيْرُكَ مُلْبِسٌ وَلَا أَتَبَلُّ الدُّنْيَا وَغَيْرُكَ وَاهِبٌ

ثم إن الله سبحانه زاد وصف المتقين، أنهم مقدسون من غل النفساني وغش الشيطاني

بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ بَيَّنَّ في هذه الآية أن قلوب الصديقين والمتقين مقدسة من علل الإنسانية والشرطانية؛ لأنها مقدسة بقُدس جلال الرحمن؛ ولأنها متقلبة بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يدخل فيها علة الخلدان.

الأرواح كانت مستغرقة في لجج بحار الوجدانية والأسرار، هائمة في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها غبار وساوس الشرطانية، وما طوى عليها في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها وساوس الشرطانية، وما طرأ عليها ققام هواجس النفسانية، لكن لما أراد الحق سبحانه امتحانها خلق الأشباح، وجعل منها أوديتها الشهوات، وأنبت فيها نبات الأخلاق الذميمة، والفطرة السليمة، وجعل القلوب أماكن الأرواح، وجعل الأرواح أماكن العقول، وجعل العقول أماكن الأسرار، وجعل الأسرار أماكن لطائف معرفته وحكمته، وجعلها أصداف جواهر تجلي جماله وجلاله، ثم وضع الجميع في مواضع الفطرة من الأشباح، فلما سكنت هذه الجنود في الأشباح، وتواترت عليها أنوار تجلي الحق، تطهرت الصدور بمساكنها من علل الإنسانية، وانسدت عليها أبواب الشرطانية، فلم يبق فيها علل الأخلاق، ولا يدخل فيها بعد ذلك غبار الوسواس فإذا بعد ذلك صاروا متقين، الذين وصفهم الله بنزع الغل عن صدورهم، قيل: دخولها في الجنان نزع علة الغل والغش بنفسه عن صدورهم، ثم بكرمه أدخلهم في جنان مشاهدته، وأجلسهم على كراسي قربته ينظرون بعضهم إلى وجوه بعض بالمودة والمحبة والشوق إلى لقائه، يرى سيئات نور الألوهية بعضهم من وجوه بعض، ولو بقى الغل في صدورهم على باب الجنة ما أسوأ حالهم إذا بقى قلوبهم في غواشي الغل، الله الله لا نظن، فإنه لك بجلال قدره دفع عن صدورهم هذه العلة قبل دخول أرواحهم في أجسادهم، وكيف يكون موضع المضافات والمودة والألفة الإلهية مغشوشة بغل الطبيعة، والغل والغش من أوصاف أهل النفوس، لا صفة المتحابين في الله، لا ترى كيف وصفهم بالآخرة، ولا يبعد من قدرة الله وحكمته أن يدخل الغل في صدور ولي من أوليائه، ابتلاءً وامتحاناً؛ ليشغل بدفعه وتطهير سره عن ذلك، واستعاذته بالحق من وسواسه، ويصل إلى معالي الدرجات باستنكاره على نفسه، ومحاربته مع شيطانه، ولا يكون ذلك من منقصة في ولايته.

ألا ترى إلى قول أسد الله علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كيف قال في هذه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب اتثلت بالله، وافتقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك القلوب صافية من هواجس النفس، وظلمات الطباع،

بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخواناً.

قال الأستاذ: أمر الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها، فقال تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وأمر جبريل عليه السلام حتى غسل قلب المصطفى ﷺ، وطهره وتولى نفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ لا تقديراً لهم على الأنبياء - عليهم السلام، ولكن رفقا بهم، وقد يصنع الله للضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهر عيوبهم، فتولى ذلك بنفسه رفقا.

ويقال قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾، ولم يقل: ما في قلوبهم من غل؛ لأن القلوب في القبضة يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

ثم إن الله تعالى نفى عنهم النصب والمشيقة في جواره بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ آوهم إلى أنوار بقاءه، ومشاهدة جماله، وحرسهم بها عن فهر سلطان الكبرياء القدم الذي لو هجم عليهم سطوة من سطواته يفنيهم عن اللذة، وما هم فيه من الجنان كلها؛ لأن الحادث إذا قُرُنَ بالقديم يزول من عظمته فيه بأقل من لحظة، ولولا استتارهم بأستار نور البقاء هلكوا في جلال الأزل، كأنه تعالى حفظهم به عنه، وأيضاً لولا تفضله ورفقه بهم؛ حيث أراهم جماله بوصف اللذة؛ ليفنون في بوادي عزته وهيبه عظمتهم، ومعنى قوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لأن هناك ليس مكان الامتحان والريبة، وقد صار في زمان الغضب بوصف الرضا، ويصير الغيرة مرتفعة من بين العاشق والمعشوق.

قال النصر آبادي: أي نصيب يلحق في المجاورة لمن غفل عن الله تعالى، وأما من انتبه فأني راحة للحدث في جنب القدم، هل هو إلا تعذيب واستهلاك؟ ثم رجع إلى المقامات، وعمل الامتحانات، ورعب المريدين بنيل الدرجات، وهدد السالكين بنصب الحجاب، وتعذيبهم بالعتاب، بقوله: ﴿بَيْتِي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر جنابة خطرات قلوب العارفين بعد إدراكهم مواضع خطرهما، وتداركهم بالندم على تضييع الأوقات، وعمارتهم أسرارهم بأنواع الذكر وصفاء المناجاة يرحمهم بأن يوصلهم إلى أعلى مراتبهم من المكاشفات، والمشاهدات، وعذاب فراقه، واحتجابه أليم لمن عرفه، ثم يستأنس بغيره، وإن كان واسطة مليحة، ويمكن أنه تعالى أخبر عن تلك الأسرار التي ذكرناها في قوله: ﴿لَا

يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» غفر لهم علل الحدوثية، ورحمهم بأنه ألبسهم لباس الربوبية حتى بقوا به معه من غير زوال، وأن عذابه هناك لو أطلق عثائه يحرق الجمهور بنيران سر كبريائه وحقيقة أوليته، أخبر عن تلك الصفتين ما أخبر عن مباشرة صفة القهر، بل أخبر عن استغراقهم في بحر رحمة مشاهدته وغيوبتهم في حجال وصلته؛ فإنه الغفران الحقيقي.

قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ وانحسم باب القهر بقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾، وأيضاً أخبر عن الوصفين من أوصاف المغفرة والرحمة، وهما في الحقيقة صفتان قديمتان باقيتان، وأن عذابه صفة فعله، وإذا قورن الفعل بالصفة لزال الفعل في الصفة، فإذا مقام الرجاء أقوى من مقام الخوف؛ لأن الرجاء من شقائق الإنس، والبسط وهو باق أبداً مع العبد؛ لأنه من تأثير تلك الصفة، وزال الخوف؛ لأن في جواره لا يبقى الخوف، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بزوال العذاب، وغيبة الفعل في الصفة.

قال ابن عطاء: أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصح لهم سبيل الاستقامة في الإيمان؛ فإن من غلب عليه رجاؤه عطّله، ومن غلب عليه خوفه أقنطه.

قال الجنيد في هذه الآية: النبأ سابق إليهم في الدنيا باجتماعهم في الآخرة، فلذلك لا يشكون ولا يضعفون، ويطيقون حل البلاء فهم في سعة من العيش في كل حال، كل ذلك لسعة علمهم بالله، وسكونهم إلى مواعيده فحملوا الحقوق، وما خفي عليهم شيء مما خفي على غيرهم، وهم مشرفون بالله على ما له منهم، وما لهم عنده.

وقال ابن عطاء: إن الله تعالى وصف نفسه بالفضل والعدل، ولا يوصل فضله إلى عبد إلا أنجاه من كل بلية وهم، ولا وضع عدله على أحد إلا أهلكه، وأوصل عدله إلى إبليس مع طول عبادته التي توهم أنها تنجيته، وتقربه إلى ربه، فأبعد به عدله، وأخزاه إلى أبد الأبد، وأوصل فضله إلى السحرة، وهم يقولون لفرعون: بعزتك، فردهم مما هم فيه بفضله إلى محل السعداء، فتلاشى كفرهم ومعصيتهم.

﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسْنِيَ الْكِبَرُ قِيمَةً تَسِيرُونَ﴾ ١٠٠٠ ﴿قَالُوا ابْشِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَاطِلِينَ﴾ ١٠٠١ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ١٠٠٢ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ١٠٠٣ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ١٠٠٤ ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٠٠٥ ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُا لَمِنَ الْغَافِرِينَ﴾ ١٠٠٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١٠٠٧ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ ١٠٠٨ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَاءٍ كَانُوا فِيهِ يَسْتَمْرُونَ﴾ ١٠٠٩ ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ﴾ ١٠١٠ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ

أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ ذَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٥١﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ صَافِي فَلَا تَفْضَحُونَ ﴿٥٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ ثم إن الله سبحانه إذا أغلق باب الفراسة على الأنبياء والصديقين لا يرون مرقومات المقدرات، ولا يعلمون بحقائق المغيبات.

ألا ترى كيف غاب حديث رؤية روح إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام عن الخليل عليه السلام حتى قنط من نفسه أن يكون ذلك في كبره، ولو رأى ذلك في سر القدر لم يقل: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، ولم يكن شاكاً في قدرة الله، ولكن لم ير هناك في ذلك الوقت ما عند الله من مكنون سره، وأيضاً كان في كبر سنه هائماً في أودية الخلعة، مستغرقاً بوصف الشوق في بحار المحبة، مستأنساً بجمال المشاهدة، مستوحشاً من أحكام الحدوثية، فقال: أي وقت لربية الولد، وإني كنت على جناح سفر الوصلة، وتصديق ذلك قوله: ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ أي: بأي شيء تبشرون، وإني غائب في الحق.

وأصل النكتة في هذا: إن الخليل رأى في سطور مقدرات الغيب بنور النبوة اسم إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، ورأى بروحه وروحهما، فقال: أبشروني على أن وصل إليّ الكبر، وبلغني الحق إلى درجة الشيخوخة، ولا يخفى مثل ذلك عليّ، ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾، وإني أرى بنور نبوتي ما لا ترون بنور الملكية.

قال الجوزجاني: أيام الكبر أيام القنوط من الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة، وما عند الله.

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لم يقبل بشرى الولد من الملائكة عند الكبر، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ إلى أن ذكروا أن البشري له من الله فزال عنه القنوط لعلمه بقدرة الله على ما يشاء^(١).

(١) في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَمْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواء، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقنضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزم للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «عليكم بالدجة» فإن الأرض تُطوى في الليل، والدجة: السبر في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلونها لما

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ١٦٠ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ١٦١ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِّن سِجِّيلٍ ١٦٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ١٦٣ وَإِنَّا لَنَسِيلٌ لِّمُؤَمِّرٍ ١٦٤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ١٦٥ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ١٦٦ فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ وَإِنَّمَا لِيْلِمَامٍ مُّبِينٍ ١٦٧ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ١٦٨ وَءَاتَيْنَاهُمُ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ١٦٩ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِّنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينَ ١٧٠ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْحِجِينَ ١٧١ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٧٢ ﴿

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياة روحك التي أوجدتها من العدم بتجلي القدم، وعمرها في مشاهدتي بعد كون وجودها، وأيضا أي بأعمار أنوارك المصطفوية في علم غيبي، حيث لم يكن الدهر الدهار، ولا الفلك الدوار، وهي كانت تزورني في سرادق كبريائي، ولا تحصى زمانها؛ لأن زمانها بلا زمان ومكان، أوجدتها بقدرتي وكميتها بقدرتي في أماكن قدرتي، أي: لعمر أنوارك التي تعرف مني نور صفاتي، وتذكر مشاهدة ذاتي، فنعم تلك الأعمار أي: بعمرك في ديوان ربوبيتي، ومنازل قربتي، وحسن مشاهدتي من زمان معراجك ووصالك معي، وأيضا أي: بعمرك الذي يبقى في جمال مشاهدتي أبداً، وأيضا أي بعمرك الذي ما هجم عليه طوارق الغضب ولا قوارع العطب، وأيضا أي: بحياتك التي كونتها لك من تجلي حياتي فيك، وتلك الحياة من روح روعي التي نفختها في أيبك آدم ﷺ كانت روح آدم الذي نفخها الحق في آدم بحياتك التي عاش آدم، ومن دونه بها، إنهم من حياتك، ورؤيتها في حجاب الضلال، وسكر العمى.

قال بعضهم: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمارة سرك بمشاهدتنا، وقطعك عن جميع المكونات. وقال النوري: أي: بحياتك التي خصصت بها من بين الخلق، فحيوا بالأرواح، وحييت بي، فبقاؤك متصل ببقائي؛ لأنك باقي بي. وقال جعفر: أي: بحياتك يا محمد، إن الكل في سكرة الغفلة وحجاب البعد إلا من كنت وسيلته ودليله إلينا.

يُورثهم النسيم الرحمان في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللذات والنشاط. وفيه أن الأهل: وهي المخدرات ينبغي أن يكون خروجهم من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر هن، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار البتة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزف إلى بيت زوجها بعد المغرب حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقال القرشي: أقسم الله بحياة محمد ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، لأن حياته كانت به، وهو في قبضة الحق، وبساط القرب، وشرف الانبساط، ومقام الإنفاق، فأقسم بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بحياة مثلك يكون القسم؛ لأن الكل زاعوا وما زغت، وطغوا وما طغيت، وسألوا وما سألت، حتى بدأتك بالإجابة قبل السؤال، فحياتك هي التي بها حياة الخلق قبلك، وبها حياة الخلق بعدك، فإنك حيٌ بحياتنا غير مابين عنّا بحال.

وقال الخراز: وصفه لخلق، ثم ستره ببره عن خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْتَوَسَّعِينَ﴾ رهن الحق سبحانه الفراسة برؤية الآيات والشواهد، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، و﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَنَّهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وهذه أوصاف البدايات في الفراسة، حيث يحتاج إلى النظر إلى العلامات، وأصل الفراسة إصابة نظر الروح إلى مقدرات الغيبية بلا علامة ولا علة ولا سبب، بل يتعلق هذه الفراسة بانكشاف ما يبدو من الغيب بنور الغيب، وسر المقدور، وخفيات الضمائر، ومكنونات السرائر لأبصار الأرواح الناطقة بالحق، المسامعة أصوات أنباء الغيبية، الشاهدة مشاهدة الحق، فترى بالحق بعد أن تكون موصوفة بصفة الحق ما للحق، فكيف يخفى شيء عَنَ ينظر بالحق ويبصره؛ لأنه تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به من جهة الاتصاف، والاتحاد بالنعوت الأزلية.

وافهم أن الفراسة على عشرة مراتب: فبعض الفراسة يحصل بعين الظاهر ورؤيتها إلى منقلبات الآيات والأفعال في عالم الصورة، وهي تصرف الحق مكان الآيات إعلالاً من مكنون ما سترها من أعين الخلق، وهذا تفرس بصرية ظاهرية مقرونة بعلم العقل والقلب والروح والنفس والسر وسر السر.

والثاني: ما يسمع آذان العارفين حركات المعالم، وما ينطق الحق وملائكته بألسنة الخلق والخلقية، وذلك يسمع الظاهر، وتلك الفراسة تتعلق بالأسماع الظاهرة، وما يسمع أيضًا بأسماع البواطن وقواها.

والثالث من الفراسة: ما يبدو في صورة المتفرس من أشكال تصرف الحق وإنطاقه، وجوده له حتى ينطق جميع شعيرات بدنه من حيث التصرف والتغير بألسنة مختلفة، فترى ويسمع من ظاهر نفسه ما يدل على وقوع الأمور الغيبية، وذلك أيضًا يتعلق بالرؤية والسمع وحركة الفطرة في الباطن، وإيصالها بأجزاء الظاهر.

والرابع: ما يحصل بحواس الباطن حيث وجدت بلطفها علامات أوائل المغييات باللائحة الواضحة.

والخامس: ما يحصل من النفس الأمانة بما يبدو فيها من التمني والاهتزاز، وذلك سر عجيب؛ لأن الله إذا أراد فتح باب الغيب ألقى في النفس الأمانة آثار بواديه، إما محبوباً فتتمنى، وإما مكروهاً فتفزع، ولا يعرف ذلك إلا رباني الصفة.

والسادس: ما يحصل للقلب سمعياً بالإلهام، وإما فعلياً كوجدانه برد الواقعة، وإما كشفياً يبصر ويعلم.

والسابع: ما يحصل للعقل، وذلك ما يقع من أثقال برجاء الوحي الغيبي عليه، فيعلم من وجود الوحي إلهامه ما سيقع من تصرف الحق، وذلك أيضاً يحصل له سمعياً وبصرياً.

والثامن: ما يحصل للروح؛ لأنها تراه من تصرف الحق فيها، وما يبدو في غيبه يبصر الخاص، وما يسمع من الحق بالواسطة وغير الواسطة.

والتاسع: ما يحصل لعين السر وسمع السر، ترى تصرف الصفة، ويبصر علامة كون الحالة في نور الصفة.

والعاشر: ما يحصل في سر السر، وهو ظهور عرائس أقدار الغيبية ملتبسات بأشكال إلهية ربانية روحانية، فيبصر تصرف الذات في صفات، ويسمع الصفات بوصف الحدث والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهى الكشف والفراسة الحقيقية التي حذرها الخلق النبي ﷺ بقوله: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١).

فإذا وجب الخوف من فِرَاسَةِ مَنْ يَرَى بِنُورِ الْحَقِّ؛ فكيف لا يجب الخوف من فِرَاسَةِ مَنْ يَرَى بِالْحَقِّ لَا بِالْغَيْرِ؟!

قال الواسطي: السرائر متأهة بحظوظها، مصروفة عن أوقاتها، صدقها في تحركها، أظهر عليها من صدقها في تعبدها، تظهر من السرائر أبداً قهراً، ما يوقفك عليها عفواً، فيشرف المتفرس عليها في أوقاتها؛ فيعرفها، قال الله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ»، قال: هم المتصفحون المتفرسون.

وقال بعضهم في قوله: «لِّمُتَوَسِّمِينَ»، قال: هم المتفرسون، وهم على ثلاثة أوجه بالنظر والسمع والعقل، وأجل من هذا حال الكشف والملاحظة لمن أوتيها، فيكون فراسته غائباً وحاضراً صحيحة.

وقال بعضهم: المتوسمون هم المتفرسون على السرائر، فإذا أردت أن تعرف بواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصاريف أخلاقهم، ومواقيت إشجابهم.

(١) رواه الترمذي (٢٩٨/٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/٣١٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (١٦٠/٢).

وقال محمد بن الحنفيف: الفراسة مقسومة على ثلاثة أوجه:

الأول: إصابة المكنون من الأوقات المستكن في النفوس من الأحوال المستخفية من حمل عوام الخلق، وذلك مخصوص به الرسل لما كان للنبي ﷺ في عبد بن زمعة حين قال: «إن أمرها ليتن، لولا حكم الله».

والثاني: تجلي ما استودع الحق في النفوس من الأحكام المخفية على الخلق المتفرد به الحق، وكشف ذلك لأهل التخصيص من الصديقين والأولياء بعد الأنبياء، كما قال أبو بكر الصديق لعائشة - رضي الله عنهما: «إنما هما أخوك وأختك»^(١).

والثالث: ذكر اطلاع القلوب عندما انكشف له من الغيب البعيد، وهذا مقرون بالإلهام، كما قال عمر بن الخطاب: «يا سارية، الجبل الجبل»^(٢).

سئل الجنيد عن الفراسة؛ فقال: آيات الربانية تظهر في سماء العارفين، فتنتطق ألسنتهم بذلك، فتصادف الحق.

وقال الحسين حين سُئل عن الفراسة؛ فقال: حق نظر عن أحد نظرًا إياه، فخير عن حقيقة ما هو إياه بإياه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۚ إِنَّ رَيْكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ۚ وَلَقَدْ أَتَيْتَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَنَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۚ لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۚ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْمُقْتَسِمِينَ ۚ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الصَّفْحُ الجميل ما يكون برؤية تقدير الأزل بنعت شهوده مقدور الغيب بوصف السرور في مباشرة الأمر، والنشاط بالرجوع إلى الحق، وسابق أمره ومشيتته فيما جرى عليه بالواسطة من الغير، فإذا كان كذلك سقط الملامة بسقوط الوسائط، وحصل الرحمة على المجرم المجبور بأمر التقدير.

ألا ترى كيف أشار بتمام الآية إلى سرٍّ ما سبق من التقدير الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ما هجم عليك من إيذاء قومك هو مخلوق الخلائق، وتقديره في تربيتك، وإبلاغك إلى مقام أولى العزم، وهو عليم بما قدَّر، وبما يكون من اتصافك بخلقه العظيم، وإنَّ

(١) ذكره الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥١٤).

(٢) ذكره المعجلوني في «كشف الحفاء» (٢/ ٥١٤).

كان لفظه الخلاق متعلقاً بمعنى الإيجاد والتقدير، وأيضاً فيه إيحاء من معنى الخلق والتخلق كأنه داعي حبيبه إلى التخلق بخلقه في العفو والكرم، ثم واساه بأنه عليم بما قلبه من الشفقة على دينه، وأيضاً الصنف الجميل مواساة المذنب يرفع الخجل عنه، ومداواة موضع آلام الندم في قلبه.

روى عمرو بن دينار عن محمد بن الحنفية عن علي -رضوان الله عليهم- في قوله: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، قال: هو الرضا بلا عتاب.

وقال بعضهم: صَفَحَ لا توبخ فيه، ولا حقد بعده، والرجوع من الأمر إلى ما كان قبل ملاسة المخالفة.

ثم إن الله سبحانه وصف امتنانه عليه بما أعطاه من علوم الألوهية وأسرار الربوبية ليزيد رغبته في الصفح والعفو والكرم، ومواساة عباده، وتحمل إيدائهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ﴾ فيه بيان التخلُّق والاتِّصاف بصفاته القديمة، وأخلاقه الكريمة.

أي: ألبسناك أنوار سبع الصفات من صفاتنا؛ لتتصف بها، وتتخلق بخلقها، فتكون ربانياً، ألوهياً، جبروتياً، ملكوتياً، جلالياً، جمالياً، نورياً، قدسياً، أولياً، آخرياً، رحانياً، رحيمياً، ذاتياً، صفاتياً، والسبع المثاني سبع بحار الصفات القديمة، فغسله فيها، وألبسه من أنوارها كسوة الربوبية حتى تكون مرآة الله في بلاد الله وعباده، فسقاه من بحر علمه شرابات، ومن بحر قدرته، ومن بحر سمعه، ومن بحر بصره، ومن بحر كلامه، ومن بحر إرادته، ومن بحر حياته، فصار عالماً بعلمه، قادراً بقدرته، سميعاً بسمعه، بصيراً ببصره، متكليماً بكلامه، مريداً بإرادته، حياً بحياته، فعلم بعلمه علم ما كان وما سيكون، ويقبَل الأعيان في السموات والأرض بقدرته، ويسمع حركات الخواطر بسمعه، ويرى ما في الضمائر ويبصره، ويتكلم بحقائق الربوبية والعبودية بكلامه، ويكون ما أراد بإرادته ويُنْجِي القلوب الميتة والأبدان الفانية بحياته، ولكل صفة منها ثانياً من جمهور الصفات الخاصة على إزاء كل صفة منها صفة، حتى يكون مثاني، ومنها القدم، والبقاء، والجلال، والجمال، والرؤية، والصمدية، والربوبية، فالصفات الأولى مع هذه الصفات السبع المثاني، فكان من مشاهدة القدم والاتِّصاف به صار بتعت التجريد عن الحدثان، ومن مشاهدة البقاء والاتِّصاف به، صار متمكناً في محل الصحو، ومن مشاهدة الجلال والاتِّصاف به صار في محل الهيبة مهيباً في السماوات والأرض، ومن مشاهدة الجمال والاتِّصاف به صار عاشقاً بوجه القدم، وصار مرآة جمال الحق في العالم، ومن مشاهدة رؤيته، والاتِّصاف بها، صار شائقاً محبباً مستغرقاً في بحر الأزل، وصار معشوقاً لقلوب الخليقة، ومن مشاهدة الصمدية واتِّصاف بها، صار صمدانياً

مشربه من الصمدية، وطعامه من المشاهدة، بقوله: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١)، وكان لا يراه أحد إلا سكن جوعه من تأثير صمدانيته، ومن مشاهدة الربوبية والانتصاف بها، صار متصرفاً في ممالك الحق وعبادته وبلاده.

ألا تري كيف أجابته الشجرة حتى أتت عنده من البعد، وسترته لقضاء حاجته، وكيف انشق القمر بإشارته، وصار بذلك مسجوداً للحجر والشجر، فقد أعطاه الله أنوار هذه السبع المثاني من الصفات القدسية، وزاد بأنه أعطاه القرآن العظيم الذي أخبره خير جميع أسائه، ونعوته، وصفاته، وما لم يصل إليه جميع الصفات؛ لأن صفاته تعالى غير متناهية، فعرفه القرآن أوصاف الذات والصفات جميعاً، وعظم القرآن من عظم متكلمه، وهو بذاته تعالى تكلم بقرآن عظمته من حيث عظمة الذات وعظمته، إن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من علوم الأزلية الأبدية، وأيضًا لكل صفة من صفاته ثاني من عينية الذات، فالصفة ثاني الذات، والذات ثاني الصفات، ليس من جهة الافتراق والاجتماع هو واحد من جميع الوجوه، وهو منزّه عن كل تفرقة وجمع، كأنه قال: أتيناك معاني الذات والصفات، وجئت عرفتُها بعد أن عرفتُك تعالى بجلاله وعزته، أي: كسيناك نور ذاتنا وصفاتنا، لذلك قال ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»^(٢).

والقرآن العظيم علمك أنباء الربوبية، وعرفك حقائق الإلوهية، وأعلمك علوم الغيبية وأحكام العبودية، وأدق الإشارة أن السبع المثاني هي تلك الصفات القائمة، وتأثيرها من جهة الانتصاف بها في قلب النبي ﷺ كأنه توانى بالسبع الصفات القائمة بالذات؛ لأنه العالم والقادر والسميع والبصير والمتكلم والمريد والحي، وهذه الصفات من النبي ﷺ مواليد تلك الصفات القائمة الأزلية المنزهة من العلة وتأثيرها.

ألا ترى إلى ما حكى عن الله ﷻ في حق المحبين، قال الله: «إذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»^(٣)، ولذلك قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»^(٤).

ويمكن أنه تعالى قد أشار أيضًا إلى صفته العامة وصفته الخاصة مثل التشابهات، أي: عرفناك صفتي الخاصة والعامة، وعرفناك بالقرآن العظيم معاني الصفات العامة والخاصة فصرت عاشقًا حبيبًا مشتاقًا من رؤية الصفات الخاصة المتشابهة؛ لأنها معدن الجمال والجلال،

(١) سبق تحريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٥٥/٣) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٥٨/٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣١٩/١٨).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٨)، وابن حبان (٣٣/١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٩٣/١).

(٥) هي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتبة.

وصرت متفردًا من رؤية صرف الألوهية بواسطة الصفات العامة عن الأكوان والحدثان، وظاهر الآية أتينك سبعًا من المعاني أربعة عشر خُلِقًا من أخلاقه، مثل: الرحمة والشفقة والعفو والصفح والكرم والظرافة واللطافة والحسن والجمال والهيبة والحياء والسخاء والوفاء والولاية والنبوة والرسالة، هذا كما روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر -عليهم الصلاة والسلام- في هذه الآية، قال: أكرمناك، وأنزلنا إليك، وأرسلناك، وأهمنناك، وهديناك، وسلطناك، ثم أكرمناك بسبع كرامات؛ أولها: الهدى، والثاني: النبوة، والثالث: الرحمة، والرابع: الشفقة، والخامس: المودة والألفة، والسادس: النعيم، والسابع: السكينة والقرآن العظيم، وفيها اسم الله الأعظم.

ولما بيّن امتثانه عليه، وعرفه مكان النعمة السرمدية له، صغر الكون وما فيه في عينيه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر يا صاحب هذه المعاني العظيمة الربانية إلى زينة أصناف أهل الدنيا من الغافلين عنا، فإنها فانية لا يلبق بنعمتك، وهذا إشارة إلى سرّ الفطرة النفسانية المجبورة بالشهوة الخفية، أي: ينبغي ألا يميل نفسك إلى شيء غيرنا، فإنه موضع خطر المخلصين؛ لأنه محل امتحاننا لا تمدن عينك إلى طلب جمالنا في غيرنا من أوصاف الروحانيات، فإن حقيقة المشاهدة ما تكون خالية من الوسائط، أي: لا تكن كالخليل، حيث قال: ﴿هَٰذَا نَبِيٌّ هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ لكن اقتد بآخر مقامه؛ حيث قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فبدايته في قوله: ﴿هَٰذَا نَبِيٌّ﴾ مقام العشق، وآخر مقامه إفراد القدم عن الحدث، فأول مقامك آخر مقام الخليل فغض عليه السلام بصره عن الوجود، لذلك وصفه بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. وفي الحديث المروي أنه عليه السلام كان إذا رأى أموال أهل الدنيا من الإبل، والغنم، وغيرهما، يغطي عينيه بكفه، ويقول: بهذا أمر ربّي.

ثم زاد التأكيد برفع الهمّة عن الغير بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أمر باستعمال خلقه للمقبلين إلى الله، المتابعين حبيبه بنعت المحبة والإيمان واليقين، بقوله: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جناح همتك ارتفعت من الكونين، ووصلت إلى قاب قوسين؛ لأنها أجنحة ألوهية ربانية قيومية، أي: اخفض جناح الربوبية التي اتصفت بها لأهل العبودية حتى يطيروا بجناح نبوتك إلى معادن رسالتك، ويجدون بمتابعتك وهمتك المقامات الشريفة، والولايات الرفيعة، ومع ذلك لا تتكلم من حيث أنت، فأنت من حيث أنا، ولكن تكلم معهم من حيث أنت في مقام العبودية، بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْغَدِيرُ الْمُعِينُ﴾ لست من قبل الربوبية

بشيء لكن أنا بشر مثلكم يوحى إليّ، فمن جهة الوحى أنذركم من عظيم جلاله، وقهر كبريائه، وأحذركم من ألم فراقه، أنا النذير منه مبين، حيث ألبسني شاهد ملكه، وعز جلاله وأنوار بهائه مبين من حيث ظهر معجزتي لكم وأنتم معاينوها.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنُكَ﴾ غار الحق على حبيبه أن يستحسن من الكون شيئاً أو ينظره طرفه؛ فإن ذلك متعة لا حاصل له عند الحق، وأراد منه أن يكون أوقاته مصروفة إليه، وأيامه موقوفة عليه، وأنفاسه له حسيبة عنده؛ فقال: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا﴾^(١) لذلك وقع في المحل الأعلى، فما زاع ولا طغى.

قال يوسف بن الحسين أذن الله في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ لنبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه بأنه السفير الأجل، والعلم الظاهر، والبيان الشافي، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ۞ ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ۞ ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَزِيرِينَ﴾ ۞ ﴿الَّذِينَ حَبَّطُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا لَهَا ءَاخَرًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ۞.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ لا يحتاج الحق إلى السؤال عما عمل أهل معرفته، لكن يعرفهم مكان الخطوات، واعوجاج المهم، وميلان الطبيعة، ودقائق النفس والشيطان، حتى يكونوا مذابين من حياته في بحر الخجل من صولة العظمة، وأيضاً أراد أن يواسيهم بما قاسوا من آلام المشقة والمجاهدة، كيف يخلصون من مكان الامتحان، فيقول: كيف أنتم عبادي في معاملتي، ومن أجرتي، ومشقة امتحاني، حتى يقولوا بلسان الاضطرار والشوق إلى لقائه ومقاساتهم داء الفراق هذا البيت:

عندك لا تسأل عن حاله جل بأعدائك ما حل به

قال الواسطي: يطالب الأنبياء والأولياء بمثاقيل الذر لسمو رتبهم ولا بطالب العامة بذلك، لبعدهم عن مصادر السر.

قال الواسطي: غفلة العامة من المسئول عنها أهل الحقائق من حركات الأطراف، وخطرات القلب، وهو اجس السر.

(١) فضل الرؤية فيها لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام، والذي له عند الله تنزل وقدز قللحق على جميع أحواله غيرة، إذ لا يرضى منه أن يذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيها ليس الله - سبحانه - فيه رضاء، تفسير القشيري (٦٤/٥).

قال الجنيد: لتسألن أهل الحقائق عن صحيح ما أظهروا للناس من الدعاوي وتحققها، وبلغني أن بعض المشايخ قال لبعض المريدين: إياك وهذه الدعاوي فإن الله سائلك عنها.

فقال المريد: لو علمت أن الله يكلمني في القيامة ويسألني عن هذا، لما كان مني في طول عمري إلا هذا، وأنا من يصلح لمخاطبة الحق، وللوقوف بين يديه، وسقط فئات.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ❶ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ❷ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ❸.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ❶ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ❷ واسى الحق حبيبى بما سمع من أعدائه، وقال: أنت بمرأى منا يضيق صدرك من لطافتك بما يقول الجاهلون بنا في حقنا بما لا يليق بتنزيها فترة، أنت صفتنا مكان مقاتلتهم فينا، فإن مثلك ينزها لا غير، وكمن الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر في مشاهدة جمالنا، فإذا كنت تعابنا يسقط عنك ضيق صدرك من جهة مقاتلتهم.

وقال الواسطي: تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فينا من الضد والند والشريك، فسبح بحمد ربك لا تضيق به صدرا، فأنا في الأزل نزهنا صفاتنا عما أحدثوه من هذه الألفاظ.

قال بعضهم: يضيق صدرك بما يقولون إذا رجعت إليهم، وسمعت منهم، أرجع إلى مشاهدتنا، فإنه وطن الحق، ولا يضيق صدرك.

قال الواسطي: هذا تعزية للمحسودين من العلماء، فقال: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون بجهلهم وحسدهم فيكم، ثم أمرهم بلزوم طاعته بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ❸.

قال الأستاذ: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ولم يقل قلبك؛ لأنه كان في محل المشهود ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا يكون مع اللقاء وحشة، ثم أمر حبيبى بخالص العبودية عن كدر الخليفة بقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ❸ اليقين هاهنا مشاهدة الصرف، أي: إذا بلغت مقام التوحيد به، وحقيقة الرؤية، ومشاهدة مشاهدة الأزل، وغبت في بحر الأبدية، سقط عنك في تلك الحال، تظاهر الرسوم حتى تفيق عن تلك الحالة.

قال في مقام المشاهدة: الاشتغال بالعبادة ترك الأدب، وما أردنا بهذا التفسير خلع ربق العبودية عن أعناق أهل المعرفة، لكن أردنا أن العارف إذا عاين الحق يكون مجذوبا بشوق

الحق إليه إلى جماله، وهناك هو عروس الحق ومحبوه، لا يجوز أن يشتغل برسم من الرسوم، بل الاشتغال بحكم الوقت عين العبودية، أي عبودية أعظم من متابعة أمر المحبوب، لكن ما دام قادرا أن يكون مصححا لظاهر رسوم العبادة، ولم يكن سكرانا غائبا يلزم عليه حفظ الأوقات في العبودية إلى المات، وهذا من شعار أهل التمكن.

قال الواسطي: لا يلاحظ غيره في الأوقات حتى يأتيك اليقين، فيتحقق عندك أنك لا تحس بغير الحق، ولا ترى إلا الحق، ولا يجاذبك إلا الحق.

وقال فارس: حتى تتيقن أنك لست تعبد حق عبادته.

وقال أيضا: من نظر إلى معبوده سقط عن عبادته، ومن نظر إلى عبادته سقط عن معبوده.

وقال الحسين: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أي: إنك تستيقن بأنك لا تعبد ولا يعبد أحد حق العبودية ابتداء وانتهاء، فتستوجب بها لا بد من مكافأته.

قال ابن عطاء أن الله حكم على أصفيائه وأحبابه وأخلائه أن لا يفرجهم من الدنيا إلا وطوق العبودية في أعناقهم، لباس الخدمة عليهم، ولذا قال لحبيبه ﷺ من بين بريته:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

قال الحسين بن عبد الله: بصدق التوحيد خرج عن رسوم التقليد، وأبان عن شرف التفريد، فصار علمه جهلا وعرفانه نكرة.

وقال الحسين: العبودية كلها شريعة، والربوبية كلها حقيقة.

قال الأستاذ: قف على بساط العبودية معتنقا للخدمة إلى أن تجلس إلى بساط القربة، وتطالب بأداب الوصلة، ويقلل النوم شرائط العبودية إلى أن ترقى، بل تلقى بصفات الحرية.

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿وَالْأَنْعَامُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْعَةٌ وَمَنْفَعٌ لَهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الإشارة في إتيان الأمر الإلهي أنه تعالى كان قديما

موصوفًا بالإرادة القديمة، والعلم القديم وفي الإرادة، والعلم كان كون العالم والعالمين فنقاضى سر الإرادة كون الوجود، فكُون الحق الكون بأمره القديم الذي كان في نفسه، فوقع الأمر منه بغير زمان ومكان، فصدر الكون من الأمر بما كان في إرادته وعلمه، فكُون ذلك أبد الأبدين بغير سؤال من الغير، ولا انتظار، ولا تعجيل، فإن الأمر قائم به، وللأمر معلق به وجفَّ القلم بما هو كائن، فإذا سقط السؤال والعجلة إذ هما صفتا جاهل بالله وبأمره، ولو كان الأمر يأتي بمراد الحدثان لكان نقصًا في الوجدانية، لذلك نزه نفسه عن ذلك النقص بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أيها الفاهم الأمر منه، صفته قديمة أبدية، وهو تعالى قائم قديم بجميع ذاته وصفاته، ظهر حيث ما غاب، ظهر لنفسه بنفسه من الأزل إلى الأبد، فما معنى الإتيان الأمر والأمر قد أتى في القدم من القدم، ولكن ظهر بالإرادة للقدم ولكون وجود الحدث فلاستعجال لمعنى غير قائم، فأمره قائم قبل وجود العالم، وإشارة المعرفة أن العارف الصادق العاشق الشائق أبدًا يستعجل إتيان المقامات والواردات، وكشوف المشاهدات، من كمال شوقهم إلى لقائه كأنه قال سبحانه أن هذه تتعلق باختصاصه، وقد أتى هذه الخاصية بغير سبب ولا علة، كان في الأزل مشتاقًا إليكم قد خصكم بولاية قبل وجودكم فما معنى الاستعجال.

قال بعضهم: هل رأيتم أمرًا من الأمور إلا بأمره، وهل رأيتم واحدًا وفقدًا إلا به، لا تتعجلوا بطلب الفرج، فإن النصر مع الصبر.

قال النصر آبادي: أوامر الحق شتى بالعبادات أمر على الظاهر من الترسيم، وأمر على الباطن من دوام المراجعة، وأمر على القلب بدوام الراتب، وأمر على السر بملازمة المشاهدة وأمر على الروح بلزوم الحضرة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

قال الأستاذ: أصحاب التوحيد لا يستقبلون شيئًا باختيارهم؛ لأنه سقط منهم الإرادات والمطالبات، فهم خامدون تحت جريان تصاريف الأقدار، فليس لهم إشار ولا اختيار، ومن خاصيته لأوليائه إلقاء الهام في قلوبهم بواسطة الملائكة بقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مقامات الوحي فنون، فبعضها وحي الذات، وبعضها وحي الصفات، وبعضها وحي الفعل، ومنه لمات الملك، وما يأتي به من الوحي يكون على مراتب أرباب القلوب، فوحي في مقام العبودية، ووحي في قرآن الحق من الباطل، وتخويف من الفراق، أو بشارة لنيل الوصال وتعريف لأسرار عيوب النفس، ومداولتها، ودفع مكائد الشيطان، ورد وسواسه، وتربية العقل بالتفكير، وتربية القلب بالذكر، ولتصفية السر بنور الفراسة، أو خبر من الغيب الكائن من وقوع المقدرات ما يختفي في الضمائر

والسرائر، أو خبر عن وقوع كشف عالم الملكوت، أو خبر عن اختصاص الربانية من لمعان أنوار الذات والصفات، فالملائكة يخبرون أرباب القلوب من أسرار ما وصفنا ومخاطبتهم مع القلوب، ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وأما وحي الصفات يكون بأنواع على مراتب الصفات تخاطب الأرواح على قدر سيرها في عالمها، وأما وحي الذات يكون مع الأسرار، وهناك يتزلزل الصفات، ويتغير الأفعال، تضحل الرسوم، وتسقط الوسائط يحدث في السر بالسر للسر ويظهر للسر ما في السر.

قال ﷺ: «إِنَّ فِي أَمْتِي مُحَدِّثِينَ مَكْلُمِينَ، وَإِنَّ عَمْرَ مِنْهُمْ»^(١).

فالمحدثون الذين يتحدث معهم الملائكة والمكلمون الذين يكلمهم الله، يجوز أن يحدثهم الله، وبيان قوله سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الروح الوحي الإلهي سَمَاهُ بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلمين والمحدثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة، بخبر الأولياء من وحيه ما يهذب قلوب السامعين، وهو توحيده، ووصف عظمته، وكبريائه، ليسقط عنهم الخيال، ولينزل عن قلوبهم المحال بقوله: ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ خَوْفُوا الخلق من الخواطر الرديئة المزوجة بالنظر إلى غيري، وخَوْفُوهُمْ من عظم جلالي، ونعوتي الشاملة على كل أسرار وأخطار.

قال بعضهم: من أنذر وحذر فقد قام بمقام الأنبياء، ربا يأتي أمره بالبلاء، وربا يأتي أمره بالرحمة، فالصبر في الأوقات والرضا بأمر الله، وذلك لكل أَوَابٍ حفيظ، يحفظ أوقاته، ولا يضيع أيامه.

قال ابن عطاء: المحدث من العباد من يكلمه الملك في سره، ويطلعه على خصائص الوجود، ويفتح لروحه طريقاً إلى الأشراف على الموت.

قال الله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ينزل الملائكة بالروح على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار باب التوحيد، وهم المحدثون، فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، وإنزال الملائكة على قلوبهم، غير مسدود، ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحملون رسالة إلى الخلق.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا حَمَالُ جِبَتَ تَرِيحُونَ وَحِينَ قَسْرَحُونَ ﴿١٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ

لَمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ .

قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي: هي زيتكم بالظاهر، وللعارفين في سرجها وإزاحتها جمال، وهو جمال الصفة الإلهية يظهر في محل بنعت عين الجمع لأبصارهم، فيزيد من رؤية ذلك الجمال محبتهم في شوقهم إلى الله سبحانه، والأرواح، والقلوب، والأسرار، رغبة في عالم الملكوت ورياض الجبروت، ولأربابها رؤية جمال الحق في تقلبها إلى معارج الغيب ودرجات القرب حين صعدت بأجنحة المحبة إلى سرادق المملكة، وحين نزلت بأوقار المعرفة، وهي مطايا الملكوت تحمل أثقال أشواق المحبين إلى حضرة الجبروت، وتأتي برواحل أسرار الصفات إلى ميادين العبودية، بقوله: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ إذا أراد سبحانه أن يفتح أبواب الغيوب لأهل القلوب يرسل على قلوبهم حوامل أنوار العناية، فتحمل القلوب بقوة فيض المشاهدة إلى عالم الغيب، وتراها أسرار عجائب الملك والملكوت، وهم أصحاب الجذب والواردات بلغوا بالجلالات إلى بلاد المشاهدات، ولو كانوا أهل السلوك لا يبلغون إليها إلا بلزوم المراقبات والمقامات.

قال الله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ لا بالسير في المقامات، ولزوم الطاعات، ودليل الجدية والعطف، بغير العلة^(١).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فالمجذوب محمول الله بمطية فضله إلى بلد مشاهدته، فمن محمول بنور فعله، ومن محمول بنور صفته، ومن محمول بنور ذاته، فمن حمله بنور فعله يكون بلده مقام الخوف والرجاء، ومحلته صدق اليقين، وداره مربع الشهود، ومن حمله بنور صفته، فبلده مقام المعرفة، ومحلته صفو الخلقة، وداره المودة، ومن حمله بنور ذاته، فبلده التوحيد، ومحلته الفناء، وداره البقاء.

قال بعضهم: يدوم المحمول على بساط الرفاهية، والحامل في مفاوز المشقة، فمن حمل فقد كفى، ومن أهمل فقد ضَيَّقَ عليه، لذلك قال: لم يكونوا بالغية بأنفسكم وتديركم إلا بشق الأنفس، وربما يهون على من يشاء من عبده حتى لا يصلية في سيره تعب، ولا نصب كذلك سير العارفين من سير الزاهدين.

قال ابن عطاء: تضعف الأنفس عن حمل تلك المشاق، وتقوي القلوب على ذلك حتى

(١) جمع ثقل بفتح الثاء والقاف وهو متاع المسافر وحشمه أي تحمل أنتعتم وأحمالكم.

لا يلحقه كراهية بعد، إلى أن علم إلى أين مقصده، وبأمر من قام وقصد.

وقال الجنيد: في هذه الآية دليل على أن مراد البلوغ إلى مقصده يجب أن يكون أقل أمره، وقصده الجهد والاجتهاد؛ ليصل بركة ذلك إلى مقصوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ الله سبحانه خير الإفهام والعقول عن حصر أفعال وبدائع صنعه؛ لأنها قاصرة بفتورها عن إدراك لطائف فعل وعجائب قدرته ما يصدر من غيبه من الآلاء والنعماء، أي: إذا عجزتم عن إدراك الخلق فكيف لا تعجزون عن إدراك الخالق وهو قادر أن يخلق على أداب نملة ألف ألف عرش، وألف ألف كرسي، وألف ألف عالم، يخلق بساتين الروحانية في قلوب الأطيوار والوحوش والبهائم، وهم بها يعيشون، ويحيون، ويسرحون، ويخلق في قلوب الجن جنات الرحة، ونيران العذاب، ويخلق في قلوب الملائكة بحار التسبيح والتهليل، ويخلق في قلوب عقلاء المجانين عيون الحكيم والمحبة والشوق والمناجاة، ويخلق لعشاق حضرته من العارفين من صور الروحانية عالماً في عالم، ويتجلى بجوده وجلاله منها لهم، ولا يعرفها إلا شائق عاشق واقف بأسرار الربوبية.

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يريدان عن يمين العرش نهراً من نور، مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخله جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل، فيزداد نورا إلى نوره، وجالاً إلى جماله، وعظماً إلى عظمه، ثم ينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه، إلى أن تقوم الساعة.

قال بعضهم: علمك الحق الوقوف عندما لا يدركه عقلك من آثار الصنع، وفنون العلوم لا تقابله بالإنكار، فإنه خَلَقَ ما لا يعلمه أنت ولا يعلمه أحد من خلقه إلا من علمه الحق، ألا ترى يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: القسم مقدر عليكم من أفعالكم ما لا تعلمون إلا في وقت مباشرته، وهو عالم به؛ لأنه الذر قدر وقضى.

وقال الواسطي: يخلق فيكم من الأفعال ما لا تعلمون إنها لكم أم عليكم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَبِهَا جَاهِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٠ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١١ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ لَكَ مَوَازِيرَ ۚ وَلَتَجْنُبُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: على الله الطريق المستقيم أن يعرفه من اصطفاؤه في الأزل بمحبته، والإيمان به، والإيقان في معرفته بربوبيته، أي: على الله الهداية، لا على غيره من العرش إلى الثرى، أي: أنه لا شريك له في ألوهيته بأن يجد أحد سبيلا إليه بغير إرادته ومشيته، أو يأخذ طريقًا من طرق معرفته بسبب من الأسباب أو علة من العلل.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن طريق الصواب، وهو طريق قهره، أجلس شيخ الضلالة على رأس وادي الطغيان، فمن طرده عن طريق المستقيم شطط عليه الملعون حتى يغويه في أودية الشهوات، وقفر الظلمات، وأن الضلالة والهدى يتعلقان بقهره ولطفه، ولو أراد أن يميز الكل في حيز الرحمة لكان كما أراد، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، تصديق ذلك قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال الواسطي: على الله أن يهدي إلى قصد السبيل، ومن السبيل ما هو جائر، والله سبب الجائر، والسبيل القصد، والسلوك على أنوار اليقين، والجائر في السبيل على سبيل التوهم والدعوى.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ وَعَلَّمَتِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ الْحَجْمَ ۚ هُمُ يَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُلْهِئُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَذْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لما أشرقت أرض القلوب بأنوار عظمة الأزال والآباد، وسنا سبحات الذات والصفات، وتزلزلت واهتزت وكادت أن ترتفع في هواء الهوى، فألقى الحق سبحانه رواسي علومه الغيبية، ومعارفه السرمدية، حتى لا تطير بأشباحها وأرواحها، وأرباب هذه القلوب رواسي الأكوان والحدثان، ولولا لهم لطار الأكوان في الغيب، وغيب الغيب، ثم وصف أرض

القلوب كيف أجرى فيها أنوار المعرفة والمكاشفة والمحبة والشوق والعشق والحكمة والفطنة، وأوضح فيها سبلاً للأرواح، والعقول والأسرار، منها إلى الحق، وتلك السبل بلا نهاية؛ لأن الطرق إلى الله غير متناهية؛ لأنه تعالى غير متناهٍ، فبعض سبلها للعقول إلى أنوار الآيات، وبعض سبلها للأرواح إلى أنوار الصفات، وبعض سبلها للأسرار إلى أنوار الذات، وأن الله سبحانه يظهر بجلاله وجماله في تلك السبل؛ لإسراره القلوب كشفًا عيانيًا، ولولا ذلك الكشوف والظهور لم يهتد الأرواح والعقول والأسرار إليه.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تهتدون به إليه، ثم زاد تسبب العرفان بأن يريهم علامات مشاهدته من لوائح كشف الملكوت وأنجم الجبروت.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم مَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ العلامات في الظاهر أنوار الأفعال للعموم، وأخص العلامات في عالم الأولياء والنجوم وأهل المعارف الذين يسبحون في أفلاك الديمومية أرواحهم وقلوبهم وأسرارهم، من اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده.

ألا ترى إلى قوله ﷻ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١).

ما أنور علامات سمات القدوسية في وجوه الصديقين، وما أزهو نجوم أرواحهم متقلبات في أشباحهم، لطلب معادن القدس رياض الأنس، من نظر إلى وجوههم بالحقيقة يرى أنوار الحق من وجوههم وقلوبهم.

قال المالكى: طريق الهداية أعلام، فمن استدل بالأعلام بلغ إلى محل الهدى، وكوشف عن معدن النجوم، ومن استدل بنجوم المعرفة، مر في طريق الهداية، كان عالماً بمسراها وصل إلى غاية المنتهى من الطريق، ولا دليل على الحق سواه، ولا علامة ينجر عنه، فهو الدليل على نفسه، ليس لأحد إليه سبيل، ولا خلق عليه دليل، فمن وصل إليه فيه وصل، ومن انقطع عنه فسوابق لقائه عليه انقطع.

ثم إنه سبحانه جعل ما وصف من نعمة بلا نهاية، بقوله: ﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ نعمة سوابق نعم عنايته، وهي أزلية أبدية والحوادث عن حصرها قاصرة ونعمة المعرفة في قلوب العارفين، وله نعمة التوحيد في قلوب الموحدين، وله نعمة المحبة في قلوب المحبين، وله نعمة الشوق في قلوب المشتاقين، وله نعمة الأنس في قلوب المستأنسين، وله نعمة الإرادة في قلوب المريدين، وله نعمة الإيمان في قلوب المؤمنين، وله نعمة الإسلام في قلوب

(١) رواه الحكيم الترمذي في «توادر الأصول» (٦٢/٣)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/١٤٧)، والمنأوي في «فيض القدير» (٤/٤٣٢)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٢/١٣٧).

المسلمين، وكل نعمة من هذه النعم معدن أصل الذات والصفات، يزيد بزيادة كشفها، فبأي لسان يعد نعمته، والخالقة عاجزة عن شكر قطرة ماء زلاله، فكيف لا يعجز عن شكر نعمة مشاهدته القديمة، لكن رحمته وغفرانه شكر نفسه لعلمه بضعف عباده عن حمل شكره، لذلك قال في آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن عطاء: إن لك نفساً وقلباً وروحاً وعقلاً ومحبةً ومعرفةً ودينًا ودينًا وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاً وحيثاً واصلاً وفصلاً ووصلاً، فنعمة النفس الطاعات والإحسان، والنفس فيهما تتنعم، ونعمة الروح الخوف والرجاء، وهو فيهما يتنعم، ونعمة القلب اليقين والإيمان، وهو فيها يتقلب، ونعمة العقل الحكمة والبيان، وهو فيها يتقلب، ونعمة المعرفة الذكر والقرآن، وهو فيها يتقلب، ونعمة المحبة الألفة والمواصلة والأمر من المهجران وهو فيها يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

﴿أَمُوتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ١٠٠ ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ١٠١ ﴿لَا جَرَمَ أَنْ﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ
مَا يَسِرُّونَ وَمَا يَعْلَنُونَ ١٠٢ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ١٠٣ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ
رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٠٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ
الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ١٠٥ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ﴾ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَنَّى اللَّهُ يُنْزِلُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٦ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ١٠٧
الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٨ ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فَلَيْسَ مَتْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ١٠٩ ﴿﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمُوتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ من أمانة الحق بموت الحرمان عن حياة العرفان، كيف يحيى بحياة لا موت فيها، فالجاهلون في غمرات هوة الجهالة، والعارفين في حياة المشاهدة، أماتهم حيث طردهم عن أبواب لطفه، فهم يعمهون في ظلمات القهر وما يشعرون سبل الحياة وطريق النجاة، فمثالهم مثل الأصنام التي لا أرواح فيها، ولا استعداد لها لقبول الحياة، فكذلك أهل الجهل به ليس لهم استعداد قبول حياة المعرفة

وروح المحبة، لذلك أكّد في حق الأصنام بعد قوله: ﴿أَمْوَاتٌ﴾ بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قطع الحياة الأصلية عنها، وقطع عنها أيضاً استعداد قبول الحياة؛ لأنها جمادات؛ فالمذكرون كذلك أموات القلوب عن معرفة العارفين، وغير مستعدين لعرفانهم، والعلم بأحوالهم، فسلاطين المعرفة أحياء بأرواح معرفته، والمحبون أحياء بأرواح محبته، والموقنون أحياء بأنوار مشاهدته، والصدّيقون أحياء بأنوار لقائه، والمقربون أحياء بأنوار صفاته، والموحدون أحياء بأنوار ذاته، وأهل ستر الغيب أحياء بحياته القديمة، والجمهور من وصل القدم في بحر نكرة، مستغرقون لا يموتون فيها بالحقيقة من سكون أرواح معرفته في أسرارهم، وأحاطت أرواح بقائه على أرواحهم، ولا يخبّون فيها بالحقيقة لصولة سطوات عظمتة الأزليات عليهم، وإذا أبصرتهم بالحقيقة فمن إدراك كنه القدم أموات غير أحياء، إذ لا سبيل للحدث في القدم بنعت إدراكه، لكن هم في حسابان من حلاوة أوقاتهم في إدراكه، وما يشعرون أنهم لا يدركون أبداً، لكن إذا طلع صبح الوجدانية عليهم، وباشرهم أنوار شمس الذات، وأقمار الصفات، يقومون به معه بوصف الحياة الباقية، والعلم بفروع الربوبية، ولكن لا يعرفون أيان يبعثون في هذه المنازل، كأنّ الأوقات هناك وقت واحد بنعت تسرمد السرمدية والأزلية سبحانه وتعالى.

قال الجنيد: من كان بين مفرقي فناء فهو فان، ومن كان بين طرفي عدم، فهو معدوم، وإلهي هو الذي لم يزل ولا زال.

قال بعضهم: أموات عن وصول الحق غير أحياء وما يشعرون، وإنّما يشعر بذلك من كُشِفَ له عن محل الحياة بالحق.

وقال الحسين: الحياة هي أقسام، فحياة بكلماته، وحياة بأمره، وحياة بقربه، وحياة بنظره، وحياة بقدرته، وحياة هي الموت، وهي الحركات المذمومة، وهو قوله جل وعز: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقال سهل: خلق الله الخلق ثم أحياهم باسم الحياة، ثم أماتهم بجهلهم بأنفسهم، فمن حي العلو فهو الحي وإلا فهم موتى بجهلهم.

وقال الواسطي: الميت من غفل عن مشاهدة المتان، والحي من كان حيّ بالحي الذي لا يموت.

وقال أبو عمرو الزجاجي: كيف تمحون وأنتم لم ترو أحياء.

وقال النصر آبادي: أهل الجنة أموات ولا يشعرون؛ لاشتغالهم بغير الحق، وأهل الحضرة أحياء؛ لأنهم في مشاهدة الحق.

قال الله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ أَلَمَلٌ بَيْنَهُمْ يَلَيَّ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ أَلَمَلٌ بَيْنَهُمُ الْغَوِثُ أَوْ أُنَاءُ الْأَمْرِ يَكْذِبُونَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ مَسْئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطُّغْيَانَ فَمِئْتُهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِئْتُهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿

وقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي: للذين رفعوا أرواحهم وقلوبهم وعرضوها في الحضرة لبذلها وفدائها لعروس المشاهدة، وأحسنوا عبودية خالقهم، وشاهدوه مشاهدة إيقان وعرفان في دار الامتحان حسنة مشاهدة الرحمن في وقت كشوف أنوار جماله في أوقات المواجيد والواردات، ولهم في دار الآخرة عيان في عيان، وبيان في بيان، بلا فترة ولا فتور، ولا حجاب ولا عتاب، ولنعم دار هؤلاء المتفردين عن الأكوان والحدثان دار مشاهدة الرحمن.

ثم وصف مقاماتهم السنية ودرجاتهم الرفيعة في مقاعد صدق المشاهدة بقوله تعالى: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ بساتين مقام الجلال والجمال، ويجري فيها أنهار زوائد المنن وهم من مشاهدة جلاله وجماله ما يشاءون عن حلاوة الخطاب والوصال، وهذا جزاء قوم انفردوا بالحق عما دون الحق.

قال أبو عثمان: في قوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ أي: أحسنوا في ابتداء أحوالهم الرجوع إلى محل المحسنين.

قال يوسف بن الحسين: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ آداب الخدمة واستعملوها للرفعة إلى محل الأولياء، وهو غاية الحسن.

قال الأستاذ: إن في الدنيا مشاهدة، وفي الآخرة معاينة، ثم وصف لهؤلاء المحسنين المتقين بطيب قلوبهم وأرواحهم عند خروجهم من الدنيا، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في الدنيا بطيب نفحات مسك تجليه وتدليه وفي الآخرة بطيب مشاهدته ووصاله، أيضا طيبين بطيب محبته، طيبين بطيب معرفته، طابت نفوسهم في خدمة مولاهما، وطابت قلوبهم في عبة سيدها، وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربها، وطابت أسرارهم بطيب الأنوار، هؤلاء مقدسون من شوب الحدثان، وإشراك الأصنام، تقدست نفوسهم من لوث الطبيعات، وتقدست قلوبهم من لطح الشهوات، وتقدست أرواحهم من الوقوف في الآيات، وتقدست أسرارهم من علائق الكرامات، طابوا بطيب المناجاة، واستأنسوا بأنس المداناة، وسكروا بوجوه المشاهدات، وصلحوا في مجالس أنوار الصفات، وطاروا بأجنحة الشوق والمحبة في أنوار الذات، طيب الله قلوبهم؛ حيث جعلها متصفة بأنوار شهوده عليها، فطابت الوجود بوجودهم، وفاحت فارات مسك محبتهم في الآفاق، فما أطيب ذلك الطيب إذا تنفسوا من غلبات الشوق إلى جماله، واستنشاقهم طيب وصاله، هبت عليها ريح الشال وحملت أنفاسهم، ودارت حول الكونين، فطابت الأكوان والحدثان من طيب أنفاسهم، لأنها رياض جمال الحق، وموضع أنفاس الرحمن.

ألا ترى كيف قال سيد أهل الأنفاس عليه السلام: «إني أجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن»^(١).

وقال: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتمرضوا لنفحات الرحمن»^(٢).

عرائس جود المشاهدة هناك تتبختر، فطيب بطيها تلك الأنفاس الربانية، فطابت السماوات والأرض وأهلها بطيها، كما قيل:

تضوع مسكًا بطن نعيان إن مشئت به زينب في نسوة عطرات

قيل: أي طيبة أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

وقال أيضًا: أي: لم يتدنسوا من الدنيا وخيشها بشيء.

قال أبو حفص: ضياء الأبدان بمواصلة الخدمة، وضياء الأرواح بالاستقامة.

قال الأستاذ: طيبين تفيض أرواحهم طيبة ببذلها نفوسهم.

﴿إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدُنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْتَغِ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/١٢٩)، والمجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٢٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/٢٣٣)، وذكره المناوي في

«فيض القدير» (٢/٤٦٣)، والمجلوني في «كشف الخفاء» (١/٢٦٩).

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا طَافُوا لِنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ يَبِّن سبحانه جلال كرم حبيبه، وشفقته على خلقه، محبة لدينه، ونظامًا لعبوديته، ثم فإن لا يضيق صدرك لأجل من أغويته في الأزل عن طريقك، فإنك لا تهديه، فإن من طرده سابقة إرادته الأزلية، يقدر الحدثنان حسم باب الطرد عليه، فإن العبودية من خلقه يتعلق بتخصيص من خصه بمعرفته، وألبسه لباس عبوديته، ومن ألبسه لباس قهره فأنت لا تقدر أن تنزع ذلك عنه، فإن جريان أمر القدم لا يدفعه إلا القدم، وإنما بعثت الرسل لبيان الشريعة، ووضوح الطريقة لأشركتهم في الهداية.

قال الواسطي: السعادة والشقاوة والهدى والضلالة جرت في الأزل بما لا تبديل فيها، ولا تحويل وإنما يظهر في الأوقات رسمًا على الأجسام، والهيكل لا صنع فيها لأحد، وليس يقدر عليها خلق، بل هي إرادة جرت في الأزل بعلم سابق قصرت عنه أيدي الأنبياء وإلى الأولياء بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ وتصديق ما ذكرنا، وما أشار إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يكون كون الأشياء إلا بتكويننا إياها، إما في الإيجاد، وإما في الهداية، وبيان هذه الآية إن لذاته تعالى صفات قديمة أزلية، منها الإرادة والمشيئة، وهما سابقتان قبل كل سابق؛ لأنها قديمتان جرتا لكون الكون وما فيه، لا أن تكونا تحدثان في الحق؛ لأنه منزّه عن البدء الذي خلا عنه الإرادة والمشيئة في سابق العلم.

إنما أراد الله الأشياء في القدم وعلمه كان مقرونًا بإرادته، وكان الوجود موجودًا في علمه مريدًا لإرادته، وكان قادرًا بقدرته القديمة بإيجاد الكون بمحض الإرادة ومعلوم العلم، ولكن لو أوجد لكان معًا معًا، ولوجدان الحدثنان رتبة القدم آخرها بغير علة، ولا لوقت من الأوقات، أراد حدوث الحدث وإحداثه فعلم وجوده، وبعد أن كان معدومًا فأوجد بتمام الصفة حتى يكون على حد الكمال؛ لأنه تعالى خلق الأشياء بمباشرة نور ذاته وجميع صفاته، فالقول منه صفة من صفاته، فقال للمعدوم: كن بتكويننا إياك حتى يكون ذلك المعدوم

موجودًا بكمال جميع الصفات، إذ لو كان خاليًا عن الأمر والكلام كان ناقصًا، مع أنه تعالى قادر يخلق الأشياء على حد الكمال. سئل بعضهم ما كان يكفي الإرادة والمشئنة حتى أظهر قول ﴿كُنْ﴾.

قال: خفية الإرادة والمشئنة، فأظهر الأكوان في المعلوم، وأظهر لفظة: ﴿كُنْ﴾؛ فأخرج الأكوان إلى الوجود.

قال الواصلطي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ إنه على قدر المعارف إشارة إلى القدرة، وأما الحقيقة فليس للحق مكون، كما أنه ليس له موجود، إذ لم يكن له معدوم، فإذا كانت الأشياء بذاته ظهرت، وبه وجدت لا بصفاته فلم يزل، كما لا يزال إلى أنه لم يكن، أظهر بعضهم لبعض ظهور الأشياء بذاته لا بصفاته.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٦) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ أَلْعَادَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (١٧) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٨) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّنَا لَهُمْ رَحِيمٌ (١٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أخفى الله سبحانه مكنون أسرار كتابه كما كانت بالحقيقة إلا على نبيه؛ لأنه كان بتلك الحقائق غاطبًا، وكان بها مأمونًا؛ لبيئتها لأمناء المعرفة وأصفياء الحقيقة، الذين لهم استعداد قبول الحقائق، وهم أسباع الأهلية الحاضرة لشهود الغيب، وسباع الأنباء العجيبة ليتفكروا فيها بعقول كاملة، ويستخرجوا جواهر علومها بأسرار ظاهرة، وهم عالية، وخواطر مشرقة، وإدراكات منيرة، وهم لا يضيعونها بأن يقولوا عند غير أهلها فيسقطوا عن درجة الأمانة، وأنشد ما ذكرنا:

من سارروه فأبدي السر مشتهراً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وجاء بنوه فلم يسعد بقرهم وأبدلوه مكان الأئس إباحشا
لا يصطفون مذيعا بعض سرهم حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

قال ابن عطاء: قطع عقول الخلق عن فهم كتابه، والإشراف عليه والنبين منه إلا عقل النبي ﷺ، فإنه قال له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وإن فيه أحكام الخلق والخطاب معك، وأنت صاحب البيان هم بيا أنزل عليك، فإنهم في مقامات الوحشة، وأنت في محل الحضور ومحل الائتمان، فبيان الكتاب ما تبيينه، وآداب الشريعة ما ترسمه؛ لأنك الأمين في جميع الأحوال؛ ولا يؤتمن على أسرار الحق إلا الأمانة من العبيد.

﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُوا ظِلَلَهُ، عَنِ الَّتِي مِنْ وَالشَّمَا بِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ خَافُونَ رَّبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُوا ظِلَلَهُ، عَنِ الَّتِي مِنْ وَالشَّمَا بِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ بين الله سبحانه جهالة المتكبرين والمستكبرين عن خدمته بأنهم لا يرون ظلالهم بالعدو والآصال، كيف يسجد لخالقهم ولو كانوا على محل العقل والإيمان والمعرفة لتنبهوا وتعرفوا مكان جهلهم بالله ويعبوديته، فإن جميع الموجودات حتى الجهادات تسجد لصانعها من جهة وقوع نور العظمة عليها، فهي داخرة صاغرة في أنوار تجلي عظمته لها، كما قال ﷺ: «إذا تجلى الحق لشيء خضع له»^(١).

وفيه بيان أن كل موضع في نفس الأمانة الشيطانية، هناك استكباراً وتكبراً من عرف الحق بالحق بعد ما رأى الحق بالحق.

قال بعضهم: ما خلق الله شيئاً من الجهاد والحيوان ينازع صانعه وخالقه إلا الإنسان، فإنه أبداً يدعي لنفسه ما ليس من قدرة وعلم، ويثبت على الوحداية والفردانية بادعاء الأهل والولد جلّ وعزّ، وتكبر في الإذعان والخضوع، لذلك قال الله: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهِبُونَ ۝ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُكْفُرُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۝ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ

(١) رواه أحمد في «المستند» (٢٦٧/٤)، وأبو داود (١١٧٧)، والنسائي (١٤١١٣)، وابن ماجه (١٢٦٢).

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٠﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَىٰ لَا جَرَمَ أَنْ
لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٥١﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَلَهُمْ فهُمْ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلنَّهْيِ أَتْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلْيُبَيِّنِ
فَآرَهُبُونَ ﴿٥١﴾ بَيِّنَ أَنْ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى شَيْءٍ دُونَهُ بِوصف المحبة والاختيار على الله، فهو في حيز
الشبهة، حيث اتخذ إلهه هواه ومن ذاق من برح الوحداية ذوقاً سقط عنه علائق الكونين،
ويكون متفرداً بفرديته، موحدًا بوحدايته.

قال أبو عثمان: هناك ربك أن تتخذ إلهين أو تتخذ معه شريك، فاتخذت آلهة وأدعيت
شركاً، كيف يصبح لك مع ذلك التوحيد وأنت تعبد نفسك وهواك وطبعك ومراكك، وتعبد
الخلق فأتى تصل إلى محل العبودية.

﴿٥٢﴾ وَإِنْ لَّكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكِّرُمْ ۖ إِنَّمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا
سَائِغًا لِلشَّرِبِ ۖ ﴿٥٣﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ أَلْبَابِ بُيُوتِكُنَّ
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ
مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿٥٢﴾ وَإِنْ لَّكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكِّرُمْ ۖ إِنَّمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِ ﴿٥٣﴾ الخطاب للعارفين الذين يشربون ألبان المحبة من بين بطون
الأنعام ما يحصل بين فرث ودم من الآيات، من لطائف الصفات، تشرب منها القلوب
والأرواح والأسرار على قدر مزاجها من القرب، وأيضاً تشرب الأرواح ما يحصل في العقول
الصافية من بين النفس والقلب من زلال بحر المشاهدة، فهناك منازل اعتبار المعبرين.
قال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام وتسخيرها لأربابها، وطاعتها لهم، وتمردك على

ربك وخلافك له في كل شيء، وما يتعلق بها ذكرنا من حقائق الإشارات قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: مما يتخذ الأرواح والأسرار من ثمرات نخيل القلوب، وأعنان العقول شراب المحبة المُسكرَة صميمها، وشراب الأنس المتخذ من صفاء أنوار الذكر الذي هو رزق حسنٌ لتربية وجودها، وذلك الشراب والسكر من تأثير مياه تجلي الجمال والجلال، وصفائهما من صفو الوصال، فإذا شربتهما صارت سكرانة من شوق الحق مستأنسة بوجه الحق سبحانه، وفي هذه الإشارات اعتبار ومعرفة ألباء الحقيقة بقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال الأستاذ: الرزق الحسن ما كان حلالاً.

ويقال: هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، بين سبحانه مواضع الحقيقة لأهل المعرفة في منازل وحيه واختصاصه مما خلق به وأكرمه بذلك بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ صرح بيان الحق موضع خاصية وحيه عن النحل وأمثاله مما فيه الحياة، فإنه تعالى أعطى من فيض فعله، ونور صفته، ورحمة ذاته كل ذي روح روحاً يعيش بها، ويكون مستعداً لقبول وحيه بها، ومنها يعرف صانعه وخالقه، ويعرف مكان رزقه، ويعبد الخالق بما يفعل من عبوديته وربوبيته بقدرة قوته في تلقف الإلهام منه بلا واسطة، فهو تعالى أظم الجمهور بنفسه؛ لأنهم موضع أسرار لا يطلع عليها جميع العقلاء، ويقدر نور الإلهام يتولد منهم حقائق الأشياء الغيبية المقدرة في علمه، وذلك الوحي إلهام، والإلهام على مراتب الفعل والصفات، فمن كان مشربه من إلهام الأفعال فصنوف مواليده على قدر الأفعال، ومن كان مشربه من إلهام الصفات، فمواليده أصفى وأنور.

ألا ترى إلى النحل كيف يكون ثمرتها عسل لطيف شفاء كل عليل؛ لأن إلهامه تختص بالصفة دون الفعل، فأمرها بأكل الطيبات من كل ثمرات خوالص الأشجار والأنوار، واتخاذها طيبات المساكن من الجبال والأشجار، فعلى قدر صفاء ثمرة الأشجار ولطفها وزينتها يكون العسل، فكل ثمرة أصفى مما تأكل منها عسله أصفى، فأوحي الحق نحل الأرواح أن تتخذ أماكنها من جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وأنوار عرش الأفعال، ولا تسكن غيرها من مواضع الحدوث حتى لا تتعود علاتها، ولا يلتصق عليها غبارها.

ألا ترى إلى قوله ^(١٠٩): «الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين إصبعين من أصابع

الرحمن، يقلبها كيف يشاء»^(١) يقلب بحر القلوب والأرواح والأسرار والعقول في جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وعروش أنوار الأفعال، ويكملها بغرائب خطابه بأكل ثمار أنوار الصفات والذات والأفعال، بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ﴾ أي: من ثمرات تلك الأشجار الصفاتية، ونور بهار أنوار الذاتية، وأزهار أنوار الأفالية، ثم أمره لسلوك سبيل الأزال والآباد والقدم والبقاء بنعوت الفناء بقوله: ﴿فَأَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ لتعرف في طيراتها وسيرانها ثمار أشجار غيبه، وتأكل رياحين أنسه، وتطير في صحاري قدسه، وتعرف جلال وجوده تعالى الله عن كل علة، فإذا تم دورها في بساتين العيوب ﴿تَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ شراب معرفته بقدم جلال وعز بقاءه، وأنوار ذاته، فاختلف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تتميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷻ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(٢)؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربي صحيحاً بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخيار الإرادة، ويكون شمعهم أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائل رشده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

قال ابن عطاء: ألهمها ودعاً على الموضع، وعلمها كيف يضع ما في بطنها، لا يضعها إلا على حجر صان أو خشب نظيف، لا يخلطه طين ولا تراب، ثم قال تعالى: ﴿كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرَةِ﴾ أي: من الذي جعلته رزقك، ثم أمره بالتواضع، فقال تعالى: ﴿فَأَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، ثم قال: ﴿تَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ للنفوس لا للقلوب، فمن

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (١٨٤/٣)، والحاكم في «المستدرک» (٣١٧/٢).

(٢) رواه أحمد (٣٧٧/٢)، والترمذي (١٤٨/٣)، وأبو داود (١٥/٢).

أراد صلاح قلبه فليعرف موارد ما يرد على قلبه في الأوقات، ويحل قلبه في جميع الأحوال، وما يبدو في قلبه في كل زمان، ثم يلزم مع ذلك التواضع والخلوة، فهذا غذاء القلب، وذلك غذاء النفس، وغذاء الروح أعز وهو مشاهدة الحق والسماع منه، وترك الالتفات إلى المكونات بحال.

وقال ابن عطاء: جعل ما يخرج من النحل شيتين ممزوجين لا يصفيهما إلا النار، فإذا أصفاهما النار، صار عسلاً وشمعاً، فالعسل هو غذاء الخلق وشفائهم، والشمع للحق لا غير، كذلك إذا خاص العقد عما خلص له عمله، وما خالطه برباء وشرك فلا يصبح إلا للنار. وقال أبو بكر الوراق: النحلة لما اتبعت الأمر وسلكت سبيلها على ما أمره به، جعل لعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن إذا اتبع الأمر وحفظ السر وأقبل على ربه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد.

ويقال: إن الله سبحانه أجرى سنته أن يخفي كل شيء عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهي أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف، وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، كذلك أودع الذهب والفضة والفيروز في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يعصى، وفيهم من يخطف^(١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْوَالِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْعُلِيِّاتِ أَفَلَا تَبْطَلُونَ

(١) في قوله: ﴿لَيْكِي لَا يَلْمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ نكر العلم والشئ؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علماً واحداً هو علمه بالله تعالى فهو أجل العلوم كما أن الله تعالى أجل المعلومات؛ يعني أن أجل العلوم هو ما تعلق بأجل المعلومات، وأمّا ما عاده مما تعلق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوّف أجل العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البهئية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلقة بالأكوان بل كانت علوية متعلقة بها ذكر من ذات الله، وأسماؤه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوّف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما تُكرّر الشئ؛ لأن الأشياء أيضاً في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتّحد العلم اتّحد الأشياء ولما لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خلقت كتلون زوال وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

يُؤْمِنُونَ وَيَسْمَعَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا إِلَهَ الْأَمْثَالِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ *

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الأرزاق منقسمة على أهل سلوك المعارف، الأرزاق لبعضهم طاعات، وبعضهم إرادات، وبعضهم مقامات، وبعضهم حالات، وبعضهم مكاشفات، وبعضهم مشاهدات، وبعضهم معرفة، وبعضهم محبة، وبعضهم توحيد، وبعضهم تفريد، فرزق الأسباح بالحقيقة العبودية، ورزق الأرواح بالحقيقة رؤية أنوار الربوبية، ورزق العقول الأفكار، ورزق القلوب الأذكار، وكلهم مشفقون على أرزاقهم، غوثان إلى قوتهم من الحقائق، عطشان إلى مشاربهم بعد سقيهم بحار القربة والملاحظة، لا يطيقون رؤية غيرهم من المريدين أن يكونوا معهم في الشراب والطعم غيرة على أحوالهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

قال إبراهيم الخواص: منهم من جعل رزقه في الطلب، ومنهم من جعل رزقه في القناعة، ومنهم من جعل رزقه في التوكل، ومنهم من جعل رزقه في الكفاية، ومنهم من جعل رزقه في الملاحظة، كما قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١).

وقال الفضيل: أجل ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه، وعقله يذله على رصده، ثم يبين سبحانه حلاوة ذلك الرزق، وطيبه، وطهارته، بقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أجل طيبات الرزق مشاهدته ولقاءه؛ لأنها هي الرزق بالحقيقة الذي يعيش به الأرواح في المعرفة، والأسباح في العبودية، والعقول بالتفكير، والقلوب بالتذكر، والأسرار بإدراك علم الربوبية، وذلك الرزق أطيب الطيبات، وهو بالحقيقة طيب؛ لأنه قديم أزلي منزّه عن علل الحدثان، وما دونه غير طيب بالحقيقة؛ لأنه معلول، والمعلول كيف يكون طيباً وصورة الرزق الطيب ما

يوافق حال العارف، لا يحجبه عن صفاء الوقت حين صدر من الغيب.

قال المحاسبي: هو الفيء والغنيمة.

وقال أحمد بن علي الخواري: الطيبات المباحات في البوادي.

وقال ابن الجلاء: ما يفتح لك من غير طلب ولا استشراف، ثم نزه نفسه بها أولاه من رزق مشاهدة، ومعرفة قُدس وجلال وافر ذو جود، وجوده من مشابهة الحدثن، وأمر العبادات ينزهوه عن التشبيه والتصوير والأضداد، بقوله: ﴿فَلَا تَضَرِبُوا إِلَهِ الْأَمْثَالِ﴾ بَيِّن قُدس القدم، وأفرده عن شواهد الالتباس في مقام المحبة والعشق والشوق؛ حيث دارت المهمة في طلب الحق في رؤية الكون، وظهوره في لباس أفعاله ليعرف العارفون مقام أفراد القدم عن الحدوث، ويدركوا بفهم الفهم تنزيه الصفة عن الفعل، وقُدس الذات عن الأوهام والإشارات والعبادات، وضرب الأمثال بحقيقة ذاته، فإنه قائم بنفسه بمنتهى بذاته بالحقيقة عن درك الخليفة، فكل مثل حقيقي يقع بالحقيقة، فإذا تراه يقع على غير ذاته وصفاته، فإنه منزّه عن أن يدخل جلاله تحت العبارات والإشارات، أو يباشر أنوار ذاته وصفاته لباس الحدوثية، فالشاهدون يشهدون على أنفسهم بالحقيقة، وهو تعالى يعرف حقيقة ذاته، والخلق منعزلون عن إدراك أنوار صفاته وحقائق ذاته، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لكن يجوز ضرب المثل في طريق معرفته ومحبته والسير في عالم ربوبيته، وتسهلاً للسلوك، وتيسيراً للعلم والإدراك، ومن لطيف الإشارات أنه تعالى أعلم المحبين والعارفين الذين هم في مقام مشاهدته بنعت الالتباس أنهم إذا افترقت أوقات حالاتهم، وانصرم أنوار وارداتهم، وغابت أنوار شهود الحق عنهم، وبقوا في محل الاشتياق إليه ألا ينشئوا من أنفسهم ميخايل الصورية والأمثال الحديثة لما وجدوا منه ليتذكروا بها زمان الوصلة لئلا يقفوا في محض التشبيه، ويغلطوا ويعلموا مثل الحق من أمثالهم، كأن قال: لا تضربوا لما تجدون الأمثال، فإنكم لا تقدرون ذلك؛ ولكن أنا أضرب الأمثال لما ترون مني بالحقيقة، مثلاً تدركونني بلباسه وأنا قادر بذلك، ولستم بذلك قادرين، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى قوله في ضرب مثله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾. وقوله: ﴿وَلَهُ الْأَمْثَالُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إذا كان المثل الأعلى يجوز أن يضرب به كأنه قال: فلا تضربوا الله الأمثال للتشبيه؛ ولكن اضربوا الأمثال للدلالة عليه، والأمثال تصوير ما في الغائب معنوياً، لا صورياً.

قال ابن عطاء: لا تضربوا الله الأمثال في ذاته وماهيته؛ لأن الذات لا يمكن تعقله

بحال.

قال الواسطي: الأشياء كلها أقل من الهباء في الهواء، كيف تظهر في الذات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَضَرُّوْا لِلّٰهِ الْأَمْثَالَ﴾ في ذاته وكيفيته؛ لأنه ليس كمثله شيء، وأما صفاته التي أظهرها للخلق كسوة لهم إبقاءً وعزاً، وقال: لا تضربوا لله الأمثال في صفاته وذاته؛ لأن الصمدية تمتنع عن الوقوف على ماهية ذاته وكيفية صفاته.

وقال: إنما ضرب الأمثال وأكثر فيها من المقال جذباً للسرائر، وأن تفنى عن حضورها فيما أسند إليها، ثم إن الله سبحانه ضرب مثل عبيد المسك والمنفق بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾. إن العبد المملوك لنفسه أسير في يدها عاجز لا يقدر أن يميته ويرضى بموتها صانعها، ولا يقدر على أن يملك قلبه، ويرى ما فيه من عجائب الذكر ولطائف الفكر، وكيف ينفق وخزائنه قلبه، وهو لا يقدر على خزائنه؛ لأن قلبه مسلوب النفس، والشیطان، والعبد الموفق الذي هو مرزوق رزق معرفة الله وحكمته وإلهامه ورشده وتوفيقه وأرزاقاً حسنة من مشاهدته وجهاله، فهو ينفق نفسه ووجوده وماله لله، ولأوليائه، وينفق لطائف حكمته على طلاب الله، كيف هذان العبدان يستويان في العبودية ومعرفة الربوبية، فعند الجهال يستويان؛ بل إنهم يقبلون من يليق بمذهبهم من أهل الجهل والبخل والغباوة.

لذلك قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون العارف من الجاهل، والصادق من المرائي، حمد نفسه تعالى بأن الجهال لا يعرفون مقادير أهل قربه، ولو عرفوهم لشغلوهم عنه، فإذا بقوا أهل الحق مع الحق بلا شغل ولا شاغل.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً»^(١).

ومن إشارة اعتبار المثليين ينبغي أن العبد يكون مملوك لله طوعاً، ولا ينظر إلى شيء من وجوده وأعماله، فإنه مفلس عاجز عن القدرة بين يدي الله، وهذا صفة أهل المعرفة.

قال بعضهم: أخبر الله عن العبد وصفته فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فمن رجع إلى شيء من علمه وحاله وعمله؛ فإنه المتبرئ من العبودية، وهو في منازعة الربوبية، والعبودية هي التجلي مما سوى معبوده، يرى الأشياء به ويرى نفسه له.

﴿وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١٣/٢٨٦) بنحوه.

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٠١﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَشَاءُونَ إِلَى حِينٍ ﴿١٠٣﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَسًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿١٠٤﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٥﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٠٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّوْنَ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٠٨﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٩﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَلَمَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وصف نفسه سبحانه هاهنا بالعلم الأزلي والقدرة الأزلية، فما العلم الأزلي عِلْمٌ عِلْمُ كَوْنِ الْكَوْنِ، وما فيه وما يبدو من قدرته وحكمته فيه، إفلاعه من أصله غير ثقيل عليه؛ لأنه قام به قائم بقدرته، يفعل به ما يشاء إيجابًا وإعدادًا قبل أن يتصل الكاف بالنون، وإذا كان غيب السموات والأرض له لا لغيره، لا يكشفه إلا لمن أحبه من أوليائه، ولا يستره إلا على أعدائه، فمن أشرفه على غيبه، فهو أيضًا غيب كأنه يرى غيب الغيب، وأي غيب أشرف من خزانة الله في قلوب أصفياه من لآلئ حكمه، وعجائب علومه، وغرائب عرفانه.

قال النهرجوري: الحق ستر غيبه في خلقه، وستر أوليائه في عبادته، فلا يشرف على عبادته إلا خواص أوليائه، ولا يشرف على أوليائه إلا الصديقين من عبادته، والإشراف على الغيب عزيز، والإشراف على الأولياء أعز، فلما استأثر نفسه بعلم الغيب عزل الجمهور عن رؤيته وعلمه والموقوف به، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ﴾ أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأنداد، وأراحام العدم، وأصلاب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت

المعرفة، لا يعلمون شيئاً من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسباعاً من نور سمعه، وكساكم أبصاراً من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلالها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجهيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسمديته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون بأنه لا يشكره غيره.

قال الواسطي: لا تفهمون شيئاً مما أخذت عليكم من الميثاق في وقت بل.

قال بعضهم: لا تعلمون شيئاً مما قضيت لكم وعليكم من الشقاوة والسعادة، ثم جعل للسعداء من عباده السمع لسمع بها لطائف ذكره، والأبصار ليبصر بها عجائب صنعه، والأفئدة ليكون عارفاً بصانعه ومخترعه، وهذه الأعضاء والحواس هي الموجبة للشكر، فالشاعر من رأى منة الله عليه في سلامة هذه الحواس، والكافر من يرى أنه يؤدي به شكر شيء من نعم الله عليه بشيء من أحواله.

قال أبو عثمان المغربي: جعل لكم السمع لتسمعوا به خطاب الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها عجائب القدرة، والأفئدة لتعرفوا بها آثار موارد الحق عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تبصرون دوام نعمي عليكم، فترجعوا إلى بابي، ثم يبين قدرته سبحانه في إمساك أطياف الأرواح في هواء الملكوت وأنوار سماء الجبروت حين ترفرت بأجنحة العرفان، والإيقان على سرادق مجده، وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطان سبحات جلاله حتى لا تغنى في بهائه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرْوَا إِلَى الْطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ طير الهموم في سماء الأزل ممسكة رياش طلبها بجبال أنوار الأبدية عن الوقوع على غير مواقع مشاهدة الوصلة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعلامات لألباء الحقيقة وإدلاء الطريقة وأهل الإرادة في المعرفة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ يعني ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله في أرضه لقوله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض ياوي إليه كل مظلوم»^(١).

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٨/ ١٦٢)، و«شعب الإيمان» (٦/ ١٦)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٢/ ٤٩٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَئًا﴾ أكنان الجبال قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة يسكنون فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْخَرَّ﴾ جعل للعارفين سراييل روح الإنس لئلا يخترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمُ﴾ سراييل المعرفة وأسلحة المحبة؛ لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومنَّته عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمُ﴾ نعمته ووقايته ورعايته، وقاهم من هجرانه، ورعاهم بلطفه عن قهره ﴿لَعَلَّكُم تَسْلِمُونَ﴾ تتقادون لأمره في العبودية، وتتواضعون لربوبيته.

قال الأستاذ: جعل إيواء لأوليائه في ظل عنايته مثنوى وقرآنا، وألبسهم في سرائلهم لباسا يكفيهم به الشر والضرر، فمن لباس العصمة يحميهم به عن مخالفته، ومن صدر التوفيق يحملهم به على ملازمة عبادته، ومن خلة الوصلة يؤهلهم بها القرية، وصحبته ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمُ﴾ إتمام النعمة أن يكون عاقبتهم مخرجة بالحسن، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويسددهم حتى يؤثروا ما يوجب لهم من الله الرضا.

قال بعضهم: تمام النعمة أن يرزق العبد الرضا بمجاري القضاء.

قال ابن عطاء: إتمام النعمة هو الانقطاع عن النعمة بالسكون إلى النعم.

قال حمدون: تمام النعمة في الدنيا المعرفة، وفي الآخرة الرؤيا.

قال أبو محمد الجريري: تمام النعمة حفظ القلب من الشرك الخفي، وسلامة النفس من الرياء والسمعة.

ثم وصف المخالفين بالطريقة المثل بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعرفون أولياء الله بالبراهين الساطعة والآيات الواضحة والفراسات الصادقة؛ ولكن لم يعرفهم بحقيقة المعرفة من حيث التوفيق والسعادة، وينكرونها حسداً وبغياً وعدواناً وظلماً وطلباً للرياسة والجاه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يسترون ولاية أوليائه، وآيات أصفيائه، وفي الآية توبيخ علماء سوء وقراء المدهنيين، الذين وضعوا شبكة الرياء والسمعة ليصطادوا بها الجهال، ويوبخوا عندهم أحباء الله؛ ليصرفوا وجوه الناس إليهم، يخونون الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، يعلمون الحق وينكرونها، وأي شقي أشقى ممن رأى منهم ألف كرامة صادقة، ثم يسترون بها ويلنكارها رئاسة الدنيا من العامة.

قال بعضهم: يتقلبون في نعمة ولا يوفقون لشكرها.

قال النصر آبادي: معرفة النعمة حسن، ومعرفة المنعم أحسن، ومعرفة النعمة ربما يتولد منه الأذكار، ومعرفة المنعم لا يتولد منه إلا صحة الاستقامة.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١١)
 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَنْجَضُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَخْذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَتَرُلُ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ وَلَا تَقْرَأُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تِمْنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَزَائِرُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾^(١١) إِنَّ اللَّهَ سبحانه خلق الأمم وجعل فيهم الأولياء والأكابر والأنبياء، فجعل الرسل شهداء على الأنبياء، وجعل الأنبياء شهداء على الأولياء يشهدون عند الخلق بولايتهم وصدق محبتهم، وإخلاص توحيدهم، وجعل نبينا ﷺ شاهداً صادقاً يشهد بولاية أولياء أمته، وأصفياه خواص أهل نحلته، فزال بذلك الإيهام والعلل؛ لأنه كان ﷺ بين شواهدهم وحقائق أعمالهم في ما أنزل الله عليه بلسان كتابه وواضح آياته قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١٢) مبيّناً لكل حق وباطل، يفرق بين الصديقين الغالطين، وهو كتابه المكنون وخطابه المصون، بخير عمّا كان وما يكون من كل حد وكل علم، وأنار سبيل الحقيقة، وأوضح طريق المعرفة، وهو سراج الله في العالم، يخرج بنوره كل طالب صادق من ظلمات الأوهام، وشكوك القتات، وهو خطاب الحبيب إلى الحبيب، وذوقه مع الحبيب، وسره معجون في الحبيب، وغرائبه مكشوفة له، وعجائبه مصونة في قلبه، لا يعرفها غيره بالحقيقة، فمن تابعه وصل إليه بحظ وافر، وأصل حاضر.

قال أبو علي الجوزجاني: الخلق شهداء بعضهم على بعض، وأمة محمد ﷺ هم شهود

الأنبياء على جميع الأمم، ومحمد ﷺ هو المزكي المقبول، فمن قدّمه فهو المقدّم، ومن أخره فهو المؤخّر ومن تعلق به نجا، ومن تخلف عنه هلك، قال الله: ﴿وَجَعَلْنَاكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ مَهْدًا﴾.

وقال الواسطي: ﴿أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ وإنما خوطبت به دون غيرك، لأنك أهل المخاطبة، وخوطبوا جميعاً تبعاً لك فينبى لهم مرادنا فيما خوطبوا به، فإن إليك البيان.

وقال أبو عثمان المغربي: في الكتاب تبيان كل شيء، ومحمد ﷺ هو المبين لتبيان الكتاب، ثم وصف كتابه بعد وصفه بأنه مبين علوم جميع صفاته وأسمائه ونعوته وذاته بأنه مع أنه تبيان طريق معارفه وكواشفه هادٍ للمسترشدين طريق معرفة وجدانيته وفردانيته، ورحمة على أحبائه بأن يخاطبهم به من حيث داء محبته في قلوبهم يسمعهم خطابه وأناجيله الذي فيه أنباء غرائب لطفه بأوليائه، وعجائب صنعه بأحبائه وأصفيائه؛ ليستأنسوا بخطابه وسماعه، ويتواجدوا بلذة كلامه، وذلك نعمة تامة ورحمة كافة عليهم وعلى جمهور سلك الطريقة وقصّاد الإرادة، ويشرى لكل مقبل إليه، واقف عليه، ومنقاد بين يديه، بنعت الخضوع والتسليم، يشرهم برضوانه الأكبر ووصاله الأوفر لهؤلاء المخاطبون بهذه الحقائق، يؤكدهم الله الأمر عليهم بأن يعدلوا بين خلقه ويواسيهم بإحسانه، ورفقهم لهم برحمة، وينهاهم عن مباشرة حظوظهم، والحسد على إخوانهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. إن الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائر، وهو منزّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلاًه بزيتها يخرج عادلاً محسناً، رءوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصدقاً، ولياً، حبيباً محبوباً، مريداً، مراعىً محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله بالألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئناً في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

قال الساري: ليس من العدل المقابلات بالمجاهدات، والعدل رؤية المنة منه قديماً

وحديثاً، والإحسان أن الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد، لذلك قال: استقيموا ولن تحصوا. وقال بعضهم: العدل والإحسان ما استطاعها آدمي قط؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وكيف تستطيع أن تعدل بينك وبين الله في استيفاء نعمه وتضييع وعظه وحكمه، وليس من العدل أن تفتقر عن طاعة من لا يفتقر عن برك والإحسان هو الاستقامة إلى الموت، وهو «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١) كما روي عن النبي ﷺ وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(٢).

أخبر أنه لا يقدر أحد أن يعدل بين خلقه، فكيف يعدل بينه وبين ربه والفحشاء الاستهانة بالشرعية، والمنكر الإصرار على الذنوب، والبغي ظلم العباد، وظلمه على نفسه أفضح.

قال الواسطي: العدل ألا يوافق العبد غير ربه، ولا يطالع غير حده، والإحسان ألا يرى حسناً إلا من الله، وإيتاء ذي القربى، فلا قريب أقرب إليك ممن أنت له وبه وإليه، وأفحش الفحشاء إضافة الأشياء إلى غيره ملكاً وإيجاداً، وأنكر المنكر رؤية الأشياء من غير الله ولغير الله، وأقبح البغي تلوين النعوت ورؤيتها بالعلل لعلكم تذكرون، تعرفون فضله عليكم بالموعظة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: عسى أن تذكروا نعمه عليكم.

ومن جملة ما يتعلق بالعدل والإحسان، الوفاء بعهد الله في عبوديته بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذا العهد عهد الأرواح مع الله حين خرجت من العدم بمحبة القدم والعبودية لربوبيته، خالصاً من إيثار الشيء عليه من العرش إلى الثرى، عهد الله معها أنه تعالى آواها على نعت الديمومية إلى مشاهدة الأبدية، وعهدها مع الله خروجها مما لا يليق بالعبودية، فحقيقة الوفاء بالعهد من الطرفين يتعلق بعناية الله ورعايته وكل الاجتهاد من العباد يبدو منها، فإن وقع النقص على عهدنا من غيره السابقة في الأزل، وتغير عهدنا بحيث تتغير صفاتنا من حال الاستقامة إلى حال الفترة، فلم يقع النقص، والنقص في عهد الله؛ لأنه منزه عن التغيرات الحدثانية، وهو ذو رحمة واسعة يفي بعهده ولا علة عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي: أنت متردد بين صفتين، صفة الحق وصفتك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٣٤٤)، وابن ماجه (٣٢٦/١)، والدارمي (١٧٤/١).

وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ إلى أيهما نظرت فإنك الأخرى، ثم العهد مختلفة، وفي الأقوال عهود، وفي الأنعال عهود، وفي الأحوال عهود، والصدق مطلوب منك في جميع ذلك، وعلى العوام عهود، وعلى الخواص عهود، وعلى خواص الخواص عهود، فالعهد على العوام لزوم الظواهر، والعهد على الخواص حفظ السرائر، والعهد على خواص الخواص التجلي من الكل لمن له الكل.

وقال: من حمل الحمد بنفسه وحوله نقضه في أول قدم ومن حمله بالحق حفظ عليه عهده ومواريقه.

وقال الواسطي: تقدمت العهود في الميثاق الأول، فمن أقام على وفاء الميثاق فُتح له طريق الحقائق وقتاً بعد وقت، ومن خان في الميثاق بقي مع وقته وأغلق دونه مسالك رشد.

وقد وقع لي نكتة هاهنا من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا أَلْأَيْمَنَ بَعَثَ تَوْكِيدَهَا﴾ إن كان العهد واليمين وقعا من جانب العباد في الأزل تحقق لهم الاختيار في الوفاء بالعهد والأيمان، وإن وقعا من الحق صرفاً، وعهد العباد وأيمانهم من نتائجها وفرعها، فقد سقط عنه الاختيار المنزه عن عوارضات التلوين، وتغير الزمان والمكان.

﴿مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضاً ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنَّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنَّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

ثم أخبر أنه يجازي المحبوسين في قيود إسراء بلاء محبته، وامتحان شوقه، وبلاء عشقه بمشاهدته، وكشف جماله لهم بأحسن ما يرجون منه، فإن رجاءهم على قدر همهم، وهمهم على قدر نياباتهم، ونياباتهم على قدر قصودهم، وهي كلها معلولة مقصورة وأجر جماله ووصاله غير محسوب من حيث وجود الخلق والخلقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال بعضهم: ما منكم من الطاعات فإنها فانية، وما مني إليكم من جزاء أعمالكم فهو

باق على الدوام، وأنى يقابل ما يفنى بها يبقى.

وقال ابن عطاء: أوصافكم فانية وأحوالكم باقية، فلا تدعو منها شيئاً وما من الحق إليكم باق، فالعبد من كان فانيّاً من أوصافه باقيّاً بها لله عنده، وهو تفسير قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْنُو وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقال جعفر الصادق: ما عندكم ينفد يعني الأفعال من الفرائض والنوافل، وما عند الله باق من أوصافه ونعوته؛ لأن الحديث يفنى والتقديم يبقى.

قال أبو عثمان: جزاء الصبر هو أن يعطي الله العبد الرضا، فمن تحقق بالصبر ولزم طريقة الصابرين فإن الله يثيبه على أحسن ثواب عاجلاً وآجلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويقال: ما عنكم من معارفكم ومحابكم آثار متعاقبة وصفات متناوبة أعيانها غير ثابتة، وإن كانت أحكامها غير باطلة، والذي يتصف بالحق به من رحمته بكم ومحبتة لكم وثنائه عليكم، فصفات أزلية، ونعوت سمردية.

ويقال: ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا، فيعرض الزوال وقبول الانقضاء، وما وصفنا به أنفسنا بها ورد به الآثار إلا طال، شوق الأبرار إلى لقائي، وإنّا إلى لقائهم لأشد شوقاً وذلك إقبال لا يتناهى وإفضال لا يفنى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ ﴿١٠٦﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التَّوَكُّلُ مِنَ الْكُوفِ وَمَا فِيهِ بِنَعْتِ تَصَاغِرِهِ فِي عَيْنٍ مِّنْ يَّرَى الْقَدَمَ، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضاً هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضاً وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضاً هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنساً

بوصله، معافاً من فضله، فيكون ملبساً في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروساً من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجاً من امتحان البلاء، وهذا جزء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغيرات النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألد حاله، طوبى له ثم طوبى له.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الحياة الطيبة هي القناعة»^(١).

وقال السوسي: الحياة الطيبة عيش الفقراء الصبر، وقيل: عيش الفقراء الرضا.

وقال الجريري: هو العيش مع الله، والفهم عن الله.

وقال ابن عطاء: إسقاط الكونين عن سره حتى يبقى مع ربه.

وقال أيضاً: روح اليقين، وصدق نية القلب.

قال سهل: ذلك قلب بقى مع الله بلا رؤية الكون.

وقال جعفر: يعيش مع الخلق بالنفس، وقلبه معلق بمشاهدة الله.

وقال أيضاً: قلب مع الصفاء، وروح مع اللقاء، وبدن مع الوفاء.

وقيل: حياة القلب مع الله بحسن المعرفة وتجريد الهمة.

قال الصادق: القناعة والرضا.

وقال أيضاً: إذا كان قلبه في محبة الله، ولسانه في ذكر الله، وجوارحه في خدمته، فذلك حياة طيبة.

وقال أيضاً: إذا اجتمع له خمس مقام وهو عيش السرمدية، وحياة الأبدية، وصدق

العبودية، وقرب الصمدية، وملك الأزلية فذلك حياة طيبة.

وقال الواسطي: هو الرضا بالميسور، والصبر على كربة المقدور، فما طابت حياة أحد

إلا بالرضا بما قَدَّرَ الله وقضى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: العمل الصالح لا يكون من غير المؤمن.

فمعناه عمل صالحاً في الحال وهو مؤمن في المال؛ لأن صفاء الحال لا ينفع إلا مع وفاء

المال، فإن الأمور بخواتيمها.

ويقال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق بأن نجاته بفضل الله، لا بعمله الصالح.

ويقال: الحياة الطيبة هو نسيم القرب.

ويقال: الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/٢٧٥).

نحنن في أكمل بالسرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

غبت ما نحن فيه يا أهل ودي إنكم غيب ونحن حضور

ويقال: الحياة الطيبة الأولياء ألا يتركه لهم سؤالاً إلا حقيقه، ولا مأمولاً إلا صدقه، وأما الخواص فالحياة الطيبة لهم ألا يكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة، وكم بين من له مراد فيرتفع، وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرين معتقون بشرط الحرية.

﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٠) **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** (١١) **وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً ۖ وَاللَّهُ أََعْلَمُ بِمَا يُتَزَلُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (١٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يبيّن سبحانه أن الشيطان لا يغلب بالكفر والضلال على من اختارهم الله في الأزل بالإيمان والمعرفة، وبصفاته، وبأسائه، وبتعوته بنعت نفي الأنداد والأضداد عن عبوديته، والإيقان في وجوده، والإذعان عند تصرفه، والتوكل عليه في امتحانه وبلائه، ولا تسلط له عليهم؛ لأنهم في رعاية الحق وعنايته لا يقدر أن يوسوسهم للتردد في الإيمان؛ ولكن يوسوسهم من جهة الشهوات الدنيوية، فإذا صبح أنوار شمس جلاله على وجوههم وقلوبهم وأرواحهم، يحترق الشيطان عند إلقائه إليهم حتى أفاقوا، فإذا أفاقوا يقصد إليهم أيضاً بالوسواس، فإذا استعانوا بالله من شره، وأووا إليه بالتوكل، احتبس الملعون في مكانه، يذوب كما يذوب الملح في الماء.

قال أبو حفص: من أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل، فليصحح إيمانه، وليصحح بالإيمان بالتوكل عليه، والإيمان هو ألا يرجع في السراء والضراء إلا إليه، ولا يرضى بسواه عوضاً عنه، والتوكل هو الثقة بمضمون الرزق كثقتك بمعلومك، وهذا تفسير قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ﴾.

قال النصر آبادي: من صحح نسبته مع الحق لا تؤثر بعد ذلك عليه منازعة طبع، ولا وسوسة شيطان، ثم بين أن سلطانه على من: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ معنى سلطان الشيطان الحيل والمكر والخديعة والوسواس، لا أن يطبق أن يضل أحداً من خلق الله بغير إذن الله؛ لأنه تعالى يضل بنفسه ويهدي بنفسه، وليس له شريك فيها، إذ هو منفرد بالوحدانية الأزلية وتسلطه إنمّا على من أضله الله في الأزل، وتسلطه أغراه، وزيادة الوسوسة لمن تابعه وتابع هواه، وأما للمسلمين والمؤمنين فمن جهته مراد النفس؛ لا للكفر والضلالة؛

لأنه يغويهم إلى زيادة المعصية.

قال بعضهم: من اتبع هواه فقد تولى الشيطان، ومن ركن إلى الدنيا فقد اتبعه، ومن أحب الرئاسة فقد اتبعه، ومن خالف ظاهر العلم فقد تولاه، ومن خان المسلمين فقد جعل للشيطان عليه سبيلاً، ومن ركب شيئاً من المخالفات ظاهراً وباطناً فقد أهلك نفسه، ومن تولى الشيطان فقد تبرأ من الحق.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَسْأَلَ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيْ ۖ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَتْ آلَٰهُ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَتْ آلَٰهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢٠﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا لم يكن الأعداء من قبيل أهل المعرفة بخطاب الله صار بحجتهم الإنكار عليه، لبعد مكانها من معرفة الله وشهوده، ووجوده، وما صدر منه، من كلامه العزيز رَدَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني أن الله سبحانه كلَّم في الأزل، فأوحى جبرائيل ﷺ وأمره أن يوحى حبيبه أمر حبيبه أن يبلغه إلى المؤمنين الذين عرفوا الله بالأرواح حين أخذها الحق بميثاقه وكلّمها بكلامه حين قالوا: بلى، ليثبتوا في معرفة الله بخطاب الله، ويستقيموا في طاعتهم، ثم وصف كتابه بأنه معرف جميع صفاته وذاته لأهله، ومبشر لهم بوصول حبيبه بقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وأن الله سبحانه إذا أراد أن يتكلم، يتكلم بنفسه مع نفسه، كما يليق بجلاله، بلا همهمة، ولا صوت، ولا شيء من صفة الحدثان، ثم يلبس كلامه قوة من قوته، وجلالة من جلالة، وعظمة من عظمته، فيسمع جبرائيل على ما يليق بقوته، يسمع كلامه بقوة قدسية مستعارة من قدس الله، ولولا ذلك لذاب بسماحه أهل الملكوت، ثم إن جبرائيل احتمل ذلك، ونزل به إلى النبي ﷺ فألبس الحق ذلك القوة والجلال قلب نبيه فسمعه بتلك القوة، ثم يفيض تلك القوة في جميع وجوده، فتثقل عليه فحفظه الله بحفظه حتى بقي

تحت أثقال برجاء وحيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأُولَٰئِكَ قَوْلًا نَّقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وهو الملقى، وهو الحامل، ولولا قوته الأزلية بإعانتته، لطاش في أول سماع يسمع من كلامه وروح القدس مع جميع الأرواح المقدسة من فيض تجلي قدس جلاله، فكلها تكون قدسية، فأى روح قدسه عليها أكثر، فهو أظهر في قدسها لا يلتصق بها الملل والحوادث.

قال الواسطي: الأرواح ليس لها نوم ولا لذة ولا موت ولا حياة، بل هي جوهرة لطيفة للطفه، فسمي روحًا، أو للطف جبرائيل، سمي روح القدس.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ إِنَّ الله وصف المريدین الصادقین حين هاجروا من حظوظ أنفسهم بعد ذوقهم طعم معصية الله، وبعد وقوعهم في محل امتحانه، فلتًا خرجوا من تحت مراد النفس والهوى، وجعلوها منكوسين، وباشروا عبودية الله، وجاهدوا في محاربة الشيطان حين دعاهم إلى منازل الفترة، وصبروا على ترك الهوى في متابعة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لما جرى عليهم في سالف الأيام من الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أي بأن يحفظهم من المراجعة إلى حظوظ النفس، ومرادها وأنه تعالى يذيقهم طعم الأنس بحيث لا يطيقون أن يفتروا من طاعته لمحة.

قال سهل: هاجروا قرناء السوء بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم، ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير، ثم صبروا معهم على ذلك، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من بدء الأحوال.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقاءه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينسبط إلى رها، وتدلل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وجبستني في دار الامتحان مع أعدائي،

فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمدتك حتى أنظر إليك بك أبداً، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوبة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفس بقدر طاعتها، وهو منزّه عن النسيان والظلم والضلال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويريمهم جماله.

قال بعض الخراسانيين: ذهب وقت الخلق في الدنيا اشتغالاً بنفوسهم في الدنيا تجادل عنها، وفي الآخرة تجادل عنها، فمتى يتفرغ إلى معرفة الحق^(١).

وقال الأستاذ: المؤمن لا نفس له، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فأنفسهم اشتراها الحق منهم، ثم أودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق سبحانه.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَيِّهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ١٠٠
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٠١
فَكَفَرُوا بِاللَّهِ حَتَّىٰ طَلَبُوا أَشْجَارًا يَسْتَكْبِرُونَ ١٠٢
وَلَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْمَعِينَةُ وَالَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِمَا أَهْلُ الْبَيْتِ يَفْتَرُونَ ١٠٣
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْمَةَ وَالَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِمَا أَهْلُ الْبَيْتِ يَفْتَرُونَ ١٠٤
فَأَبَى اللَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ١٠٥
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١٠٦
مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٧
وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٠٨

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَيِّهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ القرية المطمئنة: قلب العارف الصادق المطمئن بذكر الله، بل الله طمأنينته حين شاهده، بكشف جماله وجلاله له، أمر بلطف الله عن قهر الله، وبرعايته عن طوارق الوسواس

(١) والمعنى اذكر يا محمد ويا كل من يصلح للخطاب يوم يأتي كل إنسان يجادل ويخاصم عن ذاته يسعى في خلاصه بالاعتذار كقولهم هؤلاء أضلونا وما كنا مشركين لا يهيم شأن غيره فيقول نفسي نفسي وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى خليل الرحمن عليه السلام وقال رب نفسي أي أريد نجاة نفسي. تفسير حقي (١١٢/٧).

وشوارق الهواجس، يأتي عليه رزق المعرفة والمحبة، وبرد الأنس والمشاهدة من كشف الذات وجميع الصفات رزق أرغد؛ بحيث لا كدر فيه ولا كدورة عليه من قتام الهجران، وظلمة الحرمان، فإذا أراد الحق سبحانه إتمام النعمة عليه، رفع عنه الخطأ والنسيان، والظن والحسبان، حتى لا يشتغل إلا بمراعاة أسراره، وبمداركة لطائف أنواره، وإذا أراد به الامتحان وضعوا عليه النسيان، وأغلق عليه أبواب فتوح المشاهدة حتى يذوق طعم وبال الهجران، ويسقط في ورطة الحرمان، ويكون خائفًا بعد أن يكون آمنًا، وفاترًا بعد أن يكون ساكنًا، بقوله: ﴿فَكَفَرْتَ بِاتِّعَامِ اللَّهِ فَادَّخَلَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

قال الأستاذ: فراغ القلب عن الشهوات نعمة عظيمة، إذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وأنجز في قياد الشهوات شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته، فإن طوارق النفس أوجب غروب شوارق القلب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١١) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: باشروا مراد الهوى بجهلهم على صفات ربهم الأعلى من قهر ولطف، ثم تابوا من بعد ما رأوا مكائد الشيطان، وعبوب النفس، وعرفوا موضع خطأهم، وندموا على ما فات عنهم من أوقات سنية، وحالات شريفة، وأصلحوا ما أفسدوا بالورع التام، والزهد على الدوام، والندم على فوت الأيام، وغفلتهم في المنام، يوفقههم بالاستقامة في طاعته، وبقائهم بنعمتها في رعايتها، لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال سهل: ما عصى الله أحدًا إلا بجهل، ورُبَّ جهل أورث علمًا، والعلم مفتاح التوبة، وفي الصلاح صحة التوبة، من لم يصلح في توبته عن قريب يفسد عليه توبته؛ لأن الله يقول: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ آدَمَ الثَّانِي،

خلقه الله على رؤية جمال جميع صفاته، واستيلاء أنوار ذاته في إيجاده على كونه، فتجلى بقدمه من حيث الذات، وبالبقاء من حيث الصفات، ومن الأسماء والنعوت برسم الأفعال لروحه وقلبه وعقله وسره، فصار موجوداً بوجوده، مشكاة لأنواره، نوراً من تجليه متخلقاً بخُلُقِه، موجوداً بلطفه، مقدساً بقدرسه، خليلاً بخلته، حبيباً بمحبته، صفيّاً باصطفائيته، ملكاً بملكه، بصيراً ببصره، سميعاً بسمعه، متكلماً بكلامه، عيناً من عيون الحق في العالم، وشقائقاً من منابت لطف آدم ما اجتمع في كل، اجتمع في وجوده، مطيعاً في عبوديته، حرّاً في حنيفيته، غير مائل من جمال الحق إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَكُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَلَيْسَ اللَّهُ بِمُستَكْبِرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ

ثم زاد وصفه بمعرفة منعمه ونعمه لاجتنائيته بخلته، وتعريفه إياه طريق محبتهم بقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنُ وَهَدَنُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ شاكرًا لأنعمه حيث بذل نفسه لأمره ولمراده، وأسلم نفسه في ذبح ابنه، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه، اجتناء في الأزل بالخلّة، وهذا إلى المعرفة، وكمله بكمال الاستقامة، والقانت الذي سكن قلبه مع الله في مقام الأنس الخفيف الذي قلبه مربوط بنعت القدس.

قال بعضهم: أمّة أي: معلّمًا للخير، عاملاً به.

وقيل: القانت الذي لا يفتر عن الذكر، والخفيف الذي لا يشوب شيئاً من أعماله بشر.

وقيل في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَكُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: لم يك يرى المنع والعطاء والضر والنفع إلا من موضع واحد.

قال الواسطي في قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾: قابلاً لقضائه وقسمته قبول رضا لا قبول كراهية.

قال أبو عثمان: الشاكر لنعمه ألا يرى شكره إلا ابتداء نعمة من الله عليه؛ حيث أهله لشكره، واجتناء من بين خلقه، وكتب عليه الهداية إلى صراط مستقيم، عالمًا أن الهداية سبقت له من الله ابتداء فضل لا باكتساب وجهد وكّد.

قيل: القنوت القيام بالحق على الدوام والخفيف المستقيم في الدين، ثم وصف كرامته عليه وشرفه بقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آتيناه في الدنيا حسنة النبوة، والرسالة، والخلّة، والمحبة، والمعرفة، وإنّه في الآخرة لمن الشاهدين لقائه أبداً بلا حجاب، فإنه بوصف ما ذكرنا يصلح لقربه وجواز وصاله أبداً.

قال بعضهم: آتيناه في الدنيا المعرفة حتى صلح في الآخرة لبساط المجاورة.

قال بعضهم: أصلح الله قلوب المؤمنين للمعاملة، وأصلح قلوب الأنبياء والأولياء للمجاورة والمطالعة.

وقال الواسطي: هي الخلعة لا غيرها تولى الأنبياء بخلقه خلقهم على ذلك جذباً منهم إليه.

قال الأستاذ: آتيناه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم يكن لغيرنا، ثم جعله إماماً لنبينا محمد ﷺ وأمنه بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الخلعة والمحبة والرضا والتسليم والسخاء والوفاء والكرم، أوحى إلى رسوله بمتابعته، إذ اختاره بها اختار خليله وأجل وأفضل بدايته متابعة الخليل، ونهايته انفراده في تجريد التوحيد عن غير الحق بالحق، ويقتضي هذا التأدب بآداب المشايخ، والتواضع للأكابر، كما قال الدينوري: أمر الله نبيه ﷺ باتباع الخليل لئلا يأنف أحدٌ من الاتباع، وملة إبراهيم كانت سخاء، والخلق الحسن، فزاد عليه النبي ﷺ حتى جاد بالكونين عوضاً عن الخلق؛ ف قيل له: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَّ خَلْقِي عَظِيمٌ﴾.

ومن جملة ما أمره الله باستعمال الخلق.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٦) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٧) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٨) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: خاطب الجمهور بلسان الشريعة لا بلسان الحقيقة، فإن تكلمت معهم بالحقيقة طاشت العقول فيها، وبقيت الخلق بلا فهم، ولا علم، والموعظة الحسنة التي لاحظ للنفس فيها، ويكون على قدر عقول الخلق وطاقتهم.

قال بعضهم: خاطب كلاً على قدره، والموعظة الحسنة فيها ترغيب وترهيب.

سئل بعضهم: لم قدم الله الحكمة؟ فقال: لأن الحكمة إصابة القول باللسان وإصابة الفكرة بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إن تكلم، تكلم بحكمة، وإن تفكر، تفكر بحكمة، وإن تحرك، تحرك بحكمة.

وقال جعفر: الدعاء بالحكمة أن تدعو من الله إلى الله، بالله، والموعظة الحسنة أن ترى

الخلق في أمر القدرة، فتشكر من أجاب، وتعذر من أبى وفي قوله: ﴿وَجَدِ لَهُم بِآلَتِي هَيَّ أَحْسَنُ﴾ الجدال الحسن أن تدلهم إلى الله بالله، تعرف ذاته وصفاته، بها وجدت من كرمه ولطفه، شفقة ورحمة على خلقه.

قال بعضهم: هي التي فيها من حظوظ النفس شيء، ولا يرى أنه الممتنع من قبول الموعظة، فيغضب عليه ﴿إِنَّ زَلَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فلا ينجح فيه قولك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِآلَمِهِتَيْنِ﴾ الموفقين الذين شرحت صدورهم لقبول ما أتيت به.

قال سهل: السبيل الذي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو إليه، هو الإيثار بالله، فإنه طريق محدود من الدنيا إلى الآخرة.

وزاد تعالى تأكيداً باستعمال الكرم والخلق، والعفو والصبر، بقوله: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ دفع الانتقام لحظ النفوس، وأجاز الانتقام له لا لغيره، والصبر في المكاره، والامتحان منتهى مقام المجتهدين، الأول يتعلق بمقام المبتدئين، والصبر يتعلق بمقام الراضين، والمريد منغمس في أنوار الشريعة، والعارف مستغرق في بحر الربوبية، الأدب شعار المريدين، والرضا مقام المختارين.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾: ولم تعاقبوا لها خير للصابرين التاركين العقوبة، التي أباح العلم فعلها بالأدب الذي يتبعه بالأمر، ويلزمه بالترغيب، أنه خير للصابرين، ثم بين سبحانه أن ذلك الصبر الذي هو خير للصابرين لا يكون إلا بالله بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: صبرك في بلائه لا يكون إلا بكشف جماله لك، وأيضاً أي: ما صبرك إلا بعد تخلقك بصبره، وأيضاً ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: الله عوض صبرك، وأيضاً صبرك بالله، لا بنفسك، فإن بلاءه لا يحتمله إلا هو.

وقال الواسطي في هذه الآية: أخبر بأنه هو الذي تولاهم بحجبهم عند المعاينة في الحضرة عن الحضرة، وهم ثلاث طوائف عند اللقاء، طائفة تسردت بقيومية دوامه وأزليته، فلم تجر عند اللقاء عليها آفة باتصال أنوار السمردية بأنوار الأبدية، وطائفة لقيته في زينت، وحسن نظره واختياره، فغمزه في نعمته وحجبهم بكرامته، فهي مثلذذة بنعمة محجوبة عن حقيقته، وطائفة ثبتت شواهد طاعاتها وزهداتها؛ فقال لهم مرحباً بمقدمكم فحجبهم في نفس ما خاطبهم.

وقال ابن عطاء: يأمره ويبرئه.

وقال جعفر: أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ، حيث جعل أمر

صبره بالله لا بنفسه؛ فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

قال النوري: في هذه الآية هو الصبر على الله بالله.

قال الأستاذ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ تكليف، و﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تعريف.

ويقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ تعنيف، و﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تخفيف، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أمر بالعبودية، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إخبار عن حق الربوبية، ثم أخبر سبحانه ألا تنظره إلا إلى سوابق التقدير، حتى لا تحزن على موارد التدبير، بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على أمر العبودية.

قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكن الله تعالى حذره ما هو موهوم في البشرية، وإن كان هو مترها عنه.

قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله خطرًا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرًا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادق شاهِدٍ محسنٍ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: مع الذين عظموا الله برؤية عظمته، وأجلوه بإجلاله، وتبرؤا به عن غيره، وهم في حال الإحسان في جمال مشاهدته، هائمون في بهاء وجهه، وأنوار قدسه، فهو معهم من حيث لا هم، أفناهم به عن وجودهم، ثم أبقى نفسه لهم بعد فنائهم عنه فيه له.

قال عمشاد الدينوري: رأيت ملكًا من الملائكة يقول لي: كل من كان مع الله فهو هالك، إلا رجل قلت: ومن هو، قال: من كان الله معه، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

قال بعضهم: من اتقى الله في أفعاله أحسن الله إليه في أحواله.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: التقوى مع الله، والإحسان إلى خلق الله.

قال الواسطي: التقوى: كيف اتقى؟ وماذا يتقى؟ ولماذا يتقى؟

وقال الأستاذ: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ رؤية البصيرة من غيره والذين هم أصحاب التبرؤ من الحول والقوة، والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهو حال المشاهدة.



سورة بني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝﴾

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: في هذه الآية أربع إشارات: إشارة التقديس، وإشارة الغيرة، وإشارة الغيب، وإشارة السر، فأما إشارة التقديس فقوله: ﴿سُبْحَنَ﴾ أي: منزّهة عن إشارة الجهات والأماكن في الفوقية، وما يتوهم إليه الخلق أنّه إذا وصل عبده إلى وراء الوراء إنه كان في مكان، أي: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السماوات إنه رفع إلى مكان، أو هو في مكان، فإنّ الأكوان والمكان أقل من خردلية في وادي قدرته.

ألا ترى إلى قوله ﴿الْكُونُ فِي يَمِينِ الرَّحْمَنِ أَقْلٌ مِنْ خَرْدَلَةٍ﴾^(١)، فالعندية والفوقية منزّهة عن أوهام المشبهة؛ حيث توهموا أنه أسري به إلى المكان، أي: سبحان من تقدّس هذه التهمة.

وأما إشارة الغيرة فقوله: ﴿الَّذِي﴾، ولم يذكر من اسم الظاهر مثل الله والرحمن؛ لأنّه غار بنفسه أن يراه أحد سوى عبده، وما سمى النبي باسمه الظاهر أيضًا غيرة عليه، فرفع الاسمين من البين؛ لئلا يطلع عليها من العرش إلى الثرى.

وأما إشارة الغيب قوله: ﴿أَسْرَى﴾: سرًّا على ما بين العبد والرب، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ محل السر والتجوى، فبان من التقديس أفراد القدم عن الحدوث، وسقوط الاكتساب عن محل التفضل، وكون الاختصاص له من البرية، وطهارة القدم عن إحاطة الحدث به، وبقاء العزة بوصفه عن محمّدة العارفين وعرفان الموحدين، وبان عن اسم المبهم حقائق المحبة، وامتناع الصمدية عن إدراك الخليفة، وبان من إشارة الغيب ظهور أنوار الربوبية وسطوع أنوار علم المجهول، وبان من إشارة السر خطاب المشابهات، وغوامض علوم المشكلات، والإشارة إلى وقائع أشراط الساعة أسرى بعبده من محل الإرادة إلى محل المحبة، ومن محل المحبة إلى محل المعرفة، ومن محل المعرفة إلى محل التوحيد، ومن محل التوحيد إلى محل التفريد، ومن محل التفريد إلى محل الفناء، ومن محل الفناء إلى محل البقاء، ومن محل البقاء إلى محل

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٣/ ٣١٥).

الاتصاف، ومن محل الاتصاف إلى محل الاتحاد، فلم يبق منه شيء من رسوم الحدوثية من استيلاء القدم على الحدث، فدنا منه ثم تدلى عنه، ثم فني فيه، فكان بين فئاته قاب قوسين، قوس الأزل وقوس الأبد، فبين القوسين غاب في الغيبة، فبقي غيبه، فاستوى أو أدنى فأزال بالغيرة غيب غيبه، كأنه كان في فناء الفناء، والفناء عن فناء الفناء، فبقي اسمه مع اسم الإشارة بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَئِي بِعَبْدِهِ﴾ أي: هو مع مكانته في مقام الاتحاد على وصف العبودية، وسبحان الذي سبحانه عن أن يكون محلاً للحوادث، أو امتزجت اللاهوتية بالناسوتية، قوله سبحانه كان أزلياً سرمدياً، كان سبحانه قبل إيجاد العبد والتعبد عن القريب والبعيد هو هو بذاته وصفاته له، لغيره امتنع عن القرب والبعد من جهة الخليفة بحال من الأحوال أبد الأبد، أسرى من رؤية فعله وآياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مشاهدة جماله فرأى الحق بالحق، وصار هناك موصوفاً بوصف الحق، فكان صورته روحه، وروحه عقله، وعقله قلبه، وقلبه سره، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده صار بجميعه عيناً من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسباع، وعرف الحق بجميع القلوب؛ حتى فنت عيونه وأساعه وقلوبه وأرواحه وعقله في الحق، فنظر الحق إلى الحق لأجله نيابة عنه؛ لأن عيون الحدوثية فنت في عيون الحق، وعيون الحق رجعت إلى الحق، فرأى الحق الحق، وعرف الحق الحق، وسمع الحق من الحق رحمة منه إليه، وتلطفاً به؛ لأنه يسمع ويرى.

ألا ترى إلى آخر الآية قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: سمع كلامه من نفسه، وأبصر نفسه بنفسه، كان في الأزل سمياً بصيراً، لكن هاهنا يسمع ويبصر بسمع عبده وبصر عبده.

قال الواسطي: نزّه نفسه أن يكون لأحد في تسيير نبيه ﷺ حركة أو خطوة، فيكون شريكاً في الإسراء والتسرية.

وقال أبو يزيد: نزّهه عما أبدى، ولا تعرفه بما أخفى.

وقال ابن عطاء: طهر مكان القرية وموقف الدنو عن أن يكون فيه تأثير لمخلوق بحال، فسرى بنفسه، وسرى بروحه، وسرى بسرّه، فلا السر علم ما فيه الروح، ولا الروح علم ما يشاهده السر، ولا النفس عندها شيء من خبرهما وما هما فيه، وكل واقف مع حده، مشاهداً للحق، متلقفاً عنه بلا واسطة ولا بقاء بشرية، بل تحقق بعبده فحققه وأقامه؛ حيث لا مقام، وخاطبه وأوحى إليه ما أوحى جلّ ربنا وتعالى.

وقال: جاء رجل إلى جعفر بن محمد، وقال: صف لي المعراج. فقال: كيف أصف لك

مقاماً لم يسمع فيه جبرائيل مع عظيم محله.

وسبب بداية المعراج الذهاب إلى المسجد الأقصى؛ لأن هناك الآيات الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباههم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصبصة، ومقام إبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام في تلك الجبال مواضع كشوف الحق لذلك قال: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: علامات شواهد مشاهدتنا؛ حتى يتعود برؤية شهودنا في الآيات، وليقوى برؤيتها؛ حتى يطيق أن يرى آيات عظام الملكوت، وسبب عروجه إلى الملكوت؛ ليرى جمال الجبروت في أنوارها؛ لأنه سأل عن الحق رؤية ظهور صفاته في مرآة آياته بقوله: أرنا الأشياء كما هي، فأراه الحق ما سأل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: هو يريه وهو قادرٌ بذلك، وهو منزَّهٌ عن الحلول في الآيات.

ألا ترى إلى أول الآية كيف قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾، والحكمة في ذلك أنه إذا قوي في رؤية الصفات في الملكوت الأعلى والملكوت السفلي يطيق أن يرى صرف ذاته بلا حجاب، ولا حسابان، ولا قتام، ولا ضباب، ولا علة، ولا آيات، ولا شواهد، بل يراه به لا بشيء ولا بإياه.

قال بعضهم: قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُرَىٰ إِِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾، فغمض عينه عن الآيات شغلاً منه بالحق، ولم يلتفت إلى شيء من الآيات والكرامات فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يشغلك ما لنا عنا.

ويقال: أرسله الحق سبحانه ليتعلم منه أهل الأرض العبادة، ثم رَقَّاه إلى السماء؛ ليتعلم الملائكة منه أدب العبادة، قال الله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ما التفت يميناً، ولا شمالاً ما طمع في مقام، ولا في إكرام، وتحرز عن كل طلب وإرب.
قال الأستاذ في قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: كان تعريفاً بالآيات، ثم تعريفاً بالصفات، ثم كشفاً بالذات.

﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهَا لَكُمْ آلَڪُرَّةً عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرًا نُّفَرًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾: عبدًا من حيث العبودية، وحبًّا من حيث المعرفة، وعاشقًا من حيث الحرية، ومنفردًا بالأنس من حيث الغيرة.

ألا ترى كيف قال: ﴿لَا تَدْرِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا﴾ [نوح: ٢٦]: شكورًا من حيث أن يرى المنعم بالمنعم لا بالنعمة بنعت العجز عن أداء حق نعمة جلاله وكشف جماله، كأنه تعالى علم نبيه ﷺ مقام معرفة أبيه نوح ﷺ كيف كان معرفته بالله؛ حيث احتمل بلاءه به، وشكر في موضع الصبر، كأنه علمه الشكر في مقام البلاء؛ لأن العارف لا يتم؛ حتى يعرف الحق في رؤية البلاء ورؤية النعمة، فيأخذ من مقام البلاء الصبر المقرون بالرضا، ومن مقام النعمة الشكر المقرون بالصفاء والوفاء والسخاء والتقى، وإن كان متحليًا بهاتين الخلتين صار مزينًا بجميع زينة العبودية؛ لذلك قال: ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١).

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾: العبودية هي: ترك هذين الشيتين: السكون إلى اللذة، والاعتماد على الحركة، فإذا فقد عنك هذان فقد أدبت حق العبودية، يستعظم قليل فضلنا عنده، ويستصغر كثير خدمته لنا، ليس له إلى غيرنا التفات، ولا يشغله تواتر النعم عليه عن المنعم بحال.

وقال أيضًا: قائلًا بالحق، ناطقًا به، قابلاً له، مقبلاً عليه.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا النَّبِيرَ ۗ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۖ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: حكى الله سبحانه عن العباد بأنهم يعملون بالأعواض لحظ نفوسهم، لا لحقيقة العبودية التي وجبت عليهم في الأزل، لحق الربوبية التي هي مستحقة لها، فمن عمل للنجاة عمل لنفسه، ومن عمل للثواب فقد عمل لنفسه، ومن عمل لحظ المحبة وكذا الأُس فقد عمل لنفسه، ومن عمل لغير هذه العلل وقام على شرط العبودية بنعت إسقاط رؤية الأعواض وكل علة على وصف الخنجل والحياء والفناء فقد عمل لله، ولكن أعماله راجعة إليه بسببين: أحدهما أن عبودية الخليفة لا تليق

(١) وفي التاويلات النجمية يشير إلى شكر داود الروح وسليمان القلب من آله السر والخفى والنفس والبدن فإن هؤلاء كلهم من مولدات الروح قال اعملوا...

بالأزلية، والآخر أنه منزَّهٌ عن عبودية الخلق وعصيانهم؛ لأنَّه قائمٌ بنفسه، ليس له أنسٌ بطاعة المطيعين، ولا وحشة بمعصية العاصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفيه نكتةٌ عجيبةٌ، أي: إنَّ شهادتكم مشاهدتي شهادتكم لحظوظ أنفسكم لا لحق شهودي، وإنَّ شهادتكم مشاهدتي كما ينبغي وفنيت مشاهدتكم فنيتم في مشاهدتكم في مشاهدتي؛ لأنَّ سطوات العظمة مهلك كل شاهد من شهوده.

قال أبو سليمان الداراني: العَمَّال في الدنيا يعملون على وجوه، كلٌّ فيه يطلب حظه، فجاهل عمل على الغفلة، وعامل عمل على العادة، ومتوكل عمل على الفراغة، وزاهد عمل على الخلاوة، وخائف عمل على الرهبة، وصديق عمل على المحبة، وعَمَّال الله أقل من القليل. قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عَدْنَآ﴾: ذكر الرجاء، وقَدَّمَ الرحمة، وتكلَّم من نفس التريبة، كأنَّه تعالى دعاهم إلى مقام الرجاء من مقام الخوف، ومن رؤية الوحشة إلى رؤية تربية الربِّ، ومن رؤية العذاب إلى رؤية الرحمة، أي: أنا أستعمل كرمي القديم على كل حال إنَّ تطيعون وإنَّ تعصون على عواقب الأمور، لأنَّ وصفي غالبٌ على كل وصفٍ، وأنا غالبٌ على أمري، ثم أثبت الأكساب القائمة بالمشيئة بقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَآ﴾: إنَّ عدتم إلى عالم القهريات عدنا معكم، فننجيكم منها، فإنَّ سوابق الكرم والرحمة غالبَةٌ على الغضب، كما قال: «سبقت رحمتي غضبي»^(١)، وإنَّ عدتم إلى عالم اللطف عدنا معكم إلى عالم اللطف، فأريكم جلالي في لباس لطفي، وإنَّ عدتم إلى المعصية عدتم إلى معادلکم التي خليقتها الجهل والعصيان عدنا إلى ما كنَّا في الأزل من اللطف والكرم؛ لأنَّ اللطف والكرم من نهارير القدم، وإنَّ عدتم إلى الهجران عدنا إلى الوصال، وإنَّ عدتم إلى المجاهدة عدنا إلى كشف المشاهدة، وإنَّ عدتم إلى النكرة عدنا إلى المعرفة.

قال ابن عطاء: يتعطفُ عليكم، فيخرجكم من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات، فَمَنْ طلب الرحمة من غير الله فهو في طلبه مخطئ.

وقال سهل: إنَّ عدتم إلى المعصية عدنا إلى المغفرة، وإنَّ عدتم إلى الإعراض عنا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإنَّ عدتم إلى الفرار منا عدنا إلى أخذ الطرق عليكم، لترجعوا إلينا. وقال الورَّاق: إنَّ عدتم إلى الطاعة عدنا إلى التيسير والقبول. قال الأستاذ: إنَّ استقمتم في التوبة عدنا في إدامة الفضل والمثوبة.

وقيل: إن عدتم إلى الخطأ عدنا إلى الوفاء، ثم بيّن سبحانه أن الفراق يعرف العارفين أصوب الطرق وأقومها في مسالكهم إلى الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أن القرآن يعرف أهله بنوره أصوب الطريق إلى الله، وتلك الطريقة طريق طاعته التي في سلوكها لسالكها مقام كشف وصاله وظهور جماله، وأنه يهدي للطريقة الصائبة في نفسه من حقائقه بأن يرشدهم بظاھرہ إلى معاني باطنه، ومن معاني باطنه إلى نور حقيقته، ومن نور حقيقته إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى الذات، فالقرآن أسماء ونعوت وأوصاف وصفات، يعرف للعارف المصادق عيون الذات والصفات والأسماء والنعوت والأوصاف وهي أقوم الطريقة؛ لأنّ العوام يسلكون إليه بأوصافهم، وأهل القرآن يسلكون إليه بصفاته.

إِذَا نَحْنُ أَدْجَلْنَا وَأَنْتَ أَمَامَنَا كَفَى لِمَطَايَا بَرِّيكَ هَادِيَا
ويبشر أهله من الذين يتبعونه بمراد الحق أن لهم أجر المشاهدة وكشفها بلا حجاب أبداً.

قال ابن عطاء: القرآن دليل، ولا يدا ل إلا على الحق، فمن اتبعه قاده إلى الحق، ومن أعرض عنه قاده الجهل إلى الهلاك.

وقال أبو عثمان في كتابه إلى محمد بن الفضل: من تمسك بالقرآن وفّق للزوم الاستقامة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۖ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوًى آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَنَهُ تَفْصِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾: من لم يبلغ أعالي درجات القوم لم يعرف مقامات الدعاء، ومن لم يعرف مقام الدعاء ففي كل وقت يستعمل سوء الأدب؛ لأنّه في رسوم الصورة يسأل شيئاً بجهله، وهو سبب خطره قرب مراد لا ينجح له المقصود؛ لأنّه عجول لا يصبر حتى يبلغ، ويعرف ما يليق بحاله فيسأل.

قال سهل: أسلم الدعوات الذكر وترك الاختيار في السؤال والدعاء؛ لأنّ في الذكر الكفاية، وربما يدعو الإنسان، ويسأل ما فيه هلاكه، وهو لا يشعر.

ألا ترى الله يقول: ﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ والذاكر على الدوام التارك للاختيار في الدعاء والسؤال، مبذول له أفضل الرغائب، وساقط عنه آيات السؤال

والاختيار.

قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي السائلين»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: الليل والنهار هاهنا مقام المجاهدة والمجاهدة، فالمجاهدة ليل العارفين، والمجاهدة نهار الصديقين، ففي مقام المشاهدة كشف شمس الذات آية نهار المشاهدة، وكشف قمر الصفات آية ليل المجاهدة، فأهل المشاهدة في رؤية شمس الذات، وأهل المجاهدة من الصادقين في رؤية أثمار الصفات؛ لأنهم في ضعف الأحوال من حمل وارد العظمة، ولولا غيبة أنوار الذات عنهم هلكوا في أول سطوتها، ولو كان إتيان أحدهما كالآخر هلك العارفون لبقائهم في مشاهدة الذات صرفاً على السردية، ولم يصلوا إلى معادن الصفات.

كما قال سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وفضل الحق هاهنا معرفة الصفات، والعيش في مشاهدة الذات، والوقوف على مقامات الدنو، وأوقات الحالات، بقوله سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ أي: لتعلموا في محاق أثمار الكواشف، وزيادة كمائها بفيض نور الأولوية والأخروية أعداد زمان الوصال والفراق، وحساب المقامات والحالات، وتقووا في دور أدهار الأزال والآباد، وتعرفوا منازل سيارات الأرواح وحركاتها في أبراج أفلاك الوجدانية والفردانية بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾، وهاهنا منازل انقطعت الأوهام في مداركها، وذهب الحسبان عند شوارق أنوارها، وانصرفت العقول عن تقلب أسرارها، وفنيت القلوب في حقائق أنوارها، كان لسان القدر ينطق بنطق الأبد على لسان عندليب سكران موردرات ورد العشق شطاح فارس روزبهان البقلي، هذه الأسرار المباركة الممتعة عرائسها بحجب الغيرة عن غيره أو غير مثله.

واستشهد ببيت النوري في هذا المعنى:

لَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وَدَاكِ مَنْزِلًا يَتَحِيرُ الْأَلْبَابُ عِنْدَ نَزْوِلِهِ

قال بعضهم: جعلنا الليل والنهار ظرفين لإقامة العبودية، جعل أحدهم خلفاً عن الآخر وخليفة عنه، فمن أنفق أوقاته في أناء ليله بها هو مستعبد به فهو زمرة الموقفين، ومن أمهل ساعاته ولم يطالب نفسه، ولم يراع أوقاته مع كل خاطر أو نفس فإنه من المخذولين.

قال الله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في تصحيح العبودية وإخلاص العمل والمعونة

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١/١٠٩).

على ذلك من الله ﷻ.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن سوابق أحوال الواردين إلى مناهل العبودية والربوبية بقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، اختار بعضاً في الأزل بالإرادات، واختار بعضاً بالمعاملات، وبعضاً بالحالات، وبعضاً بالمشاهدات، وبعضاً بالمكاشفات، وبعضاً بالمعرفة، وبعضاً بالمحبة، وبعضاً بالشوق، وبعضاً بالرغائب، وبعضاً بالعزائم، وفي كل مقام طائر أحد من السالكين وسمته ألزمته نعت الربوبية على عتق العبودية، يخرج من مربع عهد الأزل بهذه السمات، ويخرج إلى معاهد الأبد لا يتغير بتلون الملون، ولا بظهور الآيات والبرهان، ولا بطوارق الطاعات والعصيان.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ ﴿١﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿٢﴾ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿٣﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنْدَرَجْنَا فِيهَا تَدْمِيمًا﴾ ﴿٤﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٥﴾.

قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾، فما بدت للأرواح من معالم الرد والقبول بيد، ولصاحبه غذا في الحضرة، فيرى أوله موافقاً للآخر والآخر للأول لا ينقص السوابق من الأواخر، ولا ترتد الأواخر على السوابق.

قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ هذا مقام السر والغيرة على أحبائه؛ حتى لا يطلع عليهم الأغيار من الملائكة والجن والإنس، بل هو من مقامات النجوى وسرائر الخفى، وحقايق البلوى، وعجائبات الشكوى.

قال النصر آبادي: ألزمت نفسك أحوالاً، وألزمت أحوالاً، وما ألزمته أشد مما ألزمت نفسك.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ من سعادة وشقاوة، ومنهم من ألزم الصبر على مقام المشاهدة، ومنهم من ألزم التمسك بالأدب على بساط القرب، وهذا أشد وأشد.

قال بعضهم: كتاباً تكتبه على نفسك في أيامك وساعاتك، وكتاب يكتب عليك في الأزل، ولا يخالف هذا ذاك ولا ذاك هذا.

قال بعضهم: الكتاب الذي يخرج إليك هو كتاب لسانك قلمه، وريقك مداده وأعضاؤك ومفاصلك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظك ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت من ذلك شيئاً يكون الشاهد فيه منك عليك، قال الله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: اقرأ كتابك؛ فإنك كنت المملي له.

وقال بعض السلف: محاسبة الأبرار في الدنيا، ومحاسبة الفُجَّار في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾: إذا أراد الله سبحانه خراب الدنيا يأخذ أوليائه منها، ويُبقي أعداءه فيها، فإذا ذهب منها الصديقون الذي يندفع العذاب بدعائهم وتدفع البلايا ببركاتهم يسقط عليهم بعد ذلك قوله الحق بالغضب وهلاكهم، وأيضاً إذا أراد الله أن يخرب قلب المريد سلط عليه عساكر هوى نفسه، وجنود شياطينه؛ حتى يدوروا في أرض القلب، ويخربوها بسنابك خيول الشهوات، وآفات الطبعيات والخطرات، نعوذ بالله منها.

قال بعضهم: أهلكنا خيارها، وأبقينا شرارها.

وقال أبو عثمان: إذا أخرج الله أمر المعاصي من القلوب فإنه يخاف على الخلق إذ ذاك الهلاك^(١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنَا لِهَؤُلَاءِ وَهُنَا لِهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ

(١) المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها؛ ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلبيها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعاً، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدبرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخص المترفين: أي المتعتمين؛ لأن الفقراء تبع لهم، والناس على دين ملوكهم، والسلم يتغير من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولاتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضاً؛ فهم أسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداينة، أو السكوت عن الحق، وفيه إشارة إلى قرية القلب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلحت؛ صلح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾: من مال إلى الدنيا أراد حظ الأدنى؛ كأنه استعجل لطلب العاجلة عن الآجلة من خسة طبعه ودناءة همته؛ وذلك من قلة معرفته بزوالها وبلائها والعذاب والحساب من أجلها، فعجل الله بعض مراده له في الدنيا لحرمانه عن الآخرة والدرجات العلى، ولم يكن مظفرًا بمراده أيضًا من مأموله؛ لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

قال الواسطي: في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة التأييد زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الحق سقوط صفات العبد.

ثم وصف مريد الآخرة بعد تركه للدنيا ولذاتها بأن سعيه مشكور وعمله مبرور بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾، فجعل هاهنا شرطين في إرادة الآخرة: شرط السعي، وشرط الإيثار أي: ينبغي له أن يكون سعيه على نعت مشاهدة الآخرة، ورؤية الغيب واليقين الصادق؛ حتى يكون سعيه مقرونًا برؤية ما وعد الله له من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة؛ حتى يكون عمله وسعيه على وصف حظ القلب والروح.

وأيضًا معنى قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله وبصفاته، عالم بعمله لله، لا يعمل إلا بالعلم، ولا يسعى إلا بالشوق إلى الله وإلى جواره والبقاء في المشاهدة، والسعي المشكور أن ينكشف لصاحبه مشاهدة الحق في سعيه نقدًا في الدنيا، فإنَّ تأثير القبول ظهور أوائل الكرامات، وبروز لطائف أنوار المشاهدات.

قال القاسم: شرط الإرادة بحسن السعاية؛ لأنَّ لكل طائفة إرادة الآخرة وسعيها، وهو الذي يسعى على الاستقامة وما توجه عليه الشريعة، وشرط السعي بالاستقامة، وشرط الاستقامة بالإيمان؛ لأنَّ كل من أراد الآخرة وقصد قصدها فليستقم عليها، رُبَّ قاصِدٍ مستقيمٍ في الظاهر خلعة الإيمان عارية عنده، وكم من ساعٍ حسن السعي غير مقبولٍ فيه سعيه.

وقال بعضهم: السعي في الدنيا بالأبدان، والسعي إلى الآخرة بالقلوب، والسعي إلى الله بالهمم.

وقال أبو حفص: السعي المشكور ما لم يكن مشوبًا برياء ولا سمعة ولا رؤية نفسٍ ولا طلب ثوابٍ، بل يكون خالصًا لوجهه لا يشاركه في ذلك شيءٌ سواه، فذلك السعي المشكور،

ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ سَاعِي الدُّنْيَا وَسَاعِي الْآخِرَةِ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى جِزَاءٍ سَعِيهِ بِقَدْرِ هِمَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلًّا نُّعِدُّ هُنُوًا وَهَنُوءًا وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: وصف عدنه سبحانه وتعالى ألا يخيب رجاء كل مؤمن؛ لأن عطاءه غير ممنوع، فجازى الكل بقدر المهم. فِعْطاء الدنيا حظ النفوس، وعطاء الآخرة حظ القلوب.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد -عليهم السلام-: عطايا الدنيا غفلة من الله، وعطايا الآخرة القرية من الله.

ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ تَفَاضُلَ الْفَرِيقَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: فَضَّلَ الْعَابِدِينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَاتِ، وَفَضَّلَ الْعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَارِفِ وَالْمَشَاهِدَاتِ، فَالْعِبَادُ فِي الْآخِرَةِ فِي دَرَجَاتِ الْجَنَانِ مُتَفَاوِتُونَ، وَالْعَارِفُونَ فِي دَرَجَاتِ وَصَالِ الرَّحْمَنِ مُتَفَاوِتُونَ.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(١) تَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا^(٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْفَرَنَّ مِنْكَ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا^(٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^(٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا^(٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا تُبْدِرْ تَبْدِيرًا^(٦) إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا^(٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا^(٨)﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: صفو الوصال التفات بلا عتاب حصول المراد بلا حساب.

قال ابن عطاء: من تولاه الله بضرب من العناية وتوالت أعماله كلها لله فله فضل الولاية على من دونه.

قال الله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: فالفضيلة تقع فيما بين الخلق والخلق، لا تكبر عنده الطاعات، ولا تغضبه المخالفات.

قال الواسطي: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالمعرفة والإخلاص والتوكل.

وقال في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾: بدرجات السوابق يصل العبد إلى

الدرجات العلى، وأعظم درجة في الآخرة التخطي إلى بساط القرب ومشاهدة أعلى وأجل.
 قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: وجب في الأزل
 للرؤية القديمة العبودية على نعت تجريدها عن رؤية غير الله؛ لأنه كان تعالى في الأزل
 موصوفاً بالرؤية والأحدية، وحق العبودية لغيره مستحيل بالحقيقة؛ لأن عبودية الحدث
 للحدث على نعت المجاز، ولا تقع العبودية الخالصة إلا للأزلي الأبدي، والعبودية لإفراد القدم
 عن الحدوث بنعت الإذعان لتصرفه والخضوع بنعت الفناء لعزته، وحديث الوالدين
 بالإحسان؛ لأنها فعله الخاص، وحرمة فعله في إيجاد خلقه من حرمة صفته، وحرمة صفته
 كحرمة ذاته، والإحسان للوالدين احترامهما وإجلالهما باحترام الله وإجلاله، وأشياخ الطريقة
 وآباء أهل الإرادة والإحسان لهم متابعة أمرهم لمحبة الله.

قال بعضهم: العبودية قطع الأرباب وخلع الأسباب، والرجوع إلى الحق بالحقيقة.
 قال أبو عثمان المغربي: من تحقق في العبودية ظهر سره لمشاهدة الغيوب، وأجابته القدرة
 إلى كل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: بيا في نفوسكم من
 إجلال الله وتعظيم كبريائه، وشهود النعمة على بساط قربه، ورؤية العقل مشاهداً أنوار آياته،
 ومشاهدة الروح ضياء صبح صفاته، وسكون السر بنعت الأنس إلى عظيم سبحات ذاته،
 ونية بذل الوجود لرضاه والصبر والتمكين في قضائه أن يكونوا صالحين مصلحين للخطرات
 النفسانية بالأنفاس الروحانية، وتقديس الخليفة بقدس المعرفة، والفرار منه إليه بنعت الفناء
 فيه، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾: راجعين منه إليه بنعت الخجل بين يديه
 وطلب مزيد القربة منه؛ فإنه غفور لمن أتى إليه بنعت التضرع والبكاء والخشوع والتواضع في
 جلال قدره وعظيم كبريائه.

وفيه نكتة: أن سبحانه ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح ولا الأسرار ولا العقول،
 أي: هو أعلم بما في نفوسكم من شرها وسجيتها المائلة إلى الاستكبار والإنكار، والفرار من
 الطاعة، وهواها إلى المعصية، لذلك قال: إن تكونوا صالحين مائلين عن متابعتها راجعين منها
 إلى الله.

﴿غَفُورًا﴾ أي: غفوراً لمن أتى إليه بتلك الصفة بنعت الندم على ما سلف من الذنوب
 طلباً لمشاهدة الغيوب.

قال ابن عطاء: فيها إيمان لها أو ليس فيها إيمان، إيمان جحود أو إيمان قبول، إيمان تقليد
 أو إيمان حقيقة ومشاهدة.

قال سهل: أي الذنوب من رجع إليه من عبده غافراً ولهم راحاً.

قال أبو عثمان: الأوب الدعاء.

قال بعضهم: الأواب المتبرئ من حوله وقوته، المعتمد على الله في كل نازلة.

ثم ذكر سبحانه بعد بر الوالدين بر أقرباء المعرفة بالحقيقة بعد ما في الآية من رسوم الظواهر، ومساكين المريدين، وأبناء السبيل بقوله: ﴿وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، حقوق هؤلاء تربيتهم في الطريقة بذكر الحقائق من المعاملات والأحوال والمعارف والكواشف والعلوم الغيبية لهم، فذو القربى إخوان المعرفة الذين وصلوا معالي المقامات، والمسكين المريد الصادق الذي سكنه لطف الله عن طلب غير الله، وابن السبيل المحب الصادق، فحق العارف نشر الأسرار، وحق المسكين ذكر الأنوار، وحق المحب ذكر شمائل المحبوب، زيادة لتمكين العارفين، وشوق المحبين، ورغبة المريدين.

وأيضاً: ذو القربى الروح، والمسكين العقل، وابن السبيل القلب، فحق الروح السماع الطيب، والجمال الحسن والطيب والريحان، وحق العقل الفكر والتفكر، وحق القلب الذكر والتذكر.

وأيضاً: حق الروح الفراغة، وحق العقل الطاعة، وحق القلب الاستئناس بالخلوة لطلب المشاهدة، والروح ذو القربى؛ لأنه كان في بدء الأول في القرية والمشاهدة قبل خلق الخلق، والمسكين العقل؛ لأنه فقير من إدراك حقيقة الوجدانية، والقلب ابن السبيل؛ لأنه ينقلب في سبيل الصفات لطلب عرفان الذات.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۚ إِن رَّبُّكَ يُبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلِيَاءَكُمْ حَشِيَّةً ۖ إِلَيْنِ رَحْنُ نَّرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْبًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا أَلزْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۚ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، الإشارة في الحقيقة أنه تعالى أدب حبيبه في القبض والبسط والمنع والعطاء، أن القبض والبسط أن يكونا على وفاق الأمر في الخاطرة لا على صورة الرسوم من حيث الظاهر، فربما يقبض من رسم وهو غير مأمور به، وربما يبسط وهو غير مأمور به، فالعارف الصادق خازن الله في أرضه، يقبض ويبسط لأمره فيه، إشارة أن العارف الصادق أحق ما حضر من غيره إذا كان محتاجاً

كانه في سفر الأزل والأبد، ولو أعطي مركبه للث بلجة عن سير ألف عام، وغيره ليس يساويه في مقام العبودية والمجاهدة، فهو أولى، وهذا كلام ليس من قبيل السخاء والبخل، وليس من سجية الأنبياء والصدّيقين؛ فإن مذهبهم الإيثار والبذل، وما أشرنا إليه حقيقة حكمة المعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه كيف أدب حبيبه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ نفسك بالندم محسورًا منقطعًا عن السير في عالمك. وفيه إشارة أخرى، أي: لا تجعل يدك مغلولّة إلى عنقك ألا تنشر عند السالكين فضائل المعرفة وحقائق القرية، ولا تبسطها بأن تذكر شيئًا لا يحتملون فيهلكون. قال أبو سعيد القرشي: أراد الله ﷻ من نبيه ﷺ بهذه الأمة ألا يكون قائمًا بشرف البسط والسخاء، ولا قائمًا بنقص المنع والإمساك، وأن يكون قائمًا به في جميع الأحوال. قال بعضهم: لا تبخل بما ليس لك، ولا تمن بالعطاء، فإنّ الملك لنا على الحقيقة، وأنت القاسم تقسم فيهم حقوقهم، قال النبي ﷺ: «الله يعطي وأنا قاسم»^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَرَمٌ مَسْئُولًا﴾ (١٠) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (١١) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (١٢) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (١٣) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّفُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (١٤) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (١٥) أَفَأَصْفَكَ رُءُوسًا بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكَ لَنَقُولُ قَوْلًا عَظِيمًا (١٦) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (١٧) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَوْفُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (١٨) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (١٩) تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٢٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَرَمٌ مَسْئُولًا﴾: العهد عهد الأزل وقع بين كينونة الأرواح في عالم الأفراح، قبل كون الأشباح بينهما، وبين الحق العهد صدر من الحق

معها بالألا يشتغل بغير الله أبداً.

قال: أوفوا بمعاهد الأول؛ فإن ذلك مستوّل عند كل نفس، ومطالب عند كل حركة، فعهد المحب المحبة، وعهد العارف المعرفة، وعهد الموحد التوحيد، وعهد المريد الإرادة، ولكل عهد رعاية، فعهد المريد بذل الوجود، وعهد المحب الصبر في المفقود، وعهد العارف تبرؤ الهمة عن الدارين، وعهد الموحد إفراغ القدم عن الحدوث والفناء في بقاء الحق.

قال حمدون القصّار: مَنْ ضيع عهود الله عنده فهو لأدّاب شريعته أضيع؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

وقال يحيى بن معاذ: لربك عليك عهدٌ ظاهرًا وباطنًا، فعهدٌ على الأسرار ألا يشاهد سواه، وعهدٌ على الروح ألا يفارق مقام القربة، وعهدٌ على القلب ألا يفارق الخوف، وعهدٌ على النفس في أداء الفرائض، وعهدٌ على الجوارح في ملازمة الأدب، وترك ركوب المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد العهد الوفاء في صدق الأعمال والأقوال بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلِمَةٌ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الإشارة فيه إلى أشباح المعرفة ألا ينقصوا ما عندهم من ذخائر العلوم على المريدين بما يوافق حالهم، وألا يملؤا من نصيحتهم وتأديبهم، ثم يحذر أوساطهم أن يزونا دعواهم بالقسطاس المستقيم من المعاملات؛ حتى لا تكون دعواهم خالية عن الأعمال والكيل الوافي، الإخلاص والقسطاس المستقيم الصدق من كان في وزن الأعمال وكيل الأحوال مخلصًا صادقًا يعطيه الله لطائف كرمه وجوده ما لا يحصى عددها، ويصف له جميع الخلائق؛ لأنه منصف ينصف مع الله.

قال بعضهم: أوف الكيل؛ فإن وزنك موزونٌ وكيلك مكيلٌ، إن وفيت وُقي لك، وإن نقصت نقصت عنك^(١).

ثم أدّب نبيه ﷺ بالألا يحكم بها لم ينكشف له بالحقيقة بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ العارف معاتب مأخوذ من حيث الظاهر والباطن، فالظاهر المعاملات، والباطن الحالات، مُطالب بالصدق فيها، لم

(١) قال ابن عجيبة: أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر ينظر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يخرج به، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيره، وإن كان فيه ضررٌ باذَر إلى محوه من قلبه، قبل أن يصير همًا أو عزمًا، فيعسر رده. البحر المديد (٤/٣٤٩).

يذكر اللسان مع الخواص الأخرى ظاهراً، ولكن في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تخبر من شيء، لا تعلم بقلبك، ولا ترى بعينيك، ولا تسمع بأذنك، فإنهن مسئولات جميعاً، اللسان مسئول بالدعوى، والعين مسئولة بالنظر بغير الاعتبار، والسمع مسئولة عما تسمع من غير ما ينفع به، والفؤاد مسئول عما يجري عليه من غير ذكر الله.

قال الواسطي: لا تخبر عنا إلا على طريق الحرمة، ولا تجاوز فيه محل الإذن.

وقال أبو سعيد الخزاز: مَنْ استقرت المعرفة في قلبه فإنه لا يبصر في الدارين سواها، ولا يسمع إلا منه، ولا يشغل إلا به.

وقال الفارسي: قال بعض الحكماء: اطلبوا من العلم حالكم، ومن حالكم يومكم، ومن يومكم ساعتكم، ومن ساعتكم قلوبكم، ومن ذكركم مرادكم، ومن مرادكم بغيتكم، حتى تكونوا من الصديقين، واطلبوا في كل هذه الأشياء خطر انكم، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ أَسْمَعُ وَأَلْبَصِرُ وَالْفؤَادُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

قوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: إن الله سبحانه أوجد الخلق بقدرته القديمة الأزلية، والمشيئة السابقة، والإرادة القائمة بذاته وعلمه وحكمته، فخرج الكون من العدم بما ظهر عليها من صفات القدم، فباشر أنوار قدرته الوجود، فأثرت قدرته ومباشرتها في الأشياء الأرواح الحضريّة، والعقول الربانيّة، والألسنة الجباريّة، والمعرفة الأبدية، ورفع الحجاب من بينها وبين معدن القدرة ومصادر الفعل، فشاهدت الأشياء مصادرها، فاهتزت أرواحها بنعت عشقها إلى معدنها، وبكلمة ألسنتها، وتقّدت خالقها، وتقديس بارئها وتسييح صانعها، وذلك من حياة فائضة شائعة من تواتير الحياة الأزلية، فالكل في حياتها قائمة بتلك الحياة مُسَبِّحة لصانعها بتلك الألسنة، وذلك من استيلاء غواشي أنوار القدرة، وسبحات العظمة عليها؛ فالساوات تسبح له بلسان العظمة، والأرض تسبح له بلسان القدرة، ومن فيهن يسبح له من ذوات الأرواح، والحياة بألسنة الصفات، والأفعال على قدر مراتبهم، وجميع الأشياء تسبح له بالناميات والجمادات بالظاهر من قول أهل الرسوم لا من قول أهل المعرفة، يسبح له بلسان الأوصاف والأسماء والنعوت، والعارفون من بينهم يسبحون له بالألسنة الذاتية؛ لأنهم في شروق شمس الآزال، وأنوار طلوع أقيار الآباد، ولكن لا يعرف تسييح الجميع إلا من تحلّى الحق لسره وروحه وعقله وقلبه وصورته بجميع الذات والصفات، وللأشياء ألسنة روحانية ملكوتية يسبح الحق بها بلغات غيبية، وإشارات أزلية، لا يسمعها إلا أهل شهور الغيب الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق، وتصديق ما ذكرنا في تسييح

الجمادات ما روى أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من حصي يسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد أبي بكر حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد عمر فسبحن حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا»^(١).

والدليل على صدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿يَنْجِبَالُ أَوَّيْ مَعَهُ﴾ [سبا: ١٠] أي: سبّحي معه، ومعروف أن الجبال سبحن بتسبيح داود عليه السلام.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه -عليهما السلام- قال: «مرض رسول الله ﷺ، فأتاه جبريل عليه السلام بطبق فيه رمان وعنب، فأكل النبي ﷺ فسبح، ثم دخل الحسن والحسين فتناولوا منه فسبح العنب والرمان، ثم دخل عليّ فتناول منه فسبح أيضاً، ثم دخل رجل من أصحابه فتناول فلم يسبح، فقال جبريل: إنما يأكل هذا نبي أو وصي أو ولد نبي»^(٢).

وأصدق التصديق قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ من حلمه وغفرانه عرف المخلوقات كلها نفسه بالصفات القديمة الأزلية الأبدية، ولولا حلمه وغفرانه ما كان الكون، ولم يكن له لسان يذكره، ولكن بكرمه ورحمته وهب الكل من سلطانه وبرهانه لساناً يسبح بحمده، وحده شامل على كل ذرة، وثناؤه في لسان كل ذرة، سبحان الغني المحسن وهب عطائه العميم والكريم القديم بغير استحقاق من الكون ولا يبالي.

قال أبو عثمان المغربي: المكونات كلها يسبحن الله باختلاف اللغات، ولكن لا يسمع تسييحها، ولا يفقه عنها ذلك إلا العلماء الربانيون، الذين فتحت أسعاج قلوبهم.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لقلة النظر والفكر في ملكوت الأشياء، وعدم الإصغاء إليهم، وإنما يفقه ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾: لا يعاجلكم بترك التسبيح في طلب، كما لا تكبر وإظهار خواصكم، فإن من خواصكم تفقه تسييحهم وتوحيده كما وحدوه.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر لكم غفلتكم وإهمالكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعُوكَ وَتَسْمِعُ لَهُمْ﴾ [نمل: ١٦] وجعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم أنفورا ﴿١٧﴾ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذا هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تنصتوا إلا رجلاً مسحوراً ﴿١٨﴾ انظر كيف صبروا لك

(١) رواه ابن الجوزي في «العلل» (١/ ٢٠٧).

(٢) لم انف عليه.

الْأَمْثَالِ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٠﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وُرُفْنَا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٢﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ معنى الآية: إذا قرأت القرآن جعلنا بين فهم الكتاب وشرك المذكور في القرآن مع معاني حقائقه، وبين قلوبهم وعقولهم وأرواحهم حجابًا من غيرتنا، حتى لا يرون بأبصار أسرارهم عرائس الصفات، ولا يسمعون بأذان قلوبهم لطائف حكم الخطاب، وإذا كان ﷺ قرأ القرآن صار منورًا بنور الصفات، موشحًا بتجليها، مزينًا بحقائقها من حيث كان شربه من سواقي الصفات، وحظّه من مشاهدات الذات، وإذا بلغ إلى ذلك المقامات في قراءته وتلاوته وحسن صورته غار الحق عليه أن ينظر إلى وجهه أحد غيره، ولو رآه أحد بهذا الوصف طاش عقله وطار روحه من هبة الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وإذا استترت بأستار كلامنا صرت مستورًا عن أعين المبطلين، ومحصنًا عن تناول المغضبين والمنكرين، ورُبَّ صادقٍ قرّ من العدو إلى ستر القرآن، فكان مستورًا من جميع الضرر مثل أنه يقول: بسم الله، فيكون مستورًا عن أعين الخلق، وهذا وصف الأخفياء الأتقياء.

قال بعضهم: مَنْ تَحَصَّنَ بِالْحَصَنِ فهو في أحسن حصن، وَمَنْ تَحَصَّنَ بِكَتَابِهِ فهو في أحسن حصن، والمضيق لوقته مَنْ تَحَصَّنَ بِعِلْمِهِ أو بِنَفْسِهِ أو بِجَنَسِهِ؛ فيكون هلاكه من موضع أمانه.

وكان أبو يزيد إذا قرأ هذه الآية قال لأصحابه: تدرّون ما ذلك الحجاب؟ هو حجاب الغيرة، قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيُرُ مِنَ اللَّهِ»^(١).

وتصديق ما ذكرنا في حقيقة الآيتين قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَرَأَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾: إذا ذكر الحق بصفات الحق نعت الوحدة وإفراد قدمه عن الكون بحيث انفرد الحبيب بفردانية الحبيب، وتوحد بوحدانيته، واتصف بصفته، وشاهد إفراد ذاته، صار وجوده وحدانيًا ربابيًا ألوهيًا جبروتيًا ملكوتيًا، يزول كل ما قورن به من

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ إذا وصل العارفون إلى مشاهدة الحق حين فارقوا من الدنيا وغابوا في جماله وجلاله واستغرقوا في بحار أوليته يناديهم الحق يوم العرض الأكبر: «يا أحبائي وعرفائي وأصفيائي وأوليائي احضروا ساعة مواقف رؤية صائعي وأنعالي في يوم الحشر، وانظروا آثار ربوبيتي في خلقي»^(١)، فيستجيبوا بلسان الثناء والحمد له وعليه بما وجدوا منه من لطائف قربه ولذائذ جماله وجلاله شبه السكاري، ويقولون: بعزتك وجلال مجدك وكبريائك ما رأييناك لمحة، اتركنا من مشاهدتك حتى نراك لحظة، وربما عاشوا في جماله ألف سنة، واستقلوا ذلك لعظيم حلاوة وصله، ولذائذ عيشهم في قوله: لم يعرفوا مرور الزمان، وانقلاب الملوان، لذلك قال سبحانه: ﴿وَتَنْظُرُونَ أَنْ لَبِئْسَ مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الحق ما أطيب ذلك العيش حيث نسوا مرور أعمال الوصال.

ألا ترى إلى قول القائل:

شهورٌ ينقضينَ وما شاعرنا بأنصافٍ هــنَّ ولا سرار

وفيه نكتة أخرى: أن العارفين محبوسون في الدنيا، فإذا دعاهم فيستجيبون داعي الحق بحمده، ويقولون: الحمد لله الذي خلّصنا من حبس الهجران، ومكان الحرمان، وجوار الشيطان، وورطات الطغيان، وعلة الزمان والمكان، ومصاحبة الحداث، كأنهم يجيبون داعي الحق مكان الجواب بلييك بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وفيه إشارة: أن الجمهور في ظنون وحسبان من أمر المشيئة وجريان الأقدار، ووقوع الرضا والسخط، فإذا دعاهم الحق إليه ورأوه بوصف الرضا وزوال الخطر هيجتهم رؤيته إلى الحمد والثناء عليه؛ حيث يقع الأمر بخلاف ظنونهم فيه؛ لأن أمر العاشق عند المعشوق أسهل مما يظن العاشق، وسبب جوابهم بالحمد أيضًا لا بالتنزيه والتقدّيس، أو كل ذكر من وصف صفاته؛ لأن جميع ذلك يتعلق بالمعرفة، وهم كانوا في ذلك مقصرين؛ حيث لم يذكروه بالحقيقة، ولم يعرفوه بالحقيقة، فلم يراوا جميع الحقائق فانية عند كشف مجد جلاله يقولون في جواب مناداة الحق: الحمد لله بما حمد نفسه في الأزل، حيث امتنع بجلاله عن معرفة كل عارفي، وذكر كل ذاكري، وبأنه ليس للحداث إلى معرفته طريق، كان حدهم ذهابهم عن رؤية أعمالهم وحالاتهم ومعارفهم وعلومهم بالله، فشكروه به؛ لأنهم ما نالوا من مواهب السنية بغير علة الحديثية.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تتعلق إرادته ببعثكم، فتبعثون في

أقرب من طرفة عين، حامدين له بحياتكم وعلمكم وقدرتكم وإرادتكم هذا، واصفين له بالكمال بإظهار هذه الكمالات، «وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» أي: في القبور والمضاجع للدولكم عن ذلك الزمان، كما يجيء في قصة أصحاب الكهف، أو في الحياة الأولى، لاستقصاركم إياها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، فيتناول اللفظ القيامة الثلاث، إلا أن الآية السابقة ترجح الصغرى.

قال بعضهم: مَنْ أَسْمَعَهُ الْحَقَّ الدَّعْوَةَ وَفَقَّهَ لِلْجَوَابِ، وَمَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ الدَّعْوَةَ كَيْفَ يَجِيبُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ!

وقال الجنيد في قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» : يقولون: الحمد لله الذي جعلنا من أهل دعوته.

قوله تعالى: «وَلَنُكَرِّرَ أَكْثَرَ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزَكِّمُكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ» علمه سبحانه كان أزلًا قبل وجود المعلومات، خارجًا عن جميع العالات، اختار في علمه بعلمه وإرادته جواهر أرواح المقربين والعارفين من بين البرية بشرف قبول معرفته واستعداد حمل أمانته، وجعلها في أماكن غيب طائفة في مزار قدمه، وأراها منازل العبودية والامتحان من فيض قهره ولطفه، فحبسها بعضًا في مقام المشاهدة، وحبسها بعضًا في مواقف الوصلة، وحبسها بعضًا في منازل الدنو والقرية، وهو كان عالمًا بشوق الشائقين إليه، وداء المحبين لديه، واستئناس المستأنسين به، واستغراق العارفين في بحار عظمتها، وحيرة الموحدين في ميادين أزلته، فیرحم بعضهم برؤية حسن الجمال، حتى بقوا معه بنعت عيش السرمدية، ويعذب بعضهم بأن يفنيهم فيه من تسلط سطوات العظمة عليهم حتى لا يدركوا في محل الفناء فيض البقاء، وذلك من غيرته على نفسه، فرحمته على العارفين كشف ووصال بلا حجاب، وعذابه عليهم غلبة النكرة على قلوبهم، وهذا دأبه مع أهل ولايته أبدًا، وحديث سبق العناية؛ حيث اختار أهل وداده بمعرفته، خلصهم من عذاب فرقته، وإذا أراد طرد الغافلين شغلهم بغيره عن الإقبال عليه ورؤيته ورحمته.

قال القاسم: سبق علمه في الخلق بالرحمة والعذاب، ولا مبدل لما أراد، وقد وسم الخلق بسمة الرحمة والعذاب، ويرجع إلى منتهاه بما قد جرى له في مبتداه.

وقال الأستاذ: سدَّ على كل أحد طريق معرفته بنفسه ليعلق كل قلبه بربه، فجعل العواقب على أربابها مشتبهة، فقال: «وَلَنُكَرِّرَ أَكْثَرَ بِكُمْ» قدَّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: «إِن يَشَأْ يُزَكِّمُكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبُكُمْ»، وفي ذلك ترجيح للأمل أن يقوى تصديق ما ذكرنا في حقيقة الآية وتفضيل مقاماتهم بعضًا على بعض قوله سبحانه:

﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ بَيَّنَّ سبحانه أنه أعلم بما أعطى ملائكته في السماوات من مقام الخوف والعبودية، واختار لهم شرف القربة، وفضَّل بعضهم على بعض في الذكر والتسبيح والعبادة والخوف والخشية، وهو أعلم بما هو أعطى مَنْ في الأرض مِنْ الشريعة والطريقة والحقيقة، وفضَّل بعضهم على بعض في مراسم السلوك، وأعطى الشريعة للعموم، والطريقة للخصوص، والحقيقة لخصوص الخصوص، فلَمَّا تم نظم الولاية رقى الأمر إلى درجات النبوة، فأعطى المرسلين خبر غيب الغيب، وأعطى النبيين خبر الغيب، وكشف جميع مراتب القربة، وأدارهم في ملكوته بالهمم، وسيرهم في ميادين جبروته بالأرواح والأسرار، وفضَّل بعضهم على بعض في الدنو ودنو الدنو، والتجلي والتدلي والكلام والخطاب والمعارف والكواشف، فبعضهم أهل رؤية القدم وخبره، وبعضهم أهل رؤية البقاء وخبره، وبعضهم أهل رؤية الصفات وعلمها، وبعضهم أهل رؤية الذات ومعرفته، فهؤلاء أهل الأول والآخر والظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فأهل القدم أهل الأول، وأهل البقاء أهل الآخر، وأهل الصفات أهل الظاهر، وأهل الذات أهل الباطن، فاصطفى آدم ﷺ بعلم الأسماء والتعوت، ومباشرة الصفة، وتجلي الذات، فصار في محل عين الجمع، لقوله ﷺ: «خلق الله آدم ﷺ على صورته»، واصطفى نوحاً ﷺ بالسلطنة والمعجزة وإجابة الدعوة، واصطفى الخليل ﷺ بالخلَّة والسياع ومقام الالتباس؛ حيث قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وإفراد القدم عن الحدوث بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، واصطفى موسى ﷺ بالخطاب الأصلي وسباع الكلام الأزلي والتجلي، واصطفى عيسى ﷺ بدرجة القدس، وجعله روح القدس من كلمته العلية الأزلية، واصطفى داود ﷺ بالزبور، والذي فيه بناء الذات والصفات، وأعطاه مقام العشق وحسن الصوت الذي من مزامير الصفات وألحان بلابل القدم، واصطفى سليمان ﷺ بالملك والتمكين، واصطفى يوسف ﷺ بكسوة حسن جماله الذي أشرق في وجهه من طلوع صبح الصفة في عالم الفعل، واصطفى محمداً ﷺ بجميع ما أعطاه إياهم، وخصَّه بالمعراج، والدين، والتجلي، والتدلي، والمحبة الكبرى، والمجلس الأعلى، والمقام الأدنى؛ فكان قاب قوسين أو أدنى، فرمى بقوس الأزل ما وهبه الله إلى الجمهور، ورمى من قوس الأبد ما وهبه الله له، فبقي بين القوسين بعد ذهاب الكونين، فصار هدناً بقوس قاب قوسين؛ لأنَّ هناك لا يليق إلا

صاحب الرفيق الأعلى، والمخبر عن مقام الأدنى، المذكور اسمه بعلة محمد سيد الورى ﷺ بعدد ذرات ما بين العرش إلى الثرى.

قال محمد بن الفضل: تفضيل الأنبياء بالخصائص كالخلة والكلام والمعراج وغير ذلك، فضل البعض منهم على بعض، وفضل محمدًا ﷺ على الجميع، ألا تراه يقول: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فُخْرَ»^(١)، كيف أفتخر بهذا وأنا بائنٌ منهم بحالي، وأقف مع الله بحسن الأدب؟ لو كنت مفتخرًا لافتخرت بالحق والقرب والدنو منه، فلمَّا لم أفتخر بمحل الدنو والقرب كيف أفتخر بسادة الأجناس.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» ردَّ الله بهذه الآية رغام التغيير على أنوف المبطلين، الذين يشيرون إلى غيره بالعبودية من الملائكة والأنبياء، مثل عيسى ﷺ وعزير وبعض من مؤمني الجن، وهؤلاء الذين يشير إليهم الظلمة بأنهم معبودون، فإنهم على باب كبرياء الأول يعجزون تحت أنوار عظمتهم، حتى يصيروا في حد الفناء من عظمة الله وجلاله، يطلبون وسيلة قربة من الله تشفعهم عنده؛ لأنهم يخافون من سلطان قهره، ويطمعون في كشف جماله بقوله: «وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ»، وأخص الوسيلة كرمه القديم وإحسانه العقيم، ثم بعد ذلك أقرب الوسيلة إليه من كان معرفته به أكثر، وخوفه منه أوفر، ومقام الوسيلة مقام الشفاعة، وتلك خاصة لمحمد ﷺ وهي المقام المحمود، وكل شفاعة منه تشعب إلى غيره، وهو أقرب الوسائل إلى الله، كان الكل يجعلونه وسيلة إلى الله الأنبياء والملائكة وغيرهم.

وصف الله طلاب هذه الوسيلة بالخوف والرجاء، والخوف صدر من أنوار عظمتهم، والرجاء صدر من أنوار جماله، فالصادق يطير إلى الحق بجناح نور الجمال والجلال، وهما وسيلته منه له إليه يقربانه من الله، فينظر إلى الجلال فيفتنى، وينظر إلى الجمال فيبقى، وبهما نظام العبودية، وعرفان الربوبية.

قال سهل: الرجاء والخوف زمامان على الإنسان، فإذا استويا دامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر.

ألا ترى إلى النبي ﷺ يقول: «لَوْ وُزِنَ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ وَخَوْفُهُ لَاعْتَدَلَ»^(٢).

قال بعضهم: رجاء الرحمة هو طلب الوصول إلى الرحيم، وخوف العذاب هو الاستعاذة من قطعه، فلا عذاب أشدَّ من ذلك، ما سهل رجاء الرحمة في الظاهر الجنة، وفي

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (١٢/ ٢) بنحوه.

الحقيقة حسن المعرفة بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الكرامات للنفوس على مرتبتين: الأولى: لها لطمأنتها في إيمانها بالله، والأخرى: لها لامتناعها عن معصية الله، رؤية آيات العظمة للنفس تخويف، وللعقل تحذير، وللقلب خشية، وللروح ترويح واستئناس، وللسر إجلال وتعظيم، ولسر السر معرفة وتوحيد ويقين، وشاهدة الذات بعد الصفة. قال الحارث المحاسبي: الآيات التي يظهرها الله في عباده رحمة على السابقين، وتنبيه للمقتصدين، وتخويف للعاصين.

سئل أحمد بن حنبل عن هذه الآيات: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؟ قال: موعظة وتحذير، والآيات هي الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك لعلك تتغير بحال أو تعظ في وقت.

﴿وَاسْتَغْفِرْ مَنْ أَسْطَلَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتَكَ وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٦﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ رَحِيمًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا تَخَضَّعُوا لِلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٨﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٩﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِدَةً تَبِيحًا ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧١﴾

﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ إلى آخره تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام؛ لأن الاستعدادات متفاوتة، فمن كان ضعيف الاستعداد استغفره أي: استخفه بصوته يكفيه، وسوسه وهمس بل هاجسه، وله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا﴾ إشارة الحقيقة مع العارف إذا وقع في بحر الديمومية والأزلية، واستغرق في طوفان الأولية، وفني في سطوات الألوهية، تبرأ مما له من الكرامات، والولايات، والفراسات، والمقامات، والحالات، والمكاشفات، والمعارف، ودعاوي الاتحاد والانصاف، ويلتجئ منه إليه، فلما خرج من تلك الأحوال الرفيعة إلى مقاماته الشريفة رجع إلى رؤية الأحوال والمقامات، فبدعي ما كان مدعيًا

من معرفة الإلهوية، وهكذا حال من خرج من عنده الأسد إذا كان في أجمة، لكن تفحص حاله عند الأسد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَجُّضَ إِلَى الْكِبَرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ وإذا رجعنا إلى حال العبودية فإن صدق المعرفة هناك الاستقامة فيها، والتساوي في رؤية النعماء والبلوى.

قال ابن عطاء: ليس بخالص لله من لا يكون في حاله الرجاء مع الله كحال الشدة، ومن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، وهو من العبيد السوء الذي لا يقوم إلا بالأدب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ كَرَامَتِهِ سَابِقَةً عَلَى كُلِّ الْخَلْقِ جَمِيعًا؛ لَأَنَّهُمْ مِنْ صِفَاتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ الْأُولَى؛ أَوْجَدَ الْخَلْقَ بِرَحْمَتِهِ، وَخَلَقَ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ بِكَرَامَتِهِ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي حِيزِ الْكَرَامَةِ الرَّحْمَةِ لِلْعُمُومِ وَالْكَرَامَةِ لِلْخُصُوصِ، خَلَقَ الْكُلَّ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ وَخَلَقَ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ لِنَفْسِهِ؛ لِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِتَفْسِي﴾ [طه: ٤١] جعل آدم عليه السلام خليفة، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن في خدمتهم، والأمر والنهي والخطاب معهم، والكتاب الذي أنزل إليهم، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم وجميع الآيات خلق لهم، والخلق كلهم طفيل لهم.

ألا ترى يقول لحبيبه عليه السلام: «لولاك لما خلقت الكون»^(١).

ومن «بَنَى آدَمَ» بالنطق والتميز، والعقل والمعرفة.

﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يَسَّرْنَا لهم أسباب المعاش، والمعاد بالسير في طلبها فيها، وتحصيلها.

﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ كَرَامَتِهِ﴾ أي: المركبات التي لم ترزق غيرهم من المخلوقات.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: ماعدا الذوات المقدسة من الملائكة الأعلى.

وأما أفضلية بعض الناس كالأنبياء على الملائكة المقربين فليست من جهة كونهم بني آدم، فإنهم من تلك الحيشة لا يتجاوزن مقام العقل؛ بل من جهة السر المودعة فيهم المشار إليه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة بواسطة الجمعية التي فيه أي: مقام الوحدة، وحيث لا يكون هو بهذا

الاعتبار من بني آدم.

كما قيل:

فقال من أنت قلت أنت فلي فيه معنى شاهد بأبوني
بل هو عين المكرم المعروف كما قيل:
رَأَيْتُ رَبِّي بِمَعْنَى رَبِّي فقال من أنت قلت أنت

وقد فني ابن آدم في هذا المقام، وما بقي منه شيء، وإلا فما للتراب ورب الأرباب.
أو: ولقد كرّمنا بني آدم بالتقريب ومعرفة التوحيد، وحملناهم في بر عالم الأجساد،
وبحر عالم الأرواح بتيسيره فيهما لتركيبه منهما، وإرقائه عنهما في طلب الكمال، ورزقناهم من
طيبات العلوم والمعارف، وفضلناهم على الجمل الغفير ممن خلقنا أي: جميع المخلوقات على أن
تكون من البيان، والمبالغة في تعظيمه بوصف المفضل عليهم بالكثرة، وتنكير الوصف
وتقديمه على الموصوف أي: كثير وأي كثير وهو جميع مخلوقاتنا؛ لدلالة من على العموم.

﴿تَفْضِيلًا﴾ تَأْمِينًا.

ولهم كرامة الظاهر، وهي تسوية خلقهم، وظرافة صورتهم، وحسن فطرته، وجمال
وجوههم؛ حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة واستواء القامة، وحسن المشي
والبطش، واستماع الكلام والتكلم باللسان، والرؤية بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم
التي صدرت من حسن اصطناع صفته الذي قال: «فخلقت بيدي»^(١).

فنور وجوههم من معدن نور صفته، فأنوار الصفات نورت آدم ﷺ وذريته، فيكونون
من حيث الصفات والهيئات والحسن والجمال متّصفين متّخلقين بالصفات؛ لذلك قال ﷺ:
«خلق الله آدم على صورته»^(٢) من حيث التخلق لا من حيث التشبه.

ولهم كرامة الباطن، وهي العقل والقلب والروح والنفس والسر، وفي هذه الجنود
خزائن ربوبيته، فالنفس مع جنود قهره، والعقل مع جنود لطفه، والقلب مع جنود تجلي
صفاته، والروح مع جنود تجلي ذاته، والسر مستغرق في علوم أسرار، فالكل مكرمة بكشوف
الصفات من له استعداد رؤية الصفات، ومن له استعداد رؤية الذات فهو في مشاهدة الذات؛
فبكرامته عرّف العقول آياته، وعرّف النفوس عبوديته، وعرّف القلوب صفاته، وعرّف
الأرواح جلال ذاته، وعرّف الأسرار وعلوم أسرار، فأعطى العارفين من سمعه أسماءًا،
ومن بصره أبصارًا، ومن كلامه خطابًا، ومن علمه قلوبًا، ومن سره أسرارًا، ومن أنوار صفاته

(١) رواه البخاري (٦/٢٦٩٥).

(٢) تقدم تخريجه.

أرواحاً، ومن أنوار أفعاله عقولاً، فخلقهم بخلقه، ووصفهم بوصفه، فمن حيث الانصاف متصفون، ومن حيث الاتحاد متحدون، ومن حيث العبودية هم في الربوبية يطرون بأجنحة الأزلية في ظلال حيزوم القدم مع الحق إلى أبد الأبد، فأى كرامة أشرف مما ذكرت يا كريم بن الكريم، يا آدم بن آدم، يا عارف القلب تعرف من أنت فنى الناسوت في اللاهوت، ويبقى اللاهوت للناسوت وخاطب اللاهوت مع اللاهوت، العارفون ينظرون إليك من مجالس سرادق مجد الكبرياء، ويفرحون بك في عالم البقاء، طيب الله وقتك من أين أنت وأين مأواك، من حيث لا يعرفونك الكل، ثم إن الله سبحانه أسقط العلل والأسباب من مواضع تفضيلهم من حيث كرمهم قبله بكرامته ومحبته السابقة لهم، ثم بين عقب كرامته بأنه بعزه وجلاله جعلهم في بر الصفات بمراكب عناياته، وفي بحر اللذات بسفن محبته وكفاياته.

قال: ﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ﴾ أدارهم في براري النعوت والصفات بأنوارها، وأجراهم في بحار الذات بسفن أنوارها، فاستفادوا من براري الصفات معادن المعارف، واستفادوا من بحار الذات أصداف جواهر الكواشف، حملهم في بر العبودية بمراكب المعرفة، وحملهم في بحر الربوبية بمراكب المحبة، وحملهم في بر المجاهدات بمراكب الشريعة، وحملهم في بحر المشاهدات بمراكب الحقيقة، ثم رزق أسرارهم موائد العلوم الغيبية، ورزق أرواحهم فيض الوصلة، ورزق قلوبهم لطائف القرية، ورزق عقولهم حقائق الحكمة، ورزق أشباحهم فيض عناصر فعله عن متابعة عنصر الخليفة بتأثير مياه قدرته، وظلال ليالي رحمته، وأنوار شمس كفايته، وصفاء أقيار كلاءته، فهم على خوان الرحانية وموائد الكرامة.

قال: ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ الْعَلْيَيْنِ﴾ ثم قَرَّبهم منه من البرية، وكساهم حلل المغفرة، وجمعهم في دار الوصلة، وأدار الكون له بالخدمة قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ابتدأهم بالبر قبل الطاعات، بالإجابة قبل الدعاء، وبالعطاء قبل السؤال، كفاهم الكل من حوائجهم؛ ليكونوا لمن له الكل وييده كفاية الكل.

سُئل ذو النون في قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾؟ قال: بحسن الصوت.

وقال الجنيد: بالفهم عن الله.

وقيل: بالخلق، وقيل: بتقويم الخلقة واستواء القامة.

وقال الواسطي: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه؛ لئلا يكونوا في تسخير شيء، ويتفرغوا

إلى عبادة ربهم.

وقال جعفر: بالمعرفة.

وقال بعضهم: معنى البر النفس، ومعنى البحر القلب، فمن حمله في النفس فقد أكرمه بنور التدبير، ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، فمن لم يكن له نور التأييد وكان له نور التدبير يكون هلاكه عن قريب.

وقال الواسطي: البر ما أظهر من النعوت، والبحر ما استتر من الحقائق.

وقال: في مشاهدة أبده قسمت الوقتين الفصل والوصل، وهو البر والبحر.

وقال أبو عثمان: الرزق الطيب هو الحلال.

وقال: فضّلناهم بالمعرفة على جميع الخلائق.

وقال أبو حفص: بأن بصّرناهم عيوب أنفسهم.

وقال الجنيد: بإصابة الفراسة.

قال السباري: فضّلنا العلماء على الجهال بالعلم بالله وأحكامه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِنِّهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ يَمِيزُهُ فَأُولَٰئِكَ يُقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيمَةٍ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ وَإِنْ كَذَّبُوا لَيَفْتِنَنَّكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ حَلِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِنِّهِمْ﴾ إمام كل عارف، مقامه مع الله من حيث الأحوال والخطاب والقربة والوصال والمعارف والكواشف والعلوم والحكم، فيدعو المحبين إلى منازل المحبة، ويدعو المشتاقين إلى منازل الشوق، ويدعو العاشقين إلى منازل العشق، ويدعو العارفين إلى منازل المعرفة، ويدعو الموحدين إلى منازل التوحيد، وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشايخهم، ويدعوهم إلى منازلهم.

قال ابن عطاء: يوصل كل مريد إلى مراده وكل محب إلى محبوبه، وكل مدّع إلى دعواه، وكل متمنٍ إلى ما كان يتمنى، ثم هو سبحانه بيّن أن من لم يعرفه في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيمَةٍ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: من سمع في الدنيا ذكره ولم يره بنعت ظهور الصفات في الآيات لن يراه بوصف كشف الذات، ومن عمي عن معرفة العبودية في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى عن معرفة الربوبية، ومن عمي في الدنيا عن معرفة الأولياء فهو في الآخرة أعمى عن رؤية منازلهم عند

الله، وهناك هم أضلُّ سبيلاً؛ لأن أولياءه في أكتاف غيبه ولا يراهم غيرهم.

قال الجنيد: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى» عن مشاهدة الفضل «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» عن مشاهدة الذات.

وقال أيضاً: «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى» عن مشاهدة برة «فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» عن رؤية وصال قربه.

«يَوْمَ نَدْعُوا» إلى آخره أي: نحضر «كُلَّ» طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم، ويتوجهون إليه من المال، ويعرفونه سواء كان في صورة نبي آمنوا به، كما ذكر في تفسير قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [النساء: ٤١]، أو إمام اقتدوا به، أو دين أو كتاب، أو شئت على أن تكون الباء بمعنى مع أو نسبهم إلى إمامهم، وندعوهم باسمه لكونه هو الغالب عليهم، وعلى أمرهم المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم.

«فَمَنْ أَوَى كَتَبَهُ بِمِيزَانِهِ» أي: من جهة العقل الذي هو أقوى جانبيه، وبعث في صورة السعداء.

«فَأُولَئِكَ يقرءون كِتَابَهُمْ»^(١) دون غيرهم؛ لاستعدادهم للقراءة والفهم؛ لأن الذي أوتى كتابه بشماله أي: من جهة النفس التي هي أضعف جانبيه لا يقدر على قراءة كتابه، وإن كان مقراً بذهاب عقله وفراط حيرته.

«وَلَا يُظْلَمُونَ» أي: لا ينقصون من صور أعمالهم، وكما لا تهم وأخلاقهم شيئاً قليلاً.

«وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى» عن الاهتداء إلى الحق.

«فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ» كذلك.

«وَأَضْلُ سَبِيلًا» مما هنا؛ لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها، وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد إن كان ولم يبق هناك شيء من ذلك.

«وَلِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» إلخ هو من باب التلوينات التي تحدث لأرباب القلوب؛ إذ النقصان الموجب للعذاب يقابل الكمال الموجب للذة، فكلما كان الاستعداد أتم والإدراك أقوى كانت المرتبة في الكمال والسعادة اللذة أقوى، فكذا ما يقابله من النقص والشقاوة أبعد.

(١) أي: قراءة ظاهرة مسرورين ويتفنون بها فيه من الحسنات ولم يذكر الأشقياء وإن كانوا يقرأون كتبهم أيضاً لأنهم إذا قرأوا ما فيها لم فصحوها به خوفاً وحياء وليس لهم شيء من الحسنات يتفنون به.

وأسفل، والألم أشد.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ١٠٠ إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَوَةِ وَضِعْفَ أَلَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصْرًا ١٠١ وَإِنْ كَادُوا لَيَْسْتَفْزُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ١٠٢ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ١٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ﴾ إِنَّ اللَّهَ سبحانه خلق روح نبيه لما خلقها قبل كون الكون، فأدارها في بسط ملك الأزل والأبد، فعلم من رؤية الصفات علوم غيب الغيب، وعرف علم المجهول الذي صدر من لطفيات الأزل وقهريات الأزل، وعلم في علم العلم أن طريق القهر واللطف متتاهما وصول عين الذات، ولم ير الفراق في أصل القدم بينهما، فلما عرف الطريقتين الواضحين من القدم إلى القدم إلى الأبد نعت غير تغاير الصفة، وعلم بعد أن كان في محل الرسالة حقيقة طريق الوصول إلى الحق بهما، ولم ير الكفَّار مستعدين لطريق اللطف، ووصولهم إلى الحق به كاد بسر سره من علمه بعلم المجهول أن يدعوهم بتلك الطريقة إلى الحق؛ لأن المسالك غير معتبرة، إنما الاعتبار بالوصول فلما علم الحق سبحانه أنه يكاد أن يفشي سر سره المكنون في غيب غيبه ناه عن ذلك؛ لئلا ينتهك ستر الربوبية، ولا تضمحل أحكام العبودية بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أن كدت تميل إلى دعوتهم بطريق المجهول إلى الحق، وذلك حركة سر سر نفس النفس التي غواص قاموس بحر القهريات، ولا تحف، وقل: يا عارف، فإن النبي ﷺ كان في علم ما كان مع تلك النفس التي هي لباس قهر الربوبية، ولا يجوز للعارف الصادق أن يكون خاليًا عنها؛ لأنه يسلك إلى الحق بسر القهر وسر اللطف، ومن لم يسلك إليه بهذين الطريقتين لم يكن كاملاً في معرفته، فالعتاب من جهة تحرك سلسلة تلك الأسرار، وهو بجلاله محركها تعريفاً وامتنحاناً، التعريف حق العارف، والمعرفة حق المعروف، يعصمهم الله من هتك تلك الأسرار للأغيار.

قال الحسين: خلق الله الخلق على علم منه بهم، وهو علم العلم، وجعل النبي ﷺ أعظم الخلق خلقاً، وأقربهم زلفى، فجعله الداعي إليه والمبين عنه به يصلون إلى الله ظاهراً وباطناً وعاجلاً وآجلاً، فثبت الملك بالعلم، وثبت العلم بالنبي، وثبت النبي ﷺ به، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ﴾ بنا.

وقال عمرو بن عثمان المكي: قال ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ وهو الشيء بين الشئين، وهو الخروج من ذا إلى ذا، ولم يخرج من ذا، ولم يدخل في ذا، وكان واقفاً بأمر عظيم، وشأن

عجيب، وعلم غريب، وهو نزاهة نفسه، وعظيم علمه بربه، فبلغ هذا الخطاب به من الخوف والوجل من ربه؛ حتى كاد أن يساوي خوف الواقعين للمخالفة، وهذا الفرق بين الخواص والعوام أنهم يخافون في الهمة ما لا يخافه العوام في الواقعة.

وقال ابن عطاء: عاتب الأنبياء بعد مباشرة الزلات، وعاتب نينا ۞ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتباهًا وتحفظًا لشرائط المحبة، فقال: «وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتُ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا».

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿١٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٢١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إذ ادلكت الشمس من قهر الجبارية، فسجد في دلوكها لأنوار عظمة الجبار في تلك الساعة، فأمره بسجوده والقيام بين يديه موافقةً للشمس في سجودها لخالفها عند كشف عظمتها، فإن ذلك الوقت وقت خاصة لكشف العظمة، وهكذا في وقت العصر، فكأنها في وقت دلوكها في الركوع، وفي وقت العصر في السجود إلى وقت غروبها، فإذا غربت وجاءت غسق الليل، ثم هناك غلبة سطوات العظمة، فيسجد له الليل، وتدور النجوم في سجودها إلى وقت الفجر، فإذا طلع الفجر سجد له عمود الصبح الذي لم يكن من الليل والنهار، وفي ذلك الوقت طلوع صبح الجبال والجلال، وهناك يسجدون له الأرواح والأجسام لغلبة روح قدسه وأنسه عليها، وهناك شهود الحق بوصف صفاته.

ألا ترى كيف قال: «وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» الشاهد ذاته، والمشهود صفاته، وهذه الأوقات تدل على الإخبار بحفظ الأوقات على السرمدية، وحضور القلب في مشاهد الغيوب.

قال بعضهم: القيام في بعض الأسحار مشهودة من صاحبه، وشاهدة عليه. وقال الأستاذ: الصلاة بالبدن مؤقتة، والمواصلات بالسر والقلب سرمدية، فإذا فرغ من حفظ أوقات الليل والنهار على حبيبه يديه المكاشفات الصفاتية حفظ أيضًا وقت كشوف جلال ذاته له بقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَحْمُودًا المقصود من تهجد الليل: كشف جمال ذاته للمصلين في جوف الليل، وذلك المقام المحمود.

﴿وَعَسَىٰ﴾ ها هنا مقام الرجاء ينكشف أنوار جلال ذاته لقلوب العارفين العاشقين في أجواف الليل التي هناك تُسَكَّب عبراتهم، وتُصَعَّق زفرائهم، يروونه به لا بتهجدهم، هيجهم إلى مقامات الأنس لكشف القدس، فإذا بعثوا هنالك ينسون أنفسهم ويتضرعون بين يديه فيكون عليه، ويسألون عنه رحمته الكافية الكافة.

قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سبحانه يضحك في وجوه المصلين في جوف الليل»^(١).

قال الأستاذ: المقام المحمود هو المجالسة في حال الشهود.

ويقال: هو الشفاعة لأهل الكبائر.

ثم علمه دعاء الوسيلة منه إليه بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: أدخلني في بحر قدمك بنعت الفناء والتجريد عن غيرك وصدق المحبة؛ لأن هناك مدخل الصدق؛ حيث لا يبقى مني شيء غيرك، وأخرجني بحر الفناء بنعت البقاء حتى أكون باقياً معك في مشاهداتك، فإن هناك مخرج صدق؛ حيث لا يبقى معي غيرك، وألبسني من أنوار سلطان عزتك قميص الاستقامة؛ حتى لا أكون فانيّاً فيك، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

وأيضاً: أدخلني مدخل صدق العبودية، وأخرجني مخرج صدق الربوبية، واجعل لي من لدنك قوة الاتصاف والاتحاد من سلطان كبريائك.

قال سهل: أدخلني في تبليغ الرسالة مدخل صدق ألا يكون لي ميلٌ إلى أحدٍ، ولا أقصر في حدود التبليغ، وشروط وأخرجني من ذلك على السلامة وطلب رضاك منه والموافقة، ﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ زيتني بزينة جبروتك ليكون الغالب على سلطان الحق لا سلطان الهوى.

قال جعفر بن محمد عليها السلام: أدخلني فيها على حدّ الرضا، وأخرجني عنها وأنت غني راضي.

وقال أيضاً: طلب التولية أن يكون هو المتولي، أي: أدخلني ميدان معرفتك، وأخرجني من مشاهدة المعرفة إلى مشاهدة الذات.

وقال الواسطي: قال المعلّى في شرفه يعني: محمداً ﷺ ﴿أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) بنحوه.

وَأَخْرَجَنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﷻ، فأظهر محمد ﷺ من نفسه صدق اللجوء بصدق الفاقة بين يديه، وبصدق اللجوء تزينت الأسرار.

وقال فارس: السلطان هاهنا سلطان على نفسه بجمع هواه، فيلزم جميعها بشاهد الهيبة، فيهلك نفسه بسلطان الوحداية، وينصر على عدوه بحسن نظر الله له في معاونته، وحمله عن رؤية هواه.

وقال سهل: لسانًا ينطلق عنك، ولا ينطلق عن غيرك، فأجاب الله دعوته، وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

وقال جعفر عليه السلام: حقيقة الفاقة صدق استقامة المدخل فاقة العبودية، والمخرج سعة الربوبية.

وقال الأستاذ: إدخال الصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله الله لا لغيره، وإخراج الصدق أن يكون خروجه عن الأشياء بالله الله لا لغيره.

﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حتى لا أخط دخولي ولا خروجي، فلما استقام النبي ﷺ في جميع المعاني أمره الحق أن ينجر الخلق بأن الحق قد ظهر ظهورًا لا شكوك فيه، وارتفع الإبهام والظلام.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الحق هو الحق جلّ وعزّ، والباطل الكون، والحق العلم، والباطل الجهل، والحق المعرفة، والباطل النفس والهوى، والحق ما بدا من نور تجلي الحق وإلهامه، والباطل هواجس النفس ووساوس الشيطان، فإذا بدت أنوار سلطان بداهة المكاشفة تنمحي آثار النفس وإلقاء العدو.

وقال فارس: الحق ما يملك على سبيل الحقيقة، والباطل ما يشق عليك أمرك، ويفرق عليك وقتك.

ويقال: الحق من الخواطر ما دُعي إلى الله، والباطل ما دُعي إلى غير الله، ومن الحق ما جاء.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ﴾ اعلم أن الصلاة على خمسة أقسام: صلاة المواصلة والمناعة في مقام الخفاء، وصلاة الشهود في مقام الروح، وصلاة المناجات في مقام السر، وصلاة الحضور في مقام القلب، وصلاة المطاوعة والانقياد في مقام النفس، فذكورك الشمس هو علامة زوال شمس الوحدة عن الاستواء على وجود العبد بالفناء والمحض، فإنه لا صلاة في حالة الاستواء؛ إذ الصلاة عملٌ يستدعى وجودًا، وفي هذه الحالة لا وجود للعبد حتى يصل كما ذكر في تأويل قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

ألا ترى الشارع ﷺ كيف نهى عن الصلاة وقت الاستواء، فلما عند الزوال إذا حدث ظل وجود العبد سواء عند الاحتجاب بالخلق حالة الفرق قبل الجمع، وعند البقاء حالة الفرق بعد الجمع، فالصلاة واجبة.

﴿إِلَىٰ عَسَىٰ﴾ ليل النفس، ﴿وَقُرْءَانٌ﴾ فجر القلب، فأول الصلاة وألفظها صلاة المواصله والمناغاة، وأفضلها وأشرفها صلاة الشهود للروح المشار إليها بصلاة العصر، كما فسرت الصلاة الوسطى أي: الفضلى في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] بها، وأرجاها وأخفاها صلاة السر بالمناجاة أول وقت الاحتجاب بظهور القلب؛ لسرعة انقضاء وقتها؛ ولهذا استحب التخفيف في صلاة المغرب في القراءة وغيرها؛ لكونها علامة لها، وأزجر الصلاة للشيطان وأوفرها تنوير الباطن الإنسان صلاة الحضور للقلب الموماً إليها بقرآن الفجر، فإنها في وقت تجليات أنوار الصفات، ونزول المكاشفات، ولهذا استحب التكثر في جماعة صلاة الصبح، وأكد استحباب الجماعة فيها خاصة وتطويل القراءة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: محضوراً بحضور ملائكة الليل والنهار، إشارة إلى نزول صفات القلب وأنوارها، وذهاب صفات النفس وزوالها، وأشدها تثبيتاً للنفس وتطويعاً لها صلاة النفس للطمأنينة والثبات؛ ولهذا سن فيها جعل آية لها من صلاة العشاء السكوت بعدها حتى النوم إلا بذكر الله، وحيث أمكن للشيطان سبيل إلى الوسوسة استحب فيها جعل علامة لها الجهر كصلاة النفس والقلب والسر للزجر، ولا مدخل في مقام الروح والخفاء فأمر بالإخفات.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: خصص بعض الليل بالتهجد.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: زيادة على ما فرض خاصة بك؛ لكونه علامة مقام النفس، فيجب تخصيص بزياد الطاعة لزيادة احتياج هذا المقام إلى الصلاة بالنسبة إلى سائر المقامات، فيقتدي بك السالكون من أمتك في تطويع نفوسهم، ويقوي تمكّنك في مقام الاستقامة، كما قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١)

﴿عَسَىٰ أَن يَنْعَمَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: في مقام يجب على الكل حمده، وهو مقام ختم الولاية بظهور المهدي، فإن خاتم النبوة في مقام محمود أي: الوجود الممكن.

﴿كَانَ﴾ فانياً في الأصل لا شيئاً ثابتاً، طراً عليه الفناء ففني، بل الفاني فاني في

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧١).

الأزل، والباقي باقي لم يزل، وإنما احتجبنا بتوهم فاسد باطل فكشف.

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ العقل القرآني الجامع بالتدرج نجوم تفاصيل العقل الفرقاني نجياً، فنجياً على الوجود الحقباني على حسب ظهور الصفات أي: نفصل ما في ذاتك مجملًا مكنونًا تفصيلًا بارزًا ظاهرًا عليك؛ ليكون ﴿شِفَاءً﴾ لأمراض قلوب المستعدين المؤمنين بالغيب من أمتك، كالجهل والشك والنفاق وعمى القلب والغل والحقد والحسد وأمثاله، فنزكيهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾ تفيدهم الكمالات، والفضائل، وتحليهم المعارف.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الناقصين استعدادهم بالذرائل والحجب الظلمانية، الباخسين حظوظهم من الكمالات بالهيئات البدنية والصفات النفسانية.

﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفسهم بصفات كالإنكار والعناد والمكابرة واللجاج والرياء والنفاق، منضمة إلى ما لهم من الشك والجهل والعمى والنعمة.

قوله سبحانه: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) القرآن خطابه مع أحبائه المرضى من سقم محبته، ومن داء شوقه، ومن رجاء عشقه، ومن أثقال معرفته، وعظم توحده، فالقرآن شفاء كل مريض منه، ولكل واحد منهم شفاؤه من حيث داءه، فخطاب الشوق شفاء شوق الشائقين، وخطاب المحبة شفاء محبة المحبين، وخطاب المعرفة شفاء جرح قلوب العارفين، وخطاب التوحيد شفاء آلام جراحة أرواح الموحدين، فيسقيهم مفرح الصفات من تسليم عيون تجلي الذات، فيصححهم من لوعة الفراق بفنون الترياق، وهو رحمة للمؤمنين من حيث الظواهر؛ لأجل المعاملات، ورحمة خاصة للعارفين من حيث الحالات.

قال الأستاذ: القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء، وشفاء من داء الشك للمؤمنين، وشفاء من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواعج الاشتياق للمحبين، وشفاء من داء القنوط للمريدين والقاصدين.

(١) قدّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلقة بالأدعية، ولذا يُقَدِّم بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمن لم يتكلم بكلمته، ولم يعتقد؛ لم يكن التوحيد حاصلًا بالنسبة إليه؛ أي بالفعل كمن عنده غسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

وأنشدوا:

وكتابك حولي لا يفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتمٌ
﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا إِذَا مَسَّهُ الشُّرُكَانَ يُوَسْوِسُ ﴿١﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا﴾ استنشق منه رائحة الاتحاد، فإنه لما أنعم على العارف بأن جعله متصفاً بصفاته استبشر بروح الأنس، ومباشرة نور القدس، ورأى الحق بالحق في نفس فعله، وهو فعله، ادّعى من سكر الحال الأنانية، وأعرض عن مقام العبودية في حال الوجد بغير تكلف البشرية، ورعونات النفس، فإذا رآه الله بتلك الصفة أمسك تلك اللطيفة عنه بالتدريج؛ حتى صيره محجوباً عن تلك الحالة، فيصير آيساً من رجعته إلى مقامه خجلاً عن دعواه.

قال الواسطي: أعرض بالنعمة عن المنعم، والنعمة العظمى الهداية والإيمان والمعرفة والولاية، والعبد لا ينفك من رؤية ذلك من نفسه، وهذا هو الإعراض عن المنعم بأن يستحلي بطاعته، ويتلذذ بها أو يسكن إليها أو يختص بها من النار.

وقال الأستاذ: إذا أزلنا عنه موجبات الخوف، وأرخينا له حبل الإمهال، وهياً له أسباب الرفاهية اعتراه مغالط النسيان، واستهوته دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الفطرة مختلفة على اختلاف المقامات، ففطرة العارفين خلقت لمقامات المعرفة، وفطرة الموحدين فطرت لمقامات التوحيد، وفطرة المحبين فطرت لمقامات المحبة، وفطرة المتوسطين من أهل الإيمان والإيقان فطرت لفطرة المعاملات والشرائع والدين، وفطرة أهل المشاهدة فطرت على شهود الصفات وتجلي الذات، فكلٌّ من هؤلاء يعمل على العبودية لزيادة عرفان الربوبية على شاكلة فطرته، فيبدو منه مزيد قرباته ومداناته ومكاشفاته ومشاهداته، وكل من أسرع شوقه إلى الله وفناء في الله فهو أقرب منه، قال تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: يعمل على ما في سره؛ لأن النبي ﷺ قال: «اعملوا؛ فكلٌ ميسرٌ لما خلق له»^(١).

قال جعفر: كلٌّ يُظهر مكنون ما أودع فيه من الخير والشر.

قال الأستاذ: ما تحب الضمائر يلوح على السرائر، فمن صفا عن الكدورة جوهره لا يفوح منها إلا نشر مناقبه، ومن طبع على الكدورة طيبته فلا يعبق بمن يحوم حوله إلا ريح مسالبه.

يُقال: حب الغبراء لا ينبت غصن العود.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بنعمة ظاهرة ﴿أَعْرَضَ﴾؛ لوقوفه مع النفس والبدن، وكون القوى البدنية متناهية، لا تدبر الأمور الغير المتناهية الممكنة الوقوع من سبب النعمة، وردها عند عدمها وسائر الغير، ولا يرى إلا العاجل وتكبره لاستعلاء نفسه على القلب وظهوره بأنانيته وتفر عنه.

﴿وَتَقَا﴾ أي: بعد عن الحق في جانب النفس، وطوى جنبه معرضاً، وكذا في جانب الشر إذا يش؛ لاحتجابه عن القادر قدرته، ولو نظر بعين البصيرة شاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين، ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم، وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم فشكر وصبر، وعلم أن المنعم قدر فلم يعرض عند النعمة بطراً وشرّاً خائفاً زواها غير غافل عن المنعم، ولم يأس عند النعمة جزعاً وضجراً راجياً كشفها مراعيّاً لجانب الملبى.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي: خليقته وملكته الغالبة عليه من مقامه، فمن كان مقامه النفس، وشاكلته مقتضى طباعها عمل ما ذكرنا من الأعراض واليأس، ومن كان مقامه القلب، وشاكلته السجية الفاضلة عمل بمقتضاها الشكر والصبر.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾: من العاملين، عامل الخير مقتضى سخية القلب، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس فيجازهما بحسب أفعالهما.

﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)
 وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا^(٢) إِلَّا رَحْمَةً
 مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا^(٣) قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ
 يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(٤) وَلَقَدْ
 صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا^(٥) وَقَالُوا لَنْ
 نُؤْمِرَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(٦) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْسَ
 فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا^(٧) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا^(٨) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِرَ
 لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَتَرًا^(٩) فَقُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(١٠) وَمَا

مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٠﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشُّوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ فَهُوَ الْغَنِيُّ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُضِلَّهُ فَلَئِنْ جَدَّ لَهُمْ أَوْلِيَاءُ مِنْ دُونِهِ وَخَشَرُهُمْ يُومَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا نُهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَثًا إِنْآ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ إِنَّ الله سبحانه أبهم علم الروح في ظاهر رسوم العلم، وبينها لأهل المكاشفة من الأنبياء والأولياء، بأنه أراهم الروح بأوصافها في المكاشفة، وذلك سره عندهم، وهم يكتُمونه لقلّة إدراك أفهام الخلق، ولا يعلمون ماهية وجودها وكيفية خلقها قط، لأن الله قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ولا يطلع على ماهيتها إلا صانعها، وكيف يعلم الخلق ماهيتها وهي كانت معدومة، كَوْنُهَا الحق سبحانه بعد أن ظهر صفاته وذاته بنعت التجلي والكشف عيانًا بلا حجاب العدم، فأوجد الروح بقدرته القائمة، وإرادته الأزلية حين شاهد الصفات الذات، وشاهد الذات الصفات، وشاهد كل صفة كل صفة، وشاهد الصفات الفعل، وشاهد الفعل العدم، فباشر الموجود المعدوم، فظهر الروح من تحت مباشرة القدم العدم، موجودة بوجود الذات والصفات، وشهودها بنعت الظهور، كاملة جامعة متخلقة بخلق الحق، متصفة بصفاته، فبلغت إلى محل يحیی بفيض مباشرة فعله جميع الكون، ففي كل موضع يقع عكسه يحیی بحياة تامة كاملة لا موت فيها، ومن خاصتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن وكل صوت طيب، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، وخلق الله آدم على صورتها، فإذا أراد الله خلق آدم أحضر روحه فصور صورته بصورة الروح؛ لذلك قال عليه السلام إشارة وإبهامًا: «خلق الله آدم على صورته»^(١)؛ لذلك قال: على صورته؛ لأن الروح مؤنثة سماعية.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) أي: ليس من عالم الخلق؛ حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدينين الذين لا يتجاوزون إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به والتوصيف، بل من عالم الأمر أي: الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيوالي والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأيّن، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم، وعملكم عنه.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو علم المحسوسات، وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علوم الله تعالى المناسبة لاستعدادهم وإدراكهم كتفجير العيون من الأرض، وجنة النخيل والأعنان وإسقاط الساء عليهم كسفًا والرقى فيها والإتيان بالملائكة، وسائر الممتنعات المتخيلة، وأجيبوا بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: ما أمكن نزول الملائكة مع كونهم نفوسًا مجردة على الهيئة الملكية في الأرض، بل لو نزلت لم ينزلوا إلا متجسدين كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وإلا لم يمكنكم إدراكهم، فبقيتم على إنكاركم، وإذا كانوا مجسدين ما صدقتم كونهم ملائكة، فشأنكم الإنكار على الحالين، بل على أي حال كان كإنكار الخفاش ضوء الشمس.

(١) تعريف له: بأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ كنه لما تعلّق بعالم الخلق؛ واشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: من قال: سبحان من أظهر الأشياء؛ وهو عينها؛ ولذا لم يقل: سبحان من خلق الأشياء؛ وهو عينها، ومن ثمّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلّق بعناصره إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنها تمثّل الكافر أن يكون تريبًا؛ لأن التراب أبعد عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على من كذب وتولى لا على من أعطاه الله خلقه فهدي فافهم جدًّا، ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرثي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فانتضى الأدب الإلهي ألا يتكلّم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتياجهم بالغواشي البشرية أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ بل من الروح الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جدًّا للحضرة العيسوية، فأعرف جدًّا.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بمقتضى العناية الأزلية في الفطرة الأولى بنوره.

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ خاصة دون غيره.

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ بمنع ذلك النور عنه.

﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ﴾ أنصاراً يهدونه.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ويحفظونه من قهره.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾ أي: ناكسي الرؤوس؛ لانجذابهم إلى الجهة

السفلية، أو على وجوداتهم وذاتهم التي كانوا عليها في الدنيا كقوله: كما تعيشون تموتون، أو كما تموتون تبعثون؛ إذ الوجه يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها أي: على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان.

﴿عُمَمًا﴾ عن الهدى كما كانوا في الحياة الأولى.

﴿وَبُكْمًا﴾ عن قول الحق لعدم إدراكهم المعنى المراد بالنطق؛ إذ ليسوا ذوي قلوب

يفهم بها ويفقهه فكيف التعبير عما لم يفهم؟.

﴿وَصُمًّا﴾ عن سماع المعقول؛ لعدم الفهم.

أيضاً: فلا يؤثر فيهم موجب الهداية لا من جهة الفهم من الله تعالى بالإلهام، ولا من

طريق السمع من كلام الناس، ولا من طريق البصر بالاعتبار.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَايَتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء: ٥٦]، بل أبلغ منه ذلك بسبب احتجاجهم عن صفاتنا خصوصاً قدرتنا

على البعث وإنكارهم له أنكروا، وما استدلووا بخلق السماوات والأرض على القدرة.

قال ابن عباس: الروح خلق من خلق الله، صورها على صورة بني آدم، وما نزل من

السماء تلك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهينة الإنسان، وليست بإنسان.

قال مجاهد: الأرواح على صورة بني آدم، لهم أيدٌ وأرجلٌ ورؤوس، يأكلون الطعام

وليسوا بملائكة.

وما ذكرنا فهو أقل من قليل القليل، الذي قال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا﴾.

قال بعضهم: الروح شعاع الحقيقة، تختلف آثارها في الأجساد.
وقال بعضهم: الروح لطيفة تسري من الله ﷻ إلى أماكن معروفة، لا يعبر عنه بأكثر من موجودها بإيجاد غيره.

وقال الواسطي: لما خلق الله أرواح الأكابر ردها بمعرفته بها، فأسقط عنها معرفتها به، وأسدى إليها علمه بها، فأسقط عنها ما علمت منه، فمعرفتتها معرفة الحق بإياها، وعلمها علم الحق بها، فصورها بوجه إياها على محابها.

قيل: الروح لم تخرج من الكون؛ لأنها لو أخرجت من الكون لكان عليها الذل، فقيل: من أي شيء أخرجت؟ من بين جماله وقُدس جلاله بملاحظة الإشارة، وغشائها بجماله ورداها بحسنه، واستأهلها بسلامه، وحيائها بكلامه، فهي معتقة من ذل ﴿كُنْ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وسئل أبو سعيد الخزاز: عن الروح مخلوقة هي؟ قال: نعم، ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حين قالت: بلى، والروح هي التي أوقعت على البدن اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل متعطلاً لا حجة عليه ولا له.

سئل الواسطي عن الأرواح: أين كان مكانها حين أظهرها؟ فقال: إن الأرواح خلقها وقبضها قبل الأجساد، أين كانت صار ما عاين عياناً؛ لأن الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.
﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ١٠٠ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَتَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّثْبُورًا ١٠٢ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٣ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَعَلْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ١٠٠ أخبر سبحانه عن سجية النفس الأمانة الإنسانية أنها خلقت بخيلة حريصة على الدنيا، وجعها ومنعها لعميها عن رؤية الآخرة وبقائها، وعن معرفة الدنيا وفنائها، وهذه النفس إذا قورنت بالروح الصادقة العاشقة، والعقل القدسي، والقلب الملكوتي، والسر الجبروتي تذوب عن خلقها وتزول عن بخلها، وصارت ساكنة عن الحرص، سخية بالبذل، وهذه نفس الأولياء، ونفس الأنبياء خلقت سخية غير حريصة، ونفس العامة

بقيت على حال الفطرة إلا نادراً، فإن الله سبحانه يخلق في الأحانين كافراً سخياً ومؤمناً بخيلاً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ﴾ لوقوفكم مع صفات نفوسكم التي من لوازمها الشح الجلي؛ لكون إدراكها مقصوراً على ما يدرك بالحس من الأمور المادية المحصورة، واحتجابها عن البركات الغير المتناهية والرحمة الواسعة الغير المنقطعة التي لا تدرك إلا عند اكتحال البصيرة بنور الهداية، فتخشى نفادها وانقطاعها.

قال حمدون: أخبر الله عن حقيقة طباع الخلق، فقال: لو ملكتم ما أملكه من فنون الرحمة وخزائن الخير لغلب عليكم سوء طباعكم في الشح والبخل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ﴾ الآيات التسع: ملاحظة عينه، وحسن وجهه، وحل لسانه، وشرح صدره، وهيبته من الله قد علاه، وانبساطه، وغر بدنه، واستجابة الدعوة بقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا عَلَىٰ أَمْوَالِنَا﴾ [يونس: ٨٨]، والشرعة المجموعة.

وأيضاً: فلق البحر، وانقلاب عصاه، ويده البيضاء، ومقام التجلي، وساع كلام الصرف، وغلبة الشوق عليه، والمن والسلوى، وانفجار الحجر بالماء، وإحراق الذهب بالكيماء.

قال جعفر عليه السلام: من الآيات التي خصّه الله بها الاصطناع، وإلقاء المحبة عليه، والكلام والنبات في محل الخطاب، والحفظ في اليم، واليد البيضاء، وعطاء الألواح. وقال ابن عطاء: من الآيات حمل قوة الخطاب في المشاهدة، والمراجعة في طلب الرؤية، وهذه من أعظم الآيات.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ﴾ أي: بحق الربوبية على العبودية أنزلنا القرآن على قلوب الصديقين والمقربين؛ ليعرفهم ذاتنا وصفاتنا الأزلية الأبدية، ويدور أسرارهم في عالم الغيوب لترى أسرارنا، وخزائن ملكتنا، وعجائب قدرتنا في جميع الدرات؛ لأن القرآن مفاتيح الذات والصفات، وخزائن الملك والملكوت، وبحق العبودية نزل القرآن ليعرفهم منازلنا ومقاماتنا من الصدق والإخلاص وجميع المعاملات؛ لتسري على بحارها الأرواح القدسية، والقلوب الروحانية، والعقول الصافية، والأبدان المقدسة، لعرفان مكان الخضوع والفناء في الحق.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لأهله، وحامله بحسن القبول واليقين والمعرفة

والتمكين.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن تقاعد عن أمره، ولم يعرف مكانه.

﴿وَيَا حَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا بعد زوال بشرية النبي ﷺ بالكلية في مقام الفناء، وانتفاء الحدثان عن وجه القدم، وانقشاع ظلمة الإمكان عن سبحات الوجه الواجب الباقي بالفرق الثاني؛ ليكون له محل وجودي، فما كان إنزاله إلا ظهور أحكام التفاصيل من عين الجمع وجدوه مطابقاً لما اعتقدوه، فإن الاعتقاد والحق لا يكون إلا واحداً.

قال جعفر عليه السلام: الحق أنزل على قلوب خواصه من مكنون فوائده، وعجائب بره، ولطائف صنعه، ما نور بهم أسرارهم، وطهر بها قلوبهم، وزين بها جوارحهم، وبالحق نزل عليهم هذه اللطائف.

وقال ابن عطاء: مبشراً لمن أقبل عليك، ونذيراً لمن أعرض عنك.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوبُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أراد به ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أوتوا المعرفة، وأوتوا الأرواح الناطقة بالحق العارفة بالحق، العالمة على الحق، في بدء أمرها قبل الكون، ومن قبل ظهور الشرائع والعبودية، سامعة للحق من الحق بلا واسطة ولا حجاب، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونهم في الأشباح تكون معرجة من محبة الله، متحركة بشوق الله، مستروحة بلذة خطاب الله، عارفة بمراده، خاضعة لأمره، إذا سمعوا كلام الحق استلذوا محبته في قلوبهم، فيهيجهم إلى بذل الوجود والخضوع بين يدي جبروته، فلا حيلة لهم إلا وضع وجوههم على التراب خنوعاً لجبروته، ومعرفةً بعظم ملكوته، ويذكرون الله وينزهونه ويقدمونه عن الأضداد والأنداد، وعن الشرك والشريك في ملك ربوبيته، وذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾.

ثم زاد في وصفهم بالخوف عنه وإجلال جلاله بنعت البكاء والخشية بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوبُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ بكاءهم من شوقه إلى جماله، وحباً للقائه، وتعظيماً لعظمته، ما أطيب هذا البكاء، وما ألد هذا الخشوع، بكاءهم منه عليه، ييكون من فقدان في الوجدان، ومن الوجدان في فقدان، ومن الحضور في الغيبة، ومن الغيبة إلى الحضور، والسرور بالشهود، وحسن الإقبال عليه، وخوف إعراضه عنهم.

وأنشدوا في هذا المعنى:

يا هلال السماء كطرف كليل فإذا ما بدا أضواء طرفيه
كنت أبكي علي منه فلما أن تولى بكيت منه عليه

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُسُوعًا﴾: باللين والانقياد لحكمه لتأثرهم به، وحسن تلقيهم لقبوله.

قال سهل: لا يؤثر عليه سماع القرآن، فإن العبد إذا سمع القرآن خضع سره لسماعه، وأثار قلبه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحه بالتذلل والانقياد.

وقال أبو يعقوب السوسي: البكاء على أنواع، بكاء من الله، وهو أن يبكي شفقة لما جرى عليه من الحق في الأزل من السعادة والشقاوة، وبكاء على الله، وهو أن يبكي حسرة وتحسراً على ما يفوته من الحق ومن حفظه منه، وبكاء لله، وهو البكاء عند ذكره وقربه ووعدته ووعيده، وبكاء بالله، وهو يبكي بلا حظ منه في بكاؤه.

وقال القاسم: البكاء على وجوه، بكاء الجهال على ما جهلوا، وبكاء العلماء على ما قصرُوا، وبكاء الصالحين مخافة القوت، وبكاء الأئمة مخافة السبق، وبكاء الفرسان من أرباب القلوب للهية والخشية وتواتر الأنوار، ولا بكاء للموحدين.

وقال الأستاذ: السماع مؤثر في قلوب قوم، محير لأسرار آخرين، فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصير، وتأثير السماع في أسماع الموحدين بالتحجير، فيبصر العلماء بصحة الاستدلال، ويحير الموحدين في شهود الجلال والجلال.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. إن الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيها أسرار جميع الأسماء والصفات والذات والنعوت والأفعال، فالله اسمه، وهو اسم عين جمع الجمع، والرحمن اسم عين الجمع، فالرحمن مندرج تحت اسم الله؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت الله ذكرت عين الكل، فالقول خبر، والخبر أثر، والأثر ذكر، والذكر فكر، والفكر وقوع نور العقل، ونور العقل مقرون بنور الصفة، ونور الصفة مقرون بنور الذات، فإذا سميت ذكرته، وإذا ذكرته فليت الصورة في فعله بنعت الخشوع، وإذا فليت الصورة ذكره العقل، ففني العقل في الاسم والنعت، وإذا فني العقل ذكره القلب بالصفة

والوصف، وفني القلب في الصفة، وإذا فني القلب ذكره الروح بالذات، ففنيته الروح في القدم، وإذا فنيته الروح ذكره السر بباطن العلم، ففي السر في الغيب، وذكره سر السر في غيب غيبه، فلم يبق في البين رسم ولا اسم ولا وصف من حيث العبودية، وبقي الاسم، والمسمى واحد في واحد.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ بالفناء في الذات الجامعة لجميع الصفات.

﴿أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ بالفناء في الصفة التي هي أم الصفات.

﴿يَا مَاءُ﴾ طلبت من هذين المقامين لست هناك بوجود، ولا لك بقية ولا اسم ولا عين ولا أثر؛ إذ الرحمن لا يصلح اسماً لغير تلك الذات، ولا يمكن ثبوت تلك الصفة أي: الرحمة الرحمانية لغيرها، فلا يلزم وجود البقية بخلاف سائر الأسماء والصفات.

﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ كلها في هذين المقامين لا لك.

﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ في صلاة الشهود بإظهار صفة الصلاة عن نفسك، فيؤذن بالطغيان ظهور الأناثية.

﴿وَلَا تَخَافِهَا﴾ غاية الإخفات، فيؤذن بالانطباع في محل الفناء دون الرجوع إلى مقام البقاء، فلا يمكن لأحد الاقتداء بك.

﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ يدل على الاستقامة ولزوم سيرة العدالة في عالم الكثرة، وملازمة الصراط المستقيم بالحق^(١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فإذا كان العبد في قوله: «الله» هكذا أو في قوله: «الرحمن» هكذا فهو مصدر صفة القدم والبقاء، وهو مصدر القدرة والحياة، فإذا قال: «الله» يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن» يبقى الكل، من حيث الانصاف والاتحاد، فالانصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون.

قال الحسين: ما دعا الله أحد قط إلا إيماناً، فأما دعوة حقيقة فلا.

قال الواسطي: أسأوه لا تدخل تحت الحصر، وذاته ليس بمشار إليه، ولا بموصوف بصفة حقيقية، إلا بصفة المدح والحق، وهو الخارج عن الأوهام والأفهام، فأنتى له النعوت والصفات!

(١) أي: طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا وسط، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسوله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلاً وإجمالاً، فالكافر ببعض الكافر بالكل في الضلال. انظر: البحر

وقال الأستاذ: من عظيم نعمته سبحانه على أوليائه تنزيهم بأساريهم في رياض ذكره بتعداد أسماء الحسنى، فينقلبون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.
ويقال: الأغنياء ترددهم في بسايتهم وتنزههم في منابت رياحيهم، والفقراء تنزههم في مشاهدة تسبيحهم، يسترحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جماله وجلاله.
﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: أظهر الكمالات الإلهية والصفات الرحانية التي لا تكون إلا للذات الأحدية.

﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم تكن علة الوجود من جنسه؛ لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقاً الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ دُءٌ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك؛ وإلا لكانا مشتركين في الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة، فلزم تركيبها فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين.

وأيضاً: فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهاً، وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له.

وإن استقلا جميعاً لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد إن فعلاً معاً وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيِ﴾ أي: لم يكن له ناصر علة كان أو جزء علة تقويه وتنصره من ذلة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهاً واجباً بل ممكناً؛ لتكون حبيباً قائماً به لا بنفسك.

﴿وَكَبِيرٌ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، وصورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائص، فينحصر في وجود خاص، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿تَكْبِيرًا﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لامتناع وجود شيء غيره يفضل عليه وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا تكبر غيره بهذا التكبير.

ثم إن الله سبحانه أمر حبيبه وصفيه ﷺ بأن يحمده؛ لأنه كان أهل المدح والحمد بالحقيقة لا غير، أمره بحمده بأن أخبره عن تنزيه قدمه عن إشارة كل مبتدئ إلى ابتدائه؛ لأن ابتداء منزّه عن كل ابتداء، فإن ابتداء قدمه هو القدم، وقدم القدم منزّه عن حصر الزمن، وقدم قدمه مع تنزيهه عن العدد، وعلة الابتداء لم يكن محلاً للحوادث بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا، بدأ الكل من حواشي حرفة النون وكافه، فكافه ونونه منزه عن أن يكون محلاً لحمل الحدثان، وأخذه من حيث المباشرة بدء حين القدر جاء بأمر القدم، فظهر الكون من نيران الكاف والنون، حيث أظهرها من العدم للقدم، فإذا قطع الخيال والأوهام عن درك الأولية، روح الأسرار بأحدثيته عن كل ضد وند، بأن يزول عزته عن تعالي الأضداد عليه، ففزع أسرار الموحدين عن نقائص الفناء، ودخولها في بقاءه لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ فإذا أفرد نفسه عن النقائص والنكائد وعلل الحوادث فردانية حقيقية منزهة عن أوهام المشيرين إليه بعلل الخيال والوهم والعدد والمدد، أمره بأن يكبره ويعظمه من كل خاطر عمزوج بالتشبيه والتعطيل بقوة ظهور كبريائه في قلبه لا من حيث العلم والصورة بقوله: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَعْجَبُ﴾ تعالي الله، وتعالى كبريائه عن أن يكون في ملكه متكبراً، وفي ساحة جلاله متعظم.

قال ابن عطاء: عظم منته وإحسانه في قلبك بعلمك بتقصيرك في شكره.

وقال بعضهم: اعلم أنك لا تطيق أن تكبره الآية، فاستغث به ليدل قلبك على مواقف التعظيم.

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ لَمَّا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِبَآئِهِمْ كُبْرَتٌ ۚ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفاً بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمداً يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده.

فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وساء عبده، وأي: تكريمة أكرم من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمتة الكون كان مسألة تعليم

لعبادة أي: احمدا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد وجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له.

وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ ظاهر فيه أسرار باطنه.

﴿عَوَجًا﴾ أي: زيقًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا رَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] أي: لم ير الغير في شهوده.

﴿قِيمًا﴾ اجعله قيمًا يعني: مستقيمًا كما أمر بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] والمعنى: جعله موحدًا فانيًا فيه غير محتجب في شهوده بالغير ولا بنفسه، لكونها غير أيضًا ممكنًا مستقيمًا حال البقاء.

كما قال: ﴿إِنَّ الْأَذِيرَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أو جعله قيمًا بأمر العباد وهدايتهم إذ التكميل يترتب على الكمال؛ لأنه ﷻ لما فرغ من تقويم نفسه وتركيتها أقيمت نفوس أمته مقام نفسه، فأمر بتقويمها وتركيتها، ولهذا المعنى سمي إبراهيم - صلوات الله عليه - أمة.

وهذه القيمة أي: القيمة بهداية الناس داخلية في الاستقامة المأمور هو بها في الحقيقة؛ ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ متعلق بعامل قيمًا أي: له قيمًا بأمر العباد؛ لينذر ﴿بِأَسَاسٍ شَدِيدًا﴾ وحذف المفعول الأول للتعميم؛ لأن أحدًا لا يخلو من بأس مؤمن كان أو كافر.

كما قال تعالى: «انذر الصديقين بآني غيور، وبشر المذنبين بآني غفور»^(١)، إذ البأس عبارة عن قهره، ولذلك عظمه بالتنكير أي: بأسًا يليق بعظمته وعزته ووصفه بالشدة، وخصصه بقوله: ﴿مِنْ لَدُنَّهِ﴾ والقهر قسيان: قهر محض ظاهره وباطنه قهر كالمختص بالمحجوبين بالشرك، وقسم ظاهره قهر وباطنه لطف وكذا اللطف.

كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: سبحة من اشتدت نغمته على أعدائه في سعة نعمته،

(١) لم أنف عليه هكذا، وقد ثبت في أحاديث عدة بنحوه.

واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نعمته، ومن القسم الثاني: القهر المخصوص بالموحدين من أهل الفناء أطلق الإنذار لكل تنبيهها ثم فصل اللطف والقهر مقيدتين بحسب الصفات والاستحقاقات.

فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الموحدين لكونهم في مقابلة المشركين الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الباقيات من الخيرات والفضائل؛ لأن الأجر الحسن: هو من جنة الآثار والأفعال التي تستحق بالأعمال.

واعلم أن الإنذار والتبشير اللذين هما من باب التكميل اللازم؛ لكونه قima عليهم كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللطف الإلهيين اللذين محل استعداد قبولهما من نفس العبد الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولها إلا بصفتي: الغضب والشهوة وفنائها، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامتا مقامهما؛ لأن كلا منهما ظل لواحدة من بينك يزول بحصولها، فعند ارتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أُجْرًا حَسَنًا﴾ العمل الصالح: التبري من الوجود بوجود الحق، والأجر الحسن مشاهدة الحق بلا حجاب أبداً.

قال بعضهم: العمل الصالح ما أريد به وجه الله لا غير، والأجر الحسن لا يجب عن لقاء سيده تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ومن لم يجد مقام مشاهدته، ولم يعرف ذاته وصفاته بنعت رؤيته وخطابه، ويشير إليه بكلمة المعرفة فقد عظم ذلك عند الله؛ لأنه افترى على الله كذباً يا ليت لو خلص من عاينه، وأخبر عنه من هذه الورطة؛ لأن من عاينه وأخبر عنه، فقد أخبر عن غيره، وخبره وقع موقع تلك الكلمة التي كبرت، تخرج من أفواههم؛ ألا ترى إلى تمام الآية: كيف شكّا عن الكل فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ولذلك قال الواسطي: من ذكر افترى.

وقال ابن عطاء: أكبر الدعاوى من ادعى في الله، وأشار إلى الله، أو يكلم عن الله أو دخل في ميادين الانبساط، فإن ذلك كله من صفات الكذابين.

قال الله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ولتحقق به لا يظهر شيئاً من أحوال بحال.

وقال الأستاذ: من تكلم بهذا اللسان قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بهذا القول من علم بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للأباء لا عن علم ويقين ويؤيده قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء؛ لأنه مستحيل بالقرآن، استشعر ببقية من نفسه وتوجس بنقصان حالة فعلاه الوجد، وعزم على قهر النفس بالكلية طلباً للغاية، وكان ذلك من فرط شفقتة عليهم، وكمال أدبه مع الله حيث أحال عدم إيمانهم على ضعف حاله على عدم استعدادهم؛ ولذلك سلاه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: لا نخزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً إنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء، ثم نفيناها ولا حيف ولا نقص، أو إنا جعلنا من على أرض البدن من النفس ولذاتها وشهواتها وقوى صفاتها وإدراكاتها ودواعيها ﴿زِينَةً لَهَا﴾؛ ليظهر أيهم أقهر لها وأعصى لهاوها في رضاي، وأقدر على مخالفتها لموافقتي.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَلَوَّهُمْ أَهْلُهَا أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْنَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَذْدًا﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوهُمْ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أخبر سبحانه عن حجة حبيبه نظام طريق محبته وعبودية عبادته له، وشدة حرصه واهتمامه على الخلق، ومن غلبه ذلك غاص في بحر الأولوية، وسابق العناية لطلب فسخ إیرام القدر المقدر لا بنفسه، وذلك من علمه بتنزيه جلاله؛ حتى لو أراد أن يبذل جميع أقداره لقدر، ولو يغفر لجميع الكفار لقدر، ولا نقص على برهانه وسلطانه، فأعلمه الحق أن هذا رسم أسرار الربوبية، ولا تقدر أن تهتك تلك الأسرار؛ لأنه غيور على سره وغيبه.

قال بعضهم: لا تشغل شرك بمخالفتهم فما عليك إلا البلاغ، والهدى منا لمن نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا﴾ إن الله سبحانه جعل في الأرض آيات السفلية من كل ما أظهر فيها من: الأنهار والأشجار والجبال والبحار والمعادن والنبات والرياحين، وألبسها قميص أنوار صفاته، وجعلها مرآة للعارفين؛ لينظروا فيها، ويرون فيها أنوار جلاله وجماله، وأي زينة لها أعظم من نور بهائه وضيائه صنائعه، ويمتحن بذلك

المحتجب بمحل الزينة، والمنفرد برؤية الصفات.

وذلك قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. العمل هاهنا ترك صورة الزينة والمزين والاشتغال بالمزين؛ بأن آثار جماله مبين من كل ذرة فمن نظر إلى ذلك رأى الأشياء بالحقبة. لذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ ارِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» ^(١) وأيضًا: زينة الأرض أولياء الله والخلق ممتحنون بهم؛ حتى من يعرف حقوقهم فحسن العمل النظر إليهم بالحرمة. قال ابن عطاء: أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها.

وقال سهل: أحسن تركًا علينا فيها.

وقال أيضًا: حسن العمل الاستقامة عليها بالسنة.

وقال القاسم: زينة الأرض: الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون والأوتاد.

وقيل: أهل المعرفة بالله والمحبة له المشتاقون إليه هم: زينة الأرض ونجومها وأقمارها وشموسها.

وقال الجنيد: أهل الفهم عن الله هم الذين جعلوا ما على الأرض من زيتها عبء لهم؛ لئلا يتشاغلوا بشيء من الزينة، ولا يعملوا بشيء من الزينة، ويعملون لمن زين هذه الزينة. قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ﴾ أعلى همة وأطرب نفسًا في الإعراض عما لا يبقى بالاشتغال بالباقي.

وقال الواسطي: أيهم أفزع قلبًا وأصفى قصدًا.

يقال: العباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال: زينة الأرض تكون الأولياء، وهم أمان في الأرض.

ويقال: إذا تلالأ أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرق حمى الآفاق بحياتهم.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصدقهم نية، وأخلصهم طوية.

ثم إن الله سبحانه لما أوى أوليائه إلى حضرته القديمة، بقي ما على الأرض من زينة

﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يابسًا وأرضًا فقرًا لا نبات فيها؛ ليتعطل الحدثان، ويبقى الرحمن

بقوله: ﴿وَلَئِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: تغرب شمس أنوار الصفات في مغارب الأفعال، فلا يبقى في مرآة الفعل أثر من نور الصفة؛ لأن نور الصفة رجع إلى معدنه من الذات وظهوره؛ لأجل سلب قلوب الصديقين من الأولياء إلى تلك المعاهد، فإذا بلغوا إلى ماوهم ذهب معهم أنوار الصفات.

(١) ذكره ابن عادل في تفسير اللباب (٧/٣).

قال الواسطي: في هذه الآية الكون في قبضة الحق، وهو هباء في جنب القدرة.

قال الله: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ بتجلينا وتجلي صفاتنا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من صفاتها هامة كارض ملساء

لا نبات فيها أي: نفعيها وصفاتها بالموت الحقيقي وبالموت الطبيعي ولا نباتي.

قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ذكر

سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فإنهم في مراقدة أنسنا، وبساتين قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبنا لمشام العالمين، ييمون في البوادي والقفار أبداً، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزيلهم بحال؛ لذلك خفي

على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وأجأهم إلى

غار الأنس، وآواهم، وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعانياتهم، فتأهوا في

الحضرة والهيئ؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾، بل:

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من

آياتنا، بل هذه أعجب.

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدة المنتهى، وكنت للقرى كقاب قوسين أو

أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومي لا علم لهم بوقت، ولا زمان ولا معرفة

بمحل، ولا مكان، أحياء موتى صرعى مفيقون، نومي متبهيون، لا إليهم سبيل، ولا لهم إلى

غيرهم طريق، ورددت عليهم خلع الهيبة، وأظلمهم بنور التعظيم، وأحدقت بهم حجب

العظمة، واستاروا بنور العرش الكريم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ

لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾.

وقال الأستاذ: مكثوا في الكهف مدة، فأضافهم إلى مستقرهم، فقال أصحاب الكهف:

وللنفوس محال، وللقلوب مقار، وللهمم مجال، وحيثما يعتكف القلب، فهناك يطلب أبدًا صاحبه.

واعلم أن أصحاب الكهف هم السبعة الكمل القاثمون بأمر الحق دائماً الذين يقوم بهم العالم، ولا يخلو عنهم الزمان على عد الكواكب السبعة السيارة وطبقها، فكما سخرها الله تعالى في تدبير نظام علم الصورة، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَالسَّيِّئَاتِ سَبَقًا﴾ ﴿فَالْمُذْبِرَاتِ﴾ [التازعات: ٤، ٥] على بعض التفاسير.

وكل نظام عالم المعنى، وتكميل نظام الصورة إلى سبعة أنفس من السابقين كل يتسبب بحسب الوجود الصوري إلى واحد منهم، والقطب هو المنتسب إلى الشمس، والكهف هو باطن البدن، والرقيم ظاهره الذي انتقص بصور الحواس والأعضاء، إن فسر بالروح الذي رقت فيه أسماؤهم والعالم الجسائي، إن جعل اسم الوادي الذي فيه الجبل والكهف والنفس الحيوانية، إن جعل اسم الكلب والعالم العلوي، إن جعل اسم قريتهم، على اختلاف الأقوال في التفاسير.

ومنها الأنبياء السبعة المشهورون المبعوثون بحسب القرون والأدوار، وإن كان كل نبي منهم على ذكر وهم: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ لأنه السابع المخصوص بمعجزة انشقاق القمر أي: انفلاقه عنه لظهوره في دورة ختم النبوة، وكمل به الدين الإلهي. كما أشار إليه بقوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»^(١) إذ التأخر بالزمان والظهور أي الوجود الحسي هو الحائز لصفات الكل، وكما لا تم كالإنسان بالنسبة إلى سائر الحيوانات.

ولهذا قال: «كان بنيان النبوة قد تم، وبقي منه موضع لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة»^(٢).

وقد اتفق الحكماء المتأخرون من قدماء الفرس أن مراتب العقول والأرواح على مذاهبهم في التنازل تتضاعف إشراقاتها، فكل ما تأخر في الرتبة كان حظه من إشراقات الحق وأنواره، وسبحات أشعة وجهه وإشراقات أنوار الوسائط بكل منها من مبادئها في الأزل. كما قال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»^(٣) حتى انتهت الدرجات في العلو إلى الفناء والتوحيد الذاتي فهذا الاعتبار يكون محمد ﷺ عين آدم، بل عين السبعة وكذا باعتبار كونه

(١) رواه البخاري (١١٦٨/٣)، ومسلم (١٣٠٥/٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٩٠/٤).

(٣) رواه البخاري (١٢٣٨/٣)، ومسلم (١٩٥٨/٤).

جامعاً لصفاتهم.

كما قيل: إنه سئل أبو يزيد - رحمه الله عليه - أنت من السبعة؟ فقال: أنا السبعة.
وباعتبار علو مرتبته ومكانته وسبقه في القدم، وارتفاع درجة كماله وفضيلته كان أقدمهم، وأوهم وأفضلهم. كما قال: «أول ما خلق الله نوري، وكنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(١) فهو متقدم عليهم بالرتبة والعلية والشرف والفضيلة، متأخر عنهم بالزمان، وهو عينهم باعتبار السر، والوحدة الذاتية فالخاص أن اختلافهم وتباينهم روحاً وقلباً ونفساً لا ينافي اتحادهم في الحقيقة، وكذا افتراقهم بالأزمنة لا ينافي معيبتهم في الأزل والأبد وعين الجمع.

كما قال: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [البقرة: ٢٥٣] مع قوله: «لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ» [آل عمران: ٨٤] ويجوز أن يكون المراد بأصحاب الكهف: روحانيات الإنسان التي تبقى بعد خراب البدن.

وقول من قال: ثلاثة إشارة إلى الروح والعقل والقلب، والكلب هي النفس الملازمة لباب الكهف، ومن قال خمسة إشارة إلى: الروح، والقلب، والعقل النظري والعقل العملي، والقوة القدسية للأنبياء التي هي الفكر لغيرهم، ومن قال: سبعة فتلك الخمسة مع السر والخفاء، والله أعلم.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: كهف البدن بالتعلق به ﴿فَقَالُوا﴾ بلسان الحال ﴿ءَاتَيْنَا مِنْ لَّدُنْكَ﴾ أي: من خزائن رحمته التي هي أسماؤك الحسنى ﴿رَحْمَةً﴾ كما لا يناسب استعدادنا ويقتضيه، ﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن فيه من مفارقة العالم العلوي، والهبوط إلى العالم السفلي لاستكمال ﴿رَشَدًا﴾ استقامة إليك في سلوك طريقك والتوجه إلى جنباك أي: طلبوا بالاتصال البدني والتعلق بالآيات الكمال وأسبابه الكمال العلمي والعملية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ وصف الله سبحانه أول زمرة السبعة المختارة من أصحاب الكهف، والثلاثة المختارة من أصحاب الرقيم، وهم فتیان المعرفة الذين خُلِقُوا بسجية الفتوة، وفتوتهم إعراضهم عن غير الله، وعن الكون جميعاً، وإقبالهم على الله بنعت

(١) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص ٦٣)، وشرف المصطفى للخروشي (١/ ٧٠٣)، وكشف الخفاء للعجلوني (١/ ٣١١)، والمواهب اللدنية (١/ ٧١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيح للحلواني (ص ٢٧، ٣٣).

إيوائهم إلى كهوف وصاله، وظلال جماله، وحصون أنسه، وقصور قدسه بذلوا مهجتهم لله بلا نصب لأنفسهم، وطلبوه منه، ودخلوا في مزار قربه، ومساقت أنوار شهوده، فلما استقاموا في منازل الأنس، ومشاهدة القدس ورأوا محبوبهم بنعت الرعاية والكلالة، هيجهم نور البسط، وسر الافتقار إلى سؤال زيادة القربات والمداينات.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ معرفة كاملة وتوحيدًا عزيزًا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ من أمر محبتك ﴿رَشَدًا﴾ صبايتك والوصول إلى وصال قدمك الذي بلا زوال ولا امتحان، فهناك مقيل السعادة الكبرى، ومراقد المشاهدة الكبرى.

قال الأستاذ: آوهم إلى كهف بظاهريهم، وفي الباطن مهد مقيلهم في ظل إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال، وهم مصطلمون عن شواهدهم، فلما عاينوا من الكشف الأكبر، والرضوان الأعظم، استطابوا الوقت، وخافوا الفوت، والتجثوا منه إليه، فالطف عليهم الحق سبحانه، فغيبهم عن الوجود، وأخذهم بنفسه عن وجودهم بقوله: ﴿فَصَرَفْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذكر واحدًا من الإحساس وجميعها مستغرقة في أنوار وطأة هيبة الجلال عليهم، لما سترهم وضرب عليهم سرادق غيبرته، بقي عليهم حس الأذان، فضرب على آذانهم ستر الغيرة؛ حتى لا يحسوا أصوات الأغيار أدخلهم في قباب عصمتهم، وأنسهم بحسن مشاهدته، وغيبهم عنهم فيه وزال عنهم رسوم البشرية، فبقوا مع الحق بالحق ناظرًا إلى الحق بلا فترة.

﴿فَصَرَفْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم نومه الغفلة عن عالمهم وكيالهم نومة ثقيلة لا ينبههم صغير الخفير، ولا دعوى الداعي الخير في كهف البدن ﴿سِنِينَ﴾ ذوات عدد أي: كثيرة أو معدودة أي: قليلة هي مدة انغماسهم في تدبير البدن وانغمارهم في بحر الطبيعة مشغولين بها غافلين عما وراءها من عالمهم إلى أوان بلوغ الأشد الحقيقي، والموت الإرادي والطبيعي، كما قال: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»^(١).

وفيه نكتة لطيفة: لما رأوا الحق بهتوا في أنوار قدمه، وفنوا في سطوت عظمتهم، وذهبوا عن مقام سماع الخطاب لو بقي عليهم سماع الخطاب، لم يستحكموا في مقام الخطاب على حد الرضا مقام الاستلذاذ والأنس والبسط والبقاء، فأفناهم عنها لاستيفاء حظ التوحيد والفناء عنهم.

وأيضًا: صارت أسماع الظاهر إلى سماع بواطنهم، فسمعوا بأسماع القلوب والأرواح

والأسرار، وما سمعوا من الحق شغل أسباع خواطرهم عن أسباع الأصوات المختلفة.

قيل: أخذنا عنهم أسماعهم؛ حتى لا يسمعوا إلا منا، وأخذنا عنهم أبصارهم، فلا ينظروا إلا إلينا؛ حتى لا يكون لهم إلى الغير التفات، ولا للغير فيه نصيب بحال.

وقال ابن عطاء: أخرجنا منهم صفة البشرية، وأفنيانهم بصفات القدسية، قدسنا ظواهرهم وبواطنهم وجعلناهم أسراء في القبضة، ثم رددناهم إلى هياكلهم وصفاتهم بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

قال أيضًا: إن الفائدة في الضرب على الأذان، وليس للأذان في النوم شيء إنه ضرب على أذانهم، حتى لا يسمعوا الأصوات، فيتنبهوا ويكونوا من الخلق كلهم في راحة.

قال الأستاذ: أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه، وحقائق ما كنا سقيناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية، فلما استوفوا حظ شهود الغيب، ولطائف مقام السكر، وأراد أن يجعلهم من مقام الصحو لهم حظًا، رفع عنهم برجاء الهيبة، وسجوف ليالي الحشمة، وآفاقهم عن خمار السكره بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَلَقَّ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أقامهم مقام الاستقامة؛ ليعرفوا منازل القرب بنعت الصحو؛ لأن السكرارى صيروا في قفار الديمومية بالخط، والوجد لا بالمعرفة، وليعرفوا مسالك الحقيقة أهل الإرادة.

قال الأستاذ: أي رددناهم إلى حال صحوهم أوصاف تمييزهم، أقمنا شواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: نهبناهم عن نوم الغفلة بقيامهم عن مرقد البدن، ومعرفتهم بالله وبنفوسهم المجردة ﴿لِنَتَلَقَّ﴾ أي: ليظهر علمنا في مظاهريهم أو مظاهر غيرهم من سائر الناس ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين في مدة لبثهم، وضبط غايته الذين يعينون المدة أم يكلون علمه إلى الله، فإن الناس يختلفون في زمان الغيبة.

يقول بعضهم: يخرج أحدهم على رأس كل ألف سنة، وهو يوم عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] إلى الحق عند كل جبار هو دقيانوس وقته، كنمرود وفرعون وأبي جهل وأضرابهم ممن دان بدينهم، واستولى عليه النفس الأمارة فعبد الهوى أو ادعى لطغيانه، وعمرد أنانيته وعدوانه الربوبية من غير مبالاة عند معاتبته إياهم على ترك عبادة الصنم المجهول، كما هو عادة بعضهم أو صنم نفسه. كما قال فرعون للعين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

الْأَعْلَى [النازعات : ٢٤].

﴿غَنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْتُهُمْ هُدًى ۖ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۖ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿غَنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتیان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟

يا حبيبي اعلم أن تلك فتیان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالِي فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا برهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له.

وأيضًا: زدهم مشاهدة وقرًا وصلاً ومعرفة وكمالًا ومحبة وشفاء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ الآية.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أصحاب الفتوة حيث بذلوا أنفسهم لي، ولوجدانهم حسن وصالي أبدًا. يا حبيبي الفتوة: من الفتیان بالحقيقة طلب معادن المحبة، والانصراف إلى مصرف المعرفة، وإلقاء الوجود بنعت الوجد للموجود القديم جل وعز.

قال ابن عطاء: زدهم نورًا، ومن يعرف قدر زيادة الله؛ لذلك كانت الشمس

﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ خوفًا من نورها أن يطمسه.

وقال أيضًا في قوله: ﴿غَنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لتنظر إليهم بعين المشاهدة.

وقال سهل: سباهم الله فنية؛ لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وقاموا إلى الله بإسقاط

العلائق.

وقال فضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

قال أبو عثمان: الفتوة اتباع الشرع والاهتداء بالسنن، وسعة الصدر، وحسن الخلق.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَرَدَّ نَهُمْ هُدًى﴾ جعلناهم أئمة المهتدين.

وقال بعضهم: سهلنا لهم طريق القرية والوصلة.

ويقال: لا يسمع قصة الأحباب أعلى وأجل مما يسمع من الأحباب.

قال عز من قائل: ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾.

وأنشد في معناه:

وَحَدَّثَنِي بِمَا سَعِدُ عَنْهَا فَرَدَّتْني جُنُونًا فَرَدَّتْني مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعِدُ

ويقال: فتية؛ لأنهم قاموا بالله، وما استقروا؛ حتى وصلوا إلى الله.

وقال الأستاذ: ﴿وَرَدَّ نَهُمْ هُدًى﴾ لاطنهم بإحضارهم، ثم كاشفهم بما زاد من

أنوارهم فلقاهم أولاً بالنبين، ثم رقاهم عن ذلك إلى ما كان كاليقين، ثم زاد في وصف

إيمانهم وإيمانهم، وعرفانهم ثبات قلوبهم؛ حين قاموا مقام المحبة؛ بشرط وفاء العبودية، ونفاذ

أبصارهم وأسرارهم في المشاهدة والبراهين العقلية، وبلوغها إلى رؤية رب العزة بقوله:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أضاف ارتباط قلوبهم إلى نفسه؛ حيث عرفهم نفسه بنفسه بلا

واسطة، فلما أدخلهم في عالم الملكوت، وأراهم سبحات عظمة الجبروت، كادت قلوبهم تغنى

في أول بوادي أنوار العزة، بديهة كشف سناء الأولية فألقى عليها رواسي نوار الهيبة، وربطها

على مشاهد القربة بمسامير المحبة؛ حتى استقاموا في المعرفة حين قاموا بالشوق إلى مشاهدة

الوصلة، فلما عظم عليهم قهر لطيات بحر القدم أجأهم الحق إلى سواحل الكرم، وأشهد ما

أخرج من العدم؛ حتى ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولولا خوف الزوال لهم ما

غابوا عن القدم إلى مراسم العدم، ولكن قلوبهم في مواقف العدم مرتبة، وإن كانوا في

مشاهدة الرسوم لهم إشارة إلى براهين.

بقوله تعالى: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي: لن نرى من دونه شيئاً في البين، ولو

نرى الوسائط في رؤية الوسائط ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: ميلاً عن طريق إفراد القدم عن

الحدوث.

قال ابن عطاء: رسمنا أسرارهم بسمه الحق فقاموا بالحق للحق ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا﴾ إظهار

إرادة، ودعوة.

ثم قالوا: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رجوعاً من صفاتهم بالكلية إلى صفاته،

وحقيقة علمه ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ لن نعتمد سواه في شيء لو قلنا غير ذلك كان

شططاً يعني بعيداً من طريق الحق.

وقال جعفر: قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب، ونادوه نداء صدق، وأظهروا له صحة الفقر ولجنوا إليه أحسن اللجاء ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتخاراً به وتعظيماً له فكافأهم الحق على قيامهم الإجابة عن ندائهم بأحسن جواب، وألطف خطاب، أظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل حين قال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ وقد استدلل بعض المشايخ بهذه الآية في حركة الواجدين في وقت السماع؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حركتها أنواع الأذكار، وما يرد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياماً بالصورة، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين والاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن إذا كان الربط بمعنى التسكين، والقيام بمعنى الاستقامة.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بما أسكننا فيها من اليقين فلم تسبح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ إشارة إلى النفس الأمارة وقواها، لأن لكل قوم إلهاً تعبده، وهو مطلوبها ومرادها والنفس تعبد الهوى كقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

وإلى أهل زمان كل من خرج منهم داعياً إلى الله إذ كل من عكف على شيء يهواه، فقد عبده.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على عبادتهم وإلهيتهم وتأثيرهم ووجودهم.

﴿يُسَلِّطِينَ بَيْنَ﴾ أي: حجة بينة دليل على فساد التقليد، وتبكيك بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله، وتأثيره ووجوده محال.

كما قال: ﴿أَفُجِدُّوَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَقْرَءُونَ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الاعراف: ٧١] أي: أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء.

﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ وَتَرَى السُّنْسَنَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُزُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْآلَمِينَ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٥﴾ وَخَسِبْنَا أُنْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكُلُّهُمْ بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالَوْا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا زِلْكُمْ أَغْلَىٰ بِمَا لَبِئْتُمْ فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ يَوْمَافَكُمْ هِدْيَةً إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّكُمْ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي بِلَدِهِمْ وَلَنْ تَقْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أخبر سبحانه عن صدقهم وإخلاصهم وفرحهم بالإيمان بالله، والنجاة عن الكفر والضلال، واجتماعهم في مقام الخلوة أي: إذا أخرجتم من أماكن النفوس والهوى، صرتم منفردين باليقين الصادق، فأووا إلى جوار كرمه ويساط قدمه ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ زُرْكُمْ﴾ ذخائر لطائف علومه الغيبية، ويسيطر لكم بساط عطايا مشاهدته، وأنوار قربته وعجته ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ أي: احتياجكم إلى وصاله ورؤية جماله ﴿مِرْفَقًا﴾ مسند الأنس، ويسقيكم شراب الزلفى من بحر القدس.

قال الأستاذ: العزلة عن غير الله يوجب الوصل بالله؛ بل لا يحصل الوصلة بالله؛ إلا بعد العزلة عن غير الله.

ثم أخبر عن زيادة تلطفه بهم؛ بأن دفع عنهم توائير العناصر التي أصلها من طبع الشمس والقمر والسيادة، ودفع عنهم حرارة الشمس وشعاعها؛ لئلا تتغير أشباحهم عن أحكام الروحانية، كأنه تعالى أدخلهم في حجلة الأنس في عالم القدس، وجعل ذلك العالم في الكهف، وهو قادر على أن يخلق ألف جنة في عين نملة، فلما سكنهم في حجر وصلته دفع عنهم تغاير الحديثة، وإطلاع الخليقة عليهم من غيرته، فمن غيرته حجبتهم عن الشمس الطالعة التي هي في الفلك الرابعة، فإذا حجبتهم عن الشمس مع جلالها التي هي سبب نماء العالم، فانظر كيف يطلع عليهم غيرها من الخلق.

﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارتقم نفوسكم وقواها بالتجرد ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ من مراداتها وأهوائها ﴿فَأَوْرَأَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ إلى البدن؛ لاستعمال الآلات البدنية في الاستكمال بالعلوم والأعمال، وانخدلوا فيه منكسرين متراضين، كأنهم ميتون بترك الحركات النفسانية والزوات البهيمية، والسطوات السبعية أي: موتوا موتاً إرادياً.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ حياة حقيقية بالعلم والمعرفة ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ كما لا ينتفع به بظهور الفضائل، وطلوع أنوار التجليات، فتلذذون بالمشاهدات، وتتمتعون بالكمالات.

كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷺ في أبي بكر: «من أراد أن ينظر ميئاً يمشي على وجه الأرض، فلي نظر أبا بكر»^(١) أي: ميئاً عن نفسه يمشي بالله، ﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ﴾ قومكم ومعبوداتهم غير الله من مطالبهم المختلفة ومقاصدهم المتشعبة، وأهوائهم المتفتنة، وأصنامهم المتخذة ﴿فَأَوْدًا﴾ إلى كهوف أبدانكم، وامتنعوا عن فضول الحركات والخروج في أثر الشهوات، واعكفوا على الرياضات ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ زيادة كمال وتقوية، ونصرة بالإمداد الملكوتية والتأييدات القدسية، فيغلبكم عليهم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ﴾ ديناً وطريقاً ينتفع به، وقبل أن يبتدي بكم الخلائق ناجين، وفي الآوي إلى الكهف عند مفارقتهم سر آخر يفهم من دخول المهدي في الغار إذا خرج ونزل عيسى عليه السلام، والله أعلم.

وفي نشر الرحمة وتهيئة المرفق من أمرهم عند الآوي إلى الكهف إشارة إلى أن رحمته الكاملة في استعدادهم، إنما تنشر بالتعلق البدني والكمال بتهيئته.

قال سبحانه: ﴿وَتَرَى آلَ شِمَالٍ﴾ الإشارة في الحقائق أنه أخفاهم في كهف الأسرار، وأجلسهم في متسع الأنوار، وأشاهدهم مشاهدة الجمال، وآواهم سناء الجمال، ووقاهم من سطوات أنوار شمس العزة والعظمة والكبرياء التي تطلع من مشرق القدم، وتغرب في مغرب الأبد؛ لئلا يخرقوا في أنوار عين الألوهية، ويفنوا في سلطان إشراق سبحات الكبرياء، ولا يطلعوا على ذخائر غيوب البقاء؛ كأنه تعالى رباهم في مشاهدته بنور جماله، وحفظهم عن قهر كنه قدمه؛ لئلا يتلاشوا في عزة جلاله، ويبقى معه بنعت الصحو والبقاء، ولولا ذلك الفضل العميم لو لم يبقوا في استعلان أنوار وحدانيته بأقل من لمحة رعاهم بنفسه عن نفسه؛ لإدراك العلم بنفسه هم في فجوة الوصال، وشمس الكبرياء، تزاور عن كهف قريهم ذات اليمين الأزل، وذات الشمال الأبد.

(١) هو من الأحاديث المشتهرة عند السادة الصوفية، وهو صحيح عند أرباب الكشف.

وهم في فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف ذات الأزلية التي يتلاشى الأكونان في أول بوادي إشراقها، وأي آية أعظم من هذه الآية أنهم في وسط نيران الكبرياء، ولا يحترقون بها فيقوا بالحق مع الحق مستأنسين بالحق للحق بنعت فقد الإحساس في مقام الاستئناس غائبين عنهم شاهددين بالله على الله.

انظر كيف كان كمال غيرة الله بهم، حيث حجبهم عنهم، ورفع الإحساس عنهم، ورفع حوادث الكون عنهم؛ ليكون الكشف أصفى، والقرب أجلى، والسر أخفى، والمشاهدة أشهى والروح أدنى، والوقت أحلى، ولا يعرف هذه الإشارة إلا العارف بالله بنعت الذوق، ويرى الله بوصف الشوق المستقيم بالله لله.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ من عرف نفسه، وأقدار أوليائه فهو عارف بالله وبأوليائه، ومن لم يكن من أهل سلوكه، كان في الأزل محروماً عن قربه، وإن خنق نفسه في المجاهدة.

قال الله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلَّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

سبحان الله! أين غابوا تلك السبعة الغارقة في أماكن الغيب، ومشاهدة الرب هام طلابهم في بوادي المعارف والكواشف، ولم يظفروا برويتهم، وانحسرت الأزمان، والأكونان والحدثان عن تفقدهم، ولا تطلع عليهم من غير: 'حق عليهم هم ملوك معارف القدم؟ غابوا في مهمة الكرم.

بأي نواحي الأرض أبني وصلكم وأنتم ملوك ما لقصيدكم نحو

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ أي: شمس الروح ﴿إِذَا طَلَعَتْ﴾ أي: ترقى بالتجرد عن غواشي الجسم، وظهرت من أفقه قميل بهم من جهة البدن، وميله ومحبه إلى الإلهام، والشيطان للوسواس ﴿وَأَوَّاعُونَ آعَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢].

وفي الآية لطيفة، وهي أنه استعمل في الميل إلى الخير الازورار عن الكهف، وفي الميل إلى الشر قرضهم أي: قطعهم، وذلك أن الروح يوافق القلب في طريق الخير، ويأمره به ويوافقه معرضاً عن جانب البدن وموافقاته، ولا يوافقه في طريق الشر، بل يقطعه ويفارقه وهو منغمس في ظلمات النفس وصفاتها الحاجة إياه عن النور، وهو إشارة إلى تلويثهم في السلوك، فإن السالك ما لم يصل إلى مقام التمكين، وبقي في التلويث قد تظهر عليه النفس

وصفاته، فيحتجب عن نور الروح، ثم يرجع ذلك أي: طلوع نور الروح واختفاؤه من آيات الله التي يستدل بها، ويتوصل منها إليه وإلى هدايته.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بإيصاله إلى مقام المشاهدة والتمكين فيها ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ بالحقيقة لا غير ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ يحجبه عن نور وجهه، فلا هادى له ولا مرشداً، ومن يهد الله إليهم وإلى حالهم بالحقيقة، ومن يضلله يحجبه عن حالهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾ ذلك لمعنى النور الذي كان عليهم بقوله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ نور على نور، وبرهان على برهان، والشمس نور، ولكن إذا غلب نور أقوى منها انكسفت الشمس فكانت تزيع عن كهفهم؛ لغلبة نورهم خوفاً أن ينكسف نورها من غلبة نورهم.

وقال جعفر: يمين المرء قلبه، وشماله نفسه، والرعاية تدور عليهما، ولولا ذلك لهلك. وقال ابن عطاء في قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ما حجب عن الله أحد إلا من أراد أن يصل إليه بحركاته وسعيه، وما وصل إليه أحد إلا من أراد أن يصل إليه بصفته تعالى.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ من جاء بأوائل الإيذان بلا علة، وبأواخره بلا علة، وهذا صفة الحق لا صفة الخلق، وظهر أن المهتدي هو البائن من جميع أوصافه، المتصف بصفات الحق ثم زاد في وصفهم لحبيبه ﷺ بأنهم غائبون بأرواحهم في أنوار القدم، وبأسرارهم في بحار الكرم، ويعقوبهم في أودية الهوى، وبقلوبهم في قفار الديمومية، وبأنفسهم في أشرف سلطنة الربوبية وبأشباحهم في أماكن الموانسة، بقوله:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: من كمال حسنهم في الغيبة أنه نشر أنوار القربة على ظاهريهم، وأزال عنهم وحشة النوم، وأظهر عن صورتهم لطائف النعمى كانت أرواحهم كأجسادهم، وأجسادهم كأرواحهم؛ لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح»^(١) كأنهم من كمال حسن وجدهم وغيبتهم فيه، والتمكين لهم غير غائبين.

وانظر كيف كانوا في لطف غيبتهم؛ حتى لا يعرف سيد المرسلين ﷺ أنهم رُقود وهذا من شواهد التمكن، ولطافة الحال لما حضروا مشاهد القرب، غابوا عن القرب بالقرب، وغابوا في القرب بالقرب، وغابوا عن قرب القرب في قرب القرب، وقعوا في أسفار الأزل ففي كل نفس لهم الترقى والنقل من مقام إلى مقام^(٢)؛ لقوله سبحانه:

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المتبئين، فمن نظر إليهم بمن هو مثلهم في الغفلة

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أغرقهم الحق سبحانه في بحار أوليته وأخرويته، وقلبهم بنفسه ذات يمين الأزل، وذات شمال الأبد، قلبهم من رؤية الأفعال إلى أنوار الأسماء، ومن أنوار الأسماء إلى أنوار النعوت والأوصاف، ومنها إلى رؤية أنوار الذات قلبهم في كل نفس من عالم صفة إلى عالم صفة، وهم معهم في سيرهم بين الصفتين، فأدار بأرواحهم إلى صحارى الأزل، وأزال الأزل، وأدار بقلوبهم في بوادي الآباد، وآباد الآباد.

وأدار بأنجم عقولهم في أفلاك حقائقه، وأدار بأسرارهم في بساتين علوم غيبه المجهولة، فقصر عليها بعد مزار أسفارهم بلطفه، ولولا ذلك لبقوا في تقلب المقامات وسير الحالات، ولكنه بلطفه وبرحمته خلصهم من التقلب في عالم الصفات، ولو تركهم مع أنفسهم لم يبلغوا أمر الأزل إلى الأبد إلى رؤية صفة بعد رؤية صفة حملهم بنفسه، وأدارهم في عالم صفاته، ثم ألقاهم في بحر وحدانيته، فصاروا مستغرقين في بحار ذات متخلصين من التقلب، ذهب بهم سيول طوفان الكبرياء إلى قاموس البقاء، فهناك قلبهم سر الأسرار تارة إلى نكرة القدم، وتارة إلى معرفة البقاء.

قال ابن عطاء: نقلهم في حالي القبض والبسط والجمع والتفرقة جمعناهم عما تفرقوا فيه فحصلوا معنا في عين الجمع.

وقال بعضهم: نقلهم بين حالي الفناء والبقاء، والكشف، والاحتجاب، والتجلي، والاستتار.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مقيمون في حضرة كالنومي لا

عن الله تعالى يراهم متيقظين، ومن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بجال الباطن لا بحال الظاهر، وإما إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبفنائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحس، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين من حضر مع الحق في كل حاله، وبين من غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمن حضر مع الحق، يشم منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دماً، فلاشتراك في الدمية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحاً من غيرهم لما أن الدم في عروقهم يستحيل نوراً: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصح جداً، وقد رأيت في عصري من هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

علم لهم بوقت، ولا زمان، ولا معرفة محل، ولا مكان إحياء موتى صرعى يفيقون نومى متبهون لا لهم إلى غيرهم طريق ولا لغيرهم إليهم سبيل، ومحل الحضور والمشاهدة، إنما هو الخمود تحت الصفات لا غير.

وقال أبو سعيد الخراز: هذا محل الفناء والبقاء، أن يكونوا فانيين بالحق باقين به، لا هم كالنيام ولا كاليقظي، أو صافهم فانية عنهم، وأوصاف الحق بادية عليهم، وهو حياة تحت كشف دولة مقابلة ويقين.

وقال أيضًا: لهؤلاء أئمة الواجدين ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كشف لهم حتى تبينوا جلال القدرة، وعظم الملكوت فغيبوا عن التمتع بشيء من الكون بحقيقة أحوالهم، فصاروا داهشين لا أيقاظًا ولا رقودًا.

وقال الأستاذ: هم مسلوبون عنهم محتطفون منهم، مستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق.

وقال في قوله: ﴿وَتَقَلَّبُوهُمْ﴾ إخبار عن حسن إيوائه لهم.

ويقال: أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق في وصف أصحاب الكهف:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لشواهد الفرق في ظواهرهم لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم تجري عليهم أحوالهم، وهم غير مكلفين بل هم يبيتون، وهم مخود عما هم به.

وفي قوله: ﴿وَتَقَلَّبُوهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وقع لي من طريان الأحوال رمز في وصف الصفات المتشابهة أضاف نقلهم إلى نفسه أي: أقلبهم بنفسه في حجر وصلتي، وهذه فيهم تلك الخاصة التي خص بها آدم بقوله: (خلقت بيدي)، فباشرهم أنوار يدي البقاء والقدم، وتقلبهم من ذات يمين الربوبية بمحض الصفة بغير التشبيه والحلول في ذات الشال العبودية.

وذلك حين ألغاهم في قفار الآزال والآباد، ولومهم على رؤوس أودية الصفات بنعت الغيبة عن الذات، ولولا ذلك القلب الذي أرجعهم من معدن الربوبية إلى معدن العبودية؛ لتستفتهم صرصر الكبرياء في هواء عزة البقاء؛ لما أطلع عليهم الحق شمس جلاله، كادوا أن يذوبوا في رؤيتها، فقلبهم من ذات يمين الأحدية إلى ذات شال الحدوثية؛ لبقائهم بالحق مع الحق، وإلا كيف يكون بقاء الحدث في القدم، وإذا كانوا متنغصين في مرارة التفرقة، ومباشرة الحدوثية تقلبهم من الحدثنان إلى بحار العرفان فهم بين الثقلين في مقامي: الفناء والبقاء والقبض والبسط والجمع والتفرقة، وهذه من لطائف سر العارفين وتقلب أسرار الموحدين

في عالم الملكوت والجبروت، ثم أخبر سبحانه من سعة قدرته وكمال رحمته وجلال منته بأنه اختار من بين سباع البرية كلباً عارفاً، وجعله مستعداً لقبول المعرفة ممهداً لجران أنوار محبته، ومقبلاً عليه مع أوليائه لديه بقوله: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِنَسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وضع قلب الروحاني الملكوتي في كلب، وجعل قلبه خزائنه من خزائن معارفه، وصندوقاً من صناديق جواهر سر أسرارهِ، وحركه بسلاسل جذباتهِ، وحبس عنايته إلى مشاهدته قربة، وعرفه طرق الربوبية وسلوك العبودية، فروحه كان روحانياً، وسره ريانياً، وشهوده رحمانياً، وألبسه ما ألبس القوم؛ لذلك فرَّ إلى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثنان، ويا عاقل لا تنظر إلى صورة الكلب، وغيره فإن محتمل الصفات حقائق فعله، والكلب الغير من أفعاله، والصفات والأفعال في معادنها منزّه عن التفاضل، بل إذا أضيف إلى الكون يفضل البعض على البعض من حيث العلم والحكمة، وإذا كان سبحانه اختار أحداً من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية لا ينظر إلى سببه، ولا إلى نسبه، ولا إلى صورته، ولا إلى رتبته بل يجري عليه بإردائه القديمة أحكام حسن عنايته فيصيره جواهر الآفاق، ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت.

قال الله: ﴿مَخْتَصٍ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٥]، فجعل الكلب معظم آياته لهم؛ حيث أنطقه بمعرفته، وكسا قلبه أسرار نوره، وأبرز له أنوار هيئته، فأضجع مقام الحرمة للرعاية بحسن الأدب بالوصيد، وبين سبحانه رتبة الإنسانية، وفضلها على الحيوانية بحيث أقامه بالوصيد، وعلى سرادق الكبرياء، ووصيد مجد الجلال، وأدخلهم في فجوة الوصال سبحانه المتفضل بالكمال.

قال أبو بكر الوراق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم يؤثر على الخلق، وإن لم يكونوا أجناساً؛ ألا ترى الله كيف ذكر أصحاب الكهف فذكر كلبهم معهم لمجاورته إياهم!

ويقال: لما لزم الكلب محله ولم يجاوز حده فوضع يده على الوصيد بقي مع الأولياء كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة، ثم زاد سبحانه في وصفهم ما كساهم من أنوار الجلال، وعظمته التي ترتعد من رؤيتها قلوب الصديقين، وتقشعر من صولتها جلود المقربين، وتفرع من حقائقها أرواح المرسلين بقوله: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾. إن الله سبحانه نبهنا هاهنا عن جلال قدر نبيه ﷺ بأنه تعالى ربِّي روحه وعقله وقلبه وسره ونفسه في بدو الأول بنور حسن مشاهدته، وأنوار مال وجهه خاصة بلا مطالعة العظمة والكبرياء؛ لأنه كان مصطفى لمحبته مجتبي لحسن وصاله ودنو دنوه، ولطائف قرب قربه، وألبسه حلل حسن صفاته، وطيبه بطيب أنسه ونشقه ورد قدسه، وسقاه من بحر وداده

من مروق زلفته بكأس روحه، فكان عيشه مع الحق من حيث الأنس والانبساط والبسط والجمال، وكان خطابه خطاب تكرمة ومكرمة عاش في مشاهدة جماله ونيل وصاله، كان عندليب رياض الأنس، وبلبل بساتين القدس رأى الحق بعين الجمال في مرآة الجلال، ورآه بعين الجلال في مرآة الجمال، محفوظًا عن طوارق قهريات القدم، وسطوات عظمة الأزل، حاله أصفى من كدورة عيش الخائفين، وغبار أيام المجاهدين، ما وقع على سره قهر الغيرة، وما جرى على روحه سيول الفركة، كان مرادًا معشوقًا حبيبًا محبوبًا موصولًا بالوصال معروفاً بالجمال كان من لطافته ألطف من نور العرش والكرسي، وطيبه كان أطيب من طيب الفردوس شمال جماله يهب على رياض وصال الأزل وحياة جنانه منزّه عن قهر أيدي الأجل لو رأى بالمثل نملة ملتبسة بنور هبة فعل الحق لفرغ منها من حسنه ولطافته؛ لذلك قال تعالى:

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ﴾ يا حبيبي من حيث أنت على ما ألبتهم لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي، لوليت منهم من رؤية ما عليهم من هيبتي وعظمتي، ﴿وَلَمَلَيْتُ مِنْهُمْ رُغَبًا﴾؛ لأنهم مرآة عظمتي تجلّ منهم بنعت عظمتي للعالمين؛ لئلا يقربوا منهم، ويطلعوا عليهم؛ لأنهم في عين غيبي، ولا أريد أن يطلع عليهم أحد غيري أنت يا حبيبي موضع سرى - موضع سر سري، ومكان لطفي لو رأيتهم بذلك اللباس السلطاني الجباري؛ لفررت منهم، وتعلأ من رؤيتهم رغبًا، كما فرّ موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حية تسعى، وذلك من إلباسي إياها كسوة عظمتي وجلال هيبتي، ففر موسى من عظمتنا، ولم يعلم من أي شيء فر ولا نقص عليك، فإنك وإن كنت مربى برؤية الحسن والجمال منا، فجميع صفات العظمة ونعوت الكبرياء، انكشفت لك في لباس الحسن والجمال، وأنت جامع الجمع.

قال جعفر: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أنت لوليت منهم فرارًا، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوحداية والربانية.

قال ابن عطاء: لأنه وردت عليهم أنوار الحق من فنون الخلع، وأظلمتهم سراق التعظيم، وأحرقت جلايب الهيبة؛ لذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾.

وقال الحسين: لوليت منهم فرار أنفه مما هم فيه من إظهار الأحوال عليهم، وقهر الأحوال لهم مع ما شاهدته من أعظم المحل في القربات في المشاهدة، فلم يؤثر عليك بجلالة محلك.

وقال جعفر: لو اطلعت على ما بهم من آيات قدرتنا ورعايتنا لهم وتولية حفظتهم، لوليت منهم فرارًا أي: ما قدرت على مشاهدة ما بهم من هيبتنا، فيكون حقيقة الفرار منا لا

منهم؛ لأن ما بدا عليهم منا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آتِظَاطًا﴾ يا مخاطب الانفتاح أعينهم وإحساساتهم وحركاتهم الإرادية الحيوانية ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بالحقيقة في سنة الغفل، تراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: نصرهم إلى جهة الخير، وطلب الفضيلة تارة وإلى جهة الشر ومقتضى الطبيعة أخرى ﴿وَكُلُّهُمْ﴾ أي: أنفسهم ﴿بَنَسِطٌ ذِرَاعِيهٖ﴾ أي: ناشرة قوتها الغضبية والشهوانية ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ أي: بفناء البدن، ولم يقل وكلهم هاجع؛ لأنها لم ترقد، بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه والزراع الأيمن هو الغضب؛ لأنه أقوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديبه، والأيسر هو الشهوة لضعفها وخستها.

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على حقاقتهم المجردة وأحوالهم السنية، وما أودع الله فيهم من النورية والسنا، وما ألبسهم من العز والبهاء ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ فإزا لعدم اعتقادك بالنفوس المجردة وأحوالها وعدم استعدادك لقبول كمالهم، أو لوليت منهم للفرار عنهم، وعن معاملاتهم ليلك إلى اللذات الحسية والأمور الطبيعية.

﴿وَلَمُلِئْتُ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ من أحوالهم ورياضاتهم؛ أو لو اطلعت عليهم بعد الوصل وإلى الكمال وعلى أسرارهم ومقاماتهم في الوحدة لأعرضت عنهم، وفررت من أحوالهم وملئت منهم رعبًا؛ لما ألبسهم الله من عظمتهم وكبريائهم، وأين الحدث من القدم وأنى يسع الوجود العدم.

ثم أخبر سبحانه عن ارتفاع أثقال العظمة عنهم، وإفاقتهم عن سكر المشاهدة، وحضورهم بعد الغيبة، بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ فيه إشارة أنهم في بديهة وقائع الغيب، وهم أهل البدايات في المعرفة، وهجوم غلبات الوجدان؛ لذلك هاموا في الغيب وطاشوا في القرب، ولو كانوا في محل التمكين والصحو ما غابوا عن الإحساس ورسوم المعاملات، ويكون حالهم كحال نبينا ﷺ حين دنا وثبت في التدلي، واستقام في منازل الأعلى، واستقر بين أنوار القدم والبقاء بتعت الصحو والصفاء.

وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، ولو أن ما ورد عليه من أحكام الربوبية في المشاهدة، ورد منه على جميع الأولين والآخرين لطاشت عقولهم، وطارت

أرواحهم، وفنيت قلوبهم واستهلكت نفوسهم، ولكن ما أطيب زمان السكر للمريدين، والمحبين، والشائقين، والعاشقين أخذهم سكر الوصال عن المقييل والقال، وعن الاشتغال والمحال، وغيبهم في أنوار الجلال والجلال؛ حتى لم يحسوا شيئاً من الحدثان من ذوق وصال الرحمن، ما أطيب تلك الأوقات السرمدية، والأحوال المقدسة بحيث ما لهم خبر عن مرور الزمان، وحوادث الملوان.

شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شِعْرُنَا بِإِنْصَافٍ لَهُمْ وَلَا شِرَارُ
ما أقل زمان الوصال لعشاق الجلال والذهر عندهم في المشاهدة ساعة، وإعمار
العاملين في منازل أنسهم لمحبة.
وأنشد:

صَبَاحُكَ سُكْرٌ وَالْمَسَاءُ خَافٌ نَعِمْتَ وَأَيَّامُ الشُّرُورِ قِصَارُ
زمان القربة قليل وزمان الفرقة طويل، وذلك من غيرة العشق المجران في كمين الغيرة
مقيم وملدوغ الفراق من سم أفاعي الغيرة سليم، لا يصير الدهر؛ حتى يفرق بين العاشقين
والمعشوقين، وأنشد:

عَجِبْتُ بِسَمِيِّ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكِرَ الدَّهْرُ
كانوا لا يعرفون اليوم من الأمس، ولا يعلمون من حدة الحال القمر من الشمس:
﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقاموا مقام الوصال واستلذوا لطائف الجلال وتخبطوا في المقال، وما كان ذلك إلا
من خمار سكر الأحوال ذكروا أيام الوصلة في مقام الفرقة، وتعاضموا لطائف المؤانسة في
منازل الوحشة، واشتاقوا إلى معاهد المشاهدة، وأيام المدانة.
وأنشدوا:

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرِدٌ أَوْ مَهَبٌ بِشَمَالِ
لَيَالِي لَمْ تَحْصِرْ حُرُوقَ قَطْبَةٍ وَلَمْ يَمْسِ إِلَّا فِي سُهُولٍ وَضَالِ
فَقَدْ مَرَّتْ أَرْضِي مِنْ سَوَاكِينِ أَرْضِهَا تَجَلِبُّ بِبَرْقٍ وَبَطِيفِ خَيَالِ

قال ابن عطاء: مقام المحب مع الحبيب، وإن طال فإنه قصير عنده إذ لا يقضي من
حبيبه وطراً، ولو مكث معه دوام الدهر، فإن انتهاء شوقه إليه؛ كالابتداء، فانتهاؤه فيه ابتداء،
فلما رجعوا من مقام الجذب إلى مقام السلوك، ومن مقام الروحانية إلى مقام البشرية،
واحتاجوا إلى ما يعيش به الإنسان، استعملوا حقائق الطريقة بقوله سبحانه:

﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكَيْكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ لما

استطابوا الخلوة فلم يخرجوا، وأمر المبعوث في طلب الرزق فتركوا السؤال، واستعملوا الكسب بقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾، ثم أمره باستعمال الورع؛ لأن الورع من موجبات الطريقة وحقوق الحقيقة، وهذا دأب الأئمة.

لذلك قال ذو النون: لا يطفأ نور المعرفة نور الورع، وأمره بالمراقبة؛ حتى لا يطلع عليهم أحد، وفيه بيان أن الكسب أيضًا من التوكل؛ لأن القوم بحمد الله لم يخلوا من مقام التوكل، وفيه بيان أن أهل الوجد والحال والمكاشفة والمقال، هم أهل الغذاء المحمود اللطيف من لطف الطعام؛ لأن أرواحهم من عالم القدس، ولا يليق بهم إلا ما يليق بأهل الأنس من أكل الطيبات، وأشهى المأكولات، ولبس الناعمات.

قال جعفر بن أحمد الرازي: أوصى يوسف بن الحسين بعض أصحابه فقال: إذا حملت إلى الفقراء وأهل المعرفة شيئاً، واشتريت لهم طعاماً فليكن لطيفاً، فإن الله تعالى وصف أصحاب الكهف حين بعثوا من يشترى لهم طعاماً قالوا: ﴿وَلَمْ تَلَطَّفْ﴾ وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشتر كل ما تجده فإنهم بعد في تذليل أنفسهم، ومنعها من الشهوات.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن^(١): سمعت أبا عثمان المغربي يقول: إرفاق المريدين بالعنف، وإرفاق العارفين باللطف.

وقال الأستاذ: تواسوا فيما بينهم بحسن الخلق وجميل الرفق أي: ليتلفظن مع من يشترى منه شيئاً.

ويقال: من كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن الملبوس، ولا النازل في الطعم من المأكول.

ويقال: أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات، قطعاهم الخشن ولباسهم كمثلته والذي بلغ المعرفة لا يوافقه أكل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل ملبح.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث الحقيقي والإحياء المعنوي، بعثناهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا بينهم عن المعاني المودعة في استعدادهم الحقائق المكنونة في ذواتهم، فيكمل بإبرازها وإخراجها إلى الفعل، وهو أول الانتباه الذي تسميه المتصوفة اليقظة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ مرّ تأويله النفس الرشيد السمة الفاضل السيرة النقي السرية الكامل المكمّل دون الفضولي الظاهري الخبيث النفس المتعالم المتصدر لإفادة ما ليس

(١) يعني السلمي في حقائق التأويل.

عنده ليستفيد بصحبته ويظهر كماله بمجالسته ويستبصر بعلمه فيفيدنا أو ليتلطف في أمره حتى لا يشعر بحالككم ودينكم جاهل من غير قصد.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل الظاهر المحجوبين، وسكان عالم الطبيعة المفكرين، وإن أولنا أصحاب الكهف بالقوى الروحانية فالبعوث هو الفكر والمدينة محل اجتماع القوى الروحانية والنفسانية والطبيعية، والذي هو أذكى طعاماً العقل دون الوهم والخيال والحواس؛ لأن كل مدرك له طعام والرزق هو العلم النظري على كلا التقديرين:

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من القوى النفسانية.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا﴾ أي: يغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بحجارة الأهواء والداعي من الغضب والشهوة، وطلب اللذة فيقتلوكم بمنعكم عن كمالكم.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ باستيلاء الوهم وغلبة الشيطان والإمالة إلى الهوى، وعبادة الأوثان على التأويل الأول ظهور العوام، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين، ورحمهم أهل الحق ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ظاهر كما كان في زمان رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث والإمالة، اطلعنا على حالهم

المستعدين القابلين لهديهم ومعرفة حقائقهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ بصحبتهم وهدايتهم.

﴿أَنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بِبَيْتِهِمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: حين يتنازع المستعدون الطالبون بينهم أمرهم في المعاد، فمنهم من يقول: إن البعث مخصوص بالأرواح المجردة دون الأجساد.

ومنهم من يقول: إنه بالأرواح والأجساد معاً، فعلموا بالاطلاع عليهم ومعرفتهم أنه بالأرواح والأجساد، وأن المعاد الجسماني حق.

فقالوا ﴿أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ أي: فلما توفوا قالوا ذلك كالحانقاها والمشاهد والمزارات المبنية على الكمل المقربين من الأنبياء والأولياء كإبراهيم ومحمد، وعلي وسائر الأنبياء والأولياء - عليهم الصلاة والسلام - ﴿رَبِّهِمْ أَعْلَمَ بِهِمْ﴾ من كلام أتباعهم من أمهم المقتدين بهم أي: هم أجل وأعظم شأنًا من أن يعرفهم غيرهم الموحدون المالكون في الله المتحققون به، فهو أعلم بهم، كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ تَحْتَ قَبَائِي لَا يَرْفَعُونَهُمْ غَيْرِي﴾^(١).

(١) ذكره الشيخ حقي في روح البيان (٧٩/٩).

﴿قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ آمْرِهِمْ﴾ من أصحابهم والذين يلون أمرهم تبركاً بهم وبمكانهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ يصلي فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِم لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ مِنِّيهِمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّئَهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ آمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١٥﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا تَنْتَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿١٧﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رُتْلَكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ رَشَدًا هَٰذَا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّئَهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بَيَّنَّ أَنَّ القوم بلغوا إلى مشاهدة جلال أزله، وأغرقهم في بحار أبده، ووجدوا منها جواهر أسرار محبته، وقرب وصاله ما لا يطلع عليها أحد غير الله، فنفى إحاطة علم الغير بهم فكأنه أخبر عما عمرهم من سطوات العزة، واستيلاء قهر الربوبية ما أفناهم أي: أنا أعلم بما هم فيه من فناءه في الوجد والوجود، أخبر عن عظيم ما ورد عليهم من سلطان قهر مشاهدة قدمه.

قال ابن عطاء: ﴿رَّئَهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حيث أظهر عليهم عجائب صنعه، وجعلهم أحد شواهد عزته، وجعلهم بالمحل الذي خاطب به النبي ﷺ فهم فقال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ [الكهف: ١٨]

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الظاهريون من أهل الكتاب والمسلمين الذين لا علم لهم بالحقائق وقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: رمياً بالذي غاب عنهم يعني ظناً خالياً عن اليقين بعد قولهم: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ بينائه والأمرون هم الغالبون الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ يسجد أي: ينقاد فيه جميع القوى الحيوانية والطبيعية والنفسانية، والمأمورون هم المغلوبون الفاعلون في البدن، المبعوث فيه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إن الله سبحانه أعلم نبيه وأدب حبيبه في منازل العبودية ومشاهدة الربوبية بمحو الوجود عند وجود القديم الأزلي، وأن يرى الكل قائماً بالله في مقام التوحيد مع الكل في غير الجمع باثناً عن الكل في أفراد القدم عن الحدوث، ومحض التجريد والتفريد، وقطع حدود علوم الخليقة عما في المشيئة الأزلية

فأعلم معنيين: إثبات الكسب وسبق التقدير، وأهم أسرار المسببة على الكل في بيان الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

قال بعضهم: لم يطلق لرسوله ﷺ أن يخبر عن الحق إلا بما أخبره الحق، ولم يأذن له في الإخبار عن نفسه إلا عن مشيئة ربه فقال: ﴿وَلَا تَقُولُنَّ لِنَشَأِئِ﴾... إلخ.

﴿وَلَا تَقُولُنَّ لِنَشَأِئِ إِنْ فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ أدبه بالتأديب الإلهي بعد ما نهى عن المماراة والسؤال فقال: لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول فتكون قائلًا به، وبمشيئته أولاً بمشيئته على أنه حال أي: ملتبسًا بمشيئته، يعني لا تقولن لما عزمت عليه من فعل أي فاعل ذلك في الزمان المستقبل إلا ملتبسًا بمشيئة الله، قائلًا: إن شاء الله أي: لا تسند الفعل إلى إرادتك بل لإرادة الله فتكون فاعلًا به وبمشيئته.

ثم بيّن سبحانه أن من شاهد نفسه في مشاهدة الحق حيث طوى عليه أحكام رسوم الاكتساب من جهة الأمر، ولم يسقط شهود نفسه وكسبه، فقد نسى الحق بقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإن قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقُولُنَّ لِنَشَأِئِ﴾ يدل على ذلك أي: إذا شاهدت نفسك فقد غبت مشاهدة ربك فاذكره أي: شاهده مشاهدة تغيبه في مشاهدة عن مشاهدتك نفسك.

وأيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ إذا كنت متصفًا متحدًا بربك حين يغلب عليك سر الأنانية، فإذا ذكرت ربك في مقام الأنانية خرجت من حد الخداع والتلبس الصادرين من مكر القدم، وإذا ذكر قدمه بان عدمه وإذا بان عدمه تلاشى الحدث في القدم، ولم يبق إلا القدم، ويتبين أمر العبودية عند الربوبية.

وأيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ ذا غبت في مشاهدة المذكور؛ حتى يتخلص من غمار الفناء في الوحداية، ويبقى بقاء الحق وروية الأبدية، فإنك إن لم تذكر ربك، ولم ترجع من رؤية مذكورك إلى ذكره تغنى فيه، ولا تدرك حقائق وجوده فإن السكران الفاني لا يظفر بما يظفره الصاحي المتمكن.

وأيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ من مشاهدته، وغيب عن شهود عليك حتى فصل بالذكر إلى رؤية المذكور.

وأيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرك له فإن رؤية الذكر في رؤية المذكور نسيان المذكور بالحققة.

وأيضًا: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكون والحدوثية، فإن ذكره لا يكون ذكرًا

حقيقياً إلا بنعت فناء ما دونه، فإذا فني الحدث في القدم صار الذكر صافياً.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ لَكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ما جدت منه، فإن الوقوف في المقامات حجاب ذكر الحقيقة.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ لَكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فسك فإن في رؤيتك وجودك، وبقاء وجودك لا يكون الذكر بحقيقة الانفراد، ورسم أفراد القدم على حدوث، ثم أمره سبحانه أن يخاطب أهل السر من المعرفة بترجييه وصول أدنى الدنو وأعلى العلو بقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾. كان أقرب الخلق من الله بنفس المعرفة والاصطفائية الأزلية، لكن كان مع محله وشرفه في حيز حقائق المعرفة، قطرة في بحر الأزلية، فأمره الحق أن يسأل منه مزيد ما فيه من طرائق حقائق عرفان الأزلية، وأقرب ما يكون فيه من وصول الوصول، فإن الحق غير متناه من جميع الوجوه.

قال ابن عطاء: إذا نسيت نفسك والخلق فاذكرني فإن الأذكار لا تمازج ذكرى.

قال الجنيد: حقيقة الذكر فناء الذاكر فيه، والذكر في مشاهدة المذكور.

قال الشبلي: ما هذا خطاب أهل الحقيقة وأئني ينسى المحق الحق فيذكره، بل يذكر حياته وكونه.

وأنشد:

لَا لَأَنِّي أَنَسَاكَ أَكْثَرُ ذِكْرَكَ وَلَكِنْ بِذَلِكَ يَجْرِي لِسَانِي

وقال الجنيد: حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ لَكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت الذكر يكون المذكور صفتك، وقد وقع لي نكتة هاهنا.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ لَكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الذكر حق جميع الذات والصفات ولا نهاية لها، وذكر جميعه ما واجب الحقوق على الخلق والصفات القديمة، والذات الأولى غير مذكور بذكر الحدثن، كأنه تعالى أعلم بنيه بجميع فكره ما بلغ إلى وصف ذرة من صفته، فكل وقت مع جميع ذكره في حد النسيان، حيث لا يبلغ ذكره حقائق القدم.

قال: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ بعد ذكرك ولا تفتر عن ذكرك، فإن ذكرك على السرمدية واجب أبداً؛ لأن بعد كل ذكر نسيان عن الباقي، فإذا لا ينقطع الذكر أبداً يدل على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

أي: بمعرفتي معرفة المذكور بنعت مشاهدته، ورؤية ذاته وصفاته، بوصف فنائي

وفناء ذكر فيه .

قال الجنيد: إن فوق الذكر منزلة هي أقرب رشدًا من ذكره له، وهو تجديد للنعوت بذكره لك قبل أن يسبق إلى الله بذكره .

وأيضًا لي نكتة في الذكر أي: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا ذُكِّرْتَ﴾ فإنك إذا ذكرته بلسان الحديثه نسيت، وإن أردت أن تذكرني بالحقيقة التي لا نسيان فيها، ولا فترة فاتصف بصفتي ثم اذكرني بصفتي حتى يصل ذكرك إلي بالحقيقة.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ بالرجوع إليه والحضور ﴿إِذَا ذُكِّرْتَ﴾ بالغفلة عند ظهور النفس بظهور صفاتها ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ .

أي: من الذكر عند التلويح، وإسناد الفعل إلى صفاته بالتمكين، والشهود الذاتي المخلص عن حجب الصفات ﴿رَشَدًا﴾ استقامة وهو التمكين في الشهود الذاتي.

﴿وَلْيُبْشِرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ من التي تُبْتَنَى على دور القمر فتكون كل سنة شهرًا ومجموعها خمسة وعشرون سنة، وذلك وقت انتباههم وتيقظهم.

﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ هي مدة الحمل، وروعت في الآية نكتة هي أنه لم يقل ثلاثمائة سنة وتسعًا أو ثلاثمائة وتسع سنين؛ لاستعمال السنة في العرف وقت نزول الوحي في دورة شمسية لا قمرية، فأجل العدد، ثم بينه بقوله سنين فاحتمل أن يكون المميز غيرها كالشهر مثلاً، ثم بين أن المدة سنين مبهمه غير معينة، إذ لو قيل ثلاثمائة شهر، فأبدل سنين من مجموع العدد كانت العبارة صحيحة، والمراد سنين كذا عددًا أي: خمسة وعشرين ويؤيده قوله بعده.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقال قتادة: هو حكاية كلام أهل كتاب من تنمة، سيقولون.

وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ رد عليهم، وفي مصحف عبد الله وقالوا: ﴿لَبِثُوا﴾ وذلك أن اليقين غير محقق ولا مطرد.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون من لابتداء الغاية، والكتاب هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحى إليه، وأن تكون بيانًا لما أوحى والكتاب هو العقل الفرقي وعلى التقديرين ﴿لَا مَبْدُولَ لِكَلِمَتِهِ﴾ التي هي أصول الدين من التوحيد والعدل وأنواعهما.

﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ تميل إليه لامتناع وجود ذلك.

﴿وَلْيُبْشِرُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا

لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْصَرِبَهُ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٩﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَيشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَيشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ هذا تسلية لنبيه ﷺ فإنه كان ﷺ بقلبه في الملكوت، وبروحه في الجبروت، وبسره في مشاهدة القدم، وبقلبه في أنوار غيبه مشتاقاً إلى الحق، لا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق بالصورة، وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت؛ لما رأى بين القوسين بغير الكونين مشاهدة الجلال والجمال.

فقال سبحانه احبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي المشتاقين إلى جلالي، الذين في جميع الأوقات يسألون عني لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلتي حتى يكونوا متسللين بصحبتي عن مقام الوصال، فإن في رؤيتك لهم رؤية ذلك الجمال فتكون معهم موافقاً وسرك وعقلك وروحك وقلبك عندي فإنها مواضع تحلي كبريائي وأسرار عزتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك، فإن قلبك معادن أسرار العليين، ومزار الكروبيين وهو عرش تحلي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة أهل العدم.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾^(١) فإنهم ينظرون بعينك إليّ إذا كانت عينك في طلب مشاهدي في مرآة أفعالي من الخلق والخلقة.

﴿وَلَا تُطِيعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بأن يواسيك برؤية الأكوان والحدثان؛ لزيادة العرفان، فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه، وحجبهم برؤية الخلقة عن مشاهدة الحقيقة، فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل غفلته رؤية الأعواض، ومن غافل غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن

(١) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وآثر عدم العدّ وحبس النفس معهم: أي الصلبة بهم في عالم الحس؛ لأن هذه الصلبة أثر صلبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ فهي كالآلاد له، ولا شك أن الآباء والآلاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صلبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جداً.

غافل غفلته العيش الهنيء في الدنيا.

وأدق الغفلة السكون بما وجد من الحق والوقوف مع مقام الحظ، فالكل محجوبون عن مشاهدة الأزل صرفاً أي: لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم المحجوبين بحظوظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء والصبر معهم والاستئناس بهم.

قال الله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(١).

وقال عمرو المكي: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا.

وقال ابن عطاء: خاطب الله نبينا ﷺ وعاتبه ونبهه، وقال واصبر على من صبر علينا بنفسه وقلبه وروحه، وهم الذين لا يفارقون محال الاختصاص من الحضرة بكرة وعشيا، فحق لمن يفارق حضرته أن تصبر عليه فلا تفارق.

وسئل أبو عثمان عن الغفلة فقال: إمهال ما أمرت به ونسيان تواتر نعم الله عندك.

وقال بعضهم: الغفلة عقوبة القلب، وهو حجاب عن المنعم.

وقال سهل: الغفلة إبطال الوقت بالبطالة.

وقال الأستاذ قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ لم يقل قلبك لأن قلبه كان مع الحق فأمره بصحبة الفقراء جهراً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سر السر.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أمر بالصبر مع الله وأهله وعدم الالتفات إلى غيره، وهذا الصبر هو من باب الاستقامة والتمكين لا يكون إلا بالله ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ﴾ أي: دائماً هم الموحدون من الفقراء.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ شَاءَ فَلْيُؤْمِنُوا وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرُوا إِنَّا لَعَدُّنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ

(١) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبِلَ الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تجري عليها ليست بمجمولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَوَكَانَ أُنْزُورُ قُرْطًا﴾ تنميم لاتباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانياً؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قدّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخسر هنا إشارة إلى العلم، فتفتن هذه المقام، والله أعلم.

الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْغُمُ الثَّوَابَ وَحُسْنَتُ مَرْتَفَقًا ﴿٢٠﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رِزْعًا ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَكَلْتُمَا مِنَ الْجَنَّتَيْنِ تَانَتْ أُكْلَاهَا وَلَمَّا تَظْلِمَا مِنْهُ شَيْئًا فَجَحَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٢﴾ وَكَانَ لَهُ، ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٣﴾ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٥﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٢٦﴾ أَلَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٢٨﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّاتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٢٩﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣٠﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا انْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣١﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ إن الله سبحانه علم من كتاب نبيه ﷺ سر أسرار الأزل وماله من عند الله من علومه الغريبة وأنبيائه العجيبة من العلوم المجهولة ولطائف الحقيقة، وأحكام صفاته المشابهة من شفقتة على أمته، وعلم بضعف جلهم أثقال تلك الحقائق، فأمره الحق ألا يكتف تلك الأسرار التي إعلام فضائله وفضائل خواص أهل الولاية وأسرار الربوبية في قلوبهم ويفشيها، ولا يخاف من إيمان الخلق بها وإنكارهم عليها، فإن العاشق الصادق لا يبالي بهتك الأسرار عند الأغيار ولا يخاف لومة لائم ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم، فإن لذة عشقه في هتك الأسرار أصفى، والحلاوة عيشه في ذلك أشفى؛ ألا ترى إلى قول القائل:

أَلَا اسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا امْكَنَ الْجَهْرُ

وَبُخْ بِاسْمِ الْهَوَى وَدَغْنِي مِنَ الْكُتَى فَلَا جَبْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِنَا

كأنه تعالى حث نبيه ﷺ على التحديث بنعمه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وأشارة الظاهر أي: يبين طريق الرشد عن الغي لمن تابع الرشد فلا يتبعه إلا بتوفيق الأزل في الغي ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه: ١٢٣] إلا بسابق قدر الحق.

قال ابن عطاء: أظهر الحق للخلق سبيل الحق وطرق الحقيقة، فمن سالك فيه بالتوفيق ومعرض عنه بالخذلان.

وهذا قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فمن شاء الحق له الهداية هداة بطريق الإييان، ومن شاء الله له الإضلال سلك به مسلك الكفر وهو الضلال البعيد.

﴿مُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينيات والفضيات هي الصفاتيات النورانيات كقوله تعالى ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ يتصفون بصفات مهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾ الأحوال والمواهب؛ لكونها أطف، ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب؛ لكونها أكثف ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى﴾ أرائك الأسماء الإلهية التي هي مبادئ أفعاله لاتصافهم بأوصافه، وكون الصفة مع الذات هي الاسم المستند هو عليه في جنة الصفات والأفعال.

﴿نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ في مقابلة (بئس الشراب وساءت مرتفقا).
﴿هَٰذَا لِلَّذِينَ آمَنُوا خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿١١٠﴾ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿١١١﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١١٢﴾ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جُعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿١١٣﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا، إن الله

سبحانه وصف الذين عملهم الصالح، ترك ما دونه وهو بكرمه ورحمته يجازيهم به قربته ومشاهدته، ويدخلهم قباب أنسه رياض قدسه، وإلباسه إياهم أنوار جمال وجلاله فيكونون مزينين بحلي كرامته، ولباس أرائته مستندين به إليه بنعت رؤية الرضوان الأكبر، والحظ الأوفر نعم الثواب صلته، ونعم حسن المرتفق مرتفعهم مجالس الوصال ورؤية الكمال والجلال والجمال.

قال ابن عطاء: على آرائك الأنس في رياض القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة مستشفون على بساتين الوصلة مشاهدون مليكهم في كل حال.

قال الأستاذ: يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحلون بحلي المباشطة يتكثون على آرائك الروح يشمون رياحين الأنس، ويقيمون في حجال الزلفة، يسقون شراب المحبة.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أخبر عن كمال حفظه أولياته يوم القيامة عن التحير فيه، فإذا يحفظهم عن قهر سلطان ربوبيته، ويدخلهم في منازل وصلته فتلك الولاية الحققة له التي خص بها في الأزل أهل وداده وهي أرفع المنازل، وأشرف المناهل، وأحسن العواقب، وأكرم المناقب، والولاية الحق في الدنيا والآخرة هي ما صدرت من اختياره الأزلي وإرادته القديمة، وحقيقتها ألا يتخذ من اصطفاها بها.

قال الواسطي: من تولاه الله بالحققة فهو الولي، ومن تولاه الله فيه فهو الوالي.

قال ابن عطاء: الحق أسبق من حقيقة المحق، وهو يدعوك إلى حقه فإذا طلبته لنفسك يأتي عليك.

ألا ترى إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ هو خير ثوابًا وخير عقبًا ثواب للطالبين له لا لطالب الجنة، وخير أمد للمريدين.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَقِيَّتُ الْصَّلَاحَتُ حَزْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَحَزْرٌ أَمَلًا﴾ معناه: المحبة الدائمة غير مشوب بشوب الخلدان، ولا بغير الحمران.

وأيضًا: المعرفة الكاملة التي صدرت من رؤية ذاته وصفاته في قلوب العارفين.

وأيضًا: الأنس بالله والإخلاص في توحيد الله، والانفراد بالله عن غير الله، وهذه المنازل باقية للعارفين، وهي صالحة لا اعوجاج لها على حد الزائد، وهي خير المنازل؛ لأنها وصف بقاء العارف مع بقاء الحق.

قال جعفر الصادق: ﴿وَالْبَلَقِيَّتُ الْصَّلَاحَتُ﴾ هو تفريد التوحيد فإنه باق ببقاء الموحّد.

وقال ابن عطاء: هي الأعمال الخالصة والنيات الصادقة، وكل ما أريد به وجه الله.

وقال يحيى بن معاذ: هي نصيحة الخلق.

ويقال: ما يلوح في السرائر من تحليه للعبد بالنعوت، ويفرح نشره في سماع الملكوت، ثم أخبر سبحانه عن عظيم قدره، وجلال وعظم كبريائه، وسلطانه تخويفاً لعباده، وتبنيها لهم عن عظيم آياته بقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ إن الله سبحانه يتجلى بعظمته يوم القيامة للجبال فتقلع الجبال من أصلها، وترقص في الهواء، وتصدم بعضها بعضاً حتى تمهل وتصير غباراً من خشية الله وهيبته، وبقيت الأرض باردة؛ حتى لا يكون حجاب بين أحد من الواقفين عليها.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ أي: نذهب جبال الأعضاء بالتفتيت فتجعلها هباءً منثوراً.

قال ابن عطاء: دل بهذا على إظهار جبروته، وتمام قدرته، وعظم عزته ليتأهب العبد؛ لذلك الموقف ويصلح سريره وعلايته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

قال الأستاذ: موت الأبدال الذين هم الأوتاد، ومنهم القطب فجبال الأرض التي هي أوتادها لتقلع في القيامة، وتسير جبال الأرض اليوم بموت السادة إذ هم الأوتاد للعالم بالحققة.

﴿وَتَرَى﴾ أرض البدن ﴿بَارِزَةً﴾ لا ظاهرة مستوية مسطحة بسيطة، كما كانت لا صورة عليها، ولا تركيب فيها تراباً خالصاً ﴿وَحَشَرْتَنَّهُمْ﴾ الضمير إما للقوى المذكورة وإما لأفراد الناس ﴿فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ غير محشور.

قوله تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ عرف كل صنف من أهل المقامات والولايات، وكل من لله دعوى من بساط عزته بها هم فيه في أيام البلاء في دار العناء، فيشهد كل مشاهد مشهده فمن شاهد يشهد مشاهد المنة، ومن شاهد يشهد مشاهد الوصلة، ومن شاهد يشهد مشاهد الصفات ومن شاهد يشهد مشاهد الذات، فمن كان مشربه المحبة فيكون في بحر الجمال، ومن كان مشربة الهيبة فهو في بحر الجلال، ومن كان مشربه المعرفة فهو في بحر الصفات، ومن كان مشربه التوحيد فهو في بحر الذات، ومن كان مشربة الجولان في الأفعال فموضعه مقام الجوار في الجنان، ومن كان محجوباً في الدنيا عن هذه الأحوال فموضعه النيران.

قال الأستاذ: يقيم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص، ويلبس كلاهما هو أهله، فمن لباس تقوى، ومن قميص هدى، ومن صدار وجد من صدره محبة، ومن لبسه شوق، ومن حله وصلة.

ويقال: يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه فطهرهم يوم القيامة فينادي المنادي على أحدهم هذا الذي أطاع واتقى، وهذا الذي عصى وطغى، وهذا الذي أتى ووجد، وهذا الذي أبى وجحد، وهذا الذي عرف فأقر، وهذا الذي خالف فأصر، وهذا الذي أنعمنا عليه فشكروا، وهذا الذي أحسنَّا إليه فكفر، وهذا الذي سقيناه شرابنا ورزقناه محابنا، وشوقناه إلى لقاءنا، ولقيناه خصائص مراعتنا، وهذا الذي وسمناه بحجبتنا وحرمانه وجوه قربتنا، والبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه توفيق وفاقنا، وهذا وأخجلتنا من وقوفي وسط دراهم إذ قال لي معرضًا: من أنت يا رجل.

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ عند البعث ﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين متربين في الموافق لا يحجب بعضهم بعضًا كل في رتبة ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم ذلك اليوم لقد جئتمونا حفاة عراة عزلاً فرادى أي: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ بإنكاركم البعث ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ شاهدوا الحق على وصف فطرة الأولية حيث لا أعمال، ولا أحوال، ولا نطق، ولا أقوال محتاجين إلى عين منه ينظرون بها إليه، وإلى سمع منه يسمعون بها منه، وإلى قلب يعقلون به عنه، وإلى روح يعيشون به، وهم هناك على حد الفناء عن أوصاف الخليفة مغلوبين بأسرار قهر الأزل دهشين بين يدي جبروته؛ كأنهم يخرجون من العدم عاجزين في أنوار القدم يسألون عنهم على أي شيء كنتم، وعلى أي موقف وقفته من معرفة الجلال ومحبة الجلال فيهيجهم فضله العميم وكرمه القديم إلى نطق بالجواب فيقولون: نحن ما كنا في مهاد الولاية شاربين ألبان الزلفة من ندي القرية، ساكنين عن غبار الوحشة، والآن جئناك على لباس العبودية ملامين في دار المحبة.

قَالَتْ سَكِينَةٌ مِّنْ هَٰذَا؟ قُلْتُ هَٰذَا أَنَا الَّذِي أَنْتَ عَنْ أَغْرَائِهِ زَعَمُوا

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَٰضِرًا﴾ كتاب الأعمال يوضع الزهاد والعباد، ويوضع كتاب الطاعة والعصية للعموم، ويوضع كتاب المحبة والشوق والعشق؛ لأهل الخصوص فكم من زفرة مكتوبة، وكم من أوه مكتوب، وكم من غيرة منقوشة، وكم من حرقه معرفة، وكم من لوعة الاشتياق مشهودة، وتلك الكتب بنظائر حقائق أنوار أسرارهم مشحونة، وهي لفصائل هؤلاء المشتاقين منشورة، وأودعت الفؤاد كتاب شوق سينشر طيه يوم القرار بعرض كتبهم على الأولين والآخرين؛ حتى يعترفوا بجهلهم عن معرفتهم في الدنيا بأستار، فكم من عارف ليس كتاب، وهو من أهل السر في سر السر ما عرف ملكه ما

جرى عليه، كيف يكتبان الذي لا يعرفان ولا يرانه، فأعماله قلبية وقلبه غيبي، وغيبه أزلي لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه.

وهذا كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَابِدًا لَا يَطْلَعُ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»^(١) وهو من أهل خصوص الخصوص ظاهر الآية تخويف لمن له خاطر من الخواطر المدمومة، ونفس من أنفاسه المعدودة المعلومة المشوبة بالتفات سره إلى غير الحق.

قال أبو حفص: أشد آية في القرآن على قلبي قوله: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا» انظروا إلى المخالفات كان فيها اهلاك، ونظروا إلى الموافقات وجدوها مشوبة بالرياء والسمعة والشهوات فخوف أهل اليقظة من الموافقات أكبر من خوفهم من المخالفات؛ لأن المخالفات في مقابلة العفو والشفاعة وسوء الأدب في الموافقة أصعب وأكثر خطرًا، ولو لم يكن فيه إلا المطالبة بصدق ذلك. «وَوُضِعَ الْكِتَابُ» أي: كتاب القالب المطابق لما في نفوسهم من هيئات الأعمال الراسخة فيهم، «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ» لعثورهم به على ما نسوا «وَيَقُولُونَ بَيْنَا وَبَيْنَكَ» يدعون التهلكة التي هلكوا بها من أثر العقيدة الفاسدة، والأعمال السيئة.

«مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» لكون آثار حركاتهم وأعمالهم كلها باقية في نفوسهم صغيرة كانت أو كبيرة ثابتة في ألواح النفوس الفلكية، وأيضًا مضبوطة فيها، تظهر عليهم على التفصيل في نشاطهم الثانية لا يحصى لهم عنها وهذا معنى قوله: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُوكَ أَحَدًا» سر معنى سجود الملائكة وإباء إبليس.

وقوله: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ» كلامٌ مستأنف، كأن قائلًا قال: ما بال إبليس لم يسجد قال: كان من الجن أي: من القوى البدنية المختفية المواد؛ فلذلك فسق «عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» أي: لاحتجابه بالمادة ولواحقها.

قال الله سبحانه: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُنَّ بَعْثُوا إِلَيْكَ الْفُلُوكَ فَوَلَّيْنَاهَا فَلَا تَمْلِكُ فِيهَا مَظْمُونًا مُّذْئَقًا» [الأحزاب: ٨].

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿١٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩/١٠).

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَيْتِ لِ يُذْخِرُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءِيتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءِذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ ﴾ إن الله سبحانه عاتب من التفت إلى شيء سواه من العرش إلى الثرى، وعرف مكان الطاف ربوبيته، وفردانية ذاته وصفاته، وأعلمنا مقام تنزيه قدمه عن الأضداد والأنداد التي هي فانية تحت جبروته، وخاضعة في ميادين ملكوته القدم عن الحدوث ومن النور، وأي شيء النور والظلمة من إبليس وذريته، وإيش الأصنام والأوثان في ساحة كبريائه الأزلي الذي يفنى بسطوة من سطواته كل ما بدأ من العدم إلى الوجود، أي شناعة أشنع على من يعتمد على أحد دون عزته.

قال يحيى بن معاذ: لا يكون ولياً لله، ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شيء دون الله، أو اعتمد سواه، ولم يميز بين من يواليه ومن يعاديه، وحال إقباله من حال إدباره.

قال الله: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾.

قال الحسين: خاطبك الحق تعالى أحسن خطاب، ودعاك إلى نفسه ألطف دعاء بقوله: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إن الله سبحانه أخبر عن أولية ذاته، وتقدم صفاته حيث لا حيث، ولا أين ولا بين إلا رسم للحدث، ولا رسم كان بحر وجود جلالة مسرماً دائماً منزهاً عن نقائص الحدوثية، ولا عقل، ولا فهم، ولا علم كان في قدم عزته لا وجود لها، ولا عدم ولا رسم فلم يزل قائماً بذاته، فإذا أراد كون الخلق مشاهد صفته بنعت التجلي أخرج الكون من العدم، ولم يحتاج إلى إعانة حادث في إيجادها إذا لو شاهد

الخلق عند كونه، وإيجاد الحق وجوده تكون منقصة في نظر العدم، وكيف تكون ذلك القدم منزّه عن المعية مع الخلق.

فإذا كان كذلك فيأبى يدرك من الحدّثان وأسرار صفاته مندرجة تحت أسرار ذاته، وأسرار ذاته مخفية في أسرار صفاته للعقول بها إحاطة، وليس للقلوب بعرفاتها منزلة، وليست الأرواح؛ لإدراكها خطرة، ولا للأسرار همة هي ممتنعة عنها، يشاهدها أهل البرية التي استحقاتها من سطوة عزته وفناء.

قال أبو سعيد الخراز: لقد عجزت الخليقة عن أن تدرك بعض صفات ذاتها، وتدري كيف كنهها في أنفسها.

قال الله: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلم يملك الله الخلقية أن تحرى علم أنفسها في أنفسها فكيف يدرك شيئاً من صفات شاهدها.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۖ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ ۖ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٢١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسِيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۖ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٢٢﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ۖ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٢٣﴾ ۖ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۖ﴾.

قرى الحقائق لبعضهم نفوس، وبعضهم قلوب وبعض عقول، وبعضهم أرواح، وبعضهم أسرار، وللعموم صدور، وللعموم أشیاح فأهل الأشیاح لما لم يستعملوا الحواس؛ بما خلق الله لها من طاعته وخدمته مسخها كقول: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وأهل الصدور لما لم يراعوا أنوار الإسلام بتقليدتها عن شوب النفاق خربها الله بجند الوسواس وأهل النفوس لما لم يزكوها بصفاء المجاهدة تركها في شهواتها، وحجبها عن صفاء الذكر وأهل القلوب لما لم يراقبوا أنوار الغيوب، ولم يدفعوا عنها الخواطر المذمومة حجبها عن رؤية ملك الآخرة وأهل العقول لما لم يستعملوها بالجلولان في الأفكار، ولطائف الأذكار حجبها عن غرائب الأنوار.

وأهل الأرواح لما لم يحيلوها في ميادين الملكوت؛ لطلب مشاهدة الجبروت حجبها الحق بشواغل الرسوم وأهل الأسرار، ولما لم يعرفوا حقائقها وماهيتها؛ بأنها طروق لطائف

علومه الغيبية تركها خالية عن كشوف أحكام الربوبية، وأهل الظاهر لما لم يعرفوا المنعم باشتغالهم بالنعمة أهلكتهم الله بأن شغلهم بالنعمة عن طلب المنعم.

قال أبو بكر بن طاهر: لما لم يشكروا نعم الله عندهم، ولما يقابلوا البلاء بالصبر والرضا.

قال الواسطي: وكلنا هم إلى سوء تدبيرهم حين سخطوا حسن اختبارنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ۖ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ مَا ذَكَرَ فِي الْقِصَصِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ إنْكَارِ الْمَعْجَزَاتِ

وإما باطنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا

نَصَبًا ۖ لَمَّا أَخْطَرْنَا وَالطَّرِيقَ لَمْ يَسِرَا بِالْقَلْبِ فَأَثَرُ عَلَيْهَا النَّصَبِ، وَذَلِكَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمَا؛ بَأَن جَاوَزَا عَنْ الْحَدِّ وَسَرَّ الْقَلْبُ رَبِّمَا. عَرَفَ حُكْمَ الْغَيْبِ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ فَيَتَأَذَى النَّفْسُ مِنْ جِهَةِ الْجَهْلِ بِهِ، وَلَوْ عَرَفَ الْقَلْبُ وَالنَّفْسُ كَمَا عَرَفَ السِّرَّ لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهَا أَحْكَامُ التَّعَبِ، وَلِحُوقِ النَّصَبِ لَهَا بِأَنَّهَا فِي مَقَامِ الْمَادَّةِ وَالِامْتِحَانِ، وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ هُنَاكَ مَحْمُولًا بِحُظِّ الْمَشَاهِدَةِ؛ لَكَانَ كَمَا كَانَ فِي طُورٍ لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ تَعَبٌ وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْأَنْسِ، وَالْأَوَّلُ حَالُ أَهْلِ الْإِرَادَةِ؛ أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ قَالَ ۖ

«أَبَيْتَ عِنْدَ رَبِّي يَطْعَمَنِي وَيَسْقِينِي»^(١). وَلَمَّا كَانَ فِي طَلَبِ الْوَسَاطَةِ احْتَجَبَ عَنْ مَقَامِ

الْمَشَاهِدَةِ، وَابْتَلَىٰ بِالْمُجَاهِدَةِ أَدْبَهُ الْحَقُّ بِذَلِكَ؛ حَتَّى لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنَّهُ فِي شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ الْحَقَائِقِ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ غَيُورٌ عَلَىٰ مَنْ يَدْعُ بِالْبُلُوغِ إِلَىٰ سِرِّ الْأَسْرَارِ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَىٰ تَعْلَمَ عِلْمِ الْغَيْبِ.

وقال الأستاذ: كان موسى في هذا السفر محتملاً، وكان سفر تأديب واحتمال مشقة؛

لأنه ذهب لاستكبار العلم، وجال طلب العلم، وحال التأديب وقت تحمل المشقة، ولهذا لحقه الجوع فقال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ وَحِينَ قَامَ فِي بَدْءِ انْتِظَارِ سَاعِ الْكَلَامِ عَنْ اللَّهِ صَبَرَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَمْ يَلْحَقْهُ جُوعٌ وَلَا مَشَقَّةٌ؛ لِأَنَّهُ ذَهَابَ فِي هَذَا السَّفَرِ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ مَحْمُولًا.

فإن يقال وإذ قال: ﴿هَذَا نَصَبًا ۖ هُوَ نَصَبُ الْوِلَادَةِ وَمَشَقَّتُهَا﴾ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ ۖ مَا

عَرَانِي﴾ ﴿إِذْ أَوْتِنَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ﴾ أي: النحر للارتضاع ﴿فَلِإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ لاستغنائنا عنه ﴿وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، على إبدال أن أذكره من الضمير؛ وذلك لأن موسى كان راقداً حين اتخذ الحوت سبيله في البحر على ما

قيل، وفتى النفس يقظان، فأنسى شيطان الوهم الذي زين الشجرة لآدم، ذكر النفس الحوت لموسى؛ لكون الحال حال ذهول والسبيل المتعجب منه هو السراب المذكور.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تملص الحوت واتخاذ سبيله الذي كان عليه في جيلته ﴿مَا كُنَّا نطلبه؛ لأن هناك مجمع البحرين الذي وعد موسى عنده بوجود من هو أعلم منه، إذ الترقى إلى الكمال بمتابعة العقل القدسي لا يكون إلا في هذا المقام ﴿فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ في الترقى إلى مقام الفطرة الأولى، كما كانا أو لا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ أي: يتبعان آثارهما عند الهبوط في الترقى إلى الكمال.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ فيه إشارة خفية إن الله سبحانه خواصًا من عبادة، وهم الذين اصطفاهم لمعرفة ما استأثر لنفسه من علوم الربوبية، وأسرار الوجدانية، وحقائق الحكمة ولطائف ملكوته وجبروته، وهم أهل الغيب وغيب الغيب والسر، وسر السر الذين غيبهم الله في غيبه، وسترهم عن خلقه شفقة عليهم فيما يظهرون من سر الله، وهم العباد بالحقبة الذين بلغوا حقيقة العبودية بحيث جعل الله عبوديتهم محاذيًا لربوبيته، وإلا فالكل عباده من حيث الخليفة لكن هم العباد بالحقبة من حيث المعرفة، ولولا تلك الخاصة المحضة لما قال ﷺ: «أنا العبد، لا إله إلا الله، أنا العبد بالحقبة لا غير»^(١).

وأي تشريف أشرف لحضر ﷺ من هذه الخاصة له سواه عبدًا، ومن بالحقبة عبده لولا رحمته الكافية التي سبقت في الأزل لعباده لما يجترئ أحد من خلقه أن يقول: أنا عبدك؛ لأنه منزه عن أن يعبد الخدثان بالحقبة.

ووجد العقل القدسي وهو عبد من عباد الله مخصوص بمزية عناية ورحمة ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي كمالاً معنويًا بالتجرد عن المواد والتقدس عن الجهات النورية المحضة التي هي آثار القرب والعندية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ من المعارف القدسية والحقائق الكلية اللدنية بلا واسطة تعليم بشري.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ﴾ هو ظهور أداة السلوك والترقى إلى الكمال ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية والحقائق المعنوية لعدم تجرد أو احتجابك بالبدن وغواشية فلا تطبق مرافقتي.

وهذا معنى قوله: ﴿ وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۖ ﴾ « قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ۖ وَآتَاكَ الْقُوَّةَ اسْتِعْدَادِي وَثِبَاتِي عَلَى الْطَلَبِ ۖ وَلَا أُعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ لِتُوجِهِي نَحْوَكَ وَقُبُولِي أَمْرَكَ ۖ لَصَفَاتِي وَصَدَقَ إِرَادَتِي وَالْمَقَاوِلَاتُ كُلُّهَا بِلِسَانِ الْحَالِ

﴿ فَإِنِ اسْتَعْنَيْتَنِي ۖ فِي سَبِيلِكَ طَرِيقَ الْكَمَالِ ﴾ فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى ۖ أَي: عليك بالافتداء والمتابعة في السبيل بالأعمال والرياضات والأخلاق والمجاهدات، ولا تطلب الحقائق والمعاني ﴿ حَتَّى ۖ ﴾ يَأْتِي وَقْتُهُ ﴿ أَخْبَرْتُكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ أَي: مِنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ ﴿ ذِكْرًا ۖ ﴾ فِي الْغَيْبَةِ عِنْدَ تَجَرُّدِكَ بِالْعَامَلَاتِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ ﴿ فَانْطَلَقَ حَتَّى ۖ إِذَا رَكِبْنَا فِي السَّفِينَةِ حَرَقَهَا ۖ فِي سَفِينَةِ الْبَدَنِ الْبَالِغِ إِلَى حَدِّ الرِّيَاضَةِ الصَّالِحِ لِلْعِبَادَةِ إِلَى الْعَالَمِ الْقُدْسِيِّ فِي بَحْرِ الْمَهْيُولِ لِلْسَّارِ إِلَى اللَّهِ ۖ حَرَقَهَا ۖ أَي: نَقَضَهَا بِالرِّيَاضَةِ، وَتَقْلِيلِ الطَّعَامِ، وَأَضْعَفَ أَحْكَامَهَا، وَأَوْقَعَ الْخُلْلَ فِي نِظَامِهَا وَأَوْهَنَهَا ﴿ قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا ۖ أَي: أَكْسَرْتُمَا؛ لِتُفَرِّقَ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةَ وَالنَّبَاتِيَّةَ الَّتِي هُمَ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةُ وَاسْتَطْعَمَاهُمَا مِنْهُمْ هُوَ طَلَبُ الْغِذَاءِ الرُّوحَانِيِّ مِنْهُمْ أَي: بِوَسْطَتِهِمْ كَانْتِزَاعَ الْمَعَانِي الْكَلِيَّةِ مِنْ مَدْرَكَاتِهَا الْجَزْئِيَّةِ، وَإِنَّمَا أَبَوَا أَنْ يَضِيفُوهُمَا، وَأَنْ أُطْعِمُوهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ غِذَاءَهُمَا حَيْثُئِذٍ كَانَ مِنْ فَوْقِهِمْ مِنَ الْأَنْوَارِ الْقُدْسِيَّةِ وَالتَّجَلِّيَّاتِ الْجَمَالِيَّةِ وَالْجَلَالِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَعَانِي الْغَيْبِيَّةِ، لَا مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ كَمَا كَانَ قَبْلَ خَرَقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الْغُلَامِ بِالرِّيَاضَةِ وَالْقُوَى وَالْحَوَاسِّ، مَانِعَةٌ مِنْ ذَلِكَ لَا مَدَّةَ بَلٍ لَا تَنْتَهِي إِلَّا بَعْدَ نَعَاسِهِمْ وَهَدُوثِهِمْ .

كَمَا قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ أَهْلًا ۖ ﴾ [طه: ١٠]، وَالْجِدَارُ الَّذِي ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ ۖ ﴾ هُوَ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهَا بِالْجِدَارِ؛ لِأَنَّهَا حَدَّثَتْ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ، وَمَوْتِهَا بِالرِّيَاضَةِ، فَصَارَتْ كَالْجِمَادِ غَيْرِ مُتَحَرِّكَةٍ بِنَفْسِهَا وَإِرَادَتِهَا؛ وَلَشِدَّةِ ضَعْفِهَا كَادَتْ تَهْلِكُ فَعَبَّرَ عَنْ حَالِهَا بِإِرَادَةِ الْإِنْقِضَا، وَإِقَامَتِهَا بِإِيَّاهَا تَعْدِيلُهَا بِالْكَمَالَاتِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْفَضَائِلِ الْجَمِيلَةِ بِنُورِ الْقُوَّةِ النَّظْمِيَّةِ، حَتَّى قَامَتِ الْفَضَائِلُ مَقَامَ صِفَاتِهَا مِنَ الرَّذَائِلِ.

وَقَوْلُ مُوسَى ﷺ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ ﴾ تَلْوِينُ قَلْبِي لَا نَفْسِي، وَهُوَ طَلَبُ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ بِاِكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَاسْتِعْمَالِ الرِّيَاضَةِ؛ وَلِهَذَا أَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۖ ﴾ أَي: هَذَا هُوَ مَفَارِقَةُ مَقَامِي وَمَقَامِكَ وَمُبَايَنَتِهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ حَالِي وَحَالِكَ، فَإِنَّ عِمَارَةَ النَّفْسِ بِالرِّيَاضَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ لَيْسَتْ لِتَوْقِعِ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ فَضَائِلُ وَلَا كِمَالَاتُ؛ لِأَنَّ الْفَضِيلَةَ هِيَ التَّخَلُّقُ بِالْأَخْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ بِحَيْثُ تَصْدُرُ عَنْ صَاحِبِهَا الْأَفْعَالِ الْمَقْصُودَةِ لِذَاتِهَا لَا لْغَرَضٍ، وَمَا كَانَ لْغَرَضٍ فَهُوَ حِجَابٌ وَرَذِيلَةٌ لَا فَضِيلَةَ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ طَرَحُ الْحِجَابِ، وَانْكَشَافُ غِطَاءِ صِفَاتِ النَّفْسِ وَالْبُرُوزُ إِلَى عَالَمِ النُّورِ؛ لِتَلْقَى

المعاني الغيبية، بل الاتصاف بالصفات الإلهية، بل التحقق بالله بعد الفناء فيه لا الثواب كما زعمت.

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي: لما اطمأنت النفس واستقرت القوى أمكنك قبول المعاني وتلقي الغيب، الذي نبئتك عن السؤال عنه حتى أحدث لك منه ذكرًا فسأذكر لك، وأنبتك بتأويل هذه الأمور إذا استعددت لقبول المعاني والمعارف.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ ﴾^(١) في بحر الهيولي أي: القوى البدنية من الخواص الظاهرة والقوى الطبيعية النباتية، وإنما سبها مساكين؛ لدوام سكونها وملازمتها لتراب البدن، وضعفها عن ممانعة القلب في السلوك والاستيلاء عليه كسائر القوى الحيوانية. وحكي أنهم كانوا عشرة إخوة خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر، وذلك إشارة إلى الخواص الظاهرة والباطنة.

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ بالرياضة؛ لئلا يأخذها ملك النفس الأمانة غصبًا، وهو الملك الذي كان وراءهم أي: قدامهم ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ بالغواشي البدنية أو القلب الذي مات، أو قتل قبل الكمال باستيلاء النفس في المدنية البدن.

﴿ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَثْرٌ لَّهُمَا ﴾ أي: كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب، لا مكان اجتماع جميع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال، وهو حال بلوغ الأشد واستخراج ذلك الكنز.

وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين: كان الكنز صحفًا فيها علم.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا ﴾ على كلا التأويلين ﴿ صَالِحًا ﴾.

وقيل: كان أبا أعلى هما، حفظهما الله له فعلی هذا لا يكون إلا روح القدس.

وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ولاية وقرأ ومشاهدة ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ معرفة كاملة، وعلمًا من علومه المجهولة الغيبية التي مكتومة عن كثير من الأخيار، وهو علم اللدني الخاص الذي استأثره الله لنفسه، والخواص خواصه، وذلك العلم حكم الغيب على صورة مجهولة حقائقها مقرونة بمنافع الخلق، وهذا يتعلق بعلم عالم الأفعال التي براهينها لاستحكام العبودية.

(١) أي: ضُعفاء لا يقدرّون على ممانعة الظلمة، فسبهم مساكين؛ لذمهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ احْنِي يَسْكِينًا، وَأَمْنِي يَسْكِينًا، وَاحْشُرِي فِي زُمَرَةِ الْمَسْكِينِ» فلم يرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والتخضوع، أي: احشُرِي تَخَبُّتًا متواضعا، غير جبار ولا متكبر.

وأخص من ذلك الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة، وأخص من ذلك علم الصفات، وأخص من ذلك علم الذات، وعلم التشابه خاص في العلم المجهول فكل ما يتعلق هذه العلوم يكون بالمشاهدات، وظهور المغيبات وعلم القدم الذي هو وصف الحق تعالى من علم الربوبية يتعلق بالإلهام الخاص، وسماع كلام القديم بغير الوساطة، وفوق ذلك ما استأثر الحق لنفسه خاصة، وليس للخلق إليه سبيل بحال.

قال ذو النون: العلم اللدني هو الذي محكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.
قال ابن عطاء: علم بلا واسطة للكشوف، ولا بتلقين الحروف لكنه الملقى إليه بمشاهدة الأرواح.

قال الحسين: العلم اللدني إلهام أدخل الحق الأسرار فلم يملكها انصراف.
وقال القاسم: علم الاستنباط بكلفة ووسائط، وعلم اللدني بلا كلفة ولا وسائط.
وقال الجنيد: العلم اللدني ما كان محكمًا على الأسرار من غير ظرفية ولا خلاف واقع؛ لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات، وذلك يقع للعبد إذا زم جوارحه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كل الإرادات، وكان شجاعًا بين يدي الحق؛ بلا تمن ولا مراد.
قال سهل: الإلهام ينوب عن الوحي كما قال الله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] وكلاهما إلهام.

وقال الأستاذ: إذا سمى الله إنسانًا بأنه عبده جعله من جملة الخواص، فإذا قال: عبدي جعله من خواص الخواص.

وقال العلم اللدني: ما يحصل من طريق الإلهام دون التكلف بالطلب، ويقال: ما يعرف به الحق أوليائه مما فيه صلاح عباده.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ١٠١ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ١٠٢ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ١٠٣ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ١٠٤ ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ١٠٥ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ١٠٦ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ١٠٧ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ ١٠٨ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ١٠٩ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُدًا ﴾^(١) أحسن الأدب موسى ﷺ حيث استأذن في المتابعة عرف موسى أن علم الحق لا نهاية له، فاشتاق إلى ما فوق علمه، فاستعلم مكنونه من مواضع تجليه وخاصة خطابه، وذلك الرشد الأعلى بحيث إذا علم عرف في جنبه الحق بنعت خاص دون ما علمه السيار والسباح في بحر وحدانيته، وميادين قدرة غرثائه إلى علم ألوهيته، ولا بأس، فإن ذلك العلم الذي عند الخضر لم يكن عند موسى، فأراد سبحانه أن يعرف موسى ذلك العلم السري النور الغيبي فامتن بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريق ولتقويم السنة في متابعة المشايخ، وليكون أسوة للمريدين والقاصدين في خدمتهم أشياخ الطريقة، وكان موسى أعلم من الخضر بما عنده من الحق، ولكن ليس عنده ما كان عند الخضر في ذلك الوقت فساعده التوفيق، فعرف منه أبواب تلك الأسرار المكتومة، فدخل في باب علم الخضر إلى عالم العلم المجهول، وبلغ إلى مقام فيه غاب علم الخضر، وعلم جميع الخلق هناك، وهذا زيادة فضل الله على موسى.

قال فارس: إن موسى كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى.

وقال أيضًا: إن موسى كان مبقى عليه صفته؛ لياخذ الغير أدبه، فمن انقطع عن الرياضة كان على حسب العصمة والتمكين فيه، والخضر كان فانيًا مستهلكًا، والمستهلك لا حكم له، وموسى كان باقيًا بالحق، ولا فرق بينهما؛ لأنها تكلما من معدن واحد، ثم إن الخضر تعلل، ودفع صحبة موسى ﷺ ونسب موسى إلى قلة الصبر معه، وبقلة العلم بما عنده وهو يعلم أن موسى أكرم الخلق على الله في زمانه، وهو رجل منبسط معربد، ففزع من صحبته فدفع صحبته بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فقرر الصبر بالعلم، وبين أن قلة الصبر من الجهل، وكان موسى صابرًا عالمًا، ولكن من حمية في دينه وشريعته، لم يقبل ما لا يوافق الشرع، وذلك ليس قلة الصبر، ولا قلة العلم؛ إنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحفظ لحدود الله، كان موسى مستغرقًا في بحر جمال الحق وسعاع كلامه المسفر منه بلا وساطة، وذلك الكلام أخبره عن سر الأسرار، وغرائب علوم الربوبية، وكان فارغًا عن

(١) فصار جوابه لن من الحق ومن الخلق ليقى موسى بلا موسى ويصفو موسى عن كل نصيب لموسى بموسى. تفسير حقي (٤/٢٦٨).

صورة رسوم علم المقادير التي تتعلق بالمنافع والمضار فعلم الشيخ شأنه؛ إنه مع حاله وسكره بوصال الحق لا يحتمل مالا يتعلق بتلك الكشوفات، ولا بأس به وإن لم يعلم ذلك العلم فإن السلطان لا يضر به إن لم يعلم علم التجارة.

قال جعفر: لن تصبر مع من هو دونك فكيف تصبر مع من هو فوقك؟

وقال بعضهم قال الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ثم لم يصبر مع الخضر بقوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ليعلم أنه ليس لولي أن يفرس في نبي.

قال بعضهم: آيسه من نفسه؛ لئلا يشغل صحبته عن صحة الحق، ولما عزم أمر طلب الزيادة في موسى ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ تأدب موسى واستثنى؛ لأنه كان عالماً بأن الصبر لا يكون إلا بالله.

قال فارس: موسى ﷺ استثنى على نفسه بقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أو لم يستثن الخضر على موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: لأن علم موسى في ذلك الوقت علم تكليف واستدلال، وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب، وقال: موسى كان على مقام التأديب، والخضر قائم مقام الكشف والمشاهدة لما جعل مؤدباً له، ثم علم الخضر أن موسى صغر في عينه علم من كان على وجه الأرض، ولا يلتفت من مقامه الذي هو الشهود مشهد رؤية الذات والصفات إلى ما يظهر من المقدرات في عالم الصورة التي تتعلق بمنافع الخلق من جلال شأنه عند الله، وعظيم علمه بنعت الله وصفاته فأكد الأمر: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ دفع سؤاله فإن الصادق يعلم الواقعة إذا كان متحققاً، وتبين له ما يريد بصدقه وإخلاصه، ولا يحتاج إلى السؤال وحق المتابعة السكون عند تصرف الأستاذ.

قال الحصري: علم الخضر قصور علمه عن محل سؤال موسى، وإنه لجأ إليه للتأديب لا للتعليم فقال له: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ لأن علمك أعلى وأتم، وإنما أُلجئت إلى التأديب لا للتعليم في خاص حال من الأحوال.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ قال هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأَتُبِّدُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ سلكا طريق السؤال يتعلق

بتدليل النفس في الطريقة، فلما أبوا أن يضيفوها نزلا من مقام السؤال إلى الكسب والكسب من أوصاف السالكين، والسؤال من أوصاف المجذوبين الذين لا يطيقون أن يشتغلوا بالمكاسب، ويضيعوا أنفسهم بالاستغفال بالكسب بل يسألون ما يحتاجون بلحظة، ويفرغون من ذلك بلحظة، وطريق السؤال بالحقيقة للتمكين أن يكون المستول في البين هو الله عز وجل، والسؤال سبب ضعيف، فإذا كمل الحال يسقط السؤال والكسب، وفيه بيان أن الكسب والسؤال لم يمنعا العارف من مقام الرضا والتوكل؛ لأن مع جلالة قدرهما سألوا واكتسبوا وكانا في محل التوكل والرضا على أحسن الأحوال.

قال الواسطي في قوله: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ الخضر شاهد أنوار الملك، وشاهد موسى الوسائط، وكان الخضر أخبر موسى أن السؤال من الناس هو سؤال من الله فلا تغضب عن المنع فإن المانع، والمعطى واحد، فلا تشهد الأسباب، وأشهد المسبب تشريح من هو اجس النفس، ولما أقام الخضر الجدار، وترك أجر العمل.

قال موسى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لم يكن موسى يطمع في أجره العمل لكن وجد أهل القرية ثامًا بخلاء أراد أن يأخذ أجره العمل ويتصدق بها لأميرين شحنه لعيون البخلاء داء.

هكذا قال عليه السلام في وصف تلك القرية قال: كانت قرية اللثام، وقال: طعام البخيل داء، ويمكن أنه أراد أن يأخذ الأجرة، ويأكل منها الأنبياء فيغفر الله لأهل القرية ذنوبهم ويجعلهم أسخياء ببركتهم، وكان موسى في مقام الرفاهية والأنس، وتضر به المجاهدة، وكان الخضر بعد قد بقي في منازل، وكان موسى في بحر نيران الاشتياق، ولا يصبر عن الطعام، وهكذا حال أهل النهايات، وكان عليه السلام في بدء الأمر في مقام السماع والمشاركة صبر عن الطعام والشراب أربعين يومًا، وكان نبينا عليه السلام من المعراج روي أنه جاع في الساعة، وذلك من صولة الحال، وكان ميل الخضر إلى ترك أجره العمل، وهذا من دأب الفتيان.

قال ابن عطاء: رؤية العمل وطلب الثواب به يبطل العمل.

ألا ترى الكليم لما قال للخضر: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كيف فارقه.

وقال الجنيد: إذا وردت ظلم الأطلاع على القلوب حجبست النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم، ولما انتهى علم الخضر إلى كمالها وعرف موسى شأنه، وحد علمه، وكاد أن يغلب على الخضر بأن يطلب منه أسرار العلوم الربانية الصفاتية الذاتية علم الخضر أنه بنفسه لا يطيق أن يجيبه، مما يدفعه فيفرغ منه فعلى بقوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ عرف الخضر سر موسى وآتسه بجمال الحق، وأنه ممتحن في صحبته فأراد أن يريجه من صورة العلم

والعمل، وأيضاً عرف حداثته، وخاف من جواب سؤاله الذي من عالم سرّ سر الربوبية العلية فخاف منه بأن يتناول على شيخ من شيوخ القصة، وكيف لا يفرغ منه وعلم وكزته التي ذهبت بإحدى عيني عزرائيل عليه السلام.

قال النصر أبادي: لما علم الخضر انتهاء علمه وبلوغ موسى إلى منتهى التأدب، قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾^(١) لئلا يسأله موسى بعده عن علم أو حال فيفصح.

وقال أبو بكر بن طاهر: كان موسى ينهى الخضر عن مناكير في الظاهر، وإن كان للخضر فيه علم لكن ظاهر العلم ما كان يأمر به موسى فلما ناه عن المعروف بقوله: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ورده الطمع.

قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾.

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا بَدَلْنَاهُ أَقْرَبَ رَحْمًا^(٢) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(٣) وَتَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا^(٤) ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ قد عجت من هذا الأمر، وأن الله سبحانه كان في الأزل عالماً بذلك قادراً على أن يخلقه مؤمناً، ولم يطبع على قلبه الكفر حتى لا يكون أبواه بسببه كافرين، لكن حكمته الأزلية جارية بغير إدراك إفهام الفهماء، وهو لا يحتاج إلى قتل الغلام بغير جرم، بل هو قادر على أن يهديه إلى طريق الحق؛ حتى لا يغشى عليه، وعلى أبويه ظلمة الكفر ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨] و ﴿ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١] ظاهر الآية كأنها تنبئ أن اكتساب البشر مانع القدر، تقتل الخضر الغلام بمنح صيرورة كفر أبويه، والأمر على مما يتوهم المتوهمون فيه؛ لأن ذلك بيان وصف عين الجمع في العالم أن الخضر كان فعل الله، والغلام فعل الله، والقتل فعل الله،

(١) فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المال والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوي الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوع تعريض به، وعناية عليه السلام. البحر المديد (٣/ ٤٢٤).

والأمر أمر الله، والقدر قدر الله، فمن حيث القدر يثبت، ومن حيث الفعل يمحو ما قدر يمحو الله ما يشاء مما قدر في الأزل، بقدر أسبق من ذلك القدر، وهو علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر، وأمر الأمر ويثبت مما يشاء مما قدر الذي لم يسبق عليه قدر القدر، فهو في جميع ذلك واحد من كل الوجوه، السبب صدر من المسبب والمسبب والسبب في عين الجميع واحد.

كان نظر الخضر إلى القدر الظاهر، ونظر موسى إلى قدر القدر، كان موسى احتج على الخضر؛ بأن القدر سبق على بقاء إيمان أبيه، وإيمان المقتول معاً، وإن لم يكن القتل في البين، واحتج الخضر على موسى بأن قتل الغلام كان أيضاً مقدراً في أزل الأزال، وهو بذاته فعل الله المباشر في أمر الله، فلما علا علمه بالقدر على علم موسى.

قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ وأظن في ذلك أن الغلام كان حسن الوجه، وكان فيه نور من كسوة حسن الحق، فخاف الخضر على أهل الحق ومعرفته أن ينظروا إليه ويستأنسوا بما يجدون من نور الله فيه، فيقفون بالوسائط عن مشاهدة الله، فقتله بغير الله ورفع الوسائط من بينه وبين أحبائه وأتنيائه وأوليائه.

قال بعضهم: تفرس الخضر في الغلام ما تتول إليه عاقبته من الكفر، كذلك من تفرس بنور الله لا يحظى فراسته، قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ هذه الإرادات على صورتها مختلفة، وفي الحقيقة واحدة؛ لأن الإرادة بالحقيقة إرادة الله إذ الإرادات صدرت بصنوفهم عن إرادة الله فقلوه: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ خبر عن عين الجمع والاتحاد، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ خبر عن الاتصاف والانبساط وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ خبر عن أفراد القدم عن الحدوث، وتلاشي الحدث وفناء الموحّد في الموحّد، وهذه الإرادة بوصفها باطن المشيئة، وباطن المشيئة غيب الصفة، وغيب الصفة سر الذات، والذات غيب جميع الغيوب، ولما تحرك من وصف الاتحاد قطعتة الغيرة من محض الاتحاد إلى عين الجمع وقطعتة الجمع إلى الاتصاف، ومن الاتصاف إلى الانبساط، ثم أغرقته بحر الألوهية، وأفتته في لججها عن كل رؤية، وعلم وإرادة فعل، وإشارة كان الحق بفصله نطق في الأول والثاني والثالث، ولم يبق في البين إلا الله.

قال ابن عطاء لما قال الخضر عليه السلام: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ أوحى إليه في السر من أنت؛ حتى تكون لك إرادة فقال في الثانية: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ فأوحى إليه في السر من أنت وموسى؛ حتى تكون لكمال إرادة فرجع وقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾.

وأيضاً قال أما قوله: ﴿ فَأَرَادَتْ ﴾ كان شفقة على الخلق، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ رحمة، وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ رجوعاً إلى الحقيقة.

وقال الحسين في قوله: ﴿ فَأَرَدَتْ ﴾ وأردنا ربك المقام الأول استيلاء الحق، والمقام والثاني مكاملة مع العبد، والمقام الثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر، فصار به باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان وعيان العيان غيب الغيب، كما أن القرب من الشيء بالنفوس هو البعد فالقرب منها بما هو القرب.

قصة ذي القرنين مشهورة، وكان رومياً قريب العهد والطبيعي أن ذا القرنين في هذا الوجود هو القلب الذي ملك قريته أي: خافقيه شرقها وغربها ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ في الأرض البدن بالأقدار والتمكين على جميع الأموال من المعاني الكلية والجزئية، والسير إلى أي قطر شاء من الشرق والمغرب ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ إرادة من الكمالات ﴿ سَبَبًا ﴾ أي: طريقاً بتوصل به إليه ﴿ فَأَتْبَعَ ﴾ طريقاً بالعلق البدني وتوجه إلى العالم السفلي.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي: مكان غروب شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي: مختلطة بالحمئة وهي المادة البدنية الممتزجة من الأجسام الفاسقة، كقوله: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ هم القوى النفسانية البدنية والروحانية ﴿ قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ بالرياضة والقهر والإماتة ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالتعديل وإيفاء أحظ ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ بالإنفراد وعدم الاستسلام والانقياد كالشهوة والغضب والوهم والتخيل ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالرياضة

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ في القيامة الصغرى ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ بالإلقاء في نار الطبيعة ﴿ عَذَابًا نُكَرًا ﴾ أي: منكراً أشد من عذابي، وفي القيامة الكبرى فيعذبه عذاب القهر والإفناء ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ بالعلم والمعرفة كالعاقلتين، والفكر والحواس الظاهرة ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ بالسعي في اكتساب الفضائل والانقياد والطاعة ﴿ فَلَهُ جَزَاءٌ أَحْسَنُ ﴾ المثوبة ﴿ أَحْسَنُ ﴾ من جنة الصفات، وتحليات أنوارها وأنهار علومها ﴿ وَسَمَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: قولاً ذا يسر بحصول الملكات الفاضلة ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ ﴾ طريقاً هي طريق الترقى والسلوك إلى الله بالتجرد والتزكي.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي: مطلع شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ هم العاقلتان والفكر والحدث والقوة القدسية ﴿ لَمْ تَجْعَلْ لَهُم مِّنْ ذُوْنهَا سِتْرًا ﴾ أي: حجاب بالنور بنورها؛ لإدراكهم المعاني الكلية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أمره كما وصفنا ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من العلوم والمعارف ﴿ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ لا يتجاوزن حاجزًا لا يعلونه، وذلك هو الحد الشرعي والحجاب القلبي من الحكمة العملية ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ من المعاني الكلية والجزئية الحاصلة بالتجربة، والسير في المشرق والمغرب ﴿ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي: عمل وطاعة.

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هو الحكمة العملية والقانون الشرعي ﴿ ءَاتُونِي زُرًّا الْحَدِيدَ ﴾ من الصور العلمية وأوضاع الأعمال ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ ﴾ بالتعديل والتقدير ﴿ قَالَ ﴾ للقوى الحيوانية ﴿ أَنْفُخُوا ﴾ في هذه الصور نفخ المعاني الجزئية، والهيئات النفسانية من فضائل الأخلاق.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أي: علا برأسه من جملة العلوم يحتوي على بيان كيفية الأعمال ﴿ قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ والنية والقصد الذي يتوسط بين العلم والعمل، فيتحد به روح العلم وجسد العمل، كالروح الحيواني المتوسط بين الروح الإنساني والبدن، فحصل سدًا أي: قاعدة وبيان من زبر الأعمال ونفخ العلم والأخلاق، وقطر العزائم والنيات، واطمأنت به النفس وتدبرت فأمنت.

﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ ^(١) ويعلوه؛ لارتفاع شأنه وكونه مشتملاً على علوم وحجج لم يمكنهم دفعها والاستيلاء عليها ﴿ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لاستحكامه بالملكات والأعمال والأذكار ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ السد أي: القانون ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّي ﴾ على عباده يوجب أمنهم وبقائهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بالقيامة الصغرى ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ باطلاً منهدمًا؛ لامتناع العمل به عند الموت وخراب الآلات البدنية.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ ^(٢) فَاتَّبَعَ سَبَبًا ^(٣) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَسْدَآ

(١) أي: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلداً، فجاء بأجوج ومأجوج فقصودوا أن يعلوه أو ينتقبوه. البحر المديد (٤٣٥/٣).

الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿١٨﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿١٩﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٢١﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٢٢﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٢٣﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٢٥﴾ قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَا جُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٢٦﴾ قَالَ يٰ مَكِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٢٧﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٢٨﴾ فَمَا اسْتَطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَبَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٢٩﴾ قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٣٠﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لَجْمَعَنَّهُمْ جَمْعًا ﴿٣١﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أخبر سبحانه عن ذي القرنين عليه السلام أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان يجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهاناً، وحكمة، وعلماً، ومعرفة بالله، وسبباً إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، ويبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدرج الترقى من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكل؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحداث التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه عليه السلام حيث أخرجه من الحداث وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

وهذا وصف قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨].

وقال: ﴿مَا رَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ جعلنا الدنيا طوع يده فإذا أراد طويت له

الأرض، وإذا أحب انقلبت له الأعيان، وإذا شاء مشى على الماء، وإذا هوى طار في الهواء، وكذا من أخلص سريره مكناه من مملكتنا ينقلب فيها كيف يشاء، فمن كان الملك كان المملك له.

وقال جعفر: إن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، وجعل الأسباب معاني الوجود، فمن شهد السبب انقطع عن المسبب، ومن شهد صنع المسبب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، وإذا امتلأ قلبه من الزينة حال بينه وبين الملاحظة، وحجبه عن المشاهدة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: من عرف الله وشاهده وبرئ مما دونه.

﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى﴾ يعنى له وصل الحق أبداً جزاء هذه المعاملات الحسنة.

وأيضاً زيادة المعرفة بجلال الله وعظمته، وتلك المعرفة الحسنى من الله .

قال ابن عطاء: من صدق الموعد، وأحسن اتباع أوامره فله جزاء الحسنى، وهو أن يرزقه الله الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعمة، ونزع من قلبه حب الشهوات والدنيا وسواس النفس والشيطان.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ بالاضطراب والاختلاط أي: تركناهم يختلطون لاجتماعهم الروح مع عدم الحيلولة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث في النشأة الثانية ﴿جَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أو بالقيامة الكبرى حال الفناء، وظهور الحق جعله دكاً؛ لارتفاع العلم والحكمة هناك، وظهور معنى الحل والإباحة، بتجلي الأنعال الإلهية وانتفاء الغير وفعله ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ حيارى مختلطين شيئاً واحداً لا حراك بهم، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ بالإيجاد بالوجود الحقاقي حال البقاء، فجمعناهم جمعاً في التوحيد والاستقامة والتمكين، وكونهم بالله لا بأنفسهم.

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ أي: يوم القيامة الصغرى يتعذب المحجوبون عن الحق بأنواع العذاب والنيران، كما ذكر في سورة «الأنعام» أو في ذلك الشهود أي: ظهر لصاحب القيامة الكبرى تعذيبهم في نار جحيم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾
أَحْسِبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ كانت أعينهم في غطاء

غيرته، وشقاء مشقته عن النظر إلى مرآة الكون بالحقيقة؛ حتى يروا حقيقة ماهية الأشياء التي لطائفها تذكر القلوب عجائب أنوار الذات والصفات.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: محجوبة عن آياتي وتجليات صفاتي الموجهة لذكري ﴿لَا يَبْغُونَ﴾.

وأيضاً أعينهم في غطاء الشقاء، ولا يرون جمال القرآن الذي هو مذكر جميع الذات والصفات القديمة.

وأيضاً كانت أعينهم في علم الأزل مسدودة عن رؤيتنا.

وأيضاً وصفتنا التي مذكرة ذكرها ذكر، وصف القدم لأهل العدم بعد كونهم، وبعد غيبتهم عنا ولا يسمعون كلامنا بالحقيقة، ولا يسمع آذان قلوبهم وأرواحهم وعقولهم أصوات هوائف غيبنا.

قال ابن عطاء: أعين نفوسهم في غطاء عن نظر الاعتبار، وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة العيان في الملكوت، فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح رأسه نظر الاعتبار وقال: لا يستطيعون سمعاً؛ لأن آذانهم مسدودة عن سماع الحق، ولم يفتح له سمع السماع كيف يسمع بظاهر سمعه، وهو تبع لسمع قلبه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَتَلْكَ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٢٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٧﴾ وصف الله أهل الرياء والسموس والناموس الذين يجلسون في الصوامع؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس، وطلب الرياسة

(١) في قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دل عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقاً: أي ثابتاً، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، من خفت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عديمها الكفار.

والسلطنة ضل سعيهم في الدنيا والآخرة حين يفتضحون في أعين الخلق؛ لأن الله سبحانه عن صفته أن يفتضح المرائين في الدنيا، ومع ربايهم يجهلون سوء عواقبهم، ولا يعرفون أن ما هم فيه عين الشرك والضلالة، ويحسبون أن أعمالهم حسنة، وكيف يقع الحسن على أعمالهم، وهم فيها يشركون بنظرهم فيها إلى غير الله.

قال رحمه الله: «أدنى الرياء شرك»^(١).

سُئل أبو بكر الوراق عن هذه الآية قال: هو الذي يبطل معروفه في الدنيا مع أهلها بالمنة، وطلب الشكر على ذلك، ويبطل طاعته بالرياء والسمة.

ثم إن الله سبحانه وصف عقب ذكر هؤلاء المبطلين أهل الإخلاص من الصالحين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي: إن الذين عاينوا الحق وصبروا في الحق، وتمكنوا في إخفاء الأسرار، واستقاموا في إدارة قلوبهم بوصف الهدف عند أصالة سهام الربوبية فيه كانت في الأزل لهم باختيار الحق واصطفائيته لهم بساتين فردوس جلاله وجماله ولطائف وصاله وأسرار كماله إلى أبد الآبدين لا يحتاجون عنها أبداً؛ لأن من وصل إليه صار مستقيماً بالحق مقدساً بقده عن علل الحجاب، والاعوجاج والتحويل.

قال أبو بكر الوراق: من أنزل نفسه في الدنيا منزل الصادقين، أنزله الله تعالى في الآخرة منزل المقربين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ متنعمين فيها نعيم الأبد ينقلبون في مجاورته، ويفرحون بمحرضاته قد آمنوا كل خوف، ووصلوا إلى كل محبوب، ولا يشتهون شيئاً إلا وجدوه كيف يطلبون عنه تحويلاً؟

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾ إن الله سبحانه أخبر بهذه الآية أن أوهام الخليقة تقاصرت عن إدراك علومه وحكمته بالحققة، وأن أبصارها كليلة عن الإحاطة بذاته، وأن قلوبنا عاجزة عن فهم معاني صفاته في ذاته وذاته في صفاته، وأن الكون لو كان كمل بحره

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٤/ ٣٦٥).

منه بحر الأساعي لها مداد، وإن من العرش إلى ثرى كل ذرة منها ميداناً وصحارى من أقلام، وجميع الأولين والآخرين من الأزل إلى الأبد يكتبون كلمات القدية لفنيت الكل عن حصرها، وبقيت الكلمات غير محصورة الحدثن، وكيف ذلك والحوادث منتهية، وصفات الأزلية منزهة عن نقائص الحدوثية والعدد والمدد من قبل الخليفة، فلو كان بالمثل هذه البحور والأقلام والأيدي، تكتب ما في قلب عارف في ساعة من كلام الحق وخطابه وحديثه ووحيه لنفد البحر، وينقطع الأقلام والأيدي، ولا تنتهي تلك الكلمات؛ لأنها قائمة بالصفات والذات والصفات منزهة عن تقدير المقدرين، وحسبان المتوهمين، وحساب المحاسنين.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ﴾ [لقمان: ٢٧].

وإشارة الحقيقة أي: لو كان بحار القلوب مملوءة من مداد الخواطر وأسرارها التي تدور في سرادق الكبرياء أقلاماً، وتستمد مدادها من بحر الأفعال؛ لنفدت عند نشر معاني علم الله في كلمة من كلمات الله؛ لأن ملك البحار فعالية والكلمات صفاتية، والأفعال متلاشية تحت أنوار الصفات، ولا تعجب أن جميع الأكوان من العرض إلى الثرى؛ لو كانت كل ذرة منها ألف بحر لا ساحل لها يكون قطرة من بحر خواطر القلوب وأسرارها سبحان المنزه عن إحاطة المخلوقات بشيء من علمه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠].

قال الحسين: مقياس العدم في الوجود في معنى جوده فيما خاص الخاص من كلامه فلو كانت أبد الأبد أقلاماً ومداداً وبياضاً ما نفذ معاني كلمة من كلماته، ولا يوصف أكثر مما قد أشير إليه، وإننا يذكر الناس ما يفيدهم معاني العبودية من علم وثواب عقاب، ووعد وعيد على حسب ما يحتمل عقولهم، فأما الكمال من فائدة الكلام فللأنبياء والأصفياء والأولياء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إن الله سبحانه زين حبيبه بأنوار الربوبية، وجعله متصف بصفاته متخلقاً بخلق، وكان مرآة الحق في العالم يتجلى منه للعالمين فمن كان له عين من عيون الله مكحولة بسنا ذاته ينظر بها إليه، ويرى بالحق فيه جمال الحق فكاد من عليه شوقه إلى جمال ألا يبرح لحظة من عنده، ولا يتفرغ إلى صورة العبادة فأخبر الله

سبحانه بلسانه بأنه مخلوق، وإن كان متخلقا بخلقه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمره بأن يعرفهم أفراد القدم عن الحدوث بعد كونهم في رؤية عين الجمع فلا يرضى عنهم برؤية عين الجمع؛ بل يرضى عنهم برؤية جمع الجمع لذلك: ﴿أَتَمَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: من نظر إلى غيره، وإن كان متلبسا بنوره ملبسا بسنائه فقد أشرك في التوحيد. لذلك قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»^(١).

وزاد التأكيد في تقديس الأسرار عن ملاحظة الأغيار في مشاهدة الملك الغفار قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾ أي: من كان من أهل مشاهدة الله، ورجاء وصوله واليقين في حقوقه إلى قربه فلتكن أعماله في السر والعلانية مقدسة عن نظر نفسه ورؤية أعواضها في قلبه، والتفات عقله إلى غير الله فالفرد لا ينبغي إلا للفرد، والفرد يكون بالفرد فردا فمن أفردته الحق يكون منفردا عن غيره لا بغير شيء من الحدثن.

قال الأنطاكي: من خاف المقام بين يدي الله عز وجل؛ فليعمل عملا يصلح للعرض عليه، والله عجب من أقوال مشايخي - رحمة الله عليهم - في العمل الصالح، وأين العمل الصالح، والعمل الصالح ما يصلح للقدم، وأين الحدث من القدم؛ حتى يصلح له؟

قال يحيى بن معاذ: العمل الصالح ما يصلح بأن تلقى الله به، ولا تستحي منه في ذلك. قال سهل: العمل الصالح المقيد بالسنة، ثم إن الله سبحانه بين أن ما يكون من الأعمال الصالحة خاصة لوجهه يصير خالصا عن إشارة الأغيار، وأن يخطر بقلب العامل ذكر الأشياء الحدثنانية في مباشرة العمل، وأي: شرك أعظم من أن يرى لنفسه قيمة عند مباشرة العمل، فينبغي أن يتفرد بقلبه وسره وخاطره عن أن يكون له نظر إلى وجود؛ بل يكون فانيا بحقيقة الفناء في بقاء الحق.

قال الأنطاكي: لا يراني بطاعته أحدا.

قال جعفر: لا يرى في وقت وقوفه بين يدي ربه غيره، ولا يكون في همه وهمته غيره، وعجبت من سر التوحيد؛ لأن الله سبحانه خاطب الخلق من حيث الخليفة لا من حيث الحقيقة، وأين الحدث؟ وشركه في وجود القدم حتى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الأحدية صفة الموحّد القديم، وعبادة اسم الأحد عرف الأسماء، والصفات خارجة عن العرف، فإذا كان اسم العدد في الوجدانية معزولا، فأين اسم وحدة الحدثنان في وحدة الحق؟ قال الله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّزَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيِّصَ﴾ ۞ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞

﴿كَهَيِّصَ﴾ ۞ أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القديمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبيتهم في قفار الأوليّة والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأوليّة الأوليّة، وأيضًا تجلّي من كينونيّة الأحديّة التي قيل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقاءه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فأنكشف لهم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغييبهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئًا فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.

ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكتبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها وعجبتها، فلما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي

«الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيبان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيما وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباد، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية ينادي بلابل بساتين ورد وصّاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق والمحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومدانته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانسياط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجياله وجلاله وصحبته ووصاله، وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾، وتخصيص زكريا برحمته وذكره أنه كان عاقراً تعرض بنعت الفناء والعجز بجلال جبروته وعظائم ملكوته ليهب له من يرث منه علوم الحقيقة، ولطائف حكم الإلهية، فأخبر سبحانه عن تعطفه به ورحمته الكافية عليه بأنه أجاب دعوته وأعطى مأموله، وجعله إماماً للخاضعين، ومقتدى للسائلين.

قال الحريري: في هذه الحروف سبب رحمة ربك عبده زكريا.

قال ابن عطاء: ذكر اختصاص زكريا بالرحمة، وإن كانت رحمته قد وصلت إلى الأنبياء فخصّ زكريا من بينهم باللطف رحمة، وهو أن هب له يحیی الذي لم يعص ولم يهم بمعصية؛ فهذا هو محل اختصاصه.

ثم وصف الله سبحانه نبيه زكريا بلطائف المناجاة، وخفي الذكر في المراتبات بقوله:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ إذ حاج سره إلى طلب الخنوع إلى الربوبية، والفناء تحت العظمة، والذهاب عن الذهاب في برجاء الهية في مقام المشاهدة ونجوى سره فناجى سر سره خفيًا عن سره، ونادى سره خفيًا عن روحه، ونادى روحه خفيًا عن عقله، ونادى عقله خفيًا عن قلبه، ونادى قلبه خفيًا عن نفسه، ونادى نفسه خفيًا عن صورته، ونادى لسانه بل جميع وجوده لسانًا خفيًا عن غير ربه؛ فمناجاته ونجواه أخفى عن كل خفي؛ لأنه نادى ربه بره، وتلك المناداة ما وصفه ﷺ بالخيرية والخاصية عن جميع العبادات والأذكار والأفكار بقوله: **الخير الذكر الخفي** ^(١).

قال: عن عطاء: ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ أخفى ندائه من الخلق، ومن نفسه، وأظهر النداء لمن يحبيه، ويقدر على إجابته، وفائدة إخفاء النداء من الخلق، ومن النفس لئلا يدخله تلوين.
وقال بعضهم: خفي في الذكر عن الذكر، ومن ذا قيل: إذا أذهلتك العظمة خرس قلبك ولسانك عن الذكر.

قال بعضهم: أخفى سؤاله عن نفسه، وروحه فنداؤه لمن يقدر على إجابته وقضاء حاجته فسمع الحق ندائه، ووهب له يحبى كما طلبه.

ثم وصف الله سبحانه عبده زكريا بأنه جعل نفسه في مقام العجز والتواضع في سؤاله عن ربه، وهكذا حال السؤال على باب جبروت ذي الجلال، وكان في دعائه موقنًا؛ لأن قلبه شاهد مقام استنشاق نفحة الإجابة لذلك قال: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال ابن عطاء: قام مقام معتذر لما وجد في نفسه من فترة العبادة لكبر السن، فسأل الله من يعينه على عبادة ربه، وينوب عنه فيما عجز عنه من أنواع العبادة منابة؛ فقال: ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، ورضاه لخدمتك ومستصلحة لعبادتك ثم إنه كان ﷺ رأى بعين سره روح ابنه في الملكوت طائرة في رياض الجبروت؛ فسأل ما رأى فقال: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ ناصرًا صديقًا نبياً مرسلًا، يعرف حالي، ويرث مقامي، ويتخلق بخلق آبائي، ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ ^(٢) مرضيًا عندك بعد اتصافه بصفتك راضيًا عنك بعدما شاهد الرضوان الأكبر بنعت المتبري عن غيرك.

قال ابن عطاء: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ أي: ولدًا نتخذه وليًا يرث مني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، وقيل: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب السخاوة

والكرم والصبر على النوائب، والرضا بالمقدور.

﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَنْزَكِرُهَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۝ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾: يرضى منه أخلاق الظاهر، ويرضيه عنك في الباطن.

وقال جعفر: «ورضيًّا» أي: راضيًا بما يبدو له عليه.

قال أبو حفص: اعتذر إلى ربه في ضعفه عن القيام بالعبادة على حسب ما يريد ثم هو سبحانه بشّره بما سرّه، فقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ يحيى بحياته، ومشاهدة جماله، ومعرفة كماله، نفخ نفس صبيح القدم في يحيى، فيحيى من موت العدم بأنوار القدم، وإذا بحياته لم يمت بموت الفرقة، وما طرأ عليه طوارئ فهر الغيرة، وقد تخصص من بين الأنبياء والرسل وجميع الخلق من طريان الامتحان الذي يكون سبب حجاب القلوب عن الغيوب، ولذلك خصّ اسمه وخصه بهذا الاسم المبارك بقوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فكان في اسمه «ياءان وحاء»؛ فالياء الأولى ياء نداء الحق في الأزل نادى الحق بنفسه إلى العدم، ودعا من نفسه بنفسه وجود عبده يحيى، فتكون ياء نداء الأزل، وأجاب الفطرة الفعلية نداء الحق فصار قائمًا بقدرته بعد أن تجلّى الحق من «حاء» حياته لتلك الفطرة، فصيروته بروح الحق وروح حياة الحق فنادت تلك الفطرة بعد كونها، ودعت صانعها وأقرت بربوبيته، فالياء الأول نداء الربوبية من العدم.

والياء الثاني من اسمه نداء بنعت الجواب بالعبودية من العدم فألبسه الحق بين ياءين روحًا من حاء حياة الأزلية فصار حيًّا بحياته، مقدسًا من غمرات الموت، ولا اعتبار بذهاب الصورة عن البين فإنه نقل مع نقل الروح لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا أرواحنا»^(١).

قال الصبيحي: سمّاه يحيى، وقال: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝﴾ افتتح اسمه

(١) لم أقف عليه.

بالباء، وختمه بالياء، وتوسط بين ياءين حاء الحنائية، فاسمه في الخط مرسوم موجه يُقرأ من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله.

فيا أول توفيق، ويا الآخر تحقيق؛ فلذلك لم يعص، ولم يهم بمعصية؛ فقال الجنيد: سمي يحيى، ولم يكن له من قبل سمياً؛ لأن يحيى من يحيا بالطاعة والموافقة، ولا يموت بالذنوب والمخالفة، وكان هذا صفته ونعته لم يجز عليه وسم الخلاف، ولا لسان الذنب بحال، كان محمود السيرة من مبتدأ أمره إلى منتهاه؛ لذلك قال النبي ﷺ: «ما أحد من الخلق إلا أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا؛ فإنه ما أخطأ ولا همَّ»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ﴿١﴾ هذا جواب قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي غَافِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ﴿٢﴾ ما شك في قدرة القادر، لكن تفحص من شأن الحال حتى يقع نظر سره على تجلي القدرة وسرها لعل ينكشف له عين ذات الأزل.

فأجابه الحق: أين أنت عما طهر في نفسك عما تطلب في خلق ابنك؟ انظر إلى وجودك بعين الحقيقة؛ حتى تراني في كونك، وتستغني عن النظر إلى غيرك، ألبست نور قدمي فعلي، وألبست نور فعلي العدم وصيرتك موجوداً بظهور وجودي بنعت قدمي بعدمك.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ﴿٣﴾: المقادير صرحت بمعانيها، وكشفت عن أوقاتها.

وقال أيضاً: أنت في حال وجودك كأنك في حال عدمك عندنا لا تحدث لنا في عدمك وجودك حالة لم تكن لا الأشياء ثابتة في حال وجودها، ولا هي بائنة في حالة عدمها إذ وجودها وعدمها عند الحق سواء لا ثبات لشيء.

قال جعفر في قوله: ﴿رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: استقبل النعمة بالشكر قبل حلوها.

وقال الروذباري: غاية الرجاء في غاية اليأس، وهو في قصة زكريا حين قال: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ قوله له مثل يحيى.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿٤﴾ يَنْبَغِي خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٥﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٠٠﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٠١﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٠٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغِيْ حُذْ اَلْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ الكتاب كلام الحق الأزلي، كلف الله سبحانه يحيى عليه السلام حل كتابه الأزلي، وأمره أن يأخذ بقوة قال: ﴿حُذْ اَلْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ معاً ذكرناه في قصة أي: خذ الكتاب الأزلي بالقوة الأزلية التي ألبستها روحك وصورتك حين خلقتك بمباشرة قوتي الجبرية الأزلية، ولولا تلك القوة في نفسه كيف كان يأخذ الكلام القديم، والقديم لا يحتمل إلا بقوة من القدم.

أي: خذ كتابنا بنا لا بك، خذ بقوتنا لا بقوة الحديث، وأيضاً خذ كتابنا بمعرفة كتابنا، وبمعرفةنا تعرف معاني حقائق كتابنا، وأيضاً خذ باستعانتك بنا بأخذ كتابنا.

ثم وصف امتنانه عليه حيث ما بالى أنه لم يكن بالغاً بقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ اَلْحَكْمَ صَبِيًّا﴾ عرفناه مكان الحقيقة في معرفة صفاتنا وذاتنا في زمان صباه؛ لأن روحه خرجت من عالم الملكوت كاملة بأنوار الجبروت، وأيضاً أتيناها الحكمة البالغة والمعرفة الشاملة والفراسة الصادقة والمحبة الشافية.

قال ابن عطاء: «الحكم» المعرفة.

وقال جعفر: التوفيق لاستعمال آداب الخدمة.

قال الحسين: كان روح يحيى معجوباً بأنوار المشاهدة، ونفسه معجونة بآداب العبودية والمجاهدة؛ لذلك قال له: ﴿وَأَتَيْنَهُ اَلْحَكْمَ صَبِيًّا﴾ .

وقال يوسف بن الحسين: أوتي يحيى حكماً على الغيب، وفراسة صادقة لا يخالطها ريب ولا شك.

ثم وصف الله سبحانه صفيه يحيى بالطهارة والرحمة والتقوى بقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرَكَّةً﴾ وكان تَقِيًّا ﴿١٠٠﴾ أي: أتيناها رحمة من عندنا تلك الرحمة العندية أنه تعالى ألبسه كسوة من صفات رحمته، حتى جعله رحمة للمنقطعين، وشفاء لمرضى المحبين، وجعله مطهراً بأن قدسه في بحر جلاله بزال وصاله عن غبار الامتحان وعماء العصيان، وجعله تقياً معرضاً عن غيره، مقبلاً عليه بنعت الشوق والمحبة.

قال الواسطي: ذلك الذي أوجب له الانبساط والدلال.

وقال سهل: رحمة من عندنا، وطهرة طهرناه بها من ظنون الخلق فيه، وكان تقياً معرضاً عما سوانا، مقبلاً علينا.

ثم إن الله سبحانه من شرف يحيى زكى روحه وقلبه وصورته بروح سلامه وخطابه بقوله: ﴿وَسَلِّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٩﴾ سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلى جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لثلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدتين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿وَسَلِّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية ربه له، وأمان له من كل محذور، واتصال العصمة به إلى الممات، وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ من ثنائه على نفسه أنطقه بلسانه، وهو أغرب في العلم، وأدق في اللطف.

وقال الواسطي: سلام في طرفي حياته مماته من جريان مخالفة عليه بقوله: ﴿وَسَلِّمٌ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٣﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قرباه الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شمس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسرارها إلى روحها فحملت

روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شأنها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليفة، واستأنست بعروس الحقيقة، وذلك قوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فلما خلت بذلك النور والبرهان، فبان لها نور صدر من تجلي الجلال والجمال، ووصل بنور روحها بعد أن تمثل لها بصورة عيسى، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت، وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت، وتنزيهه جلال الحق عن ممازجة الخلق، وإفراد القدم عن الحدوث، وعزة جماله وكبرياء أزليته عن المماثلة والمشابهة بقول: إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الصفات في لباس الأفعال على صورة حسنة مرغوبة، إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها، وذلك روح الفعل، وروح الصفة، وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها، لذلك قال: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم، وقلوبهم إلى معدن تعريف الصفات والذات صرًا بعد انفراد الحقيقة عن الخليفة، ومن ذلك قال عليه السلام: «رأيت ربي في أحسن صورة»^(١).

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: نورًا منا ألقيناه عليها، وخصصناها به؛ فأين الكون الذي فيه أثره، فأخرج من ضياء نتائج ذلك النور عيسى روح الله صلوات الله عليه.

روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه: «إن ذلك البشر الممثل هو روح عيسى»^(٢).

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا﴾ فَتَادَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكِ يَجْذَعِ النَّخْلَةُ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ جعل الله عيسى مرآة نور مشاهدته، ومشكاة نور صفاته لطلاب قربه ووصاله، فتجلى منه لأبصار عرفائه، وأهل خصائص محبته،

(١) رواه الدارمي في سننه (٢/ ١٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٣١٧).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٤٠٥)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٤٠٥).

وهذا رحمته على كل مريد من صعقه لا يبلغ سر روحه إلى القدم؛ فيبصر جمال القدم في مرات الحدث، وأي آية أحسن من هذه الآية ظهر الحق بعزته، وقده عن التشبيه والتعطيل من وجه موسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلم؛ لذلك أشار عليه السلام بقوله: «جاء الله من سناء، ويستعلن بساعير، وأشرق من جبال فاران»^(١).

قال أبو بكر بن طاهر: في هذه الآية علامة دالة على تصحيح الربوبية، ورحمة لمن آمن به، ولم يدع فيه ما لم يدعيه لنفسه.

قوله تعالى حكاية عنها: ﴿يَلَيَّتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تحيرت بين أمرين بين غيبتها عن رؤية سوابق التقدير في الأزل يكون عيسى آية الله في بلاد الله وعباده، وبين حياتها في رؤية جلال الحق مما زعم الكفر حيث قالوا بالوحياتها والوهمية ابنها، فأرادت أنها ما كانت ولم تكن، وتكون فانية مضمحلة من حياء خالقها وعلمها بتنزيه جلاله، وقدهس جماله عن علة المخلوقات جميعاً، ويمكن أنها قالت ذلك لمعارضتها جبريل بقوله: ﴿أَنْ يَكُونَ لِي غَلَمٌ﴾. قال ابن عطاء: لما رأت قومها قد أثموا في أمرها رجعت باللائمة على نفسها؛ فقالت: ﴿يَلَيَّتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾.

وقال بعضهم: يا ليتني مت قبل أن يظهر فيهم آفة أكون أنا سببها.

وقال جعفر: يا ليتني مت قبل أن أرى لقلبي متعلقاً دون الله.

قال بعضهم: ﴿يَلَيَّتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ قبل أن يقال في ما قيل من قولهم: ثالث ثلاثة.

وقال أبو بكر بن طاهر: أي: ليتني مت في أيام كفاية التوكل قبل أن رددت إلى عناء

الطلب بقوله: ﴿وَهَزَيْتَنِي إِلَيْكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتَنِي إِلَيْكَ بِحَذِّ النَّخْلَةِ﴾ خاطبها الحق سبحانه بعد غلبة الحزن على

قلبها عند سماع أقوال المبطلين ليسلي قلبها بأنه منزه عن خطرات الأكران، وعلة الحدثان، وأقوال الحرمان، وألبسها لباس أنوار قدرته، وجعلها عينا من عيون جمعه حتى عرفت مكانتها من جوهر القدس، ومعدن روح القدس، والكلمة القائمة بعزته، فقالت الأعيان لها بأنها هزت نخلة يابسة؛ فأسقطت عنها رطباً جيئاً.

وقال الواسطي: كانت يابسة لما حركت اهتزت واخضرت وأطلعت وسقطت.

فقال: كما أن الله تولى النخلة بما عاينت تولى عيسى في إظهاره من غير فعل.

قال ابن عطاء: لما كانت مجردة رزقت بغير حركة وكسب فلما تعلق قلبها بعيسى قال

لها: ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ يَحْذَعُ النَّخْلَةُ﴾.

قال أبو سعيد الخزاز: لما رأت من نفسها شفقة على ولدها، خافت أن يكون ذلك يقطعها عن الله ﴿يَلْبِثْنِي مِثْ قَبْلِ هَذَا﴾.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَسْمُرُكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ﴿يَتَّخِذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: كلي من خوان عنايتي فواكه مشاهدتي، واشربي من بحار محبتي، وقري عينا برويتي، وبأي قرة عينك قري عينك بي، وأيضًا قري عينك بيا ترين من أنوار جمالي في وجه ابنك عيسى، وظهور آياتي من نفسه.

قال ابن عطاء: إنك غير مطالبة بالثياب فيها أعطيت.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ بيّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق.

قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها فيما تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها.

قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطراب حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

وقال ابن عطاء: أشارت إلى الله، ولم يفهم القوم إشارتها، فأنطق الله عيسى بالبيان:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي: أنطقني بهذا النطق الذي أشارت مريم، وأظهر ربوبيته في

تكلمه.

وقال بعضهم: أشارت إلى الله بسرها، وإلى عيسى بنفسها؛ فأنطق الله عيسى ببراءتها

فيما رُميت به، وبراءة نفسه فيما يدعى فيه، ولي رمز هاهنا لما أراد سبحانه أن ينطق عيسى بكلمة التوحيد، وإقراره بالعبودية أمر أمه بالصمت؛ لأن لسان مريم لسان الظاهر لها، ولسان عيسى لسان باطنها؛ فإذا سكت ظاهرها نطق لسان باطنها بقدرة الله، وتأيدته الأزلي، وهكذا شأن العارفين إذا سكتوا بالظاهر تنطق ألسنة أرواحهم بنطق الغيب الإلهي؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً أي: إذا كنت في رؤية الخلق، وترين في البين أحداً لا تتكلمي بالحجة؛ فإنك لا تبلغين إلى دفع الخلفاء بنطقك، وإذا سكت عن الحجة، وفوضت أمرك إليّ؛ فإني أنطق ابنك بالحجة البالغة بالألوهية.

قال ابن عطاء: صمتاً يدل ذلك على ترك الانتصار للنفس، فقليل لها: اسكتي، ولا تنتصري؛ فإنك إن أردت أن تبرئي نفسك بحجتك لم تردادي بذلك إلا شغلاً؛ فإن كلامك وانتصارك لنفسك مشقة عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمت الصمت، فلما علم الله صدق انقطاعها إليه أنطق الله عيسى ببراءتها؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أبان عن أكرم الأسباب، وأسقط دعاوى من يدعي فيه ما لا يجب، وأقر بالعبودية لله فلما سكتت مريم عن الكلام بالحجة، أنطق الله ابنها بلطف المعجزة، وأقر في المهد بالعبودية بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا.

هذا محض معجزة؛ لأنه نطق بالحق، وتفرد بنور النبوة أن قومه جاءوا بالإشارة إليه بالألوهية؛ فنفى العلة من البين حتى لا يكون لهم شبهة بأنه عبد من عبيده، وأمين من أمثاله، وإن كان عليه كسوة أنوار الربوبية؛ انظر كيف حركته في المعرفة حتى اجتراً لي بعبودية القديم الأزلي الذي لا يقوم بعبوديته الأكران والمحدثان بأسرها في مقام واحد، ولو تُلقي ذرة من حقوق العبودية على جميعهم لذابوا في تحت أثقالها؟

وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: أنا من أهل سماع كلامه القديم، ولقائه الكريم أخبر الخلق والخلق من الحقيقة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ صديقاً مخبراً عن وصاله ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ على لباس بركة جماله أي: حيث كنت، وأكون في الأرض والسماء مباركاً، وبركتي تصل إلى المؤمنين بأي قرعة عيونهم، ومن تلك البركة أذهب عنهم البلاء وبها أحيي الموتى.

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ بظاهر العبودية، والخدمة التي فيها لطائف المناجاة، وفتح أبواب المشاهدات، وزكاتي بذل وجودي له، وهذه العبودية المباركة واجبة عليّ، وعلى من اتبعني، وإن بلغنا إلى منازل الاتصاف والإنصاف والاتحاد.

وفيه إشارة: إنه وإن كان في الحضرة يخدم صانعه، ويتواضع لخالقه؛ لأن عبوديته أفخر المفاخر له.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: ليس بعبد هوى ولا عبد طمع ولا عبد شهوة. ﴿وَإِنِّي أَلِكْتَبَ﴾ خصني بخصائص الأسرار، وجعلني نبياً غيباً عنه خبر صدق. وقال ابن عطاء: لما علم الله في عيسى ما علم من أن يتكلم فيه من أنواع الكفر أنطقه أول ما أنطقه بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ليكون ذلك حجة على من يدعي فيه ما يدعي إذ قد شهد هو الله بالعبودية.

وقال أيضاً في قوله: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ إنفاعاً للناس كافي الأذى.

قال الواسطي: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ عارقاً بالله داعياً إليه.

وقال الجنيد: مباركاً على من صحبني، وتبني أن أدله على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾: أمرني بمواصلته، وطهارة السر عما دونه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ بهيائه.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّسْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مادام أقر بالعبودية، وأخبر عن خاصية النبوة؛ كيف يكون جباراً مستنكفاً من عبادته شقياً عن رجاء وصاله؟ قال سهل: أي: جاهلاً بأحكامه، ولا متكبراً عن عبادته.

وقال ابن عطاء: الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا يقبل النصيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْسَلْنُمُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُتْبِعْتُ حَيًّا﴾ أي: علي السلامة يوم دخلت في الدنيا، حيث بلغت مقام الامتحان في العبودية بعد أن كنت في مقام المشاهدة، وهذا السلام دوام محل انبساط الحق علي بشرط العصمة والرعاية ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ سلام الأمن والرضا ﴿وَيَوْمَ أُتْبِعْتُ حَيًّا﴾ سلام الشرف واللقاء والفرق بين سلام الحق على يحيى وسلامه على عيسى أن سلام يحيى بلا واسطة، وسلام عيسى بواسطة وأصل الإشارة أن سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية، وبيان الشرف والكرام عليه من الحق، وسلام عيسى محل الانبساط ثم محل الانصاف، ثم محل الاتحاد فإذا كان متصفاً متحداً من حيث المعرفة والتوحيد والمحبة والشوق صار لسانه لسان الحق من حيث عين الجمع فسلامه على نفسه سلام الحق عليه على مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية، وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحاً في وصاله وكشف جماله، فهو سلم عليه بلسانه كان السلام مقصوداً؛ إذ جرى بلسان الحدث عليه، ولا يبلغ ذلك السلام إلى كمال رتبته لكن سلم عليه بأوصاف قدمه حتى شمل على شرفه كله.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٦﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٨﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ أَزَاغِبُ أَنْتَ عَنِّي إِلَهِي يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٢١﴾ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٢٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إن الله سبحانه حثَّ حبيبهِ على ذكر خليله -

عليها السلام - وما جرى عليه من أحكام الخلقة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

قال ابن عطاء: الصديق القائم مع ربه على حدِّ الصديق في جميع الأوقات لا يعارضه

في صدقه معارض بحال.

قال أبو سعيد الخزاز: الصديق الأخذ بأتم الحظوظ من كل مقام سني حتى يقارب من درجات الأنبياء.

وقال الجنيد: الصديق القائم مع الحق بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ هذا سلام الإعراض عن الأغيار، وتلطف الأبرار بالجهال، قال تعالى: ﴿ وَأَهْجَرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [الزمل: ١٠]. قال أبو بكر بن طاهر: لما بد منه كلام الجهال من الدعوة إلى آلهته والوعيد على ذلك أن خالقه جعل جوابه جواب الجهال بالسلام؛ لأن الله قال: ﴿ وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم إن الله سبحانه أخبر عن صديقية إبراهيم من تبرئه عما دون الله بقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ العيش الهني صحبة الأبرار مع ترك مصاحبة الأشرار. قال أبو تراب النخشي: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا ﴾ تكلم من حقائق يقينه أنه عند الله على شرف كامل، وأنه مجاب الدعوة؛ قطع في الحق ما طمع من نظره إلى علومه المجهولة الغيبية.

قال عبد العزيز المكي: كان الخليل عليه السلام يهاب به أن يدعوه ويذكره ويعظمه ألا يكون يدعوه بلسان لا يصلح لدعائه على استحياء وحشمة وخيفة وهيبة بعد معرفته بجلاله، فلما ترك صحبة المنكرين رزق الله من نفسه أنبياء بقوله: ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من ترك الخليقة فالله خليقته في كل مراد جعل سبحانه إسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد - صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين - وموسى ويحيى وجميع الأنبياء والرسل بعده عوضًا له من أبيه آزر، كان عليه السلام ضيق الصدر من هجران أبيه عنه، وعن دينه فجعل أخلافه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين عوضًا لأبيه؛ حتى لا يضيّق صدره.

قال الواسطي: عوض الأكابر على مقدار الحدث جعل فهم التلاوة للأحكام، وجعل لهم الحقيقة للأسقام قال الله: ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَّهُمْ ﴾، وقال لموسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾، ولما اعتزل محمد ﷺ الأكوان أجمع، ولم يزع البصر في وقت النظر وما طغى قيل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يزاغ غيره حلاه بصفته؛ فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ رحمه: نبوته ورسالته وقربه ومشاهدته، ولسان الصدق العلي ثناؤه عليهم، وأي لسان أعلى من لسان مدح الحق عليهم، وأنطق لسان جميع الصديقين بثنائهم إلى الأبد، وأيضا أعطاهم لسان صدق بيان جلال ذاته وصفاته للخلق.

قال ابن عطاء: أصدق الألسنة هي المعبرة عن الحق بالصواب، والذاكرة على الدوام لنعمائه والناشرة لآلائه.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وَتَدَيْقُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي: اذكر ما بيني وبين كليمي من سماع الكلام ومشاهدة التجلي وشوقه ومحبه وإخلاصه في عبوديته، وإخلاصه كان في البحر عند وقوع الامتحان، قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال الترمذي: المخلص على الحقيقة مثل موسى ذهب إلى الخضر ليتأدب به، ولم يساعده في شيء، فظهر له منه، وما كان يفعله حتى أوقفه على العذر فيه، وهذا من تمام إخلاصه.

ثم أخبر سبحانه عما بينه وبين كليمه من الأسرار والمناجاة بقوله: ﴿وَتَدَيْقُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ناداه بوسائط الطور والشجرة في البداية، وقربه نجياً من رؤية جلاله، وأسمعه كلام الصرف بلا واسطة، وكان التجلي أيضاً في الابتداء بواسطة الشجرة والطور، فلما قربه من بساط المجد والكبرياء أرى وجهه جل جلاله وروحه وقلبه وسره وجميع وجوده بنعت الشهود والمكاشفة، النداء بداية والنجوى نهاية، النداء مقام الشوق والنجوى مقام كشف السر.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾: جعلناه من العالمين بنا والمخبرين عنا بالصدق والحقيقة.

وقال رويم: كشفنا عن سرّه ما كان مغطى عليه من أنواع القرب والزلف وأذنا له في الإخبار عنا.

وقال بعضهم: نادينه للمحادثة والمكالمة والمناجاة.

وقال الأستاذ: للنجوى مزية على النداء؛ فجمع له الوصفين النداء في بدايته وقت السماع، والنجوى في نهايته فوقفه الحق، وناداه ثم قربه، وناجاه في جميع الحالين تولاه.

ثم من كمال كرمه وهب لموسى أخاه هارون بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٢٥﴾ علم الحق سبحانه أن جميع الخلق لم يحتملوا ما في صدر موسى من عظيم أسرار صفاته وذاته وملكوته، فجعل هارون موضع سر موسى حتى لا يكون ذائباً تحت أنقال تلك الأسرار، وهذا رحمة من الله عليه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٢٦﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: اذكر ظرافة إسماعيل وشماله وموقع شرفه عندنا؛ فمن خلقه الرضا بالقضاء، والصبر في البلاء والكمال في السخاء، وصدق الوعد بنعت الوفاء.

قال الحسين: الصادق هو المتكلف في حاله يجري بين استقامة وزلة، والصديق هو المستقيم في جميع أحواله.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر فوفى به في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ [الصفات: ١٠٢].

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٢٩﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٣١﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٣٣﴾ جَنَّتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٢٩﴾ أي: اذكر ما كشفت لإدريس من أسرار الملكوت، وأنوار الجبروت وطيرانه في الجنان، وشهوده مشاهدة الرحمن.

قال أبو بكر الطمستاني: الصديق الذي لا يطلب طريق من غيره، ويكون له أن يطلب غيره بحقيقة الصدق.

ثم وصفهم جميعاً بأنهم متعم عليهم بالمعجزات الرفيعة، والكرامات الشريفة،

والقربات المدناة بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾.

ثم وصفهم مع ما أنعم عليهم بالخشوع والخضوع والبكاء والوجد في السجود بعد ما أعطاهم الاصطفائية والاجتباتية والمعرفة والإصابة والحكمة والمشاهدة والشوق والمحبة، انظر إلى ذكر هيجانهم وشوقهم إلى لقائه، ووجدهم بقربه، وحركاتهم في إجلاله عند نزول الآيات عليهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٢١) ما أطيب ذلك البكاء، وما أحلى ذلك السجود، بكاؤهم من رؤية عظمتهم، وسجودهم من كشف عزته، وحركاتهم من شدة شوقهم إلى معادن المشاهدات وأسرار المدناة.

أَلَا يَا صَبَا تَجِدُ مَتَى هَجَبٍ مِنْ تَجِدُ فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجَدًا عَلَى وَجْدِي
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشَفَّ مَا بَيْنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ

ثم إن الله سبحانه ذكر المخالفين عقب ذكر الأنبياء والمرسلين، وذمهم بزوغانهم عن سبل أهل السعادة، واقتحامهم غيابات أهل الضلالة بقوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ لما استكبروا عن متابعة أهل الحق، وادعوا بالدعوى الباطلة، سقطوا عن أعين القوم، واحتجبوا بها رأوا من أنفسهم من الترهات والطامات والمزخرفات والأباطيل من الخيالات والمحالات عن لطائف الطاعات، ومقام المناجاة، وحسن المراقبات، ووقوعا في ورطات الشهوات، وصاروا أئمة الضلالات.

قال محمد بن حامد: أولئك قوم حرموا تعظيم الأنبياء والأولياء والصدّيقين، فحجبهم الله من معرفته، وأصابته شقاوة تلك الحال؛ فأضاعوا الصلاة التي هي محل وصلة العبد مع سيده ترسموا بها، ولم يتحققوا فيها، واتبعوا آراءهم وأهواءهم فأصابهم الخذلان حرموا بذلك السعادة، وأثر الشقاوة على العبيد هو حرمان الخدمة، وتصغير من عظم الله حرمة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٢٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٢٣) وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رِزْقُكَ فِيهَا سَمِيًّا (٢٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٢٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْنٍ أَخْرِجْ حَيًّا (٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الرزق هناك حقيقة كشف مشاهدة الحق ورؤية جماله ووجدان وصلاته، فكل وقت ينكشف جماله لهم، فذلك الوقت بكرتهم،

وإذا حان وقت إرخاء الحجب يرونه قبل ذلك، وهذا لعموم المريدين والمؤمنين.
فأما العارفون والمحبون والمشتاقون والموحدون فهم في منازل وصاله وكشف جماله بالسرمدية، ولا ينقطعون عنه لمحة، ولو احتجبوا لحظة لماتوا في الجنة من فوت ذلك الحال، ولو بقي أهل الجنة في مشاهدة الحق على الدوام لذابوا من صولة سطوات جلاله وجماله.
قال أبو يزيد -قدس الله روحه: «لو احتجبت في الجنة عن لقائه لمحة أنغص العيش على أهل الجنة».

قال محمد بن عيسى الهاشمي: ردُّ الأشباح إلى قيمتها عن المطعم والمشرب بكرة وعشيًا، وتزاد الأرواح والأسرار عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، وهو مقام لا ينزله إلا من كان ظاهر الأمانة سرًا وعلنًا.

ثم بيّن سبحانه أن تلك الجنة، والمشاهدة الكريمة الأزلية لمن كان متبرئًا بهيمته عن الكونين، وبسره عن الدارين، وبعقله عن العالمين، وبحقيقته عن نفسه، وعن جميع الخلائق بقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ الجنات هي منازل شتى جنة المحبة، وجنة المعرفة، وجنة التوحيد، وجنة رؤية أنوار الفعل، وحكم الغيب فيها، وأسرار المقادير، وجنة منها رؤية أنوار الصفات، ومشاهدة كل صفة للعارفين جنة وعبان الذات جنان، وهو أصل كل جنة، فأهل الحق في كل لحظة في جنة من هذه الجنان، وأوصافهم التبري من غير الله، فإذا خرج عن الأكوان والحدثان فأورثه الحق تلك الجنان، وحاشا أنها مقرونة باكتساب الحدث، بل اصطفاهم في الأزل بتلك الخاصية، ووقاهم من عن الامتحان والحرمان، وأعطاهم حسن وصاله، وكشف لهم من جلاله وجماله.

قال بعضهم في هذه الآية: نجعلها لم يطلبها بفضلنا لا بعمله؛ فإن الجنة ميراث سعادات الأزل لا ميراث الأعمال والعمل سمة ربيًا يتحقق، وربها لا يتحقق والتقوى نتيجة تلك السعادة.

قال الواسطي: إذا بلغت العقول الغاية، وبلغ بها النهاية؛ فحاصلها يرجع إلى حدث يليق بحدث، وحسبك من ذلك قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لما كان التقوى وصفك قابلك بما يليق بك، وأعلمك أنه غاية ما يليق بتقواك، ونهايتك في نجواك.

ثم إن الله سبحانه ذكر وصفه وربوبيته وسلطته وكبريائه وإحاطته بجميع الأشياء علمًا وقدرة وحكمًا وإثباتًا لحقوق الربوبية على أهل العبودية بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وصف ارتسام السماوات والأرض، وانتظام ما بينها باصطناع قدرته، وإحاطة

علمه ثم ألزم حقه على عبده وحيبيه، وعلى جميع الخلائق من العرش إلى الثرى بعد بيانه أنه هو القادر بذلك لا غير وأمره بالصبر في عبادته، وأوضح الحجة بأن لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه ولا ندب له في كبريائه بقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أي: ما تعلم إلهًا غيري ووجود ألوهية الغير مستحيل من كل الوجوه أي: اصبر معي في عبادتي ومعرفتي، واستغن بي في خدمتي ومعرفتك بي، وسل مني ما تريد، ولا تظهر حوائجك لغيري، فإن ما تريد لا يقدر بذلك أحد سواي.

قال محمد بن الفضل: هل تعلم أحدًا يحبك في أي وقت دعوته، ويقبلك في أي أوان قصده؟

وقال الحسين بن الفضل: هل يستحق أحد أن يُسمى باسم من أسائه على الحقيقة، وقال أهل التفسير: هل تعلم أحدًا يسمي الله إلا الله؟

ومن أوضح النكت في أسرار الحقيقة من الآية نفي الحق الربوبية عن كل متصف مستمد، وإن كانوا مستغرقين في جمال ألوهيته، وردهم إلى قيمتهم من العبودية أي: مادامت تلك الكسوة النورية الأزلية عليكم عارية تذهب بذهاب الكشوف وغيبه للمواجيد والصحو بعد السكر، ينبغي ألا تبرجوا من أصل قيمتكم؛ فإن القدم قائم بالقدم، وبقي الحدث على نعته.

كُنْتَ أَنْتَ إِذْ غِبْتُ فِينَا بَلْ أَنَا كُنْتُ إِذَا غِبْتَ عَنَّا أَنَا وَأَنْتَ أَنْتَ
هل تعلم له سمياً بحقيقة اسم الألوهية التي أنوارها تزيل الحدثان، وتهلك جميع الأكوام بقهر سلطانها، وتصديق هذه الإشارات.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۝ فَوَرَبُّكَ
لَخَشِيعَةُ إِلَهُكُمْ وَالشَّيَاطِينُ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝
وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِمَنَتْ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هُم أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَءِيًّا ۝ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا
رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ
جُندًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من أنتم، ومن أين أنتم، والعدم في العدم معدوم والقدر في القدم معروف، لو يعرف العارف أوائل كونه فني في لحظة في حياء الحق من دعوى معرفته إذ كونه في علم الأزل كعدمه بالحقيقة إذ قوامه بالحق لا بنفسه.

قال الواسطي: المقادير صرحت بمعايتها، وكشفت عن أوقاتها، فالأول: أخبر أنه مأخوذ عن شاهده، واكتسابه نفسه حين لم يكن شيئاً، والثاني: أخذوا من النطقة، والثالث: أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ذكر الطين للعبادات، وذكر النطقة للإشارات، والباقي لفقد النعوت والصفات.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٦٦﴾ هذا القسم من وجوب حق صفة القدم، إذ نعته قهر الجبروت، فأورد الكل عليها لمباشرة ذلك فيهم ليعرفوه بجميع معاني صفاته، وذلك رحمة كافية إذ لم يعزلهم من رؤية جلال أزلته في لباس قهره، فكم كشف من الجبروت هناك، وكم مشاهدة من عين الملكوت هناك، وكم ظهور سر في دروبهم هناك أين أنت من قول سبح قاموس الكبرياء وعناء مغرب؛ فإن البقاء حيث قال: وضع الجبار قدمه في جهنم، هل ترى هذا القدم إلا كشف جلال القدم، وإذا كان جمال قدمه مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في التيران؛ فإن هناك أصل الجنان.

إِذَا نَزَلْتُ سَلَمِي بِسَوَادٍ فَيَأْوُهَا زُلَالٌ وَسُلْسَالٌ وَشِيْخَانَهَا وَرُدُّ

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٦٧﴾ إذ كان وصفه في الأزل أنه عرف نفسه بجميع الصفات لكونهم عارفين، فإذا تم ذلك الكشف وصلوا بالحق مع الحق إلى جواره ووصاله الأزلي ولطفه الأبدي ولقائه السرمدي الذي بغير امتحان، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اتقوا من أليم القطيعة، وعذاب الفرقة، ومراة المخالفة.

قال الواسطي: ما أحد إلا ويورده النار ملاحظات أفعاله ثم ينجي الله منها من أسقط عنه ذلك أو أزالها عنه بملازمة التوفيق.

وقال في قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا﴾: بالرجاء يطلب المحتوم، وبالحوف يدفع المقضي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ثُمَّ نُتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا.

قال الجريري: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى.

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتصحیح العهد بالوفاء.

وقال هذا العارف الفارسي العباد الرباني الشطاح الملكوتي: ما نجا من نجا إلا بالاصطفائية الأزلية، والعناية الأبدية، والرسم والوسم، والاسم عوارضات زائلة وامتحانات عاطلة.

قال جعفر الصادق: لولا مقارنة النفوس ما دخل أحد النار فلما قارنهم نفوسهم أوردتهم النار بأجمعهم فمن كان أشد إعراضاً عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ألا ترى الله يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ حَتَّىٰ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿١٩﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٢٠﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٢١﴾ وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٢٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٢٣﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٢٥﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ إذا أراد الله هداية العبد إلى محل الإيمان شرح صدره بنور الإسلام، فلما ثبت في إيمانه بنعت السنة والمتابعة عرفه منازل قربه ووصاله وحقائق العبودية فيقع في بحر الألوهية؛ فلا يجري عليه بعد ذلك طوارق الزيادة والنقصان.

قال سهل: يزيد الله الذين اهتدوا بصبرهم في إيمانهم بالله والافتداء لسنة محمد ﷺ وهو زيادة الهدى النور المبين.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٢٣﴾ كل ما دون الله إذا أقبلت إليه بنعت الحاجة والافتقار فهو إلهك، وطلب العز في غير الله غير ممكن لأن الأكوان تحت قهرة ذليلة، وإذا أردت العز قبل إلى الله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

قال بعضهم: كيف تظفر بالعز، وأنت تطلبه من محل الذل.

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُغْتَفِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آذَىٰ﴾ ﴿٢٨﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٢٩﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٣١﴾ لَقَدْ جَعَلْتَ شَيْئًا إِذَا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ أفهم أن المتقي من يتقى عما دون الحق ولا يتقي إلا بأن وقاه الله من طريان النفس والهوى على قلبه وأنسه بأنسه فالتقون الخارجون بنور مشاهدة الله عن ظلمات الأكوان إذا كان وقت حشرهم أركبهم الله على مراكب أنوار تقواه ودعاهم إلى مشاهدته ووصاله وأنزلهم عيون الرحمانية وأعطاهم من بحار رحمته جميع مأمولهم لذلك ذكر اسم الرحمانية أي: لم يكن هناك وحشة قطع الآمال إذا نزلوا موارد الجلال والجمال، وهذا وصف المتقين الذين هم أهل بنايات المقامات فأما العارفون فهو بنفسه يحملهم في ميادين الآزال والآباد ويبقيهم في معارج أنوار الذات والصفات، ولولا حمله إياهم كيف يقطعون براري الديمومية وقفار الأزلية والحدثان ساقطة في أودية قهر الربوبية.

قال ابن عطاء: بلغني عن الصادق أنه قال أي: ركبنا على متون المعرفة.

وقال جعفر: المتقي الذي اتقى كل شيء سوى الله والمتقي الذي اتقى متابعة هواه فمن كان بهذا الوصف؛ فإن الله يحمله إلى حضرة المشاهدة على نجائب النور ليعرف أهل المشهد محله فيهم.

وقال الواسطي: أي: ركبنا وذلك حجابهم؛ لأنه من جذبته رتبته عن الحق حتى ينسيه ولا يجذبه ذكر الحق عن الأعراض جذب الزينة فهو الكاذب في دعواه.

وقال أيضًا: لما لم يوافقه صفة ولا نعتًا في الدنيا حشرهم في الآخرة إلى الله باسم الرحمانية يسوقهم سوقًا أرقف ما كان بهم وأكثر شفقة لا يعرجون إلى غيره ولا يلتفتون سواه.

وقال الأستاذ: قيل: ركبنا على نجائب طاعاتهم وهم مختلفون فمن راكب على صور طاعاتهم ومن راكبي على مراكب همهم ومن راكب على نجائب أنوارهم ومن محمول يحمله الحق في عقباه لكما يحمله اليوم في دنياه وليس محمول الحق كمحمول الخلق.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ أن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَئِنْ ﴿وَمَا يُلْبِئِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ إن الله سبحانه أخبر عن عظيم افتراء الكفرة عليه لما في قلوبهم من غوائل الشيطانية وهواجسهم النفسانية، قالوا في حق الحق سبحانه ما يليق بالحدث لا ما يليق بالقدم فلم يقع وصف الحدث على القدم، ولم ير مقالته في الحق موضعًا في البرية لمكانها فقصدت السماوات والأرض والجبال؛ لأنها منصرفة عن جناب الربوبية قهراً وغيرة، فنزلت على السماوات والأرض والجبال، فلم يحتمل بها السماوات والأرض والجبال من عظمها فتكاد السماوات

يتفطرون والأرض تنشق والجبال تحرق؛ لأن الكلمة خرجت من مصدر القهر ممزوجة بالغيرة، وذلك بأنهن عقلن بروج إشراق نور صفة الأزل عليهن، فكادت أن تغنى من عظم ثقل روح لطفه بروح قهره.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدْنَاهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ كل مزين بأنوار الربوبية فهو تحته بنعت العبودية فمن شاهد أنوار الربوبية عرف محل الربوبية والعبودية فإذا فنى العبودية في الربوبية بقى الربوبية وصف المتصف بها فيرى نفسه بزيينة نور الحق فيدعى من مباشرة شكر التوحيد ونور الأزلية بدعوى الأناثية، فإذا كان يوم القيامة رجعت أنوار الربوبية إلى معدنها، وبقي الكل عرياناً منها ملبسين بذل العبودية حتى يجري عليهم طوارق غيرة الحق هذا إذا يمضي حكم الغيرة، ويدل عليه قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝﴾ أي: فرداً عن دعوى الأناثية والمعرفة وبقي فرداً في حقيقة القهر عند فردانية الحق فاتفرد بالحق حتى اتصف بالفردانية واتحد بالوحدانية فيرجع إلى ما كان فيه من إظهار الربوبية والألوهية فيشهد العارف مشاهد الوصلة فيحويه أنوار الدنو فيسكر بجمال الحق فيدعى هناك بلسان الأزل والأبد دعوى الأزل والأبد، ويا صادق كلهم في حجاب هاهنا عنه ماداموا في الحجاب يميلون إلى مأمول سوى الله من الثواب والنجاة من العقاب، فإذا شهدوا مشاهدة جماله سقط عنهم مراداتهم، ويخلصوا عن علة رق النفوسية، وصاروا عبيداً له محققين غلصين في محبته ومشاهدته حيث لا يبقى إلا وجهه قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ [القصص: ٨٨].

قال جعفر في قوله: ﴿آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ فقيراً ذليلاً بأوصافه دالاً بأوصاف الحق. قال أبو بكر الوراق: ما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار؛ لأن ملازمة العبودية تورث دوام الخدمة، وإظهار الافتقار إليه يوجب دوام الالتجاء والتضرع.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: عبد من؟ فأراد أن يقول عبد من فغشي عليه فلما أفاق قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمُ

مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ قَسَمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿١٠﴾ .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ في هذه الآية عجيب من أن الله سبحانه قرن الود بالعمل الصالح، وذكر العمل الصالح قبل الود كان الود جزاء العمل الصالح، والإشارة فيه أن وده لهم قديم في الأزل، وبذلك الود عملوا العمل الصالح فإذا اصطفى بذلك الود وقفهم للأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من ميراث ذلك الاصطفائية والود فإذا وقع العمل الصالح يزيد كشف ذلك الود في قلوبهم، والحق سبحانه منزه عن الزيادة والبدء، فإذا ألبسهم نوره وكسا أسرارهم سنا وده فيكونون مزينين ظاهرًا وباطنًا، ويصيرون مرآة جمال الحق، وكل من يراهم يحبهم فإله أحبهم وهم يحبونه بمحبته، والخلق يحبونهم بمحبة الله إياهم، وما يرون من أنوار جمال الحق منهم.

قال ابن عطاء: الذين أخلصوا بسريرتهم لي، واتبعوا ظاهرهم في خدمتي سأجعل لهم وجهًا في عبادي لا يراهم أحد إلا أحبهم وأكرمهم وفي محبتهم وكرامتهم كرامتي ومحبتهم.

وسئل بعضهم عن قوله: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ قال: يعني لذة وحلاوة في الطاعة.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لِيُثْقِلَ ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾
تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ .

﴿ طه ﴾ ذكرنا أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من علوم السرية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبديهة لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخالقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل

ويا مطهراً من الأكوان والمحدثان، يا هادياً بنوري خلقي إلى ما وطئ أحد على بساط هويتي أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ شرك سر هويتي بهوائي تهوى وتلطفت بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك.

قال ابن عطاء في قوله ﴿طه﴾: «طا» هديت لبساط القرية والأنس.

وقال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا.

وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اعتداء قلبه

إلى الله.

ثم إن الله سبحانه تلطف على نبيه وخفف عليه أثقال العبودية؛ لأنه كان تحت أثقال سطوات الربوبية التي لا تحملها الأكوان بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قام جميع الليل بالتهجد كأنه قال سبحانه: يا أول طا القدم على بساط حضرتنا لطلب المقام المحمود لا تشق على نفسك لأجل زيادة الهداية؛ فإنك هديت في الأزل واصطفيناك لمشاهدتنا وقربتنا والرسالة والمحبة لا تحتاج إلى كثرة المجاهدة، فإنك في المشاهدة أنزلنا عليك القرآن ليعرفك أسرار ذاتنا وصفاتنا وتعرف عبادنا أسرار العبودية وأحكام المعرفة وعزة الربوبية، أنزلنا عليك القرآن ليقرن عنانه بعنان همتك ويبلغك إلى منازلنا فتدلى فإذا وصلت إلينا فأؤنسك بنفسي بعد أن جعلت القرآن مستأنسك؛ فإذا رأيتني رأيت ذاتي وصفاتي وسمعت القرآن مني بلا واسطة فتعرف أن صفاتنا تضيئ الأكوان ولا تفارق الرحمن.

قال الواسطي: سُمي القرآن قرآناً لأنه يقارن لمتكلمه لا يباينه تعظيماً لشأن القرآن كما وصل إلينا شعاع الشمس وحرارتها ولم يباين القرص.

قال بعضهم: أنزلناه إليك لتستروح إلى كلام خالقك؛ فإن المحب يستروح إلى كلام حبيبه ولا يلحقه فيه التعب.

وقال الأستاذ: ليس المقصود من إيجائنا إليك تعبك إنما هو استفتاح باب الوصلة

والتمهيد لبساطا القربة.

ثم بَيَّنَّ سبحانه لم أنزل القرآن عليه قال: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١﴾ معناه بالحقيقة أن أرواح أهل الخشية قد استغرقت في بحر القدم حين خرجت من العدم ففرفت منازل شهودها من مشاهدة الذات والصفات، وعلمت اصطفايتها وخاصيتها على بساط القرب وتلطف الحق بها وانبساطه معها بمحبته إياها، فلما دخلت الأشياء بقيت معها خشية العظمة وصولاً أهيبه فزاد خشيتها بعلمها بالله بالوصلة والفرقة، وطرأت عليها وحشة الفراق عن معادها، فأنزل الله تعالى القرآن على حبيبه ليذكرهم أيام الوصال في مقام الفراق ليذهب عنهم الظنون والحسبان، ومعارضة النفوس وتخويف الشياطين بأنهم لا يصلون إلى تلك المناهل والموارد.

سقى الله أبايألسنا وليالي مضت فجرت من ذكرهن دموع
فيا هل لنا يوماً من الدهر أوبة وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع

وأيضاً أهل الخشية هم العلماء بالله وبصفاته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخشية صدرت من رؤية عظمة الحق إلى قلوبهم فإذا دخلوا في منازل الامتحان بالحجاب، فأنزل الحق القرآن ليذكرهم عظام عظمة جبروته وسلطان قهر كبرياء ملكوته لئلا يتداخل أسرارهم غبار الأغيار ولا وحشة الاستكبار ولئلا يفترأوا عن ملاحظة عزته وقهر كبريائه.

قال ابن عطاء: قيل له محمد أنت إمام أهل الخشية وسيدهم أنزلناه تذكراً لك لتسكن عليه وتزول به الخشية عن قلبك، فإن المحب: يأنس بكتاب حبيبه وكلامه.

وقال جعفر: أنزل الله القرآن موعظة للخائفين ورحمة للمذنبين.

وقال الأستاذ: القرآن تبصرة لذوي العقول تذكراً لأولي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون، فسألوا راحة اليقين في أجلهم وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح أنس في عاجلهم.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٢﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ﴿٣﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿٥﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿٦﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هَدًى﴾ ﴿٧﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا يُودِي بِمُوسَى﴾ ﴿٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ عَنْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

طَوًى ﴿١٠﴾ وَأَنَا آخِزَتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١١﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٢﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٣﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَرْحَمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ ﴿١١﴾ ذكر سبحانه قبل هذه الآية خلق السماوات والأرض، ولم يقل أنه خلق العرش، وفيه إشارة إلى أن قوله سبحانه عن إحاطة الحدثان به ﴿الْأَرْحَمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ ﴿١٢﴾^(١) يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجرّبه وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حل ذرة من كبرياء عظمتهم والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضاً إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالماً وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلّى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بركنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، وبها عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو مستو بغير علة اعوجاج الحديثة بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خاص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزّه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن مماسة الحدثان وملاصقة الأكوان.

وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

(١) مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيدان بأن ذلك أمر بيّن لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحاً. البحر المديد (٣/ ٤٩٦).

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية وبساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشاً معنوياً روحانياً ملكوتياً روحانياً جبروتياً، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه بيسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فييسطه بسطاً لا نهاية له ويصير مبسوطاً ييسط التجلي حتى يكون مستقيماً متمكناً في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه نبعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنزه عن الوجود على الحدثنان لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»^(١).

وبما عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منزّه عن الحلول الله، الله هو منزّه أيضاً أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة. ألا ترى إلى قوله ﷻ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٢) هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منزّه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية.

قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استوى، وعرش السماء قبله دعاء الخلق وعرش

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١/٢٣١)، وأحمد في مسنده (١٣/٣١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٤).

الأرض محل نظر الحق فثتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقيبها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى، وذلك قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ﴿١٠﴾ أخبر عن علمه وملكوته معاً بها فوق العرش، وما تحت الثرى وما بين العرش والثرى من أطباق السماوات، وما بينهن وأطباق الأرضيين، وما بينهن فذكره تعالى استوى على العرش لإخبار عن قهر سلطانه وبنعت الاستيلاء على أعظم خلقه وعن علمه بها فوق العرش من علم الغيب غيب الغيب وما تحت العرش إلى الثرى من علومه الغيبية في بطون أفعاله، وما تحت تحت الثرى من أسرار ربوبيته أي: أن الكون استغرق في بحار علمه وقدرته وإرادته بالمثل كخردلة في البوادي، أو كحلقة في البحار والسلطان، كبرياؤه محيط بجميع ذراته فالكون كالكرة في ميادين عظمته عند صولجان قدرته، يضرب بها تلك الكرة في كل لمحة ألف مرة ويذهب بها من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال، والله إن من وقت ما خلق الله الكون يتحرك الكون في طلب ما يتعلق به من نور فعلمه، وما أدركه فكيف يدرك أنوار الصفة وإذا لم يكن مدرك أنوار الصفة كيف يدرك عزة الذات وأين الكون من إدراك وحدانية القديمة ولحوقه بجلال مجد ذاته، بل هو صاغر حقير في قبض جبروته لا مصرف له ينصرف إليه منه، ولا مخرج له منه فيخرج من تحت قهره بل كذرة تب على جناح الرياح العواصف والصرصر القهار تذهب بها، ولا تعرف أين تذهب.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»^(١).

ثم اعلم الخلق أن الكل له؛ فلا ينبغي العالم به أن يطمع في غيره حتى لا يشوب قلبه بالشرك الخفي، قيل له: الملك كله فمن طلب البعض من الكلى من غيره فقد أخطأ الطلب.

ثم أخبر عن عظيم جلال علمه بمكنون الأسرار وخفي الإضمار بقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْبَيْتَ وَأَخْفَى﴾ أفهم أن للطبيعة سرّاً والملك السر سر وللنفس سرّاً، ولذلك السر سر، وللقلب سرّاً، ولذلك السر سر، وللعقل سرّاً، ولذلك السر سرّاً، وللسر سرّاً، ولذلك السر سرّاً، أما سر الطبيعة إضمار الميل إلى طلب ما تقوم به من فيض العناصر، وسر ذلك السر نداء فعل الحق إلى الطبيعة بنعت جذبها إلى طلب حظها، وهو أخفى من ذلك السر.

وأما سر النفس؛ فهو حديثها الخفي الذي يصدر منها في غيب الخواطر بقلب هواها

وسر ذلك السر نداء القهر إياها بنعت جذبها إلى طلب الهوى، وهو أخفى من سرها.

وأما سر القلب فهو حديثه الخفي الذي يصدر منه لطلب مزيد الصفاء من فيض الذكر، وسر ذلك السر فرع الملك باب سره بنعت تحريكه إلى طلب مزيد الذكر وذلك إلهام خفي وأخفى من سر الأول.

وأما سر العقل فهو حديثه مع القلب والروح بما يبدو له من حقائق أحكام الربوبية في الشواهد، وسر ذلك السر بحجة نور فعل الخاص التي هي داعية العقل إلى مشاهدة حقائق الأشياء، وذلك السر أخفى من سر الأول.

وأما سر الروح؛ فهو حديثها مع العقل بما يسمع من إلهام الخاص الإلهي لزيادة شوقها إلى معادنها، وسر ذلك السر ما يبدو لسر الأول من برق سنا الصفة بنعت الكشف مع تعريف أمر العبودية والربوبية، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر السر؛ فهو حديثه الخفي في بطنان غيب الخاطر في مشهد الملكوت مع الحق حيث يكون محتجباً عنه بنعت المتضرع لطلب مشاهدته، وسر ذلك السر وقوع كلام الحق على مجاري الصفة له في الغيب وهو يسمع ولا يبصر، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر سر السر ما يكون وراء الحجاب فوق الملك والملكوت مشاهد الجبروت ومعاین الذات يرى عجائب أنواره وحقائق أسرار صفاته وذاته فيعرف منه به ويسمع منه بلا واسطة، ويقول معه يطلب منه بلسان الافتقار مزيد قرب القرب ودنو الدنو حتى يقع في بحار الألوهية فلا يرى ولا يعرف فهو أسر الأسرار، وأخفى الخفيات فالطبيعة لا تطلع على سر النفس، والنفس لا تطلع على سر القلب، والقلب لا يطلع على بعض سر العقل، والعقل لا يطلع على بعض سر الروح، والروح لا يطلع على سر السر والسر، لا يطلع على سر سر السر؛ لأنه مقام ما أخفى من السر، ولا يطلع على جميعها إلا الله سبحانه من الخلق والخلق لا الملائكة لا المقربون ولا الأنبياء المرسلون إلا ما يكشف الحق لهم من ظاهر الأسرار قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] إلا من ارتضى من رسول، وباطن هذه الأسرار لا ينكشف لأحد غير الله؛ لأنه مما استأثره لنفسه ولا يطلع عليه غيره وحاصل الحقيقة من معنى الآية أن السر ما في صفاته، وما أخفى ما في ذاته.

قال الصبيحي: السرُّ ما طالعه الحق ولا يطالعه الملك ولا الشيطان ولا يحس به النفس ولا يشاهده العقل، وهو في الإضمحار لم تحو المهم، ولم تدبره الفطن، وهي في لباب لب القلب من حقائق المحض من خطرات الإلهام كشر النار الكامن في الشجر الرطب حتى تمثله الإرادة والمشيئة والأحكام؛ فيتنقل في الأحوال، فهذا هو السر، وما هو أخفى فما لم تحس

ولم لطالع لا يعلمه إلا الله؛ فهو أخفى من الحقائق، فإذا ظهر معلومه أبدى علمه.

قال الواسطي: السرُّ ما خفي على العباد، والذي هو أخفى ما لم يقل له كن.

قال الجنيد: يعلم سره فيك، وأخفى سره عنك.

وقال جعفر الصادق: السرُّ موضع الإرادة، وأخفى موضع الخطرة والمشاهدة.

وقال الأستاذ: فالنفس ما تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا سبيل له إلى حقائق السر، والذي هو أخفى من السر فما لا يطلع عليه إلا الحق، ويقال: الذي هو أخفى من السر لا يفسه الشيطان، ولا يكتبه الملاك، ويستأثر بعلمه الجبار، ولا يقف عليه الأغيار، ولما تفرد بنفسه بالإطلاع على السر والخفيات نفى عن ساحة كبريائه من لم يستحق للفردانية الأزلية، والعلم الشامل بأسرار الحوادث وخفيات الضمائر، ووصف نفسه بذلك.

وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿١﴾ فمعاني الأسماء بالحقيقة سر من

حيث يعبر حقائق الصفات، وما في الذات من علوم القدمة وأسرار الأزلية وهو أخفى من سر الأسماء أخبر سبحانه حبيبه من أسرارهِ التي بينه وبين كلمته موسى وتلك الأسرار أعجب العجائب.

أما غرب الغرائب من علوم أسرارهِ وحقائق أنوارهِ بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

مُوسَى﴾ ﴿٢﴾ ما أطيب ذكر قصة الكليم للحبيب خص أن الحبيب الأكبر ذكر حال الكليم للحبيب؛ لأن الحبيب يستأنس بسميه من الأحياء، لذلك قصَّ الله قصة الأنبياء لحبيبه ثم بيَّن يد وحال كلمته بقوله: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

لما كَمُلَ كليم الله كَمُلَ في الإرادة ودخل في الإرادة ودخل من الإرادة إلى مقام المحبة ترك الوسيلة الصغرى وهي خدمة شعيب، ووقع في الوسيلة الكبرى، هي رؤية النار في الشجرة وتلك بداية مكاشفته وسع خطابه الحق سبحانه، ف وقعت مكاشفته قبل الخطاب وهو مقام الكبراء في المعرفة، ثم وقع بعد ذلك في بحر الخطاب، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا يُودِي يَمُوسَى﴾؛ فإذا أراد الله أن يعرفه مقام رؤية الصفات في الأفعال تجلّ بجلاله لكسوة النار، ثم تجلّ من كسوة النار لكسوة الشجرة ثم تجلّ من الشجرة لموسى، وذلك مقام أسرار الالتباس الذي يجذب بالحق عشاقه إلى معادن الألوهية ليصيروا بعد ذلك موحدين؛ فرباهم في البداية في مقام العشق برؤية أنوار الصفات في الأفعال حتى لا يفنوا بالبدئية في سطوات عظمتهم، ولو يريهم صرف عيان الذات يصيرون مضمحلين في أنوار قدسه جعل الشجرة مرآة للنار، وجعل النار مرآة للنور، وتجلّى منها لموسى فرأى موسى نيران الكبرياء، وأنوار البقاء

من شجرة القدم فانجذب إلى قرب مغناطيس الصفات ورأى لطائف مشاهدات الذات، كأنه هو في رؤية المعاني، وظن أنه في صورة الأماني فاتأها بنعت الشوق وتحير في شأن الأمر وطلب نفسه أين هو وما علم أنه في كتف الوصلة وبساط القرية فدار حول الشجرة برسوم العلم، وهكذا حال من كوشف له حقائق الحقيقة بالبدية؛ فلما غاب في الغيب في طلب الرب ناداه الحق وقال: أيش تطلب؟ أنا ربك، أي: ما ترى يسرك وروحك وعقلك فهو جمال ربك وإن كنت في تلبيس الفعل والصفة لو تريد أن تراني صرفاً، فاخلع نعليك أي: نعلي الكونين فإنك بالواد المقدس وادي الأزل المقدس عن غيار الظنون والحسبان وأنفاس النفس والشيطان، ولا ينبغي أن تأتي قدس القدم بآثار أهل العدم حتى يطوى لك وادي الأزال والآباد، وينكشف سرها لهمتك وقلبك وروحك وسرك، وأيضاً أي: اخرج أنت منك حتى تصل بي فأنا لمن لم يكن لنفسه.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ موسى خطرات به حسه الخطوط في أخذ نار فنال النور، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من نفسه، وقد حوله من شاهد الخط إلى شاهد الحق.

قال جعفر: قيل لموسى: كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق؟ فقال: لأنه أفتني وشمّلني، فكان كل شعرة مني كان مخاطباً بنداء من جميع الجهات، وكأنها تعبر من نفسها بجواب، قلما أشمّلني أنوار الهيبة، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت علمت أنه مخاطب من جهة الحق ولما كان أول الخطاب ﴿إِنِّي﴾ ثم بعده ﴿أَنَا﴾ علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظتين جميعاً متتابعاً إلا الحق فأدهشت، وهو كان محل الفناء، فقلت: أنت أنت الذي لم يزل ولا تزال ليس لموسى معك مقام ولا له جرأة الكلام إلا بأن تقيه ببقائك وتنعته بنعوتك، فتكون أنت المخاطب والمخاطب جميعاً؛ فقال: لا يحمل خطابي غيري، ولا يحيني سواي أنا المتكلم، وأنا المتكلم وأنت في الوسط شبح تبع بك عمل الخطاب.

وقال الشبلي في قوله: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية فنكون، ولا تكون فيتحقق في عين الجمع يكون إخبارك عنا وفعلك فعلنا.

قال ابن عطاء: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾^(١) أعرض بقلبك عن الكون؛ فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب قيل: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾؛ فإنك بعين موجدك.

وقال جعفر: أقطع عنك العلائق ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

(١) كما يفعل بحضرات الملوك أدباً، ولتنالك بركتها ولتكون مهياً للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (٥ / ٢٣٨).

وقال ابن عطاء: أي: أسقط عنك محل الفصل والوصل؛ فقد حصلت في وادي القدس، وهو الذي يظهر من الأحوال أجمع، ويردك إلى محولها عليك.
وقال الأستاذ: فارغ قلبك عن ذكر الدارين وتجرد للحق بنعت الانفراد، أما الفرق بين قوله: ﴿إِنِّي﴾، وبين قوله: ﴿أَنَا﴾، وبين قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، فـ﴿إِنِّي﴾ إشارة إلى أصل الذات، و﴿أَنَا﴾ إشارة إلى كشف الصفات، و﴿رَبِّكَ﴾ إلى أعيان الذات والصفات في الأفعال.

وقال بعضهم: ﴿إِنِّي﴾ إخبار، و﴿أَنَا﴾ إظهار، و﴿رَبِّكَ﴾ تذكار.

وقيل: ﴿إِنِّي﴾ معرفة، و﴿أَنَا﴾ توحيد، و﴿رَبِّكَ﴾ إيمان.

وقيل: بقوله: ﴿إِنِّي﴾ إناؤه، وبقوله: ﴿أَنَا﴾ إبقاؤه، وبقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ إيوؤه.

وقيل: ﴿إِنِّي﴾ لقلبه، و﴿أَنَا﴾ لروحه، و﴿رَبِّكَ﴾ لنفسه، وقد وقع إخواني إشارة إلى

امتناع ذاته عن إدراك الخليفة، و﴿أَنَا﴾ إبراز علوم حقيقة صفاته، و﴿رَبِّكَ﴾ ظهور مشاهدة تجليه الذي هو سبب تربية موسى، رياه بتجلي ربوبيته في لباس فعله.

ثم أخبر سبحانه أنه اختاره لمكان وحيه وخاصة رسالته واصطفائته بساع كلامه القديم حتى يكون خالصاً من جميع البريات، ويكون منفرداً في العبادات بقوله: ﴿وَأَنَا أَحْتَرِّتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ اختاره في الأزل لمحبه والشوق إلى لقائه ومعرفته بفردانيته، ويكون الحق سبحانه سميره في مناجاته، وظاهراً بوصف الربوبية، وتجلي العظمة لمشاهدته، ومراده سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ جمع همته وحضور قلبه وسكون سره وهدوء روحه عند جريان الخطاب حتى لا ينفك منه خاطر يشتغل بغيره من العرش إلى الثرى ليكون علمه أشمل، ومعرفته أكمل وحاله أصفى ووقته أشفى ووجده أوفى؛ لأنه كان في مشاهدة عرض جلال القدم، وفي لجج بحار الكرم حيث قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، قوله: ﴿إِنِّي﴾ خبر عن بطنان أولية القدم، و﴿أَنَا﴾ خبر عن شهور ذاته وصفاته على الأسرار والأرواح والقلوب بنعت غيبتها عنه.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ ظهور ظهور الذات والصفات لشهود الأرواح والأسرار والقلوب والعقول كشفاً وعياناً وبياناً؛ فإذا أعلمه حقيقة ربوبيته استدعي منه العبودية الخالصة عن كلكدورة بشرية وخاطر شيطاني بقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ ألزم عليه حتى حق الربوبية للغير للعبودية وأي تشريف مما ألزم عليه من حقوق ألوهيته وجعله موضعها ليكون فرداً بعبوديته كما كان سبحانه فرداً له بإظهار جماله له وإسراع كلامه إياه وأراد سبحانه أن يلبسه أنوار

الربوبية في مكان عبوديته حتى يصيره متصفاً بصفاته متحدًا بمحبته مستغرقاً في جمال أوليته وأخريته ليخرج منها بوصف الأزل والأبد لا بوصف الحدث.

ثم يبين أن الصلاة إعلام عبوديته ومواقع شهود مشاهدته ولطائف حقائق ذكره ومناجاته بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٥٠ البيان هو الذكر ومزيد الذكر وحقيقة المراد استغراقه في بحار مشاهدة المذكور؛ لأن الصلاة موضع شهود الأسرار على الأنوار وكشف الجمال للأرواح لترقيها بنعت شكرها في عالم الأفراح.

قال الواسطي: في قوله: ﴿وَأَنَا أَحْتَرِّتُكَ﴾ المختار من جهة من هو مصطنعة ومصطنعة ومريبه على يد أعدائه والملقي بمحبه في قلوب عباده فلم يستطيعوا له إلا محبة، والمطلق لسانه بحر العقد والميسر له أمره فلا يعسر عليه مطلوب بحال كل هذا يقدم إليه ويمن به عليه؛ ليكون ثابتاً عند مكافحة الخطاب ومواجهة الوحي والكلام.

وقال في قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ لا تشغل قلبك بغيري قولاً وفعلاً، ولا تكن من أبناء الأفعال والإحصاء والأعمار والدهور، وكن من أبناء الأزل والأبد مطالعاً لما سبق من الأولوية، وجرى لك في الأثرية، وإن كان كلاهما واحداً. قال ابن عطاء: إشارة إلى حقيقة الحق إذ الأزل والأبد علة في ذكر الأوقات والدهور علة.

قال الواسطي: أظهر هذا الخلق في شموخ وعلو في أنفسهم؛ فأمرهم لعله الفاقة لا لعله الاستغناء تبسلاً لرؤية الاضطراب.

قال: يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أحب أن يريه عجزه. وقال أيضاً: بالعبرانية خاطب موسى ثم وصف لمحمد ﷺ بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هل تلونت الصفة بذلك.

قال: لو لونتها اختلاف اللغات لتلونت في اختلاف الأوامر والنواهي.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ وجدني على الشهود كما عرفني بالوجود، ودع عنك الرسوم والحدود فلا حد إلا حده ولا عبد إلا عبده.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٥٠ إقامتها من غير ملاحظة مجريها ومنشئها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصلة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٥﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٦﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدٌهَا سَمَرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿١٧﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ فَخَرُجْ بَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ لِئَرْيَا مِنْ ءَايَتِنَا أَكْثَرَ ﴿١٩﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢١﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٣﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٤﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٥﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٦﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢٧﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٨﴾ كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٢٩﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣١﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ مَتْنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٤﴾ إن الله سبحانه كلمه فطاب وقته من لذة كلامه، واختلج في سره إرادة لقاء المتكلم، وكاد يقول في بداية حاله ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فعلم الحق سبحانه سر ما في قلبه، وعلم أنه لا يطبق أن ينظر إليه كفاحًا، وأراد ألا يجرمه من سؤله ومأمله؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٥﴾، قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، قال: ﴿أَلْقِهَا﴾؛ فلما ألقاها صارت حية ففر منها موسى، قال سبحانه: أين تفر من رؤية مأمولك؟ انظر إليها بنظر الحقيقة حتى ترى مشاهدة الذات في الصفات، ومشاهدة الصفات في الآيات؛ فحصل لموسى مشاهدة رؤية العظمة مع الخطاب الخاص، وأيضًا أراد سبحانه أن يريه الآية الكبرى حتى يتعود برؤيتها، ولا يفرغ منها عند تقلبها في ابتلاعها سحر السحرة، وأيضًا كان في مواجهة كلامه القديم في رؤية الجلال العظمة فكاد يذوب من صولة العظمة ورؤية الكبرياء فشغله الحق في ذلك بذكر شيء من الحدثان حتى يسكن لحظة من سكن رؤية الجلال، وألا يفني في سطوات الكمال، وأيضًا ظن موسى أنه تعالى لا يتكلم معه في شيء محقر إنها يتكلم في العظام فاعلمه الحق موضع انبساطه إليه حتى ينسبط إليه.

ألا ترى لما وجد لذة حسن انبساط الحق كيف خرج من مقام الهيبة، وانسبط إليه بقوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، قوله: ﴿عَصَايَ﴾ جواب بالانبساط من لذة وجدان مكانته في شهود عين الحق، ولولا ذلك ما أضاف إلى نفسه في رؤية فردانية الحق، وأيضًا أراد الحق سبحانه أن يعلمه أن في عصاه كثيرًا من معجزته فنبهه

عن ذلك، فلم يعرف موسى في ذلك الوقت إشارة الحق، فقال: معي عصاي، ولو لقال: هي موضع آياتك ومسقط قدرتك، وأيضاً أظهر عجزه عند سرادق كبريائه بأنه أضاف الحدث إلى الحدث، وعلم أن الحدث لا يليق إلا بالحدث ويمكن أنه رأى منها بعض الآيات؛ فذكر إنعام الله عليه في حضرته وزاد ذكر النعمة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها أي: أعتمد عليها بأنها آية من آياتك ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَتْمِي﴾ أستمتع بما أريد منها ﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى﴾ ﴿٢٠﴾، وتلك المعجزة من مآربه فلما ارتهن من الحق بالوسائط.

قال سبحانه في غيرة الوجدانية: ﴿أَلْقِهَا﴾ جواباً لقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا﴾ لثلاث يسكن إلى غيره، فلما ألغاه ﴿فَأَلْقْنَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: موسى عصاه متقلبة بحية عظيمة مقبلة إلى موسى بالهية والصلوة ففر منها موسى خيفة، وذلك من غيرة الله عليه سبحانه لثلاث ينظر إليها، ولا يستأنس بها؛ فإنها وسيلة منة إليه، ومن بقي في رؤية الوسيلة احتجب عن رؤية الحقيقة، وبما عاقل إن فرار موسى لا من الخوف من غير الحق إنما هو خاف من عظمته التي ظهرت من الحية؛ لأنه تعالى تجلى بعظمته من الحية لموسى، ومن يستقيم بإزاء مشاهدة عظمته القديمة فلما علم الحق أنه تبرأ من غيره ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: خذ عصاك، ولا تخف من غيري.

قال: ما خفت منه؛ فهو أنا لا غير.

قال فارس في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ ^(١) سمع موسى كلاماً لا يشبه كلام الخلق، فلما سمع ذلك الكلام كاد يهيم، فمرة أضاف العصا إلى نفسه، ومرة أجاب عما لا يسأل كذلك الهيمان.

وقال: لما غلبت عليه لذعات الصفات وأراد الحق إلى المخلوق ليسكن ما به؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ أشغله بالإجابة عما يملكه، ولولا ذلك لتفسخ عنه ورود الخطاب عليه بغتة.

وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وانبسط إليه في السؤال

(١) وأية نعمة أو مأرب أو منفعة تكون أعظم من أن تقول لي: وما تلك؟ ويقال قال الحق - بعد ما عدّد موسى وجوه الآيات وصنوف انتفاعه بها - ولك يا موسى فيها أشياء أخرى أنت غافل عنها وهي انقلابها حية، وفي ذلك لك معجزة وبرهان صدق. ويقال جميع ما عدّد من المنافع في العصا كان من قبيل الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (٤ / ٤٩٣).

ليربط على قلبه لعلمه بها يديه في شهود الكبرياء.

وقال أيضًا: أحب الله أن ينسبط موسى في الكلام كيلا يحتشم في السؤال.

وقال الجني في قوله: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها، فقال له: ألق كل ما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه نفسك؛ فإن الكل محل العلل، فإن كل ما تسكن إليه ستهرب منه عن قليل، ألا تراه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾.

وقال الحسين: عدَّ موسى منافع العصا على ربه وسكونه إليها وانتفاعه بها؛ فقال تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ﴾ أي: ألق من نفسك السكون إلى منافعها وقلبها حية ليزول عنه الأنس بها ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ فقال حين قطعه عنها بالفرار منها: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، وراجع إلينا.

قيل: الحكمة في انقلاب العصا بحية في وقت الكلام أنه جعل آيته معجزته، ولو ألقاها بين يدي فرعون، ولم يشاهد منها قبل ذلك ما شاهد لهرب منها كما هرب فرعون حين بدته رؤيتها.

قال فارس في قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾: ذكر كل ما فيها من وجوه المنافع لثلاث يكون له معاودة إلى ذلك؛ فيستلذ بخطاب سيده وعتابه.

وقال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: جواب الذي بعده ذكر ما أنعم الله عليه بالعصا من المنافع، فكان بعد قوله «عصاي» لسان الشكر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: أضافها بالملك إلى نفسه، ولم يكن يجب له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكًا بين يدي الحق، فلما أضافها على نفسه، قال: ﴿أَلْقِهَا﴾ فألقها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: خذها أي: خذ عصاك، ولا تهرب مما ادعيت فيه الملك لنفسك؛ فخاف وتبرأ من إضافتها ملكًا إلى نفسه فتعطف الحق عليه، فقال: خذها ولا تخف فإنها لن تضرك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبٌ أُخْرَى﴾: سرائر مغيبة عني في العصا غطيته على ذلك أو أن يكشف لي من الآيات والكرامات.

وقال جعفر: منافع شتى، وأكثر متفعة لي فيه خطابك إياي بقولك: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ﴾.

قال سهل: ذكره موسى من العصا مآرب ومنافع؛ فأراه الله في عصاه مآرب ومنافع كانت خافية على موسى من انقلاب العصا ثعبانًا، وضربها بالحجر في انبجاس الماء وضربها

بالبحر فانفلق، وغير ذلك أراد بذلك أن علم الخلق وإن كانوا مؤيدين بالنبوة قاصر عن علم الحق في الأكوان.

قال الواسطي: في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾: اطرح عن نفسك السكون إلى العصا والاعتماد عليها، وعدّ المنافع فيها فلما ألقاها، وخلا منها سره، ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ الآن منا على الشرط أن ترانا النافع والضار لا الأسباب.

وقال ابن عطاء: ألقها من يدك؛ فإنك أخذتها من غيرنا، فعددت فيها أسباب المنافع، وخذها منا لتكون ولي نعمتك دون غيرنا.

وقال الجنيد: كان خوف موسى خوف التسليط لا خوف الطبع.

وقال الواسطي: خوف موسى من العصا أنه شاهدها فيه أثر سخطه.

وقال أيضًا: رأى موسى على عصاه كسوة من سخط الحق، ولم يأمن من مكروه.

وقال ابن أنبار في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ قال: كلام بسط ليزول عنه روعة الهيبة.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾: فإنك بنعت التوحيد واقف على بساط التفريد؛ فكيف يصح لك، ومتى يسلم لك أن يكون لك معتمد تتوكل عليه أو مستند إليه تستعين بهنّ وتتفتح، ولما وجد الحق كليمه مستقيمًا في محبته وشوقه وتبرئه من جميع الأسباب بعد إلقائه عصاه أراه أنوار ملكه وملكوته في نفسه، وما كان في عصاه من شهود جاد أن أظهر له من يده حتى رأى من يده ما رأى من عصاه، فإن فيها العجائب أكثر والغرائب فيها أوفر؛ لأن النقل من رؤية الأشياء إلى رؤية مشهد النفس زيادة القرية؛ لأن ما يتجلى من الإنسان للإنسان أشرب مما يتجلى من الكون له.

ألا ترى سبحانه كيف ميّز بين الأمرين العظيمين بقوله: ﴿سُورِهِمْ أَتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وذلك معنى قوله سبحانه لكليمه: ﴿وَاصْصُمَّ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ اضمم يدهمك عن غير شهود كبريائنا، ومشاهدة جمالنا تخرج بيضاء متصفة بنور أحديتنا مقدسة بقدسنا عن الأكوان والحدثان، فيكون بعد ذلك آيات تجلينا بظهور نور تجلي كبريائي من وجهك للعالمين، وأيضًا اضمم يدك الظاهرة إلى جيبك الذي فيه قلبك حتى تخرج بيضاء بها فيه من نور نظرنا ومشاهدتنا، وأيضًا فيه مقام الأدب أي: اضمم يدك التي تكسر بها الأرواح، وتأخذ بها رأس هارون، ووكزت بها القبطي من تلك الحركات حتى تكون موضع معجزتنا، ولي فيه واقعة كنت يومًا حضرت

الحضرة في الخلوة، فأخرجت يدي بين يدي الله سبحانه مجردة للدعاء، فنادى في هواتف الأسرار: اضمم يدك، ولا تجرها فإنها سوء الأدب في الحضرة الخاصة؛ فأخذت يدي إلى جنبي، فأريت بعد ذلك أشياء في قلبي وفي صورتي، ولا أطيق وصفه.

قال الجنيد: اجمع عليك همتك، ولا تشتت سرك.

وقال بعضهم: اقطع مرادك عن الكونين، وكن مريدًا لنا لتكون مرادك، ثم بيّن سبحانه أن يده البيضاء أكبر آية وأعظم معجزة له ولغيره وذلك قوله: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٠﴾ أرى الله موسى من يد موسى له أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد من موسى؛ فكان يد موسى يد قدرة الله من حيث التخلق والاتصاف، وهذا إشارة صفي بمالك الملكوت غواص بحر الجبروت، حيث حكى عن الحق سبحانه في حديث المحبة والاتصاف بقوله: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحبته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»^(١).

فلما زينه الحق بأنوار ربوبيته أشهره على العالمين ليكون حجة عليهم، قال سبحانه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ الحكمة فيه أن موسى كان في مشاهدة قرب جلال الأزل شاهد الربوبية، وكاد يفنى في العزة فشغله الحق بالشرعة عن الفناء في الحقيقة فلما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة سأل من الحق سبحانه شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر ليطبق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم، وذلك أنه كان في مشاهدة الحق ألطف من أهواء، وفي خطابه أرق من ماء السماء، فطلب قوة ألوهية وتمكينًا قديرًا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٢٢﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٣﴾ عرف مكان مباشرة الشرعة أنها حق الله وحق الله في العبودية مقام الامتحان، وفي الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر أي: إذا كنت في عين الشرعة عن مشاهدة غيب الحقيقة اشرح صدري بنور وقائع المكاشفة حتى لا يكون محجوبًا بها عنك.

ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكا من صحبة الأضداد في أداء الرسالة؛ بقوله: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٠٢١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٤٨٧٠)، وأحمد في مسنده (١٢٩٤)، وأبو داود (١٢٩٤).

أشرح لي صدري بنور القدس حتى أكون معك في مقام الأنس وادي عجائب الغيوب، وغرائب الكشوف: ﴿وَيَبَيِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هيئ لي قوة من قوتك حتى أقوم بنعت الاستقامة معك في أداء رسالتك ونشر شريعتك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ عجمة الإنسانية حتى أطيع أن أشرح ما كاشفت لي لعبادك بلسان شرع نبوي ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾؛ فإن لساني لسان الحقائق، ولو أتكلم معهم بلسان الحقيقة لا يفهمون إشاراتي وعباراتي منك، وأنا أريد الوقوف بسري معك في شهود الغيب، وإذا كنت غائباً لا أطيع أن أؤدي رسالتك بهيئتها ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا﴾ يعبر قلبي لهم، فإنه يحس مقالتي، وإشارتي التي هي من مجمع بحار الكلام الأزلي والشهود الأبدي، ولا أكون مشغولاً عنك بغيرك هذا من عموم التفسير وإشارات الحقائق أصنف من كل صفاء، وهي أن موسى كليم الله عرف مكانه من مواجهة خطاب الأزل ومشاهدة جلال القدم وبقائه ببقاء الحق مع الحق وأنه يكون بضعف حدوديته موازياً لشهود القدم إلى البقاء بوصف كشف الذات والصفات، وأنه يفنى بأول برقة تتبرق من بروق أنوار جلال الذات والصفات، ولو كان موسى ألف ألف موسى وكل موسى في موسى أعظم من العرش والكرسي والكون والكائنات، وما فيها يضمحل في صدمة واحدة من سطوات ألوهية الحق، فسأل أن يشرح صدره بنور تجلي الجود الأزلي، وبسطه ببسط الأبدي حتى يكون صدره حاملاً لتجلي جميع الذات والصفات؛ فمن هذه الإشارة وقع سؤاله في حيز الاستحالة؛ لأن الحق أجل من أن يكون ذاته وصفاته في حيز علوم الحدثن وإدراك أهل الزمان والمكان.

وقوله: ﴿وَيَبَيِّرْ لِي﴾ أمر طلب الربوبية أي: يسر لي الربوبية من حيث الاتصاف والاتحاد، وهذا جراحة العشاق ووقع أيضاً هذا السؤال في محل الاستحالة؛ لأن الربوبية لا تفارق عن مصدر الأزل.

وقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي» سبوح صمداني رباني حتى أطيع أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادراً بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.

وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنعه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة.

ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التهام ليترقى به حاله إلى

أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان ممن وفى المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداها إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٢٠).

وقال بعضهم: سأل هل عقد الحياء عنه؛ فإنه استحي أن يخاطب عدو الله فرعون بلسان به خاطب الحق.

وقال ابن عطاء: ﴿أَشْرَحَ لِي صَدْرِي﴾ لاستماع كلامك، ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ بالوقوف معك، ﴿وَآخُلْ عَقْدَةً﴾ النفسانية، ﴿مِنْ لِسَانِي﴾.

وقال الجنيد: ما سأل الله موسى في هذه الآية إلا الأخلاق.

وقال جعفر: لما كلم الله موسى عقد لسان موسى عن مكالمه غيره؛ فلما أمره بالذهاب إلى فرعون ناجاه بسر، وقال: ﴿آخُلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ لأكون قائما بالأوامر على أتم مقام.

وقال ابن عطاء: اكشف لي عن صدري حتى لا أشاهد غيرك ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ حتى لا أنطق إلا بمعرفتك، ﴿وَآخُلْ عَقْدَةً﴾ الإنسانية من لساني حتى لا أتكلم إلا بها يتلقته منك.

وقال جعفر: ﴿وَآخُلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ عقدة الهيبة والإجلال، ولما سأل وزارة أخيه بين مراده منه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٢١) و﴿تَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٢) أراد بالذكر والتسبيح الكثير نشر فضائل ما من الله عليهما بنعت الحمد والشكر، والحمد إذا كان بلسان الحدث يكون قليلا ولكن إذا كان المعارف يذكر الله بالله ويسبح الله بالله يكون الله كثيرا حيث من عين الجمع في محل الاتصاف والاتحاد ثناء موسى وهارون ثناء الله على نفسه، إذ لم يبق في البين غير الله فإن الكل هو الله وذكره موازي وصف قدمه، وذلك الذكر الكثير، وما دونه فهو في محل القليل.

قال ابن عطاء: لا يخطر برك ما خطر بموسى حيث قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ استكثر ما منه من العبادة، والتسبيح؛ فلا يخطر بك ما خطر به.

قال جعفر: قيل لموسى: استكثر تسبيحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في حفظك في اليوم وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خاطبنا معك

وكلمنا إياك وأكثر منه إخبارنا باصطناعنا لك، ولما كان قصد موسى بسؤاله إنفاذ مراد الحق لا مراد نفسه وقع الإجابة على موافقة الاصطفائية الأزلية بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (١٢٠) أي: وقع سؤالك محل خاصيتك التي صدر منا في الأزل فبتلك الخاصية سألت عنا مأمولك، وقد أعطيناك سؤالك: ﴿وَلَقَدْ مَخَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (١٢١) بأن ألبستك نور اصطناعي واصطفائي حين خرجت من العدم وذلك النور.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (١٢٢) ﴿أَنْ أَقْدِيبِهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِيبِهِ فِي الْبَرِّ فَلْيَلْقِهِ الْبَرُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (١٢٣) ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ فَرَجَعْتُكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْتُكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ (١٢٤) وَأَصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي﴾ (١٢٥).

قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ هذه خاصية عجيبة اصطفاه في الأزل لقبول وحيه ورسالته وسماحه كلامه ورؤية مشاهدته؛ فلما أراد أن يجعله مسقط نور جلاله وجماله ألبسه نور محبته الأزلية السابقة للأنبياء والمرسلين والصديقين حتى يكون بقوتها متحملاً لحمل أنوار صفاته وذاته فمن كل صفة عليه نور، ونور المحبة علا على كل صفة ليكون مع هيئته وجلاله محبوب كل محب ومألوف كل أليف، وبذلك النور يكون حسناً مستحسناً مليحاً شريفاً ظريفاً

(١) قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْتُكَ﴾ [طه: ٤٠] يا موسى: ﴿إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠]. أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسى القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانتقطاع عن تعلقات الذات والصفة، وقوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبيك إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قابلاً وقلباً يتجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإتيان المفهوم من قوله تعالى: فأقره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قريب عين لك، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القلب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالخزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقلب، فإن القلب له حجابية في الجمل، وإن تلطّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر معتزلاً أشد الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (١/ ٢٧٥) بتحقيقنا.

في أعين الخلائق جميعاً وهكذا حال كل محب للرحمن.

قال الواسطي: في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ سأل وبه ابتدأ شرح صدره فجاز الاقتداء به للعوام دون الخواص؛ لأن الله أعلم بما فيه إيلاخ رسالته وأداء أمانته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ إلى قوله: ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ فذكر أيام حدائنه ثم رده إلى أصله ثم رده من أصله إلى أصل الأصل؛ فقال: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ فأضافه إلى نفسه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

قال السري السقطي -قدس الله روحه: ألقى عليه لطفاً من لطفه استجلب به قلوب عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ لك، فمن رأى فيك محبتي لك أحبك يحبني لك.

قال فارس: زيتك بملاحة من عندي حتى لا تصلح لغيري، ويحبك كل من يرى تلك الملاحة فيك؛ فقل: أليس يوسف أعطي شطر الحسن، ولم يسكن يستوجب المحبة. فقال: الحسن لا يوجب المحبة والملاحة توجب المحبة، ألا ترى النبي ﷺ كان عليه ملاحة مزوجة بهيته.

قال بعضهم: بعينك لا يراك لا أحد إلا رق لك ومال إليك ولما خصه بكسوة نور محبته جعله محفوظاً في مقام الامتحان والبلاء لا ينقطع عنه أنوار تلك الخاصة، وكان في مجمع حجر وصلة الحق يربيه بأيدي الأعداء ليبيّن منته واصطفائيته، كأنه خاطب لطفه قهره ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لتكون مربى في مقام القهر بعين اللطف، وهذا خاصة عجيبة.

قال الواسطي: ما نجا نبي ولا ولي من محنته ولا سلم أحد من مشقته، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

قال ابن عطاء: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أنا مشاهد لك حافظ أركانك بعيني ولا أسلم سياستك إلى غيري ليعلمه حسن العناية.

ثم إن الله سبحانه ذكر لموسى منته عليه بأن أنجاه من كيد العدو، وإرجاعه إلى أمه، وبأن لم يأخذه بجرم القتل بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ إن الله سبحانه أعلم الحقائق أن من اصطفاه الله في الأزل بشرائف المعرفة ولطائف الولاية لا يضر به المعصية ولا يزيله من مقام

الاصطفائية مباشرة الكبيرة فألقى موسى في البداية في محنة المعصية كأبيه آدم عليها السلام ليكون التواضع مصحوباً له إلى النهاية ويربيه بحقائق القهر كما يزيه بحقائق اللطف ﴿فَتَجَبَّيْنَكَ مِنَ الْعَمْرِ﴾ أي: نجيناك من طريان العتاب منا على قلبك ﴿وَفَتَّيْنَكَ فُتُونًا﴾ أخلصناك من النظر إلى غيرنا في جميع أنفاسك، وألبسناك أنوار لباس ربوبيتنا حتى عرفتنا بمعرفتنا، وصرت فنون عجائب لطفنا في العالم.

قال الواسطي: ألقاه في أعظم كبيرة حتى يوجده طعم الاصطفاء بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

وقال أبو الحارث: فتناك بنا عما سوانا.

وقال ابن عطاء: فنجيناك بالبلاء طبعاً حتى صلحت لبساط الأنس.

وقال سهل: أفنينا نفسك الطبيعي ودبغها حتى لا تأمن من مكر الله.

ثم زاد ذكر المنة عليه بأن جعل شيخه ومقدمه في طريقته شعباً ^{عليه السلام} بقوله: ﴿فَلَيَّمْتُ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبته عند شعيب بأن رباه الله بصحبة المرسلين ليكون متخلقاً بخلقه مهذباً في آداب الحضرة، وهذا سنة الله للمريدين ﴿ثُمَّ جَعَلَ عَلَى قَدَرٍ﴾ أي: على قدر زمان الإرادة؛ فإذا كنت كاملاً جئت على قدر مقام المحبة، ووطئت بقدم المحبة على بساط القربة بعد قدم الإرادة في مقام الخدمة جئت بيا اصطفييناك في القدم من العدم، لا يتغير قدرك بتقليل بدور العناصر عن قدر اصطفايتنا.

قال بعضهم: قدرنا لك سبيل المعرفة وقتها فجئت على ذلك القدر أقدر.

ثم ذكر سبحانه أعظم منته عليه بقوله: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِتَفْقِيَ ۝١١﴾ أي: ضممت سرك بنور سري وقلبك بنور نوري وعقلك بسنا قدسي وروحك بجمال وجهي وألبستك نور محبتي وكسوتك كسوة ربوبيتي لتكون مشكاة أنوار صفاتي وذاتي، أتجلى من وجهك بالهبة للعالمين وخصصتك بمخاطبتي وساع كلامي؛ فإن في زمانك ليس في العالم سواك محل وقوع نور تجلياتي وكشوف أسرار سري ولتكون لنفسك خاصاً بالمحبة والشوق والعشق لا لغيري وأنا غيور عليك لا يراك أحد بعين المحبة إلا ابتليته، ولا ترى أحداً بعين المحبة إلا ابتليك حتى لا يكون فيك نصيب أحد غيري.

قال الخراز: في قوله: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِتَفْقِيَ ۝١١﴾؛ فمن أين وإلى أين ومنه وإليه وله وبه وفني فناؤه لبقاء بقاءه بحقيقة فناؤه.

وقال فارس: أخلصتك لي حتى لا تصلح لغيري.

وقال أبو سعيد الخزاز في بعض كتبه: غير أن أولياء الله رهائن الله في أشياخهم قد خباهم وأخفاهم في أنفسهم من أنفسهم، وهذا مقام الاصطناع الذي قال الله لموسى: ﴿وَأَصْطَلَبْتَكَ لِتَقْسِي﴾.

قال سهل: مفردًا إليّ بالتجريد لا يشغلك عني شيء^(١).

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَيْنَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿١٠﴾ ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿قَالَا زَيْنَا إِنَّا نخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ ﴿١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْنَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿١٠﴾ أي: إذا أمر دعا أن تذكراني فاذكراني حتى لا تضعف تحت أنقال ذكري؛ فإن ذكر القديم لا يحتمل إلا بقوة من القديم، وأيضًا لا تغيبا عن مشاهدتي باشتغالكم بأمري حتى لا تكونا فاترين بي عني.

قال سهل: لا تكثرا الذكر باللسان، وتغفلا عن مراقبة القلب.

ثم إن الله سبحانه أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لقطع حجته وإظهار كذبه في دعواه بقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١٠﴾ هذا تهديد لكل مدع لا يكون معه بينة من الله في هواه، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله، ومن يعجز عن هداية غيره فأيضًا يعجز عن هداية نفسه، ويعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب ويشكروا الله بما أنعم عليهم بلطفه، وربما يصطادون من بين الكفرة من يكون له استعداد نظر الغيب مثل حبيب النجار ورجل من آل فرعون وامرأة فرعون والسحرة.

قال ابن عطاء: الإشارة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو المبعوث بالحقيقة إلى السحرة؛ فإن الله يرسل أنبياءه على أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه ولكن يبعث الأنبياء إليهم ليخرج أولياء المؤمنين من أعدائه الكفرة.

ثم بين سبحانه لطفه وكرمه للمؤمنين بما أظهر لطفه بأعدائه بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ انظر كيف تلطفه بأعدائه؛ فهذا لطفه بأعدائه فكيف لطفه بأوليائه علم عجزه وضعفه وكذبه وعلمه بنفسه بأنه أعجز العاجزين، ولكن ضرب قهر الجبارية، ولطمه الميل على قفاه وبعده من باب العبودية مع استعداده بقبول المعرفة، ولولا ذلك لما قال: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

(١) أي تفرد إلي بالتجريد لا يشغلك عني شيء. تفسير التستري (١/ ٣٢٣).

يَحْتَشَى ﴿٢٨﴾؛ ومن ذلك الاستعداد وقع في بحر دعواه ولولا كان في نفسه شيء من ذلك لم يجترأ أن يخرج بتلك الدعوى ألا ترى أن دعواه لم يقع إلا لقليل من الخلق من الكفرة، وفي كل موضع يظهر به قهر القدم بنعت المباشرة يفيض سكرًا كما يفيض لطف الأزل سكرًا في ألطف وصف الروح الناطقة ولدعواه في الحقيقة وجه من الحقيقة، وسكر القهر وصف النفس الأمّارة، ولولا اختلاف المكانين واللباسين يقع لفرعون ما يقع لأهل الحقائق من دعوى الأنانية، ومن هاهنا أمر الصفيين المكرمين بأن يقولوا له قولاً لئناً؛ لأنه يكفي ما عليه من قهر قدمه فأنقال البعد والسقوط من درجات المؤمنين العارفين وفيه إشارة لطف الله بموسى وهارون ليكونا متخلقين بخلق الله في تأديب عباد الله.

وعلم الله سبحانه حدة موسى، وقلة احتماله رؤية المخالفين من أعداء الله؛ فأكد العزم عليها لثلاثاً بغضبا عليه في دعواه الذي قال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي﴾ [الشعراء: ٢٩] لثلاثاً يسقط سبيل الحجة عليه.

قال يحيى بن معاذ: هذا رفقك بمن آذاك فكيف رفقك بمن يؤذى فيك؟

قال النهرجوري: قال الله لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا﴾؛ لأنه أحسن إليك في ابتداء أمرك فلم تكافئه فأحببت أن أكافئه عنك.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿٢٩﴾ فَأَتَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ ﴿٣٠﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣١﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿٢٩﴾ انظر إلى هذا اللطف من اللطيف الكريم أن معيته يكفيهما حيث إنه معهما ولا يحتاج إلى قوله أسمع وأرى، فزاد التلطف، فقال أسمع وأرى وهذا كمال رعايته وحفظه لهما أي: أسمع قولكم وفعلكم جميعاً وأنا بالسمع والبصر معكما ومع فرعون، ولكن أنا بذاتي المنزه بنعت الكشف معكما خاصة.

قال سهل: أخبر الله أنه معهما بالنصرة مشاهداً لهما في كل حال بالقوة والمعونة والتأييد لثلاثاً يخافا إبلاغ الرسالة بحال قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ﴾ ﴿٣٠﴾ أي: السلام الأزلي والسلامة الأبدية بنعت الاصطفائية على من اتبع الأنبياء والأولياء، ولا يتبع الهدى إلا من سبق في الأزل له منا الهدى.

قال الواسطي: اتبع الهدى لسابقة الهدى، ومن سبقت له من الله الهداية اتبع الهدى في

جميع أحواله.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٦﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحْصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿١٧﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿١٨﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لِأَوَّلِ الْغَفَى ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿١٥﴾ لم تبق ذرة من العرش إلى الثرى إلا وخرجت من العدم بنور القدم ووقع وجودها في حيز الرحمة وكساها الحق أنوار قدرته ثم أعطاها عقلاً سرياً تعرف بها صانعها وهو تعالى بذاته يعرفها نفسه، وكيف لا يعرف الوجود وجود صانعه، وهو بمجموعه مستغرق في بحر الألوهية؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧]؛ فما كان فيه روح فعله فزاد حياته بروح فعلى مثل الحشرات والوحوش والطيور ومعرفتها بقدر أرواحها وعقولها، ومن كان فيه روح الروحانية مثل الملائكة والجن؛ فمعرفتهم أيضاً بقدر أرواحهم وعقولهم، ومن كان روحه من نفخ الحق عند كشف الذات والصفات في أوائلها بمعرفتهم وهدايتهم من حيث الكشف والمشاهدة وهم القدسيون الربانيون الألهيون.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ مُبِينَاتٍ وَأَنَّى ﴿٢١﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٢٢﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٢٣﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحَى ﴿٢٤﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٢٥﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَى ﴿٢٦﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُغْلَى ﴿٢٨﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَلْحَقَ الْيَوْمَ مَنْ آسْتَعْنَى ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِنَّمَا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٣٠﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَلِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَهُمْ تَحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٠﴾ الإشارة

فيه إلى الأجسام والهيكل؛ لأن الأرواح من عالم الملكوت، ولولا أنها سترها الحق بقوالب ترابية للملات الأكوان والحدثان من روح واحدة ولا حترق الجميع في أنوارها، وإن الله سبحانه صوع^(١) من إكسير الأشباح لمعادن الأفراح، ورباها بنظام تحلي جماله وجلاله بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٣٩] فلما حملت الأرواح في ميادين العبودية حتى طارت منها الأرواح إلى عالم الربوبية بقيت السبائك في معادنها الزوائد تربية ربها، فلما تمت التربية لها من نور فعل الحق صارت الهياكل والأرواح على نعوت الروحانية، ولا تقوم الأرض بحملها بعد ذلك، ويكون موضعها عالم الغيب التراب يا عاقل هو معادن نور الفعل، ومصدر خاصية القبضة الجبروتية، ما أشرف هذه الطينة حيث تخمرت بقبضة الأزل والأبد كان معادنها معدن ملك الصفات ورجوعنا إلى عالم الذات، ألا ترى كيف قال سبحانه في أصل خلقتنا ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فصدنا من الصفة لرؤية الذات، وصد من الذات للعلم بالصفات.

انظر كيف قال لحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، الله الله لا تظن حديث النسطورية والأفروقية التي تقول بالثالث والثلاث؛ فإنهم في غلط الخيالات وقعوا في انقسام الجزئيات من الكليات فنحن وقعنا من زنود تحلي القدم في العدم فكنا معدومين ونكون معدومين ونحن في وجودنا معدومون من حيث الحقيقة؛ لأن من ليس وجوده منه وبقاؤه به معدوم من حيث الحقيقة والمعدوم يكون معدوماً كما لم يكن في العدم والقديم لا يزال، كما لم يزل في القدم ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وقع على تراب العدم الذي في قبضة القدم.

قبل ليحيى بن معاذ: ما بال الإنسان يحب الدنيا؟ قال: حق له أن يحبها منها خلق وهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قد قدر رزقه فهي حياته، وفيها يعاد فهي كفاية، وفيها كسب الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي ممر الصالحين إلى الله؛ فكيف لا يحب طريقاً يأخذ بسالكه إلى جوار ربه؟!

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِلَّا تَكَرَّرَ إِلَيْكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ مُجَدًّا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿قَالَ

(١) صوع: الضواغ: إناء يُشْرَبُ فيه. وإذا هيأت المرأة موضعاً لتذيق القطن قيل: صَوَّعَتْ موضعاً، واسم الموضع: الصَّاعَة. العين (١/١٢٦).

ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّخْرَ ۚ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبُتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿٦٦﴾ لا تعجب؛ فإن النفس الأمانة بقيت في الأنبياء؛ ألا ترى إلى قول الصديق المرسل يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وتلك النفوس جبانة خلقت عاجزة عن حمل وارد القهريات، وإن رأيت كثيراً من آيات الله لا يخرج من جبلتها قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] خاصة أن الله سبحانه البس سحر السحرة لباس قهره فتحركات بقوة قهر الله؛ فلما رأى موسى انقلاب لباس قهر الله خاف من قهر الله لا من غيره؛ لأنه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [الأعراف: ٧].

سئل ابن عطاء عن قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ ما كانت هذه الخيفة، والله يقول: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ إِنِّي مَعَكُمْ﴾، قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله، وما خاف على نفسه فلما وجد الحق حركة نفس موسى في رؤية قهر الجبروت، قال الله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿٦٨﴾ أي: إنك محفوظ بعيون رعاية جبروتنا، ومعك الآيات الكبرى وهو لباس حفظنا، أنت في لطفنا تسبق على القهر وأصله «سبقت رحمتي غضبي»^(١). قال ابن عطاء: لا تخف فإنك بمراى منا، ومسمع منا ونحن معك في جميع أحوالك؛ فإنك القائم بالمسبب، وهم معتمدون على الأسباب.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٦٩﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّخْرِ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ۚ ﴿٧٠﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ ﴿٧١﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۚ ﴿٧٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۚ ﴿٧٣﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۚ ﴿٧٤﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيْتُمْ مِنْ آلِهِ مَا

غَشِيَهُمْ ﴿٢٦﴾ وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٢٧﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَخْبَتْنَكُمْ مِّنْ عَذُوبِكُمْ وَعَدَدْنَكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ ﴿٢٨﴾ كُلُّوْا مِّنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِن بَرَآءَتِنَا﴾ إن القوم شاهدوا في رؤية الآيات مشاهدة الذات والصفات، فهان عليهم عظام البليات.
قال ذو النون: من أثر الله على الأشياء هان عليه ما يلقي في ذات الله؛ لأنه أثر الأثر، وحصل في حمله اللطيف الخبير.

قال الله حاكياً عن السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِن بَرَآءَتِنَا﴾ فَنُفِطْرْنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴿١﴾ افعل بنا ما كنت فاعلاً؛ فإن الذي كشف لنا عنه يسهل في مشاهدته حل المؤمن ملاقة المكروه والضرر.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَغْوَجَّاكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْؤُسَىٰ ﴿٢٧﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٢٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾ من كان له استعداد النظر إلى عالم الغيب وياشر حفظ النفس احتجب عنه، فلما انقطع إلى الله ينظر الله إلى قلبه بنعت الإخلاص واليقين يكشف الله له أنوار حضرته ويمجذه إلى قربه، فلما رجع إليه بالكلية لا يبالي الله سبحانه بها جرى عليه في أيام الحجاب من أحكام مقاديره؛ لأنه كان معذوراً من جهة جهله بالطريق، فالتائب المنقطع إلى الله والمؤمن العارف بالله العامل بالصالحات ترك ما دون الله، فإذا كان كذلك فاهتدى بالله إلى ما لله، وما في الله ويكون مغفوراً برحمة الله ومعصوماً بعصمة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ لمن رجع من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة، وصدق موعود الله فيه وله واتبع السنة ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٢٦﴾ أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلکاً وطريقاً.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ ﴿٢٨﴾ ضاق صدر موسى من معاشره

(١) فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

الخلق وتذكر أيام وصال الحق فعلت العجلة الشوق إلى لقاء الحق.

قال الواسطي: عجلت إليك شوقاً مني إليك واستهانة بمن هو مبعوث إليهم فقال: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ إن الله سبحانه أحب كلمه حباً بالغاً وأحب انبساطه وصولته وغضبه عليه ففتن قومه بحب العجل ليهيجه بذلك إلى غضبه ويشغله عن صحبة الأضداد بصحبته ومناجاته.

قال ابن عطاء: قال الله لموسى: تدري من أين أتيت؟ قال: لا يا رب.

قال: حين قلت هارون اخلفني في قومي أين كنت أنا حينئذ حين اعتمدت على هارون.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ۚ قَالَ يَنْفَوْرُ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنۢ نَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبَ مِنۢ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۖ﴾ قالوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَبَكْنَا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِنۢ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۖ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۖ﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنۢ قَبْلُ يَنْفَوْرُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ۖ﴾ قالوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۖ ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۜ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أََلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْعَصِيَّتَ أَمْرِي ۖ﴾ قَالَ يَبْتَنُوْهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۖ ﴿قَالَ فَمَآ خَطْبُكَ يٰ سَامِرِيُّ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ غضبه انبساطه وجراته في حضرة ربه من العلم بمكانه عند الله كأنه عريد في إضلال قومه وأسفه من فقدان وصاله واشتغاله بشريعته قيل «غضببان» على نفسه إذ ترك قومه حتى ضلوا «وأسفًا» على ما فاته من مناجاة ربه.

قال الشبلي: «أسفًا» على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة من لا أوزان لهم فردّه من شوقه إلى مشاهدة ولم يظفر ببيغيته وشُفي من وجد فغضبه كان من ذلك.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنۢ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَلِكَ سَأَلْتَنِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنه المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربما أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يري جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في صميم إرادتهم إلى طلب ما ألقى من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلى من فعله العالم فبرز منه روح القدس فآثر به الحياة القدسية في كل من عكس عليه نوره فورد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسين في أشباح الأكوام فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه، قال سبحانه: ﴿وَأَشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حب العجل وهذا من نوادر تجلي الالتباس، ألا ترى كيف كانوا إذا علموا مواضع الغلط قتلوا أنفسهم لله ومقصود الحق من ذلك أن يرى أحبائه على بابهِ قتل صرعى.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٣﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴿٤﴾ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٥﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٧﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٨﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ لما قص غلط عبدة العجل وغيره موسى عليهم وذبحه العجل وحرقه وإفراذه القدم عن الحدث بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٠٠﴾ قال في عقبه: مثل ما قصصت من أحكام الأولين وما فعلت بهم نقص أيضًا زيادة الباء هل الابتلاء اعتبارًا وامتحانًا وإصابة الرشد والعلم بآثار أهل الحقائق.

قال ابن عطاء: موعظة بعد موعظة وبيانًا بعد بيان، ثم خصه بها أفردته من العلم اللدني الإلهي والأنباء الغيبي بقوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠١﴾﴾ الذكر اللدني كشف ما ستر الحق على الخلائق من أسرار ربوبيته يعرف حبيبه بها معلومات الحق في القلوب والغيوب.

قال ابن عطاء: أي: موعظة تتعظ بها وتتأدب بملازمتها؛ فلا يخفى عليك شيء من أسرارنا وما أودعنا أسرار الذين قالوا قبلك، فيكون الأنبياء مكشوفين لك وأنت في سر الحق.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٢﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٤﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٠٦﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٠٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا تَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٠٨﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٢﴾﴾ إذا أراد الله سبحانه أن يطلع شمس ذاته وأفهار صفاته من مشارق قلوب العارفين يقلع عن قلوبهم شواغلات الإنسانية ورسومات النفسانية وعوارضات البشرية ورسومات العلمية، ورسومات العقولية، حتى بقيت الأرواح المقدسة على صحاري القلوب مطالعة لطلوع أنوار مشاهدات الأزلية ومكاشفات الأبدية بغير رسوم الفهوم، والعلوم فإذا اضمحلت المخائيل من جبال الشهوات وموهومات النفوسية شاهدوا الله بصرف المعرفة وحقيقة الفناء.

قال الحسين: هو الذي يطمس الرسوم ويعمي الفهوم ويميت الذهن ويترك الجسم قاعًا صافًا حتى يعجز الكل عن معرفته وبلوغ نفاذ قدرته، ثم يظهر من طوابع ربوبيته على أسرار أهل معرفته فيعرفونه به.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَعْتَ الْأَصْوَاتَ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(١) أخبر الله سبحانه عن كشف العظمة والكبرياء والسلطنة للقدم، فهناك مقام فناء الأرواح والأشباح بنعت الخمود والخشوع فلا حيلة لهم هناك للخروج من تحت غواشي ضباب العزة؛ لأن الحوادث مضمحلة عند بروز أنوار سطوات الألوهية، فإذا ذهب طوفان بحار العظمة ويطلع عليهم زبرقان^(٢) الجبال من مشرق الجلال فيبقوا ببقائه ويفيقوا من صعقاتهم ويحببوا الله ويسمعوا منه فالأول مقام الفناء والآخر مقام البقاء.

قال الواسطي: وهل كانت إلا خاشعة في الأول وهل يكون إلا خاشعة في الأبد فلاقتحام في حال الوجود بالتوثب والمنازعة ووقاحة الوجه ورعونة الطبع؛ لأنها لم تكن وهي إذا كانت كأنها لم تكن.

وقال الجنيد: كيف لا تخشع وقد كشف الغطاء وأبدي الخفاء فلهيبة الموقف وحياء الجنایات خشعت أصواتهم وذلت رقابهم ثم أخبر عن ذهاب صولات العظمة وإقبال كشف الحال بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من رضي الله عنه في الأزل واختاره باصطفائيته وحسن عنايته، ورضي عن قوله في دعواه في الدنيا بمحبته، ومعرفته مقرون بالصدق والإخلاص، وله لسان الولاية بإذن الله، يهب الله له بشفاعته، ولو شفع لجميع الكفرة، فإنه لا يرد مكان خاصية إرادته القديمة، وهناك تبين صدق الصادقين ودعوى المدعين.

قال الواسطي: لا تنفع الشفاعة إلا لمن لا ينسب إلى نفسه شيئاً، ولا يرى نعته فإذا عاين نعته نسى الأول، وإذا ظهر عليه رضوانه ذهب ما دونه، ثم أخبر عن كمال جلاله وعز قدمه وبقاء ديموميته التي تقاصرت الأهوام عن إدراكها وفنيت العقول عن الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كيف يحيط الحدث بالقدم والحدث فاني الوجود في كشف وجود الحق والثاني لا يدرك الباقي إلا بالباقي، وإذا أدرك الباقي بالباقي لا يبلغ إلى ذرة من كمال الأزلية؛ لأن الإحاطة بوجوده مستحيلة من كل الوجوه صفات وذاتاً وسراً وحقيقة يا عارف كيف تدعي معرفة من لا تدركه معرفة كل عارف، فإن معرفة كل عارف

(١) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للمرحم) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همساً) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (٥/٢٦٩).

(٢) قالوا: سُمي الرجل زبرقان بجماله. وقالوا: زبرق ثوبه، إذا صبغه بخرمة أو صفرة. والزبرقان، زعموا: القمر. جهرة اللغة (٢/١٣٢).

مستفاد من كرمه والحادث بمعرفته لا يعرف ماهية حديثه فكيف يعرف سر السر وعين العين وعلة العلل، أفهم أن ما تدرك منه يرجع إليك بكل معروف ومفهوم ومعلوم فكلها متقى إدراك حقيقة ذاته وصفاته.

قال ابن عطاء: لا يحيطون بشيء من ربوبيته علمًا؛ لأنه لم يظهر شيئًا إلا تحت تلبس؛ لكيلا يستوي علمان في شيء واحد ومن لا يرى الكل تلبسًا كان المكر به قريبًا، والعبيد لا يقفون على تلبساته.

وقال الواسطي: كيف يطلب أحد طريق الإحاطة وهو لا يحيط بنفسه علمًا ولا بالسما، وهو يرى جوهرها ثم زاد ذكر غلبة عزته وجلاله واشتغال أنوار هبة ذاته وصفاته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَعَثَّ الْأُجُوهَ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أفهم يا صاحب العلم أنه سبحانه ذكر الوجوه، وفي العرف: «صاحب الوجه من كان وجهًا عند كل ذي وجهة»؛ فالأنبياء والمرسلون والأولياء والمقربون في الحقيقة هم أصحاب الوجوه، وكيف أنت بوجوه حور العين ووجه كل ذي حسن وحسن فوجوه الجمهور مع حسنها وجلالها، المستفاد من حسن الله، وإن كانوا جميعًا مثل يوسف ثلاثت وخرت وخضعت عند كشف نقاب وجهه الكريم وظهور جلاله وجماله القديم.

وقال سهل: خضعت له بقدر معرفتها به وتمكين التوفيق منه.

﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْلَجْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ١٥١ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنسَىٰ وَلَمْ يُحَذِّرْهُ عَزْمًا﴾ ١٥٢ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ١٥٣ ﴿فَقُلْنَا يَتَدَاوَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ١٥٤ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ١٥١ عن الله سبحانه وتعالى إبصار سر نبيه وحببيه، وكشف لها بحار علومه الأزلية وعرفه مكان تصور علمه فيها فأمره باستزاده، وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ١٥١ ﴿

قال محمد بن الفضل: «رب زدني علمًا» نفسي وما تضمه من الشرور والمكر والغدر لأقوم بمعونة في مداواة كل شيء منها تداوئها، ثم أخبر سبحانه عن لسان آدم صورة الأمر من غلبة سطوة إرادته بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾ ١٥١ إن الله سبحانه قدر قبل الكون وقبل آدم أن آدم مصطفى مجتبي بالرسالة والنبوة وعلم الأسماء والجلال والكمال وأنه يعرف الله بطريق كل اسم من أسمائه ونعت من نعوته، ونعت قهر جبروته، فجر آدم

باسمه إلى نعته ومن نعته إلى صفته، ومن صفته إلى رؤية ذاته فألبس نور بهائه الشجرة المنهية وأراه ذلك النور والبهاء الرباني، ثم أمره بالاجتناب عنها وألقي في قلبه حبة قربها؛ لأنها مرآة جلاله يتجلى لأدم منها فغلبت المحبة على الأمر وسلبت طوائف هذا الجمال فوقع في هيجان شوقها وغمار لذة بهاء مشاهدتها فترك صورة الأمر لشوق جمال الأمر ووقع في بحر القهر بغير مبالاة على العهد؛ لأن عهد الأزل باصطفائيته سابق عهد الأمر فمن رؤيته عهد الأزل ترك عهد الأمر فاجترأ لعلمه بمكانته بوصف الاصطفائية عند الحق وقبوله؛ لأن بعد القبول الأولي لا يؤثر فيه مباشرة المعصية، وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١) لم يجد الحق في قلب آدم عزم متابعة أمر الظاهر عند العهد؛ لأن في قلبه رؤية ما يتولد من أكل الشجرة من خروج عرائس المقدرات الغيبية من مكنن القدم، يا عاقل فذيت لتقض عهده الذي بسببه بدا إعلام دولة المرسلين والنبیین والصديقين وحقيقة عهد الله مع آدم ألا يسكن بشيء دونه، وإن كان وسيلة إلى قربيه ومشاهدته فلما ارتهن في طريق الوصول بوسيلة وقع العصيان عليه لما لم يسلك في طلب الحقيقة بنعت التجريد وإسقاط الوسائط قال ابن عطاء: عهدنا إلى آدم ألا لا تطالع معي سواي فنسى عهدي وطالع الجنان.

﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (٢) أي: لم يطالع سره، ولكن طالعه بعينه فنادى عليه ﴿وَعَصَىٰ
ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

وقال الواسطي: ونسي ولم نجد له عزمًا أي: قوة على ضبط نفسه، وإن كان الواجب أن ارتكاب المباشرة أوجب زوال النسيان فإن غيبته عن شاهده ليريه شواهد عبوديته تنبيهًا وتزيينًا وقال أيضًا: ﴿فَنَسِيَ﴾ وجهان أي: جهل قدر عهده وفرق بين من نسي بالحضرة وبين من نسي في الغيبة، لذلك قال النبي ﷺ: «رفع عن أمي الخطأ والنسيان» (٣).

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (٤) وَأَنْتَ لَا تَعْمَىٰ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (٥)
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ أَلَّا تُغَارِبَ فِيهَا لَئِيلًا وَلَا تَبْلَىٰ (٦)
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ
ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (٧) ثُمَّ آجَبْتَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (٩) خاف آدم في سره قبل دخول الجنة أن ينقطع عن لذائذ مشاهدته ووصاله في الجنة وأن يحتجب عن روح الأُنس والنظر إلى جمال

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢١٧/٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢١٦/٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٤/٦).

القدس، وأن يعرى عن ثوب عافية الرعاية والكفاية باشتغاله عنه بالجنة، وهذا قرع سر القدم باب سره بأن ما يخاف عنه يقع فيه في ظاهر العلم، فأخبره سبحانه ﴿لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ في شوقك إلى مشاهدتنا؛ لأن هناك تستغرق في بحر وصالنا ولا تعرى عن لباس أنوار الاصطفائية؛ فإنك ملبس أبدا بكسوة الاجتباتية، وأنت في ظل عنايتنا لا تعطش إلى مياه الزلفة؛ فإنك تكون في الوصلة، ولا تضحي لا تحترق في حر شمس الفراق، فلما وقع عليه واقعة الامتحان من القدر السابق صار عرياناً في الجنة عما دون الله، وذلك أنه سبحانه جرب صفيه بالجنة، وأجرى عليه شهوة الخنطة، فلما رآه في حجاب الامتحان جرده عن الجنان وأفرده عن الأكوان والحدثان غيرة على سر ما في قلبه، وفيه إشارة أخرى كأنه أشار بالسر أي: لا تأكل الشجرة المنهية كيلا تجوع ولا تعرى؛ فإن من خالفنا وقع في بحر الحجاب وعرى عن ستر المآب.

قال ابن عطاء: آخر أحوال الخلق الرجوع إلى ما يليق بهم من المطعم والمشرب، ألا ترى إلى آدم بعد خصوصية الخلقة باليد، ونفخ روحه الخاص، وسجود الملائكة كيف رد لي نقص الطباع بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

قال الواسطي: خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، واصطفاه على الخلائق، ثم رده إلى قدره لثلا يعدو طوره قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ وما تعرض لي في حكم الظاهر أن الله سبحانه قال لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي: لو تخرجنا من الجنة بسبب المعصية تتعبا في الدنيا لأجل المطعم والمشرب والملبس في الحرارة، وغيرها في الدنيا وتعري وتنظماً وتضحى، ولا يكون مثل هذه العقوبات في جنبي وجواري، كأنه خاطب معه من حيث الطبيعة خوف نفسه بالجوع والعري والظما في الهواجر؛ لأن النفس لا تنزع إلا من مثل هذه العقوبات لثلا تقع في جوار الحق في المعصية، وإن من لطفه وكرمه عاقب آدم في الدنيا بالمجاهدات الكبيرة بما جرى عليه من المعصية في الحضرة ويعاقب المجهود في الآخرة بما جرى عليهم من المعصية في الدنيا وهذا خاصة له؛ لأن عقوبة الدنيا أهون، ولولا امتحان الله آدم بأكل الشجرة، ومثل هذا الخطاب لم يخرج آدم من الجنة، ولم يظهر أسرار علوم حقائق قهرمانه لأهل المعارف من الصديقين، ولم يقع عنده عذر المذنبين فخاطبه من حيث العبودية والحدوثية ولو خاطبه من حيث الربوبية لطار في الجنة في هواء الهوية، ولم ير أثره في الزمان والمكان، ولا في الجنان والحدثان.

سئل ابن عطاء عن قصة آدم: إن الله ﷻ نادى عليه بمعصية واحدة وستر على كثيرين من ذريته؛ فقال: إن معصية آدم كانت في بساط القرية في جواره، ومعصية ذريته في دار المحنة،

فرلته أكبر وأعظم من زلتهم، ولما أراد الله أن يخرج من ذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين ابتلاه بأكل الشجرة قفقاء الشيطان حتى يوسوس، وهذا سر القدر الغيبي كأنه يوسوسه القدر، قال: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادُمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْتَلِ﴾ (١) أجرى الله هذه الكلمة الغيبية على لسان الشيطان، وهو بذلك مغرور ظن أنه أوقع آدم في تيه الفرقة الأبدية، ولم يعلم أن ذلك سبب الوصلة الأبدية، وأنها شجرة الخلد بالحقيقة؛ لأن الشجرة ملبسة بأنوار السلطانية حاملة بأسرار الربانية ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَّهُمَا سَوَةٌ لَّهُمَا﴾ أسرارهما التي انكشفت لهما من الغيب بعد أكل الشجرة، ولم يبد تعبيرا؛ فلما حازا الأسرار الألوهية خرجا من تحت موت الجهل، وبلغا إلى ملك لا يبلى، وذلك الملك الوقوف بالعلم الإلهي على أسرار قدر الأزال والآباد دلهما الشيطان إلى هذه المعالم والمعادن الغيبية، وهو معزول عنها مثله مثل حية تمشي على وجه الأرض إلى رأس كنز، وخلفه إنسان ليقتلها فلما ضربها ظهر تحت ضربه كنز فصار الكنز له، وصارت الحية مقتولة، وبلغ إلى الأمرين العظيمين البلوغ إلى المأمول والفلاح من العدو، فهكذا شأن آدم عليه السلام مع الملعون دله إلى كنز من كنوز الربوبية غرضه العداوة والضلالة فوصل آدم إلى الاجتنائية الأبدية بعد الاصطفائية الأزلية وبلغ الملعون إلى اللعنة الأزلية الأبدية.

قال الحضرمي: بدت لهما، ولم تبد بغيرهما لثلا يعلم الأغيار من مكافأة الجنابة ما علما ولو بد للأغيار، لقال: بدت منهما ثم ذكر سبحانه تغيير آدم بالظاهر، وأخفى تلك الأسرار في الباطن قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (٢) عصيان آدم الرجوع من الأصل إلى الفرع ومن مكاشفة إلى الجنة، والميل من طريق الأمر إلى طريق النهي، ولو سلك طريق الأمر ليكشف الحق سبحانه ما كان في الشجرة بغير عصيان؛ لأن في بساتين غيبه مائة ألف ألف شجرة غيبية مملوءة حاملة من علوم الأسرار، ولكن سلبته صولة المحبة، وتعجيل الاشتياق أكل من شجر القدم، وصار سكران في وادي الأزل يكشف علم الأزل له فطلع على الجنان، وكاد يفشي سر السر وغيب الغيب، ويشوش أحوال الجنانين؛ فأخرجه الحق إلى حبس الدنيا، وحبس لسانه عن إفشاء سر القدم والبقاء؛ فكان اصطفائيته الأزلية مصحوبة زلته، فاستهلكت الزلة في الاصطفائية، وزاد عليها اجتنائيته الأبدية التي لا تغيرها حوادث الدهور.

قال ابن عطاء: اسم العصيان مذمة إلا أن الاجتناء والاصطفاء معنا أن يلحق آدم اسم المذمة بحال.

قال جعفر: طالع الجنان ونعيمها بعينه فنودي عليه إلى القيامة، وعصى آدم، ولو

طالعها بقلها لنودي عليه بالهجران أبد الأبد، ثم عطف عليه فرحه بقوله: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فلما غرق في بحر الامتحان والحجاب عن الجنان فاطلع على قلبه الرحمن، ولم ير إلا الشوق إلى لقاء الرحمن أظهر نفسه له في منازل الفرقه بوصف الوصلة، بقوله: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ زاد الاجتباية على الاصطفائية وتاب الحق على صفيه؛ لأن القديم لا يلحقه الحدث، وإن اجتهد فأين يطلبه، ولا أين فأقبل عليه الحق بنعت كشف جلاله هو لم يزل مقبلاً عليه بنعت العناية والاصطفائية، ويرجع إليه بحسن الإقبال، وكشف الجبال، وهدي إلى طريق الوصال الذي لا تفرق فيه بعد ذلك أبداً بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ هدي منه إليه.

قال الواسطي: العصيان لا يؤثر في الاجتباية، وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ﴾ أي: أظهر خلافاً ثم أدركته الاجتباية؛ فأزالت عنه مذمة العصيان ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزَماً﴾، وكيف يعزم على المخالفة من هو في سر العصمة وخصوصية الاجتباء والاصطفاء.

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۚ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۚ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ۚ﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَايَتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ۚ﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: من تبع خطايي وإلهامي فلا يضل عن طريق السنة ولا يشقى عن المتابعة.

قال سهل: هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة لا يضل عن طريق الهدى، ولا يشقى في الآخرة والأولى ثم بين أن من أعرض عن طريق الإلهام والذكر ومتابعة السنة وقع في ضنك عيش الفرقه بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: من اشتغل بذكر غيري احتجب عن أنوار ذكرني، ومن كان محجوباً عن أنوار الذكر كان محجوباً عن أنوار مشاهدة المذكور، وله حياة غير طيبة ويرزق غير هنيئ، وأي عيش أضيق من عيش من كان

محجوباً عن وصال الحق؟! ومن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أقبل الله إليه أقبل إليه كل شيء بالخدمة والمتابعة، قيل: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه حاله.

وقال جعفر: لو عرفوني ما أعرضوا عني ومن أعرض عني رددته إلى الإقبال على ما يليق به من الأجناس والأكوان، وقيل: قلة الصبر مع الذاكرين.

وقيل: ضيق الصدر على مداومة الطاعات، ثم زاد عليه ضحك معيشة الآخرة بقوله: ﴿وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٠٠) يعني: جاهلاً بوجود الحق كما كان جاهلاً في الدنيا كما قال علي بن أبي طالب: «من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة»، وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٠١) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُمُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَرُّكَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٠٢﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْفَكَ رِزْقًا كُنْزٌ نَّرْزُقُكَ وَالْعَعِيقَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٠٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْمُرْ بِبَيِّنَةٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٠٥﴾ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٠٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: إذا كنت متعرباً لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك مما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدساً بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقდست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائباً بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنزيه والتفريد، واذكر شواغل متتنا عليك نزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوحداية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برويتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُمُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ أن الله سبحانه ألبس الكون أنوار بهائه

فصرف نظر نبيه عن ذلك حتى ينظر إليه صرفاً بلا واسطة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥]، ولا أن روحه كان عاشقاً بالله مستأنساً بكل شيء مليح، وبأن نظره أعظم من أن ينظر به إلى شيء دون الله.

قال الواسطي: هذه تسلية للفقراء وتعزية لهم حيث منع خير الخلق عن النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان ثم يبين أن ما له من المكاشفة والمشاهدة والقرية والرسالة بلا واسطة خير مما كان له في رؤية الكون بقوله: ﴿وَرَزَقْنَا رَبِّكَ خَيْرًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٣٥﴾ رزقه وصاله وكشف جماله ثم أمره بالعبودية وملازمة الطاعة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، الاصطبار مقام المجاهدة، والصبر مقام المشاهدة^(١).

قال ابن عطاء: أشد أنواع الصبر الاصطبار، وهو السكون تحت موارد البلاء بالسر والقلب والنفس والصبر بالنفس لا غير.

وقال الجنيد: أي: وأمر أهلك بالاتصال بنا، والاصطبار على تلك المواصلة معناه: ومن يطبق ذلك إلا المؤيدون من جهتنا بأنواع التأيد.

قال يحيى بن معاذ: للعبادين أودية يكسونها من عند الله سداها الصلاة ولحمتها الصوم ثم يبين أن عواقب السعادة مقرونة بالتقوى بقوله: ﴿وَالْعَنِيقَةَ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿٣٦﴾ التقوى الخروج مما دون الله والحياء في إجلال الله.

قال أبو عثمان: هو ذم النفس والجوارح عن جميع ما يقبحه العلم.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ السُّجُودِ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ يَكْلُمُ الْقُفُولَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَمِ

(١) قال الحرالي . ويصح أن يراد بها الدعاء ، فمن صبر عن الدنيا وعلى المكارِه وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف ، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر . نظم الدرر (٨٥/١).

بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِعَاقِبَةٍ كَمَا أَرْسَلْنَا الْآلُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿١١﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ حَذَرَ الجمهور من مناقشته في الحساب، وزجرهم حتى يتنبهوا عن رقاد الغفلات وترك الحساب أقرب من كل شيء منهم لو يعلمون، فإنه تعالى يحاسب العباد في كل لمحة ونفس، وحسابه أدق من الشعر وأخفى من ديبب النمل على الصفا، ولا يعرف ذلك إلا المراقبون الذين يحاسبون أنفسهم في كل نفس وخطرة وهم في غفلة في حجاب عن مشاهدة الله معرضون عن طاعته إذ لا حظ لهم في الطاعات، ولا شرب لهم في المشاهدات ويا غافلاً لو تدري حلاوة حساب الله ودقائق تعريفه مكان السهو والغلط تحاسب نفسك في كل نفس، ما أحلى خطابه وإلهامه في تعبير العارفين، ما أطيب مسامرته مع الصديقين في مؤاخذته دقائق الخطرات كأن بطون علم المجهول قد أشارت إلى أن هذا حركة جرسات الوصلة ولمعات أنوار القربة، كما قيل:

ويبقى الود ما بقي العتاب

وقال بعضهم: دنا أوان الانتباه، وهم في غفلتهم معرضون عن طريق التوبة والعظة والانتباه.

قال بعضهم: قرب أوان اللقاء وهم في غفلة عن استصلاح أنفسهم لتلك الحضرة، ثم وصف سبحانه القلوب الغافلة بقوله: ﴿ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ساهية عن الذكر وحقائقه ولذته، شاغلة بحفظ نفسها منفسا محجوبة عن لقاء خالقها.

قال ابن عطاء: معرضة عن طريق رشددهم.

وقال بعضهم: غافلة عن مسالك اليقين وطريق المتقين.

قال الواسطي: لاهية عن المصادر والموارد والمبدأ والمنتهى.

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ أي: فاسألوا أهل شهود جمال المذكور القديم بنعت صفاء الذكر في قلوبهم من مشرق نور مشاهدته، وهم الذين مخاطبون من الله بكل سر وكل حقيقة من علوم الغيبية الأزلية.

قال سهل: فاسألوا أهل الفهم عن الله والعلماء به وبأوامره ونواهيه.

قال الجنيد: أهل الذكر العالمون بحقائق العلوم ومجاري الأمور، والناظرون إلى الأحكام بأعين الغيب.

﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٠٠ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١٠١ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٠٢ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ ١٠٣ ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ١٠٤ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ ١٠٥ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ١٠٦ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِيلِينَ﴾ ١٠٧ .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (١٠٠) أي: ذكر مناقبكم من حيث الأرواح القدسية والأشباح الإنسية والعقول الملكوتية والأسرار الجبروتية والنفوس الهوائية، وهذه المراتب الجامعة لا تحصل إلا لآدم وذريته، وفيه بيان خبر الأزل بكرامتكم وخيريتكم على البرية، أين أنتم من معرفة نفوسكم لا تعقلون شرف نسبتكم في معرفتي ووصولكم إلى بعناني الأزلية.

قال سهل: العمل بها فيه حياتكم.

قال الأستاذ: أي: شرفكم وفخركم؛ فمن استبصر بها فيه من النور سعد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كم قلب خرب عمران بنور ذكر الله بظلم الطبيعة ومباشرة الشهوة والدعاوي الباطلة، والنظر إلى الأغيار، وصار محجوبًا بها عن مشاهدة الأنوار وحقائق الأسرار.

وقال أبو بكر الوراق: في ظلم خراب العمران كما قال ﴿الظلم ظلمات يوم القيامة﴾ (١).

إذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب، وعلامة خراب القلب عصيان الجوارح وتعديها وميلها إلى ما فيه هلاكها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾

(١) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه الغال والقييل. نظم الدرر (٥ / ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٨).

كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿﴾

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦﴾ يُسْحِقُونَ الْإِلَّهَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ آخَذُوا إِلَهًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَهُمْ يَنْشُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ أخبر سبحانه عن الطبيعة الإنسانية التي هي منابت غوائل الشيطانية، وحنظلات الهواجس النفسانية، فإذا صارت مجموعة بأباطيل شهواتها، وظلمات هواها أشرقت شمس مشاهدة الجلال والجمال من روازن الملكوت للقلب المستعد لشهود مشاهد القرية، فتدلت منه، وتحملت له حتى لا يبقى من ظلمات الطبيعة أثر، فإذا صار بدر الجبال مستقيماً في سقف سماء القلوب، وأضاء بأنوار الغيوب اضمحلت سجود ليالي النفوس، وانهدمت قيام أباطيل الشياطين.

وقال الواسطي: الوعظ للأكابر، ومنهم من له مشار مقذوف كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾.

قال الأستاذ: يدخل نهار التحقيق على ليالي الأوهام، فينقش سحب الغيبة، ويتجلى ضباب الأوهام، ويبرز شمس اليقين عن خفاء الظنون، ويصحو سماء الحقائق عن كل غبار الشبه ساطعاً.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٩﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فيه إشارة إلى أفراد القدم عن الحدوث وتنزيه الأزلية والأبدية عن العلة، كأنه دعا العارفين إلى رؤية الفردانية بنعت الانفراد عن الحدوث.

قال الساري: حثك في هذه الآية على الرجوع إليه والاعتقاد عليه، وقطع العلائق والأسباب عن قلبك.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ قطع لسان الحدثنان بمقراض هية الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمه على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية.

سئل ابن حماد المصري عن قوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لم لا يسأل؟ قال: لأن أفعاله من غير علة.

﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ آذَنَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَقَدْ لَكَ نَجَرٌ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَمِيزُ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ عزة سرمدية قطع لسان المسبحين من الكرويين عن حقيقة الثناء ووقعت الاستحالة أن يحيط بجلال قدمه قول كل قائل، ووصف كل واصل ولا يطيقون أن يقولوا شيئاً من تلقاء نفوسهم أو يفعلوا شيئاً بإرادتهم، بل هم في قبضة عزته أذلاء تحت جلال جبروته يتبعون أمره كما أراد منهم.

قال القاسم: لا يسبقونه قصداً ولا فعلاً؛ لأنهم مربوطون بها ذكرهم مقموعون بما عرفهم ثلثا يفترى عليه أحد ثم وصف لهؤلاء الكرام بالخشية منه والشفقة عنه بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: هم من معرفة جلال قهره خائفون من فرقته يعلمهم بأنه منزّه عن وجودهم وعدمهم، وهذه الخشية حقيقة العلم بالله يتولد منها الخوف والحياء والتعظيم والإجلال.

قال الواسطي: الخوف للجّهال، والخشية للعلماء، والرهبة للأنبياء، وقد ذكر الله الملائكة وقال: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٦) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَوْ حُمُومًا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (١٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح؛ لأنها باقية يتجلى حياة الحق لها فإذا انسَلخت الأرواح من الأشباح انهدمت جناذب^(١) الهيكل، ورجعت الأرواح على معادن الغيب لشهودها مشاهدة الرب.

قال الجنيد: من كان بين طرفي فناء فهو فاني.

وقال أيضًا: من كان حياته بنفسه يكون عماته بذهاب روحه، ومن كان حياته بربه فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل، وهي الحياة على حقيقة، وافهم أن الموت بالحقيقة موت الفراق وفوت الوصال، كما قيل: «الفوت أشد من الموت، والموت موت الجهل، والحياة حياة العلم»، والموت عبارة عن الفناء والحدثان، وإن كان موجودًا؛ فهو بالحقيقة فاني؛ لأن حقيقة البقاء لا تقع عليه؛ لأنه محدث والمحدث لا يستحق له حقيقة البقاء إذ بقاؤه بالحق لا بنفسه، والموت قهر غير الأزلي يطري بالحدثان يدمر وجودها حتى لا يبقى اسم المرسومات ونعت الموجودات في ظهور الذات والصفات، ثم ذكر ابتلاء الخلق بالخير والشر بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بالقهر واللفظ والفراق والوصال والإقبال والإدبار والمحنة والعافية والجهل والعلم والتكرة والمعرفة.

قال سهل: نبلكم بالشر، وهو متابعة النفس في الهوى بغير هدى، والخير العصمة من المعصية والمعونة على الطاعة.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢١) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٢٢).

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ هذا أمر عجب خلقهم من العجلة وزجرهم عن التعجيل إظهارًا لقاهريته على كل مخلوق وعجزهم عن الخروج من ملكه وسلطانه وحقيقة العجلة يتولد من الجهل برؤية المقاصد السابقة.

(١) الجُنْبُذَةُ: القُبَّة، عن ابن الأعرابي، وفي الحديث في صفة الجنة: «وسطها جناذب من ذهب وفضة يسكنها قوم من أهل الجنة كالأعراب في البادية». حكى ذلك الهروي في الغريبين (بتحقيقنا).

قال الواسطي في قوله: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ قال: لا يستعجلون إظهارًا لعجزهم وتعريفًا لقدره.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (١٤) وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أظهر الحق سبحانه جلال عظمته يوم القيامة؛ فلما رأوا سطوات عظمتهم تلاشوا في جلال هيئته، وكيف يقوم الحدثنان عند ظهور جلال الرحمن حيث يتجلى لها بوصف العزة والعظمة والكبرياء، وأهل شهود القدم على نعت السرمدية لا يفزعون من طريان أفعاله وجريان قهره ولطفه؛ لأنها امتحانات عارية لا يفزع عنها إلا كل مشغول عنه.

قال بعضهم: من بيئته شيء من الكون؛ فهو لمحلّه عنده وغفلته عن مكنونه، ومن كان في قبضة الحق وحضرته لا يبيته شيء؛ لأنه قد حصل في محل الهيبة من منازل القدس.

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۚ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (١٦) أَرَأَيْتُمْ إِنْ هُوَ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ فِي سَمَاءٍ مِثْلَ بَابِ الْمَكَّةِ لَيَنْزِلَ فِيهَا بِسَابِقَةِ غُيُوبٍ فَقَالَ سُبْحَنَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ الْمَصِيرُ ۚ فَلَا هُمْ مِنْهَا يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّدُورُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَكِنْ مُسْتَهْزَأُونَ فَمَنْ عَذَابُ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْزِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق وتنزيهه عن العجلة بمؤاخذتهم أي: أنا بذاتي تعاليت أدفع بلطفي القديم عنكم قهر القديم، ولولا فضلي السابق، وعنايتي القديمة بالرحمة عليكم من يدفعه بالعلة الحدثانية، وهذا من كمال لطفي عليكم، وأنتم بعد معرضون عني يا أهل الجفاء، وذلك ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾

رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٠﴾

قال الواسطي: أي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن، أي: يظهر عليكم ما سبق فيكم ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: ذكرهم بإياه في الأزلية بالنجاة والهلاك. قال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاء سواه.

قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين ومنها للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي همهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفساً من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن متوراً بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفته الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيثار والتوحيد وكفته الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفته الحرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الحرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الحرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُشْكِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ كلام الله سبحانه في نفسه مبارك وإن لم يسمعه الجاهل، ولكن مبارك على من يسمعه بأسعاج المحبة والشوق إلى لقاء المتكلم القديم

ويعمل بمضمونه، ويعرف إشارته ويجد حلاوته في قلبه، فإذا كان كذلك يبلغه بركته إلى مشاهدة معدنه، وهو رؤية الذات القديم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

قال ابن عطاء: مبارك على من يسمعه، مبارك على من يتعظ به، مبارك على من ينزل بهمة وقلبه عليه، مبارك على من آمن به وصدق بما فيه ومن لم ير على سره وقلبه ونفسه آثار بركات القرآن؛ فليعلم ببعده عن مصدر الخواص ودخوله في ميادين العوام من الأشقياء.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ١٠١ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَمَاطِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَنِقُوفُونَ﴾ ١٠٢ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَشِيرَاتٍ غَدِيرَاتٍ﴾ ١٠٣ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ١٠٤ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ ١٠٥ ﴿قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ١٠٦ ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ١٠٧ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ١٠٨ ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠٩ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ١١٠ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ١١١ ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ١١٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَغْوُهُمْ إِن كَانُوا يُنْطِقُونَ﴾ ١١٣ ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ١١٤ ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ١١٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ هذا خبر اصطفاية الخليل في الأزل بخلته ورسالته قبل إيجاده وإيجاد الكون وما فيه فإذا أوجد وجهه من العدم كاشف لها جمال العدم وعرفها نفسه بتعت إعلامه أسماؤه ونعوته وأسرار صفاته فعرفت الله بالله وعرفت سبل شهود الصفات ومشاهدة الذات، فلما التبست بصورته جاءت بعقل القدسي من الملكوت والعلم الإشاراتي من عالم الجبروت؛ فتعرف القلب طرق المحبة والخلة وتعرف النفس طرق الطاعة والخدمة، فلما أخرجه الحق من مجال أنسه ألبسه أنوار قدسه فنظر بالعين المكحولة بنور المعرفة إلى عالم الكون، ورأى عجائب الملك وغرائب المملكة فأرادت نفسه أن يسكن إلى الدليل عن المدلول من حيث لها منه لذة مشاهدة اصطناع المالك القديم فغلب عليها روحه الملكوتية وأغارت ما دون الحق عن ساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنَّىٰ بَرِيءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ [هود: ٥٤].

سئل الجنيد: متى آتاه رُشدُه؟ فقال: حين آتاه.

وقال أيضًا: آثار سوابق الأزل وإظهاره كما أظهر على الخليل في السخاء والبذل والأخلاق في بذل النفس والولد والمال في رضا الحق؛ فلا يشتغل إلا به ولا يفرح إلا عليه ولا يلتفت إلا إليه، فقال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾، ويقال: ذلك ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبل ما حصل منه من النظر في المخلوق، ويقال: هو مكاشفة روحه قبل إيداعها قلبه من تحلي الحقيقة^(١).

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ أَفَرَى لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا خَرِقُوهُ وَانْصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَعِيلِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ﴾ طلب الحاجة من المحتاج وهن في المعرفة وشين في الحقيقة والمحقق في المعرفة يعرف الأشياء بالله بأنها مجاري أقدار الأزل، ولا تقوم بذاتها بل تصاغرت في قبضة تصرف جلاله، ومن كان همته بهذه الصفة كيف يعتمد من الخالق إلى المخلوق.

قال حمدون القصار: استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون باستعانة المسجون.

﴿فَلَمَّا يَبْتَازَ كُوفَى بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٥٩﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَهْمَةً يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ ﴿٦٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ

(١) أي صلاحه وإصابته وجه الأمر واهتدائه إلى عين الصواب وأدل الدلالة وأعرف العرف وأشرف القصد الذي جلبناه عليه؛ وقال الرازي في اللوامع: والرشد قوة بعد الهداية - انتهى.

سَوْءَ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّارِ إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهَا غَنَمَ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَهُمْ شَهِيدِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَتَذَكَّرْ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٧﴾ كان الخليل منورًا بنور الله وكان النار من فعل الله؛ فغلب نور الصفة على نار الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل الخليل صارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك فقال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كراماته، وفي الإشارة لنا إشارة، وفي إشارتنا سر أن الخليل طالب خليه في مرآة مشاهدة الشمس والقمر والنجوم وأراه الله مطلوبه من وسط النار كما أرى موسى من وسط النار، والشجرة كأن نيران الكبرياء تكاد بصولة القدم أن تغنى وتحرق إبراهيم، فقال سبحانه بنفسه مع نفسه لنفسه: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ فأسلمه من قهر نفسه بلطف نفسه.

قال ابن عطاء: سلم إبراهيم من النار بسلامة صدره، ولما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨١﴾ [الصفات: ٨٤] خال من جميع الأسباب والعوارض وبرد عليه النار لصحة توكله وبقينه وثقته حيث ناداه جبريل ألك بي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحِينَ وَأَطِيرَ وَكُنَّا فَعَلِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٤﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ بين سبحانه أن الفضل معلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتمال والتعلم، إنما الفهم تعريف الله تسليلاً أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية؛ فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهم والعلوم، فهو سبحانه مَنْ عَلَى سُلَيْمَانَ بعلمه، ولم يمن عليه بشيء خارج من نفسه من الملك والحدثان، فإن العلم صفة من صفاته، فلما جعله متصفًا بصفاته مَنْ عَلَيْهِ بجلال كبريائه.

قال الجنيد: أفهم الله سليمان مسألة من العلم فمنَّ عليه بذلك، وأعطاه الملك فلم يمن عليه، وقال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾.

قال الواسطي: في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ بسلامته عن شواهد اللذات في الطاعات.

قال أبو بكر: لبره بأبيه ثم يَنْ فَضْلَ أَبِيهِ دَاوُدَ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالشَّرَفِ

والفضل، وإن شُدَّ عنه فهم تلك المسألة فأراه الله ما مَنَّ على سليمان ليكون قرّة عينه بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ معرفة بالربوبية وعلماً بالعبودية.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوءَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢١)
فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٢٢﴾ وَاسْمِعِلْ وَأَذْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٣﴾
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٤﴾
قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾.

لما أخبر الله سبحانه أيوب عليه السلام أنه حان وقت خروجه من البلاء علم أيوب أن ما رأى من رؤية المبلى في بلائه يكون منقطعاً عنه إذا انقطع البلاء قال: ﴿مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾ إذ فات عني مشاهدتك في بلائي، وأيضاً إذا كان مبتلى كان في محل رؤية قهر القدم الذي شاهده الحق بوصف جلاله وجماله تربية بقهره لعرفانه، وجميع صفاته بطريق القهر واللطف؛ فلما انهزم عساكر قهر سلطانه من جنود لطاف ألوهية خاف أن يفوت ما حصل له من رؤية القهر ومباشرته، قال: ﴿مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾، ولأنه ادعى الصبر فجره الحق بالبلاء فإذا خرج من مكانه طوفان قهر القدم وجد نفسه خارجاً من مقابلة بلائه الذي هو دأب فتیان الخضرة؛ فقال: ﴿مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾، وأيضاً مقام العافية حظ العاشق من المعشوق، والبلاء حظ المعشوق من العاشق، فلما انعزل من حظ معشوقه عنه وبقي مع حظه منه قال: ﴿مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾، وأيضاً البلاء مقام الفناء في القدم والعافية مقام البقاء والعارف الصادق يؤثر فناء نفسه على بقاءه؛ لأن تنزيه القدم يقتضي فناء الغير فمن حجة كونه في مشاهدة الحق قال: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾ كون وجودي في وجودك؛ لأن حق الغيرة في الوجدانية لا يقتضي كون الوجود في وجود الحق، وأيضاً كان روحه من مقام الأنس صدرت فطار صورته شبيه روحه باللطافة، وهو كان في هواء الأنس طياراً، وفي ميادين الحسن والجمال سياراً، فلما لحقه البلاء صار في البلاء وثقله ومرارته محجوباً عن لذة الأنس به؛ فقال الله:

﴿مَسْنِيَ الصُّرُوءَ﴾، ويا فهم العارف الصادق إذا كان متحققاً في معرفته فشكواه حقيقة الانبساط، ومناداته تحقيق المناجاة وأنيته في بلاء حبيبه حقيقة المباهاة، وفيما ذكرنا أنشدت يوماً في حق بلاء عشي في أيام امتحاني وشوقي إلى أيام وصالي ورؤية منابي فقلت:

هوائني يا منابي نفي لقاك وعيمشي يا رجائي في هواك
نزلت حظوظ نفسي من حياتي وأثرت الملمات بأن أراك

وجدت صفاء قلبي في همومي إذا كانت همومي في رضاكا

لقد طالبت بلايا في بلائي بلائي يا بلائي من بلاكا

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه جاء إليه رجل؛ فسأله عن قول أيوب: ﴿أَنِّي مَسْنِيَّ الضُّرِّ﴾ فبكى النبي ﷺ ثم قال: «والذي بعثني بالحق نبياً ما شكا فقراً نزل من ربه، ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات؛ فلما كان في بعض الساعات، وثب ليصلي قائماً، فلم يطق للنهوض، فجلس ثم قال: ﴿مَسْنِيَّ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ثم قال النبي ﷺ: «أكل الدود سائر جسده حتى بقي عظاماً نخرة، فكادت الشمس تطلع من قبله وتخرج من دبره»، ثم قال النبي ﷺ: «ما بقي إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلق من ذكر الله ولسانه لا يخلق من ثنائه على ربه؛ فلما أحب الله له الفرج بعث إليه الدودتين، إحداهما إلى لسانه، والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان قلبي ولساني أذكرك بهما، وقد أقبلت هاتان الدودتان أحدهما إلى قلبي والأخرى إلى لساني، وتشغلاني عنك، وتطلعان على سري ﴿مَسْنِيَّ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(١).

وقال الحسين بن علي: ﷺ: ذكر الله على الصفاء ينسي العبد مرارة البلاء.

وقال جعفر: خرج منه هذا القول على المناجاة مستدعيًا للجواب من الحق ليسكن إليه لا على حد الشكوى.

قال بعضهم: كان أيوب قائماً مع الحق في حال الوجد؛ فلما أن كشف عنه البلاء وأظهره، وكشف ما به قال: ﴿مَسْنِيَّ الضُّرِّ﴾.

وقال الجنيد: عمل الدود في جسده فصبر، فلما قصدوا قلبه غار عليه؛ لأنه موضع المعرفة ومعدن التوحيد ومأوى النبوة والولاية، وقال: ﴿مَسْنِيَّ الضُّرِّ﴾ افتقار إلى الله مع ملازمة آداب النبوة.

وقال ابن خفيف: كان أيوب مستتراً بحال الصبر عن البلاء، فلما أراد إظهاره للخلق ضج، فقال: ﴿مَسْنِيَّ الضُّرِّ﴾.

قال أبو علي المغازلي: أوحى الله إلى أيوب في حال بلائه: يا أيوب إن هذا البلاء قد اختاره سبعون نبياً قبلك، فما اخترته إلا لك، فلما أراد الله كشفه عنه، قال: ﴿إِنِّي مَسْنِيَّ الضُّرِّ﴾.

(١) ذكره ابن عجيبة في تفسيره (١٠٦/٤).

قال الحسين: تجلّى الحق لسره وكشف له أنوار كرامته، فلم يجد للبلاء ألباء، قال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ لفقدان ثواب البلاء والضر إذا صار البلاء لي وطنًا وعليّ نعمة. وقال بعضهم: نال كل عضو منه البلاء إلا موضع النداء، فتأدى الضر من الباقي منه على العافية لا عن مواضع البلاء؛ فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

أدرك بقية نفس فيك قد تَلَفَتْ قَبْلَ الْمَمَاتِ فَهَذَا آخِرُ الرَّمَقِ وَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ عَجَبًا وَإِنَّمَا عَجَبِي لِلْبَعْضِ كَيْفَ بَقِيَ سئل الجنيد عن قوله: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾، قال: عرفه فاقه السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال.

ثم أخبر الله سبحانه عن رفعه البلاء عن نبيه، وإجابة دعوته، وإخراجه من الضر بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ حقيقة هذه الآية أن الله عرف خوف أيوب من فوت مشاهدته ووصاله ووقوفه بأسراره في بلائه؛ فاستجاب دعوته، ورفع عنه مكائد قهره في ابتلائه، وغيره ربوبيته على عبوديته، فكاشفه جماله وجلاله بعد أن ألبسه لباس العافية، فارتفع الضر من جميع الوجوه، وبقي في شهود جماله؛ فصار إليه البلاء والعافية واحدًا.

قال بعضهم: استجاب دعاءه، وفتح عليه أبواب الرضا لثلا يعارض بعد ذلك في حال لا مستكشفًا للبلاء ولا متلذذًا به؛ لأن كليهما موضع العلل، والرجوع إلى النفس وتربيتها. قال الأستاذ: لم يقل: ارحمني بل حفظ آداب الخطاب؛ فقال: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ تسليّة للمحبين الصابرين وتذكرة للمتعبدين.

قال الواسطي: موعظة للمطيعين عند نزول المحن بهم، وتعريضًا على الرضا، وحسن الدعاء من غير تصريح به بل إظهارًا للحال.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ كان يونس عليه السلام في منزل الانبساط والعريضة؛ فغضب عليه إذا شغله بشريته عنه، وعن مشاهدته وقربه

ووصاله، وظنَّ أنه في غضبه وعبريته لم يكن مأخوذاً به، ولم يكن محتجباً به، وكان محجوباً بسر واحد، وهو أن الانبساط حظ العارف والهية حظ الله فاختر حظّه على حظّه، وصار محجوباً عن محل الفناء فيه، ويمكن أنه كان مغاضباً على وجوده إذا كان موجوداً عند مشاهدة وجود الأزل كأنه غار على وحدانيته، ولم يطق أن يرى وجوده في وحدة القدم، فلما ابتلعه الحوت، صار تحت قهر القدم فانياً عن رؤية غيره الحق في رؤية الحق تقاضى سر سره مقام بقاءه وانبساطه فظن بسرّه أنه لا يخرج من درك الفناء، ولا يدرك في منازل الفناء درجة البقاء فكاشفه الحق نقاب السلطانية عن جمال القدم، وصار في معارج جمال أنس المشاهدة، فلما وجد البقاء في الفناء اعترف بعجزه، وقلة علمه بأسرار القدمية؛ فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠٥﴾ حين نازعت الربوبية بالربوبية علم أن الاتصال والاتحاد موضع المكر والخداع؛ فأسقط العلل، واعترف بالوحدانية الصرفة لأزلية الله تعالى.

قال الجنيد: مغاضباً على نفسه في ذهابه، فظنَّ أن لن يأخذه بغضبه وذهابه.

قال ذو النون: أخفى أيخدع به العبد الألفاظ والمكرمات ورؤية الآيات؟^(١)

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠٥﴾ أي: من الجاهلين إنك لا تقرب بطاعة، ولا تبعد بمعصية، وقد ظننت في زمان الصبا أن الله سبحانه أراد أن يبيح ليونس عليه السلام معارجاً ومشاهدة في بطن الحوت فتعلل بالأمر والنهي، والمقصود منه القرية والمشاهدة فأراه الحق في أطباق الثرى في ظلمات بطن الحوت ما أرى محمداً ﷺ فوق العرش، فلما رأى الحق تحير في جلالة، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ﴾، نزعت نفسك عما ظننا فيك، فأنت بخلاف الظنون، وأوهام الحدثان، ﴿كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، في

(١) اعلم أن الآية هذه حكاية كلام يونس عليه السلام؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلى في كل شيء بحسبه: أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسهه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلى فيه. والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذروة العرش حيث قال: «لأحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثبتت على نفسك»، فإذا كل من المقامات العلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفلى بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرع التسيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديساً له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ عَنِّي عَنْ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلَّ من الخطاب، والغيبة، والتكلم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

وصف جلالك إذ وصف لا يليق بعزة وحدانيتك فوقع لهذا القول منه موقع قول سيد المرسلين حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

ولذلك قال ﷺ: «لا تفضلوني على أخي يونس»^(٢)؛ فلما رأى ما رأى استطاب الموضع، وظن أن لن يدرك ما أدرك في الدنيا بعد فغاب الحق عنه فاهتم ودعا بالنجاة فنجاه الله من وحشة بطن الخوت بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) يعني: من كان هذا حاله مع الله سبحانه ننجيه به منه.

قال الجنيد: من همومهم وكروبهم بالإخلاص والصدق والافتقار والالتجاء، وحقيقة حسن الاعتراف وإظهار الاستسلام.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِذَا كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ حيث اختلج سري أن أريد غير ما أردت.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٤) .
قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ما اختلج في سر الإرادة من صميم سر سري أن شيخ الأنبياء ﷺ رأى ما ورد عليه من أنوار كبرياء الله وجلال عظمته وعز سلطانه في مشاهدة ذاته فخاف من محل الاتحاد والاتصاف الذي يقتضي حلاوة شربة التفريد في دعوى الأنانية والربوبية فاستعاذ بالله أن يكون محتجباً به عنه، فقال: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ حين أفردتني بفردانيتك، فإن ذلك على عارية تنصرف إلى القدم، والحدث ينصرف إلى الحدث.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥) ترث صفة بقائك بعد فنائي بغيرتك، وأيضاً ﴿لَا تَذَرْنِي﴾ في ﴿فَرْدًا﴾ عنك بك حتى لا أحتجب بك عن حقيقتك، وأيضاً كان سره يتحرك من جذب أسرار مقادير القدم التي تجذب سره إلى رؤية روح يحیی في مكنم الغيب فافتقر إلى الله بالسؤال إدخال روحه في هيكله ليكون سحرًا في إفشاء أسرار ربوبيته.

قال جعفر: لا تجعلني ممن لا سبيل له إلى مناجاتك، والتزين بزيئة خدمتك.

وقال أيضاً: فرداً عنك لا سبيل لي إليك.

وقال ابن عطاء: خاليًا عن عصمتك، وقال الجنيد: خاليًا عنك مشغلاً بشيء سواك.

(١) رواه مسلم (١١٩، ٧٥١، ٧٥٤)، وأبو داود (٣/٥٤)، والترمذي (١١/٣٩٨).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/٣٣٣).

وقال الواسطي: الفرد المعروض عن ذكر الله الغافل عنه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ رُوحَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْأَخْيَارِ وَيَدْعُونَآ رَغْبًا وَرَهْبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَرْهَمَ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُوبٌ ﴿١٤﴾ وَحَرَّمْ عَلَىٰ قُرْبَىٰ أُهْلِكْنَاهَا إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾ وَقَاتِرَبَ الْوَعْدِ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ ۖ إِلَٰهَةٌ مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَآ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ موضع النداء والدعاء في منازل العبودية مكان الخوف والرجاء والرغبة من جلال عظمته، والرغبة في وصول جماله وقربه، وبهاتين الصفتين صار العارف خاشعاً لله في طاعته ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ ﴿١٠﴾ فاني تحت أذيال عظمتي ورداء كبريائي.

قال الواسطي: أمر الله الأنبياء بالخشوع، وهو الوقوف بين الرغبة والرغبة، وحقيقته سكون يشير إلى الرضاء، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَآ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾.

وقال بعضهم: رغبة فينا ورغبة عما سوانا، وقيل: رغبة في لقائنا، ورغبة في الاحتجاب عنا.

قال أبو يزيد: الخشوع زمام الهية وخمود القلب عن الدعاوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٢١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ ۖ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۖ وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وصف الله أهل الولاية والنبوة والرسالة الذين اصطفاهم في الأزل بحسن عنايته ومعرفة جلاله وجماله مشاهدة كماله ووصاله ووقاهم من عذاب الفرقة والحرمات عن المشاهدة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا هي في جنان الوصلة لا يحسون شواهد أهل العلة من البرية فظاهر حسن العناية السابقة منهم أربعة أشياء الانفراد من الكونين والرضا بلقاء الله عن الدارين وإمضاء العيش مع الله بالحرمة والأدب فظهور أنوار قدرة الله منهم بالفراشات الصادقة والكرامات الظاهرة وباطن حسن العناية السابقة من الله في الأزل لهم أربعة أشياء: المواجيد الساطعة، وانفتاح العلوم الغيبية، والمكاشفات القائمة، والمعارف الكاملة، وفي كل موضع ظهرت هذه الأشياء بالظاهر والباطن صار صاحبها مشهوراً في الآفاق بسماة الصديقين وعلامات المقربين وخلافه المرسلين.

قال الحسن بن الفضل: سبقت العناية، وظهرت الولاية.

وقال الجنيد: من سبق من الله إليه إحسان؛ فإنه لا يزال ينتقل في ميادين المحسنين إلى أن يبلغ إلى أعلى مراتب أهل الإحسان بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال الواسطي: أولئك قوم هداهم الله فهداهم بذاته وقدسهم بصفاته فسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالعات الأعواض؛ فلا لهم إشارة في سرائرهم، ولا عبارة عن أماكنهم وحجبهم عن الاستقرار في المواطن؛ فلا لهم هم بأنفسهم، ولا هم حاضرون في حضورهم بحضورهم.

وقيل: الحسنى العناية السابقة، وهي خمسة أشياء: العناية، والاختيار، والهداية، والعطاء، والتوفيق، فبالعناية وقعت الكفاية وبالاختيار وقعت الرعاية، وبالهداية وقعت الولاية، وبالعطاء وقعت الخلعة، وبالتوفيق وقعت الاستقامة والحسنى هذه السوابق.

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: هم أهل الحقائق لا يحسون بضجيج أهل الدنيا؛ لأنهم مصدودون عنها بما ورد على سرائرهم من وهج الحقائق فهم مترددون في منازلهم لا يقطعهم عن ذلك قاطع لانغماسهم في بحور الحقيقة، ثم وصفهم الله بالأمن الدائم والحسن القائم بقوله: ﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ كيف يلحقهم الفزع، وهم في مشاهدة جلال الحق مدهوشين والهيّن وأصلين إلى مناهم غير محجوبين عنه بشيء من الحدثان، والحق سبحانه يكون مرادهم يفعل كما يريدون.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ اشتهاؤهم في جمال الحق دوام المشاهدة بنعت الوصلة على السرمدية، وهذا اشتهاؤ قلوبهم واشتهاؤ عقولهم كشف العلوم من معدن الصفات، واشتهاؤ أرواحهم الاستغراق في بحار الذات، واشتهاؤ أسرارهم الفناء بنعت البقاء، والبقاء بنعت الفناء واشتهاؤ نفوسهم اللذة والخلوة والخطاب والحسن والجمال والإدراك بنعت التحصيل من القدم في لباس الحسن.

قال ابن عطاء: للقلب شهوة، وللأرواح شهوة، وللنفوس شهوة، وقد يجمع الله لهم في الجنة جميع ذلك، فشهوة الأرواح القرب، وشهوة القلوب المشاهدة، والرؤية وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: اجتازوا عليها، ولم يحسوا بها وما عرفوها لصحة قصدهم إلى اللقاء، وللنزول في دار البقاء.

وقال الصادق: كيف يسمعون حسيسها، والنار تحمد لمطالعتهم وتلاشى برؤيتهم، قال النبي ﷺ: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جزيا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهي»^(١).

قيل في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: النفوس ثلاثة أشياء: أرواح وأشباح وقلوب، فشهوة الروح الوصلة وشهوة القلوب اللقاء، وشهوة النفوس الأكل والشرب والزينة، وكل مبذول له بقدر همته وحظه يوصل إلى مناه، وشهوته فيها خالداً مخلداً أبداً.

ثم وصف الله سبحانه جلال أهل قربه بحيث يحنيهم الملائكة السفرة الكرام البررة يدخلونهم حجال الوصال، وشهودهم مشاهدة الجمال بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا يوم الوصلة بلا فرقة، وهذا يوم الموائسة بلا وحشة، وهذا يوم الراحة بلا محنة، وهذا يوم العافية بلا بلية، وهذا يوم كشف النقاب بلا حجاب، وهذا يوم الخطاب بلا عتاب، قيل: ميعاد أهل الجنة فيها الوصلة، وميعاد أهل النار فيها القطيعة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٣٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٤٠).

مُسْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَوْ أَقْرَبْتُمْ أَمْرٌ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ كان في علم الأزلية أن أرض الجنان ميراث عباده الصالحين من الزهاد والعباد والأبرار والأخيار؛ لأنهم أهل الأعراض والثواب والدرجات، وأن مشاهدة جلال أزليته ميراث أهل معرفته ومحبته وشوقه وعشقه؛ لأنهم في مشاهد الربوبية، وأهل الجنة في مشاهد العبودية.

قال سهل: أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح معناه: لا يصلح لي إلا ما كان لي خالصاً لا يكون لغيري فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله، وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه، ثم بيّن سبحانه أن كلامه الأزلي يبلغ الصديقين إلى معادنه من رؤية الصفات والذات الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ مشاهدين جلالنا وجالنا بهمهمم العلية، وقلوبهم الحاضرة وعقولهم الصافية وأرواحهم العاشقة، وأسرارهم الطاهرة.

قال سهل: لم يجمع البلاغ لجميع عباده بل خصّ القوم العابدين، وهم الذين عبدوا الله، وبذلوا له مهجتهم، لا من أجل عوض، ولا لأجل نار ولا جنة بل حُبّاً له وافتخاراً بما أهلهم من عبادتهم إياه.

ثم وصف الله سبحانه حبيبه محمداً ﷺ بأنه أرسله رحمة إلى جميع خلقه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ إنها الفهم أن الله سبحانه أخبرنا أن نور محمد ﷺ أول ما خلقه في الأول من جميع خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره، فأرساله من العدم إلى مشاهدة القدم رحمة لجميع الخلائق إذ الجميع صدر منه فكونه كون الخلق ذكر أنه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق إذ هو سبب وجود الجميع، فهو رحمة كافية؛ وافهم أن جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة في فضاء القدرة بلا روح حقيقية منتظمة لقدوم محمد ﷺ؛ فإذا قدم في العالم صار العالم حياً بوجوده؛ لأنه روح جميع الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾﴾^(١)، وبإعقل إن من

(١) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكشف والرقيم» في شرح بسم الله الرحمن الرحيم «ما نصه: الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم

العرش إلى الثرى لم يخرج من العدم إلا ناقصاً من حيث الوقوف على أسرار قدمه بنعت كمال المعرفة والعلم فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شط بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية فجاء محمد ﷺ إكسير أجساد العالم وروح أشباح العالمين بحقائق علوم الأزلية، وأوضح سبل الحق لهم بحيث يجعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة؛ فإذا قدم من الحضرة إلى سفر الغربة بلغهم جميعاً بخطوة من خطوات صحارى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ حتى وصل إلى مقام «دنا» فغفر الحق لجميع الخلائق لمقدمه المبارك فالكافر والمؤمن والذئب والظبي والبازي والحمام والجنة والنار والدنيا والآخرة في حيز رحمته؛ لأنه كان رحمة أزلية أبدية قطرة من بحر رحمة الرحمن وغرفة غرفت من نهر الغفران.

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزيينة الرحمة فكان كونه رحمة ونظرة إلى من نظر إليه رحمة، وسخطه ورضاه وتقريبه وتبعيده وجميع شئائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه من رحمته؛ فهو الناجي في الدارين عن كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ فكانت حياته رحمة وممانته رحمة كما قال النبي ﷺ: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم»^(١).

وقال ابن عطاء: رحمة الدارين لمن تبعك، وآمن بك، والرحمة العاجلة لمن لم يؤمن بك بتأخير العذاب عنه إلى العاقبة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِّنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ وَإِنْ أَدْرَى
لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكَرَّمَتْكَ إِلَىٰ حِينٍ قُلْ ﴿١٥٨﴾ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِّنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ يعلم شكاية العارفين منه إليه بالفاظ مجبولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، فحان وقت الوصال، وكشف الجبال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعمهم إلى الحرية والانبساط.

قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضر؟! فما يكتُمونه أظهر عنده مما يبدوونه وما يبدوونه مثل ما

بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.
(١) رواء البزار في مسنده (٣٠٨/٥)، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١٧٤/٤) بنحوه.

يكتمونونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْصِعٍ ۚ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إن الله سبحانه نادى نداء الوعيد للناسين عهد الأزل، ومشاهدة الأبد أي: أين أنتم أيها الغافلون عن بروز جلال عظمتي من حجاب الغيب في صحاري القيمة اتقوا عن عذاب فرقتي لكي تصلوا إلى جلال وصلتي؛ فإن الأكران والحدثان تزلزل عند ظهور أنوار كبريائي وسلطان بهائي فحقيقة التقوى الخروج مما دون الله بالله.

قال بعضهم: التقوى ألا يستغفرك شيء دون مولاك، وهو الحرية، وكل من طلب الجزاء لم يكن متقيًا، وإن كان وعد له عليه.

ثم وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيان والسكر والهيجان بقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ يولهُون في رؤية العظمة وجلال الهيبة، ويهيمنون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة.

قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء حتى ألجأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي.

وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب، وشتان بين سكر وسكر؛ سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن سألتني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر المرئيين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال، وسكر العارفين من الدخول في حجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله

في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجبال، وبعض السكارى فاني في الجبال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس، وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنها هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بما منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العباد والزهاد سكرهم من مشارب الكرم.

أَلَمْ يَبْنَا طَيْفٌ يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ وفي طرفه خمرٌ وخمرٌ على الكفِ
فأسكر أصحابي بخمرة كفه وأسكرني والله من خمرة الطرفِ

وقال الحسين: أسكرهم رؤية الجلال، ومشاهدة الجمال.

قال الحريري: ما أسكرهم إلا الهيبة والإجلال^(١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَآنٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هؤلاء الناس أهل الخيال من المشبهة والمعتزلة وأمثالهم من الذين جادلوا في الله بالقياس والخيال المحال.

قال سهل: يخاصم في الدين بالهوى والقياس من دون الاقتداء، فعند ذلك يضل ويتبدع.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لَّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا

(١) قد روي أن الشبلي قال: شربت بالكأس التي شرب بها الحلاج فصحرت وسكر الحلاج، فبلغ ذلك الحلاج فقال: لو شرب بالكأس التي شربت بها لسكر كما سكرت، فبلغ الجنيد أمرها فقال: نقبل قول الصاحي على السكران، فرجع حال الشبلي على حال الحلاج.

ولذلك قالوا: أكثر الشطح يكون من سكر الحال وغلبة سلطان الحقيقة، فمن ثم من تم صحوه وخلص عن بقية السكر ونزلت في قلبه السكينة ستر الحقيقة بالعلم، ووقف على حد العبودية، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه، إذ تنكشف به الالتباسات التي لم تزل خفية على أكثر أرباب القلوب.

نَشَأَ إِلَى أَجْلِ مُسَيِّئَةٍ ثُمَّ نَخَرُّكُمْ ظِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلُّغُوا أَشْدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ ۖ بِهِجٍ ۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۖ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ۖ ثَانِي عَطْفِهِ ۖ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ۖ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أرذل العمر أيام المجاهدة بعد المشاهدة، وأيام الفترة بعد المواصله لكيلا يعلم بعد علم بما جرى عليه من الأحوال الشريفة والمقامات الرفيعة، وهذا غير الحق على دعوى المتحققين حين أفشوا أسرارهم بالدعاوى الكثيرة، أستهيذ بالله من ذلك، وأستزيد منه فضله وكرمه ليخلصنا به من فتنة النفس وعثرتها، ويمكن أن ذلك يتعلق بالسير في عالم النكرات حين اختلطت بحار حقائق الربوبية في قلب العارف الصادق، فيستغرق في لجج نكرات امتناع الأحدية عن إدراك الخليفة، فيضمحل ما علم فيها لم يعلم من معرفة الذات والصفات فتحت نكراته معارف الألوهية، وتحت المعارف نكرات غيرة الأزل فإذا خرج من الفناء في النكرة عن النكرة إلى مقام الصحو في المعرفة فيطلع على أسرار النكرة بأسرار المعرفة، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ﴾ يحییهم بالمعرفة بعد موتهم في النكرة، وبحياة المشاهدة بعد موت الفرة، ولذلك ضرب الله مثلاً في هاتين الحالتين كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

وهذا ما وافق قول الواسطي في ذلك، قال: اندرج ما علم منه بما بسط له وفتح عليه وضرب له مثلاً ﴿وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ساكنة عن النبات حافية عن الخضضر ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ظهرت عليه وردت ورويت ونمت، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ [فصلت: ٣٩] بالنعوت ﴿لَمْ يَخَيِّ الْمَوْتَىٰ﴾ بالعلوم في الدنيا وبالأرواح في الآخرة.

وقال الأستاذ: أرذل العمر زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجة عقب المشاهدة،

ويقال: السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق، ويقال: العشرة مع الأضداد.

ويقال: يحى النفوس بتوفيق العبادة، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٠٧﴾ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٠٩﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١١٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَن لِّلَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طمع وهوى ورؤية عرض وطمع كرامات ومحمدة الخلق، وقيل: الدنيا وإذا أصابته أمانيه سكر في العبادة وإذا لم يجد شيئاً منها ترك التحلي بحلية الأولياء، قال تعالى في وصفه: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

ثم بيّن حاله في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسرانه في الدنيا فقدان القبول والجاه عند الخلق، واقتضاحه عندهم وسقوطه من طريق السنة والعبادة إلى الضلالة والبذعة، وخسرانه في الآخرة بقاءه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنيران البعد.

قال الواسطي: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على رهن التجنب واطمأن إليه.

قال بعضهم: على طمع أن يرى ثواب عمله أو يجازي على قدر أعماله.

وقال بعضهم: الخسران في الدنيا ترك الطاعات، ولزوم المخالفات، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات.

وقالت رابعة في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: كيف يكون ما

منك إليه عوضاً لما منه إليك، وما عنك إليه لا يكون إلا بها منه إليك؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴿١٦﴾ ۝ هَٰذَانِ حَصْمَانِ آخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ ﴿١٧﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۝ ﴿١٩﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ من أهانه الله في الأزل بقرهه لا يكون عزيزاً لعمله ولا بعزة غيره عزيز إذ العز كله لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْآلِيزَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال: من قدر الله عليه الإهانة في السبق لا يقدر أحد على كرامته؛ لأن لباس الحق لا يزول ولا يحول، وهو على الدوام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ ﴿٢١﴾﴾. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ يدخل العارفين الذين لهم صلاحية مشاهدته واستعداد قبول معرفته إلى جنان قربه ووصاله، قيل: هم الذين صدقوا الله في السر، واتبعوا سنة محمد ﷺ فلم يبتدعوا بحال.

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ۝ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ وصف من دخل جنات المشاهدة، ورتعوا رياض المكاشفة عرفوا طيب الخطاب في مقام المدانة والمناجاة، وكوشف لهم أنوار سبل الذات والصفات طيب الله ألسنتهم وقلوبهم بطيب ذكره وهداهم إلى سبل معرفته.

قال ابن عطاء: الطيب من القول هو ذكر الله.

وقال جعفر: هو الأمر بالمعروف.

وقيل: هو نصيحة المسلمين، وقيل: هو قراءة القرآن.

قال الأستاذ: الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص وسر صافٍ مما رضي به

علوم التوحيد الذي لا اعتراض عليه للأصول، ويقال: الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَبِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءً أَلْعَبِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ داره دار كرامته ومنزل أضياف المعرفة إذا كشف من بيته ما فيه من آياته الكبرى يصل بركتها إلى المقيم والمسافر وحضرته القديمة منازل المقيمين فيها بالأرواح من العارفين والمشاهدين والطارئين من حائم أسرار الواصلين، فالمقيم بقلبه هناك من أول عمره إلى آخر عمره والطارئ عليها لحظة من المكاشفين والمشاهدين ينكشف له ما ينكشف للمقيمين؛ لأنه وهاب كريم يعطي للتائب من المعاصي ما يعطي المطيع المقيم في طاعته طول عمره.

قال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك الطارئ والمقيم، وكذا يكون بيوت الفتيان من ترك فيها؛ فقد تحرم بأعظم حرمة وأجل ذريعة، ألا ترى الله تعالى ذكره كيف وصف بيته ﴿سَوَاءً أَلْعَبِكُمْ فِيهِ وَالْبَادِ﴾.

قال الأستاذ: بمشهد الكرام يستوي فيه الأقدام؛ فمن وصل إلى تلك العقوة^(١) فلا ترتب ولا رد، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد^(٢).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۖ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ هذا لخليله وجميع أحبائه بيته ودله إلى ما فيه من الآيات والكرامات، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ومرآة لأنوار آياته، وأمره ألا يطلب في طلبه شيئاً من غيره في طاعته من الجنة وما فيها وجعل بيته مثلاً لبيته الخاص الذي هو قلب العارف في هذا الظاهر الآيات وفي بيت الباطن أنوار الصفات ومشاهدة الذات؛ فأمره أن يطهر بيت الظاهر والباطن من خطرات

(١) أي: تلك الخيرية.

(٢) انظر: تفسير القشيري (١٨٥/٥).

النفسانية وخطرات الشيطانية بقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الطائفون: عساكر أنوار تجلي الحق وزوار وارد الغيب، والقائمون: أنوار المعرفة والتوحيد، والركع السجود: أنوار الإيمان والإسلام، وأيضاً الطائفون: ملائكة الإلهام، والقائمون: الأرواح، والركع السجود: العقول أي: طهر قلبك عن ذكر ما سواي حتى لا يشوش هؤلاء في قرار أنوار صفاتي وذاتي.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾: وفقناه لبناء البيت، وأعناؤه عليه، وجعلناه منسكاً له، ولمن بعده من الأولياء والصديقين إلى يوم القيامة، وبنائه فيه آثاره، وأمرنا الخليل عند بنائه ألا يرى فعله وبنائه، ولا يشرك بنا في ذلك شيئاً.

قال بعضهم: في قوله: ﴿طَهَّرَ بَيْتِي﴾: وهو قلبك، ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾: وهي زوائد التوفيق، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾: وهي أنوار الإيان، ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: الخوف والرجاء. قال جعفر بن محمد: ﴿طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾: طهر نفسك عن مخالفة المخالفين والاختلاط بغير الحق، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾: هم فؤاد العارفين المقيمون معه على بساط الأنس والخدمة، ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البدايات عن تناهي النهاية.

قال سهل: كما طهر البيت من الأصنام والأوثان وطهر القلب من الشرك والريب والغل والغش والقسوة والحسد، ولما استقام الخليل في تجريد التوحيد أمره الحق بأن يدعو بلسان الخلد زوار الحضرة من أماكن الغيبة ومكان العدمية بقوله: ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ دعاهم بلسان الحق لذلك أجابوه بالتلبية بقولهم: «إليك اللهم ليك»، وتلك الإجابة من الأرواح القدسية من معادنها من الغيب عشقاً ومحبة، وهذه المعاني تدل على كون الأرواح قبل الأشباح يأتون مقام خلقتك المحيين المفردين من غيرنا المتجردين من أنفسهم في زيارتنا ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ نفوس مهزولة بالمجاهدات، ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ من كل طريق بعيد من الأوهام؛ لأنهم في طرف الأسرار ونوادر الأنوار يأتونك من مقام المشاهدة إلى مقام المتابعة إظهاراً للعبودية بعد كونهم في مشاهدة الربوبية.

قال ابن عطاء: رجالاً استصلحناهم للوفود إلينا، وليس كل أحد يصلح أن يكون وفداً على سيده، والذي يصلح للوفادة هو اللبيب في أفعاله، والكيس في أخلاقه، والعارف بما يفديه، وبما يرد ويصدر.

ثم ذكر سبحانه علة الدعوة، وبناء الكعبة بقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ﴾ أي:

ليشهدوا بأرواحهم مشاهد قربنا ومشاهدتنا، وما أعدنا لهم من علو المقامات وسني الدرجات.

قال ابن عطاء: ما وعدوا من أنفسهم لربهم، وما وعده الله لهم من القربة.

قال جعفر: ليشهدوا الذي بيني وبينهم.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعٌ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابَ الْأَفْقَرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْأَبْنَاءِ الْعَتِيقِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابَ الْأَفْقَرِ﴾ أمرهم بالتواضع في مؤاكلة الفقراء والمساكين أهل بؤس المجاهدات، والافتقار إلى المشاهدات أي: أطعموهم من أطيب ما تأكلون، ولا تؤثروا أنفسكم عليهم؛ فإنهم لا يأكلون طعام البخلاء والمؤثرين هواهم على مرادنا، وفيه إشارة إلى أهل روح وصال المشاهدة والمكاشفة أن يجبروا طلاب المعرفة والمحبة مما كوشف لهم من أحكام الملوكوت، وغيب الجبروت.

قال أبو عثمان: أدب أدب الله به عبادہ ألا يطعموا الفقراء إلا بما كانوا يأكلون، ولا يجعلوا الله ما يكرهون هو أن تشاركوهم في مأكلهم وملابسهم ومشاربهم لقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا﴾.

وقال ابن عطاء: البائس الذي تأنف من مجالسته ومؤاكلته، والفقير من تعلم حاجته إلى طعامك، وإن لم يسأل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُقْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٨﴾ حُتَفَاءَ اللَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْتِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٠﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَفَعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَلِلْهَكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۚ وَنَشَرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ الصَّلَوةُ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٣﴾ وَالْبَذَرَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَانِيعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ حرماته مقام الاتصاف والاتحاد؛ فمن اتصف بصفاته، وتوحد بتوحيد ذاته يقع في بحر الربوبية، ويستغرق في لجج الديمومية، وينكشف له أسرار السرمدية والأزلية، ويسكر بشربات وشراب المشاهدة، ويقتضي هذه أحوال له دعوى الأنانية من حلاوة مباشرة أنوار الأزلية بنعت التجلي والوصلة؛ فمن كان هناك محفوظاً بقي على نعت العبودية، ولا يخفى على حرمان الحقيقة؛ فهو خير له بأن يزيد حاله من الله سبحانه، ويكون إماماً في الصحو والتمكين مثل الخلفاء والنجباء يقتدي به سلاك الطريقة وملوك الحقيقة، ومن خرج برسوم أهل السكر، ويدع الأنانية يكون محترقاً بنيران الغيرة، مصلوباً على باب الهيبة والكبرياء والسلطنة، وأيضاً من شاهد مشاهدة الحق بنعت الانفراد عن الحدثن خالصاً عن الجنان متبركاً من حظوظه التي يطمع فيها عند مشاهدة الرحمن، فهو من أهل الحرمه في القرية، ومن كان حبه لحظه؛ فهو غير محترم في مقام الحرمه، يا غافل الحرمه في العبودية تقتضي قرب الربوبية والحرمه في الربوبية يسقط علل الحدودية.

قال الواسطي: من تعظيم حرمه الله ألا تلاحظ شيئاً من كونه، ولا من طوارق محنته، ولا تلاحظ خليلاً ولا كلياً ولا حبيباً، مادام تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال فارس: حرمان الله صفاته، ومن تهاون بحرمان الأمر والنهي؛ فقد تهاون بالذات، وهو نفس النفاق.

قال ابن عطاء: الحرمه ثلاثة أوجه؛ أولها: القطع من الموافقة، ثم القطع من لذة المشاهدة، وقال بعضهم: رؤية الأفعال وطالب الأعراض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مقام حرمانه، وبين أن من عظم أمره؛ فقد عظم جلاله وعظمته بقوله: ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٦٦﴾ . بين أن تعظيم الله تعظيم شعائره يصدر من قلوب المتقين الذين هم في مشاهدة عظمة الله وجلاله وكبريائه في احتشامه وهيبته، وتقوى القلوب هو الاجتناب عن سوء الأدب في العبودية والتجمل والحياة في مشاهدة الربوبية.

قال سهل: تقوى القلوب هو ترك الذنوب، وكل شيء يقع عليه اسم الذم.

قال الجنيد: من تعظيم شعائر الله التوكل والتفويض والتسليم؛ فإنها من شعائر الحق في أسرار أوليائه، فإذا عظمت وعظمت حرمة زين الله ظاهره بفنون الآداب.

ثم وصفهم بالإخبات والتواضع والخشوع والخشوع في عظمتهم وجلاله وكبريائه وبشرهم بدوام وصاله بقوله: ﴿وَبَثِّرَ الْمُخْبِتِينَ﴾، ومن أوصاف المخبتين الفناء في العظمة والحياة في رؤية الكبرياء والخجل في مشاهدة الربوبية، والتواضع في العبودية، وكتبان الأسرار والبكاء في الخفية والسكون في الخلوة، ومراقبة الله بنعت الهيبة.

قال ابن عطاء المخبت هو الذي امتلأ قلبه من المحبة، وقصر طرفه عما دونه كما أن الفريق شغله نفسه عن كل شيء سوى نفسه كذلك المخبت لشغله مولاه عن كل شيء سواه.

وقال جعفر: ﴿وَبَثِّرَ الْمُخْبِتِينَ﴾: من أطاعني ثم خافني في طاعته، وتواضع لأجلي، وبشر من اضطرب قلبه شوقاً إلى لقائي، وبشر من ذكرني بالنزول في جوارِي، وبشر من دمعت عيناه خوفاً فيحفظوا بشراهم «إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

ثم زاد سبحانه في وصفهم بوجل القلوب من معاناة أنوار الغيوب، والصبر في المجاهدات، وتطهير أنفسهم من الذنوب بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إذا سمعوا خطاب الله من الله، والله من غير الله، وجلت قلوبهم من رؤية عظمة الله، والشوق إلى لقاء الله، وغلبان محبة مشاهدة الله وقع السماع لهم على آذان أرواحهم المطربة من روح أنس الله العاشقة جمال قدس الله؛ فنضطرب بين الأنس والقدس بنعت المحبة والشوق وتطير بجناح المعرفة إلى سرادق كبرياء المعروف؛ فيسكن هناك وجلها، واضطرابها فتسمع من الله خطابه، وتطمئن بهجالة، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فإذا سمع الذكر من غيره اقتضى الوجل، وإذا سمع من الله اقتضى السكون والطمأنينة ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ الذين وصفهم الوجل والإخبات صبروا تحت موارد أنوار مشاهدته إذا أتت عليهم طوارقها بأثقال الربوبية لا يجزعون ولا يتحركون حتى يفنوا في كبريائه ويبقوا في بقائه.

قال ابن عطاء: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع الذكر أو عند سماع كتابه أو خطابه أو هل أخرجك الذكر حتى لا تنطق إلا به، وأصمك حتى لم تسمع إلا منه هيهات هيهات.

قال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة ربما يريه مواضع السطوة وربما يريه مواضع المودة والمحبة.

وقال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾: التاركى الجزع عند حلول النوائب والمصائب.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات وزمها بالرياضات عن المخالفات وفداء الوجود للمشاهدات حتى لا يبقى للعارف في طريقه حظ من حظوظه، وبقي الله مفردًا من جميع الخلائق.

قال الوراق: الحكمة في «البدن»، وما ذكر الله من شعائره فيه وحصول الخيرية هو تطهير بدنك من جميع البدع والمخالفات وقتلها بسيوف الخوف والخشية، وأن تجعل التقوى شعارها، والرضا دثارها؛ فإذا فعلت ذلك كان لك فيه أوائل الخيرات، وهو أن يفتح لك السبيل إلى الله، وينور قلبك بنور اليقين، ويظهر شرك عن طلب شيء سوى الله.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٦﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَاعِقُ وَبِيعَ صَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّهْم فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٩﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٣٠﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٣١﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٢﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ الإشارة فيه أن جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى لا يلحق الحق نحو المراد منه، ولكن يصل إليه قلب، جريح من محبته ذبيح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ﴾: هو التبري والإخلاص.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٣٤﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن مُّخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴿٣٥﴾ وَإِن يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿١٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَأَلْذِيكَ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٠﴾
 قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيُّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٠﴾ الجهال يرون الأشياء بأبصار الظاهر وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، أعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة.

قال سهل: اليسير من نور بصر القلوب يغلب الهوى والشهوة؛ فإذا عمى بصر القلب عما فيه غلبت الشهوة، وتواترت الغفلة، فعند ذلك يصير البدن متخبطاً في المعاصي غير منقاد للحق بحال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إن الشيطان خلق لابتلاء الأنبياء والأولياء فيلقي كل وقت بين ذكرهم وتلاوتهم وسأوسه مخيلة، فيحترق في نور أذكارهم، ويتخسأ من صولة أنوارهم وأسرارهم، وذلك من الحق إظهار كرامتهم ومعجزتهم، وحقيقة الحكمة فيه إلقاء الخجل عليهم في مقام المناجاة^(١)؛

(١) قال المصنف: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئاً، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى ما ألفاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن علي - رضي الله عنهما -: «ثبت أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ، وقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي». وقال أبو أمامة، قال رسول الله ﷺ: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك البصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذبون عن قصعة العسل الذباب في اليوم الصائف». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا تختطفه الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقبته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلها يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئاً من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نوراً من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو،

ألا ترى كيف شكّا عنه موسى حين عارضه الملعون بقوله ما سمعت؛ فهو كلامي فكاد موسى أن يذوب من هيبة الله وحيائه حتى أوصله الحق إلى أماكن ألطاف حفظه، ورعايته وخلصه من كيد عدوه.

قال سهل: من قرأه، وهو يلاحظ الحق؛ فإنه يكون بريئاً مصوناً من إلقاء الشيطان، ومن قرأه، وهو يلاحظ نفسه أو يشاهد الخلق؛ فإن ذلك عمل إلقاء الشيطان.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: القرآن كلامه الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ المعرفة بالله تورث الفناء في الله؛ فصارت قلوب العارفين بالله خجبتين لأمر الله. قال الواسطي: إن الربوبية إذا تجلّت على السرائر محت آثارها، ومحت رسومها وتركتها خراباً.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَسَنَاتٍ أَلْغَمِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفَاتِنَتِنَا قَأْوَتْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ لَيَدْخُلْنَهُمْ دُخْلًا يَرْضَوْنَهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْتَكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ملك الجلال والجلال وكشف اللقاء للعارفين والعاشقين لله يومئذٍ يواسي قلوبهم بإعطائه إياهم مأمولهم؛ فإذا برز أنوار سلطنة كبريائه اضمحل فيها الظنون والخواطر والرسوم والأعلام.

قال ابن عطاء: الملك على دوام الأوقات، وجميع الأحوال له، ولكن يكشف للعوام الملك يومئذٍ لإبداء القهارية والجبارية؛ فلا يقدر أن يمجّد ما عاين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ﴾ الذين هاجروا عما دون الله، وقتلوا بسيف محبة الله، وماتوا من غلبة شوق الله تحت أثقال رؤية عظمة الله ليرزقنهم الله رزق مشاهدته، ودوام وصلته على السرمدية، ويحييهم بروحه إلى أبد الأبدين، وملك الحياة والأرزاق غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قال الجريري: هو تصحيح التوجه بالفردانية، ومعانقة التجريد بالسمع والطاعة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ إذا ظهر الحق بنعت الحقيقة للعارفين اضمحلت في قلوبهم الحوادث، وسقط عنهم علل الأكوان.

قال ابن عطاء: هو الحق فحقق حقيقته في شرك ولا ترجع منه إلى غيره؛ فإن ما سواه باطل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أنزل مياه تجلي الصفات من بحار الذات على صحارى قلوب الصديقين فتصبح أرضها بصبح صفات مشاهدته مخضرة بأنوار ورد المكاشفات ونور المحبة والشوق والعشق، ورياحين الزلفات وشقائق المودة، ونرجس المدانة، وتنبث فيها رياحين المعارف بزلال الكواشف.

قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القرية وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأثبت المعرفة فاخضرت القلوب بزينة المعرفة؛ فأنمرت الإيوان وأنبعت التوحيد، وأضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاق إلى ربها، وطارت بهمتها فأناخت بين يديه وعكفت عليه، وأقبلت عليه وانقطعت عن الأكوان أجمع إذ ذاك أوأها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها التنزه في بساتين الأنس ورياض الشوق والقدس.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نَسِكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿أَحْيَاكُمْ﴾ بمشاهدته، ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يفنيكم في سطوات عظمته، ثم ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ بروح بقاءه حتى تبقوا ببقاء مع بقاءه أبداً.

قال الجنيد: أحياكم بمعرفته، ثم يُمِيتُكم بأوقات الغفلة والفترة، ثم يحييكم بالجلد بعد الفترة، ثم يقطعكم عن الجملة فيوصلكم إليه، حقيقة إن الإنسان لكفور يعد ما له، وينسى ما عليه.

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمُنْكَرَ ۚ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا ۚ قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَٰلِكُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا ۚ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِي كَفَرُوا وَيَسْ أَلْمُصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمُنْكَرَ﴾ إن الله سبحانه يبين أن شواهد الملك والملكوت كلها منتظر خطاب الأزل لتسمع بأسماع شائعة إلى معاني الصفات، وأهل الأرواح القدسية منتظرون بسامع الغيب ليستمعوه بأسماع غيبية ويعقلوه بعقول ملكوتية؛ فإذا خاطبهم الحق بلسان السفارة؛ تنجذب أسرارهم وأسرار جميع الخليقة إلى منازل وقوع الخطاب فيقع نوره الرحاني عليها، فصارت موقع الخطاب منورة بنور الصفة، وذلك النور يظهر بنعت الاستبشار في وجوه العارفين لنظار الملكوت، وينتشر نور الأكوان بجميع ذراتها من نور الخطاب.

وأهل الغباوة والجهل المبعدون من ساحة كبرياء الأزل بقوا في ظلمات الجهالة، وغبار القهريات تحت غشاء الضلالة فأساعهم محجوبة بعوارض الامتحان عن سماع القرآن،

وشواهد أسرارهم من ظلمة الإنكار تظهر عن سواد وجوههم عند سماع الخطاب، يعرفها كل بصير بالله، ومن كمال شقاوتهم لا يعرفون أصلاً من أصل، ونوراً من نور، وجلالاً من جلال، وقدماً من قدم، وأزلاً من أزل الذي مصادره أوجدتهم يا ليتهم يعرفون مصادر القهريات التي نقضتهم إلى ميادين الغفلة؛ فإنهم لو يبصرون معادن فطرتهم لا يخالفون ما يصدر من معادن اللطفيات، فإن جميع المصادر الأزلية واحدة من جميع الوجوه.

قال أبو بكر بن طاهر: يتبين في شواهد المعرضين عنا آثار الوحشة وظلمة المخالفة؛ لأن الظواهر إنما أشرقت بالسرائر، والسرائر أشرقت بأنوار الحق؛ فمن كان سره في ظلمة وإنكار كيف يلوح آثار الأنوار على شاهده، وكل شاهد، شاهد الأعراض والأكوان هو في ظلمة حتى شاهد الحق، ولا يشاهد معه غيره إذ ذلك يلوح عليه أنوار مشاهدة الحق، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّتِي كَفَرُوا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٦٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٦٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ بين الله سبحانه ذل الخليقة تحت قهر سلطانه وعظمة كبرياء قدمه لئلا يقبل على معدن الضعف، وذل من يطلب العز السرمدي؛ فإن الخليقة ممنوعة عن قوة قادريه أحدية، وكيف يكون لها مشيئة وقدره وجميعها في قبضة الجبروت عاجزة أسيرة لعزته، وجلاله، دعا الخلق بنعت الإقبال إليه بلسان الغيرة عن الإقبال على معادن الحديثة ليكونوا عارفين بعز الربوبية وذل الخليقة.

قال ابن عطاء: دهم بهذا على مقاديرهم؛ فمن كان أشد هيبة، وأعظم ملكاً لا يمكنه الاحتراز من أهون الخلق وأضعفه؛ ليعلم بذلك عجزه وضعفه وعبوديته وذلته، ولا يفتخر على أبناء جنسه من بني آدم بما يملكه من الدنيا.

قال أبو بكر بن طاهر: «ضعف الطالب» أن يدركه، والمطلوب أن يفوته.

ثم بين سبحانه بعد ذكره عجز الخلق والخليقة جلال قدرة الذي لا يعرفه غيره بقوله:

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أزال المخائيل والأوهام والعقول عن إدراك جلاله وقدره، وهذا شكايه الله عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ذكر غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية، ألا ترى كيف قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

قال الواسطي: لا يعرف قدر الحق إلا الحق، وكيف يقدر قدره أحد وقد عجز عن معرفة قدر الوسائط والرسل والأولياء والصديقين، ومعرفة قدرة ألا تلتفت عنه إلى غيره، ولا تغفل عن ذكره، ولا تغتر عن طاعته إذ ذاك عرفت ظاهر قدره، وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدرها إلا هو.

ثم بين سبحانه أنه اصطفى من الملائكة، ومن الناس رسلاً يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته بقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ أَلَمَلِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ﴾، الملائكة وسائط الأنبياء والأنبياء وسائط العموم والأولياء للأولياء خالصة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا خبر عن مقام المكاشفة في المراقبة أي: إذا شاهدتم مشاهدة الكبرياء اركعوا، وإذا شاهدتم مشاهدة العظمة اسجدوا، وإذا شاهدتم جمال ربوبيته افنوا في العبودية: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ تخبرون عن هذه المقامات طلاب معرفتي ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بي عني، وتظفرون بعد فنائكم في ببقائكم مع بقائي.

قال ابن عطاء: اركعوا واسجدوا واخضعوا وانقادوا لأوامره وسلموا لقضائه وقدره تكونوا من خالص عبادته، وافعلوا الخير ابتغاء الوسيلة لعلكم تفلحون أي: لعلكم تجدون الطريق إليه، ثم أمرهم بحق الجهاد لوجدان حقيقة المعاد، والرجوع إلى المراد؛ لأن ما أمرهم بالركوع والسجود على مقادير العبودية، وطلب حق الربوبية في العبودية منهم بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ لا تظن أن هذا الأمر أمر مستحيل من حيث عجز الخلق عن درك إدراك حقيقته، إنما أراد بهذا الأمر فناء الخليقة في الحقيقة، وهذا ممكن خاصة أنه

أخبر تعالى أنهم بذلك مصطفون بقوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾ أي: هو اجتباكم بالفناء في بقائه حين ينكشف أنوار شمس القدم لأهل العدم، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: أفنوا في الله حق الفناء بحيث لا ترون فناءكم في بقائه بل ترون وجوده بوجوده لا بوجودكم؛ لأن هذه الاجتنابية الأزلية يقتضي لكم مشاهدته، ومشاهدته يقتضي لكم فناءكم فيه، ثم بين أن في هذا الطريق المبارك، والدين الشريف لم يكن حرج، وتكليف ما لا يطاق بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إذا شاهدتم مشاهدة جمال سهل عليكم فناءكم في جلالي؛ لأن من عابني عشقني، وطاب عيشه معي، وسهل عليه بذل مهجته إليّ لأن هذا مقام العاشقين الرامقين المحبين مثل الخليل والحبيب والكليم^(١).

ألا ترى كيف قال: ﴿مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ملة أبيكم العشق والمحبة والخلة والاستسلام والانقياد، وبذل الوجود بنعت السخاء والكرم يا أسباط خليلي رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم قبل وجودكم بنور النبوة بقوله: ﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ سماكم متقادين، وبين يدي عارفين بوحدانيتي، وفيما ذكرنا من أوصافكم حبيبي شاهد عليكم عندي، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلغكم ونشر فضائلي عليكم.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأنكم تعرفونهم فيما هم فيه وأن رسلكم قد بلغهم رسالاتي التي سبب نجاتهم، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكراً لنعمته وحداً لأفضاله أي: اطلبوني في مقام مناجاتكم في الصلاة، وادخلوا بهمتكم فيها؛ فإنها

(١) تلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليُخْطَطْ رِجْلُهُ بساحات العبادة فإذا عَدِمَ اللطائف في سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام الحقيقة فليخلق بأداب الشريعة، وإن لم يتخرج عن تَرْكِهِ الفضيلة فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة. تفسير القشيري. (٨٩/٢).

حصتي، وكونوا بنعت التجريد عن الدنيا، وما فيها في بذل أنفسكم إليّ، وفي هذه المعاملات الشريفة اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا بي لأقويكم في طاعتي ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانَكُمْ﴾ حبيكم وناصركم في الأزل ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ حيث لا مولى غيره ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ حيث لا يخلد من نصره بأن نصره عزيز ممتنع من نقائص النقص.

قال جعفر: حق المجاهدة على القلب فإن النفس لا يقوم بحق المجاهدة، وحق المجاهدة ألا يختار عليه شيئاً كما لم يجرى عليكم بقوله: ﴿هُوَ أَحَبُّنَكُمْ﴾ قال بعضهم: المجاهدة على ضروب مجاهدة مع أعداء الله، ومجاهدة مع الشياطين، وأشدّها المجاهدة مع النفس، وهو الجهاد في الله، وهو الذي روي عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١)، وهو مجاهدة النفس، وحملها على اتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقال ابن عطاء: الاجتباءية أورثت المجاهدة لا المجاهدة أورثت الاجتباءية.

وقال أيضاً: «ملة إبراهيم»: هو السخاء والبذل والأخلاق، والخروج من النفس والأهل والمال والولد.

وقال أيضاً: في قوله: ﴿هُوَ سَمِعَكُمْ الْمُتَسْلِمِينَ﴾: زينكم بزيينة الخواص قبل أن أوجدكم؛ لأنكم في القدرة عند الإيجاد كما كنتم قبل الإيجاد سبق لكم من الله الخصوصية في أزله.

وقال النوري: الاعتصام بالله للخواص، والاعتصام بحبل الله للعوام، والاعتصام بحبل الله هو التمسك بالأوامر على السنن، والاعتصام بالله هو حفظ القلب، والسر عما يشغل عنه، والاشتغال بمراقبته، والإقبال عليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي: هو الذي يغنيكم به إن أقبلتم على الاعتصام.

وقال جعفر: نعم المعين لمن استعان به، ونعم النصير لمن استنصره.



سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾
إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لَأَمْسِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَى صَلَواتِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فاز بالله العارفون بمشاهدته عن حجة الذين أجابوا الله
من العدم بخطاب القدم، وشاهدوا القدم بالقدم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾
هم الذين قاموا لله بالله بنعت الهيبة في مشاهدة عظمة الله في مقام المناجاة مع الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ عن لغو شياطين الإنس والجن وهو وهواجس النفوس، وكل
ما سرى ذكر حبيبهم، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كان من طباع العارفين ألا يلتفتوا من حيث طبيعتهم
إلى شيء يقتضي اللهو واللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ باذلون الأرواح والأشباح لله
وفي الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ساترون عورات أسرارهم عن الأغيار
﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ إلا على أهل القصة والنحلة ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ من أفشى سر الحق عنه غير أهله؛ فقد تجاوز حد الله؛
فيكون محجوباً عن الله بالله، ومن لم يحافظ نفسه في حركات شهواتها، فيسقط في هاوية الغفلة
بغلبة الشهوة في قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَأَمْسِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الروح والقلب
والعقل والسر، وما معهن من كشف أحكام الغيب من الإيثار والبرهان والإيقان والعرفان
أمانة الله الغيبة، ومراعاتي بدفع الخطرات عنها، ورياضة النفس عندها؛ فهو من شعار أهل
الله الذين عاهدوا الله في سماع خطابه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم به يستقيمون في

طاعته ومرافقته وخدمته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿١٠﴾ محافظتهم عليها حفظ قلوبهم عن الوسوس عند جريان صفاء المواصله وحلاوة المدانة والاستقامة في المناجاة.

ثم وصف هؤلاء الموصوفين بهذه الأحوال الشريفة، والدرجة الرفيعة، والمعاملات الزكية بأنهم ورثوا علم مشاهدة الله في بساتين غيبه، وحجال ملكوته، ورثوا قربة وصاله، ثم ورثوا منها مواليد حقائقها من هذه الأعمال والأحوال، وأمثالها من خواص العبودية في مشاهدة الربوبية بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴿١٢﴾ ورثوا من فيض الله معرفة الله حين عاينوا الله في عهد الأزل، ويرثون بها مشاهدة الله إلى الأبد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾: وصلوا إلى المحل الأعلى والقربة والسعادة، وأفلق من كان مصدقاً لله بوعد.

قال أحمد بن عاصم: قال الأنطاكي: المؤمن من يكون بضاعته مولا، بغبضته دنياه، وحببيه عقباه، وزاده تقواه، ومجلسه ذكراه.

وقال القاسم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿١٤﴾: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة.

وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم.

وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهمهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو همهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر.

قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه.

قال يوسف بن الحسين: كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

قال جعفر في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٥﴾: عن الكون وما فيه متجردون، ولربهم منفردون.

وقال بعضهم: اللغو ما يشغلك عن الحق.

وقال أبو عثمان: كل شيء للنفس فيه حظ؛ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كل ما سوى ذكر الله؛ فهو لغو.

قال ابن عطاء: كل ما سوى الله؛ فهو لغو.

قال محمد بن الفضل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها بأمر؛ فأمانة العين الغض عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل المشي إلى الطاعات، والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم ألا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليدين ألا تمدها إلى حرام، ولا تمسكها عن الأمر بالمعروف، وأمانة القلب مراعاة الحق على دوام الأوقات حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حليف: الأمانة حفظ حدود الله، والوقوف على ما أوجب من لفظ «بلى».

وقال ابن عطاء: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ تَحَافِظُونَ﴾: المحافظة عليها هو حفظ السر فيها مع الله، وهو ألا يختلج فيها شيء سوى الله.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾: الذين يصلون إلى موارث أعمالهم من رياضاتهم.

قال بعضهم: الفردوس ميراث الأعمال، ومجالسة الحق ميراث رؤية الفضل والنعماء. قال الأستاذ في وصف الإيثار: ابتساط الحق في السريرة، وخمارة التصديق خلاصة القلب، واستمكان التحقيق من تأمير الفؤاد.

وقال: الخشوع في الصلاة إطراق السر على بساط التجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والامتحان عند غلبات التجلي^(١).

وقال في قوله: ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ما يشغل عن الله؛ فهو سهو، وما ليس لله؛ فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله أو مقول مع الله؛ فهو لغو، وما فيه حظاً للبعد؛ فهو لغو.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ

(١) أي: الأحقاء بأن يُسَمَّوا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرامتها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (٤ / ١٧٠).

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعْمُوثُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُنْعَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوَاقِكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمِنَ الْغَيْبِ غَيْفَيْنِ ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ تَحْيِيلِ وَأَعْنَسَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاقِكُمْ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْكَالِينِ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَعَهُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقْرَبُوسًا مِنْ رَبِّهِ حِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾ لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضاً، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فلزل العرش، ثم تزلزل الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرفت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجري عرقها، وصار بحوراً؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضاً من هيبه عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثرت تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدتها وروحها فوقها، فيست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلعت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة محاض الكون.

ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحتها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاير أنوار

الصفات؛ فمطر عليها وببل بحر الألوهية، وخرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصباح مشارق شمس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات.

فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»^(١)، وكان الملك معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرة، وألقى عليه سبأاً من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركهما بسر سره، وذلك السر شهوتهما التي أورث فيهما تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

ثم تجلى لها في قرار رحم الفعل بالهبة والعزة؛ فصارت ملونة بلون حسن الفعل الذي هو مرآة تجلي الجمال، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (٢) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً؛ فلما أذابها في كبر العشق بنفخ المحبة، وصبغها بصبغ المودة صوغها في بوتقة الفطرة ذهباً لنقش نقوش خاتم الملك، وألقاها في مشرق كشف شمس الربوبية حتى نضجت بنيران المحبة، وصارت سبيكة من لطف التجلي، وهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقْنَا أَلْعَلَّةَ مُضْغَةً﴾ ثم صيرها سواقي بحار دماء الطبيعة، وجعل سواقيها عروق مشارب الفطرة، فتحركت من غلبتها؛ فغرس فيها الحق أشجار فعله حتى سكن بناؤها باستوائه قدرته بقوله: ﴿فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾.

ثم خلعها خلعة مزيد فيض النظر في زمان التربية بقوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ ثم تركها في ضياء فعله ونور تجلي قدرته ليكمل استعدادها قبول نقش الملك فنقشها بنقش سر العلم بصورة آدم، ثم زين وجهها بزينة نور جماله، وصورها بصورة روح فعله وكلها برحمته،

(١) رواه البخاري (٥٨٤٣)، ومسلم (٢٦١١).

وجعل قلبها مجامع الأخلاق، وكيد وكبدها مجامع الطبائع ودماعها منوراً بنور عقل؛ فلما كساها نور خلقه وكملها بقدرته، وأدخلها روحه فصار آدم ثانياً مواضع كنوز ربوبيته وحقائق قدرته وعلمه، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

ثم نزه نفسه عن المشابهة بالحدثان والتغاير بتغاير الزمان والمكان بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١﴾ قدس جلاله عن الإبعاض والتجزؤ والتمثيل والتصوير ما أحسن صنعته وقدرته عين جاء أبناء آدم عالماً، وجعل في آدم ما في جميع العالم.
وقال الحسين: الخلق متفاوتون في منازلهم، ومقامات خلقهم وصفاتهم، وقد كرم الله بني آدم بصورة الملك والملكوت وروح النور ونور المعرفة والعلم، وفضلهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

وقال أيضاً: خلق بني آدم بين الأمر والثواب وبين الظلمة والنور فعدل خلقهم وزاد المؤمنين بإيمانهم نوراً مبيناً وهدى وعلماً، وفضلهم على سائر العالمين، كما نقلهم في بدء خلقهم من حال إلى حال؛ فأظهر فيهم الفطرة والإياب وتكامل فيهم الصنع والحكمة والبيئات، وتظاهر عليهم الروح والنور والسبحات من كانوا تراباً ونطفة وعلقة ومضغة ثم جعله خلقاً سوياً إلى أن كملت فيهم المعرفة الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال الحسين: خلق الخلق فاعتد بها على أربعة أصول الربع الأعلى الهية والربع الآخر آثار الربوبية والربع الآخر النورية بين فيها التدبير والمشيئة والعلم والمعرفة والفهم والفتنة والفراصة والإدراك والتمييز ولغات الكلام والربع الآخر الحركة والسكون كذلك خلقه فسواه.

وقال أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: فطر الأشياء بقدرته ودبرها بلطيف صنعته، فأبدى آدم كما شاء بها شاء، وأخرج منه ذرية على النعت الذي وصف من مضغة وعلقة، وبديع خلقه، وأوجب لنفسه عند خلقته اسم الخالق، وعند صنعته الصانع لم يحدثوا له اسماً كان موصوفاً بالقدرة على إبداء الخلق؛ فلما أبدأها أظهر اسمه الخالق للمخلوق، وأبرزه لهم، وكان هذا الاسم مكتوناً لديه مدعوّاً به في أزله سمي بذلك نفسه، ودعا نفسه به، فالخلق جميعاً عن إدراك وصف قدرته عاجزون، وكل ما وصف الله به نفسه فهو له، وهو أعز وأجل أظهر للخلق من نعوته ما يطيقونه، ويليق بهم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ثم إن الله سبحانه بعد وصف الخلق والخلق آدم والذرية أعلمنا محل فئتنا عن هذه الأوصاف الكاملة والصنائع الشريفة لتربية أخرى في التراب، وإظهار زيادة قدرة فينا بإدخال حياة ثانية في أشباحنا وتربية ثانية في أرواحنا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّا نَكْرِ بَعْدَ ذَلِكَ لَعَمْرُنَا﴾ الموت يتعلق بصعقة سطوات العزة، وظهور أنوار العظمة، وحياتنا تتعلق بكشف جمال الأزلي، هنالك تعيش الأرواح والأشباح بحياة وصالية لا يجري بعدها موت الفراق.

قال الحسين: ملك الموت هو موكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم، وموت العلماء هو بقاؤهم إلا أنه استار عن الأبصار، وموت المطيعين المعصية إذا عرف من عصاه.

وقال بعضهم: من مات من الدنيا خرج إلى حياة الآخرة، ومن مات من الآخرة خرج منها إلى الحياة الأصلية، وهو البقاء مع الله.

ثم بين سبحانه وصف أعلام قدرته، وعجائب صنوف صنعه في خلقه من سماواته وما فيها من طرقها إلى عالم ملكوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة، وتلك الطرائق: طريق الروح إلى معادن الربوبية وعرفاتها بالحقيقة، فمنها طريق العقل، ومنها طريق العلم، ومنها طريق الحكمة، ومنها طريق المعاملة، ومنها طريق النفس، ومنها طريق القلب، ومنها طريق السر، وطريق العقل التفكير في الآلاء والنعماء، وطريق العلم معرفة الخطاب بطريق الحكمة المعرفة بحقيقة الأشياء، وطريق المعاملة تحصيل ذوقها وصفاتها باستعمال الآداب، وطريق النفس قطعها عن حظوظها والمعرفة بمكائدها وأخلاقها، وطريق القلب المعرفة بنazالات لطائف الغيب فيه، وطريق السر معرفة اتصالها بنور الحضرة.

فمن قطع هذه الطرق يصل إلى سبع الصفات، ورويتها والعلم بها حتى يصل إلى بحار الذات، واستغرق فيها بنعت الحيرة، فإذا استغاث من حيرته به أدركه بفيض المعرفة والوصلة، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ظاهر الآية تنبيه يوجب الإجلال والتعظيم في منازل المراقبات؛ فمن بقي في هذه الحجب السماوية والأرضية وارتهن بشيء منها، فقد انقطع عن مواصلة المشاهدة.

قال أبو يزيد في هذه الآية: إن لم تعرف؛ فقد عرفك، وإن لم تصل إليه؛ فقد وصل إليك، وإن غبت أو غفلت عنه؛ فليس عنك بغائب ولا غافل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ

الْخَلْقُ غَفِيلِينَ ﴿٥٧﴾

وقال بعضهم: سبع حجب متصلة تحجبه عن ربه، فالحجاب الأول: عقله، والحجاب الثاني: علمه، والحجاب الثالث: قلبه، والحجاب الرابع: حسه، والحجاب الخامس: نفسه، والحجاب السادس: إرادته، والحجاب السابع: مشيئته؛ فالعقل باشتغاله بتدبير الدنيا، والعلم لمباهاته مع الأقران، والقلب الغفلة والحواس لإغفالها عن موارد الأمور عليها والنفس؛ لأنها مأوى كل بلية، والإرادة وهي إرادة الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والمشيئة وهي ملازمة الذنوب.

وقال الأستاذ: فوقنا حجب ظاهرة وباطنة؛ ففي ظاهر السماوات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وغطاء كالمنية والشهوة والإرادة الشاغلة والغفلات المتركمة، أما المريدون إذا أظلمتهم سحائب الفترة سكن هيجان إرادتهم، فذلك من الطرائق التي علتهم، وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عروق الرغبة نفذ قوة زهدهم وضعف دعائم صبرهم فيترخصون بالجنوح إلى بعض التأويلات فيعود رغباتهم قليلاً قليلاً، ويحيل رتبة عروقتهم، وتنهد دعائم زهدهم، فبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون فربما تظلمهم في بعض أحيانهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق؛ فيصيرون موقوفين ريثما ما يتفضل الحق سبحانه بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق في جميع هذا الحق سبحانه غير تارك للعبد، ولا عن الحق غافل قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أنزل من سموات القيومية مياه أنوار المعرفة بقدر قوى الأرواح القدسية، وأسكنها في أماكن قلوب العارفين فتجرى على عرضاتها، وتنبت أشجار الحقائق وأزهار الدقائق وياسمين المودة وورد المحبة ونرجس السعادة، وينفسج الكفاية بقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ رِيْعًا جَنَّتْ مِنْ تَحْتِهِ الْأَعْنَابُ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وتنبت على سيناء العقل شجرة الإيمان التي تنبت ثمرة الإيقان التي دهنها وصبغها حقيقة التوحيد والعرفان، قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْفَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْكَالِينَ﴾.

قال الأستاذ ^(١): ماءً هو صوب الرحمة يزيل به درن العصاة وآثار زلتهم، وغبار

عشرتهم، وماء هو يسقي قلوبهم يزيل به عطش كيدهم، ويحيي به أموات أحوالهم، فنبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف أنوار الروح وماء هو شراب المحبة فيخضر به قلوب بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكر به قلوباً فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر والخطر بذل الروح، فإذا شربوا طربوا، وإذا طربوا لم يُبالوا بما وهبوا^(١).
 ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا لَهُ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاتَيْنَ وَاهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١٠١﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أمر الله سبحانه نبيه نوحاً عليه السلام أن يصنع أعماله جميعاً على وصف المراقبة والملاحظة حتى يكون محفوظاً بعصمته عن طريان القهر.

قال الجنيد: من عامل على المشاهدة أورثه الله عليه الرضا.

قال الله: ﴿اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١٠٥﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٠٨﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْماً أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿١٠٩﴾ * هَتَاتَ هَتَاتٍ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿١١٠﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١١١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

(١) (وصيغ للكلين) أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً وهناً، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَأَحْذَرْنَاهُمُ
الْصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَجَلْنَهُمْ عَثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٠٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴿١٠٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ
﴿١٠٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿١٠٧﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ مِنْ بَشَرَيْنِ
مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿١٠٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا﴾ أي: أنزلني منزل مشاهدتك حتى
أصل بركة وصالك، وأفوز برؤية جمالك وجلالك^(١).

قال ابن عطاء: أكثر المنازل بركة منزل تسلم فيه من هواجس النفس ووساوس
الشیطان وموبقات الهوى، وتصل فيه إلى محل القرية منازل القدس، وسلامة القلب من
الاهواء والبدع.

وقال الأستاذ: الإنزال المبارك أن يكون بالله، والله على شهود الله من غير غفلة عن
الله، ولا مخالفة لأمر الله^(٢).

(١) قوله: منزلًا مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهي السفينة النوحية
هاهنا؛ لأن الخطاب لنوح عليه السلام، فكانت السفينة منزلًا مباركًا له، ولكن معه من المؤمنين حيث نجوا منها
من الطوفان، كما أن البر كان منزلًا غير مبارك لمن عصاه من المشركين حيث أغرقوا من فيه بالطوفان،
وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منزلًا مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا،
والإبقاء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا عظيمًا، وهلاكًا صرفًا، فكما أن
دخول السفينة كان خيرًا عظيمًا؛ لكونه امتثالًا لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله
مفعولًا؛ فكانت الأرض أيضًا منزلًا مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ائْلَعِي مَاءَكُمْ﴾ (هود: ٤٤)؛
لأنها مع الماء المستوعب لا يفتنع بها، ولما كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعوا نبينا ﷺ بهذا
الدعاء لنزله الله المنزل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت
مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكل منها منزل مبارك لمن أراد
أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

(٢) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن

﴿وَجَعَلْنَا آتَنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رَتْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٩٦﴾﴾
يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آتَنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رَتْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ جعل الله عيسى وأمه مشكاتي أنوار قدسه، ومرآتي تجلي جلاله وجماله لبصراء الصديقين ونظار المقربين وآواهما إلى ربوة تلال مشاهد القدم ذات قرار لأسرار العارفين ومعين سواقي بحار الكرم التي شرباتها تحيي الأسرار من موت الفناء، وتبلغها إلى حياة البقاء.

ثم خاطب روحه وكلمته باسم الجمع؛ لأنه كان مجامع أخلاق جميع الأنبياء والرسل، ويمكن أن هذا خطاب مع سيد الرسل محمد المصطفى ﷺ، وهو أليق بذلك؛ لأنه بحر الله ينشق منها أنهار الأنبياء والرسل.

ثم أمره بأكل الحلال بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الإشارة إلى خوان دنا فتلى ومشاهدة الأعلى بين كان قاب قوسين أو أدنى جلال مشاهدته ووصال جماله جلال للعارفين، حيث لا يدخل فيه علة الحرمان، ولا فيه مخائيل الشيطان؛ فطلب منه بعد أكل موائد المشاهدة العمل الصالح، وهو التبري من الحداث، وتلاشي النفس بنعت المعرفة في جمال الألوهية بقوله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فلما دنا من قرب القرب، ووصل إلى سر السر فرد القدم عن علة الحدث بقوله ﷺ:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١) أكل عيسى من ربوة المشاهدة مائدة القربة، فلما رأى سطوات الديمومية شملت وجوده أفنى نفسه لثبوت العمل الصالح

الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلقاً به تعلق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركاً؛ لأن الروح إنما يترقى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمساعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائهم ويقاعهم من المنازل المباركة أيضاً، فَبَنَ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى للنزول فيها، والتردد إليها عُذْوًا ورواحاً؛ كان عبداً مباركاً نافعا للعالمين، فطوبى لِمَن تَشَرَّفَ بهذا الشرف العظيم، ووبلَّ لِمَن وقع في الذلل والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمناً من برد الطمع، وحر الشهوة، سالماً من آفات الشكوك والظنون، متصفاً بالصفات الإبراهيمية، والمحمدية، وسائر الكَمَلِ النادر.

عن إدراك عزته بشرط الحقيقة بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال سهل: الطيبات الجلال، والصالحات من الأعمال آداب الأمر بالفرض والسنة، واجتناب النهي باطنًا وظاهرًا.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٢١٦)

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ملة المحبة والمعرفة المفردة عن شوائب الطبيعة مقرونة بنور الإسلام والإيمان لمن تابع المصطفى بنعت الأسوة والقدوة في جميع المعاملات والأحوال.

قال القاسم: أي: تفردت بشرف محمد ﷺ ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ مني شرف محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ (٢١٦) أي: لا تقطعوا عني بشيء سواي، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: شاهدي وبوصف إجلال جلالي وخوف عظمتي؛ فأنا ربكم أريكم بحسن وصالي، ومعاشره صحبتي.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢١٧) فذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٢١٨).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢١٧) هذا إشارة تغيير لأهل المعاملات فشكا عنهم سبحانه أنهم يفرحون بمعاملاتهم، ورؤية أعواضها، وأضاف العلة إليهم؛ لأن أعمالهم التي لديهم صفات الحدثانية، ولا ينبغي للعارفين أن يفرحوا بها دون الله من العرش إلى الثرى، فالفرح الحقيقي ما صدر من شهود مشاهدة جلاله للأرواح القدسية الملكوتية فتفرح بوصاله، وروح جماله أبدًا في محل الأفراح.

ويا لبيب انهم كلامي؛ فإن العارف الصادق إذا استغرق في بحار المعرفة فهمومه أكثر من فرحه؛ لأن الفرح بها وجد من الله من قرينة على قدر حاله، وما بقي عنه؛ فهو غير محدود، فإذا كان بها وجد محجوبًا عن الكل، فما معنى الفرح بمقام واحد، والوقوف علة يججب بها الأكثرون، فبقي العارف من بحر المومم أبدًا؛ لأن إدراكه قاصر عن البلوغ إلى عزة جلاله إذ جلاله منزه عن درك المدركين، وإحاطة عرفان العارفين تعالى الله عن كل وهم وفهم.

قال بعضهم: ربط كل أحد بحظه في سعياته وحركاته، والسعيد من جذب عن حظه،

ورد إلى حظ الحق فيه.

وقال الواسطي: الواقفون مع العارف على مقدار تأثير أنوار الحق فيهم لا على قدر حركتهم وسعيهم؛ لأنه ليس أحد يصل إلى معروفة بجهد ولا اجتهدا، ومن ظن أن شيئا من أفعاله يوصله إلى مولاه؛ فقد ظن باطلاً فسبق العناية بصون الأشباح والأرواح وبوصل أهل معرفته إليه، فمن اعتمد غير ذلك؛ فقد سكن إلى غرور وفرح بالأمانى وهو قوله: ﴿كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ﴾ كيف يفرح بما لديه، وليس يعلم ما سبق له في محتوم العلم^(١).

﴿أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِرَبِّهِمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِقِيَامَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۚ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۚ وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا مِكْتَبٌ بِالنَّحْيِ ۚ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ۚ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا ۚ وَهُمْ أَعمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ۚ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ ۚ لَا تَخْفَرُوا الْيَوْمَ ۚ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ۚ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۚ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ۚ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ ۚ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۚ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ۚ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرَهُونَ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِرَبِّهِمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ﴾

(١) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فاللقاء عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو بمن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لا سببا إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

إن الله سبحانه امتحن الممتحنين بزيينة الدنيا ولذاتها وجاهها ومالها وخيراتها ليقطعوا طرق الامتحان، وحرّموا إلى مشاهدة الرحمن فاستلذوها، واحتجبوا بها ظنوا أنها مآل جميع الراحة، وأنهم مقبولون حين أعطوا هذه المقامات، ولم يعلموا أنها استدراج لا منهاج، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال عبد العزيز المكي: من تزين بزيينة فانية؛ فتلذت الزينة تكون وبالاً عليه إلا من تزين بها يبقى من الطاعات والمواقفات والمجاهدات، فإن الأنفس فانية والأموال عوار، والأولاد فتنة، فمن يسارع في جمعها وحفظها، وتعلق القلب بها قطعته عن الخيرات أجمع، وما عند الله بطاعة أفضل من مخالفة النفس، والتقلل من الدنيا، وقطع القلب عنها؛ لأن المسارعة في الخيرات هو اجتناب الشرور، وأول الشرور حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان فمن طلبها وعمرها؛ فهو حرّاه وعبد له وشر من الشيطان من يقين الشيطان على عماره دار، وقال الله: ﴿أَتَحْسِبُونَ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف الصادقين بالخشية والخوف والإيمان والتوحيد واليقين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَّةٍ رَّبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الذين هم متعظمون عظمتهم وجلاله بعد كونهم معانين رؤيته ومشاهدته خائفين من المجران والاحتجاب بشيء من الحداث، ثم قال تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِقَائِمَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون أنها مشاهد مشاهدة قدسية وظهور صفاته وذاته.

ثم وصفهم بأنهم لا يؤثرون عليه شيئاً من الحوادث بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا يلتفتون في طاعته إلى غيره، ولا ينظرون منه إلى أنفسهم، وحفظها من الكونين.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: الذين سافروا سفر العبودية بحقائقها، وشاهدوا جمال الربوبية وأنوارها بنعت الخجل والوجل لعلمهم بأن ما آتوا من الطاعات وبذل المهج والموجودات في رؤية كبريائه وجلاله مع طاعات جميع المخلوقات أقل من ذرة، ووجل قلوبهم من صوله تحجب العظمة لها قلوبهم في الغيوب جوالة وأرواحهم في الملكوت والجبروت طيّارة، وأسرارهم في ميادين تحجب الصفات والذات فانية.

ثم وصفهم بالتسارع إلى الخيرات بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٤) ﴿لطلب مرضاته ووصولهم إلى مشاهداته، وهم في ذلك سابقون في الأزل من الله بالسعادات الأولية والآخرة.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٤) ﴿: الإشفاق والخشية اسمان باطنان وهما عملان من أعمال القلب والخشية سر في القلب خفي والإشفاق من الخشية أخفى. قيل: الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يديه، ومن بعد هذه المرتبة الإشفاق، والإشفاق أرق من الخشية وألطف، والخشية أرق من الخوف، والخوف أرق من الرهبة، ولكل منها صفة ومكان وأدب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِقَائِمَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) ﴿: مطالعة الكون بأبصار القلوب، فتعلم أنها في حدّ الفناء، وما كان بين طرفي فناء؛ فهو فان فيؤمنون بالحق يفتح أبصار قلوبهم بالنظر إلى المغيبات.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٦) ﴿: من فتش سره فرأى فيه شيئاً أعظم من ربه أو أجل منه؛ فقد أشرك به، إذ جعل له مثلاً.

قال الواسطي: الخائف الرجل من لا يشهد حظه بحال.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب تصحيحها، والإخلاص والصدق فيها؛ لذلك قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا... الآية﴾.

وقال أبو الحسن الوراق في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٤) ﴿: ذلك بما تقدم من الآيات بالمسارعة إلى الخيرات يبتغي درجة السابقين، ويطلب مكارم الواصلين لا بالدعاوى والإمهال، وتضييع الأوقات، من أراد الوصول على المقامات من غير آداب ورياضات ومجاهدات؛ فقد خاب وخسر وحرم الوصول إليها بحال. وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (٢٤) ﴿: الراغبون في رضا المولى.

حكى عن الشبلي أنه قال: وصفهم بالإشفاق والخشية، وذلك حين رفعهم مولاهم إلى منازل اليقين حتى وصلوا من علم اليقين إلى عين اليقين، وشربوا من عين اليقين بكأس

اليقين؛ فشاهدوا في مقام عين اليقين، وارتفع عن قلوبهم كل شك، ورب ثم نقلهم من تلك المقامات كلها إلى منازل الخوف، فنازلوا الإشفاق والحذر والحشية، فوجلت قلوبهم من تلوين الأحوال عليهم، وهم من خشية ربهم مشفقون.

وقال النهرجوري: هم القائمون مع الله من حيث قام لهم، ومن حيث يرون قيام الله لهم؛ فهم في أحوالهم مشفقون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أن الله سبحانه خلق النفوس الروحانية من عالم الملكوت، وهي صدرت من فيض لطف صفاته؛ فهي تحمل أمانات معرفة ربوبيته، وهي تطيق حمل ما رد تجلي الذات والصفات إذ هي محمولة بمطايا أنوار العناية والكفاية، وخلق النفوس الإنسانية من عالم أنوار الفعل، وهي صدرت من تواتر سلطان قهر القدم، وهي مجبولة لحمل أثقال العبودية إذ هي محمولة بمطية ذلك القهر؛ فكانت النفوس مطايا حمل الربوبية والعبودية، وهي تسعها به لا بها.

لذلك قال عليه السلام حاكياً عن الله تعالى: لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن^(١)؛ فإذا جاءت نعت الإشفاق إلى مشاهدة الذات والصفات، ونبعت العجز عن مقابلة الجبروت، وعجزها عن حمل عزة الملكوت، خرسست عن الأعداء يعتذر صانعها بنطق أزلي بأنها صادرة من الحدثان غير مخلوقة لحمل أصل القدم، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يشهد لها لا عليها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢) بأن القدم بوصف القدم يكون حملها بل يكون حملها على قدر وسعها.

قال الجريري: لم يكلف الله العباد بمعرفته على قدره، وإنما كلفهم على أقدارهم، فقال: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولو كلفهم على قدره ومقداره لجهلوه وما عرفوه؛ لأنه لا يعرف قدره أحد سواه، ولا يعرفه على الحقيقة سواه، وإنما ألقى إلى الخلق منها اسماً ورسماً إكراماً منه لهم بذلك، وأما المعرفة؛ فلإنها التحير والتهوية.

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَإِنْ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٢٥٥).

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَسْكُوبَنَّ ۖ ﴿٢١﴾ وَلَوْ رَجَعْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا
 بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
 لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
 مُبْتَلِسُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾
 وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّـۙ وَيُمْيْتُ وَلَهُ
 أَحْصَىٰ الْبَلَدَ وَالنَّهَارَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٢٨﴾
 قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٢٩﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا
 هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِجِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٤﴾
 قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾
 قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَتَيْنَهُمُ الْهُوَاءُ هُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

ففيهم ۖ افهم أن الله سبحانه البس وصف قهره النفوس الأبية فاستكبرت عند مباشرتها
 القهر الجبروتي، وخرجت بنعت الكبرياء إلى ميادين الربوبية فألقى الحق سلطان عزمة قدمه
 عليها وكسر قرونها بطاعته، ولولا أنه تعالى حبسها في ملازمة قهره لخرت الأرض بفسادها
 وتكبرها، ولم يرتفع طاعة المطيعين إلى السماء، وكيف يكون الصانع القديم بمراد النفوس
 الحديثة إذ جلالة كان منزلها عن محل إرادة كل مريد وحلول كل حادث، أعطائها شرف
 مباشرة ربوبيته فأبّت بحظوظها عن رؤيتها، لذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ
 فَهَمَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ۖ بذكره الأزلي ذكرهم بالعبودية وشرّفهم بالطاعة، فهم
 عن شرف الطاعة معرضون، وأيضا تجلى الحق في لباس القرآن لأهل العرفان، ولم تبصره
 أبصار أهل الطغيان.

قال الواسطي: أول ما كاشف الله خلقه كاشفهم بالمعارف ثم بالوسائل ثم بالسكينة
 ثم بالبصائر؛ فلما عاينوا الحق بالحق فتوا عن كل همة وإرادة.

قال بعضهم: لولا أن الله تعالى أمر بمخالفة النفوس ومبايئتها لاتبع الخلق هواهم في شهوات النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا مخالفتها، ألا ترى الله يقول: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

ثم بيّن سبحانه أن حبيبه صلوات الله عليه يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط المستقيم ما أوضحه أنوار جماله ومشاهدته، وهو طريق معرفته في قلوب الصديقين لأرواح القدسية، وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا لله مع الله، ولم يطلبوا منه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقامًا.

قال بعضهم: لي الإقبال على الله، والإعراض عن سواه، ثم بيّن سبحانه حال المحرومين عن هذه الطريقة المباركة والإيمان بالغيب والآخرة، ووصفهم بالضلالة عن طريق الصواب بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ [آي: الذين لا يشاهدون بقلوبهم أنوار الغيب لناكبون عن متابعتك يا محمد].

قال أبو بكر الوراق: من لم يهتم لأمر معاده ومقبله، وما يظهر عليه في الملاء الأعلى والمشهد الأعظم؛ فهو ضال عن طريقته غير متبع لرشده، وآخر منه حالاً من يهتم لما جرى له في السبق من ربه؛ لأن هذا المصدر فرع لتلك السابقة، قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ...﴾ الآية.

ثم بيّن أن لو كشف لهم حجاب الهجران، ورأوا جمال الرحمن لادعوا من سكرهم في جمال الأنانية بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لو خلصهم عن درك الامتحان، وكشف عنهم ضر الحرمان للجوا في دعاويهم العظيمة التي تفسد الرسوم، ويقوا في طغيان دعاويهم.

قال ابن عطاء: الرحمة من الله على الأرواح المشاهدة، ورحمته على الأسرار المراقبة، ورحمته على القلوب المعرفة، ورحمته على الأبدان آثار الخدمة عليها على سبيل السنة. وقال أبو بكر بن طاهر: كشف الضر هو الخلاص من أمانى النفس، وطول الأمل،

وطلب الرياسة والعلو، وحب الدنيا؛ فإن هذا كله مما يضر بالمؤمن.

قال الواسطي: للعلم طغيان، وهو تفاخر به، وللمال طغيان، وهو البخل، وللعمل والعادة طغيان، وهو الرياء والسמعة، وللنفس طغيان، وهو اتباع شهواتها.

ثم بيّن أنه تعالى ابتلاههم بعذاب الفرقة، ولم يتحسروا بذلك، وما أرادوا الرجوع إليه بنعت التصريح بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٢٠) أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظام غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاها ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

وافهم أن الله سبحانه وقع المريد في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاضوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله.

قال سهل: ما أخلصوا لربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية.

﴿مَا اخْتَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَّاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا يَغْتَضِبُ عَلَى بَعْضِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٢١) عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٢) قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ (٢٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَا مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ (٢٥).

قوله تعالى: ﴿مَا اخْتَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ نزه نفسه سبحانه عن مخايل الزنادقة، وكان منزلها عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته متمتع بكمال أحديته عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذ القدم المنزهة إذا تجلى بنعت القدم

للحدثان صار معدومًا كالعدم تعالى الله عن كل وهم وإشارة.

قال الحسين: الصمدية ممتنة من قبول ما لا يليق بها؛ لأن الصمدية تنافي أضدادها على الأبد، وهي ممتنة عن درك معانيها؛ فكيف تبقى مع أضدادها، وما لا يليق بها^(١).

﴿أَدْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٦﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ دعا حبيبه إلى استعمال خلقه العظيم وظرفه الكريم الذي مستفاد من خلقه حين ألبسه إياه حين اصطفاه على العالمين أي: احتمل بحلمك جفاء الجافين، وراعه طيب الكلام، وحسن السلام، وإعراض الجميل.

قال القاسم: استعمل معهم ما جبلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة؛ فإنك أعظم خطرًا من أن يؤثر فيك ما يظهر منه من أنواع المخالفات.

قال بعضهم: ادفع عنك بأخلاقك جهلهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١٨﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يبين سبحانه أن من كان ساقطًا عن مركب الطاعات لم يصل إلى الدرجات، ومن كان محرومًا عن المراقبات في البدايات كان محجوبًا عن المشاهدات والمعانيات في النهايات، وإن أهل المزخرفات والدعاوى والترهات تمنا في وقت النزاع أن يمض عليهم أوقاتهم بالغفلة عن الطاعات، ولم يتكفوا بالدعاوى والمحالات.

قال أبو عثمان في كتاب له إلى أهل «جرجان»: لو عمل أهل النار عملاً أنجى لهم من طاعة الله وصلاح لما فرغوا في وقت العيان إلا إليه بقولهم: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١٨﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا؛ فأقبل على طاعة مولاك، واجتنب الدعاوى، وإطلاق القول في الأحوال فإن ذلك فتنة عظيمة، هلك في ذلك طائفة من المريدين، وما فرغ أحد إلى تصحيح المعاملات إلا أداه بركة ذلك إلى سني الرتب، ولا ترك أحد هذه الطريقة إلا تعطل.

(١) واعلم إن الأحدية ينافيها ازدواج؛ لتأديته إلى التكثر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأديته إلى الذلة المنافية للالوهية.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١٥) ﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٦) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (١٨) ﴿ أَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنِي تَتْلُو عَلَيْنَا فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٩) .

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ أخبر عن أوائل كشف جلاله وجماله؛ فإذا قاموا على بساط الهيبة، وسرادق الكبرياء والعزة، وعانوا الذات القديم، وهو في مشاهدته مستغرقين في بحار أنوار جماله وجلاله، واشتغلوا بذوقهم في وصاله من وصاله عن مرافقة كل رفيق، ومصادقة كل صديق، وانتسابهم إلى الأخوة والمصاحبة، ولا يتساءلون عند سطوات عظمتهم حالهم بعضهم بعضاً لشغلهم بمعاينة وجوده ونثر جوده؛ فإنهم غائبون في شهودهم مشاهدة قربه ومعاينة قدمه ويقائه فنسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية واصطفائية القدمية، لا يفتخرون بشيء دونه من العرش إلى الثرى.

قال فارس: الأنساب رؤية الأعمال، ورجاء الخلاص بها، ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لا يتذكرون مما جرى عليهم في الدنيا من نعيمها ويؤسها شغلاً بما هم فيه.

قال محمد بن علي الترمذي: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبتها صحيحة في عبودية ربه؛ فإن تلك نسبة لا تنقطع أبداً، وتلك النسبة المفتخر بها لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد^(١).

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (٢٠) ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (٢١) ﴿ قَالَ أَحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (٢٢) ﴿ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢٣) ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (٢٤) .

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (٢٠) أي: غلبت علينا دعاوى الباطلة، والخوض في الطامات والترهات.

قال أبو تراب: الشقوة: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

(١) (فلا أنساب بينهم يومئذ) تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرأة من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنه. البحر المديد - (٤ / ٢٠٦).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ١٥٠ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةٌ سِنِينَ ١٥١ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَتُكْفَلِي الْعَادِينَ ١٥٢ قُلْ إِن لَّيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا ١٥٣ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ١٥٠ جزيتهم بمشاهدتي بما صبروا في طاعتي، واحتياهم جفاء أعدائي؛ فإنهم فائزون من فراقني أبداً، خارجون من عناء الفرقه، وطعن الطاعنين في زمان المحبة.

قال أبو عثمان: ما صبروا حتى أكرموا بالصبر، والصبر حبس النفس عن الشهوات.

قال ابن عطاء: صبروا عن الخلق، وصبروا مع الله.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفائزون: الآمنون من أهوال القيامة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ١٥٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ١٥٦ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ١٥٧ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ١٥٨﴾

قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ١٥٥ غيبرهم بما سكنوا إليه مما وجدوا منه حيث ظنوا أن ما وجدوا منه على حد الكمال فوقوا؛ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ للوقفة عني بشيء مما وجدتم مني ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بنعت الفناء عما وجدتم، وعما سكتكم به عني، ثم عظم جلاله وكبرياه عن إدراكهم، وإن رجعوا إليه به بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ تعالى جلاله عن أن يدركه المدركون، ويلحق بعزته اللاحقون، هو الحق بحقيقته، وحقيقته لا يطلع عليها إلا هو، تلاشت الحدثان في سطوات جلاله حتى أن العرش الكريم مع عظمه صغر في عين نملة من قهر عزته، ومن نظر إلى شيء سواه، وإن كان منه رتبة عظيمة في المعرفة؛ فهو محجوب به عنه بقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

ثم أمر صفي المملكة بعذر عجزه، وتحيره عن درك نعوته الأزلية، وصفاته الأبدية بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ اغفر تقصيري في معرفتك، وارحمي بكشف زيادة المقام

في مشاهدتك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ إذ كل رحمة في الكونين قطرة مستفادة من بحار رحمتك القديمة.

حكى يوسف بن الحسين عن أحمد بن أبي الخواري في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْتَكُمْ﴾: لا يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حق لم تؤده.

وقال الواسطي: أظهر الأكوان ليظهر آثار الولاية على الأولياء، وآثار الشقاء على الأعداء.

وقال في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة.

وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه.

قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا.

وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

سورة النور



فهرس المحتويات

٣.....	سورة التوبة
٦١.....	سورة يونس
١٠٤.....	سورة هود
١٤٥.....	سورة يوسف عليه السلام
٢١٥.....	سورة الرعد
٢٥١.....	سورة إبراهيم
٢٧٣.....	سورة الحجر
٣٠٧.....	سورة النحل
٣٤٦.....	سورة بني إسرائيل
٣٩٢.....	سورة الكهف
٤٤٩.....	سورة مريم
٤٧٢.....	سورة طه
٥٠٩.....	سورة الأنبياء

سورة الحج ٥٣٠

سورة المؤمنون ٥٤٩

فهرس المحتويات ٥٧٣

